



# التراث الصحراوي

## التاريخ والذاكرة





# التراث الصحراوي التاريخ والتماكرة

اعمال ندوة الداخلة الدولية



المجلس الوطني لحقوق الإنسان  
المجلس الوطني لحقوق الإنسان  
Conseil national des droits de l'Homme

رئيس المنشورات  
ادريس اليزمي

مدير النشر  
عبد القادر الرتاني

الإشراف العلمي  
رحال بوبريك

التركيب العيني  
أسماء منير

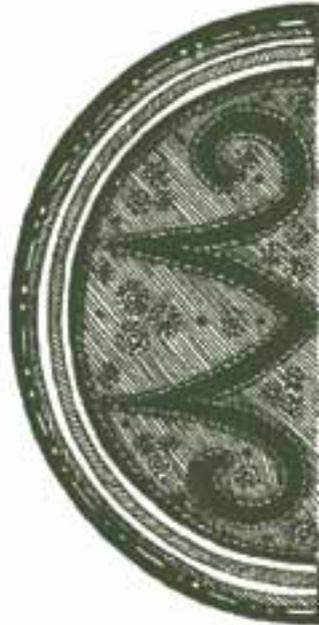
المداخلات  
لائحة المساهمين صفحة 394

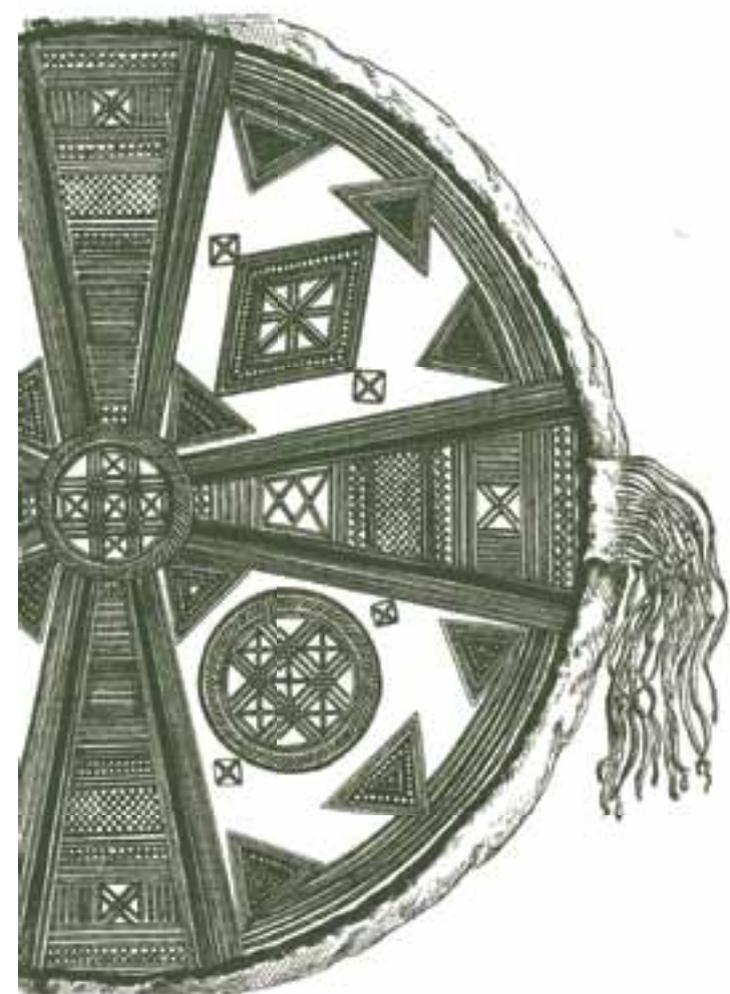
مراجعة  
محمد اثرو

الإيداع القانوني  
2012 MO/0528

رقم  
978-9954-1-0410-1

© المجلس الوطني لحقوق الإنسان  
ساحة الشهداء ص. ب. 100011341 الرباط-المغرب  
الهاتف: 00212 (0) 5 37 72 22 18/17  
الفاكس: 00212 (0) 5 37 72 22 27 / 72 68 56  
cndh@cndh.org.ma  
www.cndh.org.ma  
© دار النشر ملتقى الطرق  
زنقة الصنعاني، بوركثون  
20050 الدار البيضاء، المغرب  
editionslacroiseedeschemins@gmail.com  
www.editionslacroiseedeschemins.ma







# العقرس

## الذاكرة المشتركة والتاريخ

- 25 ذاكرة تاريخية مشتركة  
عبد الرحمن نكايدي
- 47 بين الأسير والباحث  
عبد الكريم مدون
- 67 وصف الداخلة، فيلا سيسنيروس سنة عام 1905  
برنابي لوبيز غارسيا
- 85 كبار الرحل والحدود الاستعمارية  
أحمد جوماني
- 109 جيش التحرير بالصحراء وعملية إيكوفيون  
رجال بويريك
- 131 الخريطة الاولى للصحراء بالقياسات  
خوسي أنطونيو رودريغز استيبان
- 143 قضية الصحراء بين التاريخ والذاكرة  
أنجيلا هرنانديز مورينو
- 159 ABC واسترجاع الصحراء  
يوسف أكدير
- 169 أرض ضائعة: نواذيبو في ذاكرة صيادي لانزاروتي  
ألبرتو لوبيز بركادوس
- 181 الصيد البحري، إسبانيا والصحراء (1945-1982) خيسوس مارتينيز ميلان  
خيسوس مارتينيز ميلان

## التراث و لھرڤ الصيانة

- 199 آفاق الاعتراف الدولي بالتراث الصحراوي  
أحمد سكونتي
- 219 جرد التراث غير المادي  
رحمة ميړي
- 231 تاريخ وادان وموروثها الثقافي  
فرانسيسكو فريير
- 247 الاقتصاد الرعوي تراث اقتصادي وثقافي  
آن ماري بريسبار
- 261 المجموعات الصحراوية بمتحف كي برانلي  
كورين فورتبييه
- 281 حماية الثقافة الشفهية الحسانية  
محمد دحمان

## المصادر والأرشيف : حصيلة و آفاق

- 297 الفضاء الحساني والتراكم المعرفي  
سيدي أحمد ولد أحمد سالم
- 315 المصادر المخطوطة بالصحراء ، تقديمها ومناهجها ومحتوياتها  
سيني موموني
- 331 أرشيفات التاريخ الشفوي والتقاليد الشفوية في إفريقيا الغربية  
بابكر ندياي
- 343 حكايات من غرب الصحراء  
بيير بونت
- 335 تاريخ الصحراء الأطلننتية المعاصر  
خالد الشكرائي
- 363 مصادر تاريخ الصحراء في أرشيف السينغال  
فاتوماتا ديارا سيسسي
- 373 الوثائق الخاصة بالصحراء في إيكس أون بروفانس  
الجيلالي العدناني





# كلمة الرئيس

يضم هذا الكتاب أعمال الندوة التي نظمها المجلس الوطني لحقوق الإنسان تحت عنوان « حول التاريخ والذاكرة والتراث الصحراوي: البحث والصيانة والحفظ في المتاحف» يومي 16 و17 دجنبر 2011 بمدينة الداخلة بشراكة مع جامعة محمد الخامس أكڭدال-الرباط، وكالة الجنوب والمجمع الشريف للفوسفاط جهة وادي الذهب-لڭويرة.

الندوة التي تندرج في إطار برنامج مواكبة توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة في مجال الأرشيف والتاريخ والذاكرة، تأتي في إطار سلسلة من الندوات الوطنية الكبرى نظمها المجلس الوطني لحقوق الإنسان بكل من الحسيمة بتاريخ 15 يونيو 2011 والتي نشرت أشغال ندوتها في كتاب «الريف» الذي صدر سنة 2012، ورازات التي انعقدت ندوتها بتاريخ 21 يناير 2012 والتي ستشغل ندوتها في غضون هذه السنة.

كانت الصحراء الممتدة من وادي نون إلى وادي الذهب منطقة شاهدة على قرون من تاريخ الإنسانية. فقد عرفت استيطان عدة مجموعات بشرية منذ ما قبل التاريخ تاركة آثارها في شكل رسوم ونقوش صخرية شاهدة حتى اليوم على حضارتها. إن هذه المنطقة التي مازالت تحمل إلى وقتنا الحالي ذاكرة تلك المجموعات، لعبت دورا هاما طيلة قرون منذ وصول القبائل القادمة من كل الآفاق منجذبة بالمراعي وطرق التجارة الصحراوية المزدهرة. هذه القوافل التي لم تكن تحمل فقط البضائع بل أيضا الأفكار والمعتقدات و تقاليد البلدان التي مرت منها وهو ما مكن الصحراء من لعب دور الوسيط بين شمال إفريقيا وأوروبا من جهة والصحراء الكبرى وإفريقيا السوداء من جهة أخرى. إنها بلد التلاقح الثقافي والتواصل بامتياز منذ قرون خلت.

وعرف تاريخ الصحراء منعطفا حاسما مع أواخر القرن التاسع عشر، حين تهافتت على المنطقة القوى الاستعمارية بما أحدثته من حدود مصطنعة كانت ضد منطق التاريخ والجغرافيا والماضي المشترك بين شمال المملكة وجنوبها.

إن كتابة تاريخ الصحراء ورش مفتوح سواء بالنسبة لماضيها البعيد أو تاريخها المعاصر. فالمرحلة ما قبل الاستعمارية لم تدرس بعد وتعاني من نقص فيما يتعلق بمصادرها التاريخية سواء منها التي ما زالت مخطوطة في المكتبات العائلية أو غيرها. والمرحلة الاستعمارية بدورها لم تعرف تطورا هاما في هذا الاتجاه. فما زال كم كبير من الأرشيف الإسباني والفرنسي لم تتم دراسته ناهيك عن الذي لم تسمح بعد إدارة الاستعمار بوضعه بين أيدي الباحثين.

ومن خلال هذه الندوة وضعت حصيلة أولية للمصادر المخطوطة، وتلك التي توجد في الأرشيف الاستعماري، مع رصد مواقع تواجد هذه المصادر وتقديم توجيهات منهجية ونظرية ونقدية للباحثين حول كيفية توظيفها في الكتابة التاريخية حول المنطقة.

ولم يقتصر اهتمامنا في كتابة تاريخ الصحراء على ما هو مكتوب، سواء في شكل مخطوطات محلية ووطنية أو أرشيف أجنبي، بل أيضا الذاكرة التي تعتمد على الشفهي. لقد أصبح التاريخ مرتبطا في العقود الأخيرة بمسألة الذاكرة مع بروز مفاهيم من قبيل «الحق في الذاكرة» و «واجب الذاكرة». وأصبحنا أمام مجموعات تطالب بالاعتراف بذاكرتها الجماعية من طرف الأمة. كما ظهرت مؤسسات وطنية كفاعلة في مجال حفظ الذاكرة أو مشجعة على صيانتها باتخاذ تدابير قانونية ( قانون الأرشيف).

في مجتمع يهيمن فيه الشفهي على رواية تاريخه مثل المجتمع الصحراوي، تفرض الذاكرة نفسها على الباحثين. ولكن كتابة الذاكرة كحكي للماضي انطلاقا من الزمن الحاضر يطرح عليهم إشكاليات منهجية عدة. إن الذاكرة معرضة للنسيان مما يحتم صيانتها والمحافظة عليها بوسائل علمية ومهنية سواء في صيغتها الجماعية المتعددة أو الفردية.

ولا يقتصر الأمر على الصيانة بل الدراسة العلمية أيضا، فكتابة التاريخ انطلاقا من الشهادة لا يمكن أن تتم إلا بتغيير في منهجية المؤرخين لتتسم بالانفتاح على العلوم الإنسانية الأخرى، دون الخروج عن الصرامة العلمية الضرورية في كل بحث تاريخي جاد. إننا نطرح إشكالية الحق وواجب الذاكرة داخل إطار علمي رصين.

ويشكل التاريخ الراهن مجال المواجهة بين التاريخ والذاكرة، بين مراعاة تاريخ علمي يحترم القواعد ويستند أولا، إن لم نقل فقط، على المصادر المكتوبة والمنهجية الحازمة، من جهة، وذاكرة الفاعلين التي تتسم بالجدلية وترتكز على الشفهي والسرد وتفتح على جميع العلوم الاجتماعية، من جهة أخرى. هكذا فعلى عملية التأريخ للصحراء أن تتخذ بعدا نقديا ومنهجيا، بدمج المكتسبات المنهجية في مجال التاريخ الشفهي والذاكرة وبالجمع بين مفاهيم التاريخ والذاكرة.

ويعد التراث أحد العناصر الحية للتاريخ. فكل مجتمع يحتاج إلى الرجوع إلى تاريخه لضمان استمرارية لهويته التي تتطور وتتفاعل مع الزمن. التراث هو إرث جماعي يحكي تاريخ مجموعة بشرية ويتوارث جيلا عن جيل. إنه يمكن أيضا الأجيال الحالية من التمتع في الزمن والتوفر على بوصلة أمام التحولات السريعة التي يعرفها المجتمع.

إذا عدنا إلى التراث الصحراوي فإننا نجد أن مكوناته متعددة المرجعيات والأصول. فلا يمكننا أن نختمل مكونات الثقافة الحسانية في عنصر واحد متفرد. إذ لم تكن الصحراء مجالا مغلقا، فقد كانت تجوبها القوافل التجارية والقبائل الباحثة عن منتجعات ومراعي ومواطن للترحال.

فكس الحواضر والمدن التي كانت تسيجها الأسوار خوفا من الهجومات، كانت الصحراء مجالا مفتوحا ولم تكن ساكنتها تسيج نفسها أو تستقر في مكان لمدة طويلة، فهي تجوب مجالات وتحتك بمجموعات بشرية أخرى مع ما يترتب عن ذلك من تلاقح ثقافي وأخذ وعطاء وتبادل. التراث الحساني الذي يعبر عن خصوصية محلية هو في حد ذاته متنوع ومتعدد المصادر والمنابع، الشيء الذي يضيف عليه بعدا إنسانيا وثراء وغنى.

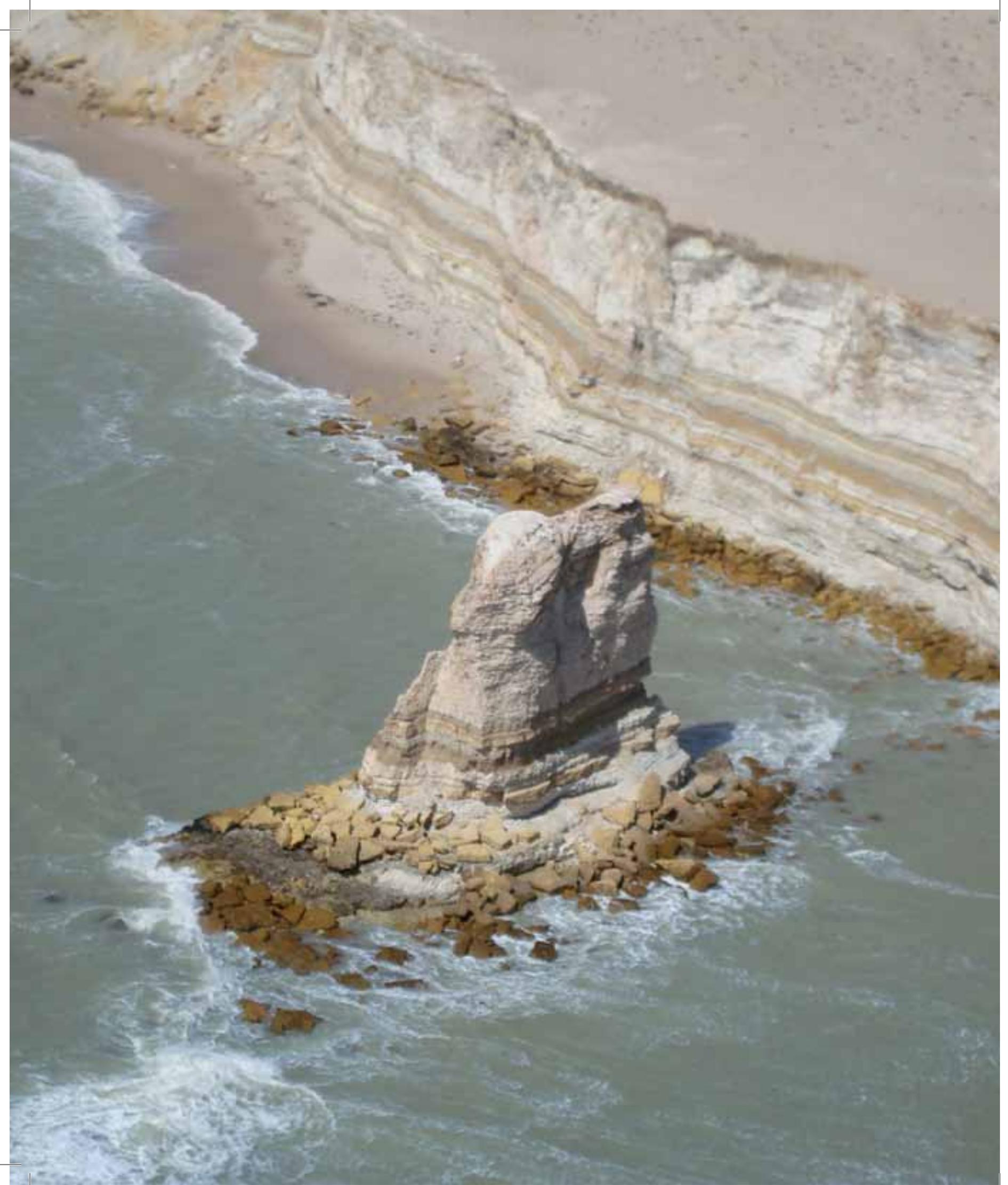
وأول ما يمكن أن نخدم به التراث هو أولا إحيائه ليس بعرضه موسميا في مهرجانات ذات طابع فلكلوري سياحي وسطحي. فقبل أن يكون موروثا ينتمي إلى الماضي فهو يمثل أحد مقومات الهوية المحلية الصحراوية، يمنح الإنسان الصحراوي هوية أصيلة وثقة في النفس ويمكنه كذلك أن ينهل من الثقافات الأخرى بوعي ويثريها بدوره وبدون عقدة الدونية أو الشعور بالاستيلاء. إن الماضي هو جزء من مكونات الحاضر، والثقافة حتى في تعابيرها الماضية لها امتداد بشكل مباشر وغير مباشر وواع وغير واع في الحاضر وفي استشراف المستقبل.

وفي هذا الصدد ركزت أشغال الندوة على دور المتاحف في حفظ الموروث الثقافي وضمان استمراريته ونقله من خلال تناول مسألة حفظ التراث بالمتاحف، سواء كان ماديا أو غير مادي، مع مناقشة مسألة المعايير والعناصر والمحتوى، لاسيما عندما يكون الهدف من الحفاظ في المتاحف دمج التراث غير المادي أيضا، في حين أن التقليد المتحفي لحد الآن اهتم على الخصوص بتسليط الضوء على التراث المادي. وعرفت الندوة إعلان انطلاق مشاريع عملية ترمي إلى التأسيس للبحث العلمي وحفظ التراث مع شركاء على رأسهم وكالة الجنوب والمجمع الشريف للفوسفاط وجامعة محمد الخامس. يتعلق الأمر بمشروع متحف الداخلة ومشروع مركز الدراسات والأبحاث الصحراوية. ولقد خرج هذا الأخير إلى النور بتدشين مقره في فبراير 2013 بالرباط، أما متحف الداخلة فهو بدوره في مراحل متقدمة من إنجازة.

كان هدف هذه الندوة بالدرجة الأولى الاطلاع على وضعية البحث التاريخي حول منطقة الصحراء الأطلسية واستكشاف مسارات جديدة للبحث، من خلال تناول قضايا ذات صلة بالتاريخ والذاكرة والتراث.

وكلها مواضيع اجتمعت كوكبة من الأساتذة الجامعيين والباحثين الأكاديميين مغاربة وأجانب من بلدان عدة : فرنسا وإسبانيا والسينغال والنيجر وموريتانيا والبرتغال وأمريكا والمكسيك، قصد دراستها. ونضع بين دفتي هذا الكتاب حصيلة أشغال هذه الندوة الفكرية مع حرصنا على ترجمة النصوص إلى اللغة العربية وإرفاقها بصور تاريخية نادرة عن المنطقة، أغلبها ينشر لأول مرة، وهو عمل تطلب منا بحثا إيكولوجيا طويلا في أرشيفات ومتاحف، ومكتبات فرنسية وإسبانية وسويسرية وسينغالية، وهو ما يفسر تأخر صدور الكتاب في مرحلة الطبع. نشير في الأخير أنه خلال هذه الندوة تم تكريم أحد أبرز الباحثين في الدراسات الصحراوية: بيير بونت، والذي غادرنا يوم 4 نونبر 2013 عن عمر يناهز 71 سنة.

## إلمريس اليزمي





# تقديم

الاهتمام بالموروث الثقافي للمغرب الصحراوي ليس ترفا فكريا أو مجرد مشروع ثانوي يتم إلحاقه بالاختيارات الكبرى المرتبطة بالإقلاع التنموي للأقاليم الجنوبية للمملكة. إن أعمال الندوة المنظمة بمدينة الداخلة أيام... والتي توضع اليوم رهن إشارة القراء و المهتمين و تعد بنظرنا دليلا إيجابيا يفوق دور الشهادة على أن المعطى الثقافي بتأصيله للهوية المتعددة للمغرب يعتبر خزانا لا ينضب لإنارة كل دروب الفعل التنموي بهذه الربوع.

إنني لأتمن و أحيي سياسة الانخراط البناء التي ينهجها المجلس الوطني لحقوق الإنسان في سبيل ترسيخ الشراكات الملزمة الواعية بالدور المركزي و الإشعاعي للموروث الثقافي للمغرب الصحراوي. إن التقائية الفاعلين التنمويين و انسجامهم حول إطار مشترك من شأنه أن يعطي دروسا استثنائية في السياسة العمومية التي تتجاوز العمل المنعزل و تتعالى على الحسابات المؤسسية التي لا تقدر قيمة التفاعل التشاركي في خدمة التنمية المجالية المندمجة.

إن مقارنة التراث من زاوية جدلية التاريخ و الذاكرة يمثل في نظرنا انجازا منهجيا لا ينفصل مطلقا عن سياقات الإنفتاح و رهانات التنمية التي باشرتها المملكة خاصة في الأقاليم الجنوبية. لقد كان هذا الإختيار صائبا بما أنه يخدم بالأساس تفعيل نموذج هوية متعددة المشارب و الروافد و التي يعتبر الشق الحساني أحد أعمدها الرئيسية. ولي اليقين بأن تحصين هذا الغنى الثقافي يتنافى مع أي توجيهات شوفينية تفترض، و أسفاه، وهم بناء الجزء من خلال فقدان الكل.

بإمكان القارئ أن يستدل، مستنيرا بالمقالات المتميزة التي يضمها هذا الإصدار، على أن ثقافة البيضان ما تزال تكتنز جواهر متنوعة تستحق عناية البحث والمعرفة وأن الامتداد الحضاري للمملكة عبر العمق الصحراوي يشكل بالنسبة لنا جميعا رأسمالا حيويا يشفع له التاريخ وتشهد به كل المقومات الثقافية والقواسم المشتركة التي تؤطر الغرب الصحراوي.

إن من يفرط في تاريخه وذاكرته و يشوه معالمهما محكوم عليه بأن يعيش دواما و هو مثقل بخيبياته و نكساته، لذلك يتضح لنا مدى أهمية العودة إلى الماضي ليس بغية النسيان والنكران، وليس من أجل البحث عن الخراب والتلذذ بالألام، بل بغية إنارة طريق المستقبل بدل البقاء السخيف في مرافئ انتظار لا ينتهي.

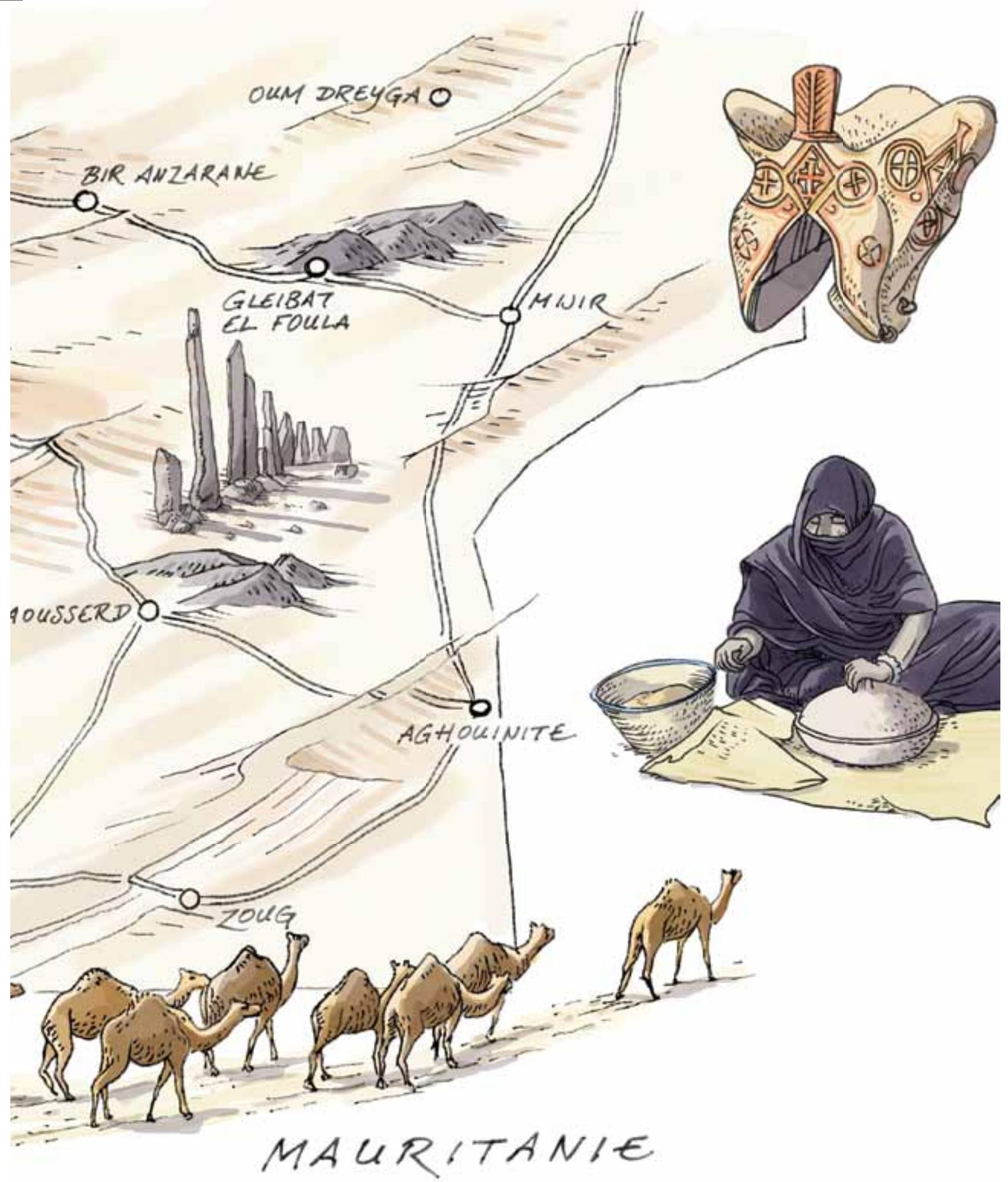
أريد أن أشير مجددا إلى المسافة بين المشروع و الإنجاز فيما يرتبط بتوثيق و تميمين وتأسيس الموروث الثقافي للمغرب الصحراوي لا تقاس لدينا بالمستحيل بل بالإرادة والعزيمة وما المؤسسة المتحفية والتراثية التي سترى النور قريبا بمدينة الداخلة إلا أحد التجليات الرفيعة للتعاون والتنسيق بين كافة المتدخلين الواعين بالأهمية الإستراتيجية لمثل هذه المنجزات.

و أملي أن يجد القارئ بين متون هذا الكتاب ضالته وأن يتلذذ بمتعة استكشاف معطيات وافية حول المغرب الصحراوي صعودا في الزمن وتنوعا في المواضيع وأن يكون دعامة جديدة للبحث ومرجعا إضافيا في البيبلوغرافيا الرصينة المهمة بهذه الجهات.

## السيد أحمد جبي

المدير العام لوكالة الإنعاش  
والتنمية الاقتصادية والاجتماعية  
في أقاليم الجنوب بالمملكة





OUM DREYGA

BIR ANZARANE

GLEIBAT  
EL FOULLA

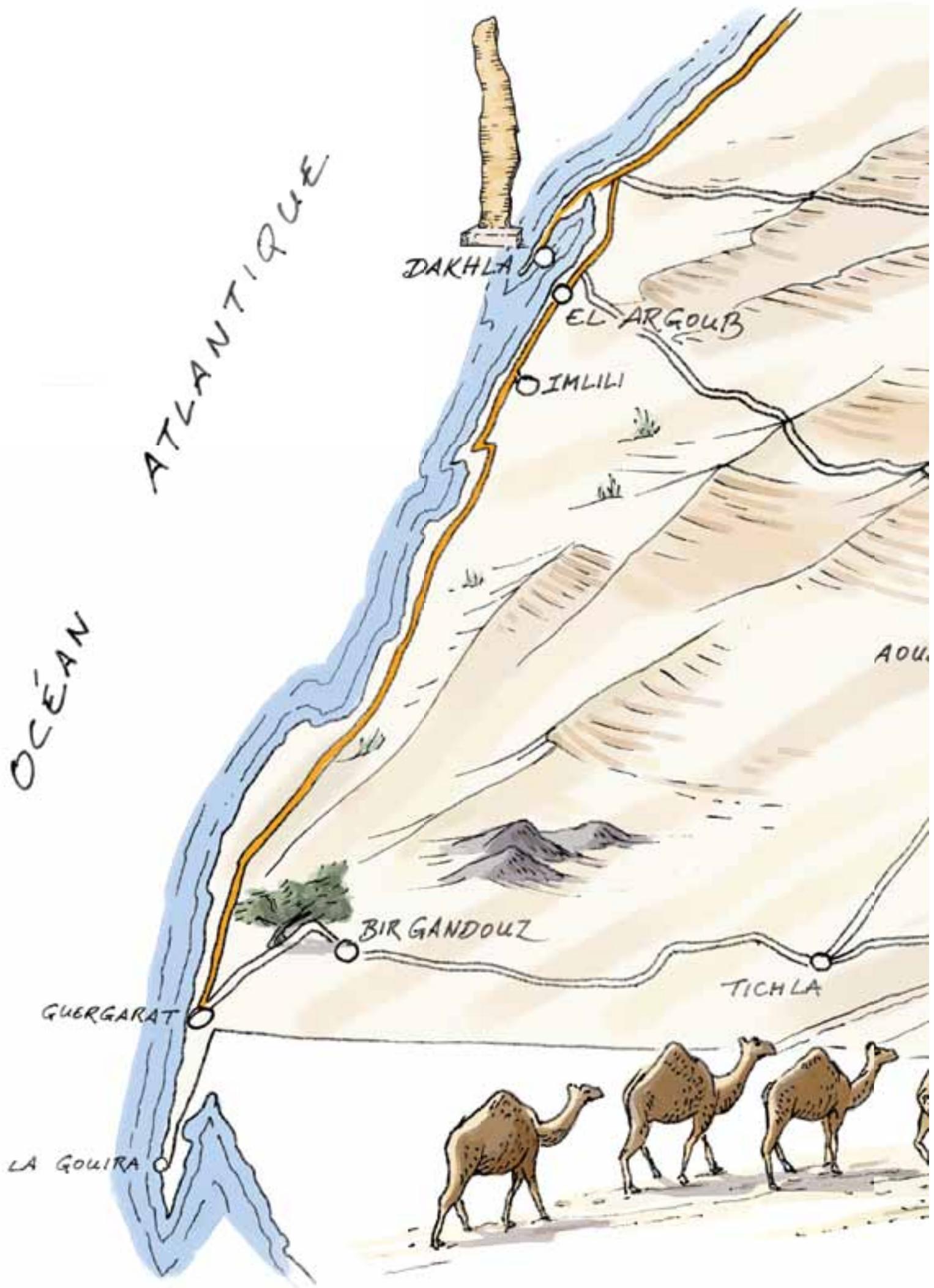
MIJIR

ROUSSERD

AGHOUINITE

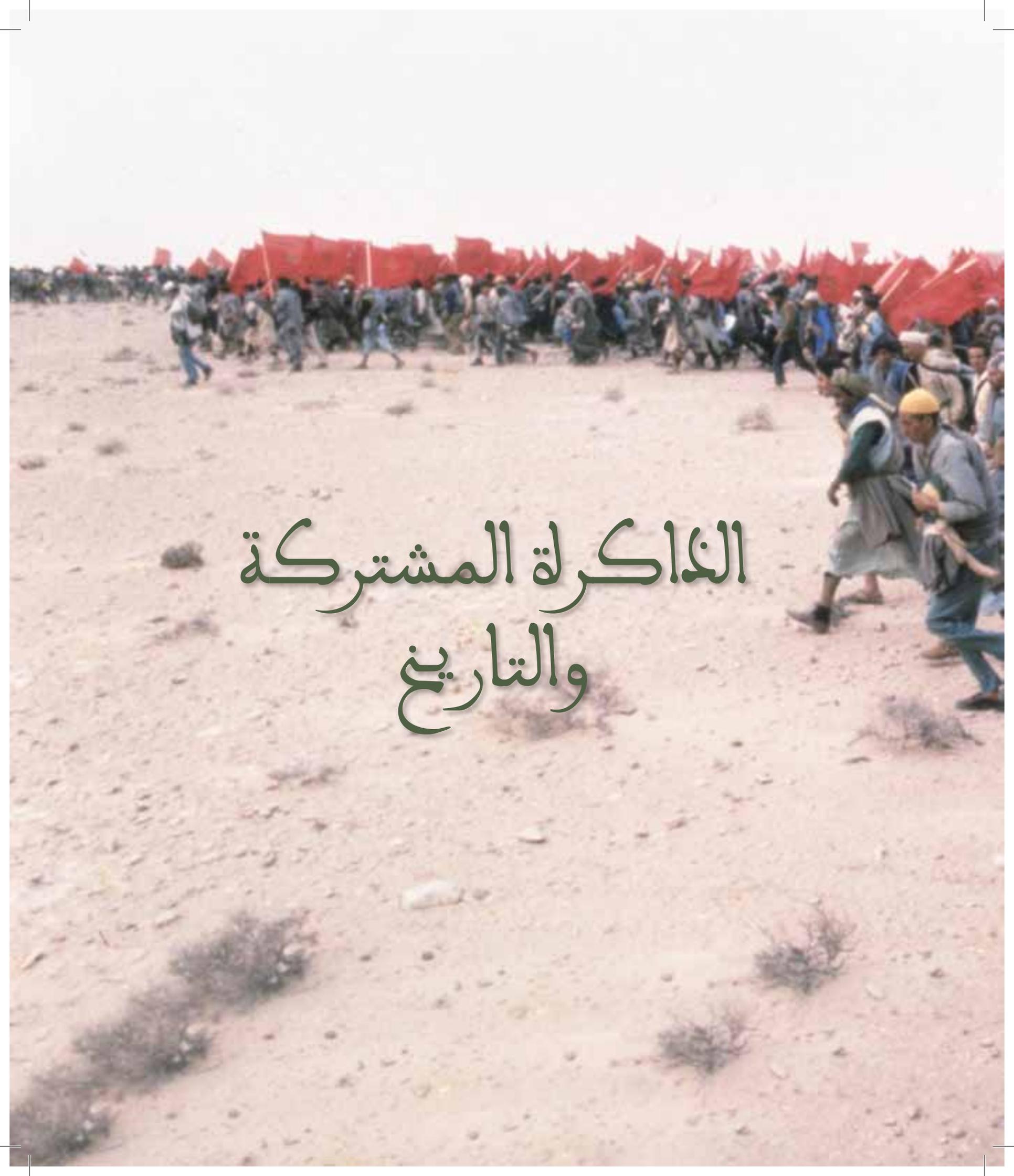
ZOUG

MAURITANIE





المسيرة الخضراء نوفمبر 1975

A large group of people, many wearing blue and grey clothing, are gathered in a vast, arid desert landscape. They are holding numerous red flags, which are the symbol of the Arab Spring. The scene captures a moment of collective action and protest. The text 'الذاكرة المشتركة والتاريخ' is overlaid on the image in a green, stylized font.

# الذاكرة المشتركة والتاريخ



# ذاكرة تاريخية مشتركة

المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء (من القرن الحادي عشر إلى القرن العشرين)

عبد الرحمن نكايدي

«نادرا ما ينظر إلى المغرب (Maroc) و«المغرب» (Maghreb) في بعدهما الإفريقي؛ ذلك أن المغرب لا يوجد إلا بالنسبة إلى المشرق وبه، كما يقال، لأن «العرب» يهيمنون على الحقل التاريخي لهذه المنطقة منذ الإسلام و«الفتح العربي» الذي شكل أدياته. وسيبتدئ هذا البناء مع الحقبة الاستعمارية التي شهدت تطور العلوم المخصصة للأهالي وهي علوم مختصة، حسب حقول الدراسات والأبحاث التي جزأت الميدان»<sup>1</sup>.

## قليل من الإستمولوجيا<sup>2</sup>

كتب عبد المجيد قدوري في مقال صدر له سنة 1995: «من بين مائة وعشرين شهادة أو أطروحة تناقش بكلية الآداب بالرباط هناك خمس دراسات تهتم العلاقات بين المغرب وإفريقيا السوداء بشكل عام»<sup>3</sup>. وليس بإمكاننا أن أعرف بالضبط كم عدد الدراسات الأكاديمية التي أنجزت في جامعات غرب إفريقيا<sup>4</sup>؛ غير أن ملاحظة عبد المجيد قدوري هذه تكشف عما ينبغي القيام به في مجال البحث في سبيل معرفة أفضل للعلاقات بين المملكة الشريفة (المغرب بشكل عام) وباقي بلدان إفريقيا. لقد ثبت أن العرب بصفة عامة والمغاربة على وجه الخصوص قد عبروا بقوة عن رغبتهم في الوصول إلى ما وراء الصحراء، لا لأسباب اقتصادية فحسب بل لأسباب سياسية واجتماعية أيضا؛ فما وراء الحروب يتعلق الأمر بتاريخ بيني وعلاقات تنسج ومجموعات بشرية تختلط.

تتقاسم بلدان المغرب مع إفريقيا جنوب الصحراء تاريخا ليس معروفا بما فيه الكفاية، نظرا لندرة الأبحاث الكفيلة بأن تمكننا من فهم مختلف الميول التي عرفت العلاقات بين ضفتي القارة لعدة قرون (إن جاز لنا الحديث عن ضفتين!). هذا في الوقت الذي تستمر الضفتان في ربط علاقات اجتماعية تاريخية لا يرقى إليها الشك؛ فما وراء القيم الإسلامية المشتركة هناك العديد من الأسر التي استقرت «بضفتي» الصحراء مفندة بذلك فكرة الأرض القاحلة الموحشة المتعذر عبورها؛ وإن تاريخ العلاقات بين المغرب وجزء من القارة الإفريقية يجعل من فكرة «ضعف» العلاقة بين العالمين فكرة باطلة.



أود بادئ ذي بدء أن أعود إلى مسألة أثرت في هذه الندوة التي مكنت من تسليط النور على قضايا إبستمولوجية مهمة يطرح في صلبها السؤال عن دور المؤرخ، لا بصدد اختيار مصادره ومعالجتها فحسب، بل أيضا حول تصحيح هذه المصادر وإرجاعها للفاعلين الذين «ينتج» لهم عمله العلمي<sup>5</sup>. وهكذا يطرح السؤال النظير دوماً: لمن نكتب وعلى أية مشروعية نركز وعلى أي أساس وثائقي ننتج التاريخ؟ لقد أثار أعضاء المجتمع المدني الحاضرون في هذه الندوة مسألة «أخلاقية» تعترض طريق الباحثين في استعمال المصادر والوثائق التي يعيدون - انطلاقاً منها - إنتاج رؤى مبتدلة لتاريخهم، تلك الرؤى التي لطالما غذتها الاثنولوجيا الكولونيالية. بالفعل، لقد لاحظوا وجود بون شاسع بين المقاربة التاريخية «الحديثة» التي تولي الأفضلية للمصادر الأوروبية المشوبة بصور نمطية حول المجتمعات الصحراوية من جهة والمصادر «الحقيقية» التي هي في حوزة الرواة والمحافظين على التقاليد.

إن ذلك يعني أن أعضاء المجتمع المدني في مقاربتهم لتاريخهم يفضلون الرجوع المنهجي إلى المصادر المحلية على حساب ما يعتبرونه منهجاً يستلهم المخزون الوثائقي المصنف على رفوف «الخزانة الكولونيالية» التي تنزع إلى جعل وقائعهم التاريخي مبهماً. فهي في نظرهم تشوه الآليات الاجتماعية وأنماط التقسيم الترابي وكذلك تلك العلاقات المتعددة التي تربط القبائل الصحراوية ببيئتها. باختصار شديد، إنهم يريدون أن يبينوا أنهم لا يعترفون بتلك الصور النمطية العنيدة المبنية على التمييز والتي طالما شكلت شبكة للقراءة واعتبرت «حقيقة تاريخية»<sup>6</sup>. وهكذا يصبح من قبيل الضرورة الملحة وضع حد فاصل بين المقاربة الإيديولوجية للتاريخ ورسالته

الاستكشافية التي تجعل خطابه مفهوما. وإذا كان من نافلة القول إن هدف التاريخ هو عرض حصيلة الماضي الوطني، فإنه من الحكمة أن يؤخذ بعين الاعتبار تاريخ كل الأجزاء المكونة لبلد ما، وذلك ليحتفظ المجموع بديناميته وتماسكه الداخلي.

بالنظر إلى تكوين الدول الإفريقية الديمغرافي والبيئي فإنها معرضة منذ القديم إلى محاولات تريد أن تجعل منها كلا متجانسا وتذيب تواريخها في تاريخ وطني يظل نموذج السائد محتكرا من قبل السادة، بينما تقع أحداث هامة على هوامش هذه الدول يجدر أخذها في الحسبان. إنه لأمر بالغ الأهمية أن يتم الإقلاع عن الإيديولوجيا الموحدة الأحادية التي تميل -من غير قصد- إلى محو الاختلافات والمسارات التي بنتها. إن تحليل التحولات الجارية في هوامش الدول<sup>7</sup> بشكل عام ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات الممكنة إدماجها في مجموع متماسك يمكن لأي إطار جغرافي أن يجد فيه ذاته كما يمكن لأي مواطن أن يعتبره جزء من ذاته.

إن التغييرات التي طرأت على بنيات المجتمعات تستجيب للأحداث التي تخترقها أفقيا وعموديا؛ وحتى إن بدا ذلك من قبيل المفارقات فإن هذين البعدين المكونين لتطور الهوامش الدولتية ملازمان لبناء الأمة، هذا الورش الذي يقض مضجع كل الدول الإفريقية منذ أن غادرها المعمرون. وبهذا المعنى يبدو لنا النقاش الذي أثير في اليوم الثاني من ندوة الداخلة ذا أهمية بالغة على المستوى الإيستمولوجي. صحيح أن إرادة سياسية خفية تبدو في ردود أفعال هؤلاء وأولئك، وهذا أمر مفهوم. لكأن «الأقلية الذكية» من المجتمع تقبل على الفور عرض الدولة لتثرت حول مصائبها بالذات. إنها في آخر المطاف لعبة «الفعل ورد الفعل، والسؤال والجواب، والهيمنة والتحاشي، كما أنها لعبة الصراع»<sup>8</sup> بكل المعاني الاستراتيجية التي يكتسبها مصطلح الصراع.

إن الباحثين في العلوم الاجتماعية والسياسية يجدون أنفسهم أمام مآزق عدة لأنهم مضطرون إلى البحث عن وثائق أخرى غير تلك الوثائق التي يستعملونها أو الفرضيات التي يضعونها، وذلك للإحاطة بواقع اجتماعي يتخذ له أشكال المطالبة بالعدالة، هذا في الوقت الذي ليس الباحث مطالبا بإقامة العدالة بل إنه مدعو إلى التفكير في الحدث لاستشراف آثاره في التطور العام للمجتمع. وبالتالي فقد أضحي الجانب التعليمي (الديداكتيكي) للتاريخ مدعوا ليكون أساس التفكير وذلك للبحث على تقدم نافع لكل شامل يواجه مرحلة من «القطائع الحاسمة» في تطور إدماجه الفعلي ضمن مجموع مفكر فيه تاريخيا، متماسك ومحدد جغرافيا. ويبدو أن ندوة الداخلة في صميم هذه الانطلاقة التي تهدف إلى التفكير في هذه القطائع التي تحدث في التجمعات السكانية الجديدة بالصحراء المغربية.



قافلة تصل إلى الصويرة أهم محطات التجارة الصحراوية (ب.ت.).

إن التمدن التدريجي والاستقرار «المكثف» للسكان الناجم عن ذلك تصاحبه بالضرورة إعادة هيكلة اجتماعية وتحولات سلوكية هامة؛ كما لو أن الأمر يتعلق بمن يرى ضياع شيء ما بينما لا يستطيع القيام بأي فعل لمنع ذلك. وهكذا يبدو الرجوع إلى التاريخ الملاذ الوحيد للخلاص. إن الأمر لا يتعلق في نظري برغبة إرادية في إحياء الخصوصيات، لكنه يتعلق بالاستفادة بصيغة أخرى من حدث بالغ الأهمية في التطور الشامل للمجتمع المغربي، ألا وهو توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة. إن هذه الهيئة، بإرادة من السلطات المغربية، وضعت في قلب اهتماماتها الاعتراف بمختلف الخصوصيات التاريخية للجهات المغربية سعياً منعا إلى إبراز التنوع والغنى الثقافي للمملكة. وإن هذا لحدث تاريخي بامتياز، ذلك أنه يغير مناهج التاريخ ويحول منظوره ومجراه، وهكذا فإن الفاعلين في الجهات البعيدة عن المركز، كي لا يتأخروا عن مواعدهم مع قطار الوطن، يدخلون ضمن خطاباتهم أنماطاً جديدة من التفكير حتى «يزينوا» صورة مجتمعهم لكي لا يكونوا في تناقض مع تلك الصورة التي تكتسيها البلاد في مجملها. وهذا درس من الدروس الكثيرة لندوة الداخلة.

إن غاية هذا النص ليست مساءلة المناهج ولا إعادة النظر في نظريات التاريخ، وليس له إلا هدف واحد ألا وهو رصد هذا التاريخ الدينامي الثاوي خلف العلاقات الممتدة على عدة قرون بين «ضفتي الصحراء» عبر التاريخ المشترك بين المغرب وما يسميه المؤرخون العرب بلاد السودان. كما أن لهذا النص غاية أخرى هي كتابة تاريخ «تاريخي فعلا للمجتمعات الإنسانية»<sup>9</sup> وذلك بمسألة حقه المختلفة والأحداث التي هيكلته لأجل كتابة هذا «الوعي الجمعي» الذي كان في طور التشكل لكن المعمر أراد محوه أو على الأقل إيقاف ديناميته.

وختام القول إن هذا النص القصير يأمل في رصد وجود علاقات مستمرة تتجاوز الأفكار المسبقة المبتدلة أي ثنائية عالم عربي وآخر جنوب الصحراء يختلف كل منهما عن الآخر بل يكن له العداء.

### حقب تاريخية وأحداث مؤسسة لذاكرة مشتركة<sup>10</sup>

المرابطون والموحدون : بناء الحصون ونشر الحضارة الإسلامية

إنه لمن المفيد الرجوع إلى زمن بعيد في التاريخ لإدراك العلاقات التي تجمع بين «القطعتين» الأساسيتين للقارة الإفريقية : المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. ومن الضروري ذكر بعض مظاهر هذا التاريخ المستمر. وتدعو كل المشاهد فعلا إلى الاطمئنان إلى ما يبدو أكبر من مجرد فرضية لأن الذكريات



الشعبية ما انفكت حية، كما تشهد «الأثار الإنسانية» بوضوح على وجود علاقات قوية بين المغرب وباقي إفريقيا ولاسيما ما كان يطلق عليه اسم السودان (والمقصود به جمهورية مالي الحالية).

إن القائد الأكبر الذي يسميه ميشيل أبيطبول (Michel Abitbol) «الموحد السياسي للمغرب وإسبانيا»<sup>11</sup> هو يوسف بن تاشفين. وقبله بكثير كان مؤسس حركة المرابطين قد وجد له مستقرا في الصحراء وتحديدًا بأدرار (موريتانيا) حيث أنشأ رباطا ليهتم بشؤون الدين ويدعو إلى الإسلام القبائل التي كانت ما تزال تعتنق الوثنية. وسيسارع عبد الله بن ياسين إلى الدعوة إلى الجهاد في وجه كل القبائل التي بقيت خارجة عن الدين الإسلامي<sup>12</sup>. وهكذا فإن جيوشه ستنتقل «لغزو الصحراء الجنوبية ثم جنوب المغرب»<sup>13</sup> وسيكون فتح سجلماسة إحدى انتصاراته التي ستؤدي بالمجاهدين إلى تعزيز هالتهم السياسية وتطوير استراتيجيتهم العسكرية كذلك. ولقد كان ذلك الهاجس هو الذي سيؤدي بابن ياسين إلى تسليم القيادة لأبي بكر بن عمر. وابتداء من 1058 ستنتقل جحافل الجيوش إلى غزو الجنوب المغربي؛ وفي وقت لاحق - ما بين 1076 و 1077 - ستهاجم الجيوش مملكة غانا وتدمرها. وهنا وجب تسجيل ما يلي: رغم الحروب التي تم خوضها في الشمال كما في الجنوب ليس من الصواب إرجاع هذه النواذب إلى الوحشية الناجمة عنها بل ينبغي أن تعزى كذلك إلى الكتابات التي تعاد باستمرار عن الهويات وعن العلاقات التي ستفضي إلى إقامتها تلك الحروب وعن أنماط التقطيع الترابي التي تقتضيها.

هكذا إذن نلاحظ أن الحروب تلاها نشر لأشكال جديدة من الحكم وتدبير الاختلافات، وذلك إما بتوحيد الثقافات أو بمزجها بسياسة تميل إلى محو الخصوصيات وتعزيز التماسك الاجتماعي. وهذه المظاهر التي غالبًا ما يتم إخفاؤها تحيي الثقافات الناشئة وترسم معالم مجتمعات جديدة حيوية قادرة على التكيف مع عالم يعرف تحولًا مستمرًا. والجدير بالذكر أن الرسوم الصخرية تبدي للعيان ثقافات اختفت لكن تراثها يظل مشتركًا بين مجموع هذه الشعوب التي يربطها التاريخ والجغرافيا رغم كل ما تسمه به محكيات الرحالة العرب من عيوب، يتبعهم في ذلك ورثتهم من المستكشفين الأوروبيين. إن هذه النظرة المحدودة عن تعقد الثقافات لا تبخس في شيء هذا الإرث الثقافي الذي قامت عليه حضارات عبرت الزمن ووحدت الأقاليم التي تحتضنها. إن هذا التاريخ المركب هو الذي يعبر بأبلغ تعبير عن الاستمرارية الحيوية التي أبانت عنها هذه الشعوب على امتداد عدة قرون.





ألواح الملح في انتظار  
تحميلها (ب.ت.)

علاوة على ما سبق، من المعروف منذ عهد هيرودوت أن شعوبا كثيرة ربطت علاقات حيوية مع شعوب أخرى، مطورة في ذلك وسائل نقل ملائمة تستجيب لمتطلبات عصرها، ذلك أن الأمر يتعلق بحقبة تاريخية غنية بالعبر والدروس. ويكفي الرجوع إلى تاريخ الكارامانت الليبيين (les Garamantes) لاكتشاف كيف كانوا يعبرون الصحراء بعرباتهم التي تجرها الخيول «... طريقا عربات رئيسيتان اثنتان<sup>2</sup> كانا يربطان إفريقيا الشمالية بجنوب الصحراء أحدهما شرقا ينطلق من فزان (Fezzan) وغدامس (Ghadames) حتى الجاو (Gao) بالنيجر، مرورا بغات (Ghat) وتاسيلي الأجار (Tassili des Ajers) والهكار (le Hoggar) وأدرار والسوق (تادمكة) مع منحرف في اتجاه تيبستي (Tibesti)؛ والآخر غربي ينطلق من الجنوب الوهراني وسوس المغربية إلى حوض النيجر مرورا بزمور وأدرار الموريتانية وجرف تيشيت - ولاتا (Tishitt-Walata)<sup>14</sup>».

وإذا نحن صدقنا بما فيه الكفاية هذا الوصف، فإنه يمكننا كذلك أن نلاحظ أنه كلما رجعنا إلى التاريخ البعيد وجدنا أن شعوب المنطقة قد أرست آليات للحفاظ على حيوية العلاقات التجارية رغم اختلاف الانتماءات الإثنية؛ ويثبت ذلك أن الصحراء ما كانت يوما ذلك الفضاء الموحش كما يظن الكثيرون<sup>15</sup>. وقد كانت التجارة تدور حول منتجات من قبيل الزمرد وبيض النعام والعبيد الزنج<sup>16</sup>... ويبدو أنه من الممكن إرجاع تاريخ جلب «الذهب من السودان والسينغال» إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط إلى هذه الحقبة بالذات، حيث كانت المبادلات مكثفة على الرغم من المحدودية التقنية لوسائل النقل المستعملة آنذاك. لقد كان التجار الفينيقيون يترددون على السواحل المغربية للحصول على المعدن النفيس ويعني ذلك أن المجال المغربي الحالي قام في الأزمنة التاريخية القديمة بدور هام في خلق التماسك بين الأقاليم وبين الشعوب والمنتجات التي كانت مادة لمبادلاتها. وهذه الذاكرة التاريخية التليدة هي التي تضفي أهمية كبرى على الفكرة القائلة بأن المغرب كان منذ

عهد مبكر أشبه ما يكون بمختبر حضاري تتكون فيه روح الشراكة، وهي فكرة لن يكذبها التاريخ بل سيعزز هذه العلاقات الحيوية ويضع في صلب هذه العملية عبقرية الإنسان وأثمن ما يملك أي التواصل.

كانت شعوب هذا الجزء من إفريقيا تتكون من مزارعين ومربي مواشي ورحل يسمح تكاملهم - في تنشيط الحياة الاجتماعية الاقتصادية - بالحفاظ على «سيولة إثنية» و«قبلية»، وسيشكل ذلك تاريخا مستقبليا مشتركا ما يزال راسخا في الأذهان والذاكرة. وقد اندمجت شعوب أخرى منحدره من حوض البحر الأبيض المتوسط بتلك التي كانت مستقرة بالمنطقة أو قادمة من أصقاع بعيدة؛ وليس من الضروري الرجوع إلى مجمل هذا النشاط التاريخي المخبر عنه بشكل جيد، غير أنه من الواجب بكل تأكيد إحالة القارئ على الكتابات القديمة مثل «تاريخ السودان» لصاحبه السعدي أو تاريخ الفتاش<sup>17</sup>، لفهم مدى أهمية الاختلاط الإثني والقبلي في المجال الحالي الذي يحتضن المملكة الشريفة<sup>18</sup>.

لفهم الدينامية الداخلية للمجتمعات ينبغي الرجوع كثيرا إلى التاريخ الهام للإمبراطوريات البربرية التي كانت في قلب هذه الحضارة إبان بنائها. إن المرابطين سيقومون فعلا بدور بالغ الأهمية في إشعاع الحضارة، لا الصحراوية فحسب بل الإفريقية بشكل عام، وسيهبون لنجدة أهل الأندلس المهتدين من قبل المسيحيين، وقد قاموا بذلك تحت قيادة يوسف بن تاشفين. لكن جيوش المرابطين قبل أن تحارب هؤلاء المسيحيين ستعمل أولا على «توحيد» جزء من المغرب درء لأي تمرد قد تقوم به هذه الساكنة «غير المستقرة» في جزء من القارة الإفريقية. وستنتهي هذه العملية بالاستيلاء على سبتة سنة 1083. وفي الوقت نفسه كان ألفونسو السادس (Alphonse VI) يواصل ضغطه على ملوك الطوائف. لقد احتل الإمارات الواحدة تلو الأخرى وهو الأمر الذي ألقى يوسف بن تاشفين الذي قواه مجيء بعض القضاة من إسبانيا، فعقد العزم على غزوها بدعوى «واجب الجهاد». وابتداء من شهر يوليو 1086 اتجهت الجيوش نحو إشبيلية حيث استقبل السكان أفرادها بابتهاج كبير لاسيما وأن الحركة الجهادية كانت قد أخبرتهم بالحدث. ومن الثابت أن الجنود الزنج كانوا جزءا من أفراد هذه الحملة، فضلا عن ذلك يبدو أنهم تميزوا بشكل ملحوظ في هذه المعركة التي مني فيها ألفونسو السادس بالهزيمة<sup>19</sup>.

بعد أن أمن المرابطون شؤونهم بالشمال انشغلوا بتقوية اقتصادهم الذي لغمته الحروب التي لا تتوقف، وذلك سعيا منهم لإخضاع الشعوب ونشر ثقافة حيوية موحدة تتجاوز الخصوصيات الثقافية والانتماءات الترابية. ومن المؤكد أن «القرن المرابطي» كان مرحلة هامة في بناء قوة المغرب الاقتصادية. وقد كان من اللازم أيضا على المرابطين، كي يحافظوا على المكانة الاقتصادية المتميزة في هذه المنطقة، أن يعملوا على توسيع علاقاتهم في اتجاه السودان بواسطة تجارة نشيطة عابرة للصحراء. هذا وقد مكن ذهب السودان المرابطين من سك عملة نقدية، وتلك سياسة عرفت عنهم حتى قبل أن يستولوا على إسبانيا. وفي نهاية المطاف أصبحت طريق سوس وأدرار الموريتانية «الطريق الرئيسة للمبادلات بين ضفتي الصحراء»<sup>20</sup>.

وفي وقت لاحق سيقطن الموحدون أثر المرابطين بتطوير نفس البنيات العلائقية مع البلدان والشعوب. إنهم واصلوا المسير على خطى أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين. ولئن استفاد المرابطون بشكل واسع من انتشار الإسلام فإن الموحدين قد وجدوا أنفسهم أمام فترة عرف فيها الإسلام تراجعاً. لكن رغم ذلك فقد تلت مرحلة باذخة اتسمت بازدهار هندسة معمارية منقطعة النظير ما تزال إلى اليوم بادية للعيان. ولم يكن لها أن تقوم إلا على أساس اقتصاد قوي وبفعل التجدد المتواصل بفضل روافد خارجية عن المملكة المغربية نفسها. وتبين الخريطة التالية ما دأب المؤرخون على تسميته بـ «دورة الطرق السيارة» في زمن التجارة عبر الصحراء، ويمكن أن تقدر مدى نفوذ المملكة السياسي والاقتصادي.



المغرب والتجارة الصحراوية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

ابتداء من حكم السعديين<sup>21</sup> سيفتح عهد جديد من العلاقات بين المغرب وبلاد السودان. فعلا، بهاجس الحرص على تقوية هالة السعديين، أقدم أحمد المنصور على توسيع نفوذه ليشمل «إفريقيا السوداء المسلمة». وسعيا وراء تقوية اقتصاد مملكته صمم على إعداد الجيش المغربي ليجتاح ضفاف نهر النيجر. وحسب ميشيل أيبطول كانت الأسباب الاقتصادية هي الدافعة إلى هذا الاختيار الإستراتيجي؛ فلم يكن بحوزة المملكة سوى السكر لتتاجر مع الأوروبيين، وكان من اللازم أن يتنوع الاقتصاد بمنتجات أخرى تنعدم في المملكة الشاسعة التي كان يشكلها المغرب في تلك المرحلة من تاريخ مجموع القارة الإفريقية. هكذا إذن كانت الأزمة الاقتصادية المرتبطة باختلال دورة إنتاج وتسويق السكر هي السبب في غزو السودان. وكما يسجل ذلك ميشيل أيبطول فإن المواجهات التي وقعت بسوس أدت بـ«المزارعين اليهود» إلى عدم الوفاء بالتزاماتهم في تلبية الطلبات<sup>22</sup>.

لم يكن الأمير المنصور في حاجة إلى مواد لتشييد قصره فحسب بل أيضا إلى تجهيز جيشه لضمان أمن جزء من مملكته. لقد كان بمثابة ضرورة قصوى بالنسبة إلى الأمير أن «يوقف مسلسل الانحطاط الذي يطال مباشرة موارد المخزن...»<sup>23</sup>. وكان في حاجة كذلك إلى سواعد لتعزيز مزارع قصب السكر فكان الحل الوحيد هو غزو جزء من بلاد السودان لتوفير العبيد الضروريين لتأمين الإنتاج. ولم يكن سراب ذهب بلاد السودان ليترك الأمير دون اكتراث بهذا المعدن النفيس وهو الذي عرف بميله إلى «مصاريف كمالية» ترتبط بحياة البذخ، وهو ما وصلنا عبر الكتابات التاريخية. أضف إلى ذلك أن استيلاء ملوك صونغاي (Songhai) على مناجم ملح تاغازة (Taghaza) كانت نتيجة هي الانخفاض الهائل للتجارة بين بلاد السودان والجنوب المغربي؛ فقد نشبت نزاعات من أجل الاستيلاء على مناجم الملح هذه التي أصبح امتلاكها أمرا استراتيجيا في المنطقة. إن المنصور لم يكن ليستهين بهذه الوضعية المعقدة التي جعلت كثيرا من الأمم تتهافت على السودان لمعرفة بوفرة الذهب فيه (البرتغاليون والترك)<sup>24</sup>.

ولكي يذهب المنصور إلى ما وراء بلاده ويحصل على الذهب كان عليه أولا أن يضمن التحكم الفعلي فيما كان يعد «باب السودان» والمقصود به توات وكورارة (le Touat et le Gourara). ويبدو أن هذه المنطقة كانت منذ القرن التاسع عشر هي المحور الرئيسي للتجارة عبر الصحراء. أما القرنان الرابع عشر والخامس عشر فقد كانا مرحلة غليان ديني صارح خلالها أنصار الطرق (الصوفية) كي ينشروا مذاهبهم ويفرضوا نفوذهم على كل المناطق ذات الإثنيات غير المتجانسة<sup>25</sup>. وإضافة إلى كل هذه المظاهر التي تخبرنا عن حركات الأفكار والناس ينبغي تسجيل أن الأمير المنصور كان يشعر بالضيق بسبب إغلاق شمال الأندلس منذ استرجاعها وبسبب إغلاق مملكة تلمسان شرقا لـ «المعبر» الذي أضحى في خبر كان. ولم يتبق له غير الجنوب «منفذا»<sup>26</sup> ومتنفسا للمملكة الشريفة يمكن الأمير من أن يحظى بشهرة عالمية على قدر إنجازاته الشجاعة. ولم يكن قدوم الأوربيين إلى السواحل الإفريقية ليحسن وضعية «التدهور» الاقتصادي الذي بدأ يستشري في البلدان المغاربية جميعها؛ فكان من اللازم إيجاد الوسائل للخروج من هذا المأزق الاقتصادي الذي ستفرضه سفن الكارافيل على باقي المعمور.

إن غزو السودان كان يتماشى مع تقدير استراتيجي لتلك المرحلة العصبية من مسار هذا الجزء من إفريقيا. والحال أن فرصة ثمينة ستتاح للمنصور؛ ففي الوقت الذي كان يتأهب لغزو توات وصل مبعوث ملك بورنو (Bornou) إلى عاصمته كي يطلب منه باسم أميره أسلحة وجيوشا لمحاربة الأقوام التي كانت في عداد «الوثنية». سيكون من باب الاختزال في نظرنا أن نحصر التحليل على الطابع الديني ونغفل الفوائد الاقتصادية لكل هذه الحروب والغزوات المتواصلة المرتبطة بالتغيرات الطارئة في الدورات التجارية العالمية. ولم تكن قوة اقتصاد المملكة الشريفة الاقتصادية وإشعاع ثقافتها لتجعل الأمير غير أبه بتجدد البنيات والمنتجات والناس في هذا النظام الاقتصادي الجديد الناشئ من جديد، انطلاقا من المحيط الأطلسي.

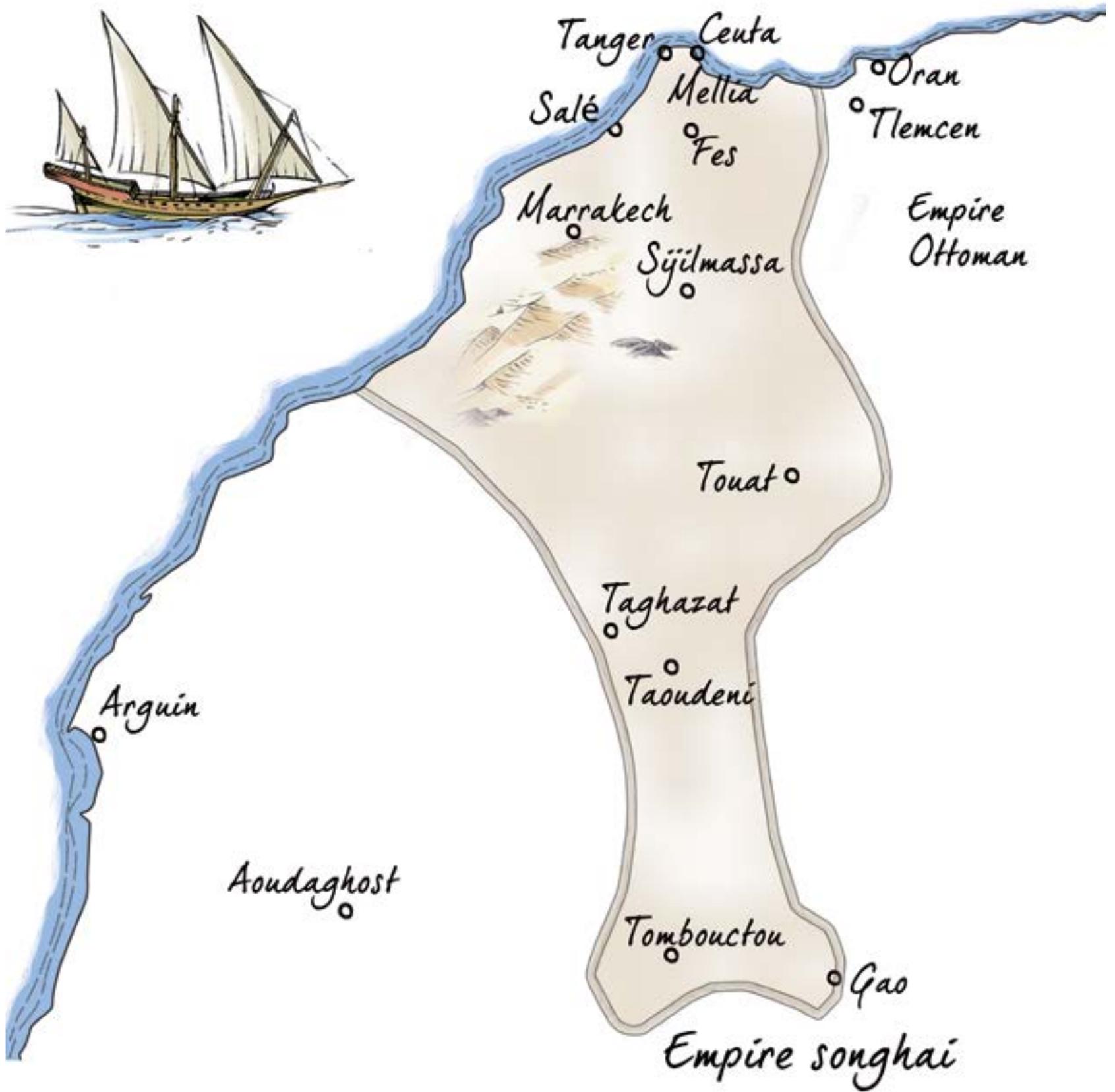
لقد أفلح المنصور في انتزاع مبايعة سلطان بورنو إياه، ببيعة واضحة لا لبس فيها؛ ذلك أنه أعلن أنه يقدم بيعته للمملكة الشريفة «من جيل لآخر ومن قرن إلى آخر حتى يرث الله الأرض ومن عليها وحتى تقوم الساعة»<sup>27</sup>. ومنذئذ قرر الأمير السعدي حشد جيوشه لغزو السودان. لكن الجيوش المغربية كانت قد تغلغت في نهر السينغال سنة 1584<sup>28</sup>. ومعروف أن المغاربة كانوا يتدخلون باستمرار في نهر السينغال وأبعد من ذلك ليمارسوا التجارة ويبادلوا خيولهم بالعبيد.

لقد كانت الخيول المغربية مفضلة لدى ملوك الولوف (Wolofs). ويقول في ذلك ل. ا. ويب (L. A. Webb): «لعبت تجارة خيول الحرب لشمال إفريقيا والصفة الجنوبية للصحراء الغربية دورا حاسما في الاقتصاد السياسي لإمبراطوريتي مالي والولوف، على الأقل من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر، وفي اقتصاد دول صغيرة تركز على الفروسية وتقع في السافانا الغربية، وذلك من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر»<sup>29</sup>.

ولم يكن لهذه الحركات «البندولية» أن تتحقق إلا بوجود «بيعة» أو على الأقل اتفاق سكان الصحراء وإدماجهم الفعلي بالتراب الذي تسيره المملكة الشريفة. ولم يكن للمخزن معنى سياسي ولا سيما اقتصادي إلا بتدبيره ما يسمى بالسبية، ذلك أن استقرار المملكة إنما كان يتعلق به. وقد كان العنصران المذكوران متكاملين في ديناميتهما وتمثليتهما، وهو الأمر الذي مكن سلاطين المغرب من فرض البيعة على مجموعة من الإمارات في هذا الجزء من القارة. ومن الثابت أن الحملة التي شنتها الجيوش المغربية على السودان كانت تتضمن بعض القبائل الصحراوية وخاصة قبائل الجنوب المغربي مثل تكتة (Les Tekna).

حسب دولاشابيل (de la Chapelle) «لقد جعل السلاطين - الذين ولدوا في إحدى قرى واحات درعة العليا التي تفضي إليها تجارة القوافل - من الصحراء وموريتانيا والسودان مناطق مغربية إن جاز لنا القول (...). فكثير من قبائلهم كانت قد غادرت درعة السفلى لاجتياح أدرار الموريتانية والزحف إلى السينغال وحتى النيجر. ويبدو أن قبائل تكتة قد قدمت نصيبها في هذه الهجرة؛ فأيت بلا (Ait Bella) أتوا إلى أدرار حوالي القرن السابع عشر ثم تقدموا حتى تيشيت في بداية القرن الثامن عشر. وكذلك الحال بالنسبة إلى آيت لحسن الذين استقروا بموريتانيا الغربية حيث لا يزالون (إيدا بلحسن (Ida Belhasen))»<sup>30</sup>.

إن غزو السعديين للسودان سيكون العنصر الذي يبين باللموس إرادة المملكة الشريفة في بسط نفوذها على منطقة هي محط أطماع أم عديدة. وهذا الجانب من المسألة يبدو لنا مهما بالنظر إلى أن هذه المنطقة التي شهدت حملة مسعورة للأوروبيين على إفريقيا ما انفكت تجذب المستكشفين الأكثر جرأة، إلى درجة أنها أنستهم أن سابقهم كانوا قد أرسوا إلى الأبد التاريخ الغني جدا للعلاقات «بين البلدان الإفريقية». بالفعل إن خريطة هذا الجزء من العالم التي يظهر فيها ملك ميلي (Melli) وبين أصابعه قطعة من التبر ما انفكت تثير فضول عالم متأزم. ومن الأهمية بمكان أن نتذكر الكلمات التي نطق بها الأمير عندما عقد العزم على قيادة جيشه حتى أبواب تنبكت. وحسب ميشيل أبيطبول الذي يورد كتابات الإفرائي، فإن الأمير كان قد استدعى جميع مستشاريه ليخاطبهم بهذه العبارات: «لقد قررت أن أهاجم أمير كاغو (Kaghou) وهو حاكم السودان وأرسل الجيوش لمحاربتة وذلك لجمع شمل المسلمين وقواتهم حول فكرة واحدة. وبما أن السودان بلد غني ويوفر ضرائب ضخمة<sup>31</sup>، فإننا نستطيع كذلك أن نولي أهمية أكبر لجيوش المسلمين ونقوي شوكة المؤمنين. هذا وإن الزعيم الحالي للسودانيين الذي يسطر عليهم سلطته الملكية قد نحي عن وظائفه بموجب الشرع لأنه لا ينتسب إلى آل قريش ولا يتوفر على أي شرط من الشروط الأخرى كي يحظى بالسلطة الأسمى»<sup>32</sup>. إن هذا المقطع يستحق التعليق؛ لأننا نجد وراء الحجة الدينية ذكرا لسودان «غني ويوفر ضرائب ضخمة». أكان الأمير يقول ذلك بوازع البر والدين الذي يشكل توسيع الإمامة الإسلامية خلفيته أم كان يجذبه التحكم في السودان الذي يزخر بثرواته ويوفر ضرائب ضخمة؟



إن الواقع الجيوسياسي لتلك الحقبة يجعلنا نعتقد، كما يسجل ذلك أبيتبول، أن الأهمية الاقتصادية للمنطقة كانت سببا حاسما في قرار الأمير وفي إطلاق حملته رغم مخاوف مستشاريه، وتبدو جلية في هذا الحوار:

«سيدي إن قراركم أبعد ما يكون عن الصواب؛ فكيف خطر ببال أمير بينما لم يكن ليخطر ببال قاطع طريق؟ وما معنى ذلك؟»

أيها الأمير (...). إن بيننا وبين السودان صحراء شاسعة لا ماء فيها ولا نبات، ويصعب عبورها حتى إن القطار لن تعبرها دون خوف (...). فلا المرابطون ولا الموحدون ولا المرينيون حاولوا ذلك من قبل، وإننا لنأمل أن تقتنوا آثار هذه الحكومات لأن المحدثين لا يفوقون القدماء ذكاء»<sup>33</sup>.

وفي نهاية المطاف شرع الأمير في شرح الإستراتيجية العسكرية للحاضرين بين يديه ولاسيما تفوق جيشه الذي كان قد حصل على أسلحة لم تعرف من قبل، مثل هذه الأسلحة النارية «ذات الدوي المرعب»: المدافع<sup>34</sup>. ويمكن أن نقرأ العقلية الاقتصادية للأمير عبر ما يقوله أبيتبول في هذا المضمرة: «إن السودان في نهاية المطاف بلد أغنى من إفريقية، وسيكون غزوها أكثر نفعاً من محاربة الأتراك، وهو ما (...). سيسبب كثيرا من المتاعب لأجل ربح ضئيل»<sup>35</sup>. إن العبرة واضحة: الغلبة تكون للاقتصادي لا للديني.

لقد جسدت معركة تونديبي (Tondibi) وهزيمة صونغاي التوسع الترابي والثقافي للمملكة المغربية. وسيكون رمزها هو الاستيلاء على مدينة تنبتك (Tombouctou) ونفي العديد من العلماء إلى المغرب ومنهم العالم الشيخ أحمد بابا الذي ملأت شهرته الآفاق في كل بلدان المغرب. وما كان لهذا الواقع التاريخي ألا يسترعي اهتمام الأوروبيين وخاصة البرتغاليين الذين كانوا يخشون أن يخضع المغرب لمملكات السينغال - غامبيا لسلطته. لقد كان الذهب يأتي من السودان بكمية وفيرة ويسمح للمملكة بسك عملتها والإشعاع فيما وراء البحر الأبيض المتوسط. ومنذئذ بدا المنصور لمعاصريه «أغنى أمير في العالم». وقد كان يجسد صورة ملك عصري قادر على ملاءمة اقتصاد مملكته لواقع العالم الجديد (أهي عولة قبل الأوان؟). وينبغي أن نسجل أنه في أثر هذا الذهب الآتي من المناجم السودانية كان هناك «نقل»، إجباري حتى، للزنج الذين سيأتون لتقوية صفوف الجيش بالمملكة الشريفة وبالتالي تعزيز ساكنة المغرب وتنويعها. ومن المعروف أن ذرية هؤلاء العبيد الذين قدموا مع الباشا دجودر (le Pacha Djouder) (20000) سيشكلون فيما بعد «عبيد البخاري»، جيش السلطان العلوي المولى إسماعيل.

نساء من مختلف الألوان شاهدات على التمازج الإثني بالصحراء، (ب.ت.).





كان المنصور يفتخر بحكمه لمملكة تشمل «المملكات السودانية» من المحيط الأطلسي إلى الحدود الجنوبية للمغرب وحتى بلاد كانو (Kano) المتاخمة لبورنو (Borno)<sup>36</sup>. وسواء كان ذلك مبالغاً فيه أو لا فإن الأمير نجح في حملته وهو ما اعتز به المغرب رغم ما كلفته تلك الحملة للبلاد.

كل هذا التاريخ الغني المعقد العريق سيكون القاعدة التي ستبني عليها علاقات دائمة مازالت تفسح للمملكة مكانتها في العالم الإفريقي. إنه تاريخ يحدد الانتماء الإفريقي الأكيد للمغرب وضمانة علاقات اجتماعية ستتقوى على مر العصور<sup>37</sup>. وتبين الخريطة أسفله نطاق توسع المملكة المغربية في عهد السعديين بعد غزو الأمير المنصور للسودان.

## المغاربة بإفريقيا الغربية : واقع اجتماعي يتجاوز مركانتيلية القطيع

من التجارة إلى الاختلاط : بقايا «اثنية» مشتركة

لقد رأينا أن علاقات المغرب ببلاد السودان تعود إلى زمن سحيق وأن هذه العلاقات جديرة بالتحليل لأن هذا التاريخ لا يمكن أن يمر عليه مرور الكرام . إنه مكون للوحدة التاريخية للأقاليم المغربية رغم نشوء واقع جديد فرضه الاستعمار الأوروبي على هذا الجزء من القارة . لكن لنسجل أن هذا الاستعمار لم يستطع القضاء على هذه الدينامية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية رغم عمق الخلخلة التي أحدثها بوضعه الحدود وتحديد المجالات و«احتجازه» شعوبا لم يكن أي شيء يفرق بينها .

ورغم أن هذه الهجرة إلى السينغال حديثة العهد (أواسط القرن التاسع عشر) فإنه ينبغي الانتباه إلى أنها أبعد ما تكون عن مجرد بحث عن الخيرات عن طريق التجارة<sup>38</sup>.

وفي دراسة حديثة نسبيا يحاول المؤلفون استكشاف تاريخ الهجرة المغربية في ثلاثة بلدان من إفريقيا الغربية، هي ساحل العاج ومالي والسينغال . وإذا كانت العينة الرئيسية التي اعتمدها هؤلاء المؤلفون هي التجار فإنه يحق لنا أن نذكر أن تأويلنا للنتائج التي توصلوا إليها يتجاوز المظهر الاقتصادي الذي غالبا ما تختزل فيه أشكال الاندماج الاجتماعي والانتماء إلى فضاءات ثقافية جديدة . ونحن باتباعنا هذا المنهج إنما نريد تسليط النور على ما سميناه تاريخية العلاقات المغربية الإفريقية لكي نبرز هذه الذاكرة التي ما فتئت تغذي العلاقات التي تكاد تربط يوميا المملكة ببلدان جنوب الصحراء .

وفي هذا القسم من الدراسة سنلخص ونعلق على تحاليل مؤلفي هذا الكتاب المنشور عام 1997 حول الحضور المغربي بإفريقيا الغربية<sup>39</sup> . وستمكننا هذه المقاربة من تتبع تطور تحولات العلاقات المتبادلة التي وجدت على الدوام بين ما يمكن أن نسميه منذ الآن فصاعدا ضفتي الصحراء . ومن المؤكد أن المغاربة الأوائل الذين استقروا بالسينغال أسسوا عناصر الثقافة بسان لويس (Saint-Louis) إحدى أولى المدن الناجمة عن الإرادة الاستعمارية بغرب إفريقيا .

بالفعل، لقد تجسد وصول التجار المغاربة إلى المدينة الكولونيلية في اندماجهم الاجتماعي واختلاطهم بالسكان المحليين . ورغم استمرارهم في الحفاظ على ثقافتهم فإنهم سينتسبون إلى هذا المجتمع الحضري الجديد الناشئ وسيجدون لهم فيه موقعا . وتشكل بعض الأسر التي تركت بصماتها البارزة في المجتمع السينغالي مثلا حيا ودليلا قاطعا على اندماج ناجح . ولئن كان عدد هذه الأسر محصورا فإن هذه الوضعية شكلت نموذجا واضحا يبين لمؤلفي الكتاب أهمية الحضور المغربي بإفريقيا الغربية، فنراهم يقولون : «إن المغاربة، مقارنة بالأجانب الآخرين المقيمين بالسينغال، هم الأكثر اندماجا بالمجتمع السينغالي وهم الذين يربطون أحسن العلاقات مع السينغاليين»<sup>40</sup> (1997 : 67) . وتتجسد هذه القولة في دينامية بعض الأسر التي استطاعت أن تندمج أثناء استقرارها بسان لويس، ذلك أن بعض أفرادها لم يستثمروا في المجال الاقتصادي فحسب بل بلغوا كذلك مراتب عليا في الإدارة، ونذكر على سبيل المثال مريم كنون (Meryem Guennoun) ومختار الديوري (Mokhtar Diouri)؛ لقد كان كلاهما مستشارا للرئيس السينغالي عبدو ضيوف (Abdou Diouf)<sup>41</sup> .

ولا يقتصر اندماج المغاربة على السينغال بل يمكن ملاحظته كذلك بمالي؛ فالدراسة المرتكز عليها هذا الجزء من النص المذكور تستعرض بتفصيل الحضور المغربي بمدينة تنبكت العريقة التي ما زالت شهرة مخطوطاتها تشغل مواضع الكتابة التاريخية الغرب إفريقيا<sup>42</sup> (أبو الفرح وعلي (Abou Al Farah & Ali : 1997 : 151 - 262) .

ويعرض المؤلفون للعلاقات التجارية القديمة بين الترابين وهي علاقات تمتد جذورها إلى التجارة عبر الصحراء وإلى المبادلات التي نجمت عنها. وإذا كان احتلال فرنسا المتأخر للسودان (1894) قد أحدث قطيعة في تاريخ المبادلات الطويل هذا، فإنه لم يكن ليمس العلاقات أو يوقف صيرورة اندماج المغاربة بمالي. لقد فرض الاستعمار قانون «بطاقة الأجنبي» في كل شبر بإفريقيا وحدد الإقامة في أسبوعين لا غير، بينما كان بإمكان تجار القوافل المكوث شهرين إلى ستة أشهر<sup>43</sup> (أبو الفرح وعلي (Abou Al Farah & Ali 1997 : 153)). إن هذه القوانين التي تحد من تحركات «الأجانب» تمس المغاربة الذين يزاولون التجارة على التراب المالي. ويورد يحيى أبو الفرح وعلي مضمون رسالة لحاكم السينغال يعود تاريخها لسنة 1916 : «أرغب كثيرا (... ) في ألا يظل المغاربة يتحركون بحرا بكل حرية في هذا الظرف من ميناء لآخر وذلك من إفريقيا الغربية إلى الجزر الجعفرية أو بفرنسا»<sup>44</sup>. إن الحكم واضح لا لبس فيه : ينبغي الحد من نشاط التجار «الأجانب» بل خنقهم. وسيسلك آخرون طريق ساحل العاج الذي كان قد أصبح الرئة الاقتصادية لإفريقيا الغربية، وذلك تزامنا مع تطور ما كان الكثيرون يسمونه «فلاحة الترف». لكن ينبغي أن نسجل أن كثيرا من المغاربة لم يتخلوا عن روابطهم السينغالية لأنها بالنسبة إليهم أكثر ضمانا للأمن والطمأنينة.

### اليوم : في سياق الدراسات العليا<sup>45</sup>

منذ الاستقلال اغتنت هذه الساكنة «العريقة» بتبادل الطلبة الذين يتابعون دراساتهم في المعاهد والجامعات الخاصة بكل من البلدين.

وهناك اليوم عدد هام من الطلاب المغاربة يتابعون دراساتهم بكليات الطب والصيدلة وطب الأسنان بالسينغال. والواقع أن المبادلات بين المغرب والسينغال في المجال التربوي تبدو أهم مما هي عليه بين المغرب والبلدان الأخرى جنوب الصحراء، حتى وإن كان التعاون في هذا المجال قد تنوع مع قدوم متعلمين من جنسيات مختلفة (كونغوليين وغابونيين...).

تستقبل الجامعات والمعاهد المغربية عددا هاما من الطلبة الأفارقة. أضف إلى ذلك أن جودة التعليم وجرأة السلطات المغربية - التي تمنح ما يربو على 8000 منحة سنويا - من الأمور التي تسمح بالحفاظ على هذه الوجهة والرفع من صورة بلد لا يكف عن تحديث بنيات الاستقبال فيه.

إن تنوع المسالك التعليمية بفضل نظام الماستر من العوامل الرئيسية في هذا المضمار؛ كما أن التظاهرات العلمية التي تحتضنها البلاد وجودتها المتميزة تجعل من المغرب بلدا يمكن بل يجب على جزء من القارة الإفريقية الاعتماد عليه.

واليوم هناك أشكال أخرى من العلاقات المتقدمة ترى النور وتسمح بالقول إن تاريخية العلاقات بين ضفتي القارة ما فتئت تتقوى وتتعزيز. واليوم كما بالأمس تحل كثير من مقاولات المملكة الشريفة ببلدان جنوب الصحراء شاهدة بذلك على حيوية اقتصادية لا يرقى إليها الشك وتستحق اهتماما خاصا. وعلاوة على ذلك فإن الخبرة المغربية مطلوبة في مجالات متنوعة كما هو الحال بالنسبة إلى قطاع البناء والأشغال العمومية. إن الأدمغة المغربية تجوب القارة الإفريقية وتجد بها مستقرا بفضل حنكتها وتنافسيتها. وإننا لتساءل في الختام قائلين : ألا يجب أن يشكل النموذج الاقتصادي المغربي مثلا يحتذى للدفع قدما بسياسة تعاون خلاق بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا جنوب الصحراء في عالم يعرف تحولا عميقا؟

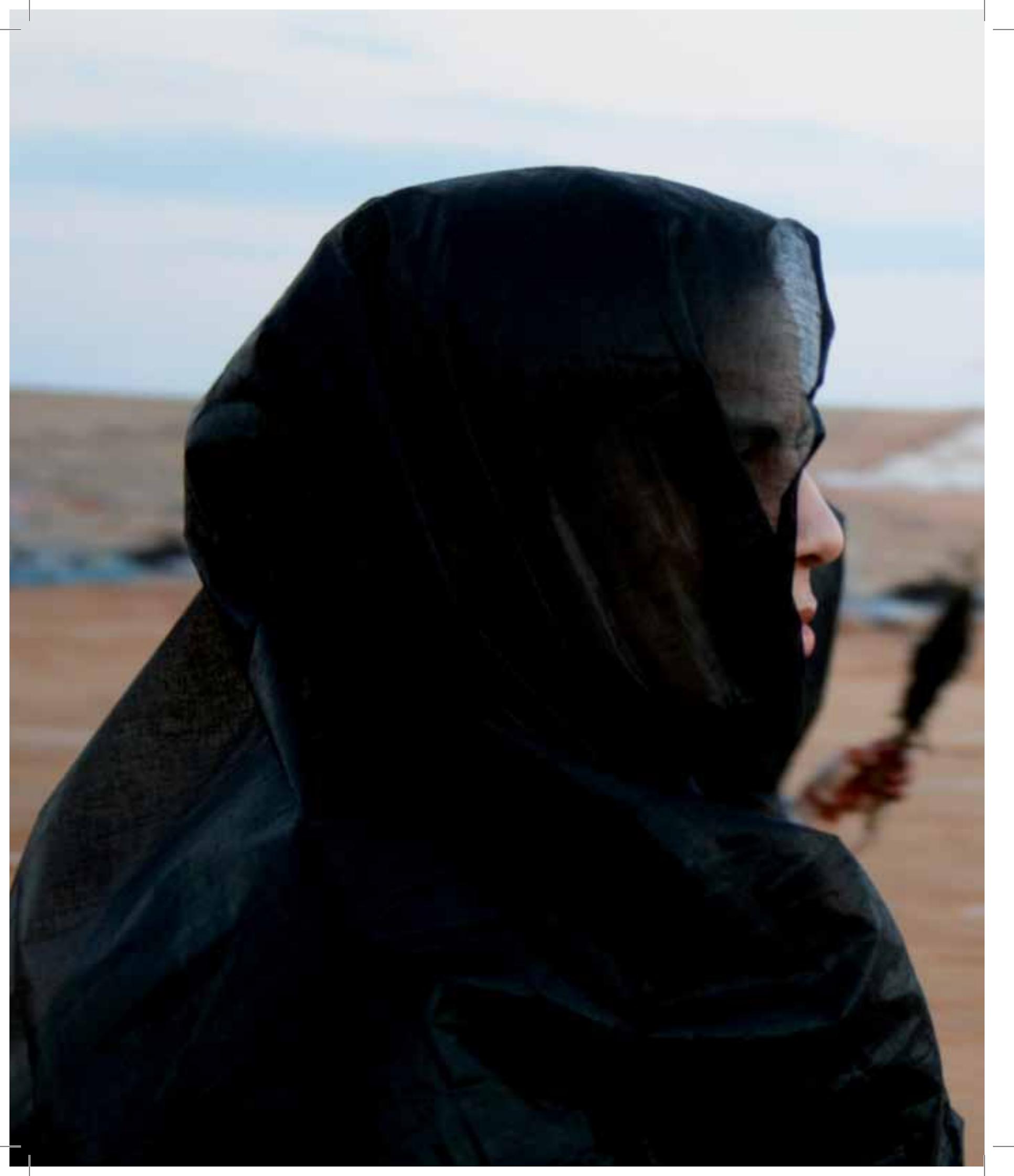
## خاتمة :

حتى ندرك جيدا هذه الذاكرة المشتركة

إن التذكير بهذا التاريخ كان ضروريا لإدراك تاريخية الدينامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمغرب الحديث حتى تكون أداة لتحليل هذه المكانة الرفيعة التي ما انفكت المملكة الشريفة تحتلها على الخريطة الاقتصادية للقارة الإفريقية. ولم يكن ممكنا، في نظرنا، ألا نخرج على هذه الزاوية التاريخية الضرورية لتوضيح الجذور العميقة لسياسة التعاون هذه التي تفعل فعلها انطلاقا من نظرة واسعة على الجغرافية السياسية الجهوية والقارية بل والعالمية كذلك.

إن كثيرا من الأفكار المسبقة تجعل من العلاقات الإفريقية-المغربية علاقات متراخية بينما يبين التاريخ تكاملا قويا عريقا بين شعوب واقتصاد هذه البلدان، وهو تكامل يحاول ضيق الحدود الموروثة عن الاستعمار أن يجعله منعدما. ويبدو لنا أنه من الضروري تنفيذ هذه «الثنائية» المزعومة بين عالمين يسمى أحدهما مغاريا أبيض والآخر جنوب صحراوي أسود يختلف أحدهما عن الآخر بل يكن له العدا. ولفهم الواقع فهما أعمق يجب بكل تأكيد فتح حقل حقيقي للبحث وإغنائه بدراسات علمية جديدة لإبراز ضرورة تعزيز التعاون بين الضفتين، وذلك لمواجهة الاختلالات الناجمة عن العولمة. ولبلوغ هذا المرام، وجب تشجيع التعاون العلمي وتبادل التجارب ولاسيما تدريس هذا التاريخ الذي تكاد الأجيال الحالية لا تعرفه إلا قليلا أو هي تجهله مطلقا. وستسمح هذه الجهود المبذولة لتعزيز المعارف المشتركة - انطلاقا من التجارب التاريخية المشتركة - بإعادة بناء علاقات قادرة على إبراز تداخل الشعوب وتكاملها. وإنه لمن باب المحال أن يكتب تاريخ هذه المنطقة بشكل منفرد لأن الشعوب تتشابك إلى حد تتشوش فيه وتختلط الإثنيات الخاصة بنا وتوارى خلفها المرسومة بشكل أحادي وطنيا وبالتالي فهي منغلقة في حدود أصبحت ثابتة.

لقد بين الدرس الهام المستخلص من ندوة الداخلة انطلاقا من حالة الناطقين بالحسانية أنه من باب المستحيل كتابة تاريخ هذا الجزء من المغرب دون الرجوع إلى تاريخ الكنفدراليات القبلية لموريتانيا مثلا أو تاريخ الإثنيات السوداء لغرب إفريقيا<sup>46</sup>. إن التجاورات الترابية تجعل من المغرب الصحراوي محطة حقيقية لتبادل الثقافات وتداخلها. وإن مدينة الداخلة تشمل منطقة وسيطة بين ضفتي الصحراء، وهي مدعوة لأن تقوم بدور أساسي في وصل هذه الثقافات المشتركة وهذه الاقتصادات التي عليها أن تعزز تكاملها إن هي أرادت ألا تفقد مرة ثانية مكانتها في إعادة التنظيم الجارية، الخاصة بدورات التجارة الحديثة ومساراتها. ولعل مدينة الداخلة (والصحراء المغربية عموما) مدعوة في المستقبل إلى الاضطلاع بالدور الذي لعبته سوس في التجارة عبر الصحراء. ولهذا نقول على سبيل الختم إن مغربية الصحراء تتفق وإفريقية المغرب. وهذه هي المسلمة التي حاول هذا النص أن يبينها.



## هوامش

«Le Maroc : une abolition de facto tardive» (ص ص 145-187) لفهم كيف استمر استعباد الزنوج حتى بداية الستينيات بالمملكة الشريفة. إنهم يشتركون في موسيقاهم مع بيضان وحراطين موريتانيا؛ وقد يشكلون هذه الجماعة البشرية التي تستوطن جزءا كبيرا من المغرب وبشكل أوسع موريتانيا. وسيكون من الأهمية بمكان إنجاز أبحاث حول هذه المجموعة البشرية لفهم أصلها بشكل جيد والوقوف على ما أسهمت به في الثقافة المغربية الحديثة. أنظر كذلك مقال م. ميزادا ور. فيرنانديز مانزانو وإسماعيل حيزرة (M. Maizada, R. Fernandez) (Manzano et Ismaïl Haidara Introduction à la) «مدخل إلى التقليد الموسيقي للرماة بحوض النيجر» (du Niger tradition musicale des Arma de la boucle معرفتة التأثيرات الصوتية الموسيقية المغربية في موسيقى الرماة. ويكتب المؤلفون قائلين : «إن موسيقى مخزن تنبكت هي مثل تاريخ هذا الشعب، التقاء وتقاطع لأشكال من شمال إفريقيا والعرب والأمازيغ والموريسكيين وزنوج إفريقيا. وقد كان بالإمكان انطلاقا من هذه العناصر خلق ثقافة وهوية خاصة تتجلى في الرصيد الموسيقي المتنوع خلال الأعياد والحفلات...» (ص 336)، ولمعرفة جزء من إسهام هذه الجماعة البشرية انظر مقالنا «موسيقى ورقص حراطين موريتانيا...» (Musique et danse des Haratins de Mauritanie) (أنظر البيبليوغرافيا). وإنني لأظلم مقتنعا بأن لا شيء يمكنه أن يعبر عن الهوية المختلطة لشعب ما أكثر من موسيقاه.

17 - السعدي، ع.، تاريخ السودان، تحقيق وترجمة للفرنسية: هوداس - بونوا، طبعة باريس 1981.

18 - سياسة التعرف على الجماعات البشرية مثل الأمازيغ والناطقين بالحسانية.

19 - تحفظ الذاكرة الشعبية باعتزاز لدى سكان فوتا تورو (Fuuta Tooro) (وادي نهر السينغال) أن واحدا منهم (ملك مملكة التكرور) واسمه وار ديابي (War Diabi) شارك بجيوشه في فتح إسبانيا المسيحية. وليس الأمر مجرد تذكير بل ينبغي أن نبرز وجود تحالفات مبنية على أساس الدين لمواصلة الضغط على هذا الجزء من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط؛ غير أن القرابة الدينية ليست وحدها القاعدة الرئيسية التي ستبنى عليها التحالفات التي نسجها هؤلاء المغاربة مع الجزء الإفريقي الواقع جنوب الصحراء المغربية الحالية. اقرأ بهذا الصدد مقال عمر كان «العلاقات بين المغرب والدول الواقعة على ضفاف نهر السينغال من نهاية القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر» Les relations entre le Maroc et les États riverains du fleuve Sénégal de la fin du XV<sup>e</sup> siècle au milieu du XVIII<sup>e</sup> siècle «التسويق العلمي لفاطمة

6 - هذا النقاش حول قراءة «التاريخ الجهوية» يطرح المسألة الشائكة الخاصة بكتابة تاريخ وطني يعترف به ويقبله كل الفاعلين أيا كانت الجهة التي ينتمون إليها. فضلا عن ذلك، فإن هذا النقاش الهام لا يخص فقط هذه الجهة التي احتضنت الندوة وإنما هو قاسم مشترك بين بلدان أخرى من القارة الإفريقية، بل إنه يطال مناطق أخرى من العالم. وهكذا فإن مهمة المختصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية تغدو أكثر تعقيدا وأكثر عسرا. ونتيجة لذلك يفرض التفكير الذكي المنظم نفسه، ذلك التفكير الذي ينبغي أن يتخذ طابعا تتداخل فيه الاختصاصات ويندرج في إطار التاريخ المتجاوز للحدود لاستجلاء التشعبات العديدة التي تمكن من تجاوز الجزء للإحاطة بالكل الذي يعيد للتاريخ تماسكه وقدرته على إخبارنا عن التعقيدات الاجتماعية التي تنتجه.

7 - Ngaïdé. A. « Continuités culturelles et tentatives d'homogénéisation ! Les périphéries étatiques à l'épreuve du 21<sup>e</sup> siècle », *Annales de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines*, Dakar, 2008, n° 38 B., pp. 221-232.

8 - Foucault, M., *Dits et écrits I*, 1954-1975, Quarto/Gallimard, Paris, 2005, p. 1407.

9 - مصطلحات استعرتها من ميشيل فوكو (M. Foucault) op., cit., p. 1157.

10 - يستلهم هذا النص كثيرا من دراسات وتحليل ميشيل أبيطبول (Michel Abitbol) في المؤلف الذي خصصه لتاريخ المغرب.

11 - Abitbol, M., « Histoire du Maroc », Éditions Perrin, Paris, 2009, p. 60

12 - Ibid., p. 57.

13 - Ibid., p. 59.

14 - Ibid., p. 17.

15 - اقرأ بهذا الصدد مقالنا «من بلاد المخزن إلى بلاد السبية، استمرارية تاريخية أم إحياء؟» «- Bilad el-Makhzen au Bilad el-Siba. Continuité historique ou revitalisation» (أنظر البيبليوغرافيا).

16 - بقايا هذه التجارة البشرية (ولا ينبغي فهم كلمة بقايا بالمعنى القدحي) تشكل اليوم جزءا لا يتجزأ من الدول الحديثة رغم وجود بعض النعوت والأفكار النمطية المتولدة عن الذاكرات التاريخية والتي عملت التقاليد والروايات على استمرارها. ونذكر أنه خلال زيارة قمنا بها لمعرض «المتحف الصغير للمغرب الصحراوي» استرعى انتباهنا وجود عضوم من الساكنة الصحراوية السوداء التي تنتمي إلى هذه الجماعة البشرية الكبيرة للحراطين؛ وقد يكون أصل أسلافهم من مراكز التي كانت سوقا للعبيد المنحدرين من السودان (حوار مع بعض أفراد هذه الجماعة البشرية على هامش ندوة الداخلة). اقرأ الفصل الرابع من كتاب روجير بوت (Roger Botte) «المغرب: إلغاء العبودية متأخر بقوة الفعل»

1 - El Qadery, M., « L'Afrique a-t-elle perdu le Nord ? Le Maghreb et ses dichotomies coloniales », *Cahiers d'Études africaines*, L (2-3-4), 198-199-200, 2010, pp. 731.

2- سيكون من الصائب مساءلة هذا القسم النظري الذي أثارته ندوة الداخلة حتى تفهم بشكل جيد «الطلبات الاجتماعية» فيما يخص كتابه «التاريخ» وتتم الاستجابة بنجاعة للإرادات التي تديها السلطات العمومية في جعل سير كل مكونات المجتمع متجانسا.

3 - Kaddouri, A. « L'expédition d'Ahmed al-Mansour au Soudan. Historiographie et discours », in Harrak, F. (Coordination scientifique) « Le Maroc et l'Afrique subsaharienne au début des temps modernes », Publications de l'Institut des Études Africaines, Série : Colloques et Séminaires n°2, Rabat, 1995, p. 207.

4 - أعاد تييرنو موكتار با (Thierno Moctar Bah) النظر في بعض الدراسات التي تناولت التوسع المغربي بالسودان (أنظر البيبليوغرافيا). ومن بين ما ذكره هناك : أطروحة لضهيرو يحيى.

Dahirou, Y., « Morocco in the sixteenth century. Problems and Patterns in Africa Foreign Policy », Humanities Press Inc, 1981, 224 p.

Dramani, Z., I. « Les relations internationales au VI<sup>e</sup> siècle. Le Maroc et l'Empire Songhay », Paris, Karthala, 1982.

Dagnon A.-M., « Tondibi : Premier élément de désintégration africaine (cas de l'Afriquesoudanaise) », Mémoire de maîtrise d'histoire, Université de Yaoundé.

Niamkey Kodjo G., « Ishaq II et la fin de l'Empire Songhay (1588-1593) », Thèse, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Paris, 325 p. ; Iroko E., « La politique marocaine au Soudan : Vie-VII<sup>e</sup> siècles », Mémoire de maîtrise, Paris, Sorbonne, 1971.

Baba Kake I., « Djouder la fin de l'Empire Songhay, Paris », ABC, 1975; KABA, L., « Les archers, les mousquetaires et les moustiques. Une interprétation de l'invasion marocaine du Soudan et la résistance Songhay, (1591-1612) », Bifan, T. 42, Série B, n° I, 1980.

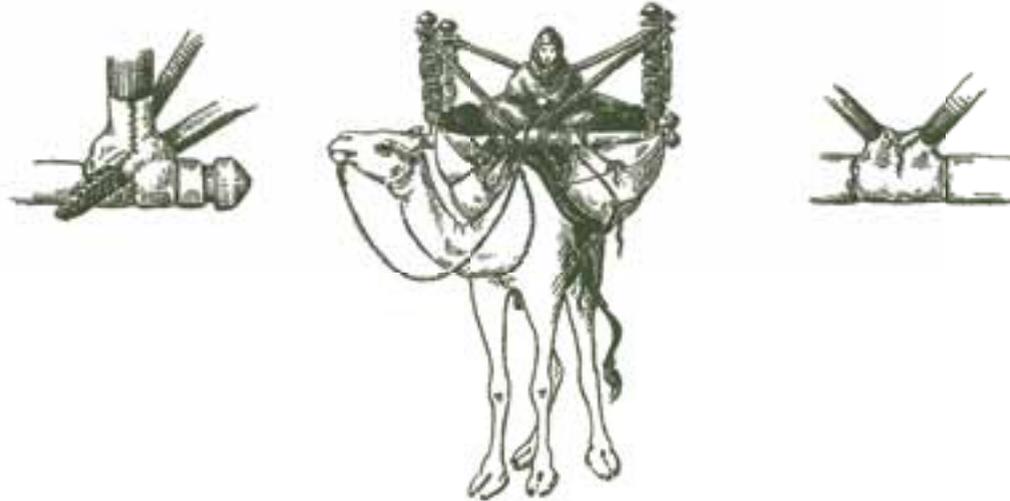
إن إنشاء معهد الدراسات الإفريقية (Africaines IEA) يتم عن إرادة لتصحيح هذه النزعة كما تدل منشوراته على المجهودات التي بذلها باحثوه لسد هذا الفراغ. أنظر بصدد هذا الموضوع مقال زهرة طموح (Zahra Tamouh) المذكور في لائحة المراجع.

5 - هنا يطرح السؤال التالي : هل يتم الإنتاج لشخص ما أو لوكالة العلم في بعده اللاشخصي ؟

- 37 - لم نتحدث في هذا النص عن العلاقات بين الإمارات المغربية لموريتانيا والمملكة المغربية.
- 38 - يرمز شارع محمد الخامس وسوق تيلين (Tilène) بالعاصمة السينغالية اليوم إلى تواجد التجار المغاربة في المشهد الحضري لمدينة داكار؛ وهم إما منحدرون من فاس أو من الصحراء المغربية.
- 39 - من الضروري أن نتحرى اليوم حول الرساميل المغربية (ومجالات تدخلها كذلك) المستمرة في الاقتصادات الإفريقية، لا لقياس مساهمة المغرب في تقدم بعض البلدان الإفريقية فحسب بل لإبراز دينامية المغرب الحديث في إطار العولة أيضا.
- 40 - Abou El Farah, Y., Akmir, A., Beni Azza, A., « La présence marocaine en Afrique de l'Ouest : Cas du Sénégal, du Mali et la Côte d'Ivoire », Publications de l'Institut des Études Africaines Série: Études (2), 1997, Rabat, p. 69.
- 41 - لا يمكن اعتبار هذين المثالين استثناء.
- 42 - Abou El Farah, Y., Akmir, A., Beni Azza, A., op.cit., pp. 151-262.
- 43 - Ibid, p. 153
- 44 - Ibid, p. 154.
- 45 - سيكون من المفيد تجديد الدراسات حول هذه الساكنة لفهم الأدوار الخاصة بكل المؤسسات التربوية في تكوين النخب الجديدة للبلدين. ونظرا لانعدام دراسات حول هذا الموضوع فإننا نظل في مرحلة المعاينة التجريبية.
- 46 - وتطبق هذه الملاحظة أيضا على كل بلدان القارة التي يجمعها مصير مشترك إذا جاز لنا أن نستعير عبارات لغة مخصوصة أضحت تقليدية.

- 29 - Webb, L. A. J. « l'échange commercial de chevaux contre esclaves entre le Sahara Occidental et la Sénégambie, XVII<sup>e</sup>-XIX<sup>e</sup> siècles », in Mariella Villasante - De Beauvais (sous la direction) « groupes serviles au Sahara. approche comparative à partir des cas des arabophones de mauritanie », CNRS-éditions, Paris, 2000, p 59.
- 30 - De La Chapelle, F. « Les Tekna du sud marocain. Étude géographique, historique et sociologique », Université Mohammed V-Agdal [Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines], Série : Les trésors de la bibliothèque, n° 11, [Présentation Rahal Boubrik, réédition de l'ouvrage publié en 1934] Rabat, 2011, p. 44.
- 31 - الكلمات المكتوبة في هذه القولة بحرف مائل هي من عندنا.
- 32 - Abitbol, M. « Histoire du Maroc », op., cit., p. 209.
- 33 - Abitbol, M. « Histoire du Maroc », op., cit., p. 209-210
- 34 - يجب ذكر أن هذه الأسلحة قد تم تجربتها خلال المرحلة السعدية وساعدت الجيش الشريفى على مواجهة ضعاف الإرادة المتشقين في المملكة.
- 35 - Abitbol, M. « Histoire du Maroc », op., cit., p. 210
- 36 - Ibid, p. 213.

- الحراق، «المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بداية العصور الحديثة»، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، سلسلة الندوات والمحاضرات، العدد 2 الرباط، ص ص 25-43.
- 20 - Abitbol, M., « Histoire du Maroc », op.cit., pp. 68-69.
- 21 - إقرأ باهتمام القسم الثالث من مؤلف ميشيل أبيطبول «Le temps des chérifs» (ص ص. 163 - 229) لإدراك أهمية هذا المقطع التاريخي في تاريخ المغرب وكذلك روابطه المتعددة مع بلاد السودان.
- 22 - Abitbol, M., « Histoire du Maroc », op.cit., p. 201.
- 23 - Ibid., p. 202.
- 24 - لمزيد من المعلومات أنظر التفاصيل الهامة التي أوردها ميشيل أبيطبول. Ibid., pp. 201-205.
- 25 - Ibid., pp. 205-206.
- 26 - BAH, T. M., « La bataille de Tondibi », in Harrak, F. (Coordination scientifique) « Le Maroc et l'Afrique subsaharienne au début des temps modernes », Publications de l'Institut des Études Africaines, Série : Colloques et Séminaires n°2, Rabat, 1995, p. 167.
- 27 - Abitbol, M., « Histoire du Maroc », Éditions Perrin, Paris, 2009, p. 208.
- 28 - إرجع إلى مقال عمر كان «العلاقات بين المغرب والدول الواقعة على ضفاف نهر السينغال من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر» لفهم العلاقات بين المخزن وهذا الجزء من إفريقيا.



## لائحة المصادر والمراجع

Abitbol, M. « Histoire du Maroc », Éditions Perrin, Paris, 2009, 673 p.

Abou El Farah, Y., Akmir, A., Beni Azza, A., *La présence marocaine en Afrique de l'Ouest : Cas du Sénégal, du Mali et la Côte d'Ivoire*, Publications de l'Institut des Études Africaines Série : Études (2), Rabat, 1997, 495 p.

BAH, T. M., « La bataille de Tondibi », in Harrak, F. (Coordination scientifique) *Le Maroc et l'Afrique subsaharienne au début des temps modernes*, Publications de l'Institut des Études Africaines, Série : Colloques et Séminaires n°2, Rabat, 1995, pp. 161-187.

Botte, R., *Esclavages et abolitions en terres d'islam*, André Versailles éditeur, Bruxelles, 2010, 388 p.

De La Chapelle, F., « Les Tekna du Sud Marocain. Étude géographique, historique et sociologique », [Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines], Série : Les trésors de la bibliothèque, n° 11, [Présentation BOUBRIK, R., réédition de l'ouvrage publié en 1934], Université Mohammed V-Agdal, Rabat, 2011, 111 p.

Du Puigauveau, O. *Arts et coutumes des Maures. Faire désirer le désert*, Éditions le Fenec, Rabat, 2009, 361 p.

El Qadery, M. « L'Afrique a-t-elle perdu le Nord ? Le Maghreb et ses dichotomies coloniales », *Cahiers d'Études africaines*, 2010, L (2-3-4), 198-199-200, pp. 731-754.

Foucault, M. *Dits et écrits I, 1954-1975*, Quarto/Gallimard, Paris, 2005, 1707 p.

Grey, J., *Relation de l'empire de Maroc de James Grey Jackson*, (Université Mohammed V-Souissi) Rabat, 2007 IEA, Séries : Traductions (2), Troisième édition, 304 p.

Harrak, F., (Coordination scientifique) *Le Maroc et l'Afrique subsaharienne au début des temps modernes*, Publications de l'Institut des Études Africaines, Série : Colloques et Séminaires n°2, Rabat, 1995, 376 p.

Ibn Khaldun, A., *Discours sur l'histoire universelle. Al-Muqaddima*, (Traduit de l'arabe, présenté et annoté par Vincent Monteil), Sindbad, Paris, 1997, 1132 p.

Kaddouri, A., « L'expédition d'Ahmed al-Mansour au Soudan. Historiographie et discours », in Harrak, F. (Coordination scientifique) *Le Maroc et l'Afrique subsaharienne au début des temps modernes*, Publications de l'Institut des Études Africaines, Série : Colloques et Séminaires n° 2, Rabat, 1995, pp. 207-218.

Kane, O., « Les relations entre le Maroc et les États riverains du fleuve Sénégal de la fin du XV<sup>e</sup> au milieu du XVIII<sup>e</sup> siècle », Fatima Harrak (Coordination scientifique) *Le Maroc et l'Afrique subsaharienne au début des temps modernes*, Publications de l'Institut des Études Africaines, Série : Colloques et Séminaires n° 2, Rabat, 1995, pp. 25-43.

L. A. Maizada, M., Fernadez Manzano R. et Haidara, I., « Introduction à la tradition musicale des Arma de la boucle du Niger », in Harrak, F. (Coordination scientifique) *Le Maroc et l'Afrique subsaharienne au début des temps modernes*, Publications de l'Institut des Études Africaines, Série : Colloques et Séminaires n°2, Rabat, 1995, pp. 325-361.

Ngäïdé, A. « Du Bilad el-Makhzen au Bilad el-Siba. Continuité historique ou revitalisation ? », in Laurence Marfaing et Steffen Wippel (Sous la direction), *Les relations trans-*

*sahariennes à l'époque contemporaine. Un espace en constante mutation*, Karthala, Paris, 2003, pp. 321-336.

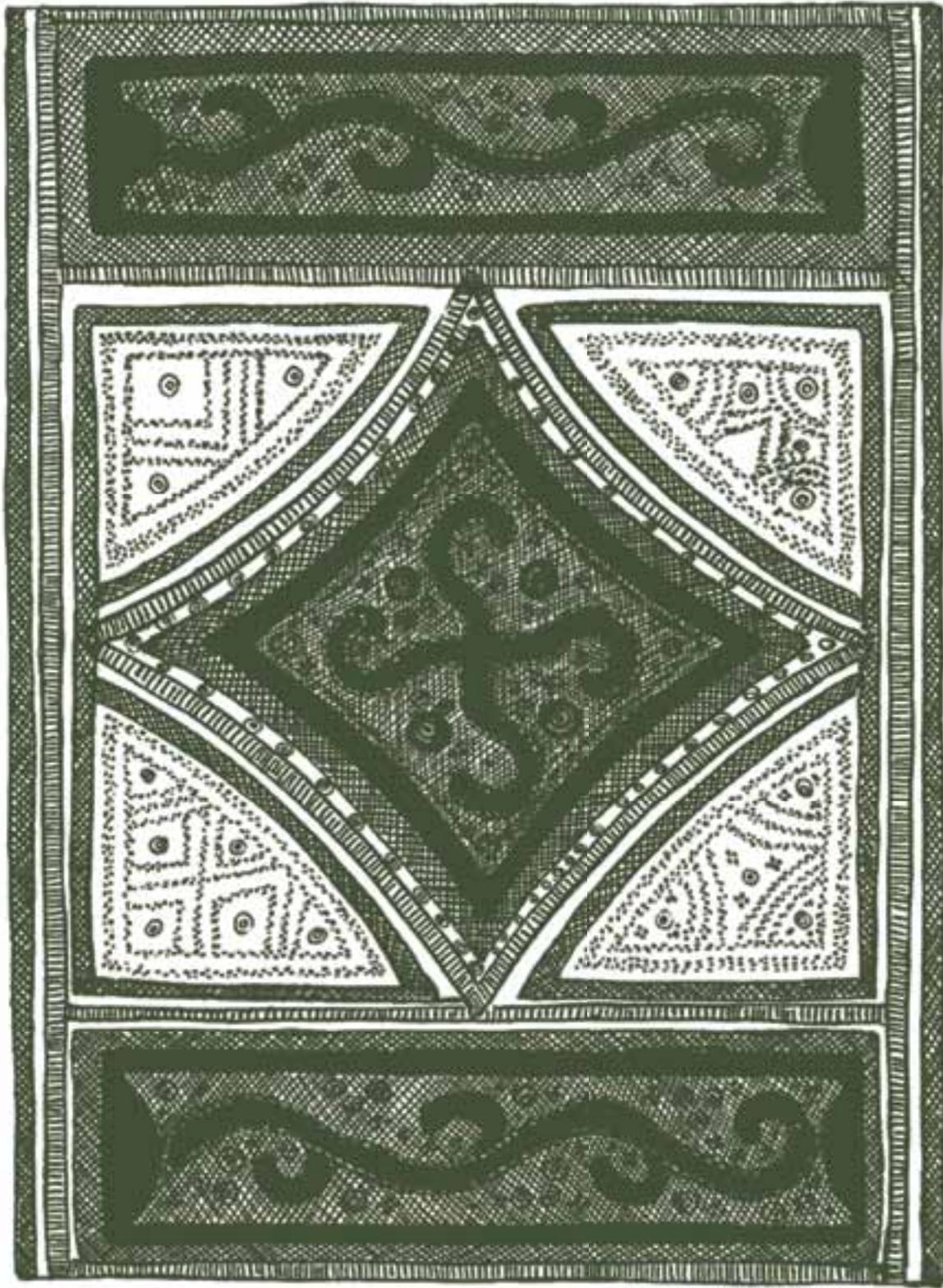
« Musique et danse chez les Haratin de Mauritanie : Conscience identitaire et/ou dissidence culturelle ? », *Afrika Zamani*, nos. 15 & 16, 2007-2008, pp. 1-25.

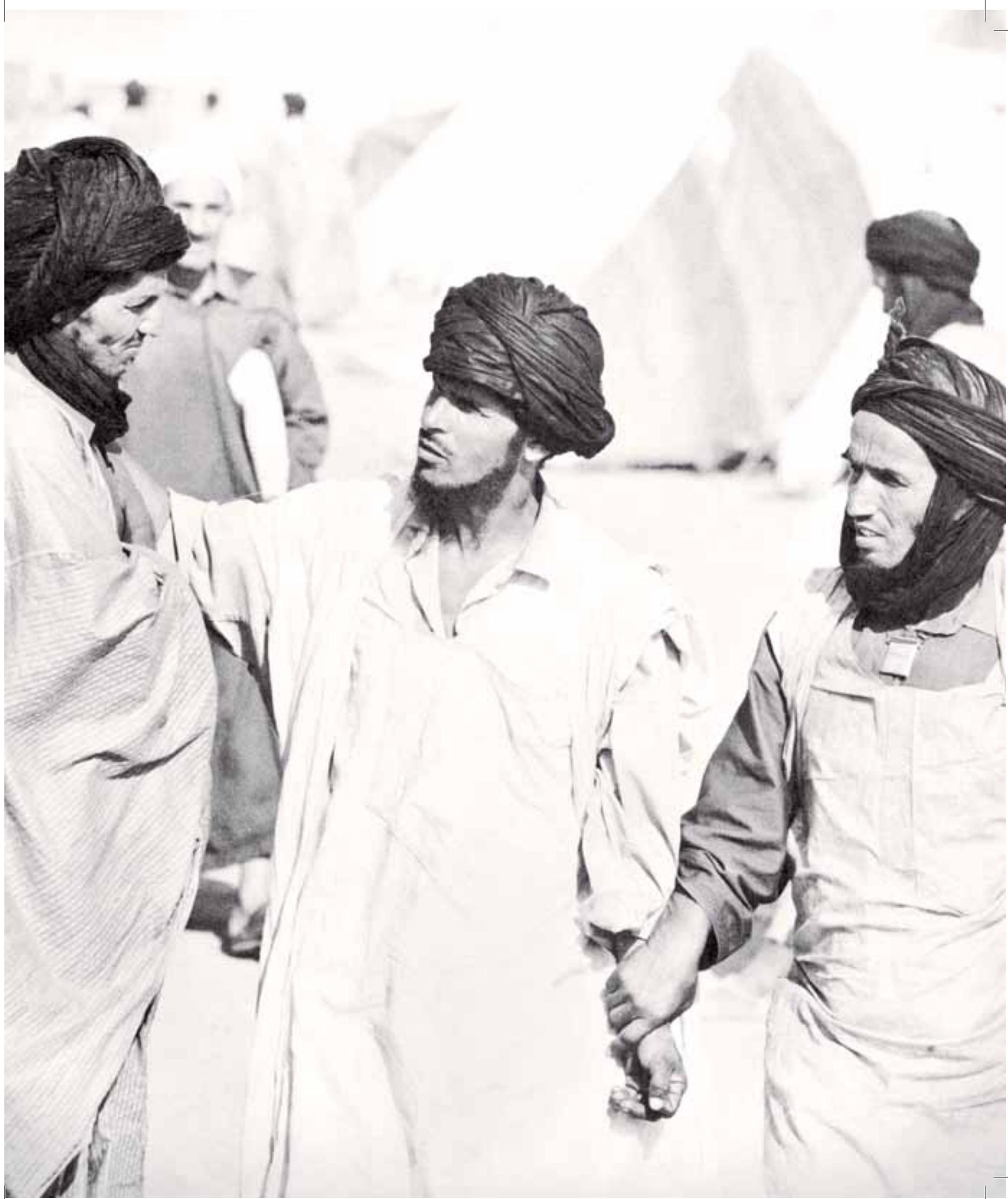
« Continuités culturelles et tentatives d'homogénéisation ! Les périphéries étatiques à l'épreuve du 21<sup>ème</sup> siècle », *Annales de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines*, Dakar, 2008b, n° 38 B., pp. 221-232.

« Peuplades anarchiques contre Nations à construire. Intégration invisible dans le bassin sénégal-mauritanien : Épreuve du peuple et/ou équation de l'État-nation (XIX<sup>e</sup> – XX<sup>e</sup> siècles) ? », in A. Diop & A. Niang Diene (éds) *Les États-nations face aux défis de l'intégration sous-régionale : Le cas du Sénégal*, Karthala, Paris, 2007b, pp. 153-183.

Tamouh, Z., « L'histoire interrégionale comme socle de l'intégration panafricaine : l'émergence d'une école des historiens spécialisés dans les relations du Maroc avec le Soudan », in B. A. Adandé (Sous la direction) *Intégration régionale, démocratie et panafricanisme. Paradigmes anciens, nouveaux défis*, Codesria, Dakar, 2007, pp. 21-33.

Webb, L. A. J., « L'échange commercial de chevaux contre esclaves entre le Sahara occidental et la Sénégambie, XVII<sup>e</sup>-XIX<sup>e</sup> siècle », in Mariella Villasante-De Beauvais (Sous la direction) *Groupes serviles au Sahara. Approche comparative à partir des cas des arabophones de Mauritanie*, CNRS-Éditions, Paris, pp. 59-81.





# بين الأسيير والباحث

عبد الكريم مدون

ارتبطت المرحلة ما قبل الاستعمارية والاستعمارية في المغرب بظهور مجموعة من الكتابات الأجنبية حول المجتمع المغربي، وقد صنفت هذه الكتابات بعد استقلال المغرب في خانة الكتابات الكولونيالية أي الدراسات التي حاولت قراءة المجتمعات المستهدفة من طرف الاستعمار الأوروبي. وهي دراسات اختلفت الأبحاث التاريخية حول القراءات الممكنة تجاهها بين منتقد ومنبهر وهما منهجان ارتبطا ببعدي الهدم المعرفي والتأسيس البديل لبنية المجتمع المغربي.

إن دراسة أي مجتمع قد تبدو عادية حينما يتعلق الأمر بالمعرفة النمطية والكلاسيكية لمجتمعات الاستقرار بحيث تصبح عملية ضبط حركية مثل هذه المجتمعات مبنية على ثوابت قد تتغير عبر الزمن الطويل وفي مجال محدد، لكن الأمر يختلف حينما يتعلق الأمر بغياب هذا البعد على مستوى المجال وعلى مستوى تعامل المجتمع مع تقلبات المحيط غير المستقر.

إن البحث في حركية المجتمعات المتحركة «الرحل» تقتضي محاولة وضع قراءة خاصة لهذه المجتمعات وذلك انطلاقاً من عدة مستويات ترتبط أولاً بضرورة فهم ينطلق من الممارسات الاجتماعية للفرد والجماعة داخل مجتمعات الرحل، وهي الممارسات التي يمكن من خلالها فهم أي تصرف في المكان والزمان الذي يصدر عن هذه المجتمعات، فمن المؤكد أنها تصرفات تبدو عادية إن هي قرأت لذاتها، وهي تبقى غريبة عند مقارنتها بممارسات مجتمعية نعبر عنها بالحضارية. إن مصطلح التحضر يبقى مبهما حينما نقارنه بعدم التحضر أو التوحش كما يؤكد على ذلك ابن خلدون حيث يقول:

« اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري وبسيط قبل الحاجي والكمالي... فالبدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عن ما فوقه... وأهل البدو هم أقرب إلى الفطر الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية... قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح... ببأسهم قد صار لهم البأس والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ... فلما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر... فصار لهم إلف وربيت فيه أجيالهم»<sup>1</sup>.

إن اعتماد النص الخلدوني يعتبر منطلقا لمقاربتنا للنص الأجنبي، هذا النص الذي يحمل إشكالا يتمثل في طبيعة نظرة الخطاب الفرنسي بالأساس، الذي اخترناه نموذجاً في هذه الدراسة، لمجال الصحراء والمجتمع الصحراوي المغربي؛ فإذا كان اختيارنا للنص الخلدوني يحمل تبريرات الفهم الخاص لمجتمع البدو فإن اختيارنا للنص الفرنسي يرتبط بمستويين من الكتابات.

الأولى صادرة عن الأسرى لدى القبائل الصحراوية خلال القرن الثامن عشر وقد اخترنا نصين لأسيرين، الأول هو صونيني (Saugnier) التاجر والمغامر الذي كان على متن السفينة *Les deux amis* والتي غرقت في 17 يناير 1784 في السواحل الأطلسية الممتدة بين رأس جوبي ورأس بوجدور.

أما النص الثاني فهو لبريسون (Brisson) وهو من عائلة نبيلة واشتغل في إدارة البحرية الفرنسية وقد كان على متن السفينة *La Sainte - Catherine* التي غرقت في السواحل الأطلسية في يوليو 1785 وقد أسر لدى قبيلتي أولاد بوالسبع ثم أولاد الدليم<sup>2</sup>.

المستوى الثاني من الكتابة له علاقة بالبحث الذي قد نقول إنه يكتسي صبغة علمية ويقترّب شيئاً ما من الطرح الخلدوني، وقد مزجنا في هذا المستوى بين البعد النظري والتطبيقي من خلال ما كتبه روبير مونطاني (Robert Montagne) في كتابه «حضارة الصحراء» وفي دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلسية.

إذا كان نص ابن خلدون يركز على مجموعة من الخصائص التي تميز البدوي في الصحراء خاصة مربي الإبل والتي حددها في التوحش والكفاف والكرم والشجاعة، فإن النص الفرنسي في القرن الثامن عشر اعتبرها نوعاً من التخلف وعدم التحضر، وهو رأي مخالف لما ذهب إليه مونطاني حينما اعتبر هذه الممارسات نوعاً من التحضر يجب دراستها لذاتها بالأساس، فهو يقول:

« يجب أن نكلف أنفسنا مجهود فهم البدو الرحل، من خلال محاولة التفكير كما يفكرون، لذلك لا بد لنا أن نتخلى عن أحكامنا المسبقة وعن طريقتنا في قياس الزمن وفي تقسيم المجال وفي استشراف المستقبل وكذا التخلي عن عاداتنا في الحكم على الناس والأشياء»<sup>3</sup>.

إن هذا الخطاب رغم كونه صادراً عن باحث يشتغل مع المؤسسة الاستعمارية في المغرب يحملهما علمياً يدخل في الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، حينما يصبح البحث العلمي الرزين أداة لفهم المجتمعات الصحراوية، حيث يدخل في هذا الاتجاه المؤتمر الذي نظّمته السلطات الاستعمارية الفرنسية حول المجالات الصحراوية بمعهد الدراسات العليا المغربي بالرباط في 3 ماي 1930، والذي أرادت من خلاله فهم الخريطة المجالية والاجتماعية لما كان يسمى بالصحراء الغربية.

## الترحال ممارسة اجتماعية وتوازن بيئي

ترتبط كلمة الرحل *nomade* بالأصل الإغريقي *nemo* أي توزيع أو تقديم جزء من المرعى لقطع من الماشية أو *Nomas* أي أرعى وبذلك فالسلوك الترحالي يعبر بالأساس عن نمط للعيش لا عن إثنيات وشعوب، فتصبح البداوة عبارة عن نمط في الحياة قائم على التنقل الدائم للإنسان في طلب للرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة من ناحية، وعلى كفاية الوسائل الفنية المستعملة في استغلالها من ناحية ثانية، وعلى مدى الأمن الاجتماعي الطبيعي الذي يمكن أن يتوافر فيها<sup>4</sup>. فالأصل في التنقل والترحال هو الإبل إذ هناك اتحاد وثيق بين الإنسان والحيوان إلى درجة أنه إذا غاب الجمل فسيستقر الرحل؛ فحركة الترحال هي حركة استراتيجية أكثر مما هي اقتصادية وهو ما يجعل ثقافة الرحل مبنية على التعقيد. ولا يمكن فهم مجتمعات الرحل في الصحراء دون فهم للعقلية التي تؤثت هذه البنية الاجتماعية التي لا يمكن أن تفهم إلا في إطار أدوار الفاعلين الاجتماعيين بحيث أن كل فاعل يؤدي دوره في إطار منظومة متكاملة متضامنة تحكمها قسوة البيئة والمجال، وهو ما يجعل أفراد هذا المجتمع يمارسون ثقافة تنعت بالنهب والوحشية وتنزع عنها صفة التحضر؛ فساكن الصحراء يتميز بممارسات فكرية وثقافية لها علاقة بالمجال من جهة وبالمعتقدات والفراغ من جهة ثانية. إن الفراغ والمجال القاحل قريب منهم ودائم ويومي، وبذلك فإن تقسيم الأدوار داخل المجتمع يحتمل الدقة من خلال الأدوار الموزعة بين أفراد العائلة أو العشيرة، وبذلك تصبح الروح الأنانية للفرد محددة تحديدا اجتماعيا بحيث، تعيش في إطار المقولات الذي يدين بها في تكوينه<sup>5</sup>، وهو ما يؤدي إلى اختلاف خبرات الأفراد وأدوارهم ومراكزهم في المجتمع بحيث يختار الفرد أدوارا ومراكز ووظائف قد لا يشارك فيها عدد أفراد المجتمع الآخرين<sup>6</sup>، كل هذه الأدوار تحمل خصوصية داخل المجالات الصحراوية، فهي تؤسس لبنيات ومعتقدات حامية للنفس والجسد وهي تؤمن المجتمع والقطيع ضد المخاطر وتجعله يؤثث لنفسه طقوسا خاصة في السفر والتنقل والسكن والأكل والشرب، وكل هذه التوجهات تحمل تيمات بيداغوجية وقيما تدافع عن استمرارية النظام وخلقها لتوازن بين الإنسان والبيئة.



إن هذه القيم والمعتقدات تبدو مشتركة بين جميع المجتمعات إلا أنها في المجالات الصحراوية ومجتمعات الترحال حيث الضعف الديموغرافي وصغر المجموعات الاجتماعية وهشاشتها تبقى متميزة، فأبي تغير عميق في علاقة المجتمع مع محيطه يترجم برد فعل آبي ويومي. إن معرفة طرق ومعتقدات تفكير هذه المجتمعات كفيل بفهمها، هذه المعتقدات التي لا يمكن أن تتغير ولا تتطور إلا إذا رأيت هذه المجتمعات ضرورة خلق آليات جديدة تتناسب لضمان استمرار الحياة وتجدد المجتمع<sup>7</sup>.

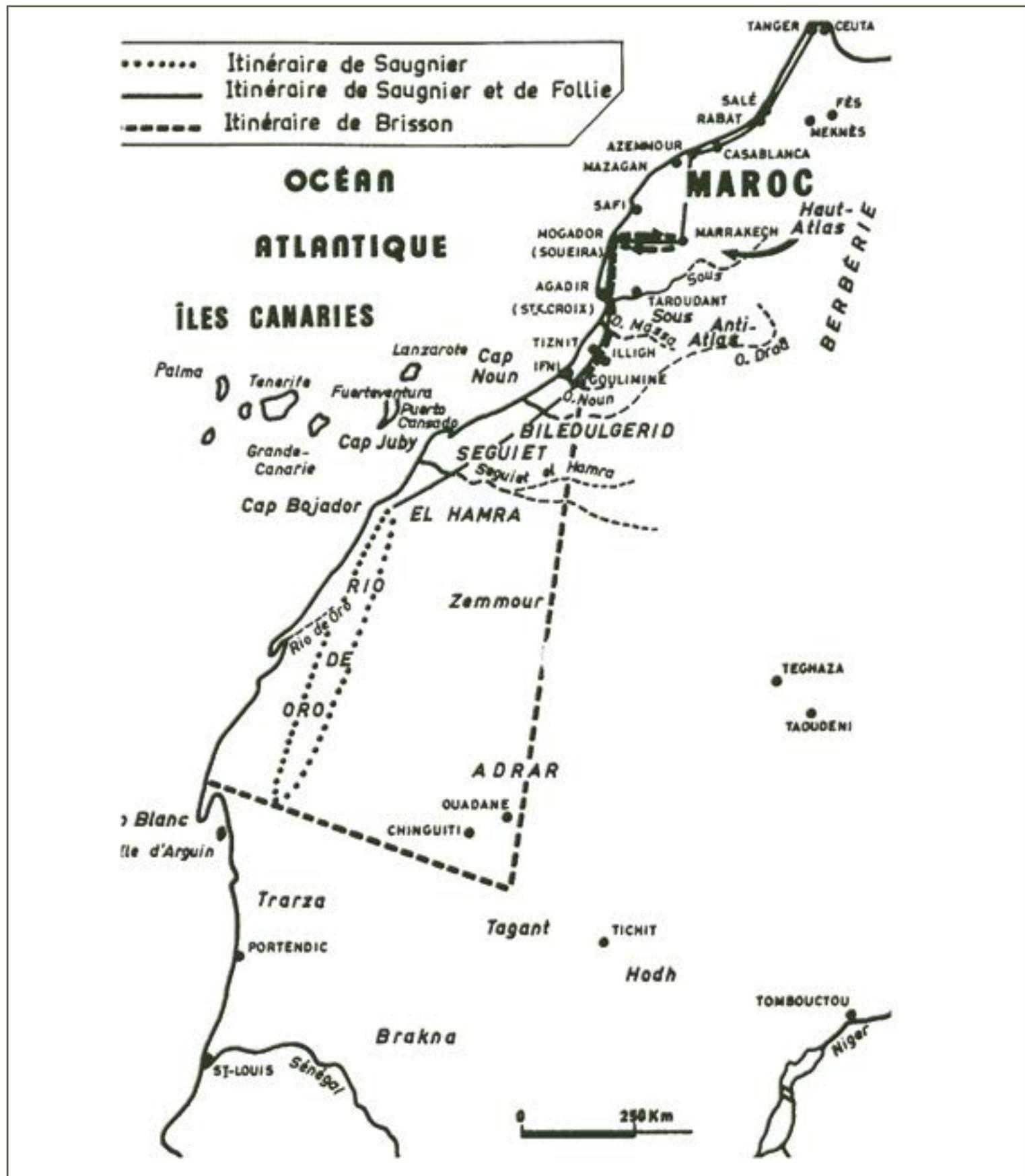
إن قراءة أي مجتمع يجب أن تنطلق من مستويين، الأول يبحث في علاقة الإنسان بالإنسان والثاني يرتبط بعلاقة الإنسان بالوسط الذي يعيش فيه، وانطلاقاً من هذه الثنائية فهو يبحث عن التوازن بحيث يؤسس كل مجتمع يعيش مستويات الظروف القاسية على الفاعلين داخل المجتمع، حيث كل يؤدي دوره للمساهمة في تأمين هذا التوازن. وقد شكل الجمل في المجتمعات الصحراوية أداة للبحث عن استمراره في مجال صعب وقاس تمثله الصحراء، وإن حياة المجتمعات الصحراوية مرتبطة بتدخل مجموعة من العناصر والظواهر التي تخرج عن مستوياتها الافتراضية القائمة في المجال، أي الطبيعية، نحو مبادرة الإنسان الذاتية الخاصة بالثقافة الخاصة المعيشة من الداخل وهي الثابتة والمستوحاة من الخارج، وهي المتحركة. وتتحكم هذه الثنائية، مع وجود فوارق بينهما، بعمق في تصرفات المجتمعات الصحراوية، وهي التصرفات التي يجب أن نفهم ونحلل من خلالها هذه المجتمعات<sup>8</sup>. بعيداً عن النعوت التي أطلقت على ساكني الصحراء من قبيل الكسل والتخلف والتعصب والخيانة والتوحش والبدائية وعدم الثقة في الغد وانعدام التنظيم<sup>9</sup>، وكلها نعوت تختلف عن البعد الرمزي لحياة الرحل؛ فالدراسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعزولة عن البنية الثقافية المدمجة التي تعبر عن حركية نفسانية تعبر عن هوية الإنسان الصحراوي في علاقته مع محيطه المبني على حياة جماعية معقدة، فكيف لامس الفرنسيون الأسرى هذا المجتمع خلال فترة أسرهم وكيف حللوا وقرأوا ووصفوا هذه المجتمعات؟

### مقاربات نص خطاب الأسير للمجتمعات الصحراوية

ننطلق للإجابة على هذه التساؤلات من نصين كتبنا خلال فترة الأسر التي تعرض لها فرنسيان في القرن الثامن عشر لدى المجتمعات الصحراوية، وعملية الأسر هاته لها علاقة بتحطم وغرق العديد من السفن الأوروبية في السواحل الأطلسية حيث يصبح الناجون أسرى الصدفة لدى قبائل المجتمعات الصحراوية ويتحولون إلى سلع تجارية يكسبون من خلالها مداخيل مالية.

إن المحيي غير الاختياري، منذ بداية القرن الثامن عشر، للأجانب إلى سواحل الصحراء واستمراره إلى القرن العشرين أعطى مجالاً سمح لهؤلاء أن يعيشوا ويتعايشوا مع هذه المجتمعات وبالتالي إمكانية وصفهم من خلال نظرة خاصة تعبر عن اعتقادات شخصية لهؤلاء الأسرى بالصدفة.

نطرح في هذه الدراسة نصين لرواية كل من صونيني سنة 1791 وبريسون سنتي 1786-1787. وتعتبر، انطلاقاً من مقارباتنا السابقة، أحكام هذين الأسيرين غير سليمة ولا تعتمد الحياد، وهي نتيجة ترتبط أساساً بنفسية الأسير أكثر من واقعية النقل المنطقي لحياة هذه المجتمعات، وهو ما يؤكد صونيني نفسه حين يقول: «إننا لا نحكم على تصرفاتهم سوى من خلال خيالنا». إن هذا الخطاب سواء بالنسبة لرواية الأسير أو بالنسبة لقارئها يحمل أحكام قيمة وإن مناخ العصر كان يتحكم في هذه الأحكام ويوجهها، لذلك فقراءة هذه الرواية لا ترتبط بما يقدمه الرحالة والمستكشفون الأوروبيون حول المجتمعات الصحراوية، والذين حددت لهم أدوارهم مسبقاً، ولكن تبقى القراءة المحتملة للأسير كموضوع وضحية وسلعة<sup>10</sup>.



لقد تضاربت التقارير في تحديد عدد الأسرى في المجال الممتد بين رأس باني والرأس الأبيض حيث أن تقرير الإنجليزي جاكسون (Jackson) والإسباني كارو باروخا (Caro Baroja) يؤكدان أن هناك ما يعادل 200 حالة غرق للسفن الأوروبية بين سنتي 1750 و1850، وبما أن كل سفينة يتكون طاقمها من 12 فردا فحسب هذه الإحصائيات يصل عدد الأسرى إلى 2400 أسير، تبقى هذه الإحصائيات بعيدة عن الصحة حيث إن مجموعة من الوثائق تؤكد أنه خلال الفترة ما بين 1768 و1892 حصلت 32 حالة غرق تمثل 280 حالة أسر وقد تصل الاحتمالات إلى 600 حالة، تم أسر 500 حالة وتمكنت الحالات المتبقية من الفرار، وتبقى الملاحظة العامة حول هذه الظاهرة متمثلة في انعدام وجود أسرى من النساء<sup>11</sup>.

لقد كانت الخريطة القبلية غير معروفة لدى الأوروبيين والرحالة، كما أن طواقم السفن التي تتعرض للغرق لم تكن مهمتهم استكشاف مجتمعات هذه القبائل، وحتى وإن ذكرت بعض أسماء القبائل مثل أولاد دليم وأولاد أبو السبع إلا أن الكلمة الأكثر استعمالا لنت هذه المجتمعات هي كلمة المسلمين. لقد كانت مجالات الأسر تنقسم إلى مجالين، الأول في الشمال يمثل مجال واد نون حيث يسكن البربر نصف الرحل، ويصبح بذلك الأسير سلعة تباع بشكل آني ومباشر، أما المجال الثاني فيوجد إلى الجنوب بين رأس بوجدور والرأس الأبيض، ويقطنه حسب تعبير هؤلاء الأسرى أنفسهم، الرحل المتوحشون، وهم من العرب.

إن عملية الأسر في هذا المجال تتم من طرف بعض الصيادين ويقدمونه للقبائل الأكثر قوة مقابل تعويض رمزي، وبين هذه القبائل يخضع الأسير لتصنيفات ترتبط بمدى قدرته على العمل مما يجعل المؤهل للعمل قادرا على الاستمرار مدة أطول من غير القادر أو المريض الذي يباع بشكل مباشر كي لا يكون عبئا على سيده، لقد كان الأسير المسيحي مطلوباً من الوسطاء أو المخزن أو القناصل وذلك عكس العبد الأسود الذي لا يطلبه أحد<sup>12</sup>.

لقد سمحت طول المدة، التي يقضيها الأسير المسيحي عند سيده والتي قد تفوق في بعض الحالات السنة، بإمكانية إبدائه لبعض الملاحظات حول المجتمع الذي يعيش بينه قبل بيعه، وإذا سبق لنا أن تحدثنا عن نمط العيش الذي تتميز به المجتمعات الصحراوية، فإن الأسير بغض النظر عن جنسيته يصبح سلعة تدخل في حركية هذا المجتمع؛ وإلى غاية حصول عملية البيع التي تتم غالبا عن طريق المقايضة بثلاثة رؤوس من الماعز أو جمل أو جملين، فهو فاعل في عملية التوازن داخل المجتمع الصحراوي، فكيف وصف صونيني وبريسون مجتمعات الصحراء حيث مكثا مدة طويلة؟

سقي الإبل حسب وصف كاميل  
دولس إبان رحلته في الصحراء  
(رسم جيراردي) (1886)





لقد كان مجال تحرك هذين الأسيرين جنوب واد نون في مجال الساقية الحمراء ووادي الذهب ؛ فصوني يقسم هذا المجال الذي يعتبره ممتدا من بلاد البربر إلى نهر النيجر إلى ثلاثة أقسام كبرى متوازية: الأولى في الشمال حيث مملكة فاس ومراكش وسوس، والثانية في الوسط حيث توجد المجموعة التي يسميها عرب بلاد الجريد وتمتد من ماسة إلى رأس بوجدور، والثالثة في الجنوب حيث يسكن العرب الرحل وتمتد بين رأس بوجدور ونهري السينغال والنيجر<sup>13</sup>. إذا اكتفى صوني بذكر المجموعات الكبيرة التي تقطن في الوسط والقسم الجنوبي أي تكنة والرئييات، فإن بريسون فصل أكثر حينما ذكر أسماء بعض القبائل الكبيرة في هذا المجال، فهو يؤكد في روايته أن هذا المجال تسكنه قبائل كبيرة إلى حد ما تتداخل فيما بينها، وتعيش على التنقل وتستقر حيث المراعي المتوفرة على الكلاً للقطيع ويتحدث في روايته عن تقسيم مجالي، شمال وادي الذهب، تسكنه قبائل العروسيين وأولاد تيدرارين ومجال ثان جنوب جنوبه بين الرأس الأخضر وأدرار وتسكنه أولاد دليم وأولاد بوالسبع<sup>14</sup>.

لقد اتفقت الروايتان على وصف هذه المجتمعات بكونها تدين بدين محمد ومع ذلك، ففي عاداتهم تذكر هاتان الروايتان بعض القوانين الطبيعية التي تعبر عن بصمات خاصة بخرافات بعيدة عن الدين الإسلامي، ورغم هذا الحكم فقد تحدثت الروايتان عن الطريقة التي تؤدي بها الصلاة وعن عملية التيمم التي تتم بواسطة الرمال بسبب غياب الماء. وإذا كان بريسون قد تحدث عن صلاة طلوع الشمس وعن مشاركة النساء في هذه الصلاة وصلاة العشاء العاشرة ليلاً داخل خيامهن، فإنه لم يذكر عدد الصلوات التي تتم خلال اليوم، خلافاً لصونبي الذي حددها في ثلاث صلوات، كما أكدت الروايتان أن الصلاة تتم بشكل جماعي بوجود إمام.

إن الإشكال في عملية نقل طقوس الصلاة لا يكمن في عملية وصفها، كما سبق ولكن في ما يتبعها من ممارسات تريد أن تشبه ما تفعله هذه المجتمعات من طقوس، كما فعل بريسون، بما يفعله المسيحيون في الكنيسة، فهو يقول:

«حينما تنتهي الصلاة يبقون جالسين بعض الوقت، ويرسمون بأصابعهم أشكالاً مختلفة فوق الرمال ويديرونها فوق رؤوسهم كأنهم يقومون برشها، هؤلاء المتوحشون خلال طقوسهم يمارسون نفس الاحترام الذي نشعر به في كنائسنا، مع ذلك لا أعتقد أنه من الممكن العبث بالدين أكثر مما يفعلون بمجرد نهاية الصلاة»<sup>15</sup>. إن هذا الخطاب يحمل صورة كاريكاتورية عن ممارسة طقوس الصلاة لدى هذه المجتمعات فهو ينعته بالتمرين، يمارسه شخص ويتبعه آخرون سواء على مستوى عملية التيمم أو أداء الصلاة، وما تركيزه على ممارسات قد تبقى عادية بعد كل صلاة وعلى كونها تلاعباً بالدين، إلا تعبير عن عدم فهم حقيقي للمجتمع الإسلامي.

إن هذه الصورة قد كررها بريسون عندما تحدث عن تعلم الأطفال الكتابة والقراءة، فقد وصف طريقة التعلم التي تتم بصوت عال رغم اختلاف الدروس من طفل إلى آخر لكنه عبر عنه بالخليط الفظيع، كما وصف الطريقة التي كانت تكتب بها الألواح وكيف تمسح وشكل القلم الذي يكتب بها<sup>16</sup>، وإذا كانت هذه هي الصورة التي وضعها بريسون حول طريقة التعلم فإن صونبي أعطاها بعداً آخر حيث أوضح لنا أهمية المعلم الفقيه في تكوين الأطفال وتحركه الدائم لتحقيق هذا الغرض، فقد أكد صونبي في هذا الاتجاه معطيات تدخل في إطار ثقافة وعادات المجتمعات الصحراوية والتمثلة في انعدام مخالفة رغبات الفرد وعدم معاينة الأطفال، مما يؤدي إلى أن تعلمهم يعتبر نوعاً من الاستراحة من عمل آخر يدخل في مراقبة قطع العائلة. إن عملية التعلم تبدو تراتبية، حيث إن الكبار يأخذون تعليمهم من الفقيه مباشرة والصغار ممن هم أكبر منهم، كما يؤكد أنه في المجالات الصحراوية تعتبر الطبيعة مؤثرة في التربية، فإذا ما أحس الطفل بنوع من الملل في التعلم فإنه يذهب لمراقبة قطع والده. وقد خلص بريسون إلى أن القليل ممن يحظى بالتعلم ليصبح فقيهاً ذا مكانة داخل المجتمع. ويؤكد أن الوصول إلى هذا المستوى يجعل صاحبه في مرتبة متقدمة داخل مجتمعات الرحل.<sup>17</sup>

إن مقارنة بعض المفاهيم الواردة في نصوص خطاب الأسيرين، من قبيل الشجاعة والوحشية، تدفعنا إلى محاولة في القراءة تنطلق من النص نفسه، ونستعير جملة استعمالها بريسون حينما تحدث عن التربية التي تعطيها الطبيعة للفرد، وبذلك يصبح تكوين الفرد داخل هذا المجتمع يحكمه المفهوم الخلدوني للتوحش إذ أن الطبيعة القاسية هي التي تصبح متحركة في هذا التكوين؛ فعملية الاختيار التي تترك للطفل داخل هذه المجتمعات لها دلالات خفية ترتبط باختياراته المستقبلية وموقعه داخل المجتمع، وهي من جهة أخرى تكون في الصلاة التي يحتاجها ليكون شجاعاً ومتحكماً في وجوده داخل العائلة والعشيرة والقبيلة، وينطلق تعبير التميز للطفل، حسب هذه النصوص، من سن السابعة أو الثامنة ويرتبط بطقوس تؤسس بعملية الختان وحلق الرأس مع ترك أربع أو خمس شعيرات تقطع في احتفال عائلي كلما أقدم الطفل على عملية تعبر

عن شجاعته وبأسه حيث إنه في كل مرحلة تقطع شعرة إلى أن يصل إلى مستوى الخلق الكامل للشعر تعبيراً عن استعداده لدخول عالم الرجولة التي يستطيع الطفل تحقيقها قبل سن العشرين<sup>18</sup>، وهناك معطى آخر يدخل في هذا التكوين والمتضمن لعملية التدريب الذي يتلقاه الشاب لاستعمال الخناجر قصد القيام بقطع لحم أعدائهم بأظافرهم، وبذلك تعتبر التربية منذ الصغر على الجريمة، حسب تعبير سونيني، أداة لعملية نبيلة يمارسها الفرد داخل مجتمعه<sup>19</sup>. إن النعوت التي استعملت للحكم على هذه المجتمعات مثل الشجاعة والنهب والحرب تعتبر طبيعية إذا ما قسناها بحاجياتها إلى مثل هذه الممارسات من أجل البقاء والاستمرار، فظاهرة القتل والقهر تصبح عادية لدرجة تباهي هذه المجتمعات في تجمعاتها بالانتصارات التي حققتها على الأعداء<sup>20</sup>. إن هذه النتيجة التي تبدو طبيعية، إذا ما قسناها بأبعاد ثلاثة، تبدو حاضرة في تكوين الفرد داخل هذه المجتمعات تمثلها القوانين الطبيعية والاختيارات الحرة وإثبات الذات، ونعتقد أن حكم بريسون على كثرة عدد المهتمين بالتعلم يدخل في الاختيارات التي يقدمها المجتمع للفرد في أن يكون محارباً، وهو ما يبرر التقسيمات الاجتماعية اللاحقة التي عملت على الفصل داخل المجتمع بين أهل السيف وأهل القلم، وبذلك يصبح التوحش نسبياً وعدم التحضر بعيداً عن الدقة حينما يتعلق الأمر بمجتمعات الرحل التي تؤسس لفاعلية اجتماعية تنبني على التوازن، هذا التوازن الذي لا يكتمل إلا بقراءة للنصف الثاني من المجتمع الذي تمثله المرأة.

تعتبر المجتمعات الصحراوية مؤسسة لمنطق افتراضي تتحكم فيه عملية الاستمرار والتكاثر، وتعتبر المرأة محورية هذه الاستمرارية من حيث الأعمال التي تقوم بها، وطبيعي أن يتدخل الرجل الذي يعتبر نفسه القيم والمسؤول عن حفظ الاستمرارية عن طريق التخطيط والتفكير.

إن الاعتقاد السائد، من خلال نص خطاب الأسير حول المجتمعات الصحراوية، يعطي صورة قائمة عن المرأة في المجتمعات الصحراوية، فقد نعتها هذا النص بكل تعبيرات الإذلال والتحقير سواء في مستوى مؤسسة الزواج أو الطلاق أو في مستوى الأشغال الشاقة التي تمارسها: تهبيء الأكل وضمان التكاثر (5 إلى 6 أبناء في المتوسط) أو على مستوى حلب النوق أو الماعز أو تهبيء الزبد أو نسج غطاء الخيمة وبنائها عند الإقامة أو جمعها عند الرحيل، فالمرأة تأتي دائماً في المرتبة الثانية بعد الرجل وبعد الأبناء من الذكور.

لقد أكدت هذه النصوص على التميز الذي يحصل عند ولادة الزوجة لفتاة أو ولد، فالاحتفال يختلف ويقول بريسون: « كل امرأة أنجبت ولداً تقوم بطلاء وجهها بالأسود لمدة 40 يوماً، أما إذا كانت أنجبت بنتاً فلا تقوم بطلاء سوى نصف وجهها ولنصف المدة أي 20 يوماً»<sup>21</sup>، أي أن مدة طقوس التطهير تختلف باختلاف جنس المولود؛ وإن كان هذا يعبر عن طقس عربي قديم فهو يعبر عن التمييز الذي يطرحه هذا المجتمع في علاقته مع جنس المولود. مستوى آخر، في هذه النصوص، يدخل في إطار العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ويتعلق الأمر بقضية تعدد الزوجات والطلاق والإرث، فيرى صونيني أن تعدد الزوجات قليل في هذه المجتمعات كما أن الطلاق لا يحصل إذا كان للزوجة أولاد<sup>22</sup>.

فصلت هذه النصوص كذلك في ما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال مستويين، يحمل الأول نوعاً من الغرابة حينما يؤكد صونيني أن التعبير عن الحب يمارس عن طريق الضرب<sup>23</sup>، كما أن للمرأة طقوساً في التعبير عن علاقتها بزوجها خاصة أثناء سفره حينما تقوم بدفن حجرة دق أوتاد الخيمة في الرمال معلنة عدم نقل خيمتها أثناء غيابه وهي تتمنى له بصيغة أخرى سفراً موفقاً<sup>24</sup>.

البعد الثالث في هذه العلاقة يرتبط بالإرث وهو الذي لا يمكن فهمه إلا في إطار خصوصية هذا المجتمع الذي تفرض عليه قوانينه الطبيعية وخصوصية ثقافته ممارسات خاصة على مستوى التفضيل في الإرث بين الولد والفتاة، ويقول صونيني في هذا الصدد:

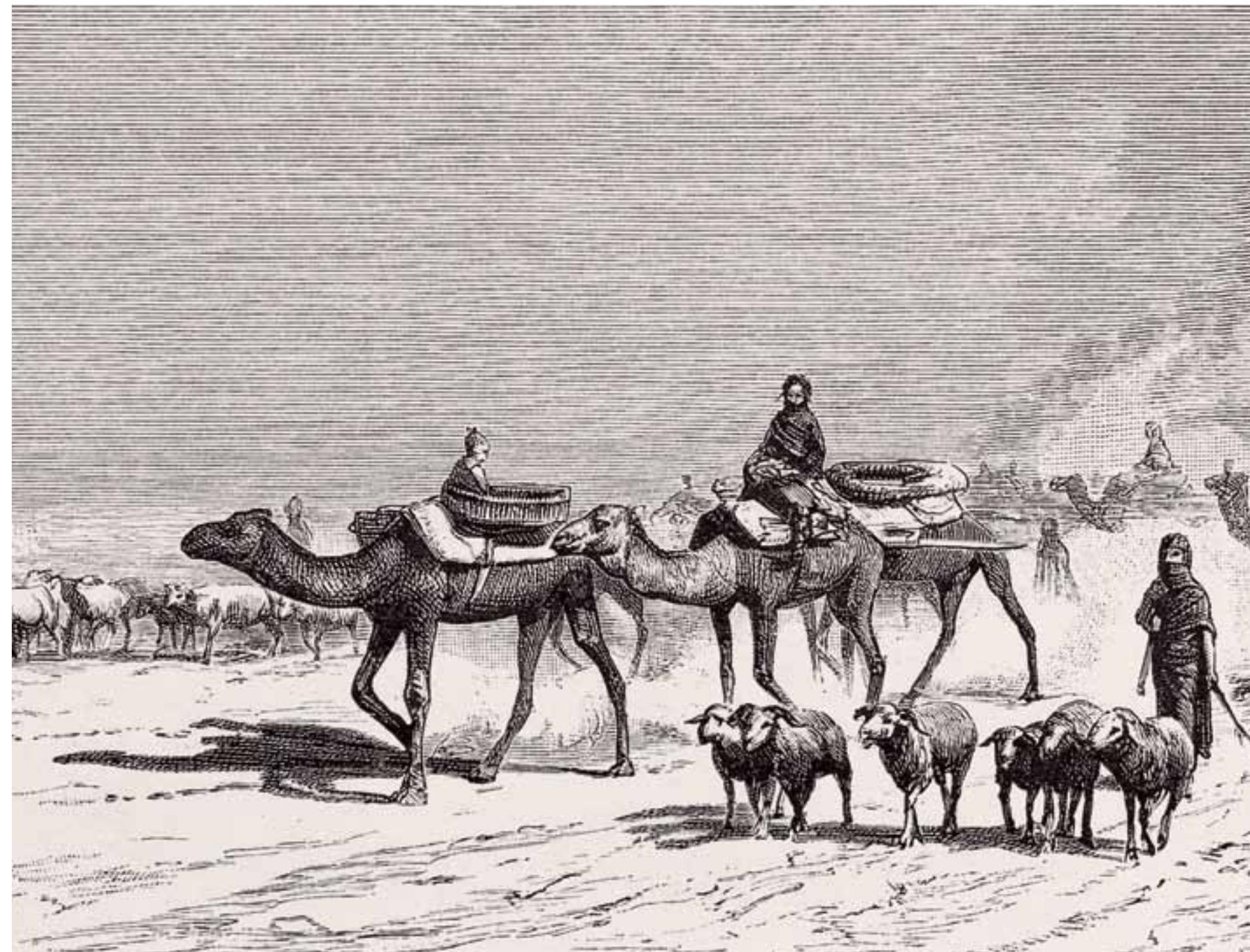
« حينما يموت رب الأسرة فإن جميع ممتلكاته الموجودة بالخيمة تصبح بيد أول الأبناء الموجودين أثناء وفاته، فكل المجوهرات والأموال والحلي تختفي ولا يستفيد منها باقي الأبناء، ولا يمكن لهم أن يقتسموا سوى الحيوانات والعبيد، الفتيات لا يشاركن في القسمة، وينسحب عند أخيهن الكبير. إذا ترك المتوفى أطفالاً صغار السن، فإن الزوجة تنسحب عند أختها إذا كانت متزوجة، أو عند أمها. في هذه الحالة فإن ممتلكات المتوفى لا تضيع ويتكف رئيس العشيرة بضمائها إلى أن يوزعها على مالكيها بشكل متساو حينما يكونون قادرين على حمايتها. إذا مات العربي دون أن يترك أولاداً ذكوراً فإن الزوجة تنسحب عند والديها، ويرثه أخوه.<sup>25</sup>»

إن تأملنا، فهذه القسمة في الإرث تؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً حينما ناقشنا الدور الذكوري في هذه المجتمعات من جهة وأهمية تملك الأبناء من الذكور للقطيع خاصة من الإبل والعبيد من جهة أخرى وما عدا ذلك لا يهم، فالتميز مرتبط بعدد الأطفال من الذكور الذي يعني التكاثر الجالب للقوة، وتملك أكبر عدد من الإبل يعني تملك السلطة والقيادة، وتبقى بذلك القراءة المباشرة لهذه النصوص كما قد تفهم من أول وهلة وكما يصورها أصحابها مرتبطة بنظرة دونية للمرأة داخل هذه المجتمعات، وهو تصور خاطئ، لأن المرأة في مجتمعات الرحل تساهم في احترام هذه القوانين، وإذا كان نص خطاب الأسرى قد تحدث عن تناول المرأة للطعام بعد الرجل فهذا يعتبر في نظرنا نوعاً من الاحترام لأنها تمارسه مع طفلها حينما يبدأ في المشي، وتبقى المرأة في هذه المجتمعات رمزا للتكاثر. أما الإبل فهي رمز للحياة وأداة للتنقل فهي توفر الحليب بمعدل أربعة لترات ونصف تصنع منها الزبد ويمثلان إلى جانب الشعير المادة الغذائية الأساسية بالنسبة لهذه المجتمعات.

إن التميز داخل رجالات هذه المجتمعات يرتبط بالعائلات الكبيرة التي يختار منها رؤساء العشائر، فرئيس العشيرة (تتكون العشيرة من حوالي 123 عائلة) يكون الأغني، والغنى له علاقة بعدد الإبل التي يمتلكها، فهو سيد يتميز من خلال كبر خيمته التي تتوسط المخيم ومن خلال أحكامه التي يصدرها والتي لا تقبل الاستئناف، يتميز كذلك بكونه المستضيف للغريب، فهو صاحب الخيمة الكبيرة والمقرر لتاريخ وزمن التنقل وهو الذي يقتسم المجال حسب حاجيات القبيلة من المرعى وهو من يقرر تقسيم العشيرة إلى أقسام تتكون من 7 إلى 8 خيام إذا لم يكن المرعى كافياً للجميع.<sup>26</sup>

قافلة الرحل حسب وصف كاميل دولس إبان رحلته في الصحراء (رسم جيراردي (1886))





إن ظاهرة الكرم في المجتمعات الصحراوية ترتبط بمستويين، مستوى قد نعبر عنه بالتضامن مع المتنقل عبر هذا المجال ومستوى آخر له علاقة بالمعلومة التي يمكن أن ينقلها هذا المسافر الغريب، وهو ما يؤكد نص خطاب بريسون فهو يقول: «يسأل المسافر عن الجهة التي جاء منها وإذا ما وجد في طريقه العديد من المراعي وبعد إجابته عن هذه الأسئلة يسأل عن انتمائه القبلي»<sup>27</sup>.

إن بنية مكونات هذا المجتمع من خلال هذه النصوص تكتمل من خلال حديثها عن الصناعات (لمعلمين) وقد تحدث بريسون عن وجود صانعين هما النجار والحداد لكنه أغفل صناعات أخرى تقوم بها المرأة من نسج الصوف وصناعة القرب التي تحمل الحليب، وقد تعامل بريسون حين حديثه عن هؤلاء الصناعات بنوع من الاستهزاء والسخرية معللا تدخله في العديد من المرات لتصحيح ما يقومون بصناعته، هذا بالإضافة إلى أنه أثناء حوار مع هذه المجتمعات نعتهم بالأنانية وبالتميز عن باقي الشعوب وأنه لا توجد أرض غير التي يوجدون فيها. كما تحدث عن نوع من التميز بين القبائل الكبيرة والصغيرة، وعن هذه الأخيرة تعيش تحت حماية الكبيرة وأكد على التباعد الذي يحصل بينها في عملية الانتجاع وفي المخيمات<sup>28</sup>.

لقد اعتمد عرضنا لنص الخطاب الفرنسي المنبثق عن الأسر انتقاء ركزنا فيه بالأساس على نظرة الأسير المنتمي إلى فئة التاجر (Saugnier) والمنتمي إلى فئة البورجوازية (Brisson)، الأول استطاع الاندماج مع من سجنوه والثاني لم يستطع تحقيق ذلك.

إن عملية الانتقاء شملت بالأساس منظور الأوربي عامة والفرنسي على وجه الخصوص للمجتمعات الصحراوية في المغرب؛ وإذا كان موريس باربيي (Maurice Barbier) الذي أصدر سنة 1984 نصوص هؤلاء الأسرى لتبيان معاناتهم من جهة ولتقديم وصفهم لمجتمعات الرحل حيث كانوا عبيدا لدى أسيادهم، فقد كان هدفه هو تأكيد عزلة هذه المجالات عن السلطة المغربية وفي وقت كانت فيه السلطات الفرنسية بداية من 1930 تبحث عن معرفة علمية لهذه المناطق خاصة وأن خلقها لمستعمرة فرنسية في السينغال كان منذ سنة 1779، هذا بالإضافة إلى أن موريتانيا أصبحت محمية فرنسية منذ سنة 1903 ومستعمرة منذ 1920، لذلك فالتوجه العلمي كان استراتيجي مجالية حاولت من خلالها فرنسا معرفة حدود الصحراء (الاجتماعية قبل الجغرافية) وهو ما سنقاربه في النقطة الثالثة من هذا العمل.

لقد ركزنا في عملية الانتقاء التي عرضناها معتمدين منهجا تحليليا يوظف قراءة أخرى استثمرت بالأساس النص الخلدوني وما أسميناه بالتوازن البيئي الذي يفرض على مجتمعات هذه المجالات أن تعيش مجبرة بطرق خاصة بها تتلائم ومحيطها، لقد ركزنا في انتقائنا على أربع قضايا أساسية في هذه الخطابات ويتعلق الأمر بأطروحات ثنائية تتضمن الشجاعة والتوحش، والقيادة والتميز واستراتيجية التدبير، والمرأة والقطيع والاستمرارية والتكاثر، وأخيرا الطقوس والممارسات الدينية. إن هذه الثنائيات حاولنا فهمها وتحليلها في ضوء الخطاب الخلدوني الذي يركز على هذه القضايا الثنائية في مقدمته حينما يؤكد على أن اختلاف المجتمعات مرتبط بنحلتهم في المعاش بحيث تغلب عليهم صفة التعاون من أجل الاستمرار، فعزلة هذه المجتمعات تقتضي التوحش من أجل توفير الحماية والتي لا يمكن إلا أن تكون ذاتية، وهو ما يفسر طبيعة تكوين الأطفال كما عرضته النصوص الفرنسية أي التربية على الشجاعة التي تعتبر فعلا ضروريا لتحقيق الحماية، كل هذا تجسده ثقافة عبر عنها ابن خلدون بقوله: «.. بعلاقة معاشهم على الإبل ورعايتها ونتاجها... وريبت فيه أجيالهم»<sup>29</sup> وإن كان ابن خلدون لم يصرح في هذه المقولة بدور المرأة في هذه المجتمعات، فمساومتها في تربية الأجيال وتحويل نتاج الإبل إلى الغذاء الأساسي لهذه المجتمعات، يدخل ضمن ما أسميناه بالمقاربة الثنائية «المرأة والقطيع والاستمرارية والتكاثر»،

وإن منهجنا في مقارنة هذه النصوص لم يهتم بمسألة النقد لهذه النصوص ولكن ذهب أبعد من ذلك من خلال قراءتها في ذاتها ومحيطها.

### المقاربة العلمية: أهمية المجال واستراتيجية المراقبة

إن الدراسات الفرنسية الصادرة خلال مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي تدخل ضمن البحث العملي، وهو توجه برز لدى المؤسسة الاستعمارية الفرنسية للتحكم من جهة في مجال أمامي للسيطرة الفرنسية تمثله كل من الجزائر، منذ 1830 والسينغال، منذ 1779 وموريتانيا، منذ 1903، ومن جهة أخرى، فهو محاولة لحماية هذا المجال من تطلعات الدول الأوروبية المنافسة التي تمثلها إسبانيا وإنجلترا، هذه المعطيات جعلت فرنسا تهتم أكثر بصحراء جنوب المغرب وهو ما عبرت عنه في المؤتمر الذي نظمته مؤسسة الدراسات العليا المغربية بالرباط في الثالث من ماي سنة 1930 والذي أكد من خلاله مدير الدراسات الجغرافية سيليري (M.J. Celerier) ضرورة الاهتمام العلمي بالصحراء، فهو يقول:

« من الضروري الاهتمام بعلم الصحراء، لاعتبارات تتمثل في أن الصحراء تشكل عالما مميزا وله بصمة خاصة ومختلفة تماما، حيث لا يمكن أن نطبق فيه نفس السياسة التي نمارسها على عالم المستقرين في الأطلس.»<sup>30</sup>

إن الهدف الأساسي من هذا الكلام وفي هذا المؤتمر هو توفير المعلومة العلمية حول الصحراء، خاصة وأن الحقيقة حسب سيليري تبقى دائما إضافة إيجابية. فلا يمكن فهم حقيقة المغرب دون مصادفة مشاكل علاقاته مع الصحراء سواء عبر التاريخ منذ عهد المرابطين إلى حركة الهيبية مرورا بوصول قوات المنصور إلى تَنْبُكْت، وهو ما يؤكد نوعا من التداخل الاجتماعي والمجتمعي والثقافي بين قبائل شمال جبل باني وجنوبه.

لقد كان الهدف من هذا المؤتمر بالنسبة لفرنسا هو تحقيق نتيجتين، الأولى استراتيجية تتمثل في ضبط هذا المجال، والثانية تدخل في محاولة لرسم الخريطة الاجتماعية للحركات الثقافية والمجتمعية، وقد اخترنا لقراءة هذه الثنائية المعرفية ما كتبه الباحث الفرنسي روبر مونتاني الضابط في البحرية الفرنسية والذي انتقل إلى المغرب بعد الحرب العالمية الأولى ليثير انتباه ليوطي ويصبح مستشاره الخاص، وقد قام بالعديد من الأبحاث الاجتماعية والإثنولوجية حول المغرب وأصبح أستاذا محاضرا في معهد الدراسات العليا المغربية في الفترة الممتدة بين سنتي 1924 و1930 قبل أن يناقش أطروحته حول البربر والمخزن في الجنوب المغربي، وقد تقلد العديد من المهام الإدارية والعلمية إلى وفاته في حدود سنة 1954.

نستعمل نصين لمقاربة تصوره حول مجال ومجتمع الصحراء، النص الأول اعتبره نظريا مستخرجا من كتابه الصادر في باريس سنة 1947 تحت عنوان «حضارة الصحراء: رحل المشرق وأفريقيا»، أما النص الثاني فهو عبارة عن دراسة عرضها في مؤتمر الرباط سنة 1930 والتي عنوانها بـ «حدود المغرب والصحراء الأطلنطية».

إن كتاب مونتاني حول حضارة الصحراء يعتبر نتاجا لتجربة مشاكل الرحل تم جمعها خلال خمس وعشرين سنة من الرحلات في إفريقيا والمشرق؛ فهو يحمل نظرة شاملة لسؤال معقد تعتبر عناصره في بعض الأحيان مشتتة ويصعب الحصول عليها، ففي هذا الكتاب يتحدث مونتاني عن الحياة المادية والتنظيمات الاجتماعية والمعتقدات والتشريعات<sup>31</sup>، وما يهمنا في هذه الدراسة نظريته المنهجية لمقاربة مثل هذه المجتمعات، فهو يؤكد أن دراسة مجتمعات الرحل تحمل صعوبة حقيقية حيث يرى أنه ليس من السهولة معرفة ومتابعة تنظيم داخلي لمجموعة مشكلة من خيم مشتتة في مجال غير محدد ومتنقل، حيث إن التمييز في مثل هذه الحالات يبقى غير ثابت، فهو يقول:



«العرب والبربر لا تتمثل لديهم العلاقات السياسية إلا عن طريق رابطة الدم أو الانتماء، ويبدو من الصعب التمييز بين الانتماء الأبوي والانتماء الاجتماعي، فحينما يتعلق الأمر بكنفدرالية كبيرة لا يمكن أن نفسر عملية الانتماء بنفس الطريقة حيث توجد عناصر مختلفة تحدد أسباب دخول مكونات هذه الكنفدرالية، وحتى إن استطعنا وضع جدول لهذه التجمعات الكبيرة فهو يحتاج دائما إلى تحسينات.»<sup>32</sup>

إن هذه المقاربة هي التي حاول مونطاني الإجابة عنها من خلال النص الثاني الذي استهدف من خلاله تجاوز ما تطرحه دراسة هذه المجتمعات، ورغم كون نتيجة هذه الدراسة ترتبط بما ذهبنا إليه سابقا متمثلة في استراتيجية استعمارية بالأساس، إلا أنها تحمل منهجية علمية حاولت فهم المكونات الممكنة لهذه المجتمعات. ورغم أن البعد اللساني والاجتماعي كان حاضرا ضمن تحديد أوسع تمثله الجغرافية البشرية، فإن القراءة التي اقترحها مونطاني في هذه الدراسة تفسر سبب عدم اهتمام فرنسا بمجال ما بعد واد نون وباني، أي مجال كنفدرالية تكنة ولماذا يبدو الأمر أصعب بالنسبة إليها في مجال أعمق خاص بمجال الركيبات.

إن السؤال المحوري الذي وضعه مونطاني في دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلنتية يتمثل في: هل توجد حدود تفصل بين الصحراء الأطلنتية وجنوب المغرب، حدود جغرافية وطبيعية ترسم في نفس الوقت تحولات في الحياة المادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع، وهل توجد خطوط فاصلة بين عالم الاستقرار والترحال؟ هل نمر بمرحلة انتقالية بين الجهة الجنوبية للأطلس الصغير إلى السهوب ما قبل الصحراوية في درعة بشكل يؤكد لنا أننا نتجه نحو الصحراء حيث توجد الرمال؟

لقد حاول مونطاني من خلال دراسته تتبع التحولات الممكنة للمجتمعات في هذه المجالات مركزا على حركية سكان الجبال وعلاقاتهم بالزراعة قرب الأنهار في درعة ونون، والعرض كذلك للحاجز الطبيعي الذي يمثله جبل باني بين شمال يسكنه مجتمع ناطق بالأمازيغية وآخر نحو الجنوب ناطق باللسان العربي الذي يمثله سلطنة بني معقل منذ خمسة قرون.

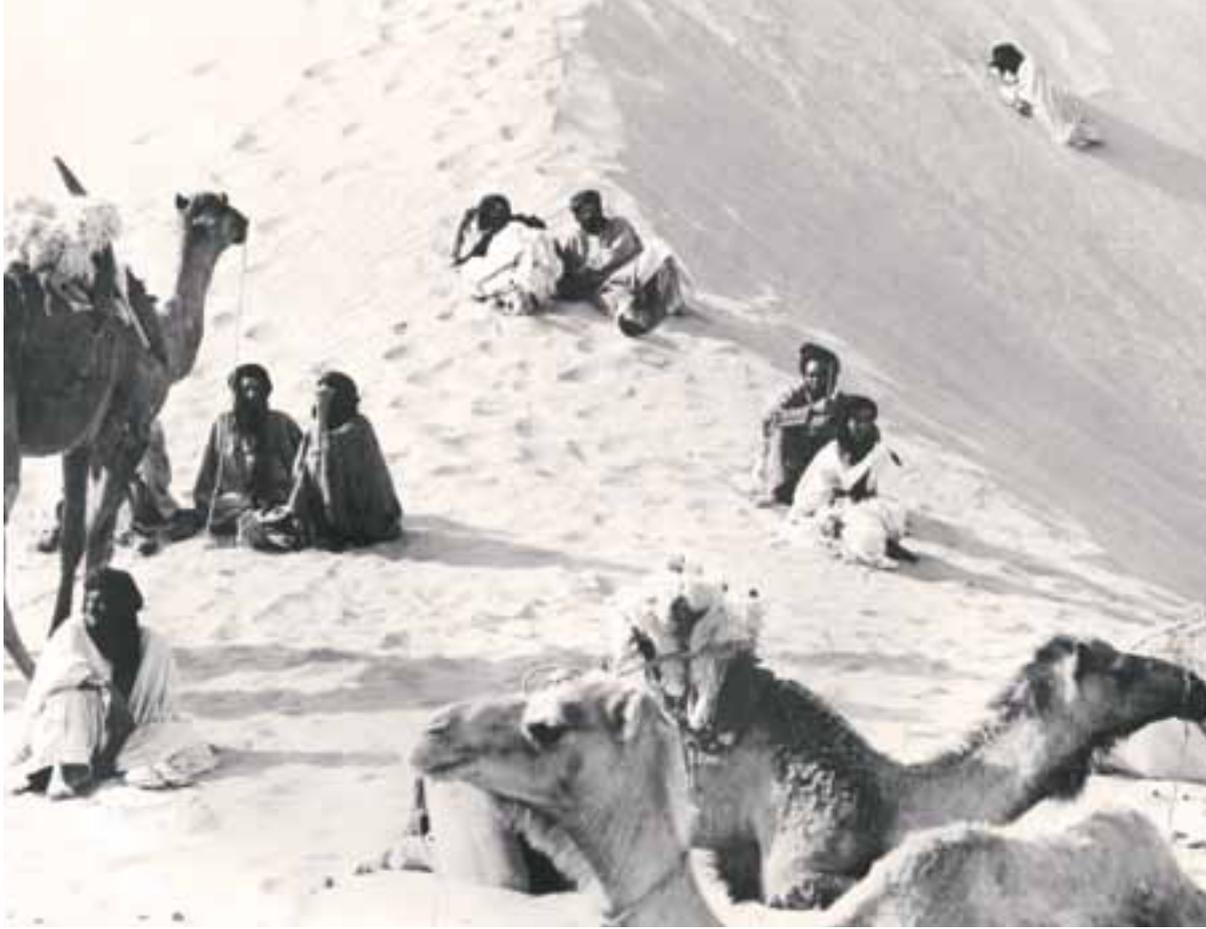


إن الإطار الذي يهمننا في هذه المقاربة التي تؤثت للبنية المعقدة للمجتمعات الصحراوية في الجنوب المغربي كما عرضها مونتاني في مستوياتها النظرية، تكمن في أن الحدود الطبيعية الفاصلة بين المجالين تتضمن في نفس الوقت مستويين من التنظيم السياسي والاجتماعي. ففي الأطلس الصغير كما هو الحال في مجالات سوس تعتمد البنية السياسية بالأساس تقسيمات القبائل إلى مجموعات تستقر في مجال يمتد بين 40 و50 كلم<sup>2</sup> ويتكون من ساكنة تتراوح بين 200 و400 كانون<sup>33</sup>، وتشكل هذه المجموعات جمهوريات صغيرة تدير من طرف الأمازيغ وهي ظاهرة تنتشر بشكل كبير في الجهة الشمالية للأطلس الصغير<sup>34</sup>. إن أهمية هذه المجموعات الصغيرة تبرز في تشكيل التحالفات في حالة الحرب كما هو الحال بالنسبة للفيف تحكات وتأكزولت، لقد كانت مؤسسة اللفوف، رغم قدمها، ضرورية في هذه المجتمعات لتحقيق التوازن بين مجموعات بشرية كبيرة الانتشار تعيش طليقة لا تخضع لحكم مركزي يضمن التوازن<sup>35</sup>.

أما على مستوى الجهة الجنوبية لوادنون فإن المجموعات الاجتماعية تظهر لنا ببنيات مختلفة، فهي - يؤكد مونتاني - عبارة عن تجمعات صغيرة مكونة من ما بين 100 إلى 400 كانون يصعب تحديدها، هذا بالإضافة، يؤكد مونتاني، إلى أنها لا تتوفر على مجلس للوجهاء، وتجمعاتها تتم بالصدفة لمناقشة مستويين: حالة الحرب والمراعي. هذه الوضعية تجعل كل رئيس خيمة رئيسا عن نفسه، وفي هذه الحالة تتحول الوحدة إلى كنفدرالية تضم آلاف الكوادرين مثل ما هو الحال بالنسبة لكنفدرالية تكنة وهو ما ينطبق على إدبلا وإد الجمل، وإن الاختلاف داخل هذه المجموعة مقارنة مع لفوف الشمال هو في الحرية التامة في اختيار الجهة التي تريد الانتماء إليها وتقديم خدمة الحرب لمن ترغب دون أي تبرير<sup>36</sup>.

إن هذا التوجه الذي يحمل بعدا اجتماعيا مرتبط أساسا بطبيعة المجال الذي يتحكم في ظروف التموقع داخل التحالفات حفاظا على آليات البقاء والاستمرار، وهو ما يفسر ظاهرة الانتماء الذي يتجاوز علاقة الدم نحو علاقة أكثر عمقا هي ما يشكل القراءة الثانية لمونتاني للتحويل الاجتماعي نحو المناطق الصحراوية التي حدها بآيت أوسى التي تعتبر آخر شكل للتحويل قصد المرور من الترحال الصغير نحو الترحال الكبير الذي تمثله قبائل الركييات المميزين بدوابهم وتنقلاتهم الواسعة.





التميز الاجتماعي الثاني يحدده مونتاني في مؤسسة ذات طابع سياسي معروفة «بالديحة» وهي مؤسسة غير موجودة شمال نون وباني وهي عبارة عن اتفاق حماية تجمع مجموعة اجتماعية أو قبيلة مع غريب جاء للاستقرار في مجالها أو للعبور، هذه الحماية تكون مضمونة ليس من قبل كل المجموعة ولكن من خلال أحد وجهاء القبيلة الذي يتميز بغناه الرمزي المتمثل في ملكيته لقطيع من الإبل، ويتحول شيئاً فشيئاً نحو سلطة عن طريق مساعدة القبائل التي تعيش فوضى والتي تعتبر بالنسبة إليه خزانا لقوة يمكن استعمالها ما دامت مصادره تسمح بذلك.

إن هذا الحاجز الطبيعي والاجتماعي واللساني الذي ناقشه مونتاني من خلال نصه يعتبر افتراضياً بحيث تم تجاوزه عبر التاريخ في الاتجاهين معاً، ذلك أن كل من تجاوزه يغير عاداته وتقاليده الاجتماعية لدرجة أن نفس مجموعة الانتماء قد تختلف جذرياً حسب موقعها في مجالي الترحال أو التنقل، وهو ما يؤسس لشكل من الازدواجية يحكمها من جهة الفطام مع المرجعية الأصلية والتكامل في إطار الحراك الاجتماعي<sup>37</sup>، الذي يؤكد على وجود نوع من التداخل الثقافي بين المجتمعات المستقرة في واد نون ورحل مجتمعات البيضان التي كانت تتجه نحو الشمال حينما تضيق وتنعدم مراعي الجنوب.

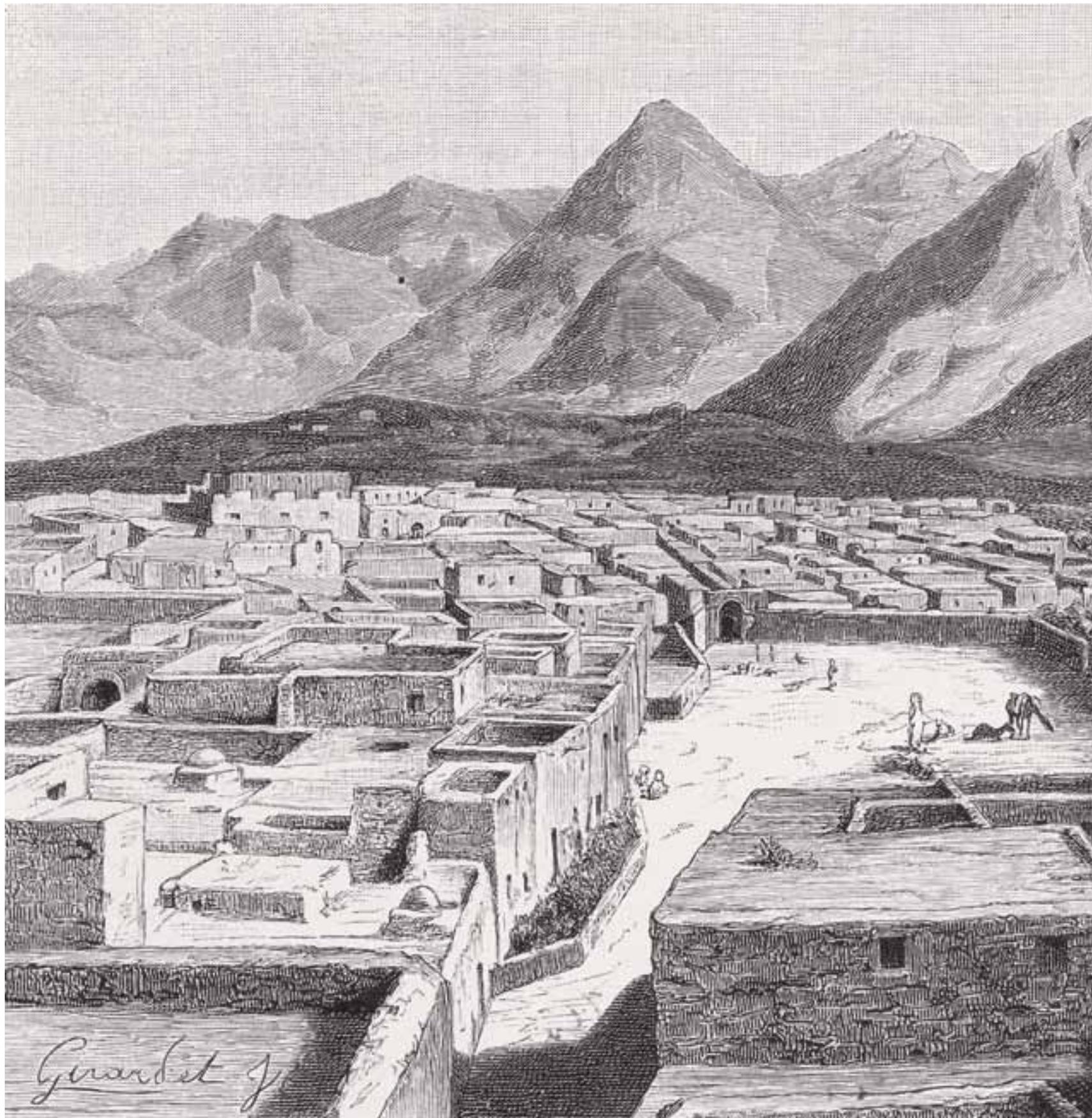
### الخلاصات المنهجية والأهمية التاريخية

بين الأسير والباحث مسافة على مستوى الزمن: القرن الثامن عشر بالنسبة للأول والقرن العشرون بالنسبة للثاني، هو انتقال من معاناة الأسير مع الأسر ولكن كانت الكتابة أداة للتنبيه والوصف، تنبيه المجتمعات الأوروبية لخطورة المجال وصعوبته، هذه الصعوبة التي حاول البحث فهمها لتحليلها استراتيجيا واجتماعيا خدمة لمصلحة استعمارية بالأساس، ولكنه في ذات الوقت أداة لتبرير الاختيارات الفرنسية في تحديد مجالات استعمارها للمغرب في وادي نون.

لم نطلق في مقاربة النصين من الهدم المعرفي نحو التأسيس المعرفي البديل، ولكن قراءتنا ارتبطت بالنص وحاولت فهمه لذاته وظروفه وحيثياته، لقد اعتمدنا في التحليل على المقاربة التي انطلقت من الطرح الخلدوني الذي يحاول فهم مجتمع البدو انطلاقا من نمط العيش المفروض عليه والذي أسس لبنية اجتماعية لا تعتمد التراتبية وإنما تنطلق من معطيات الفاعل الاجتماعي، وهو اتجاه نتفق من خلاله مع الطرح العلمي الذي حدده مونطاني في مستواه النظري والذي سمح لنا باستنباط فرضيات لفهم المجتمعات الصحراوية في المغرب والمبنية أساسا على خلق التوازن داخل بيئة صعبة تقتضي بنية بيداغوجية خاصة، وهي النتيجة التي تضيف الأهمية التاريخية على مثل هذه النصوص.

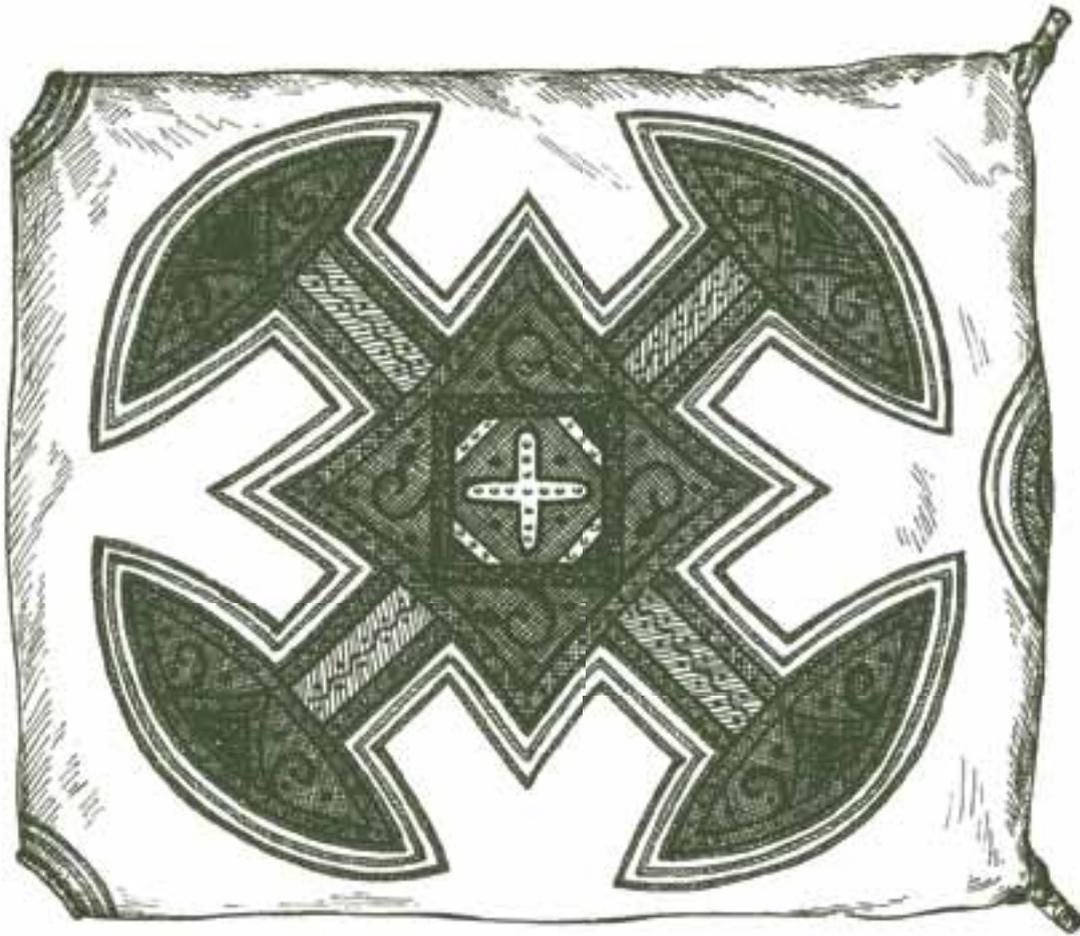
كلميم، عاصمة وادي نون، حسب وصف كاميل دولس إبان رحلته في الصحراء (رسم جيراردي)





## هوامش

- 17 - Ibid, p. 135.
- 18 - Saugnier, op. cit. p. 135.
- 19 - Brisson, op. cit. p. 202.
- 20 - Saunier et Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 132-198.
- 21 - Brisson, op. cit. p. 212.
- 22 - Saugnier, op. cit. pp. 149-150.
- 23 - Ibid, p. 150.
- 24 - Brisson, op. cit. p. 212.
- 25 - Saugnier, op. cit. p. 148.
- 26 - Ibid, p. 142.
- 27 - Brisson, op. cit. p. 203.
- 28 - Ibid, pp. 204-206.
- 29 - ابن خلدون، ع.، المرجع السابق، ص. 485.
- 30 - Celerier, M.J., « L'intérêt du Sahara occidental pour l'étude du Maroc », *Actes du VIII congrès de l'Institut des hautes études marocaines*, in *Hespéris*, Vol. XI, 1930, p.3-
- 31 - Vincent, M., « *La civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique* », in *Politique étrangère*, V13, n°3, 1948, p. 264.
- 32 - Montagne, R. *La civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique*, Paris, Hachette, 1947, p.49.
- 33 - الكانون يعني الأسرة التي تتشكل من 5 إلى 6 أفراد.
- 34 - Montagne, R., « La limite du Maroc et du Sahara atlantique », in *Hespéris*, Vol XI, 1930, p.115.
- 35 - علي صدقي أزايكو، تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة، الرباط، مركز طارق بن زياد، 2002، ص.152.
- 36 - Montagne, R., *La limite du Maroc et du Sahara atlantique*, op. cit. p. 116.
- 37 - Marchat, H., « La frontière Saharienne du Maroc », in *politique étrangère*, Vol. 22, n°. 6, 1957, p. 640.
- 1 - ع. ابن خلدون، المقدمة، ج.2، القاهرة، نهضة مصر، 1981، ص ص 467-485.
- 2 - Barbier, M. *Trois Français au Sahara occidental en 1786-1787*, Paris, L'harmattan, 1984, pp. 26-37.
- 3 - Montagne, R., *La civilisation du désert. Nomade d'orient et d'Afrique*, Paris, Hachette, 1947, p.13.
- 4 - دحمان، م.، الترحال والاستقرار بمنطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب، الرباط، 2006، ص 22.
- 5 - غالي، إ.، الأنثروبولوجيا الفكرية، دراسة في أنثروبولوجيا بيير بورديو، القاهرة، 1999، ص 29.
- 6 - إبراهيم، ز.، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية، دمشق، 2009، ص 24.
- 7 - Gast, M., «Le désert saharien comme concept dynamique, cadre culturel et politique», in *revue de l'occident musulman*, V32, n°1, 1981, pp. 80-81
- 8 - Berque, J., « Cent- vingt ans de sociologie maghrébine », *Annales Economies, sociétés, civilisation*, V11, n°3, 1956, pp. 297-308.
- 9 - Gast, M., op. cit. pp. 81-90.
- 10 - Vergniot, O., « De la distance en histoire. Maroc- Sahara occidental: Les captifs du hasard (XVII-XX<sup>e</sup> siècle) », in *revue de l'occident et de la Méditerranée*, V48, n°1, 1988, pp. 97-99.
- 11 - Vergniot, O., op. cit. pp. 100-101.
- 12 - Ibid, pp.105-105.
- 13 - Saugnier, « Relation de plusieurs voyages à la côte de l'Afrique », Paris 1791, in *Maurice Barbier*, op. cit, pp.131-133.
- 14 - Brisson, « Histoire du naufrage et de la captivité de M. Brisson », Paris, 1789, in *Maurice Barbier*, op., cit., p.197.
- 15 - Ibid, p. 199.
- 16 - Brisson, op. cit. p. 215.





# وصف مدينة الداخلة

فيلا سيسنيروس سنة 1905: تقرير المفلم خوسيه غونثالث

برنابي لوبيث غارسيا

## ملخص

في يوليو 1905 كتب المهندس برتبة مقدم، خوسيه غونثالث (José González)، تقريراً مفصلاً من 130 صفحة عن الوضع في شبه جزيرة الداخلة في تلك الفترة. والوثيقة، التي يحتفظ بها الدبلوماسي رامون فيلانويفا (Ramón Villanueva)، حفيد وزير الخارجية السابق ميغيل فيلانويفا (Miguel Villanueva)، عبارة عن وصف دقيق للسكن، والموارد الطبيعية، والنباتات والحيوانات في المنطقة، وهو ذو قيمة كبيرة من أجل معرفة تاريخ الصحراء الغربية. وتوضح المداخلة مضمون التقرير وتضعه في سياقها التاريخي.

## الكاتب

ولد خوسيه غونثالث غوتيريث بالاثيوس (José González y Gutiérrez-Palacios)، مهندس برتبة مقدم، ومؤلف تقرير تحت عنوان «وادي الذهب»، في 25 نونبر 1859 في البلدة الجاليلية إيل فيرول لا كورونيا (El Ferrol La Coruña) وكان ختام بعثته الاستكشافية في فيلا سيسنيروس (Villa Cisneros) في الصحراء الغربية سنة 1905. ووفقاً لسجل خدمته العسكرية، المحتفظ به في الأرشيف العسكري العام بـسيغوييا (Segovia)، فقد درس في الأكاديمية الخاصة لفيلق المهندسين في الفترة ما بين يوليو 1875 وفبراير 1879 عندما دخلها برتبة ملازم هندسة في الفوج الأول لمهندسي المناجم (السرية 4) بمديريد، المنصب الذي أنجز خلاله بعض المهام في مختلف المدن في إسبانيا، وقام بزيارة باريس. ومن بين المهام التي اضطلع بها إصلاح موانع الصواعق في جبل أورغول (Monte Urgull) في غيبوثكوا (Guipúzcoa) وكاستيو دي لاموتا (Castillo de la Mota 1883) وإنجاز مشروع حصن سان ماركوس (San Marcos) وقصر الحكومة العسكرية بسان سيباستيان (San Sebastián).

أعضاء البعثة الاستكشافية  
الاستعمارية التي شملت  
الداخلة وادرار اسطوف  
سنة 1886 : سيرفيرا،  
كوبروغا وريزو والترجم  
المغربي عبد القادر الأخضر

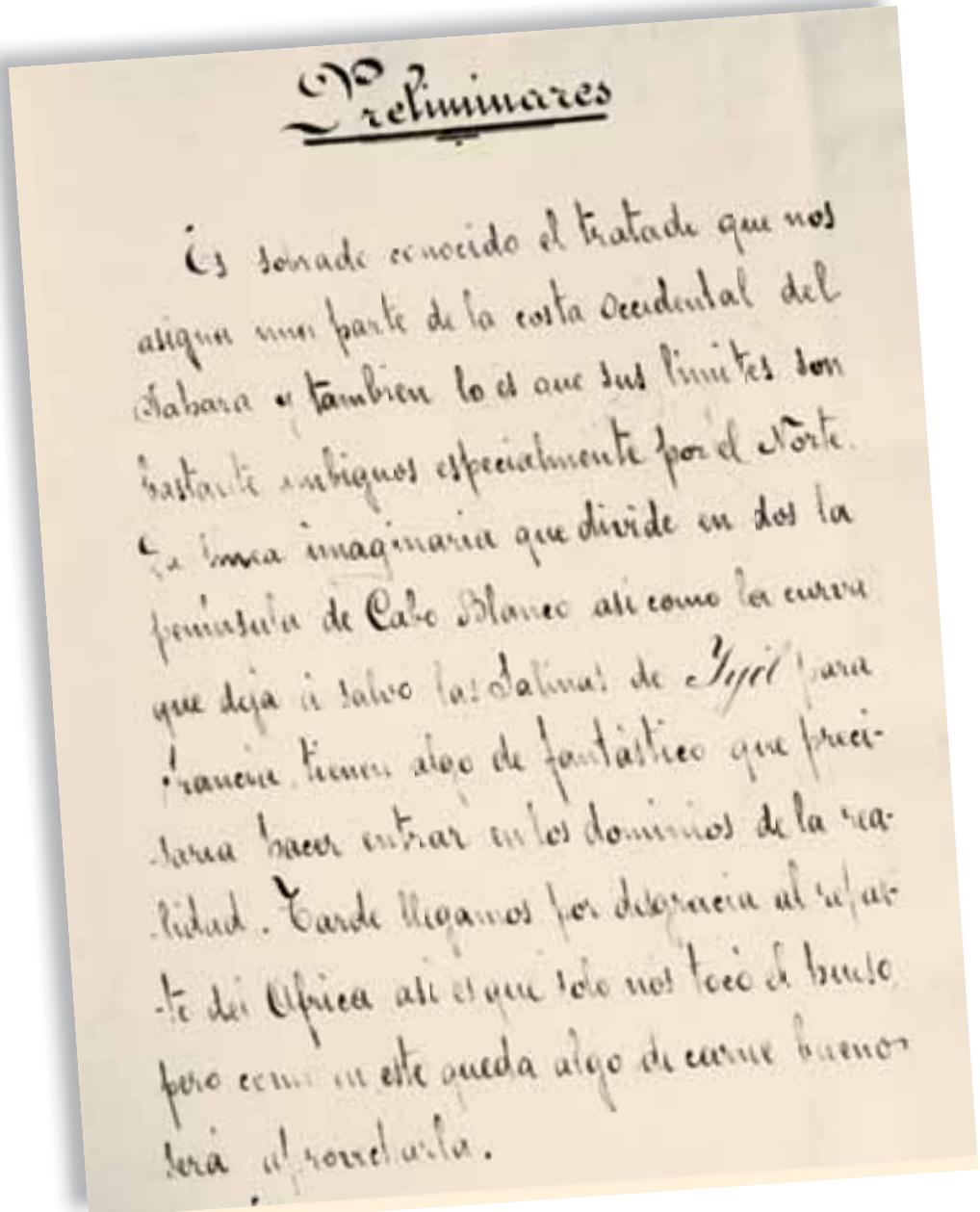


أعيان من وادي الذهب مع  
الحاكم السياسي والعسكري  
القبطان بانس في استقبال  
الملك الاسباني إبان زيارته  
لكناريا (ابريل 1906)

وفي غشت 1886 أُرسِلَ إلى بويرتو ريكو (Puerto Rico)، التي كانت آنذاك مستعمرة إسبانية، حيث قام بأشغال في كاستيو ديل مورو (el Castillo del Morro)، ويانجاز دراسة لميناء محصن في بلدية أيبونيتو (Aibonito) وأشغال الصيانة في مدينة اغواديا (Aguadilla). وفي يوليو 1888 عاد إلى إسبانيا، وبقي في لوغرونو (Logrono) في انتظار أن تسند إليه مهمة أخرى حتى مارس 1889، وهي السنة التي عين فيها بالقيادة العامة لفرع مفتشية المهندسين ببرشلونة، إلى غاية أكتوبر من السنة نفسها، ثم ذهب إلى كوبا نقيباً على رأس سرية المهندسين الرابعة، حيث مكث ست سنوات ونصف السنة<sup>1</sup>.

وفي كوبا سترقي إلى رتبة رائد مهندس، رئيس لشبكة التلغراف العسكرية، وسيتولى في وقت لاحق، عند بدء التمرد بقيادة مكسيمو غوميث (Màximo Gomez)، تدريب الأفراد على كيفية استخدام التلغراف البصري وسيقوم بإعارة خدماته «في إسبانيا والخارج من أجل دراسة وتعديل معدات التلغراف» وإدارة حيازتها<sup>2</sup>. وعند انقضاء مدة الإقامة المطلوبة رحل في مارس 1897 إلى إسبانيا حيث بقي يتنقل بين مختلف المهام والمواقع في برشلونة وفيغو (Figo) وفيرول حتى غشت 1904، وهي الفترة التي قام فيها برحلة طويلة من أجل أغراض خاصة إلى فرنسا وسويسرا وإيطاليا (1900).

وفي المرحلة الأخيرة من إقامته في إسبانيا عين في لجنة تصفية الكتبية المختلطة لمهندسي كوبا، التي استقلت عن إسبانيا عام 1898. وستكون وجهته التالية، وهو ما يهمننا في هذه الدراسة، منصب قائد قوات المهندسين برتبة مقدم بكناريا الكبرى حيث قام بالرحلة الاستكشافية لشبه جزيرة وادي الذهب (الداخلة) والتي كتب عنها تقرير يوليو 1905 المفصل، وهو هدفنا في هذه المداخلة. وفي الدليل العسكري السنوي الإسباني لسنة 1904 يوجد اسم خوسيه غونثاليث غوتيريث بلاثيوس كمساعد قائد قيادة المهندسين العسكريين في كناريا الكبرى، التي تأسست في لاس بالماس، في غشت 1904.



يصف سجل خدمته مهمته في وادي الذهب كما يلي:

«في 21 من الشهر نفسه [يوليو 1905]، ذهب إلى وادي الذهب (الساحل الغربي) من إفريقيا في سفينة «ريو دي أورو» من أجل القيام بالدراسات الجغرافية، وتعرف على عدة أماكن ونزل في مرسى «كورال» (el Corral) حيث بعد التعرف على الأراضي المتاخمة اجتمع مع شيخ قبيلة إس-أركيك (Es-Arguique)، بشير الدرجي، بشأن الرغبة في الصداقة المتبادلة بين إسبانيا وقبائل الصحراء، وعاد من بعثته في 26 غشت<sup>3</sup>. وعن هذه المهمة والتقرير المكتوب عنها، موضوع هذه المداخلة، منح له في دجنبر 1905 «وسام الاستحقاق العسكري من الدرجة الثانية مع شارة بيضاء، ومنح له من أجلها معاش بنسبة 10٪ عن عمله إلى حين الترقية الفورية<sup>4</sup>. وقد شغل مناصب مختلفة، في جزر الكناري، في لاس بالماس كما في تينيريفي، حتى إحالته على التقاعد في فبراير سنة 1909، التي تنتهي فيها المعلومات عن أنشطته في السجل المتقدم ذكره، دون أن نجد حتى الآن مزيدا من المعلومات عن حياته.

### التقرير

تألف الوثيقة [المخطوط] من 130 صفحة بغلاف أحمر مجلد وتحمل عنوان «وادي الذهب». وما زال محتفظا بها في المكتبة الخاصة للديبلوماسي رامون فيلانويبا (Ramón Villanueva)، حفيد الوزير الليبرالي للنظام الملكي، السيد ميغيل بيلاويبا إي غوميث (Miguel Villanueva y Gomez، 1852-1931)، الذي شغل منصب وزير البحرية من 23 يونيو إلى 31 أكتوبر 1905، وهي بالضبط الفترة التي قام فيها المقدم خوسيه غونثاليث غوتيريث بالاثيوس برحلته إلى وادي الذهب، وهذا ما يفسر العثور على المخطوط في مكتبته الخاصة، وهي الوثيقة التي قد يكون الوزير نفسه هو الذي من كلفه بإنجازها، باعتباره النائب البرلماني الليبرالي عن كوبا بين 1881 و 1898 ولا شك أنه تعرف على المهندس العسكري مؤلف المخطوط، الذي تولى مهامها بالجزيرة خلال تلك الفترة كما سبق ذكره.

وعلى الرغم من أن الأمر يتعلق بوثيقة مفصلة جدا، فإن الكاتب يحاول التقليل من أهمية عمله، مشيرا في المقدمة إلى «أن الأمر لا يتعلق بأي رحلة استكشافية ذات أهمية ولا حتى متعبة، بل هي جولة رياضية سخرت لها كل ما يمكن، لعلي ألتقط شيئا مفيدا، وقد يكون أعظم ما أتمناه هو أن يمكنني ولو على نطاق صغير من زيادة معرفة هذا الجزء من القارة الأفريقية الكبيرة».

ومن الملاحظ أنه على الرغم من كثرة الحديث عن الصحراء الإسبانية الغربية، فإن «التفاصيل التي قدمت كانت قليلة، كما أن الاستكشافات التي أجريت كانت بالأحرى عامة». ويقول المقدم خوسيه غونثاليث في نصه إنه سيحاول «الحرص على التفاصيل وجمع أكبر قدر من البيانات المتاحة لي في علم المناخ والبنية الجيولوجية» في إشارة إلى شبه جزيرة وادي الذهب، والداخلة وساحل القارة من جزيرة هيرني (la Isla de Herne) إلى قمة جبل تريفور (la punta de Trevor).

جاء المخطوط مسبقا ب«تمهيدات»، حيث يشير الكاتب إلى التباس حدود الإقليم، وخاصة في جزئه الشمالي، وعزا ذلك إلى تأخر انضمام إسبانيا إلى تقسيم إفريقيا، وهو ما يفسر أننا نحن الإسبان «لم يتبق لنا سوى العظام، ولكن مادام بقي فيها القليل من اللحم، فيجب الاستفادة منها»، كما عبر عن ذلك رسما وصورة بشكل ساخر. وعن شبه جزيرة وادي الذهب يقول إنها «تكتسي بعض الأهمية من الناحية التجارية وأكثر من ذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الثروة السمكية على طول سواحلها». كما أن توفر الإقليم على خدمة منتظمة للبواخر وعلى مصنع، يضيفان أهمية على معرفته واستغلاله.



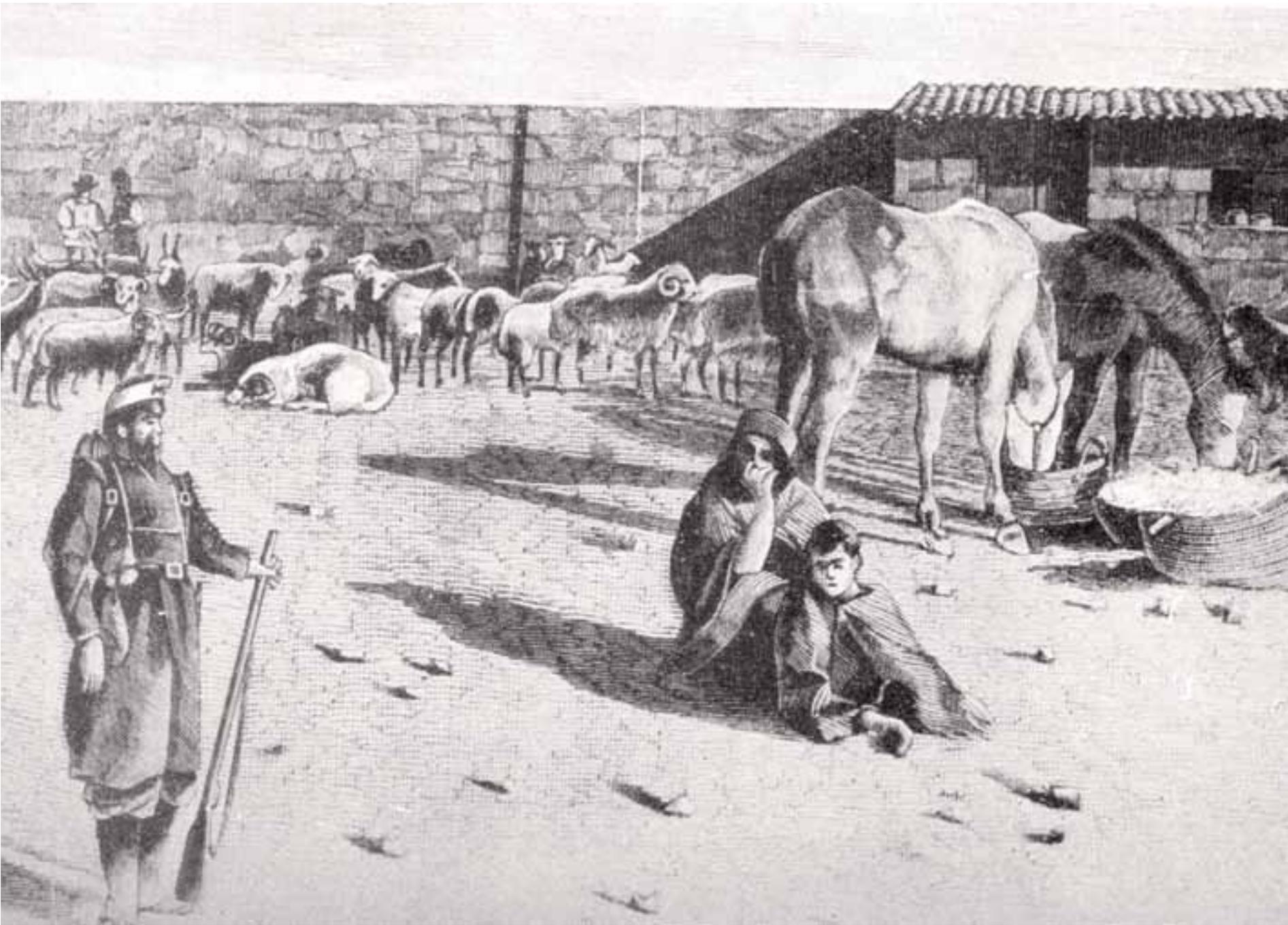
صورة الباخرة سان فرانسيسكو (San Francisco)، من الخدمة المنتظمة بوادي الذهب، (ب.ت.)

توجد مرفقة بالوثيقة ملحقات خرائطية وقعها المؤلف، مع خرائط عامة لأراضي شبه جزيرة «دخلة الصحراء» كما يسميها، ولقاطع جيولوجية عدة للساحل الإفريقي، نجد وصفا مقتضبا لجزيرة هيرني وتصميما عاما للمصنع والحصن، وصورا فوتوغرافية للبعثة.

في الجزء الأول من الوثيقة يقوم المؤلف ب«وصف جغرافي» ويقدم تفاصيل عن جوانب عامة تحدد الموقع، والتضاريس، وإمكانية الملاحة بالشواطئ، مع التوقف خاصة عند وصف جزيرة هيرني. كما يخصص صفحات «للطقس والمناخ» معربا عن انزعاجه من أنه على الرغم من الوجود الإسباني في المنطقة منذ عشرين سنة، لم تتبع الملاحظة الدقيقة، وهو ما يعطي فكرة عن عدم الاهتمام بالموقع:

«تمكن المصنع من تثبيت مقياس سرعة الرياح، ومقياس الرطوبة (سيء جدا) وبارومتر زئبقي، وأنبوب مقياس بلوازم لقياس الندى، ومقياس المطر وتيرومتروغراف بيلاني. وكانت هذه الأجهزة في فترة من الزمن شغالة وكان قسيس المصنع هو القائم عليها، ولكن بعد غياب هذا الأخير، بسبب تعيينه في مكان آخر تم التخلي تدريجيا عن الحفاظ عليها، فقد انكسر مقياس شدة الرياح، وفقد البارومتر الزئبقي، واختفى مقياس التساقطات وأصبح مقياس الرطوبة عديم الفائدة ولم يبق صالحا للاستعمال إلا التيرومتروغراف».

«مصنع وادي الذهب» Factoria de Rio de Oro التي كانت توجد بحصن وادي الذهب، اول بناية بالداخلة



ولذلك استغل الفرصة لنسخ البيانات الوحيدة المحفوظة والتي تم تضمينها بين مارس ويونيو 1904، وهو التاريخ الذي توقفت فيه المعدات عن الخدمة. أما البيانات السابقة فقد سلمت ببرشلونة، كما يقال، إلى الأب فونت (el Padre Font)، الذي يجب أن يكون قسيس المصنع نفسه المسؤول عن أخذ البيانات المشار إليها في الوثيقة.

وقد خلاص مؤلف التقرير إلى أنه «على العموم يمكن القول بأن الطقس جيد. بحيث إن درجات الحرارة الدنيا تتأرجح عموماً في الظل ما بين 9 و17 درجة مئوية ودرجات الحرارة القصوى ما بين 15 و35 درجة مئوية»، مع مقارنتها بخطوط العرض المماثلة في الساحل الأمريكي، وإنتهى إلى أن الأمر يتعلق بمناخ مستقر في الساحل الإفريقي، وإن كان أكثر برودة مما هو عليه في الساحل الأمريكي. ويصف رطوبة الجو بغير العادية والكثيفة.

«على شكل ندى كثير، وهو قد يعوض بعض الشيء قلة الامطار ويسهم في تشكيل طبقات من التربة السطحية. ولكن هذا في شبه الجزيرة مستحيل لأن الريح مع شروق الشمس، تقوم بتجفيف الأرض، وتجرب بعيداً جسيماتها غير المتماسكة. والنتيجة المنطقية هي أن النباتات يمكن أن تنمو فقط في المنخفضات والأماكن المحمية من الريح. السماء صافية باستمرار تقريباً، ونادراً ما تكون ملبدة بالغيوم. وتشرق الشمس بقوة بينما الليالي رائعة فوق العادة». ويواصل المقارنات مع الساحل الأطلنطي الأمريكي الخاصة بشخص قادم من تلك الشواطئ والذي يتوجه في تقريره إلى شخص آخر ذي معرفة جيدة بتلك السواحل<sup>5</sup>، ويخلص قائلاً:

«بصفة عامة، فإن اعتدال درجة الحرارة ورطوبة الجو، واستقرار الرياح وصفاء السماء تجعلنا نعتبر مناخ الصحراء الغربية صحياً لا خوف فيه من الأمراض الكثيرة التي تتطور على خط العرض نفسه في الوسط المكسيكي».

### سكان مدينة الداخلة

ويسهب المؤلف في وصف «الساكنة» وصفاً لا يخلو من التعبير عن بعض خيبة أمل إزاء عدم وجود الأوروبيين، على الرغم من مرور عشرين عاماً من الوجود الإسباني بالمنطقة. وقد كانت طريقة التعبير عن تلك الخيبة تصويرية وتهكمية:

«وادي الذهب، فيلا سيسنيروس، أسماء تشير أو يبدو أنها تشير إلى وجود مستعمرة أوروبية والتي لم تخرج بعد عن الطور الجنيني؛ ذرات معزولة لم تجد شريكا لكي تشكل جزئيات؛ فرضية بلا أساس؛ حلم على وشك أن يتبدد كما يتبدد السراب، أسماء ليست فقط إلا لخداع العقول الساذجة وجعل الرأي (العام) ينحرف عن مسارات الواقع. هذا هو عمل 20 سنة من الاحتلال ختمت في مراحلها الأولى بالدماء الإسبانية».



ولا يمكن أن يكون الاستنتاج قاطعا أكثر: «ينبغي ألا تكون هناك أية أوهاام؛ إذ لا توجد فيلا سيسنيروس، ووادي الذهب، فليس واديا ولا يحتوي على ذهب».

كان السكان الأصليون قليلي العدد. وفي هذا الصدد يقول المؤلف:

«لم يكن هذا الجزء من الساحل مأهولا بالسكان، والآثار العديدة للإنسان والإبل التي تلاحظ باستمرار إنما هي نتيجة مرور القوافل التي تنتقل من قبيلة إلى قبيلة أو إلى المصنع. ومن القبائل القريبة جدا نجد قبيلة أولاد العروسيين في الشمال، وأولاد زكري في الجنوب، كلها من القبائل الرحل ويرتبط انتقالها بأماكن تواجد الكلاً التي ترعى فيها الماشية، والتي تشكل ثروتهم الرئيسية.»

وعن منازلها يقول:

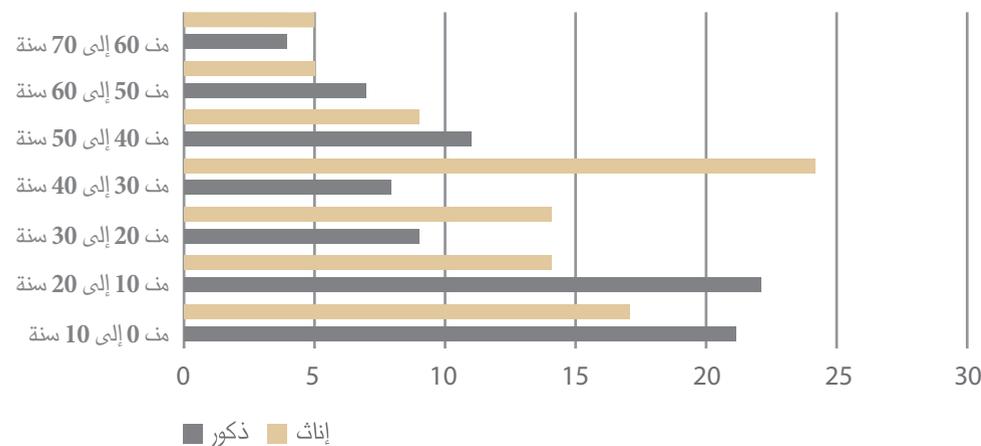
«الساكنة العربية، وهي أكثر عددا، تعيش في الخيام على بعد 200 متر جنوب المصنع. وبالإضافة إلى ذلك، ففي الشمال كما في الجنوب من شبه الجزيرة، تعيش بعض أسر الصيادين في الخيام أو بين الصخور في شواطئ البحر.»

وقد أدرج المقدم جدول الهرم السكاني الذي أعده النقيب فرانسيسكو بنس (Francisco Benz) بنس، حسب ما جاء في النص، الذي عين حاكما سياسيا عسكريا على المستعمرة سنة 1903 ووصل إلى الإقليم في يناير 1904، وهو جدول بالغ الأهمية:

### جدول ساكنة فيلا سيسنيروس سنة 1905

الجنس	من 60 إلى 70 سنة	من 50 إلى 60 سنة	من 40 إلى 50 سنة	من 30 إلى 40 سنة	من 20 إلى 30 سنة	من 10 إلى 20 سنة	من 0 إلى 10 سنة	المجموع
الذكور	4	7	11	8	9	22	21	82
الإناث	5	5	9	24	14	14	17	88
المجموع	9	12	20	32	23	36	38	170

سكان الداخلة سنة 1905





تجمع أطفال من الداخلة  
حول جندي إسباني، 1905

في إحصاء عدد السكان الذي قام به خوسي غونثاليث سنة 1905 يلاحظ وجود 176 شخصا يعيشون في 57 خيمة. وإذا أضفنا 130 شخصا من الذي يعيشون في أجزاء أخرى من شبه الجزيرة، فلن يتجاوز مجموع سكانها 300 شخص. ويميز بين أولئك الذين يطلق عليهم «عرب الساحل أو عرب الحدود وعرب «الداخل»، فالنوع الأول يتعاطى الصيد والنوع الثاني يتعاطى الرعي أو سرقة ونهب ممتلكات النوع الأول. ونسبة قليلة فقط منهم تعرف قراءة وكتابة اللغة العربية، أي ثلاثة أشخاص من مجموع السكان.

وقد خصص جزءا من هذا الفصل للحديث عن العادات والعلاقات بين الجنسين، ودور المرأة، من وجهة نظر إثنية، تعتمد الحياة الأوروبية مرجعا أساسا. كما عمد إلى وصف الطقوس الثقافية، والمأكل، والملبس، والنظافة (أو عدمها)، والزينة، والرقص، والآلات الموسيقية. ويسلط الضوء على عدم وجود المياه الصالحة للشرب والتي يجب جلبها من جزر الكناري، وذلك لقلّة الآبار ولأن مياهها غير صحية.

ويحكي خوسيه غونثاليث عن أوجه الافتقار الملحوظة فيما يتعلق بالسكن والبنية التحتية والرعاية، الخ. ويشير إلى «التأثير الكارثي» الذي تسبب فيه ذلك بين الأوروبيين الذين يجذبهم «الإسم الرائع والمثير لوادي الذهب»، ويعبر عن ذلك بكل سخرية، قائلا «إشهار جيد لنظامنا الاستعماري».

اثنان من بين السكان الأصليين يتحدثون اللغة الإسبانية لدرجة أنهم، يضيف قائلاً: «يمكن أن نحسب أنهم من القادسيين»: لاتشيني (Lacheny)، طباخ المصنع، وبوشيمارا (Bushimara)، صاحب قارب الحكومة.

وعلى العكس من ذلك فإن الأطفال جميعهم تقريباً، حسب غونثاليث، يتحدثون بالإسبانية، وإن كان بشكل تلقائي، لأنه «حتى الآن لم يتم التفكير في تعليمهم قراءة وكتابة اللغة الإسبانية.»

وعن طبع الأهالي يبرز مدى فطنتهم، وقوة ملاحظتهم، وأيضا طابعهم المرتاب وعدم خلوهم من الامتنان. غير أنه يشير إلى أن «من بين القبائل القريبة من شبه الجزيرة توجد بعض القبائل المشاغبة والجشعة، والتي لا تخلو من الشراسة، مثل قبيلة أولاد دليم، التي يتهم أفرادها بالهجوم على المصنع ونهبه وحرقة سنة 1885.»

ويستشهد ببعض الفقرات من كتاب كونراد مالت - برون<sup>6</sup> (Conrad Malte-Brun) وهي مأخوذة من إحدى أعمال غولبيري (Golbery)، الذي يصف الإنسان الصحراوي بأسوأ الصفات. وعلى عكس ما يسميه بالقصة «القائمة»، يضيف تجربة بعض الجنود الذين عاشوا مع القبائل مدة من الزمن، ليختم قوله بهذه التعليقات الموحية جداً:

«أن يوجد أناس أشرار، من يشك في ذلك؟ ولكن ما هو المجتمع الذي لا يخلو منهم؟ وربما قد تكون خشونة عرب الصحراء الغربية أفضل من الكثير من الحيل الأوروبية التي يوجد فيها من الغدر واللاإنسانية أكثر مما بين هذه الشعوب التي تعيش في صلة وثيقة مع الطبيعة.»



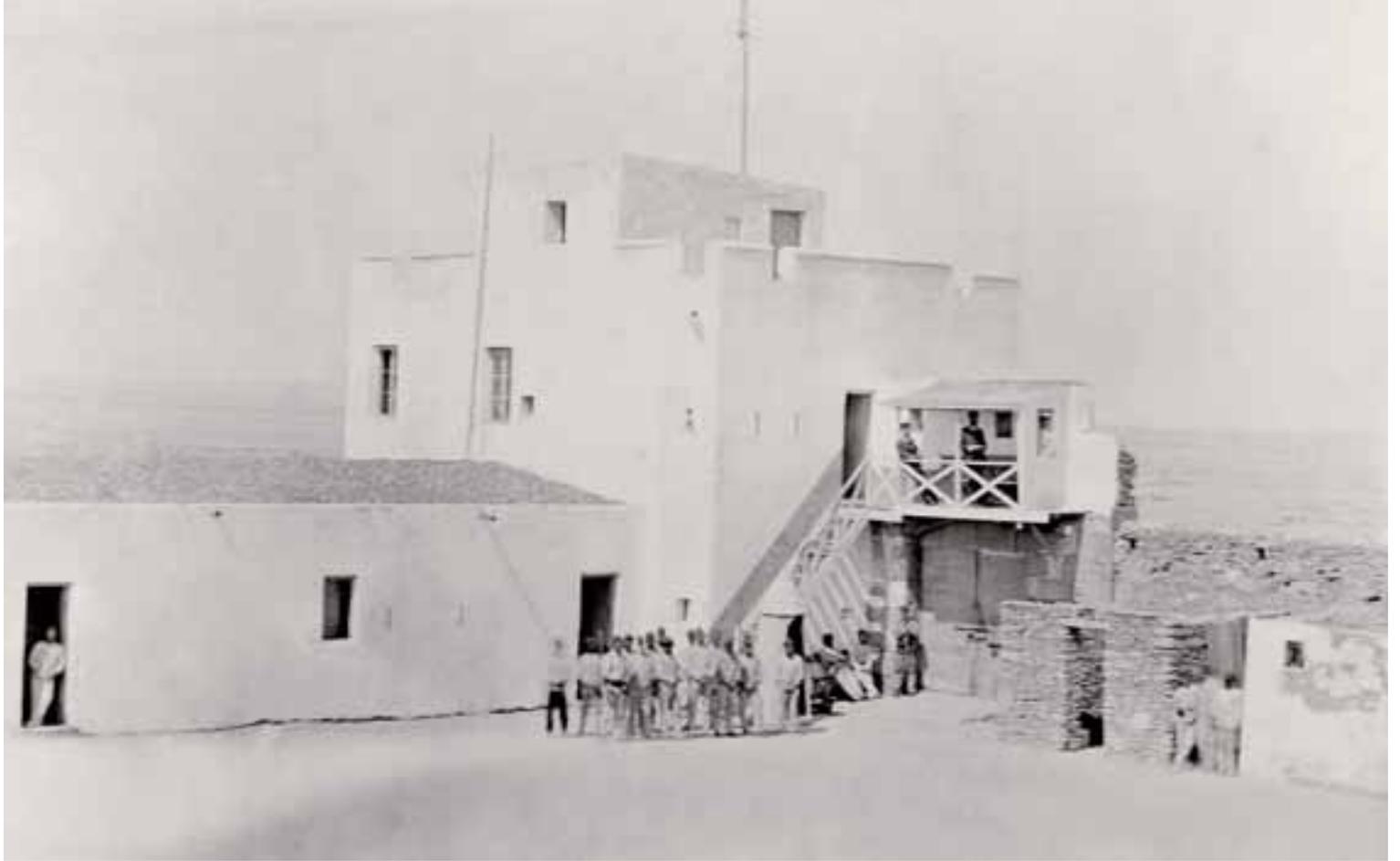
سكان من الداخلة، 1905

### مصنع فيلا سيسنيروس وتقييم محيطه

يقوم خوسيه غونثاليث بوصف موجز لمرافق المصنع، الذي تم هدمه للأسف سنة 2004، في تجاهل للقيمة التراثية والتاريخية لهذا الأثر. وقد جاء في ذلك الوصف ما يلي:

«تتكون (ما يسمى) فيلا سيسنيروس من فضاء محاط بسور مستطيل الشكل به بناية مخصصة للمصنع في الزاوية الجنوبية الشرقية وآخر محصن مخصص للسكن في الشمال الغربي؛ وبعض الأبنية المتاخمة لجدران السور أو الفناء، منها ما هو مخصص للمصنع ومنها ما هو مخصص لسكن المعسكر. وفي الزوايا الشمالية الشرقية والشرقية والغربية هناك مساحتان لنصب قطعة من 9 e/m ومنزلان في الخارج، واحد لسكن العرب الذين يأتون للتجارة وآخر مخصص لإعداد السمك؛ وحوض بدائي للسفن ولا شيء أكثر. وهذه هي فيلا سيسنيروس ب 38 أوروبا 33 منهم ينتمون إلى المعسكر».

مصنع صغير، بالكاد مفرزة عسكرية، تاريخها مخفوف بالمخاطر، كما تظهر ذلك أحداث 9 مارس 1885، بعد سنة تقريبا من وصول إيميليو بونيلي (Emilio Bonelli)، حيث هاجم السكان المحليون المصنع، مما خلف العديد من القتلى. وقد أصر رئيس الوزراء، كانوفاس ديل كاستيو (Antonio Cánovas del Castillo)، في مناقشة تلك الأحداث في مجلس النواب الإسباني آنذاك، على أنه «ليس هناك مصنع، ولن يكون هناك أي مصنع بدون أسلحة»، وأعدا معارضته الليبرالية «بحماية مضاعفة».



حصن وادي الذهب (ب.ت.).



جلود داخل حصن الداخلة  
وهي من المواد التي كانت تصدها  
«مصنع وادي الذهب» (ب.ت.)



مصنع وادي الذهب 1904 ويبدو  
جزء من حصن الداخلة

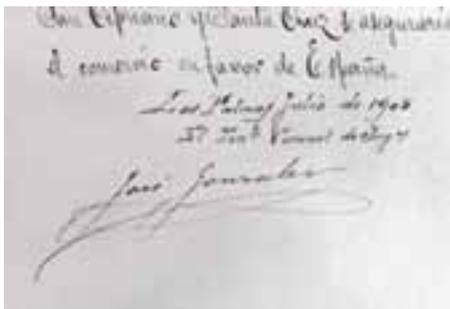


خريطة الصحراء الغربية كما  
رسمها المقدم خوسي غونثاليث

وكرس قسما آخر لـ «المنتوجات»، مشيرا إلى أنه «على الرغم من ندرة المياه وقلة النباتات، فإن الحيوانات رائعة حقا؛ النمر والفهود والضباع وبنات آوى والثعالب والأرانب البرية والظباء والغزلان «إضافة إلى الماشية من أغنام، - بصوفها الممتاز وحجمه المضاعف بالمقارنة مع الأوروبي - والأبقار. وعن الغزلان يقول «هي واحدة من أجمل حيوانات الخليقة، ولا شيء يمكن مقارنته مع رشاقة شكلها، وثبات جلدها وحيوية وأناقة حركاتها». وعن الظباء يقول «إنها واحدة من حلي الصحراء». وعن الطيور يقول أيضا إنها متوفرة بكثرة في المنطقة، ومن بينها طيور النحام والنوارس، التي يستخدمها السكان الأصليون غذاء.

وقد أفرد الإبل بتقييم خاص نظرا لصفاتها المميزة التي تتجلى في تكيفها مع الوسط الصحراوي، ويعدد أسعار جلود النمر والفهد والظبي، حيث يقول عنها إن «العرب يجيدون قطعها في مدة خمسة أيام باستخدام نبتة خاصة». ولكن وبدون شك «يعد الصيد ثروة سواحل الصحراء الغربية الحقيقية»، ويعدد الأسماك الأكثر شيوعا مع أسمائها بالإسبانية واللاتينية. كما خصص أيضا عدة صفحات للحديث عن الاستغلال الصناعي، وتطرق بتفصيل إلى السفن التي تملكها شركة ترأسأطلانتيكا في المنطقة، والعمليات التي تنجزها بواسطتها من أجل صيد الأسماك وحفظها.

وقد خصص الفصل الثاني لـ «الجيولوجيا»، مع وصف تفصيلي للمواد التي تشكل الإقليم. ويركز في الفصل الثالث على «ملاحظات ختامية» تتعلق بتحويل طاقة الرياح القادرة على تقطير المياه لتجنب تكاليف جلبها من جزر الكناري، والاستفادة من المصيدة، موجهها بعض الانتقادات إلى سوء الأداء الذي تقدمه، بحيث إنه، في رأيه، «هناك قاعدة ليس فقط لمصيدة واحدة، بل بالنسبة للعديد، إذا ما أعطيت التسهيلات اللازمة لاحتلال الأراضي والمرافق».



الصفحة الأخيرة من المخطوط  
بتوقيع المؤلف



وقد كرس أيضا بضع صفحات لـ «دفاع شبه الجزيرة»، والمواصلات مع جزر الكناري (بما فيها الاتصالات باستعمال الحمام الزاجل)، دون إغفال طبيعة الزي الواجب استخدامه لأسباب مناخية. وخلص إلى أنه سيكون من المفيد استغلال أجزاء أخرى من الساحل - مشيرا إلى أهمية إنشاء موانئ في اتجاه الشمال، ولا سيما في سانتا كروث دي مار بيكينا (Santa Cruz de Mar Pequeña)، وأن من شأن ميزانية مناسبة أكثر أن تسهم في تحسين الظروف المعيشية والإنتاج، وأنه لا بد من العمل للتغلب على الظروف غير المستقرة للعيش في المنطقة. ويطلب بالمزيد من الموارد للتمكن من تنفيذ عمل أكثر اتساقا.

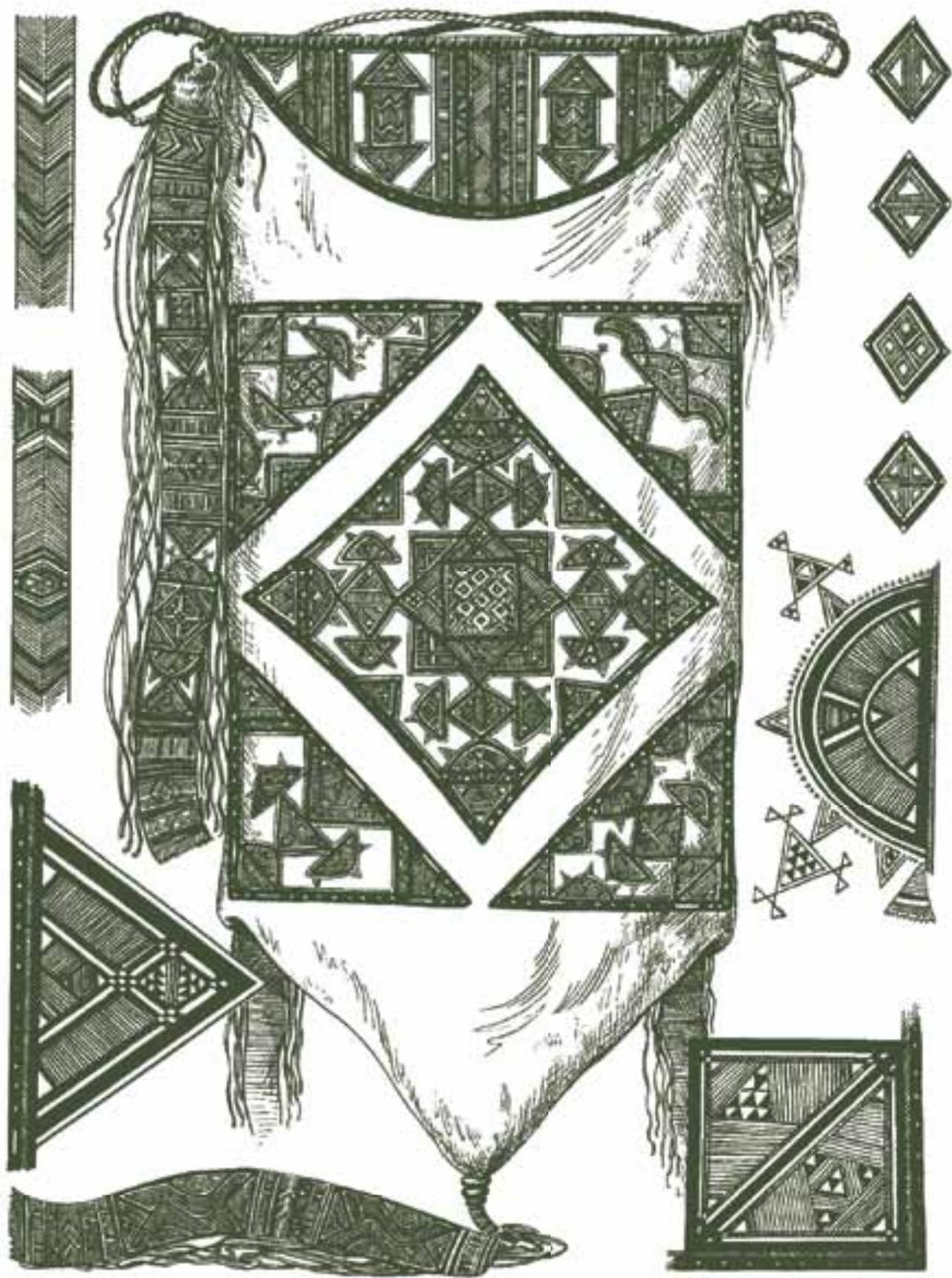
فيما يتعلق بدور الحاكم، فإن مهمته «تكمن في توحيد الاتجاهات المتباينة للمصنع والعرب والسعي إلى ممارسة مبدأ سياسة الجذب مع عرب الداخل. ونظرا لندرة موارد المصنع والنقص في عدد الضباط، يجد نفسه غير قادر على تقديم الهدايا كما يجب لعرب الداخل وإغاثة العديد من المحتاجين من الساكنة العرب. وقد تم اعتماد قرابة 1250 بسيطة لتغطية تكاليف التمثيل إلا أنها حذفت مؤخرا. لكن بفضل حسن إرادة من يتقلد اليوم المنصب، فإنه يدفع من ماله الخاص مبلغا مائلا حفاظا على السمعة؛ فالمهمة الحقيقية للحاكم يجب أن تكون أكبر، إذ إنه هو من يجب عليه أن يحرص على إقامة علاقات مع الداخل، وتنظيم حملات للتناظر مع القبائل، ومعرفة البلاد، وبمساعدة من الموظفين الأكفاء اقتراح الوسائل الواجب اتخاذها للسيطرة سلميا على التجارة الداخلية».

ويختتم التقرير بتفاصيل عن أفضل المداخل إلى شواطئ الصحراء وإشارات إلى ما يتعين القيام به بكل استعجال في المنطقة، لصالح زيادة حجم التجارة والعلاقات مع إسبانيا.

## هوامش

- 1 - سنوات قبل ذلك، في دجنبر 1882، كان قد تزوج في سان سيباستيان بأنا مارية أوريليا بيريث إي أكوسا، من بويرتو برينسيبي (كوبا).
- 2 - حسب سجل الخدمات المذكور، ص.8.
- 3 - الصفحة 10 من سجل الخدمة.
- 4 - من ورقة الخدمات. الصفحات 11 و13.
- 5 - في ذلك الوقت النائب البرلماني عن كوبا والمساند المحتمل للتقرير، وزير البحرية ميغيل بيانوبيا.
- 6 - جغرافيه دانماركي (1755 - 1826)، مؤلف ملخص الجغرافيا العالمية أو وصف العالم كله.







# كبار الرمل والحدود الاستعمارية

أحمد جوماني

كان رسم الحدود الاستعمارية<sup>1</sup> بالمناطق الصحراوية نتيجة لعملية تاريخية طويلة خلطت التصورات القانونية الغربية بالحركات الاستكشافية والغزوات العسكرية. وقد تم كل ذلك على خلفية المواجهات والمساومات بين القوى الاستعمارية التي تفاوضت بشراسة على تقاسم مناطق النفوذ لترسيخ هيمنتها على ممتلكاتها خارج القارة العجوز<sup>2</sup>.

انكب الكثير من الأعمال على قضية الحدود، حملتها المادية والرمزية، ديناميكيتهما ما بين الترابية والتباساتها، لأنه من الصعب أن لا نرى في أثر الحدود سوى الفصل والعزل. لقد تركزت الأبحاث لزمن طويل على مقارنة مجالية وجيو سياسية ترى في الحدود حداً أو انقطاعاً مادياً. وقد تم لاحقاً، بعد هذه المقاربة الأولى، تناول قضية الحدود بوصفها إطاراً تفسيريًا يمكن من ضبط الواقعي في منظور الحدود المثبتة على ضوء السلوكيات الاجتماعية<sup>3</sup>.

يمنح المغرب الصحراوي نموذجاً بليغاً لتطور المفهوم الخطي للحدود في الوسط الترحالي الذي لا يتصور، في وحدته المجالية، الحدود كحواجز مطابقة لتمايز الهويات والمرجعيات الثقافية. قام المستعمرون الفرنسيون والإسبان، بين العمليات العسكرية، والمفاوضات السرية والأطر القانونية التقليدية، برسم حدودهم. تعرض المغرب حينها لكل من الهيمنة المتزايدة لإمبريالية غازية وعدوانية والتقلبات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، الشيء الذي عجل بسقوط السلطنة الشريفة في أيدي قوات الاحتلال الاستعماري. سنحاول هنا تتبع مسار عملية وضع الحدود بجنوب المغرب وإلقاء النظر عن كثب على الجوانب «السلبية» للتخطيط والتقطيع الاستعماري وأيضاً على انعكاساته على اقتصاد رعي عريق.

## التقطيع الاستعماري للمغرب الصحراوي: تقطيع تعسفي

أول اتفاقية موقعة بين إسبانيا وفرنسا للتفاهم على تقسيم المغرب الصحراوي مؤرخة في 27 يونيو 1900. وقد ارتكزت بالخصوص على تحديد ممتلكاتهما على ساحل الصحراء<sup>4</sup>.

ارتبط الموضوع الرئيسي لاتفاقية يونيو 1900 بالحدود الجنوبية الشرقية لما كان يسمى في تلك الفترة ريو دي أورو. وقد تم تقسيم شبه جزيرة الرأس الأبيض من الوسط ثم جرى اصطناع خط صاعد نحو الشمال إلى أن التقى مع خط العرض 21° 20'.

تبع التقطيع بعد ذلك خط العرض 21° 20' إلى أن تقاطع مع الخط 15° 20' غرب باريس. رسم الخط، عند هذه النقطة المحددة، منحني طفيفا ولكنه واضح للعيان بين خطي الطول 15° 20' و 16° 20' لأن فرنسا وضعت كل ثقلها وكفاءتها التفاوضية للاستثمار بسبخات منطقة إيجيل وملحقاتها. انطلاقا من هذا القوس توجه الخط نحو تقاطع مدار السرطان مع خط الطول 14° 20' ثم صعد شمالا دون تقديم المزيد من التفاصيل.

لم تتوقف الصفقات السرية والمعلنة عند ذلك، لأن المفاوضات بين فرنسا وإسبانيا تواصلت سنة 1902 لإيجاد حل لعدم تمايز دائرتي نفوذ القوتين المستعمرتين للمغرب. استندت فرنسا وإسبانيا مجتمعتين، في مشروع الاتفاقية (8 نونبر 1902)، ولاسيما المادة 3، إلى تقسيم تراب واحد، يعني السلطنة الشريفة<sup>5</sup>. وقعت فرنسا وإسبانيا بيانا مشتركا بباريس في 3 أكتوبر 1904، زعمتا فيه أنهما مستمرتان «في الالتزام بحزم بالوحدة الترابية للسلطنة الشريفة تحت سيادة السلطان». جاءت المادة 5، في الاتفاقية السرية لسنة 1904، لتتيمم وتجسيد نطاقتي دائرتي النفوذ بالمغرب الصحراوي. هكذا انطلقت الحدود من تقاطع خط الطول 14° 20' غربا مع خط العرض 26°، وتتبع هذا الأخير حتى التقائه بخط الطول 10°. فحصلت إسبانيا على الساقية الحمراء ومنطقة طرفاية وصولا إلى وادي درعة، في حين وضع الفرنسيون اليد على زمور. وبقيت هذه الاتفاقية طي الكتمان الكامل ولم يكشف عنها إلا في نونبر 1911.

على هامش صعود ألمانيا كقوة مطالبة بحصتها من الكعكة الاستعمارية، تم حينئذ، بالفعل، توقيع اتفاق بين فرنسا وألمانيا في 4 أكتوبر 1911 حول موضوع المغرب. وكان مرفقا برسالتين مفادهما على وجه الخصوص أن ألمانيا ستظل «غير معنية بالاتفاقيات الخاصة التي تعتقد فرنسا وإسبانيا بأن عليهما إبرامها بينهما حول موضوع المغرب، ما دام هناك اعتراف بأن المغرب يشمل المنطقة الشمال-إفريقية الممتدة ما بين الجزائر وإفريقيا الغربية الفرنسية والمستعمرة الإسبانية بربو دي أورو»<sup>6</sup>.

سعيًا من فرنسا إلى ترسيخ هيمنتها بإفريقيا الشمالية بسلاسة، وبعد أن فرضت على السلطان معاهدة فاس التي كرسست الحماية الفرنسية على المغرب في 30 مارس 1912، بدأت، كما نصت على ذلك المادة الأولى من هذه المعاهدة، في التشاور مع الإسبان «حول مصالح هذه الحكومة (الإسبانية) باعتبار موقعها الجغرافي وممتلكاتها على الساحل المغربي».

سيدفع تطور الوضعية بالمغرب القوتين الاستعمارييتين إلى مواصلة مفاوضاتهما، وسوف توقعان بمديرد اتفاقية جديدة في 27 نونبر 1912 بهدف زيادة توضيح حصة كل منهما بعد توالي أفول السلطنة الشريفة<sup>7</sup>.





قوات راكبي الجمال  
Méharis في الجيش  
الاسباني، طرفاية (1930)

لقد تم الإبقاء في هذه المعاهدة على قرارات اتفاقية 1904 السرية، وكذلك على تطبيقاتها بالجنوب (أدرجت المادتان 5 و 6 في الاتفاقية الجديدة، المادة 2). وكانت نتيجة ذلك أن الحدود التي تم تعريفها بتلعة وادي درعة، ستبتع هذا الأخير من البحر حتى التقائه مع خط العرض  $27^{\circ} 40'$ .

تبعاً لهذه السلسلة من الاتفاقات، استولت إسبانيا على أرض شاسعة تقع ما بين وادي درعة، خط العرض  $27^{\circ} 40'$  وخط الطول 11، مع الاحتفاظ بالمنطقة الواقعة ما بين خطي العرض  $27^{\circ} 40'$  و  $26^{\circ}$ . علماً أن نوعية الأراضي التي منحها هذه الاتفاقية لإسبانيا تميز منطقة طرفاية، الموضوعت تحت السلطة المدنية والدينية للسلطان، ومنطقة الساقية الحمراء، حيث سيقم الإسبان مستعمرة<sup>8</sup>. ولم تعر معاهدة 1912 أي اهتمام لمجموع حدود المغرب، وركزت بدلاً من ذلك على تحديد المناطق الواقعة، على التوالي، تحت سيطرة الفرنسيين والإسبان.

### الرعي الترحالي الصحراوي

بإمكاننا أن نلاحظ مسبقاً أن المستعمرين قد اعتمدا ببساطة على خطوط العرض والطول «لتحديد منطقتي نفوذ كل منهما دون اعتبار لقبائل الرحل التي تم توزيعها تبعاً لذلك، بكل تعسف، على أساس مركز ثقل تقريبي للغاية لمنطقة ترحالها المعتادة»<sup>9</sup>. يستجيب هذا التجريد للبعد الإنساني لتقليد استعماري كان من الشائع للغاية العمل به لتقسيم القارة الإفريقية. تم اللجوء بكل سهولة إلى «نظام من الخطوط الجيوديزية لوضع حدود مجال كان شبه خال من الميزات الجغرافية الطبيعية التي تمكن من رسم أكثر موضوعية؛ ولأن غالبية السكان المعنيين بهذا التوزيع كانت من الرحل (...). لم يكن من الممكن تلافى النتيجة وقسم الخط الفاصل، اعتراضياً، مجال ترحال قبائل المنطقة»<sup>10</sup>. يرى المفهوم الاستعماري التكنوقراطي لمفعول الحدود في إقامة العلامات قراراً نهائياً ومادياً بالتقسيم، عمل غالباً ما يتم إسناد [إنجازه] للممارسين الخبراء في الجغرافيا وللمهندسين المساحين قليلي الانتباه للمتطلبات والخصوصيات المحلية.



سيتولد عن غياب الخاصية الترابية والإنسانية في هذه الإدارة التقليدية للحدود آثار غير متوقعة على صعيد علاقات الهوية التي تشكل نوعاً من «اللامتصور» في المعالجة الاستعمارية لقسمة مناطق النفوذ. لقد لاحظ جاك أنسيل (Jacques Ancel)، في عمل رصين، أن لا مستقبل للحدود، حتى ولو كانت مثبتة على حواجز مادية، إذا ما كانت منشغلة فقط بالإطار المادي. ما يهم هي القوى الحية بتراب ما، الناس الذين يشكلون الطاقة والمادة<sup>11</sup>. تم فصلت عسكرية هذا الحد المصطنع، في فترة التوترات بين المستعمرين، حول ممارسة السيادة الحصرية على تراب مصمم على شكل مستعمرات، مما أدى إلى آثار كارثية على مجموع اقتصاد الرحل والبنية الاجتماعية القبلية بصفة عامة. وعلمنا قول بضع كلمات عن هذه الأخيرة كما كانت منظمة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، عندما تم إنشاء الحدود الاستعمارية.

كانت الغالبية العظمى من سكان مجموع الغرب الصحراوي، تركز نفسها، آنذاك، للأنشطة الرعوية وتشارك في نمط عيش الترحال. في هذا المجال الصحراوي الشاسع الممتد من تخوم الجبال المغاربية حتى نهري السينغال والنيجر، الذي تسكنه المجتمعات القبلية الناطقة في معظمها بالعربية، في إطار ثقافة صحراوية (بيضانة) متجانسة إلى حد ما، كانت هذه الساكنة الرعوية والمترحلة قد عرفت تطورات تاريخية خاصة في استجابة جزئية منها لمتغيرات ناجمة عن الوسط. تتلقى الجهات الجنوبية من الغرب الصحراوي، الممتدة داخل المناطق الساحلية، أمطاراً أوفر وأكثر انتظاماً على وجه الخصوص، ومثلت، نتيجة لذلك، موارد مائية ونباتية أكثر وفرة وأكثر أمناً، وشكلت على الدوام مناطق جذب لرحل الشمال. وهذا ما وقع لساكنة الغرب الصحراوي، بطريقة قديمة للغاية، عبر تحركات القبائل القادمة من الشمال والمحتلة، تدرجياً، لهذه المراعي الجنوبية على نحو متفاوت السلمية. احتل الاستعمار الفرنسي هذه المناطق الجنوبية انطلاقاً من مناطق الاستقرار السودانية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع عواقب فارقة عندما تعلق الأمر بمراحل الغزو ورسم الحدود<sup>12</sup>.

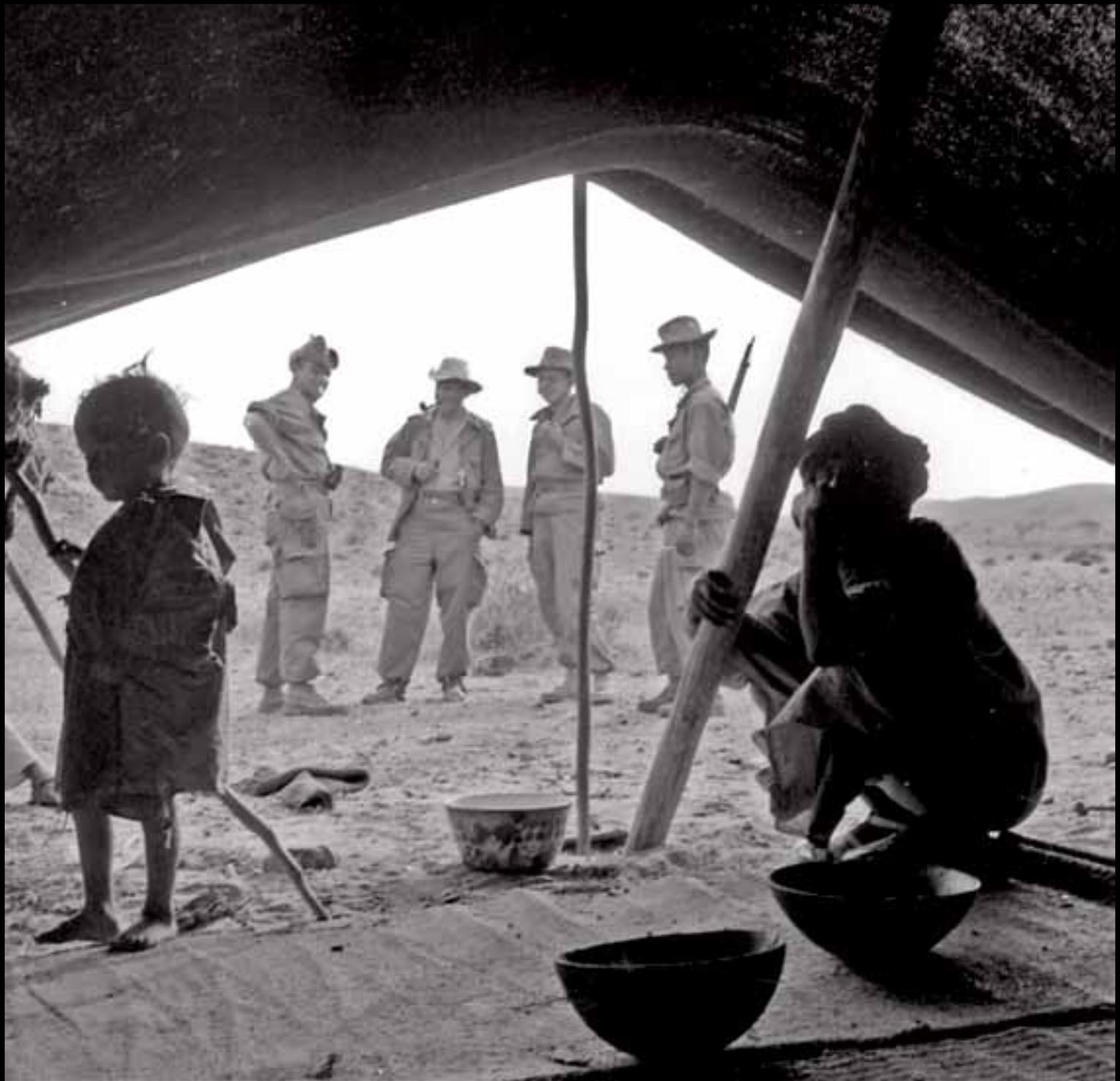
تقدم وضعية مربي الماشية الرحل في الشمال، جراء ذلك، خصائص ملفتة للنظر. التمايز بين مناطق الاستقرار ومناطق الترحال هو في آن معا أكثر صرامة - [حيث] تفرض الظروف المناخية خارج وادي نون ووادي درعة نمط عيش الأولوية فيه للرعي والترحال، والذي هيمن على حوض الساقية الحمراء ووادي الذهب - وأكثر مرونة، بحيث يمكن للقبائل نفسها أن تتواجد بمنطقة الاستقرار والترحال وحيث تكون المبادلات دائمة بين المجموعتين. بالنسبة للرحل، وعلى الرغم من الظروف المناخية، التي تعرف تغيرات قوية، وفترات الجفاف التي تفرض تنقلات جماعية<sup>13</sup>، فإن هذه المنطقة تقدم كذلك أفضل مراعي الإبل بالغرب الصحراوي، مراعي تيرس على سبيل المثال، الملائمة لتنمية اقتصاد رعوي إبلي مزدهر. لقد تكشفت السيطرة على هذه المراعي عن أهمية كبيرة، حتى ولو أن هناك بصفة دورية مراعي أبعد قابلة دوماً للوصول إليها للمحافظة على القطعان والاستمرار في زيادتها. هكذا ارتسمت مسارات منطقة رعوية مترامية الأطراف، بحدود متحركة، من الأطلسي حتى المكثبات (العروق) الجزائرية الكبرى، من الغرب حتى الشرق، من الساقية الحمراء وحمامة تندوف شمالاً حتى مرتفعات أدرار وتكانت وكذلك أيضاً حتى كثبان أكشاش وأزفال في الجنوب. والحال أن حركة هبوط قبائل الشمال نحو الجنوب هذه أعيقت، في القرن التاسع عشر، نتيجة بروز التشكيلات السياسية الإماراتية بالمناطق الجنوبية، والتي ستربطها بقبائل الشمال الرعوية والمترحلة علاقات تنافس وصراع حتى مجيء الاستعمار الفرنسي.

هكذا كان على مربيي الماشية الرحل التوفر على مجالات رعي مترامية الأطراف، حيث غالباً ما بقيت ملاذاتها الترابية نسبية. وحده الاستغلال الدوري للأراضي الصالحة للزراعة استتبع حقوقاً حصرية حازتها قبائل وعشائر قبلية. كما تملك مربيو الماشية حقوق استغلال مناطق الرعي خاصة، [وكان ذلك] أكثر وضوحاً بين مالكي قطعان الماعز والأغنام منه بين مالكي الإبل على وجه الخصوص، لكن هذه الحقوق لم تكن حصرية، طبقاً للشريعة التي تستثني من الحيازة الخاصة الموارد من مياه ومراع. كانت المخيمات (الفرثان - م. أفريثك)، وحدة الإنتاج الرعوي، تتوفر، في الواقع، على بعض المبادرة في اختيار مواقعها وتحركاتها الرعوية. لقد دفعتها ممارسة التضامن القبلي، والحاجة إلى حماية الرجال والقطعان والدفاع عنهم، عندئذ، إلى التجمع على أساس الانتماء القبلي. يفقد مفهوم التراب، الواضح لدى المستقرين، معانيه هنا، ويجري الحديث، على الأكثر، عن المسارات المعتادة (تراب) لهذه القبيلة أو تلك. من الممكن لهذه المسارات أن تبدي بعض المداومة على الصعيد المناطقي. استتبع هذا التنظيم لمجال بهذا الاتساع فرض هيمنة رعوية تؤكد دور القبائل القادرة هناك على ضمان أمن مخيماتها وقطعانها. عشية [مجيء] الاستعمار، كان هذا وضع الرثيبات، بعد أن كان لزمان ما، أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وضع أولاد دليم الذين كانت مساراتهم حينئذ تمتد شرقاً، أكثر [من ذلك] بكثير. في الواقع، لقد تطورت هذه القبائل، الشديدة التمايز بواسطة إيديولوجية النسب التي تجعل، [كل واحدة منها] تنحدر من سلف مشترك يعود إلى قرون عديدة، من خلال لعبة التحالفات والمصاهرة وطقوس ومواثيق الحماية<sup>14</sup> وإلحاق الأتباع، التي تعيد رسم المدارات وتعرض تطور النفوذ الترابي.

المجتمع والاقتصاد في مجال الترحال هما في نهاية المطاف مؤسسان على تكاملية هرمية بين الأوساط البيئية. [وقد] قاد ظهور المعطى الاستعماري، منذ البداية، إلى تفكيك الوحدات القبلية وإلى تجزئة متذبذبة للأراضي الصحراوية. والحال أن المفهوم الشبكي للأرض بمنطقة يسودها الترحال قلما يتوافق مع التجميع البسيط للمجالات المغلقة بواسطة حدود مادية محكمة مبالغة إلى قطع التوازنات بين المجموعات الاجتماعية المترابطة.

المجال الترحالي هو في المقام الأول مجال شبكي، والشبكات فيه محددة من خلال تنقلات الساكنة التي تشغل موقعها بمعرفتها بالتنقل، أي بأراضي التنقلات. يأتي مفهوم «تراب» المسار من التكييف الاجتماعي الطويل للمجال المشترك، المؤسس على كثافة اجتماعية وسمك رمزي مرتبطين باستثمار متنام للرجال الذين عرفوا كيف يتكيفون مع محيطهم. تتحمل الأرض القبلية التجزئات الاجتماعية والاقتصادية الأصلية. ويعبر التنقل المجالي إذن عن أكثر من نمط مشترك لاستخدام المجال، إنه يعبر عن تسلسلات [هرمية] اجتماعية. وكما ذكر بذلك هنري لوفيفر (Henri Lefèvre)، تؤخذ الأماكن المألوفة المأهولة، المجتازة، على أنها عناصر مجموعات ترابية مترامية الأطراف داعمة لشبكات ومراجع المجموعات المتنقلة<sup>15</sup>. تمثلت المجال هذه مرتبطة بالأساس بعلاقات الإنتاج، [أي] الترحال في هذه الحالة. تنجم هذه التمثلات عن قاعدة معرفية وسلاسل من العلامات، ورموز، وعن رمزيات معقدة ومجموع العلاقات التي تميز الروابط، الاجتماعية منها والفردية في آن معاً، من الإنسان إلى أرضه. وتحدد هذه الأخيرة شبكة من الروابط بين الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية والحياة السياسية. هذا هو الدرس الذي تحيله علينا الأنثروبولوجيا التاريخية والجغرافيا التاريخية<sup>16</sup>.

جنود فرنسيون أمام خيمة قرب  
السمارة إبان عملية إيكوفيون  
العسكرية ( فبراير 1958 )



## الحدود المادية و مفهوم المجال الترحالي: عدم ملائمة قدرتي

لم يكن بإمكان هذا التدبير للمجال الترحالي والتمثلات التي تحكمه أن تتوافق مع تلك التي كانت تشكل مرجع المستعمرين. لقد كان تدبير المجال في مفهوم إدارة القوى الاستعمارية مصاعاً حسب ثوابت اقتصاد جيوسياسي مختلف بالكامل عن المنطق والقواعد المحلية لحيازة المجال. وقد تمخض اختلال التصور القبلي للبعد الترابي عن رغبة المستعمرين في وسم المجال الصحراوي بعلامة وأجهزة السلطة العسكرية.

قاد الاستعمار الفرنسي-الإسباني في أعقاب طبولوجيا السياسية إلى تصور خارجي المنشأ «للتراب القبلي». [في حين أن] العلاقة بالمجال في الوسط الصحراوي قائمة على دقة «المعرفة بالمناطق الطبيعية وخطوط السير - التجارية والترحالية -، ولكن أيضاً على القوى الحاضرة، والعلاقات التي تقيمها فيما بينها. (...) وإعادة التحديد المستمرة لمجال الترحال اعتماداً على العلاقات السياسية والظروف الجوية، و[مدى] التردد على المواقع المتوقف ليس فقط على المسافة ولكن بالخصوص على الزمن والشبكات»<sup>17</sup>.

يحيل البعد القانوني-السياسي لخط الحدود الغربي مباشرة على تعريف نطاق سيادة ترابية من الصعب تطبيقه إن لم يكن في تصور أولي نظري خالص. وهذا، حتى ولو كانت المادة الثامنة من اتفاقية يونيو 1900 تنص صراحة على أن «الحدود المحددة من طرف هذه الاتفاقية (...) قد رسمت على الخرائط (...)» (وأن) الحكومتين تلتزمان بالقيام في ظرف أربعة أشهر ابتداء من تاريخ تبادل المصادقة عليها، بتعيين المفوضين الذين سيكلفون برسم الخطوط الفاصلة بين الممتلكات الفرنسية والإسبانية». ونظراً لهوس المستعمرين بالارتباط المتبادل بين ممارسة القوة السياسية والعسكرية وإقامة الحدود، فإنهم سرعان ما اصطدموا باستحالة الوفاء بالتزاماتهم التي تعهدوا بها في خضم صراع امبريالية مطلع القرن العشرين<sup>18</sup>. ولم تكن استراتيجية «الترسيم» بواسطة مواد ثابتة، والتي تشكل مرحلة أساسية في عملية وضع الحدود، مدعومة بطريقة مثابرة. الاستثناء الوحيد كان الرأس الأبيض المعروف بوجود نصب إسمنتية تحمل حرف «F» للإشارة إلى المنطقة الفرنسية من جهة، والحرف «E» للممتلكات الإسبانية، من جهة أخرى<sup>19</sup>. تم الانتقال بسهولة من منطقة الالتقاء بين المجالات المكتملة إلى مفهوم الحد، الحدود بالمعنى الفرنسي للكلمة، وهو خط اتفاقي بالمعنى القانوني، أي خط فاصل لتراب سياسي. ومع ذلك سجل قائد فرنسي، في وقت مبكر، هذا القصور ملفتاً انتباه رؤسائه إلى عدم صلاحية المفهوم الفرنسي للحدود في الوسط الصحراوي. وقد لاحظ، عن حق، أنه «في منطقة مأهولة بساكنة من الرحل لا غير، ما القيمة التي قد تكون لحدود يتجاهل خطها مراعي قبائل الرحل التي تنتقل تعاقباً من جانب إلى آخر من هذا الخط النظري تبعاً لحاجياتها من الكلاً؟»<sup>20</sup>.

الهجرات الواسعة النطاق لقبائل المغرب الصحراوي تدرج هذه القبائل في كثافة سياسية واجتماعية هي ذاتها نتاج تاريخ طويل لتشكيل إقليمية المجموعات. لقد أجبر التكيف التدريجي مع الأنظمة البيئية هذه المجموعات البشرية على اعتماد الرعي الترحالي كأعلى نمط للاستفادة من الموارد عبر التنقل المستمر (البيئي والمؤسسي) بحثاً عن مراعي للقطعان، تكون أحياناً نادرة ومؤقتة. خلف الحرية الظاهرة، لا بل الفوضى، التي يبدو أنها توجه حركة الرحل، تنزل إكراهات سياسية واجتماعية بثقلها على حركة الرعاة في إطار تنظيم تراتبي ومجالى مع متطلبات سياسية ورمزية (آليات الولاء والحماية وتدبير المجالات القبلية) التي سيقوم الاحتلال الاستعماري بتغييرها على نحو محسوس<sup>21</sup>.

المجال الترحالي محمل بالمواقع التي غالبا ما تبدو على أنها خالية وقلما تنتمي لأزمة منظمة، في حين أن هذه المناطق «تجدروابطها في التقويم وليس في الحدود، و[هناك] بكل موقع تواجد مركز للتنوع البشري والاجتماعي والاقتصادي، منتجا من جديد لمجموع المحيط تقريبا»<sup>22</sup>.

أثرت دوائر الانتجاع مباشرة، بمجرد عرقلتها، على دورة إنتاج البنية الاجتماعية بكاملها، والتي بدورها ستحول، قدر استطاعتها، قنوات إدارة التخوم ومجموعات الرحل. لقد سعت القوتان الاستعماريتان باستمرار إلى إخضاع قبائل المغرب الصحراوي تحت رايته، مطبقة القاعدة نفسها [المعمول بها] بباقي المستعمرات: فرض الحكم الاستعماري يعني نزع سلاح رجال القبيلة وإعلان موت الماضي<sup>23</sup>.

### الجدل الاستعماري: استحالة إدارة الحدود

بين الفرنسيين والإسبان، لم يُنظر إلى خط الحدود بالطريقة نفسها، طوال الحقبة التي استغرقتها الاحتلال الاستعماري. كان الفرنسيون واثقين من تفوقهم العسكري والمؤسسي، ودفعت الأحزاب الاستعمارية، الواسعة التأثير، العسكريين إلى الحصول على أقصى قدر من المساحات بإفريقيا الشمالية. والواقع أنها لامت بشدة ديلكاسيه (Delcassé) على تضخيمه لوزن الإسبان و على منحه إياهم امتيازات دون وجه حق<sup>24</sup>. كانت فرنسا تنادي باستمرار بمبدأ السيطرة الفعلية على الأراضي كوسيلة لشرعنة الاعتراف بالمستعمرات<sup>25</sup>. لم يتأخر الجهاز الاستعماري الأفريقي الإسباني، بدوره، في تأكيد حقوقه على الأراضي نفسها و «التأسف على أنه في مقابل بعض التنازلات بأراضي غينيا الاستوائية، سُلمت لفرنسا حقوق السيطرة على ملاحات إيجيل وعموما على آدرار الموريتاني، المكتسبة بفضل حملات سيرفيرا (Cervera)، كيراغا (Quiraga) و ريزو (Rizzo)»<sup>26</sup>، علما أنه لا يبدو أن تقسيم الرأس الأبيض كان مرضيا للإسبان الذين رأوا فيه إذلالا آخر من حيث كونه لم يأخذ بعين الاعتبار ماضيهم التوسعي وأضر بصناعة الصيد بجزر الكناري<sup>27</sup>.

مطار العيون إبان الاحتلال الإسباني (ب.ت.)



يلوح في أصل هذا الجدال نموذجان للحضور ولإدارة المستعمرات. يتوفر الفرنسيون، منذ وقت مبكر، على شبكة مواصلات عسكرية ومؤسسية متقدمة. أنشأوا سلسلة من المراكز على طول الحدود وقاموا مبكراً للغاية بإدراج هذا الحضور في استعراض مسرحي للقوة في مواجهة المجموعات القبلية المناوئة لهم. لم يكن لهذه الوضعية مثيل في الجانب الإسباني، حيث تنعدم الوسائل البشرية واللوجيستية على نحو مريع، وذلك ما منع ضباطهم، ولفترة طويلة، من المغامرة خارج الشواطئ الصحراوية. و فقط في سنة 1910، تجرأ حاكم وادي الذهب منذ 1903، فرانسيسكو بنز الشهير، على الخروج من أسواره للذهاب إلى أطار<sup>28</sup>.

وجد الفرنسيون أنفسهم، وهم المعززون في مواقعهم، الواثقون من تقدمهم والواعون بأن الممارسة الاستعمارية الحقيقية تتمثل في السيطرة الفعلية على الحدود، مجبرين، ومرات عديدة، على التدخل في تراب مخصص في الأصل لقوة لا تفعل شيئاً، في نظرهم، لإعطاء معنى لمفهوم الحدود. أشار الملازم شमित بهذا الخصوص إلى أنه «حتى الآن (أكتوبر 1912)، تركنا الإسبان نجوب بحرية المناطق الواقعة شمال الحدود المثبتة باتفاقية 1900 والتي لا يجوبونها هم أنفسهم أبداً، بما أنهم لا يملكون إبلا»<sup>29</sup>. كانت حملة العقيد موري (colonel Mouret) على مدينة السمارة، ولزمن طويل، مثالا صارخا على هذا الانتهاك المتعمد للحدود من قبل الفرنسيين، كما جسد انطماش إسبانيا وضعف إرادتها السياسية والعسكرية في السيطرة على المناطق الصحراوية. الاتصالات الإسبانية مع الرئيبيات وأولاد دليم، على سبيل المثال كانت قليلة ومحدودة في أسواق فيلا سيسنيروس وكاب جوبي مما لم يمنحهم سوى نفوذ قليل في بداية تدخلهم. يلخص النقيب دوبا (Capitaine Dupas)، المتخصص النيه في رحل المغرب الصحراوي، هذا الموقف بأن كتب: «ينتظر الإسبان استقرارنا بالصحراء لإعطاء متنفس للنقط الثلاث التي يحتلونها على الساحل»<sup>30</sup>.

سنقوم بفحص سريع للطريقة التي حاول بها المستعمرون الفرنسيون توطيد مراقبتهم لحركة الأشخاص والقطعان. تعكس مخاطر وتقلبات هذه السياسة طيلة الاستعمار المصاعب المستمرة التي واجهوها في هذا الشأن وعدم القابلية للتبسيط الذي تبديه تصوراتهم في النهاية للسيطرة الترابية وللحدود مع أولئك الذين سريعا ما سموهم «كبار الرحل» المتخصصين في تربية الإبل التي تتطلب مناطق رعي شاسعة<sup>31</sup>. الغزو الفرنسي للمغرب الصحراوي المنجز انطلاقا من السينغال والاتصال مع هؤلاء كانا متأخرين نسبيا. لقد توطدا بداية بمناسبة الرتل الذي احتل آدرار سنة 1909 بأوامر من العقيد غورو.

وجد هذا الأخير الرئيبيات بتخوم آدرار حيث كانت المراعي ملائمة لقطعانهم<sup>32</sup>. أرادت عشائر الرئيبيات الحاضرة المساهمة في مقاومة الغزو التي قادها محليا الأمير سيد أحمد، ولكن [بما أن] مخيماتهم وقطعانها كانت مهددة من قبل الهجمات الاستعمارية (بتورين وكدية إيجيل)، فقد أجروا محادثات، بقيادة محمد الخليل على وجه الخصوص، والذي كان الناطق باسمها، في أواخر سنة 1909. إن الأمطار التي هطلت على زمور مكنت من انسحاب عام، استنتج منه الفرنسيون بأن الرئيبيات اختاروا «الانشقاق»؛ وسيعملون، نتيجة لذلك، وقبل أن يظهروا بوضوح أكبر نيتهم في احتلال الأراضي المتواجدة شمال المنطقة التي منحها لهم التقسيم الاستعماري، على رسم خط فاصل بين القبائل «الخاضعة» و«المنشقة»، حاصرين هذه الأخيرة خارج خط تم رسمه بشكل تعسفي<sup>33</sup>. سيدخلون، مقدمين أنفسهم على أنهم مدافعون عن القبائل الجنوبية، التي مورست عليها، لقرون عديدة، ضغوطات رعوية انطلاقا من الشمال، في سياسة «إخضاع» لـ «كبار الرحل» تأرجحت، وفقا للحركات الرعوية لهؤلاء الأخيرين، بين العمل العسكري و«التدجين»، غالبا بسبب الفشل في فرض الحل العسكري.

سيجد كبار الرحل أنفسهم، لاحقا عندما يعم الجفاف شمالا، مضطرين لاستخدام المراعي التي يسيطر عليها الفرنسيون، كما سيفاضون عند الحاجة، وهو ما اعتبرته الإدارة الفرنسية خضوعا منهم، ليستأنفوا حريتهم عندما يستطيعون الصعود شمالا<sup>34</sup>. ولم تتوقف الهجمات ضد القوات الفرنسية، القبائل الخاضعة و«الموالين» المجندين من بينها، بالكامل أبدا. بالنظر إلى إنعدام الوسائل العسكرية الكافية، ولاسيما فرق الهجانة (المجموعات المترحلة)، سيحاول مسؤولو الإدارة الاستعمارية، وكلهم كانوا لا يزالون من العسكريين، تجريب سياسات أخرى لتقليص [أعداد] المقاومين المعولين على ملاذ المنطقة المسماة إسبانية، والتي لم يتم احتلالها، وعلى منطقتي درعة ووادي نون الراضيتين للحماية الفرنسية.

جرى التنظيم لما سمي رسميا «سياسة تدجين كبار الرحل»<sup>35</sup>، من طرف المقدم غادن (Lieutenant-colonel Gaden)، المفوض العام سنة 1917، والذي ظل مستشارا حتى سنة 1927<sup>36</sup>. جرى اعتبار الركيبات وأولاد دليم، القبيلتين المعنيتين بصفة رئيسية، «أجانب أصدقاء» من الممكن فتح المراعي الضرورية لهم من وقت لآخر، دون أداء الضريبة (الزكاة) المفروضة على القبائل المخضعة، في مقابل ضريبة حرب رمزية وحق الرعي. لقد تمت في آن واحد تقوية الفرق المترحلة (GN) والاعتراف بالمراعي الحدودية في الشمال والشرق (التقاء القوات الاستعمارية الجزائرية والموريتانية سنة 1920 بالحنك)، قاطعة، في الحالة الأخيرة، طريق الغارات. لم تكن سياسة التدجين هذه بلا نتيجة، فقد تمخضت عن بعض الهدوء الذي عزز المحتل، ما بين سنتي 1919 و 1923 على وجه الخصوص، الفترة التي مكث فيها كبار الرحل طويلا بزمور. غير أنها سرعان ما أبانت عن محدوديتها؛ فقد كان على المخيمات والقطعان اللجوء إلى الجنوب، فيما بين سنتي 1924 و 1928، هربا من [موجة] جفاف طويلة في الشمال.

كان مربو الماشية، سنتي 1928 و 1929، لا يزالون متواجدين بوادي الذهب، حيث وجدوا بعض المراعي. وفي الواقع لم تتوقف الغارات، أبدا، بل اتخذت بعدا جديدا؛ فقد قام زعماء مقدمون، منحدرين من القبائل مثل اسماعيل ولد البارد، أو شيوخ ذوو كاريزما دينية قوية<sup>37</sup>، بهجمات ناجحة على القوات الاستعمارية، ولاسيما الفرق المترحلة (GN) التي حققوا انتصارات عليها<sup>38</sup>، مكنت فيما بعد من نهب القطعان المحلية على نطاق واسع. كان لصعوبة الوصول إلى مراعي الجنوب الضرورية للقطعان، في الواقع، تأثيرات متناقضة على الاقتصاد الرعوي المهيمن في الشمال. قام مربو الماشية، في غياب القدرة على تطوير نشاطهم من خلال تحسين تدبير قطعانهم، بالإكثار من الغارات: آلاف الرؤوس من الإبل نُهبت سنويا، بما فيها مطايا الفرق المترحلة. كانت هذه الحملات مشاريع حقيقية استجابت لقواعد مشابهة لتلك التي تحكم الأنشطة التجارية: يُسدّد ثمن اقتراض المطية والأسلحة والمعدات المخصصة للمقاتلين المعوزين، بحصة من الغنيمية. هذا التوجه الاقتناضي الجديد للاقتصاد الرعوي، الذي جعلته السياسة الاستعمارية محتما، تحول ضد هذه الأخيرة، حتى أن التهديد كان أيضا أكثر وضوحا عندما اضطر كبار الرحل، سنة 1930، للاستقرار بنواحي آدرار وتكّانت. رأى الفرنسيون بالفعل، في غياب القدرة على ضمان أمن رعاياهم وقطعانهم، [كيف] أن هؤلاء الأخيرين يلتمسون الحماية مباشرة من المقاومين. ويمثل انشقاق وموت أمير آدرار سيد أحمد في مارس 1932 ذروة فترة القلاقل التي تميزت ببعض العجز لدى القوات الاستعمارية.

تم التخلي عن سياسة التدجين [التي انتهجها] غادن سنة 1927، لتستبدل ب «سياسة اليد ممدودة ولكن السلاح جاهز»، حسب التعبير المثير لعسكري فرنسي بآدرار. تمت تقوية الفرق المترحلة وأدمج موالين بأعداد كبيرة و سلحووا ليقوموا بدورهم بنهب قطعان الركيبات التي ترعى بالمناطق القريبة. وأجبر كبار الرحل على أن

يطلبوا إنهاء المعارك في فبراير 1933، وهو ما حصلوا عليه مقابل غرامة حرب وقبول أداء ضريبة الزكاة، مثل الموريتانيين، عندما يتواجدون بالمنطقة الفرنسية. هذا «الخضوع» ناتج أيضا عن تطور وضع المقاومة بالشمال، ذلك أن تافيلالت احتلت سنة 1934 وقلصت جيوب المقاومة بالمغرب من قبل القوات الاستعمارية كما احتلت تندوف في السنة ذاتها من طرف القوات الفرنسية القادمة من الجزائر. التقت الفرق الفرنسية المتجمعة انطلاقا من الجزائر والمغرب وموريتانيا ببئر أم غرين. وسرعان ما تم إنشاء إدارة للتخوم الجزائرية المغربية، من جملة مهامها مراقبة تنقلات كبار الرحل. وخلال مدة قصيرة مورست نظريا مراقبة مباشرة على الذين أعيد تنظيمهم في قبائل وعشائر تحت سيطرة زعماء مختارين، ورفعت الضرائب عن الذين اعترفوا بمطلق السيادة الفرنسية ونظمت التنقلات نحو المنطقة الإسبانية بواسطة نظام «رخصة الانتجاع الخاصة»، تحت مراقبة الإدارة<sup>39</sup>. بقيت هذه المراقبة محدودة وارتجالية، وحصل الركبيات بالفعل، مع مرسوم «الحرية الكاملة في الترحل» (20 يونيو 1936)، على إمكانية الاستغلال المنتظم للمراعي الجنوبية، الإجراء الهادف أساسا إلى تثبيتهم ب «التراب الفرنسي»<sup>40</sup>. يبدو لنا أن إحداث الحدود الاستعمارية وما استتبعته من تدبير للمجال الذي يجوبه الرحل كان له عواقب كبرى على الاقتصاد الرعوي لسكان المغرب الصحراوي.

1 - المراقبة الإدارية والسياسية والعسكرية المستخدمة لتجسيد الاستعمار الفرنسي للمغرب الصحراوي كانت نتيجتها الأولى والأكثر بدهاءة، اختلال استغلال «الأراضي القبلية» الضرورية لتنمية هذا الاقتصاد الرعوي بتقييدها وتعطيلها لمسارات مربي الماشية وقطعانهم التي لزم أن تكون موضوع «تجميع» صارم.

2 - ستؤدي هذه الإكراهات، التي نزلت بثقلها على ممارسة الأنشطة الرعوية بمرور الوقت، إلى إعادة توجيه أكثر «نهبا» لتجمع القطعان، مبعث الصراعات المناطقية المضعفة للمقاومة.

3 - إن ما تم تحديده من قبل السيطرة الاستعمارية هي عموما دينامية الانتماءات القبلية والتحالفات ومواثيق الحماية التي كانت تقود إلى التعديل الدوري لطرق استغلال هذه المجالات المفتوحة، مؤدية، من بين أمور أخرى، إلى إنشاء الهيمنة الرعوية النسبية.

كان بعض الاستعماريين مدركا لذلك أيضا، وأحيانا منذ أوائل الفترة الاستعمارية. لقد اعترف بول مارتني، كمطلع حقيقي، بأنه «إذا ما كنا لا نريد أن نُخدع من طرف الأهالي المبرزين في علم الدسائس وفن زرع الفتن والوقية بين مجموع ممثلي السلطة، ينبغي أن نحدد لهم القيادة الأوروبية التي هم تابعون لها، وأن تعين لهم مناطق الترحل والانتجاع، وإنزال العقاب الشديد - وصولا إلى تضمين حق التعقب - مقابل كل إخلال بالنظام القائم»<sup>41</sup>. كانت لازمة التصور شبه الإداري للحدود طموحا لا يمكن الدفاع عنه لبقرطة الترحال. وسريعا ما قام المستعمرون بالمعينة و اعترفوا بأن «قبائل كبار الرحل لا تعي السلطة التي تبدو لنا إجبارية، وصحيح أن خطأ مرسوما على الأرض سيبقى عاجزا عن الإحاطة بالمشاكل التي يثيرها وجودهم و تصورهم للعلاقات الإنسانية (...). فعند البدو، (...) ينبغي أن يحل مفهوم النفوذ محل مفهوم الحدود»<sup>42</sup>.

## المنافسة بين فرنسا وإسبانيا

سرعت الازدواجية الاستعمارية، التي تحيل على نموذجين مختلفين للسيطرة على السكان الرحل، وفاقمت التفسخ البشري والمجالي وستنوع وتوسع استراتيجيات [كل من] القبائل والعشائر والأفراد لإحباط فعالية الحدود. كانت هذه الأخيرة، التي قلما ظهرت كمنطقة هادئة، بمثابة مكان للاحتكاك حيث يعمل الاختلاف.

لقد أسىء فهم تحولات المجال والمجتمع، وفسرت، عن خطأ، على أنها ضعف أو سياسة معادية من طرف الخصم (فرنسا أو إسبانيا). لم تكن هناك إرادة في أن يرى في هذه الاضطرابات أثر حقيقي للعواقب الجغرافية والإنسانية للحدود. هذا ما دفع المقدم جيلبي (Le commandant Gillier) إلى أن يدون سنة 1926 بأنه: «بإمكان المنشقين، وهم متأكدون من أنه لن يتم إزعاجهم من طرف الحاميات بساحل وادي الذهب التي لم تغادر الشاطئ أبدا، الانخراط بكل أمان في احتراف الإغارة. يقوم منشقو منطقة زمور الفرنسية الذين يريدون الاستفادة من الأمن ذاته، بنقل مخيماتهم إلى وادي الذهب، قبل أن يذهبوا في الحملة. هكذا ينظم كل هؤلاء النهائيين، بالمنطقة التابعة للسلطة الإسبانية، العصابات التي ستقوم بنهب البلدان المجاورة. وعندما تتم مطاردتهم من طرف مفارز هجائتنا، يلجأون إلى أرض أجنبية عند الحدود التي تضطر فرق شرطتنا إلى التوقف عندها»<sup>43</sup>. لقد كان من اللازم في الواقع انتظار سنة 1935، غداة إنشاء التخوم الجزائرية المغربية، ليشرع الإسبان في احتلال المناطق الداخلية من البلاد، بالحلول أولا بالسامرة، وبهدف التوفر على وسائل القيام بذلك قاموا بدورهم بإنشاء وحدات الهجانة (*mia*).

والحال أن تشكيل مجال السيادة الاستعمارية على قاعدة المراقبة الحدودية تأسس منذ البداية على التنافس والمعارضة السياسية المعلنة بين فرنسا وإسبانيا. لم يكن الإسبان لا مبالين بالمناطق الحدودية، وعلى الرغم من ضعف كثافة بنيتهم العسكرية والإدارية، فقد بدأوا هم كذلك - ولو متأخرين - في تجهيز مصالح استعلاماتهم، في آن معا، إزاء قبائل المغرب الصحراوي وفي مواجهة المراكز الفرنسية بشمال مستعمراتهم وجنوبها. صرح الملازم كارلوس نورينا (Le lieutenant Carlos Norena)، رئيس البعثة إلى اللجنة المشتركة الفرنسية الإسبانية لإدارة مناطق الحدود، في تقرير ناري، بأن: «المخططات التي حددت فيها (حسب الفرنسيين) مناطق ترحال مختلف القبائل معبرة بما فيه الكفاية. ويحدد الفرنسيون لتكنة منطقة ترحال تصل، وفقا للمخطط، حتى الساقية الحمراء. تشكل قبائل تسمى تكنة ويكوت وإزركيين جزءا من المنطقة الإسبانية، ولكن آيت لحسن وآيت أوسى ينتمون إلى المنطقة الفرنسية، في حين أن قطعانهم تندفع كثيرا داخل صحرائنا. ينبغي دراسة التوزيع حسب العشائر، لأن قيام الفرنسيين باجتذاب كل جماعات القبائل لا يسمح لهم بأن يعتبروهم تابعين لهم بالكامل، ثم بعد ذلك التباحث معنا، دون أن يكون لنا الحق في فرض مناهجنا. تمتلك اتحادية الركييات ماشية هامة وتحتاج إلى مساحات مترامية الأطراف... المخطط الفرنسي مضلل بكل صراحة، إنه يمنح للركييات لكثواسم، في السنوات غير الممطرة، كما يمكننا الاطلاع على ذلك، منطقة ترحال غير مطابقة للواقع. شكلت هضبة الكعدة، المتواجدة بالكامل داخل منطقتنا، على سبيل المثال، منطقة تخييم لهم؛ هكذا غدت تسميتهم بـ «محميين فرنسيين» جريئة نوعا ما ومجانبة. وهذا يشكل مسألة شائكة الحل. إذا ما كانوا يترحلون في تراب فرنسي، فإنهم يقومون بذلك أيضا في تراب إسباني: ارتباطهم بهذه الأمة أو تلك هو إذن مسألة لا بد من النظر فيها لاتخاذ قرار نهائي»<sup>44</sup>. واصل الإسبان، الذين خاب أملهم في السياسة الفرنسية تجاه المجموعات القبلية، ملاحظاتهم مذكرين، على الرغم من التناقضات بخصوص التقسيم القبلي، بأنه: «سبق للفرنسيين أن لمحووا إلى أن عشائر أولاد موسى (الركييات) تتعامل منذ زمن طويل مع سلطات سان لويس وأن أهل الجليل يعيشون بأطار وبقنوب تيرس، ولكن إذا كانوا يقسمون القبيلة في هذه الحالة الخاصة (...). لماذا لا نقوم نحن بالشيء نفسه فيما يخص آيت لحسن، آيت أوسى ولكثواسم؟ لقد اعترف الفرنسيون بأن أولاد دليم إسبان؛ ومع أن الأمر هو كذلك بالفعل، فإنهم لن يفوتوا أية فرصة لاجتذابهم نحوهم»<sup>45</sup>.



نساء وأطفال في العراء نتيجة عملية  
إيكوفيون العسكرية (فبراير 1958)

كانت المنافسة شرسة وسعت كل قوة استعمارية إلى التقليل من أهمية عمل الخصم والتنديد بتصرفاته السيئة مقوضة سياسته تجاه القبائل. ويقدم أولاد دليم أمثلة صارخة على جنون السيادة هذا، غير القابلة للتحقق بالفعل عمليا. لاحظ فردريك دو لاشابيل (Frédéric de Lachapelle)، المتخصص الفرنسي الرائد في الاستعلامات الصحراوية الذي تم إيفاده في أواخر العشرينيات لتقييم الوضعية بموريتانيا، بأن: «أولاد دليم يكونون قبيلة محاربة للغاية، وهي المجموعة المهمة الوحيدة التي يمكنها أن تكون في معظمها على الأقل، موضوع مطالبة من قبل إسبانيا. بإمكانهم إذن أن يشكلوا خطرا علينا إذا ما أصبحوا معادين وأن يجذبوا إليهم المتدمرين بمنطقتنا والنهائين»<sup>46</sup>.

وانطلاقا من الحدود الجنوبية دائما، حاولت السلطات الإسبانية تحويل قبائل المنطقة الفرنسية من خلال منعها بمهارة من الهبوط نحو أدرار إلى حد عدم مطالبتهم لا ب «لعشور» ولا ب «الزكاة» ولا بضريبة الأمان أو بالضريبة [العامة]، وإلى جانب هذه الامتيازات هددوا أيضا الذين يستمرون في الدوران في فلك الفرنسيين بالمنع من المتاجرة مع فيلا سيسنيروس<sup>47</sup>. وقد استخلص بول مارتي (Paul Marty)، ليس بدون مرارة، أنه «عندما يعود أولاد دليم إلى الهجوم، سيفرض إجراء أخير نفسه، وينبغي أن يمر بطريقة منطقية قبل رسم الحدود الترابية: إنه توزيع القبائل بين النفوذ الفرنسي والإسباني. القيادة هنا ليست مسألة ترابية»<sup>48</sup>.

منذ لحظة تحويل الحدود الأرضية إلى منطقة معسكرة، أصبح هاجس وقف ما كان المستعمرون يتفكحون بتسميته «غارات النهائين» ملحا أكثر فأكثر. وإذا كان أغلب الضباط الفرنسيين مجمعا على «حق المطاردة» الذي يعتبر ضرورة حيوية لاستمرار مناطق سيطرتهم، فقد كتب الوزير مسيمي (Messimy) سنة 1911 حول ذلك بأنه «مستعد للسماح بمبدأ مطاردة المغيرين شريطة أن يكون حتمي الضرورة، شرطا حصريا لكل احتلال جديد للأرض (...) ويمنع منعاباتا، علاوة على ذلك، اقتحام الهجانة لتراب وادي الذهب خارج حق المطاردة المحتممة. أنتم تفهمون، ولاسيما في الظروف الراهنة، ضرورة تلافى التباحث مع إسبانيا»<sup>49</sup>.

خضعت مناهج السيطرة، المتمفصلة حول مختلف مكونات النظام الترابي والإداري، دوما لمفهوم السيادة والهوية السياسية، وتطورت الحدود الاستعمارية بسهولة لتصبح مؤسسة مناطقية؛ وهذا يفسر كيف كان لدى الضباط، إضافة إلى ضبط حركة المخيمات وحراسة الحدود، مهمة أخرى أكثر حساسية، وتتمثل في القيام باستمرار بجمع المعلومات عن حاميات مراكز الجيران وعن أنشطتهم العسكرية<sup>50</sup>. وتعرض مثل هذه الحاجة الملحة في مفهوم جهاز المراقبة القومي لأوضاع شبه كاريكاتورية. لقد كتب بيلاي (Beslay) بأنه: «تحت عنوان مراقبة الحدود، كان علي أيضا تأكيد السيادة الفرنسية على بعض الآبار الحدودية التي ينازعنا الإسبان ملكيتها (...) و التي كان حراس الكوم الفرنسيون والهجانة الإسبان يأتون إليها لتوريد إبلهم. كان يتم فقط تلافى الالتقاء هناك لتجنب خلق حوادث دبلوماسية غير مرغوب فيها. وطبعا كان الرحل يتسمون من هذا الشجار غير اللائق، فالماء هبة من الله لا يمكن لأحد بالصحراء ادعاء ملكيته»<sup>51</sup>.

بين الترحال والانتجاع، بين المساحات الصحراوية الشاسعة والمراعي الغنية، بين الواحات المخضرة المزودة بالمنتجات الأساسية وأسواق التبادل السنوية، يمنح المغرب الصحراوي صورة للتباين والترابط الممتد لقرون متعددة. تتراكم أنماط العيش به وتتداخل ولا يمكنها أبدا أن تتوافق مع حدود مفترقة في الجمود. اختزل الفرنسيون هذه الوضعية، قبل استقرارهم بوادي نون، في المنظور المشوه لهاجسهم الأمني، متصورين بكل بساطة أن «الرحل لا زالوا يجدون لدى منشقي وادي نون وواحات باني الغربية ودرعة العليا وتافيلالت وسائل تموين هامة، ولاسيما الأسلحة والذخائر»<sup>52</sup>. أصبحت مراقبة آيت اوسى وآيت لحسن تحتل حيزا مهما في الكتابات الاستعمارية بوادي نون، مقدما مثلا إضافيا، مبرهنا على الاحتكاكات بين القوتين الاستعمارييتين وتورطهما المثير في إدارة الحدود الشمالية والشمالية الشرقية.



لقد انتهى الإسبان إلى فهم الأهمية الخاصة والحيوية لأسواق ومواسم وادي نون بالنسبة لقبائل الرحل، ورغبة منهم في معاقبة الفرنسيين سلكوا، على نحو ظالم، سياسة إغلاق ممنهجة بمنطق الحدود العازلة. قام مركز آسا، سنة 1940، بالإخبار عن أن الإسبان قد نظموا عددا من الدوريات، على طول وادي درعة، حول محيط زيني، مهمتها توقيف كل الأشخاص، بغض النظر عن انتمائهم القبلي، الصاعدين نحو الشمال في اتجاه أكليميم للذهاب إلى سوق سيدي الغازي. وبمجرد توقيفهم «كانوا يطردون قسرا نحو الجنوب، ما لم يوافقوا على حمل السلاح لصالح إسبانيا»<sup>53</sup>. بل ذهب الضباط الإسبان، وعيا منهم بالنجاح السياسي للأسواق والمراعي المعتمدة من طرف عدوهم، إلى حد منع القبائل من المرور إلى المنطقة الفرنسية «لوصول إلى موسم أسيرير ولم يعد يسمح بأي [نشاط] تجاري تحت طائلة السجن»<sup>54</sup>.

أصبحت قبائل مربيي الإبل، على جانبي المنطقتين، وهي المنقادة لمراعيها وخطوط ترحالها المألوفة، موضوعا لضغط مستمر بهدف تثبيتها، على نحو متعسف، في دائرة استعمارية واحدة. هذا ما يستشف من المراجع الفرنسية التي لا تتوقف عن إثارة قضية الضغط الذي ينزله الإسبان بآيت أوسى، الراغبين في «أن يتسجلوا لديهم، وأن يأتوا للحصول على حصصهم من المراكز»<sup>55</sup>. والحال أنه، كما يقول الفرنسيون «هناك أعمال لا يستطيع الإسبان فعل شيء إزاءها أكثر منا نحن بأنفسنا، لدى إدا ومليل (إحدى عشائر آيت أوسى) أراض زراعية شمال وادي درعة وبساتينهم في جنوبه. والمطر يسقط تارة شمال وادي درعة و تورا جنوبه»<sup>56</sup>.

الطابع المتأخر للسيطرة المباشرة التي مارسها الإسبان على مراعي كبار الرحل داخل المنطقة التي احتلوها لا يعني أن هذه السيطرة بقيت دون آثار على هؤلاء الأخيرين وعلى أنشطتهم الرعوية. إذا كانت المراجع الإسبانية، حول هذه النقطة، أقل وفرة من [نظيرتها] بالمنطقة الفرنسية، فإن لدينا شهادة ملاحظ مؤهل، [أنه] الإثنولوجي خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja)، الذي أجرى أبحاثا معمقة سنتي 1952 و 1953، في الميدان الصحراوي، حول تطور الترحال على وجه الخصوص<sup>57</sup>.

شدد كارو باروخا، بعد الإشارة إلى أن ضعف الهياكل القبلية قد ثبت الدور الرئيسي للـ «فريك»... كوحدة للإنتاج الرعوي في توجيه التنقلات واختيار أماكن الإقامة، على السمات الرئيسية لتطور الترحال خلال فترة قصيرة، الخمسة عشرة سنة التي شهدت ممارسة الإسبان للمراقبة، وقبل أن تتجلى مقاومة الساكنة المحلية ضد الاستعمار الإسباني على مستوى جديد مع تشكيل جيش تحرير الجنوب المغربي: «في المقام الأول، نزع سلاح القبائل التي شاركت في المعارك. ثانيا إحداث نظام للتخصيص بالمرور للعائلات المتنقلة من المنطقة الإسبانية إلى المنطقة الفرنسية ومعه مكتب لتحديد الهوية. ثالثا: تأسيس قرى سكنتها عناصر من الإسبان والأهالي المستقرين أساسا. واقرن هذا بخلق مصالح اقتصادية جديدة، بحركة نقدية بنسب غير مسبوقه، بإحداث مراكز صحية، الخ»<sup>58</sup>.

أخذ التفرد، الذي طبع الاقتصاد الرعوي على نحو متزايد، مشجعا من طرف حركة مربيي الماشية بين المنطقتين الفرنسية والإسبانية، منعظا جديدا مع سرعة الاستقرار والتحضر التي كان معظم مسباتها من خارج الاقتصاد الرعوي<sup>59</sup>. تسبب تعزيز الإدارة الإسبانية واكتشاف فوسفات بوكراع وتعجيل استغلاله، في هجرة جديدة للمعمرين الكطلانيين والكناريين و غمت المدن التي ستلعب دور القطب الجاذب للرحل<sup>60</sup>. ومثلما حدث بموريتانيا المجاورة، في وقت لاحق، بعد استقلالها، اختلق بهذه المدن المجتمع الصحراوي الجديد الذي لم تعد تشغل فيه تربية الماشية والترحال المكانة الحاسمة.



مشهد من الحياة اليومية للرحل (ب.ت).

## الرحل والحدود الاستعمارية: استراتيجيات التجاوز والتكيف

لقد عرفت قبائل مربيي الإبل بالمغرب الصحراوي كيف تتكيف بمهارة مع المنطق الاستعماري الجديد، واتخذت استراتيجية استفادات من انعدام الانسجام بين مبادئ المراقبة والمعطيات البيئية الهيكلية. سعت كل قبيلة، هنا وهناك، إلى البحث بأي ثمن عن التهرب من أداء الضرائب للسلطات الاستعمارية أو التقليل من مبلغها إلى أبعد الحدود. كانت المراعي والمصالح التجارية لقبائل مربيي الإبل هي العناصر الرئيسية التي تنقاد لها مجموعات الرحل. هذا الاستغلال العملي للمجال وللظرفية كان السبب الأصلي في عمليات الخضوع الأولى من طرف القبائل المذكورة في بداية وضع اليد الاستعمارية على تراب المغرب الصحراوي. صنف علم النماذج الاستعماري الكلاسيكي صورة القبائل إلى «الدودة»، [أي] التي لم تخضع أبداً، و«مدجنة»، [أي] التي تؤدي الضرائب و تتردد على الأسواق، و«هاربة» [أي] التي تتملص بانتظام من الرقابة دون أن تدخل في الانشقاق. والحال أن هذا التوزيع سرعان ما أبان عن محدوديته، ليس فقط لأن ما أملى موجة الخضوع هو توفر المراعي بمناطق الترحال التقليدية، ولكن [لأن] خضوع بعض العشائر لا يلزم في شيء باقي القبيلة.

جعلت التفسخات الداخلية للمجموعات القبلية الخضوع نسبياً إلى حد كبير. مثل هذه الانقسامات تؤثر مباشرة على طبيعة العلاقات مع المستعمرين. وقد وصف لوبيز بارغادوس (López Bargados) بطريقة مثالية هذه الدينامية الفصائلية لدى أولاد دليم على جانبي الحدود<sup>61</sup>. كان موقف القبائل، علاوة على ذلك، يتحدد حسب الاستراتيجيات المتعلقة بالصراعات القبلية القديمة والتي ساهمت التبعية لأحد جانبي الحدود في تقويتها<sup>62</sup>.

تظهر التقارير الاستعمارية فطنة الرحل وتمكنهم المتقن من أوجه القصور في الإدارة الفرنسية والإسبانية، وتجعلهم خطوط ترحالهم يتحركون على مجموع الأراضي دون إغارة اهتمام في الغالب لمصالح مراقبة الرحل. لم يخطئ الملازم مونيي-بولي (Le lieutenant Mugnier-Pollet) في استنتاجه بأن «كبار رحل الشمال الغربي (الركييات وأولاد دليم) يعمرن منطقة الكثبان هذه بقطعانهم من شهر شتنبر حتى شهر ماي. عندما يحل الفصل الحار، يطردون منها بسبب ندرة المياه، فيهاجرون حينئذ إلى كثبان شمال و شرق آدرار»<sup>63</sup>.

عملية تفتيش ومراقبة لجنود فرنسيين  
لخيام البدو بالصحراء إبان عملية إيكوفيون  
العسكرية (فبراير 1958)



تقود المسارات واسعة المدى قبائل الرحل إلى تنوع تنقلاتها وفقا للظروف الجوية باعتبارها ضرورة أساسية في تدبير الموارد وتربية الماشية. لنأخذ بعين الاعتبار بأنه تحت رحمة الأمطار من الممكن أن يغطي مدار ترحال عشيرة قبلية، في ظرف بضع سنوات، 600 ألف كلم مربع. أوضح بيلاي، الذي عاشر لأعوام طويلة قبائل الرحل الصحراوية، هذا التفصيل من خلال المثال المتميز لعشيرة لكواسم أهل سيدي علال (الركييات) التي «أمضت شتاء 1941 بالكعدة، شمال الساقية الحمراء، لتهبط في صيف السنة ذاتها إلى جنوب أزال الذي يبعد بزهاء 800 كلم من هناك بأدرار موريتانيا» ويضيف بيلاي، «في السنة ذاتها، وجدت عشائر أولاد موسى من ركييات الساحل، بعد أن أمضت الشتاء بتيرس، نفسها في الصيف الموالي بتكانت على بعد زهاء 700 كلم»<sup>64</sup>.

وحتى عند البحث عن تحديد موقع المخيمات والعشائر بواسطة العمل بتراخيص الترحال، عانت الإدارة الاستعمارية الإسبانية أو الفرنسية مصاعب في إنتاج ترحال خدمتها. جعل القرب من الحدود وتفرق الخيام المراقبة صدفية وشبه مستحيلة وسريعا ما أدركت القبائل بأن سياسة الإكراه لن تؤدي إلا إلى إحلال الفراغ بالمنطقة المعنية.

لتوضيح أكبر للعبة المراقبة والتجاوز هذه، سنتتبع مسار زعيم ركيبي. «في ربيع 1940، ترحل لحبيب ولد البلال زعيم لكواسم، ركييات الشرق، بلعريك، فرعية فور غورو. ولن يغادر هذه المنطقة إلا حوالي شتنبر ليدخل إلى وادي الذهب. التحق بمخيمات الركييات الأخرى بالكعدة شمال الساقية الحمراء. في شهر دجنبر، ولأن الكلا اندثر تماما بالكعدة، قرر لحبيب تتبع حركة الركييات الآخرين نحو الجنوب. وصل إلى آدرار سطوف في شهر دجنبر 1941 ووجد به مخيمات أولاد دليم والسواعد وبعض أولاد الشيخ الذين تأخروا. بعد نفاذ مراعي آدرار سطوف وتيرس، دخل لكواسم إلى موريتانيا في مطلع شهر فبراير، فأقاموا بلكشا وتيجيريت. أهمل لحبيب الإخبار بوصولهم ولم يتقدم إلى قيادة دائرة آدرار. ويبدو أنه لا يعرف قائد الفرقة المترحلة بأطار المخيم على بعد 50 كلم من خيامه»<sup>65</sup>. ويختتم التقرير بالاستنتاج التالي: «يبدو سلوك هذا الزعيم طبيعيا تماما. لقد اجتذبت المراعي نحو وادي الذهب بعد اندثارها في الشمال الشرقي. ويبدو أن مجيئه إلى جنوب وادي الذهب وموريتانيا أملاه هم توفير الكلا لقطعانه»<sup>66</sup>.

لم تنجح رخص الانتجاع في التحكم بحركة ذهاب القبائل المستمرة وإيابها بين الحدود، لأن الترابية القبليّة (territorialité tribale) المترحلة تشمل العديد من تطبيقات الحركة التي أدت إلى التلاعب بالمجال الحدودي بجهازه العسكري والإداري. لقد بذلت المجموعات القبليّة قصارى جهدها لتلافي إحصاء مواشيتها بالتهرب من هجانة الفرق المترحلة وتفريق وحدة ترحالها (لفريك) لمنع عمليات تحديد الموقع القائمة على قاعدة المدونة القرابية وتجنب الضغط على الموارد<sup>67</sup>.

يبدو أن الرعي الترحالي قد شهد تراجعا كبيرا بعد إدخال الخطية المادية للحدود الاستعمارية لتفصل أكثر فأكثر الوحدات والمجموعات المترحلة عن عمقها الترابي ومرسماها الثقافي. استوجبت السيطرة على الترحال جهازا إداريا معقدا ساهم بدوره في المزيد من تقلص حركية الرحل ودفعهم إلى التلاعب، في ظروف قاسية، بين ترابين أصبح أحدهما إسبانيا والآخر فرنسا. مسخ التنافس بين القوتين الاستعماريّتين علاقة الرحل بمجالهم، بينما أدى إلى إنشاء نقط مراقبة ثابتة مضاعفا بذلك [سرعة] التحول التدريجي نحو استقرار مكثف. ولم يرقم الجفاف والظروف المناخية والسياسية سوى بتقوية وتكثيف هذه العملية محولة الرحل إلى كسابة «متبرجزين».

## هوامش

litiques actuelles », in Villasante CERVELLO, M. (dir.), *Colonisations et héritages actuels au Sahara et au Sahel : problèmes conceptuels, état des lieux et nouvelles perspectives de recherche (XVIII<sup>e</sup>-XX<sup>e</sup> siècles)*, l'Harmattan, Paris, 2007, vol. II, 351.

18 - Le journal الثاني من مشروع النشر المرموق المدار من طرف بيير نورا Pierre Nora «أماكن الذاكرة» *lieux de Mémoire* ، يفتح على هذا التذكير: «الذي يقول أمة، يقول وعيا بالحدود، تجذر في استمرارية أرض ما (...) كانت فرنسا، في الواقع (...) تربط دائما تعريفها الوطني بتحديد مدقق لتراب سيادتها.» ( *Les Lieux de* ) ( *La Nation*, Paris, Gallimard, vol. 2, 1986.

اختتم ميشيل فوشي، أحد كبار منظري مفهوم الحدود، عمله بهذه العبارات: «كانت فرنسا في أصل نموذج جيوسياسي يسعى إلى العمل الدؤوب على إنشاء دولة قوية ومركزة، تراب محدد بوضوح و مدافع عنه، أمة واثقة من قدرها المتفرد ومواطنة مؤسسة على حق مسقط الرأس.» *L'obsession des frontières*, Paris, Perrin, 2007 : 207

19 - تحتوي الكشوفات الطبوغرافية والخرائط المنجزة في السنوات الأولى من الحقبة الاستعمارية على منجم من المعلومات المتعلقة برمزية تمثل الحدود الخطية بالصحراء ومعطياته الدالة. قراءة وتحليل هذا الجانب له الأهمية نفسها في نشأة الاحتلال الفرنسي الإسباني ليس موضوعنا الرئيسي في هذا المقال.

20 - Gillier Cdt, *La pénétration en Mauritanie*, Geuthner, Paris, 1926, 294-295.

21 - Ould Cheikh, A.W., *Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du « tribalisme »*, thèse de doctorat - Paris 7 ( inédite ), 1985, p. 38.

يجد القارئ في هذا العمل الهام تحاليل مفصلة لمفاهيم التراب القبلي، الحياة الجماعية وحقوق استخدام التراب، فضلا عن الروابط الوضعية والهرمية التي تحكم العلاقات القبلية/الترابية، دوائر الانتجاع، نقط المياه والأراضي الزراعية، الخ.

22 - Retaille, D., « L'espace nomade », *Revue de géographie de Lyon*, 1998, vol. 73, n° 1 : 77.

23 - Rivet, D., *Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation*, Hachette Littératures, Paris, 2002, 294.

ويضيف ريفي أن هذا «أنج تفككا داخليا في العالم القبلي الذي توقفت أخلاق المجتمعات البدوية، من الصنف الخلدوني، عن التحكم به. نزع السلاح يقبل هرمية القيم التي تعطي الأهمية للمحافظة على شرف المجموعة» (ص. 295).

27 novembre 1912 concernant le Maroc », *Revue générale du droit international public*, 22(3), juillet – août – septembre, 1919, 433-464.

8 - لن ندخل في التفاصيل المتعلقة بجيب إيفني الذي شكل هو أيضا جزءا من المنطقة الإسبانية.

9 - Beslay, F., *Les Reguibat*, Paris, L'Harmattan, 1989, p.14.

كان بيسلاي، مع ذلك، أحد كبار صانعي المغامرة الاستعمارية الفرنسية في الوسط الصحراوي الترحالي.

10 - BARGADOS, L., *Arenas coloniales. Los Awlâd Dalâm ante la colonización franco-española del Sáhara*, Bellaterra, Barcelone, 2003, p. 435.

11 - Ancel J., *Géographie des frontières*, Gallimard, Paris, vol. 1, 1939.

12 - تم القيام باحتلال الغرب الصحراوي انطلاقا من الجنوب، ولم يدخل الفرنسيون في الاتصال مع «كبار رحل» الشمال، إذن، إلا في وقت متأخر، احتلوا تمبكتو سنة 1894، لكنهم لم يحتلوا أطوار، الواقعة على بعد بضع مئات الكيلومترات من سان لويس، أول وكالة تجارية فرنسية بالمنطقة، إلا في سنة 1909، من أجل تحليل أكثر شمولية من الممكن الرجوع إلى:

Bonte, P. et Ould Mohameden, M., « La Mauritanie au passé recomposé », Spécial issue on Mauritania. Part I., *The Maghreb Review*, 2010, 35 (1-2) : 27-63.

13 - يؤدي التوضع على ساحل الأطلسي إلى تلطيف درجات الحرارة وارتفاع درجة الرطوبة، ويكون ذلك على شكل ضباب، مما يلائم تكون غطاء نباتي أكثر وفرة. إلا أن هذه التأثيرات غير ملاحظة في شريط ساحلي بطول مائة كلم.

14 - طقس التضحية بالذبيحة، التي تضمن حماية فرد أو مجموعة تمت أمامها التضحية بحيوان، شائع بهذه المنطقة على وجه الخصوص و موجودة بمجموع المغرب العربي، راجع حول هذا الموضوع :

Bonte, P., *L'émirat de l'Adrar. Harîm, compétition et protection dans une société tribale saharienne*, Karthala, Paris, 2008.

15 - LEFEVRE, H., *La production de l'espace*, Anthropos, Paris, 2000, 125.

16 - Saudan, M., « Géographie historique. Histoire d'une discipline controversée ou repères historiques », *Hypothèses*, Publications de la Sorbonne, n°1, 2001, 13.

17 - أنظر المقال الممتاز لصديقنا بنجامان أكلوك (B. Aclouque): « L'idée de frontière en milieu nomade : héritage, appropriation et implications po-

1 - جذر كلمة «frontière» الفرنسية موجود في الكلمة اللاتينية *frons, frontis*. ويحتفظ دائما من عبارة «front» بفكرة خط متقدم لمواجهة خصم ما. هناك دلالة عسكرية قوية في الكلمات المشتقة من «front» ك «frontière» ، على سبيل المثال. يبدو أن المعنى المعاصر لـ «frontière»، الذي ظهر في القرن الرابع عشر، قد انحدر من النعت القديم «frontier» الذي يعني «الذي يواجه». للمزيد من التفاصيل الاشتقاقية ، أنظر:

Tomke Lask, « Frontière : le sens de la frontière », *Quaderni*, n° 27, automne 1995, 65-78 et Michel Foucher, *Fronts et frontières, un tour du monde géopolitique*, Fayard, Paris, 1991.

2 - أنظر:

Person, Y., « *L'Afrique Noire et ses frontières* », *Revue française d'Études politiques africaines* ; Sautter, G., « Quelques réflexions sur les frontières africaines », *Problèmes de frontières dans le tiers monde*, l'Harmattan, Paris, 1982, pp. 41, 51 ; Ganiage, J., Deschamp, H. et Guitard, O., *L'Afrique au 20<sup>e</sup> siècle*, PUF, Paris, 1976.

3 - Chamayou-Kuhn, C., et al., « Frontières en question. Approches critiques d'un objet et d'un outil », *Trajectoires*, n° 2, novembre 2008, 3-8.

4 - Brownlie, I., *African boundaries : a legal and diplomatic encyclopaedia*, University of California Press, Londres, 1979.

أنظر أيضا:

Rezette, R., *Le Sahara Occidental et les frontières marocaines*, Paris, Nouvelles Éditions Latines, 1975 : حيث نشر المؤلف مختارات من الاتفاقية (ص. 64-65) مصحوبة بخريطة (ص. 73-72).

5 - Frank, E. Trout, *Morocco's Saharan frontiers*, Droz, Genève, 1969.

يستخلص المؤلف بالضبط أن الفرنسيين والإسبان يعتبران تندوف مغربية.

6 - Lazrak, R., *Le contentieux territorial entre le Maroc et L'Espagne*, Dar el Kitab, Casablanca, 1974, 416-417 ; Trout, 1969, 193-200.

7 - لن يتأخر الجهاز الاستعماري الفرنسي عن نشر مجموع النصوص المتعلقة بهذه الاتفاقية في:

*L'Afrique Française. Renseignements coloniaux*, 1912, 444-450.

أنظر أيضا:

Basdevant, J., « Le traité franco-espagnol du

من 1933 اقترب ركبّيات الساحل من آدرار للاستفادة من مراعي منطقة شنقيط، الباطن، أطار وبدأ آخرون في الهبوط نحو أكووجت. ودفع البعض باستطلاعات خجولة نحو جنوب أكووجت والمنطقة المتواجدة ما بين شنقيط وتيججة. في سنة 1934، كانت تكّانت، التي وقعت مع آدرار «اتفاقية ترحال» تحد ما أمكن من تسرب الركبّيات إلى مراعيها، لا زالت لم تكتسح. ولكن تبين أن مجموعات هامة، أهل الضف وأهل بلاو، يترددون على الحواف الغربية لكثبان أوكر وأدفار حيث بقوا لأكثر من ثلاث سنوات. في سنة 1936، أعلنت حكومة موريتانيا عن الترحال الحر بالكامل على ترابها، مع بعض التحفظات التي تستلزمها حماية الواحات» (Archives du Ministère de la France d'outremer. Affaires politiques. Carton 588. Rapport politique (1936, Beyriés, VII-VIII).

41 - Marty, P., « Le Sahara Occidental et la Mauritanie », *Bulletin du Comité de l'Afrique Française*, 1933, n°4, 214.

42 - أنظر: *le Bulletin du Comité de l'Afrique Française*, 1932, 582.

43 - Gillier, 1926, 257.

44 - راجع: *Le Bulletin de la Société de Géographie de Madrid*, 1935 et publié par le BCAF, 1935, 302-303.

يستأنف الملازم نورينا، في الواقع، تحليلا سابقا لبرنابي راتو (Bernabé Ratto) حول موضوع الدساتير الفرنسية سنة 1925. تم تضمين المعطيات في:

« L'action espagnole dans le Sahara Occidental », *BCAF*, n° 2, février 1936, 127.

45 - *Ibid.*

46 - De Lachapelle, F., *La colonie de la Mauritanie*, Centre de Documentation Sociologique, Rapport inédit disponible au Service Historique de l'Armée de Terre, 1930, Rabat, 3 H 2211, 81.

47 - Marty, P., « Les tribus de la Haute Mauritanie, les Ouled Delim », *Renseignements Coloniaux et Documents*, Comité de l'Afrique française, Paris, 1915, n° 5, 79-80.

تم استشعار الموقف الإسباني منذ خروج بنز نحو آدرار وتم النظر إلى ذلك على أنه مناورة تسعى إلى منع السواعد من الخضوع لفرنسا.

48 - *Ibid.*, 80.

49 - *Fonds Auguste Terrier*, MS 5891 (A-B-C).

مخطوطات هذا الكنز من المعلومات مودعة بالمكتبة المركزية

bataillon Delestre, commandant le cercle et les troupes de l'Adrar à M. le Commissaire du Gouvernement général et commandant militaire en Mauritanie, Atar, 16 avril 1913. Politique suivie à l'égard des tribus soumises étrangères à l'Adrar Regueibat et Yaggout).

34 - محمد ولد الخليل، الذي تمكن من الحصول على اعتراف المستعمرين به دون أن تكون له سلطة حصرية،فاوض كذلك سنة 1909. صعد نحو زمور سنة 1910، ثم الساقية الحمراء التي شهدت أمطارا جيدة سنة 1911. ولم تمنعه الهجمات التي شنت حينئذ على الفرنسيين (نصر البيرات في يناير 1913 الذي أدى إلى غارة العقيد موري على السمارة في الشهر الموالي) من المفاوضات سنة 1914، التي اندثرت فيها مراعي الشمال، على إقامة مخيمات الركبيات فيما بين بئري أم كرين وتورين. وكرر العملية سنة 1917، وقد قدرت الإدارة الفرنسية حينئذ بأنه يملك سلطة كبيرة.

35 - استندنا بالخصوص إلى وثيقة تركيبية تعالج هذه القضية: « Historique de nos relations avec les Regueibat » par le sous-lieutenant Brisaud. 1938 (Archives nationales de la République Islamique de Mauritanie. Dossier E 2/83).

36 - يسرد غادن في رسالته « إلى أعيان الركبيات، محمد ولد الخليل والجماعة المرافقة له «المؤرخة في 14 نونبر 1917، مواد هذه السياسة.

(Archives du Ministère de la France d'Outremer. Série Mauritanie IV. Dossier 4. *Situation politique en Mauritanie pendant le 3<sup>ème</sup> trimestre 1917*).

37 - مثل وجهة وأخيه محمد المأمون، وهما من أقرباء ماء العينين غير المباشرين، اللذان عاشا حياة مغامرة تميزت بمقاومة الاستعمار.

38 - على الفرقة المترحلة بشنقيط سنة 1923، ثم من جديد بمعركة لكديم سنة 1924؛ على الفرقة المترحلة لأطار بالطريفية سنة 1925، ثم على توجنين في 1931. وستتم مهاجمة بور إيتين علاوة على ذلك في 1927.

39 - تسعى رخصة الانتجاع الخاصة بالمنطقة الإسبانية هذه «التي تظهر عليها شارة ثلاثية الألوان»، والتي تبرهن على كون حاملها من الرعايا الفرنسيين، إلى التمكن أيضا من مقاربة ممتازة لإحصاء القطعان المملوكة من طرف الركبيات بهدف أداء الضريبة. وكان من اللازم تقديم لائحة هذه الرخص الخاصة شهريا من قبل الدوائر المعنية إلى قائد دائرة بور إيتين الذي يوافق بها القائد الإسباني للكؤيرة، الذي يحيلها على السلطات الإسبانية بفيلا سيسيروس وكاب جويي.

40 - ردد الحاكم بييري (Beyriés) صدى ذلك: «ابتداء

24 - تم توقيع اتفاقية يونيو 1900 من قبل ديلكاسيه (Delcassé) (فرنسا) وفرناندوليون إي كاستيلو (Fernando León y Castillo) (إسبانيا).

25 - حتى أن المفوض بيتي (Petty) اقترح أن تحتل فرنسا أرضا فيما وراء الحدود نظرا لأن إسبانيا لم تبذل أي جهد لتجسيد التزاماتها.

26 - Bargados, L., op.cit., 2003, 434.

27 - *Ibid.*, 434.

28 - أنظر:

Caratini, S. *Les Rgybat. Des chameliers à la conquête d'un territoire*, L'Harmattan, Paris, 1989, tome 1.

29 - Schmitt, Lt G., « Le Sahara Occidental. Régions au nord et nord-ouest de l'Adrar mauritanien », *La Géographie*, 1913, XXVII, n° 4, 261

30 - Dupas, Cap., *Notes sur la confédération des Reguibat Lgouacem*, Archives de l'Armée de Terre, Vincennes, 1937, 3 H 2211, 26.

31 - تستند الفقرات القادمة إلى أطروحة بيير بونت (Pierre Bonte) لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية، و لاسيما الفصول 18، 19 و20 المخصصة لاستعمار آدرار التمر والمناطق المحيطة به: *L'émirat de l'Adrar. Histoire et anthropologie d'une société tribale du Sahara occidental*, EHESS, 1998

32 - كان بعض الركبيات تقطع معنيا على وجه الخصوص بتربية الإبل (أولاد موسى، أولاد الشيخ، التهالات، السواعد...)، لقد أقاموا إذن بالمناطق الممتدة من شمال انشيري حتى حفرة وادان مرورا بكثبان مقطير.

33 - « حرية الرعي كانت دوما محترمة وإذا ما، في تيار أكتوبر توصلت لاتخاذ تدابير تقييدية لهذه الحرية، فلأنه كان لدي انطباع واضح للغاية بأنني أتواجد أمام حركة واضحة في محاولة للرحيل والانشقاق. باقتراحي عليكم في إرسالتي عدد 753A المؤرخة في 22 أكتوبر منع الركبيات من الوصول إلى مراعي شمال بير الكارب فم الجول، أردت ببساطة منعهم من التوجه إلى الشمال بعد الاستفادة من مراعيها، قبل أن تدفع ضريبة الزكاة التي لم يبدأوا حتى في أدائها في أواخر أكتوبر. للأسباب التي عرضت عليكم في إرسالتي عدد 15 AT المؤرخة في 14 نونبر، توصلت إلى أن أفرض على الركبيات حدا يقع إلى الجنوب أكثر من ذلك الذي كنت قد اقترحتة أولا عليهم ومنعهم من الوصول إلى تيجيريت». (Archives du Ministère de la France d'Outremer. Série Mauritanie V. Dossier 4. Chef de

Bonte, P., *La montagne de fer. La SNIM. Une société minière du Sahara mauritanien à l'heure de la mondialisation*, Karthala, Paris.

61 - Bargados, L., *op. cit.*, 606-630.

62 - Acloque, *op. cit.*, 360.

63 - Mugnier-Pollet, Lt., « De l'Adrar à la Baie du Lévrier », *Renseignements Coloniaux et Documents*, janvier 1911, n°1, 27.

تم تسجيل الملاحظة نفسها عشر سنوات بعد ذلك، من طرف  
le *Bulletin du Comité de l'Afrique Française*.

64 - Beslay, *op. cit.*, 53.

65 - تقرير من أرشيفات مستعمرة موريتانيا، دائرة آدرار،  
محضر بأطار في 13 أبريل 1941 من طرف قائد الكتبية  
روسيغول ROSSIGNOL.

66 - *Ibid.*

بإمكاننا مضاعفة لأمتة من هذا النوع. زعماء العشائر  
الذين يغادرون تراب المنطقة الفرنسية و الذين يعينون  
من طرف الأسبان زعماء قبائل قبل أن يلتحقوا بشمال  
الصحراء لتلبية حاجيات قطيعهم عندما تكون الظروف  
المناخية غير ملائمة.

67 - المثال الأيتوسي غني بالعلوم حول هذا الموضوع.  
أنظر:

Joumani, A., « Le contrôle des nomades durant la période coloniale : le cas des Ayt Oussa », *Les sociétés nomades dans les écrits coloniaux*, Université Ibn Zohr, Agadir, 2010.  
pp. 2-21

55 - *Ibid.*, semaine du 16 au 22 juin 1946.

56 - مذكرة موجهة إلى المكتب الجهوي للتخوم الجزائرية  
لمغربية من قبل مكتب كُولين (-ar) même série d'ar-  
..(chives classées au SHAT

57 - Caro Baroja, J., *Estudios saharianos*, Instituto de estudios africanos, 1955.

وقد لاحظ بصفة خاصة أن المخيمات تتشكل، أكثر فأكثر، من  
خيام تنتمي لقبائل أو عشائر مختلفة، مرتبطة بمصالحها  
الرغوية. قام جان بيسون (Jean Bisson) بملاحظات  
مماثلة في نهاية بحث متأخر أكثر (1959) فيما تعلق  
بالركييات لتؤاسم المقيمين بحدود الجزائر، المغرب وما كان  
لا يزال يسمى في تلك الحقبة الصحراء الإسبانية: «الفرغان  
هي الوحدات الحية حاليا. ليس أكثر من مجموعات الفرغان  
التي تتجمع على مرعى ملائم. إنها لا تطابق الروابط  
للعائلية التقليدية» (*Nomades et Nomadisme au Sahara*),  
Unesco. *Recherches sur les zones arides*,  
na, 1963, 55 (XIX).

58 - Caro Baroja *op. cit.*, 5-4.

59 - Jonquera Rubio, C., « El nomadismo en los «estudios saharianos» de Julio Caro Baroja », *Observatorio Medioambiental*, 2008,  
11 : 261-267.

60 - نلاحظ الظاهرة نفسها مع العواقب ذاتها، في وقت  
متأخر أكثر، مع استغلال ميفرما (MIFERMA)  
بموريتانيا لمناجم الحديد بكدية إيجيل. فتح الموقع أواخر  
الخمسينيات و بدأ استغلال الحديد سنة 1963. الزويرات  
بالخصوص، المدينة الجديدة التي تم انشاؤها بهذه المناسبة،  
ستعرف تدفقا هاما لسكانة الركييات. أنظر بهذا الخصوص:

بالأكاديمية الفرنسية بباريس. ومن الواضح أن الوزير  
كان على اطلاع جيد على موضوع المفاوضات السرية بين  
الدولتين، إلا أن بلاده لم تحترم أبدا هذه المبادئ و ستستمر  
منهجيا في انتهاك الحدود الاستعمارية في فترة كان التيار  
التدخلية قد أفتح الهيئات الاستعمارية العليا.

50 - للحصول على المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع  
راجع شهادة فرونسوا بيسلاي، F. BESLAY :

« Les confins algéro-mauritano-marocains. Une formule originale d'administration adaptée aux grands nomades », in Pierre Boileau et al., *Nomades et commandants. Administration et sociétés nomades dans l'ancienne A.O.F.*, Karthala, Paris, 1993.

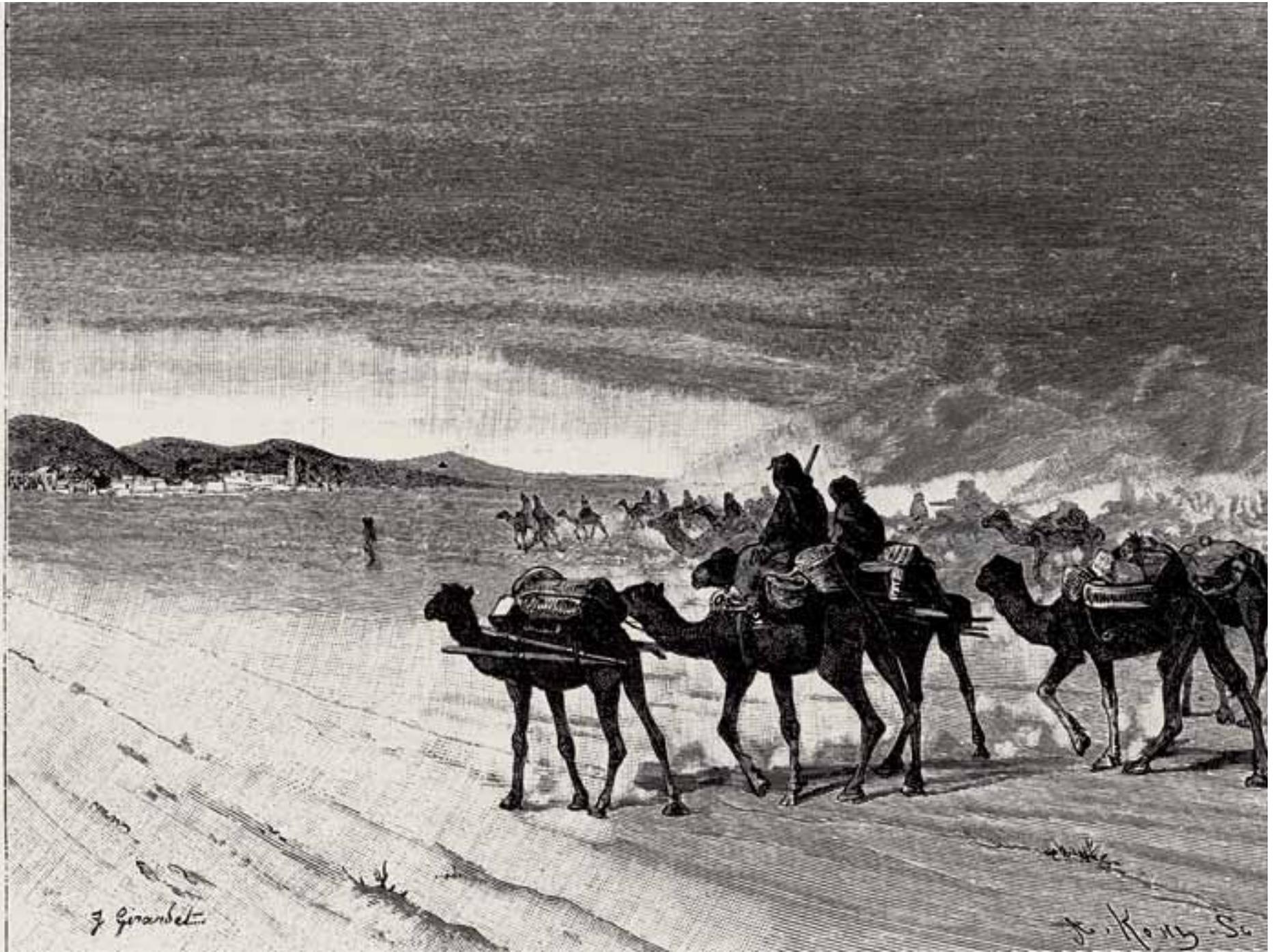
Beslay François, *Les Reguibat*, *op. cit.*, 20. - 51

كشف المؤلف (ص.31) بأنه لم يكن بإمكان الضباط  
الإسبان القيام بأدنى تحرك، إجراء أبسط تعديل أو الشروع  
في أي بناء دون أن يعلم الفرنسيون ذلك مباشرة، كما كانت  
أفعال وتحركات هؤلاء الأخيرين تصل أخبارها فوراً إلى  
الجانب الآخر من الحدود.

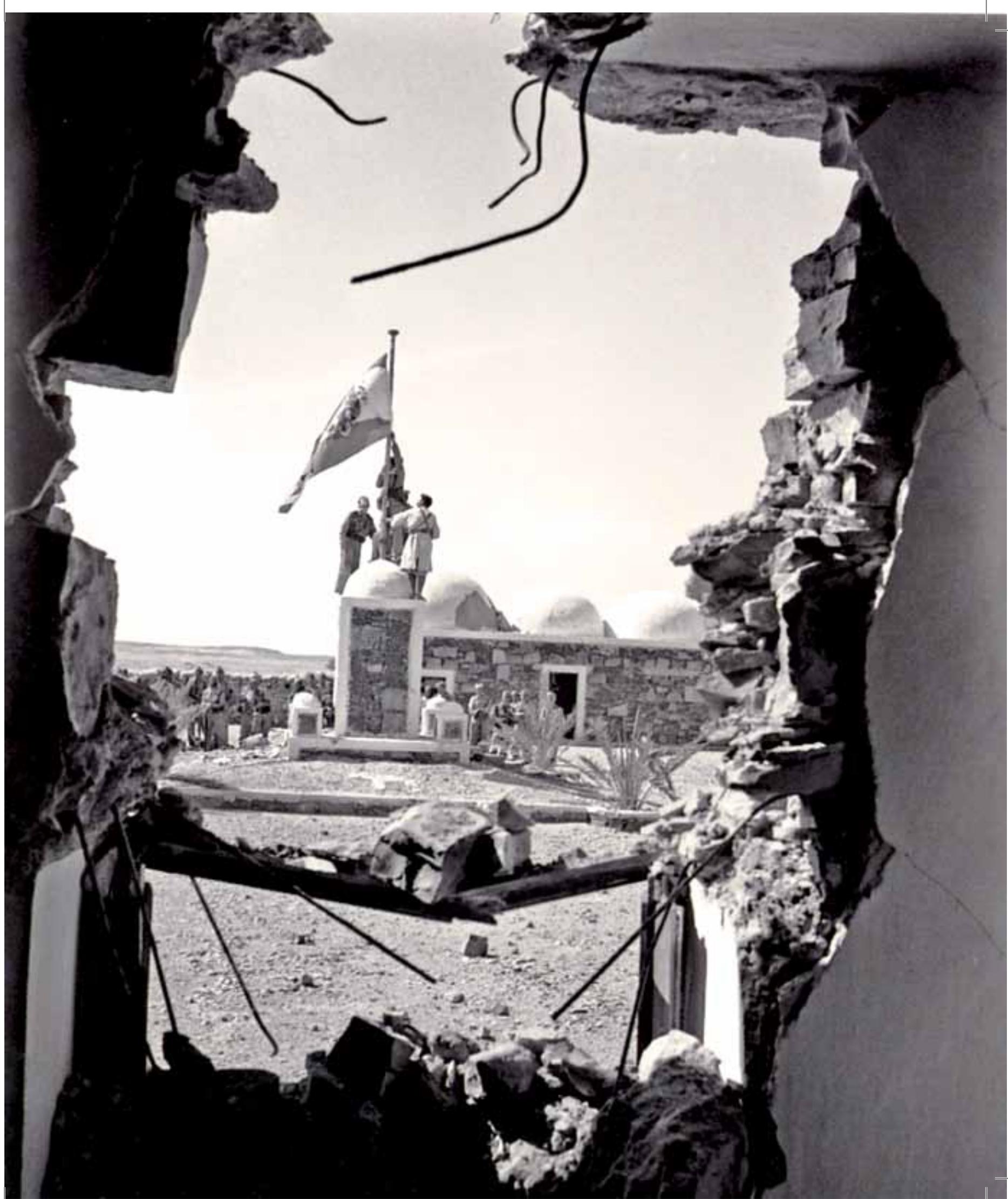
52 - De Lachapelle, *op. cit.*, 46.

53 - تقرير سري لمكتب الشؤون الأهلية بأساس موقع من طرف  
النقيب جيربيي (Gerbiere) موجه إلى مكتب ش.أ. كُولين  
بتاريخ 6 يوليوز 1940 (فترة افتتاح المراعي بوادي نون  
(S.H.A.T N° 3 H 2223).

54 - Bulletin de Renseignements Hebdomadaires du Poste d'El Ayoun du Draa, période du 27 mai au 1<sup>er</sup> juin 1946, in *Bulletins de Renseignements Politiques (BRP)*, S.H.A.T, 3  
H 2219.



قافلة تصل إلى تندوف، حسب وصف كاميل دولس إبان رحلته في الصحراء (رسم جيراردي) (1886)



# جيش التحرير بالصحراء وعملية إيكوفيون

## رحال بوبريك

منذ أواسط الخمسينات، أصبح مسرح الحياة السياسية، في المنطقة المغاربية، يعرف تحولا سريعا مع ظهور حركات تحررية تطالب المستعمر بالاستقلال. ولم تبق الصحراء على هامش الأحداث السياسية التي يعيشها المحيط القريب منها بل حتى البعيد. ففي سنة 1952 أبدى الرحالة والكاتب الفرنسي (Ferré) اندهاشه حينما صادف بدويا راكبا جملة بين طرفاية والطنطان، يسأله عن أخبار حرب الهند الصينية<sup>1</sup>. كانت ساكنة الصحراء واعية بطبيعة الاستعمار وتكن له العدا، ولم تتأخر بدورها في التحرك لتعبر ميدانيا عن موقفها الرفض للهيمنة الأجنبية على ترابها في استمرارية لمسار الجهاد الذي خاضته منذ بدايات التغلغل الاستعماري في بدايات القرن العشرين.

## في مواجهة قوتين استعماريتين

لقد كان المغرب أول دولة تحصل على استقلالها سنة 1956 في المنطقة المغاربية وغرب إفريقيا، فاتجهت إليه أنظار الدول المجاورة من أجل مساعدتها على طرد المستعمر. وكانت ساكنة الصحراء بحكم الارتباط التاريخي بالشمال، أول من ربط الاتصال مع القصر والقوى الوطنية، التي يمثلها جيش التحرير بالجنوب آنذاك، من أجل طلب المساعدة العسكرية لطرد المستعمر من الصحراء، سواء منها الواقعة تحت الاستعمار الإسباني أو تلك الواقعة تحت الاستعمار الفرنسي (تندوف وموريتانيا). وكان على القصر أن يتخذ موقفا من هذه المستعمرات، خصوصا وأن حزب الاستقلال كان يطالب بمغرب كبير حتى نهر السينغال وبمواصلة جيش التحرير لدوره في تحرير هذه المناطق.

جنود اسبان يرفعون علم اسبانيا  
وسط السمارة بعد إعادة  
احتلالها في عملية إيكوفيون  
(فبراير 1958)

أوسرد بوادي الذهب : اليوتنان  
اسكيا و الكولونيل كوتنير في  
الوسط والجنرال هكتور فاسكيس  
الحاكم الاسباني للصحراء في  
عرض للوضع استعدادا لعملية  
إيكوفيون (فبراير 1958)

وبتنسيق مع الملك محمد الخامس وبأمر منه عين الدكتور الخطيب بن حمو، الذي كان قائدا للرحى، تابعا لمجموعة بن الميلودي بالأطلس (الخميسات)، على رأس مجموعة من المقاومين الذين كانوا تحت قيادته والمتكونين في أغلبهم من قبائل زمور بالتوجه نحو الجنوب. تكونت نواة قيادة جيش التحرير بالجنوب من أعضاء سابقين في جيش التحرير الذي تشكل بالشمال والذي حل مباشرة عقب الاستقلال. ومن بين هؤلاء الأعضاء تشكلت بالصحراء القيادة العسكرية لجيش التحرير التي كان يعود إليها اتخاذ القرارات الكبرى الخاصة به من تنظيم عسكري وتخطيط. توجهت النواة الأولى إلى الجنوب وكان الاستقرار الأول بأقا. وفي هذا الوقت، بدأ الاتصال مع الصحراويين وانضمت إليهم أولى المجموعات المسلحة في النصف الثاني من سنة 1956، لتخوض أولى العمليات ضد القوات الفرنسية المرابطة على الحدود مع الجزائر قرب تندوف. ومع انتقال قيادة جيش التحرير إلى كليميم وفتحها لمراكز التدريب بتافودارت قرب مصب وادي درعة وبعيون اغمان (عيون درعة)، توالت وفود المتطوعين من قبائل الصحراء، وتزامنت هذه الأحداث مع عودة الوفد الصحراوي من زيارته لمحمد الخامس والذي كان قد انطلق بعد مؤتمر أم الشكاك، قرب العيون؛ وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن الوفد الوحيد، إذ اتجهت وفود أخرى من مختلف مناطق الصحراء إلى الرباط بعد عودة محمد الخامس والحصول على الاستقلال.

كانت أولى عمليات جيش التحرير بالصحراء ضد القوات الفرنسية في مركز قريب من تندوف. وتم الهجوم يوم 6 يوليوز 1956 على القافلة العسكرية التي تربط أسبوعيا بين أم لعشار وتندوف<sup>2</sup>. وأعقبت هذه العملية عدة معارك موجهة ضد الفرنسيين دائما على الواجهة الشرقية في الحدود مع تندوف: مركالة 6 - 8 - 1956 ومحاميد الغزلان 6 - 12 - 1956 والسويحات 28 - 12 - 1956 والزمول (2) 30 - 10 - 1956؛ هذا بالإضافة إلى مناوشات أخرى. يتبين أنه تحكّم في مواقع هذه العمليات كون قواعد جيش التحرير في هذه الفترة كانت في أقا، قريبا من القوات الفرنسية التي كانت مرابطة على الحدود الجزائرية، خاصة تندوف. شكلت عملية أطار المعروفة بعملية تكّل، بشمال موريتانيا، أول عمل عسكري جنوب الساقية الحمراء، وهي أول عملية ذات شأن دشنها جيش التحرير ضد المستعمر. لقد كان الهجوم ضد مواقع الجيش الفرنسي بشمال موريتانيا يومي 14 و15 يناير 1957. انطلق المقاومون من كليميم في أواخر 1956، وبعد مسيرة وسط الصحراء في ظروف قاسية سيصلون إلى مواقع الفرنسيين بشمال موريتانيا بداية يناير 1957، وبما أنهم فقدوا عنصر المفاجأة فإنهم لم يستطيعوا الصمود أمام الآلة العسكرية الفرنسية المعززة بالطائرات التي رصدت وصولهم إلى الحدود بأمر من القوات الفرنسية المرابطة بأطار في شمال موريتانيا. و بعد يومين من المواجهات اضطر عناصر جيش التحرير إلى الانسحاب بعد تدخل الطيران والمظليين من داكار<sup>3</sup>. لقد كانت حصيلة هذه العملية 7 قتلى و19 جريحا بين الفرنسيين و20 شهيدا و43 أسيرا في صفوف جيش التحرير<sup>4</sup>. تكبد جيش التحرير هزيمة كبيرة وذلك نظرا لغياب خطة عسكرية محكمة والدفع بمقاتلين إلى منطقة تبعد بأزيد من 1500 كلم عن مركز قيادته وغياب قواعد خلفية في ذلك الوقت في الصحراء وظروف الجهة القاسية بالنسبة لجنود لم يتعودوا على مناخها، لكون أغلبهم من منطقة الخميسات كما أشرنا لذلك سابقا.





لكن حتى وإن لم يحقق هجوم أطار أهدافه العسكرية، فإن صدها وتأثيره السياسي كان كبيرا. فالقائد الأعلى للقوات الفرنسية بغرب إفريقيا يصنف هذه العملية بكونها «سياسيا وبسيكولوجيا خطيرة لأنها تستهدف منذ الوهلة الأولى قلب موريتانيا» «politiquement et psychologiquement dangereuse parce qu'elle vise du premier coup le cœur de la Mauritanie»<sup>5</sup>. نذكر أن فرنسا كانت قد تبنت في يونيو 1956 قانونا إطارا يعطي للموريتانيين بعض الصلاحيات مع استمرار الوجود الفرنسي في البلد. كما أن منجم الحديد بالزويرات شمال البلد كان واعدًا وتأسست شركة فرنسية سنة 1952 لبداية إنشاء بنيته التحتية. هذان المشروعان كانا مهددين أمام نشاط جيش التحرير. وقد فاجأ هذا الهجوم الفرنسيين الذين لم يكونوا ينتظرون عملية من هذا النوع في عمق الصحراء بموقع يفترض أن يكون محصنا وآمنا. أكدت الأحداث بعد ذلك أن الجيش الفرنسي بشمال موريتانيا أصبح هدفا رئيسيا لجيش التحرير الذي نجح في إلحاق خسائر مهمة به. فإبان إحدى هذه العمليات ستقع إحدى وحدات الجيش الفرنسي في كمين يوم 14 فبراير 1957، ونجح المقاومون في تكميد الفرنسيين 20 قتيلًا من بينهم 3 ضباط ومفقود حسب الأرشيفات الفرنسية<sup>6</sup>. وهي العملية المعروفة في حوليات المقاومة بالصحراء بعملية رغيوة حيث أسر جندي فرنسي.

تواصل نشاط جيش التحرير مع النصف الثاني لسنة 1957 وتغيرت استراتيجيته، ليستهدف الوجود الإسباني بالصحراء بعد نهاية مفعول الاتفاق الذي كان بين قادة جيش التحرير والإسبان عبر القيادة العسكرية الإسبانية بإفني. فممنذ يوليو 1957 كثف جيش التحرير عملياته ضد الجنود الإسبان بالصحراء، ومع نهاية أكتوبر وحلول نونبر 1957 شن عمليات جريئة وألحق ضربات موجعة بالإسبان من خلال الهجوم على مواقعهم بالصحراء و آيت باعمران. ففي 26 أكتوبر ستتعرض طائرة، تحمل الحاكم العام الإسباني، لما كان يسمى غرب إفريقيا الإسباني P.A.O.E، الجنرال ماريانو غوميز زامالوا (Mariano Gómez Zamalloa)، لطلقات نارية بعين نخلة ورد الإسبان بقصف بالطائرات الحربية القادمة من جزر الكناري لتافودرت على الساقية الحمراء، وكانت تافودرت مركز قيادة المقاطعة الثامنة لجيش التحرير بالجنوب تحت قيادة صالح بنعسو الجزائري. مع بداية نونبر 1957 تعرضت العديد من مواقع جيش التحرير بالساقية الحمراء لقصف إسباني مكثف، وأعلنت هذه الأخيرة حالة طوارئ في مجمل مناطق الصحراء وسحبت جنودها المتواجدين في طنطان والسمارة وأوسرد إلى طرفاية والعيون والداخلة. وما بين 4 و 11 نونبر 1957 وصلت ثلاث فرق عسكرية من سبتة ومليلية لتعزز التواجد العسكري في المدن الثلاث المذكورة آنفا والتي قامت فيها إسبانيا بحملة اعتقالات واسعة<sup>7</sup>.

في 26 نونبر 1957، قصف جيش التحرير مدينة العيون؛ وفي بداية دجنبر، اعترض طريق قافلة عسكرية بين العيون والشاطئ (لبلايا). قبل ذلك هجمت مجموعة على منارة بوجدور وأسر حراسها؛ هذا من غير ذكر مناوشات جُلها في منطقة الساقية الحمراء. بعد هذه الهجمات أضحت عاصمة المستعمرة، العيون، معزولة عن الشاطئ الذي كان منفذها الوحيد على جزر الكناري. وأضحى الجنود والمدنيون الإسبان محاصرين في المدن الثلاث السابقة الذكر (طرفاية والعيون والداخلة).

ازدادت مخاوف الإسبان من تصاعد عمليات جيش التحرير؛ فلم يعد يكتفي هذا الجيش بخوض هجمات خاطفة يفرضها تكتيك حرب العصابات، بل أصبح يدخل في مواجهة مع الجيش الإسباني كما حدث في معركة الدشيرة الشهيرة. جرت أطوار هذه المعركة يوم 13 يناير 1958، بموقع يقع على بعد حوالي 25 كلم شرق مدينة العيون، ضد واحد من أهم الفيالق الإسبانية، الذي كان مزوداً بأحدث الأسلحة والعتاد المتطور: الفيالق الإسباني الثالث عشر. شكلت معركة الدشيرة حدثاً مهماً في المواجهة بين جيش التحرير بالصحراء والقوات الإسبانية، بل إنها أهم معركة خاضها جيش التحرير في الصحراء تحت قيادة المقاطعة التاسعة، نظراً لحجم القوات التي شاركت فيها ومدتها والانتصار الذي حققه جنود جيش التحرير في هذه المعركة، وقد قلبت موازين القوى وأدركت بعدها إسبانيا أن مستعمرتها أضحت مهددة أمام الصلابة والتصميم والقدرة القتالية لهذا الجيش، الذي أصبح في هذه الفترة مكوناً في أغليته الساحقة من الصحراويين<sup>8</sup>.

خلفت معركة الدشيرة العديد من القتلى في صفوف الإسبان. بالنسبة لمصادر المقاومة يصل عدد القتلى في صفوف الإسبان إلى 600 شخص، أما المصادر الإسبانية فهي تحصر الخسائر في سقوط 51 جندياً إسبانياً بين قتيل وجريح. وهو عدد في حد ذاته كبير بالمقارنة مع خسائر إسبانيا سابقاً وبقدرتها العسكرية وتفوقها في العتاد والعدد أمام تواضع إمكانيات جيش التحرير في الأسلحة والتكوين العسكري. سرعت نتائج معركة الدشيرة من وتيرة التقارب الإسباني الفرنسي، وجعلت إسبانيا لا تتردد في التحالف مع الفرنسيين لضرب تنامي قوة جيش التحرير وفك الحصار الذي أصبح يوماً بعد يوم يشتد حولها في الصحراء، وذلك رغم وصول الدعم العسكري من جزر الكناري. ولم يكن وضع إسبانيا بأحسن حالاً في المستعمرة المجاورة بإفني، ففي 10 يناير 1958 كان جيش التحرير يحاصر هذه المدينة بعد سلسلة من المعارك الطاحنة في مناطق قبائل آيت باعمران.

راهن جيش التحرير منذ البداية على التحالف مع إسبانيا بحكم موقعها المعارض لنفي محمد الخامس واستنكارها له ووقوفها إلى جانب مناضلي الحركة الوطنية الفارين من مطاردة الفرنسيين وما قدمته لهم من مساعدة، بما في ذلك توفير ظروف التدريب العسكري في منطقة الريف وتطوان. فالمنطقة الخلفية بالشمال كانت ملجأً ومكان تحرك جيش التحرير والمقاومة قبل الاستقلال، كما أن مدينة إفني بالجنوب استقبلت اللاجئين السياسيين

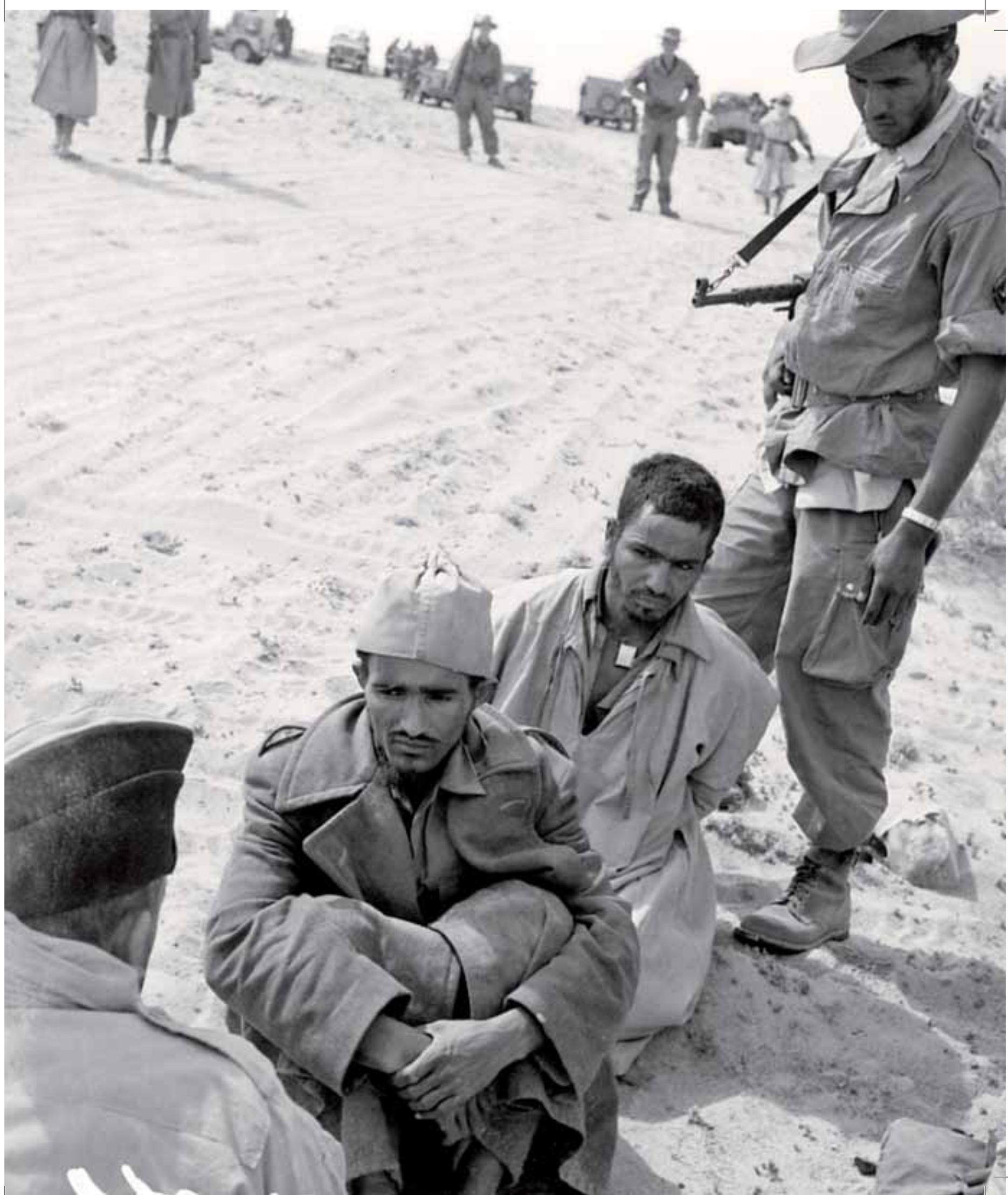


جنود إسبان يقتحمون حرمة زاوية الشيخ  
ماء العينين بالسمارة (فبراير 1958)

الفارين من متابعة الفرنسيين، دون أن يتعرضوا لمضايقات من طرف الإسبان بالمدينة. ونظرا لهذه العلاقات التي كانت تربط الحركة الوطنية بالإسبان في الشمال، فقد سارعت قيادة جيش التحرير في الجنوب بربط الاتصال بهم بإفني والعيون من أجل إعادة نفس العلاقات وتسهيل مهمة جيش التحرير ضد الفرنسيين في موريتانيا، مراهنه كذلك على مواقف فرانكو المعادية لفرنسا والموروثة عن مرحلة النازية التي أدت إسبانيا ثمنها بعد ذلك، حيث حاصرها ما يسمى بالعالم الحر. ناهيك عن إحساس إسبانيا أنها خرجت من شمال المغرب دون أن تحصل على امتيازات مثل الفرنسيين وذلك للدور الذي لعبته فرنسا قصد تهميشها في المفاوضات مما اعتبرته إسبانيا حيفا في حقها.

لهذه الأسباب وغيرها، التزمت إسبانيا الحياد في بدايات عمليات جيش التحرير في الصحراء. لقد دخلت في البداية في مفاوضات مع المقاومة نظرا لعجزها عن حماية مواقعها بالصحراء، وعقدت قيادة جيش التحرير لقاءات مع الكومندان تشاس يافني من أجل التفاوض على فسخ المجال لنشاط جيش التحرير بالصحراء. وبالفعل غضت إسبانيا الطرف أحيانا عن بعض أنشطة جيش التحرير بالصحراء مقابل عدم تعرض مواقعها للهجوم. فلم تكن تملك الوسائل والقدرة العسكرية الكافية للوقوف أمام هجمات جيش التحرير، كما أن سياسية هذا الأخير بضرب المواقع الفرنسية كان يخدم مصالحها بإضعاف منافسها التاريخي في المنطقة. وهذا ما كانت فرنسا تشعر به، ففي إحدى المذكرات بتاريخ فبراير 1957، اتهم الفرنسيون الإسبان بعدم فعل أي شيء لمنع حركة جيش التحرير، بل إنهم يسهلون التموين لعناصره لضرب فرنسا<sup>9</sup>. لقد كانت فرنسا تطالب إسبانيا بنزع سلاح المقاومين وطردهم إلى شمال وادي درعة ومدتها بالمعلومات الاستخباراتية التي تملك حول جيش التحرير. كل هذا لم تكن إسبانيا حسب التقرير الفرنسي تقوم به<sup>10</sup>، مما جعل فرنسا تتهمها صراحة بالتواطؤ مع جيش التحرير ضدها. في الواقع لم تكن مسألة ترك جيش التحرير يتحرك بحرية ضد الفرنسيين مرتبطا فقط بحسابات اسبانية فرنسية، بل كانت قوى دولية مهتمة بهذا الوضع؛ فأمریکا كانت تشجع الإسبان في هذا الاتجاه قصد الضغط على فرنسا من أجل أن تغير سياستها تجاه حركات التحرر المتأججة في مستعمراتها. يؤكد هذا التعاون بين إسبانيا وأمريكا الأرشيفات الفرنسية، حيث نعر في أحد التقارير المؤرخة بـ 24 فبراير 1948 على معلومات عن وجود طائرات أمريكية في كل من طرفاية والداخلة<sup>11</sup>.





## أيكوفيون: العملية الحاسمة

دفعت الانتقادات الفرنسية إسبانيا إلى انتهاج سياسة مزدوجة، فهي تتفاوض مع جيش التحرير كلما وجدت مصالحتها مهددة، وفي نفس الآن تمنح فرنسا حق المطاردة (droit de suite) للمقاومين في الأراضي الواقعة تحت سيطرتها، بل تتدخل بنزع سلاح المقاومين، مثل ما وقع بعد عملية أطار حين جردت الجنود العائدين لتوهم من المعارك وحملتهم في طائرات إلى شمال الصحراء. وتدرجياً أضحت إسبانيا في موقف حرج تبحث عن تحالف مع فرنسا؛ فالقيادات العسكرية والسياسية الإسبانية بعدما أصبحت ترى في جيش التحرير تهديداً لمصالحها، وضعت أسس تعاون مع الفرنسيين قصد الاستفادة من دعمهم العسكري والتأهب لمواجهة هجمات جيش التحرير ضد مواقعها في الصحراء. لكن الفرنسيين لم يكونوا راضين تماماً عن هذا التعاون، فحسب تعبيرهم «زواج المصلحة الفرنسي الإسباني يبقى هشاً» (le mariage de raison franco-espagnol reste fragile)<sup>12</sup>. إنهم كانوا يريدون المزيد.

عرف موقف إسبانيا، بداية من شهر يونيو 1957، تغيراً ملحوظاً تجاه الفرنسيين، صادف هذا تعيين مدريد في يونيو حاكماً عاماً جديداً لإدارة غرب إفريقيا الإسباني (l'A.O.E)، وهو الجنرال ماريانو غوميز زامالوا (Mariano Gómez Zamalloa). ومباشرة بعد وصول الجنرال إلى المنطقة عقد في 12 يوليوز 1957 مقابلة بينه وبين الضابط الفرنسي، المقدم إسكيا (lieutenant-colonel Esquillat) قائد منطقة الحدود (commandant le secteur de la frontière)، وهي خطوة وصفها هذا الأخير بالهامة<sup>13</sup>.

استفاد الفرنسيون، ابتداء من هذا اللقاء، من حق التحليق على عمق 60 كلم في «التراب الإسباني» بالصحراء وتبادل المعلومات وحق المطاردة في حالة هجوم المقاومين. ولكن رغم جو الثقة الجديد بين فرنسا وإسبانيا فإن الوضع ميدانياً لم يعرف تحسناً بالنسبة للفرنسيين؛ ففي تقرير لقائد المنطقة الحدودية بتاريخ 27 غشت 1957، نلمس بشكل واضح حرج فرنسا، حيث يشير هذا التقرير إلى تضارب وتناقض المعلومات التي تصله من الصحراء حول جيش التحرير، فتارة يتوصل بمعلومات عن قرب شن المقاومين لهجماتهم على الفرنسيين وفي نفس الآن تأتيه معلومات عن انسحابهم نحو الشمال<sup>14</sup>.

يعكس هذا الوضع حالة الارتباك التي تعيشها فرنسا في مواجهة جيش التحرير، ففي الواقع لم يكن التنسيق الذي تم الاتفاق عليه بمدينة الداخلة بين القيادة الفرنسية والإسبانية في مستوى تطلعات الفرنسيين، وحتى فترة الاستقرار النسبي الذي عرفته المنطقة في صيف 1957 لم يكن ليطمئن الفرنسيين، بل على العكس كان مصدر تخوف كبير، ورأى فيه الفرنسيون الهدوء الذي يسبق العاصفة؛ فالتوقعات الفرنسية كانت تنتظر هجمات المقاومة مع حلول شهر أكتوبر 1957، وهو ما تحقق، ولكن هذه المرة كما سبقنا وأن بينا كان ضد الإسبان في عدة هجمات جعلت إسبانيا تفقد سيطرتها على الوضع، وكانت عملية الدشيرة تجسيدا لأوجها ورسالة قوية للإسبان بأن جيش التحرير أصبح قويا ميدانياً.

إن تكثيف نشاط جيش التحرير ضد الوجود الإسباني بالصحراء وضع القوتين الاستعمارييتين في حالة تأهب. لقد كانت فرنسا تواجه في الجزائر حرباً ضروساً، وإسبانيا التي فقدت مستعمراتها في شمال المغرب لم تكن تريد أن تفقد الجنوب كذلك. إن زواج المصلحة (mariage de raison)، الذي طالما انتظرته فرنسا، أصبحت الآن شروطه متوفرة أمام الخطر الذي بات يتهدد جارتها في الشمال على ضوء الضربات الموجهة التي تلقتها على يد مقاومة طالما راودها طموح احتوائها أو على الأقل تحييدها وضمها ودها.

لقد كانت فرنسا، منذ احتلالها لشمال موريتانيا 1909، تطالب بتعاون إسباني من أجل التدخل في الصحراء، ومع ما آلت إليه الأوضاع الميدانية، وجدت الفرصة سانحة لتحقيق هذا الهدف وإقناع إسبانيا بخوض غمار عملية عسكرية كبرى في الصحراء لضرب قواعد جيش التحرير. لم تكن إسبانيا تتوفر على الإمكانيات العسكرية ولا اللوجستية للقيام بمفردها بهذا العمل، لذا لم تتردد في تلبية دعوة فرنسا هذه المرة من أجل التنسيق الميداني للقضاء على جيش التحرير. وبسرعة تم الاتفاق بين الطرفين لشن عملية هجوم بري وجوي على مواقع جيش التحرير بالصحراء.

أطلق على العملية العسكرية، الأولى من نوعها في الصحراء، اسم إيكوفيون (المكنسة) أو أوراثون (الإعصار) من الطرف الفرنسي وجبل تيدي (Mont Teide أعلى قمة في الكناري) من قبل الإسبان. كان الهدف المعلن للعملية هو تدمير البنية التحتية السياسية والعسكرية للعناصر المتمردة كما تسميها فرنسا<sup>15</sup>.

انطلقت العملية يوم 08 فبراير 1958، وقسمت القوات من الجانب الفرنسي إلى قسمين، قسم تحت قيادة الكومندان (de Garll) الذي حددت له مهمة دخول و احتلال مدينة السمارة والثاني بقيادة الكومندان Vidal الذي كلف بالصعود من الجنوب في اتجاه الساقية الحمراء بعد القيام بمسح منطقة كثلة زمور. من الجانب الإسباني وضعت العملية تحت قيادة الجنرال هيكتور باثكيث (Général Hector Vazquez). وكانت مهمة الإسبان هي شن هجوم بري وجوي انطلاقاً من طرفاية والعيون والداخلة، كانت العملية على أرض الواقع تحت قيادة الجنرال بورثون القائد الأعلى لقوات افريقيا الغربية الفرنسية (Général Burgund, Comandant Supérieure des troupes d'A.O.F). نشير إلى أن هذا الجنرال كان في السابق قائد الجيش الفرنسي الذي بقي في المغرب بعد الاستقلال حسب بروتوكول 02 مارس 1956، وكان إبان خدمته في المغرب يهيء انطلاقاً من الرباط لعملية عسكرية للسيطرة على مواقع جيش التحرير بالجنوب المغربي<sup>16</sup>، الذي كان يرى فيه جيشاً غير نظامي خارجاً عن الشرعية<sup>17</sup>. لم ير مشروع بورثون هذا النور وغادر المغرب في يوليو 1956، ليعين على رأس قوات AOF. مع تسلم مهامه لم يجد الجنرال أي عائق في تحقيق أمنيته القديمة في الهجوم على جيش التحرير، ولكن هذه المرة انطلاقاً من موريتانيا.

لم يمر التعاون الفرنسي - الإسباني بدون أن يثير ردود فعل معارضة في فرنسا نفسها، لقد ارتفعت بعض الأصوات في فرنسا، للتنديد بالتعاون مع حليف هتلر (Hitler) وموسوليني (Mussolini) في إشارة إلى فرانكو<sup>18</sup>. كما أنها حذرت من مغامرة عسكرية غير معروفة العواقب، لكن هذه المعارضة لم تنجح في منع التحالف العسكري بين الجمهورية الرابعة ونظام فرانكو ضد المقاومة في الصحراء. لقد وافق الوزراء، بمن فيهم الاشتراكيون، على خوض غمار العملية. وطالبت فرنسا إسبانيا بإبقاء العملية سرية كي لا تثير انتقادات حلفائها في أوروبا، لاسيما أن إسبانيا كانت محاصرة دولياً نظراً لتحالفها إبان الحرب العالمية الثانية مع هتلر.

نذكر أن عملية إيكوفيون انطلقت في نفس الفترة - 08 فبراير 1958 - التي تعرضت فيها قرية ساقية سيدي يوسف على الحدود التونسية الجزائرية لهجوم ضد قواعد جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وقد خلف القصف الفرنسي لهذه القرية العديد من الضحايا المدنيين، مما عرض فرنسا لانتقادات الصحافة الدولية والأمم المتحدة. أمام هذا الوضع العام، حرصت فرنسا على أن تبقى العملية الجديدة سرية. كانت تريد خوض عملية سريعة وسرية بدون أن تتمكن الصحافة الدولية من معرفة ما جرى. وقد كان لموقع الصحراء المنعزل والكتمان

عملية نهب منظمة للجيش الفرنسي و الاسباني لمؤونة الساكنة (ب.ت).

الذدان أحيطت بهما العملية وضعف وسائل الاتصال لدى جيش التحرير مع الخارج لإبلاغ الرأي العام الوطني والدولي بحجم هذا العدوان، دور في جعل العملية تبقى بدون صدى على الصعيد الدولي.

كان التدخل العسكري الاستعماري في عملية إيكوفيون عنيفا حيث خلف مئات القتلى بين المدنيين ناهيك عن النتائج الأليمة الأخرى : قصف بالمدافع ، إلقاء القنابل على مخيمات الرحل وعلى الماشية، أسر وتحقيقات ومراقبة وتفتيشات استفزازية للساكنة. فمذ انطلاقة العملية كانت التعليمات واضحة، كل الوسائل مباحة من أجل القضاء على قواعد جيش التحرير، بما فيه استعمال قنابل النابالم، ففي دورية بتاريخ 05 يناير 1958 يشرح فيها قائد العملية من الجانب الفرنسي، السلوك الذي يجب اتخاذه مع الرحل ويأمرهم صراحة باستعمال قنابل النابالم :

« *Les moyens spéciaux (napalm) seront mis en œuvre dans les zones difficiles (en particulier, zones rocheuses ou zones de profonds ravinelements rendant la manœuvre à pied onéreuse)* »<sup>19</sup>.

وبمجرد معرفة نوعية العتاد والعدد المرتفع من الجنود الذي دفعت به القوى الاستعمارية في هذه العملية، تتجلى أهميتها بالنسبة لهذه القوى ومدى عنف الهجوم : جندت إسبانيا 9000 جندي و60 طائرة وبلغ عدد جنود فرنسا 5000 جندي و70 طائرة.

وإذا كانت الوثائق الفرنسية لا تعكس لنا حقيقة الكارثة التي أحدثتها العملية، إضافة إلى صمت من قبلناهم من الفرنسيين<sup>20</sup> الذين شاركوا فيها، فإن الصور التي التقطها المصور الحربي الذي رافق الجنود الفرنسيين وهي تنوغل في الصحراء تنقل لنا بشكل واضح مدى عنف التدخل العسكري في المنطقة ؛ فلم يسبق للصحراء أن شهدت هذا العدد من الجنود والآليات العسكرية والطائرات والقنابل، فقد كانت الساكنة من الرحل والمستقرين، تعيش تحت وقع صدمة هذا الهجوم، الذي شرد المئات وقضى على قطعان الإبل والماشية وأجبر مئات العائلات على ترك مواطن رعيها في اتجاه مناطق آمنة في الشمال. وقد حفظت الذاكرة المحلية ذكريات أليمة عن هذه العملية الشرسة إذ سميت هذه السنة بعام «اخبيط الطياير» (سنة قصف الطائرات). وفيما يتعلق بالخسائر البشرية فإن تقريرا فرنسيا يورد أن جيش التحرير سقط من صفوفه 376 قتيل<sup>21</sup>، دون إحصاء الخسائر التي أوقعها الإسبان، بينما السفير الفرنسي بإسبانيا في تقريره لوزارة الخارجية يقدر عدد القتلى ب 400 قتيل<sup>22</sup>.







تمزيق صور للملك محمد  
الخامس وجدت داخل مسجد  
السمارة (فبراير 1958)

جندي اسباني يعطي أوامره  
لاقتحام منزل بالسمارة  
(فبراير 1958)

وأما فيما يتعلق بخسائر الجانب الفرنسي فإنها ظلت سرية، إذ الجنود الذين لقوا حتفهم في معركة قرب السمارة ودفنوا في موريتانيا منعت كتابة مكان سقوطهم على شواهد قبورهم. فحين زار صحفي جريدة لوموند (Le Monde) الفرنسية المقبرة العسكرية شمال موريتانيا بـ (Fort Trinquet) في ماي 1958، استقى معلومات من ضابط شارك في العملية وهي معلومات تعكس حالة التذمر داخل الجيش: «يجب أن تعلم، أنهم يدعون مني من الكتابة على الشاهد: مات في السمارة! ولماذا؟ لأن بعض وزرائنا قد يكونون منزعجين أن نعلن للعموم تحالفنا مع جنود فرانكو! إذا كنا خجولين من موتانا، لماذا أرسلونا لنقتل؟»<sup>23</sup>.

لقد قللت الأوساط الاستعمارية من أهمية الخسائر التي أحدثتها في الصحراء، معللين ذلك بكون أهمية إيكوفيون كانت سياسية أكثر مما كانت عسكرية، فهي قامت بحماية موريتانيا، كما أنها كانت أرضية لأول تعاون فرنسي إسباني على أرض الميدان ضد جيش التحرير. كان الهدف من هذا التقليل من الخسائر عدم تضخيم العملية، كي لا تحدث انتقادات إضافية من طرف الأوساط التي كانت تحذر من خوضها.

بعد هذه العملية أعادت القوات الإسبانية احتلال الصحراء وتواجدها العسكري في كل من السمارة والكلتة وبئر انزران وأوسرد وتشلة، رغم أن هذه المواقع ظلت دفاعية؛ فالجنود لا يغادرون مراكزهم إلا نادرا. لم تضع عملية إيكوفيون حدا لتخوفات الجانب الفرنسي، فلقد عادوا في عمليات عسكرية لمراقبة الصحراء عدة مرات بتنسيق مع الإسبان. فما بين 4 و 11 يونيو 1958 قامت وحدات فرنسية إسبانية بعملية استطلاعية بوادي الساقية الحمراء للبحث عن معلومات سياسية وعسكرية حول تواجد جيش التحرير<sup>24</sup>. أصبح التعاون بين إسبانيا وفرنسا في الصحراء وطيدا جدا كما يعترف بذلك الفرنسيون: «العلاقة بين الضباط الفرنسيين والإسبان ممتازة [...] مراقبة المخيمات كانت موحدة والثقة التامة سائدة»<sup>25</sup>. وفي أكتوبر من نفس السنة، قامت نفس القوات بتفتيش مخيمات الرحل في الصحراء وذلك بطلب من الإسبان أنفسهم حيث تحمست فرنسا لهذا الطلب قصد استعراض إمكانياتها<sup>26</sup>.

شهيد من جيش التحرير بوادي  
الصفاء قرب السمارة (ب.ت.)



كثف التعاون العسكري بين الإسبان والفرنسيين، بعد عملية إيكوفيون، في الصحراء وتعددت اللقاءات بين الضباط السامين للتنسيق الوثيق، وأضحت التقارير الفرنسية دائما تشيد بالتعاون الإسباني البناء معهم فيما يتعلق بالصحراء. ففي 3 شتنبر 1958، وبمناسبة عملية استطلاعية بالساقية الحمراء، نزلت طائرة الكولونيل الفرنسي كُيفو (le colonel Guefaut) بدعوة من الجنرال (Général Alonso). غادر الضابط الفرنسي العيون مطمئنا ليس فقط لأن الجنرال الإسباني، رجل متعاطف مع الفرنسيين كما ورد في التقرير الفرنسي، بل لأنه كذلك خدم 14 سنة في الريف ويعرف ذهنية «الأهالي». والأهم من ذلك، حسب تعبير الكولونيل الفرنسي، أن هذا الجنرال واع «بأن الإسلام هو عدونا»<sup>27</sup>.

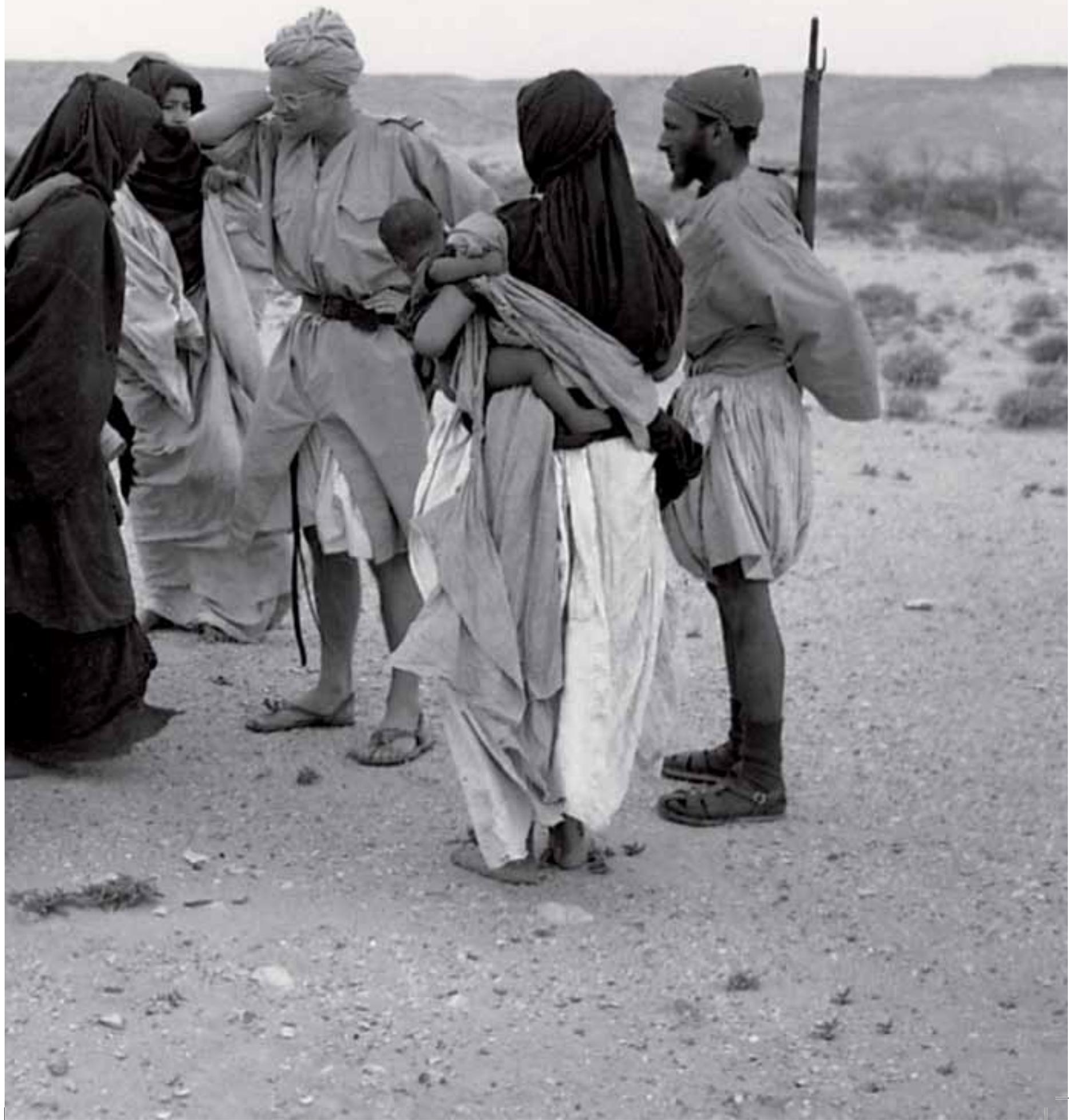
### الانسحاب بعد الهزيمة

يعود فشل جيش التحرير في هذه العملية أولا إلى طبيعة الهجوم الفرنسي الإسباني، إضافة إلى أن جيش التحرير لم يكن جيشا نظاميا. لقد كان يخوض حرب عصابات استنزافية للعدو ولم يكن مهيكلا ومنظما ومسلحا لدرجة الوقوف في وجه قوتين استعماريتين جندتا كل ترسانتهما العسكرية للقضاء عليه. أضف إلى هذه العوامل كون جيش التحرير عرف صراعا داخليا كاد أن يعصف به، شهورا معدودة قبل عملية إيكوفيون.

رغم كل هذه الظروف المتعلقة بالتفوق العسكري للقوى الاستعمارية، ورغم الانقسامات التي عرفها جيش التحرير وضعف العتاد والتنظيم والعدد، فإن أفراد جيش التحرير تصدوا للهجوم وسقط منهم قتلى وجرحى وكبدوا بدورهم العدو خسائر. وقد قاومت جبهة الغرب (وادي الذهب) ولما لم تستطع الصمود انسحب مقاتلوها نحو الساقية الحمراء ليعززوا صفوف رفاقهم. ولما وصلت القوة الفرنسية قرب روضة سيدي أحمد العروسي واجهت مقاومة شرسة وسقط في صفوفها عدة قتلى وجرحى، كما توضح ذلك أرشيفات صور الفرنسيين. وعقب عجزهم عن مقاومة زحف الآلة العسكرية الاستعمارية، نزع المقاومون نحو الشمال إلى طانطان وكلميم على أمل تلقي الدعم، ومن بقي منهم في الساقية الحمراء ووادي الذهب ظلوا يتحركون بالمنطقة ومنهم من دفن سلاحه في انتظار الفرصة السانحة، كما عبر عن ذلك تقرير الفرنسيين بتاريخ 11 أبريل 1958<sup>28</sup>.



نساء وأطفال في العراء جراء  
الهجمة الاستعمارية الشرسة  
(فبراير 1958)



ضابط فرنسي يحقق مع نساء عزل  
(فبراير 1958)

كان انسحاب قوات جيش التحرير نحو الشمال على مرحلتين : المرحلة الأولى إلى رأس الخنفرة والثانية إلى أبطيح وطانطان. واستقرت المقاطعة الثامنة (التي كان مقرها بروضة سيدي أحمد لعروسي قرب السمارة) بطانطان والمقاطعة التاسعة بعيون إغمان والمسيد وتافنديلت بوادي درعة. دون أن نغفل أن مجموعات سلمت سلاحها للفرنسيين بشمال موريتانيا وتندوف وأخرى لإسبانيا .

تدخلت القوات المسلحة الملكية المتواجدة في الجنوب من أجل مساندة بعض عناصر جيش التحرير والمدنيين الفارين من منطقة المعارك. وفي نفس الآن تواصلت على المستوى الرسمي المفاوضات بين المغرب وإسبانيا لاسترجاع منطقة الحماية الإسبانية بالجنوب، وانتهت بتوقيع اتفاقية سنترا (Cintra) أبريل 1958 بين المغرب وإسبانيا والتي بموجبها انسحب الإسبان مما كان يعتبر منطقة الحماية الجنوبية أي من مصب وادي درعة حتى جنوب طرفاية (طاح حاليا). هذا الإقليم كان عمليا محررا من طرف قوات جيش التحرير، إذ إنه تحت ضغط العمليات سحبت كل القوات من جنوب وادي درعة وطانطان واقتصر الوجود الإسباني بمدينة طرفاية على التبرص داخل الثكنات. وفي 10 أبريل 1958 اجتازت القوات المسلحة الملكية وادي درعة في اتجاه طرفاية. وأعطيت لها الأوامر بعدم تجاوز خط 27° 14 كما تم الاتفاق مع الإسبان، أي الحدود التي رسمت في اتفاقية 1912 حينما تم سن منطقة للحماية في الجنوب ومستعمرة إسبانية في الساقية الحمراء ووادي الذهب. أحكمت القوات المسلحة الملكية قبضتها على هذا المجال وتقلص نشاط جيش التحرير على الحدود مع المستعمرة الإسبانية، وانسحبت جل القوات غير النظامية إلى الشمال بأمر من قيادات جيش التحرير واستقرت في مراكز تافنديلت وعيون درعة وأسا.

أما قيادة جيش التحرير بكلميم، فحاولت بإمكانيات متواضعة تنظيم المساعدات للمقاتلين، من المقاطعة التاسعة والثامنة، الذين وصلوا ناجين من العملية مع آلاف المدنيين النازحين. تركزت القوات المتبقية على طول وادي درعة غربا وقسمت المقاطعات إلى ثلاث على أمل إعادة تنظيمها ومعاودة الهجمات على الإسبان، وكان الجيش في حاجة ماسة للأسلحة. وأرسلت القيادة، بعد عملية إيكوفيون، وفدا إلى الملك لطلب السلاح. أما الوفد الذي بعثته قيادة المقاومة لشراء السلاح من أوروبا، فإنه لم ينجح في إيصال الشحنة التي اشتراها إلى المغرب<sup>29</sup>.

بعد وصول الجيش الملكي إلى طرفاية، أصبح تواجد قواته بتاريخ 17 أبريل 1958 كالتالي : قوات في طرفاية تحت قيادة الكومندان أوفقيير وأخرى في طنطان بقيادة الكومندان إدريس بن عمر. أما الإسبان فقد سحبوا جنودهم نحو الجنوب واحتلت قواتهم مواقع الشمال الغربي للساقية الحمراء بالدورة والحكونية، بينما ظل الشرق مفتوحا لحركة بعض الجماعات من المقاومة. وتجدر الإشارة إلى أن العديد من مقاتلي جيش التحرير بالصحراء سيتوجهون إلى جبهة آيت باعمران شمالا ويشاركون في معاركها الطاحنة ضد الإسبان .

وفي 24 مارس 1960 بأيتم ملول اثنادير، وبحضور ولي العهد والقائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية، مولاي الحسن، حل جيش التحرير بالصحراء رسميا واندمجت بعض أطره في مختلف وحدات الجيش الملكي. قبل ذلك وبتاريخ 1 - 6 - 1959 نقل عدد كبير من الصحراويين أعضاء جيش التحرير، إلى الثكنات العسكرية بمدينة الحاجب .

طائرات فرنسية مشاركة في  
عملية إيكوفيون بعين ام كرين  
Fort-Trinquet، (ب.ت.)

## استنتاج

يوجد هناك شبه إجماع على أن عملية إيكوفيون هي التي أوقفت مسلسل تحرير الصحراء في هذه الفترة التاريخية، ولكننا من جهتنا لا نرجح هذا الطرح، ففي تاريخ حركات التحرر لم تكن أبدا الهزيمة في معركة، مهما بلغت خسائرها، هي العامل الحاسم في توقيف عجلة الكفاح المسلح، فحرب التحرير حرب قد يطول أمدها أو يقصر حسب الإرادة السياسية وتصميم حاملي المشروع التحرري. لم تكن إيكوفيون هي المعركة التي وضعت نهاية لمهمة جيش التحرير وأوقفت بالتالي مسيرة الكفاح المسلح ضد المستعمر في الصحراء، بالفعل كانت القوى الاستعمارية متفوقة في العتاد ومصممة على الحفاظ على مستعمراتها بالصحراء ومصالحها في موريتانيا، ولكن لم تكن إيكوفيون إلا معركة، والهزيمة في معركة لا يعني خسران الحرب. كان بإمكان الجيش إعادة ترتيب أوراقه واستعادة المبادرة، خاصة أن المقاتلين المنسحبين كانوا لا يزالون متحمسين لمواصلة حمل السلاح والعودة إلى ساحة المعركة، لو كانت توفرت الشروط ولم ينزع منهم السلاح ويقحم بهم في صراعات جانبية، ومن بقي منهم في مناطق الصحراء تحت الاستعمار الإسباني لم يسلم بالأمر الواقع وظل يتحرك في الميدان في انتظار اندلاع المعارك من جديد كما يبين ذلك التقرير الفرنسي بتاريخ أبريل 1958 أي أقل من شهرين من نهاية إيكوفيون. والاستطلاعات العسكرية الفرنسية والإسبانية التي تواصلت في منطقتي وادي الذهب والساقية الحمراء، تدل على أن القوى الاستعمارية ظلت متخوفة من عودة المقاتلين.

من الخطأ اعتبار إيكوفيون هي سبب نهاية جيش التحرير. إن فشل مشروع تحرير الصحراء ونهاية جيش التحرير يكمن في عوامل أخرى لا تشكل عملية إيكوفيون إلا أحد أسبابها الثانوية. ومن أجل فهم شامل لقضية الصحراء وأزمة جيش التحرير في الجنوب وتفكيكه، فإنه لا بد من العودة إلى السياق التاريخي لنشأته في شمال المغرب نفسه وظروف حله والرهانات التي تلت هذا الحدث. فما وقع في الجنوب من فشل في مشروع التحرير يجد جذوره في تداعيات مسار جيش التحرير في الشمال والصراع بعد ذلك على السلطة الذي كانت قيادة المقاومة وجيش التحرير طرفا رئيسيا فيه إلى جانب القصر وشخصيات سياسية وأحزاب.

إن عدم تحرير الصحراء في هذه الحقبة التاريخية يعود إلى عدة أسباب وتتحمل فيها المسؤولية عدة أطراف، أبرزها الرهانات والحسابات التي كانت وراء تأسيس جيش التحرير بالجنوب والتي كانت تحكمها منذ البدء أهداف بعيدة أحيانا عن الشعار المرفوع في تحرير البلد. لم تكن الصحراء إلا ورقة من بين الأوراق التي تلعبها وتوظفها هذه الأطراف قصد التمويع والتفاوض وإثبات الذات في المواجهة المفتوحة التي كان أهم أطرافها القصر والأحزاب المنحدرة من تجربة الحركة الوطنية، وعلى رأسها تيار المقاومة المنتمي ليسار حزب الاستقلال قبل أن يتأسس الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.



## هوامش

22 - Document publié par Chaffart, G., op., cit., t. 2, annexe n° 2, p. 290.

23 - *Le Monde*, 13 mai 1958, cité par Chaffart, G., op., cit., t. 2, pp. 283.

24 - SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 3, sous-dossier 2, Ordre d'opération pour la reconnaissance en Saguiet El Hamra du 4 au 11 juin 1958, Fort-Trinquet, le 13 juin 1958.

25 - SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 3, sous-dossier 2, Ordre d'opération pour la reconnaissance en Saguiet El Hamra du 4 au 11 juin 1958, Fort-Trinquet, le 13 juin 1958.

26 - SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 3, sous dossier 2, Fiche à l'attention du colonel commandant militaire de la Mauritanie, Fort-Trinquet, le 17 octobre 1958.

27 - SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 3, sous dossier 2, À l'attention du Général Gardet, commandant supérieur des forces armées à la zone de défense AOF-TOGO, Fort-Trinquet, le 03 septembre 1958.

28 - « Malgré ces différents facteurs jouant en notre faveur la volonté de préserver de l'AL ne fait aucun doute, Fort Trinquet signalait il y a quelques jours que des éléments légers opéraient de nouveau dans la Seguiet, l'un au gué de Sidi Ahmed Laroussi l'autre dans la région de Raudet El Hacha. Au Rio de Oro des hommes de la bande M'hemed Ould Zeyou auraient enterré des armes dans les Smamit n'attendant que l'instant favorable pour les tourner de nouveau contre nous. » SHAT, 5H, 165, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Note d'information sur la situation en Mauritanie fin mars 1958, le 11 avril 1958.

29 - ابن سعيد آيت يدر، م.، صفحات من ملحمة جيش التحرير بالجنوب المغربي، تقديم عبد الله إبراهيم، الدار البيضاء: المنشورات المواطنة، 2001، 185-186.

ressant le territoire de la Mauritanie, St-Louis, le 5 juin 1957.

13 - SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Synthèse mensuelle de renseignements : période du 25 juin au 26 juillet, Atar 26 juillet 1957.

14 - SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Synthèse mensuelle de renseignements : période du 25 juillet au 25 août, Atar 27 août 1957.

15 - SHAT, 5H, 167 Journal des marches et opérations du 8 au 25 février 1958, Dakar le 20 mars 1958, le C<sup>el</sup> Grall Edmond, Cdt le 7<sup>o</sup> Régiment de Premier Colonies et Crpt opérationnel.

16 - Chaffart, G., *Les carnets secrets de la décolonisation*, Calmann-Lévy, Paris, 1965, p. 101.

17 - وذلك لأن جيش التحرير بالجنوب ضايق بقوة مواقع الفرنسيين بالمغرب في ناحية أفا كما اختطف ضابطين : مورو وبيران.

18 - يعتبر تحالف فرانكو مع النازية والفاشية نقطة سوداء في تاريخه، وحوصر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية من طرف ما يسمى العالم الحر. وكانت فرنسا أكثر الدول الأوروبية حساسية لهذا الموضوع نظرا لما تعرضت له من احتلال من طرف القوات النازية والثمن الغالي الذي دفعه شعبها جراء هذا الاحتلال.

19 - SHAT, 5H, 165, Ordre particulier d'opération, Commandement supérieur des forces armées de la zone de défense AOF - TOGO État-major opérationnel, n° 1011 EMO, Consignes particulières concernant la conduite à tenir à l'égard des populations nomade, Fort-Trinquet, le 5 janvier 1958.

20 - نخص بالذكر الجنرال كلود ليورن (Claude Le Borgne) الذي كان حينها مترجما وأشرف على استنطاق الساكنة.

21 - SHAT, 5H, 165, Carton VIII, Dossier 2, sous-dossier 1, Note d'information sur la situation en Mauritanie fin mars 1958, le 11 avril 1958.

1 - FERRE, J. *Au désert interdit*, André Bonne, Paris, 1953, p. 43.

2 - SHAT, 5H, 167, Carton III, Dossier 8, sous-dossier 1, Compte rendu, Tindouf, 24 octobre 1956.

3 - SHAT, SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Note d'information, Évolution du problème mauritanien, jusqu'à la fin de janvier 1957, le 11 février 1957.

4 - SHAT, SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Note d'information, Évolution du problème Mauritanien, jusqu'à la fin de janvier 1957, le 11 février 1957.

5 - SHAT, SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Évolution de la situation en Mauritanie du 14 au 21 février 1957, Dakar, le 23 février 1957.

6 - SHAT, SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous-dossier 1, Évolution du problème mauritanien au cours du mois de février 1957, Paris, 26 Mars, 1957.

7 - SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Synthèse mensuelle de renseignements : de mai à novembre, Atar 23 novembre 1957.

8 - عقب ما يسمى ب «مؤامرة بويكارن» سنة 1957، تم إبعاد جل الجنود المنحدرين من منطقة الخميسات.

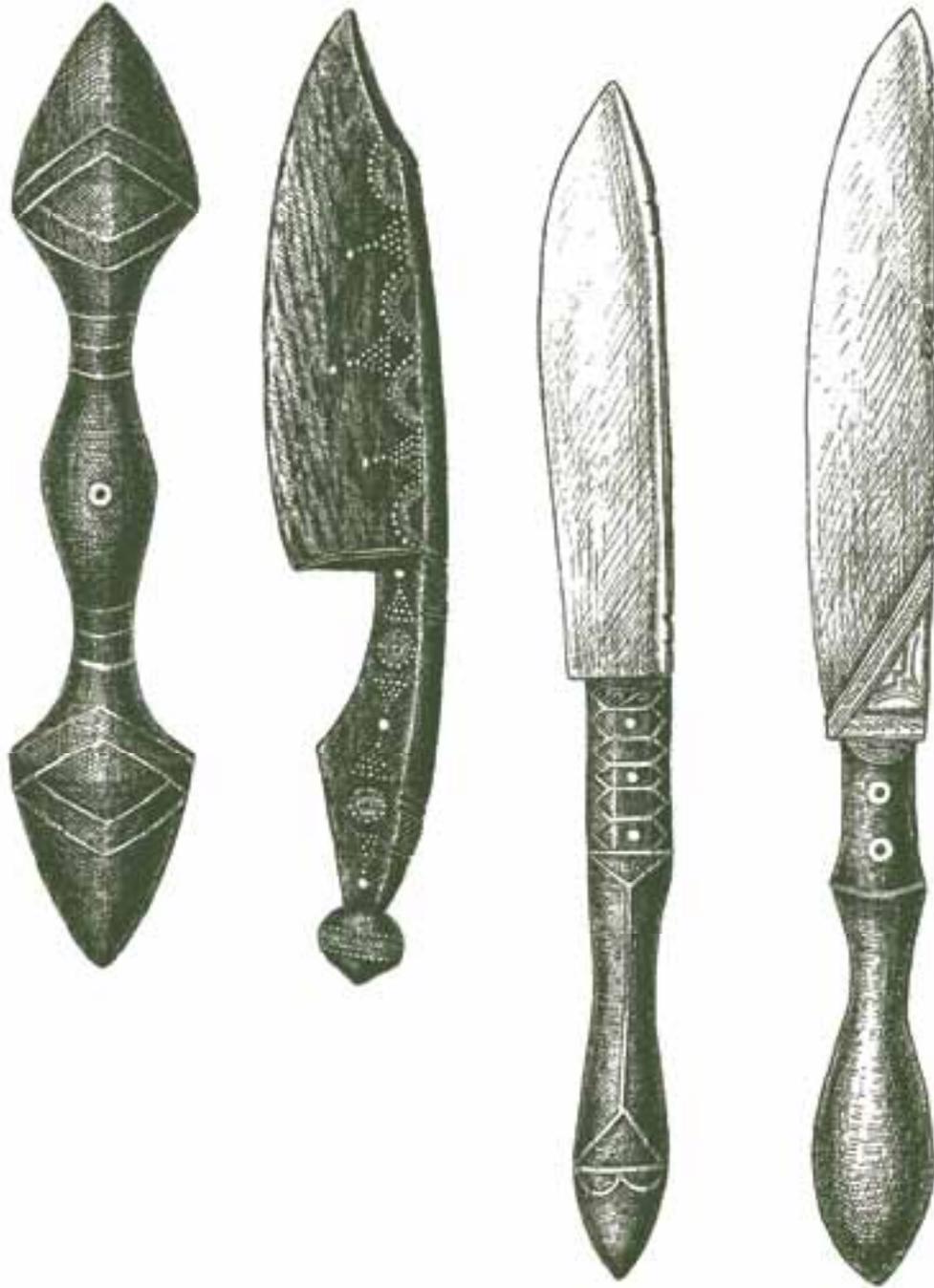
9 - SHAT, SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Note d'information, Évolution du problème mauritanien, jusqu'à la fin de janvier 1957, le 11 février 1957.

10 - SHAT, SHAT, 5H, 167, Carton VIII, Dossier 2, sous dossier 1, Évolution du problème mauritanien au cours du mois de février 1957, Paris, 26 Mars, 1957.

11 - 3H2219

Le lieutenant de Rochefort, chef de poste el-ayoune de Dra, le 24 février 1948.

12 - SHAT, 5H, 165, Carton VI, Dossier 1, sous dossier 7, Synthèse trimestrielle inté-





# الخريطة الأولى للصحراء بالقياسات

خوسي أنطونيو رودريغيث استيبان

أدى الاحتلال العسكري لما يسمى بالصحراء الإسبانية، بعد الحرب الأهلية الإسبانية في سنة 1939 وبعد القيمة الجديدة التي أصبحت تحظى بها أفريقيا الغربية خلال الحرب العالمية الثانية، إلى قيام السلطات العسكرية الإسبانية بوضع خطط مختلفة لاحتلال الأراضي، حيث شرعت في إنجاز الخريطة العلمية في سنة 1943 ليتم إنهاؤها في سنة 1949. وقد تم إعداد هذه الخريطة الأولى بمقياس 1/500.000 من دون استخدام الرحلات الجوية التصويرية نتيجة الحصار المفروض من قبل الحلفاء على ديكتاتورية الجنرال فرانكو، الأمر الذي كلف سبع سنوات من العمل المضني سافر خلالها المساحون الجيوديزيون (géodésiques) والطوبوغرافيون مشيا على الأقدام في كل الاتجاهات في الصحراء.

ومكنت هذه الرحلات من الكشف عن تراث أثري غني ستم فهرسته من قبل خبراء آخرين في سنوات لاحقة. لكن الخريطة كانت مفيدة أيضا لجمع 3000 إسم (أسماء المواقع الجغرافية)، والتي سترجم إلى اللغة الإسبانية بعد تحديد مواقعها ومقارنة كيفية نطقها مع زعماء القبائل والمرشدين. ويعتبر هذا العمل تقدما نوعيا في معرفة الإقليم، تلتته دراسات لعلماء النباتات والجيولوجيا أدت الى وضع خطط جديدة لاحتلال الأراضي.

لكن مساهمة هذه الخريطة<sup>1</sup>، يجب إدراجها في سياق الوجود الإسباني في الصحراء والمنجزات التي حققتها فوق هذه الأراضي. لقد تركت المواقع العسكرية وبناء البنية التحتية للاتصالات والتخطيط الحضري واستغلال الموارد بصمة مستديمة نوعا ما. وبتحليلها في سياق تطورها، فإن هذه البصمة تساعد على توضيح مختلف المراحل التي تجسد عبرها الاستعمار الإسباني.

## المرحلة الأولى من الاحتلال 1884-1940

إن العمليات التي قامت بها إسبانيا في إقليم الصحراء منذ أولى المستوطنات الساحلية في سنة 1880، كانت بدافع بعض الإكراهات التي تفاوتت أهميتها باختلاف الظروف. هذه الإكراهات تمثلت في: الدفاع عن جزر الكناري وأنشطة الصيد التي تمارس هناك، ثم، وعلاقة بذلك، القلق من وجود قوى أخرى في المنطقة والعلاقات مع فرنسا، والتي عرفت تحولات في مراحل مختلفة، واحتمالات استغلال الموارد الطبيعية، وأخيرا السيطرة على الأراضي في مواجهة ضغوط المطالبة بالاستقلال سواء داخل أو خارج حدودها. باختصار، كانت هذه الإكراهات ذات طبيعة عسكرية واقتصادية كذلك، وإذا حللنا وزنها النسبي في كل فترة من فترات تواجد إسبانيا بالمنطقة، سنجد أنها تشكل المحور الذي يساعد على فهم جميع الإجراءات المتخذة من الأشغال بالميناء إلى مخططات التهيئة الحضرية.

قاد الدفاع عن جزر الكناري، والكميات المصطادة في المجال الكبير الممتد بين الجزر والساحل الإفريقي، إسبانيا إلى استعمار أرض يسكنها البدو الرحل ولكنها تخلو من المراكز السكانية (باستثناء الزاوية التي أسسها ماء العينين في مدينة السمارة سنة 1898). الطبيعة الاستثنائية، من منظور تاريخي، لاحتلال منطقة صحراوية مناخيا وجغرافيا، لا تتوفر على الواحات، يفسر لماذا اقتصر الوجود الإسباني، حصريا ولأكثر من 50 سنة، أي أكثر من نصف فترة احتلال المنطقة، على مؤسسة عسكرية وصيد الأسماك في شبه جزيرة وادي الذهب (Río de Oro). في سنة 1900، تمكنت فرنسا من الحد من ادعاءات إسبانيا المطالبة بتمديد الحدود إلى تيشيت (كما هو مبين في خريطة فرانسيكو كويلو (Francisco Coello) لسنة 1886 بعد الاتفاقات المبرمة مع قبائل أدرار التمر خلال حملة سيريرا-كيروغا-ريزو (Cervera-Quiroga-Rizzo) الأمر الذي ألغى، بالتالي، إمكانية الوصول إلى طرق القوافل التجارية وواحات أدرار، ذلك لأن المصلحة الوحيدة المتبقية لإسبانيا، التي ضعفت بسبب فقدانها لمستعمراتها التاريخية سنة 1898، هي البقاء في المنطقة الساحلية أمام جزر الكناري.

غير أن وجود هذا الشريط الساحلي الخاضع للسيطرة الإسبانية سيؤدي إلى عواقب غير متوقعة بالنسبة لفرنسا، ذلك أن عدم احتلال هذه الأراضي سيفضي إلى تحولها إلى ملاذ للمقاومة المنحدرة من القبائل البدوية. فالضغط الفرنسي، إذن، هو الذي دفع إسبانيا للقيام بالمزيد من العمليات بالإقليم: القيام أولا، في سنة 1920، ببناء مناطق لهبوط الطائرات وحظائر لها، لإنجاز مخططات البريد والاتصالات بين فرنسا والسينغال والاستجابة للتوقفات اللازمة للطائرات الموجودة آنذاك<sup>2</sup>. إن استيلاء مجموعات الرحل المسلحين على الطائرات المعطلة خلال رحلاتها دفع إلى إحداث نظام للمراقبة ومراكز عسكرية، أحدها بالعيون، ومنطقة للموارد الطبيعية على الطريق المؤدي إلى الداخلة (فيلا سيسنيروس، Villa Cisneros)، ومطار رأس جوبي (الذي احتلته إسبانيا سنة 1916) وإفني (المحتلة سنة 1934)، التي ستصبح بفعل موقعها الاستراتيجي وبفعل تواجد المياه العاصمة المقبلة<sup>3</sup>.

حملت الحرب الأهلية، في سنة 1939، الطبقة العسكرية إلى الحكم، مما شيشكل، بالنسبة للأراضي المعنية، تحولا كبيرا، لأنه لم يعد الأمر مقتصر على الدفاع، بل تعدى ذلك إلى إمكانية استعمال كل إمكانيات الدولة لتحقيق احتلال فعال. إن طموحات إسبانيا للمشاركة في الحرب العالمية الثانية إلى جانب ألمانيا، أيقظت رغبتها، بعد انهزام فرنسا سنة 1941، في إدارة الأقاليم الفرنسية بإفريقيا الغربية؛ وعلى الرغم من أن هذا الاحتمال لم يتحقق، إلا أنه ساهم في جعل القيمة الاستراتيجية للمنطقة تتجاوز مجرد الدفاع عن جزر الكناري.

### المرحلة الثانية من الاحتلال 1940-1964

وهكذا تم إنشاء شبكة مراقبة عسكرية للأراضي أدت إلى مرحلة ثانية من الاحتلال. وستبدأ هذه المرحلة بالدراسة العلمية للأراضي وفقا للخطة التي وضعها الجيولوجي إدواردو هرنانديز باتشيكو (Eduardo Hernandez-Pacheco) في سنة 1941. وقد أظهرت هذه الدراسات وجود موارد مختلفة قابلة للاستغلال وعلى الخصوص المنطقة الشاسعة من الفوسفات التي تم اكتشافها من قبل أليا مدينا (Alia Medina) ؛ ففي سنة 1947، ستشرع شركة الدولة أدارو (ADARO) في الإجراءات الأولية لاستغلال الفوسفات المحتمل. هذه الانتظارات أثارت تدريجيا ضرورة التخطيط لاحتلال الأراضي ابتداء بوضع تصميم خرائطي سينتهي إلى أول خريطة على أساس حقيقي مع ذكر أسماء الأماكن، كما ذكرت ذلك في البداية.



صورة جوية لطانطان من الأرشييف الاسباني 1958

وقد أدت كل هذه الانتظارات إلى وضع مخطط تهيئة مدينة العيون بتاريخ 1950<sup>4</sup> الذي تمت صياغته منذ أواخر 1940. وقد تكون فيلا سيسنيروس (الداخلة)، أول مستوطنة إسبانية في الصحراء، حالة مماثلة، ب 125 بناية أوائل 1950 وضع لها مشروع عمراني سنة 1953<sup>5</sup>. ويبدو من المهم وضع هذه المخططات في السياق العام لإسبانيا، وبوجه خاص في سياق التخطيط العمراني المعمول به في تلك الحقبة وهو، على الرغم من بساطته، يستحق الذكر. ويتعين أن نضع في اعتبارنا أنه في 1940، لم يتم إضفاء الطابع المؤسسي على التعمير بإسبانيا لا من الناحية الإدارية ولا القانونية<sup>6</sup>. في هذا السياق، وبصرف النظر عن بعض المدن الكبرى مثل مدريد وبلباو وفالنسيا، وحدها مراكز بعض الأقاليم خضعت للتخطيط. يضاف إلى هذا عدد كبير من المدن الأفريقية، بما في ذلك سبتة ومليلية وتطوان والعرائش والقصر الكبير<sup>7</sup>. أخيرا، وخلال فترة الاكتفاء الذاتي، يجب التفكير أيضا في أهمية الهندسة المعمارية المتعلقة بترميم بلد بعد الحرب الأهلية ترميما ماديا، بل رمزيا أيضا، «يسعى لاستعادة الجوهر التقليدي»<sup>8</sup>. غير أن العيون حالة خاصة اعتبارا أولا، لأن كل المدن الأفريقية (بصرف النظر عن سبتة ومليلية) التي خضعت للتخطيط في سنة 1940، كانت أكثر أهمية - وذات تقاليد حضرية ووزن ديموغرافي - من قرية صغيرة يسكنها قرابة 100 نسمة من الأوروبيين. ثم، هي أيضا حالة خاصة من وجهة نظر رمزية، لأن معظم المباني الرمزية (الكنايس بالعيون و«فيلا سيسنيروس»، الداخلة) أصبحت مجالا لعمل المهندسين المعماريين المرتبطين بنظام فرانكو، كما هو الحال بالنسبة لدييغو منديز (Diego Méndez)، المعروف بأعماله المرتبطة بالتراث الوطني وبشكل أكثر تحديدا حول «وادي الشهداء» (El Valle de los Caídos).

وبالتالي، يمكن القول بأنه، مباشرة بعد الحرب الأهلية، تجسد الدور الجديد الذي أولاه نظام فرانكو للمستعمرات الإفريقية، مقابل سياسته في تأكيد الوطنية، في الإقليم: بناء مدينة قادرة على تأمين دور إداري، بل أساسا دور رمزي باعتبارها مركزا لإقليم سيتم إنشاؤه في سنة 1957 وذلك لإخفاء الطابع الاستعماري بالصحراء في وقت تحققت فيه أولى الاستقلالات بإفريقيا. في الواقع، مباشرة بعد نهاية الحرب الأهلية الإسبانية، تم تحقيق زيادة طفيفة في مشاريع البناء في الصحراء سواء بمدينة العيون أو فيلا سيسنيروس (الداخلة) بشكل أقل. هذه المشاريع ليس لها طابع عملي فقط (كخزانات المياه، والمستودعات، والأشغال بالميناء)، بل لها أيضا طابع رمزي، وبطبيعة الحال، طابع السيطرة السياسية والعسكرية والثقافية (مبان لمندوبي الحكومة ومبان رسمية وكنايس ...)

«عندما ذهبت إلى العيون في سنة 1952، يقول كارو باروخا (Caro Baroja)، لم يكن هناك سوى عدد قليل من المباني العسكرية وأزقة تحيط بالسوق، الذي يتألف من ساحة مع منازل صغيرة ذات قبب»<sup>9</sup>. في بداية هذا العقد، كان بالعيون، وفقا للدليل الإحصائي السنوي لإسبانيا لسنة 1953 (Anuario Estadístico de España)، ما مجموعه 251 بناية، منها 188 وحدة سكنية و43 مخصصة للنشاط الاقتصادي، والباقي مخصص لاستخدامات أخرى يحتل فيها المجال العسكري أهمية كبرى.

### المرحلة الثالثة للاحتلال 1964-1975

لم يحدث الإقلاع الترابي الثالث إلا في وقت لاحق (الشكل 1)، مع تداخل واقعتين أساسيتين: من جهة، بداية التنقيب عن النفط، بعد الإعلان عن قانون الهيدروكربورات في سنة 1958، حيث تم جذب عدد كبير من الشركات الأجنبية، ومن جهة أخرى، الحاجة إلى استمالة سكان الصحراء لتفادي تشكيل جماعات مسلحة نتيجة استقلال المغرب أولا سنة 1956، وبعد ذلك موريتانيا سنة 1960.

المرحلة الأولى من الاحتلال 1884 - 1940

فيلا سيسنيروس (الداخلة)

الموانئ، مناطق هبوط وحظائر للطائرات

شبكة المراقبة العسكرية

المرحلة الثانية من الاحتلال 1940 - 1964

1940-1955 : الدراسة العلمية للأراضي

1950. 1953 و 1960 : مشاريع التهيئة العمرانية لفيلا سيسنيروس (الداخلة) والعيون

1960 : العقيد فيليرز (Colonel Villiers) وضرورة استقرار الركيبات

النشاط النفطي

تجديد المعهد الوطني للإسكان

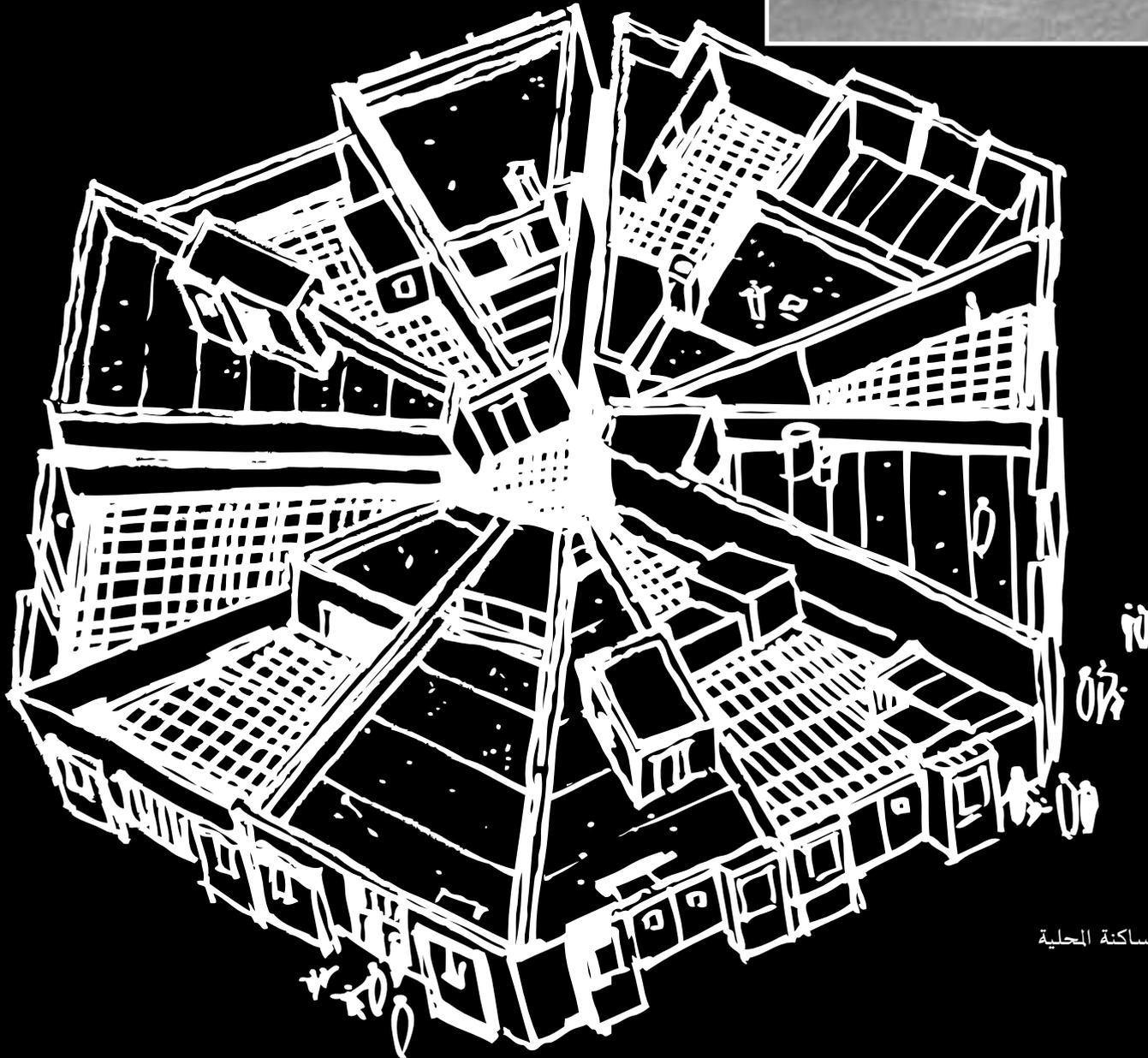
المرحلة الثالثة للاحتلال 1964 - 1975

استغلال الفوسفات : تحول أكثر راديكالية لمناطق الإقليم، الرفية منها والحضرية

طرفاية في ثلاثينيات القرن الماضي، (ب.ت).



الصورة 2 : باربو لا باز، فتات  
مختلفة من المباني. (ب.ت.)



الشكل 3 : تصميم سكن للسكانة المحلية

في ديسمبر 1958 تم نقل العاصمة رسمياً من فيلا سيسنيروس (الداخلية) إلى العيون، وإصدار المرسوم الذي ينظم ملكية الأراضي. ومع صدور القانون الوطني للبحث واستغلال حقول النفط، أصبحت الصحراء تمثل المنطقة الثالثة ضمن المناطق الثلاث التي أنشئت في جميع أنحاء إسبانيا، تحت إدارة المديرية العامة للمناطق والأقاليم الأفريقية، التي كان لها مكتب بمدينة العيون. وسيتم تقطيع هذه المنطقة إلى 108 جزءاً سيخصص 52 منها لشركات أجنبية أو في إطار شراكة حيث سيتم استثمار مبالغ مالية كبيرة في وقت قصير جداً، مما تسبب في تغييرات كبيرة في المنطقة، خصوصاً في العيون، التي تزايد نشاط البناء بها، ولكن أيضاً في أماكن أخرى. وقد أوضح خوسيه ماريافاليريدي، المتخصص في البيئة، أن الوقت المخصص للصيد من طرف هذه الشركات كان السبب المباشر لانقراض غزال المهور.

توقف النشاط النفطي بسرعة، بعد العثور على مؤشرات ذات أهمية ضعيفة وكذا بمناسبة اكتشاف حقول نفطية كبيرة في أماكن أخرى من العالم (كندا) حيث رحلت الشركات مواردها نحو هذه الأماكن، ولكن اليد العاملة المطلوبة خلال هذه الفترة وكذا سياسة الاستقرار المذكورة سابقاً أفضيا إلى مباشرة إجراءات ضرورية جديدة بالإقليم، خصوصاً بالعيون، حيث سينطلق تصميم جديد للتهيئة العمرانية وذلك بمساعدة المعهد الوطني للإسكان الذي أحدث في تلك الحقبة (1957) بعد الإقلاع الاقتصادي لمخططات التنمية.

في هذا السياق، وفي سنة 1961، وسعت الحكومة نظام المساكن ذات الإيجار المنخفض ليشمل الأقاليم الإسبانية بإفريقيا. في السنة الموالية، قام وزير الجيش ووزير الإسكان بزيارة للمنطقة، وتم تفعيل نتائج الدراسة المفصلة للمساكن التي كانت هناك حاجة إليها مع إضافة تقرير لحكومات الأقاليم. كما وضع أيضاً تصميم للسكن وذلك بالسماح، بموجب مرسوم، للمعهد الوطني للإسكان بتفعيل خطة البناء التي سيتولى تنفيذها مباشرة. طبقاً للطموحات الرامية لجذب السكان الأصليين، تم تحديد العدد، والطبقة الاجتماعية والوسائل الاقتصادية للأشخاص الذين تمنح لهم هذه المساكن باعتبار التوصيات المحلية لتفادي «الجمع» بل «تخصيص» المباني الجديدة (المعهد الوطني للإسكان 1962)، مع الأخذ في الاعتبار أيضاً، الخصائص السيكولوجية للمحتلين المرتقبين وخصائص الصحراء الساحلية مثل التكاثر والأكسدة السريعة للعناصر المعدنية أو التقلصات الناتجة عن التغيرات المفاجئة في درجة الحرارة وذلك لتحقيق «الانسجام بين الإنسان والتربة والمناخ والسكن» (المرجع نفسه). وبالتالي سيتم إحداث فريقين تحت إشراف رامون إستاييلا (Ramón Estaella) الذي يشغل أيضاً منصب مفتش وزارة الإسكان في هذه الأقاليم، واحد منها بقيادة المهندس المعماري خوسيه سيرانو سنيور بولو<sup>10</sup> (José Serrano-Suñer Polo). وقد مولت الأشغال الحضرية والمباني الملحقه بها من ميزانية المعهد الوطني للإسكان.

على الرغم من أن تصاميم المعهد الوطني للإسكان قد وصلت إلى فيلا سيسنيروس (الداخلية)، حيث عمليات البناء تتم داخل الجدران، فإن عمليات البناء في العيون تتم في اتجاه شرق-غرب، حيث كان السعي إلى قدر من الاستقلال بالتركيز على عدد صغير من الأصناف (بهدف صنع مسبق للعناصر المعمارية) ثم التوليف بينها، من أجل تجنب الرتابة (الصورة 2). أما المساكن الخاصة بالسكان الأصليين (ونقصد بها مساكن بين الخيمة والسكن الأوروبي) فلها شكل سداسي خاص. وفي كل كتلة، يتم تجميع 12 خيمة حول فناء مركزي يسمح للسكان الأصليين أن يبقى مع حيواناته، من دون ترك قطيعه (الشكل 3).

لقد تم توقيف النشاط المتعلق بالفوسفات، في سنة 1954، نتيجة تقارير أدارو (Adaro) حول جدوى الاستغلال بالنظر إلى النسبة المئوية للخام والصعوبات التي تواجه استغلاله في الصحراء في هذه الحقبة، إلا أن رغبة الحكومة الإسبانية في الحفاظ على الصحراء تحت سيطرتها، متجاهلة النداءات الصادرة عن الأمم المتحدة، دفعت رئيسة الحكومة وبلانكو كاريرو (Carrero Blanco)، بصفته المسؤول عن السياسة الإقليمية للمنطقة، سنة

1960 إلى إرسال لجنة لإعادة تنشيط استغلال الفوسفات بفضل التطورات التقنية الجديدة. ولذلك تم خلق كيان جديد، ENMINSA، الذي سيحالفه النجاح، إذ تم العثور سنة 1964 على مساحة واسعة غنية بالفوسفات وقابلة للاستغلال<sup>11</sup>.

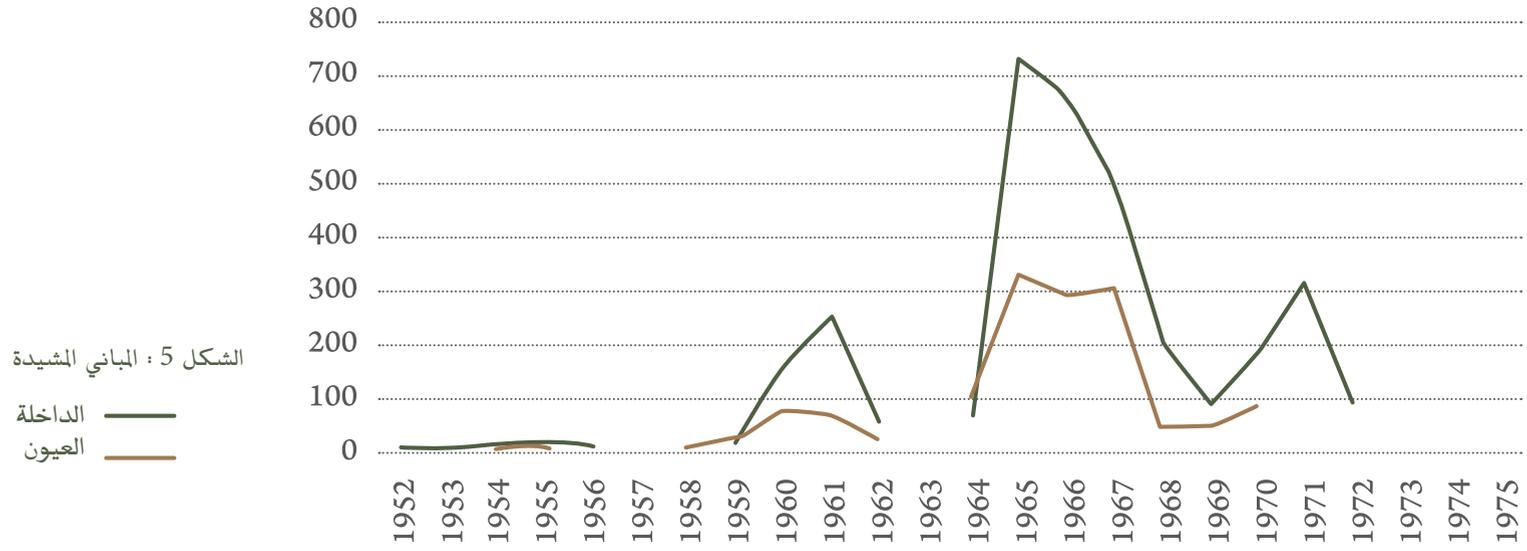
هكذا تبدأ ما يمكن أن نطلق عليه الفترة الثالثة للتنمية الإقليمية المرتبطة بالخطط الجديدة لاستغلال الفوسفات والتي ستحدد، بدون شك، تحولا جذريا بالمنطقة في المجال الريفي كما الحضري، موازاة مع مسلسل التنمية العام الذي عرفته إسبانيا خلال هذه الفترة. ويمكن التأكيد على الإجراءات المهمة الناجمة عن استخراج الفوسفات: إنشاء ناقل، لأكثر من 100 كلم، يمتد من أماكن الاستخراج (بوكراع) إلى منطقة الشحن، ثم إنشاء مرافق الميناء التي تسمح بدخول السفن الكبيرة في منطقة غير ملائمة، مما أعطى للمشروع أبعادا جديدة بالنسبة لهذه الأماكن<sup>12</sup>، وأخيرا، تقوية الاتصالات الأرضية والجوية المطلوبة، وخصوصا من وجهة النظر العسكرية<sup>13</sup>.

ومكنت عمليات السبر المنجزة خلال التنقيب عن النفط من اكتشاف عدة طبقات للمياه الجوفية سمحت بتطوير التجارب الزراعية من جهة فيلا سيسنيروس (الداخلية)، تجارب تينكير والعرثوب مثلا. كما تم أيضا حفر آبار جديدة. وعلاوة على ذلك، مكن إدخال الآلات الفلاحية وتكوين المزارعين من استغلال المساحات الخضراء الصغيرة في شمال الصحراء «لكرار» (الصورة 4). وشهدت المراكز الحضرية منذ أواخر 1960 حتى خروج إسبانيا سنة 1975، زيادة استثنائية، من خلال فرض أنشطة حضرية جديدة تعكس استيطان نسبة كبيرة من السكان. وقد رافق كل ذلك وضع أنظمة جديدة للاتصال: الهاتف<sup>14</sup> والراديو والتلفزيون (أول بث في الصحراء في سنة 1966)، والتي نجحت، في نهاية المطاف، في إدخال أفكار جديدة للسكان الأصليين، على الرغم من الرقابة. كما يمكن أن يرى في الرسم البياني (الشكل 5)، فإن البناء تزايد بشكل ملموس ابتداء من منتصف سنوات 1960، بحيث أن المدينة الرمزية، الموجهة في الأساس لتمثل المدينة الكبرى في المستعمرة، بدأت تتحول إلى مدينة ذات وظيفة اقتصادية بالنظر إلى تكثيف استغلال الفوسفات بمنجم بوكراع. ومن الواضح أن الأمر لا يمكن أن يكون خلاف ذلك، لكون النمو الفعلي للمدينة انعكاسا للنمو السكاني؛ ومع ذلك، ينبغي أن يكون هذا الأمر موضوع بحث أكثر تعمقا باعتبار أن البيانات المقدمة من طرف الحكومة العامة في غرب أفريقيا، والتي حصرتها دلائل الإحصاء الإسبانية، تعاني من نقص واضح.

عدم دقة البيانات مرده إلى أمرين: أولا عدم الكفاءة بل الإهمال في مجال الإحصاء، لكن خاصة، ولعل هذا هو الأهم، مشاكل إحصاء أولئك الذين تسميهم عمليات الإحصاء بـ «الطبيين»، أولئك الذين باعتبار هياكلهم الأسرية أو نمط عيشهم لا تشملهم المعايير الإحصائية لشبه الجزيرة (سكان بالفعل و / أو سكان بحكم القانون).

### بعض الاعتبارات

ولكن بصرف النظر عن حجم مسلسل الاستيطان، يبدو واضحا أن عملية التمدن هي عملية للسيطرة والتمازج الثقافي<sup>15</sup>. والنتيجة هي أن المجتمع بدأ يفقد تدريجيا طابع الترحال، ليتحول السكان إلى أجزاء تابعين، يعيشون في مدينة لديها كل خصائص التمييز الإثني أو الثقافي النمطي في المدن الاستعمارية. وقد أشار ج. كارو باروخا إلى ذلك بوضوح في مقالته لسنة 1976 تحت عنوان «وداعا للبدو الرحل بالصحراء». مع فارق أساسي بالمقارنة مع المدن الأخرى بشمال أفريقيا والصحراء، باعتبار أن العيون ذات تصميم جديد كليا يجمع بين تقطيع مميز للتعيم العقلاني لهذه الفترة، مع منطقة رمزية (مندوبية للحكومة وكنيسة)، ومنطقة صحية وأخرى صناعية، ولكن مع منطقتين سكنيتين منفصلتين تماما: الأوروبية والعربية.



وقد تم تقسيم المنطقة المخصصة للسكان العرب، بدورها، وفقا لحجم الاستيطان، إلى مناطق مخصصة للخيام أو مساكن مؤقتة وبسيطة منعدمة الجودة، لكن احتفظ بها حتى أيامنا هذه مع تشكيل أحياء ذات جذب ثقافي وتاريخي، إلى جانب ما يسمى بـ«كولوميناس» (Colominas)، ومقسمة بدورها وفقا لدرجة التعاون مع المدينة الكبرى (مجموعات البدو الرحل والضباط ومستخدمو بوكراع، الخ.). وباختصار، فالنتيجة لم تشكل فقط قطعة مع أشكال احتلال الأراضي وكذا الهيكل الاقتصادي، ولكن أيضا، وبفعل التحضر نفسه تم خلق تكتلات سوسيوثقافية جديدة تجاوزت الأشكال التقليدية للتنظيم الداخلي للمجتمع الصحراوي. وعليه، فإن الغرض من هذه الورقة هو الذهاب أبعد من تفسير تطور هذه المدن، من خلال إثارة أسئلة ومحاولة وضع فرضيات، يمكن التحقق منها في المستقبل، حول الدور الذي لعبه التمدن في السيطرة على المستعمرة، وبالتالي، على سكانها الأصليين.

نقطة انطلاق هذه الفرضيات هي حتما العلاقة المعقدة التي تأسست بين المستعمرين الذين يخططون لوضع أشكال السيطرة على الأراضي وتنظيمها واستغلالها بمنطق الاستيطان في مواجهة السكان الأصليين الرحل، الذين، في لحظة معينة، يستسلمون للاستقرار باعتباره مظهرا من مظاهر التقدم، ولكن كشكل واضح للسيطرة والثقافة. في الواقع، إن كلمة مسلسل التحضر أو التمدن يجب فهمها على أنها تعني جميع الوقائع التي تؤدي إلى التحول إلى المدينة، وهذا يعني، بناء أو توسيع المدن من حيث المساحة، وزيادة العدد المطلق أو النسبة المئوية لسكانها، وكذا التحول الثقافي والتنظيم الاجتماعي والهيكل الاقتصادي اللازمة للمجموعات الاجتماعية التي تصبح حضرية.



الصورة 4 : إدخال جرار لمزارع لكراكة بطرفاية.

## هوامش

- 6 - القانون الأول للتراب الإسباني لسنة 1956.
- 7 - Teran, F., *Planeamiento urbano en la España contemporánea*, Alianza Universidad Textos, Madrid, 1982, p. 631.
- 8 - تيران، ف: المصدر الآنف الذكر.
- 9 - Caro Baroja, J., *Estudios saharianos*, editorial Calamar (primera edición de 1955), Madrid, 2008.
- 10 - نجل الرئيس السابق لحزب الكتائب الإسبانية ووزير الشؤون الخارجية في الحكومات الأولى لفرانكو.
- 11 - Ríos, J.M., *¡¡Sahara!! ¡¡Sahara!! : la aventura de los fosfatos, un episodio inédito. Memorias personales de un Ingeniero de Mina*, Fundación Gómez Pardo, 1989.
- 12 - في سنة 1960 كانت هناك موانئ أخرى على رصيف صغير بجانب صخرة لكؤيرة واثين من الأرصفة البحرية الصغيرة في خليج فيلا سيسنيروس. في سنة 1965، تم بناء منارة جديدة على رأس بوجدور.
- 13 - في سنة 1972، كانت هناك ثلاثة أنواع من الطرق: الطرق المعبدة ( عرضها 7 م ورصيف مزدوج): العيون، كاييزادو بلايا: 24.5 كم - فيلا سيسنيروس - اتسمو 40 كم - لكؤيرة - ميناء اتيان: 2 كم، وممرات معبدة بين 6 و3.5 م: العيون والسامرة والهوسا ولسيد والدشيرة والدورة والطاح رأس بوجدور والتكتة (الحدود)، أي ما مجموعه 6500 كلم، وأخيرا ممرات بالتراب تربط بين المواقع الخلفية للبلد، حيث تم تعبيد أسوأ الأجزاء. في كل هذه الطرق تم تثبيت إشارات مرورية، والعلامات، وحدود، وصفائح مميزة. (شبكة المسارات حول الصحراء مصلحة الخدمة العمومية للحكومة العامة بالصحراء 1972. ومولينا غوميز، الدراسات العامة للصحراء، 1974)
- 14 - تم إحداث المصلحة العامة للهواتف والكابلات وتحديد الأسعار بمرسوم سنة 1966.
- 1 - Rodríguez, E., J. A. (2011): « La Carte de l'Afrique Occidentale Espagnole de 1949 à échelle 1:500.000: orgueil militaire, méharés et jeux poétiques du peuple saharai », *Cybergeo*, 2011, en ligne: <http://cybergeo.revues.org/23461>
- 2 - من جانبها، أحدثت الخطوط البريدية الجوية الإسبانية، في سنة 1934، خطا جويا دائما يربط إشبيلية بجزر الكناري مع توقف في ألدوير ورأس جوبي (Cap Juby). ففي سنة 1939 أحدثت شركة إيبيريا الربط بين إشبيلية وجزر الكناري، مع توقف في إفتي ورأس جوبي وكذا الربط بين لاس بالماس والعيون. في سنة 1959، سيتم إحداث شركة Spantax، والتي سيكون لها تأثير كبير على حركة النقل الجوي في الصحراء.
- 3 - Meana, J. M., « El Aaiún de los pioneros: un poblado de los años 40 », *Biblio 3W Revista Bibliográfica de Geografía y Ciencias Sociales*, Universidad de Barcelona, 2006, Vol. XI, n° 627, 15 de enero, en ligne: <http://www.ub.es/geocrit/b3w-627.htm>
- 4 - *Planos Generales de Urbanización del Aiún* (sic) [Plans généraux d'urbanisation de Laâyoune], Dirección General de Marruecos y Colonias, Servicio de Arquitectura. Il est composé de 4 plans et date de 1950. Archivo General de la Administración de Alcalá de Henares.
- 5 - *Proyecto de Urbanización de Villa Cisneros* [Projet d'aménagement urbain de Villa Cisneros], Presidencia del Gobierno, Dirección General de Marruecos y Colonias, Servicio de Arquitectura. Archivo General de la Administración de Alcalá de Henares.

## قائمة المراجع

AA. VV. *Red de pistas del Sahara*, Servicio de Obras Públicas del Gobierno General de Sáhara, 1972.

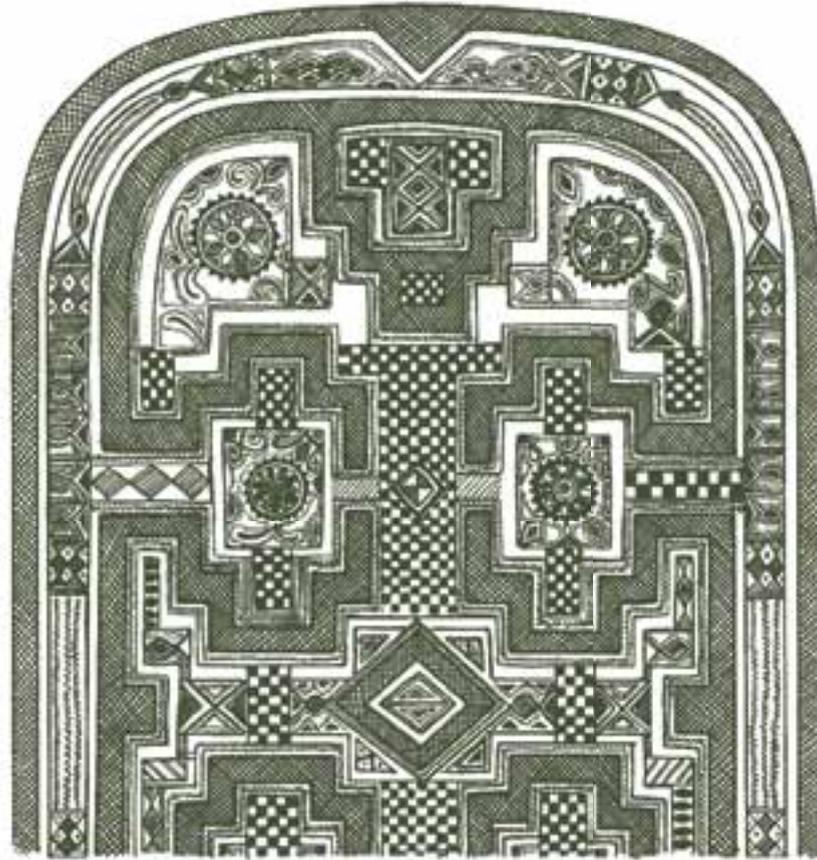
Caro Baroja, J., *Estudios saharianos*, editorial Calamar (primera edición de 1955), Madrid, 2008.

Munilla Gomez, E., *Estudio general del Sáhara*, prólogo de Fernando de Santiago, , IDEA, CSIC, El Aaiún – Madrid, 1974.

Ríos, J.M., *¡¡Sahara!! ¡¡Sahara!!: la aventura de los fosfatos, un episodio inédito. Memorias personales de un Ingeniero de Mina*, Fundación Gómez Pardo, 1989.

Rodriguez Esteban, J. A., « La Carte de l'Afrique occidentale Espagnole de 1949 à échelle 1:500.000: orgueil militaire, méharés et jeux poétiques du peuple saharai », *Cybergeo*, en ligne: <http://cybergeo.revues.org/23461> ,2011.

Teran, F., *Planeamiento urbano en la España contemporánea*, Alianza Universidad Textos, Madrid, 1982, 631 p.





# فضية الصحراء بين التاريخ والذاكرة

أنخيل هيرنانديث مورينو

«إن ما يسمى الآن بالذاكرة ليس من الذاكرة في شيء، بل يشكل جزءاً من التاريخ (...) والحاجة إلى الذاكرة هي بالأحرى حاجة إلى التاريخ، (...) وبدون شك، لا يمكن أن نستغني عن تلك الكلمة. فلنتقبلها، لكن واعين بالفرق الواضح بين الذاكرة الحقيقية، التي تتحصن اليوم بين البادرة والعادة (...) والذاكرة المتحولة بسبب تحولها إلى تاريخ (...)» ب. نورا. (P. Nora).

إننا إذ نوجد اليوم هنا، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى المجلس الوطني لحقوق الإنسان، والذي طبقاً لتوصيات هيئة الإنصاف والمصالحة حول التاريخ والذاكرة، كما هو مبين في البرنامج، قام بتنظيم هذه الندوة بغية تحديد الخطوط العريضة للبحث وتحليلها، مع تحليل علم التاريخ القائم تحليلاً نقدياً، وتقديم مناهج جديدة تمكننا من دراسة الإشكاليات الجديدة للمنطقة.

وكما نعلم جميعاً، فقد أنشئت هيئة الإنصاف والمصالحة سنة 2004 بموجب ظهير ملكي. ومن بين مهامها الرئيسية إثبات الوقائع التي تشكل انتهاكاً جسيماً لحقوق الإنسان والتحرري بشأنها؛ وتحديد المسؤوليات وإصدار التقارير، ولا سيما الإسهام في تنمية ثقافة الحوار على أساس احترام حقوق الإنسان. وقد وضعت هذه المؤسسة أربعة محاور للعمل:

الكشف عن الحقيقة.

جبر الضرر وإعادة التأهيل.

إعداد مقترحات وتوصيات لتفادي تكرار الممارسات السابقة.

المصالحة.

وباعتباري مؤرخة، فإنه بدا لي من المهم أن أعرض بإيجاز بعض التأملات في تاريخ وذاكرة الصحراء الغربية وأن أقدم مقترحات البحث التي تدرج في المحور الأول للعمل: الكشف عن الحقيقة.

يحمل موضوع هذه الندوة في طياته وظيفة اجتماعية وسياسية. ويشكل إسترجاع أو إعادة بناء التراث الصحراوي قضية أساسية تهتم المجتمع الصحراوي برمته في المقام الأول، والمواطن المغربي كجزء من تاريخه، ولكن في الوقت نفسه يعد خدمة «للقضية الوطنية». إن البحث عن «أماكن الذاكرة»، والأرشيفات، والمكتبات، والنصب التذكارية، والمتاحف، يغذي الذاكرة التي تبحث عن تقديس الذكريات من أجل إعادة خلق تاريخ-ذاكرة يحدد الحاضر ويبرره .

ولكنني أتساءل حول ما إذا بحثنا عن الحقيقة باعتبارنا مؤرخين، فهل نحن حقاً مستعدون لهذه المهمة؟ أم إننا نريد أن نكون متواطئين في التلاعب بالتاريخ؟

### الذاكرة والتاريخ

في الوقت الحاضر يتم الحديث كثيرا، وربما بشكل مبالغ فيه، عن الذاكرة والذاكرة التاريخية وتاريخ الزمن الراهن، والتاريخ الشفهي، وغيرها. وفي الواقع، فالذاكرة والتاريخ، على الرغم من أنهما متكاملان في بعض الأحيان، فإنهما مفهومان مختلفان تماما. إن الذاكرة لهي الحياة في تطورها المستمر، تتأثر بالذكريات وبالنسيان وهي عرضة لجميع أنواع التلاعب. وعلى عكس ذلك، فإن التاريخ هو إعادة بناء ما لم يعد له وجود. وفي حين أن الذاكرة تتغذى بالذكريات، فإن التاريخ يحتاج إلى النقد والتحليل. وثمة علاقة وطيدة بين الذاكرة والتجربة المعاشة أو بينها وبين الذكريات التي تنقلها العائلة، أو المؤسسات، أو الدولة. ويعمل التاريخ على تحليل الوقائع والأسباب والنتائج المترتبة عنهما. بحيث إنه يبحث بشكل عام في القضايا المغلقة وحتى أيضا بقدر من المسافة الزمنية، بينما الذاكرة هي مجرد ذكريات وأيضاً، ولم لا، النسيان. وبما أن التاريخ هو إعادة بناء الماضي فيجب أن يدافع عن الفحص والتدقيق التاريخي ودون أن يغفل الإشارة إلى البيئات. بعبارة أخرى، على حد تعبير هابسوام، التدقيق في الوقائع وفحصها وتدمير الأساطير السياسية.

### الصحراء والذاكرة التاريخية

يفرق هالبواكس (Halbwachs) بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الجماعية. وقد تعني الذاكرة التاريخية المكتوبة والمكتسبة بينما الذاكرة الجماعية تعني الذاكرة المعاشة والشفهية والمُنتجة. فالأولى تشير إلى مدة زمنية طويلة في حين أن الثانية تنتمي إلى الحاضر والوقت الآني. إنها تمثل تقاسمه مجموعة أنشئ انطلاقاً من قصة تلتقي فيها العناصر الاجتماعية والثقافية، أو التاريخية كلها والتي تخول للفرد أن يحدد موضعه وبالتالي الاعتراف بذاته.

طائرات داسو الفرنسية المشاركة في عملية إيكوفيون وهي تتزود بالوقود (فبراير 1958)







لقاء لأعيان من الصحراء مع فرانكو  
بمدريد 1968

لقد عانى المجتمع الصحراوي قبل 38 سنة اضطرابات سياسية رهيبية أدت إلى انشطاره . وقد ارتبطت الذاكرة الحديثة القريبة في الصحراء بمسلسل تمزق اجتماعي ناجم عن فعل إنهاء الاستعمار والمواجهات بين جماعات تنتمي إلى المجتمع نفسه. وتجدر الإشارة، علاوة على ذلك، إلى أن الذاكرة التاريخية في الصحراء لم تعتمد على الذاكرة الشعبية أو الجماعية، بل على القصص التي ينشرها المؤرخون الإخباريون والصحفيون والسلطات السياسية، والمؤرخون، والتي أسفرت عن بناء صورتين تحملان هويتين مختلفتين، وبالتالي ذاكرتين تاريخيتين جماعيتين تهدفان إلى خدمة الحاضر<sup>1</sup>. وتمثل هاتان الصورتان الماضي داخل مجتمع يدافع عن صيغ مختلفة للهويات. وفي هذا الصدد، يقول جورج أورويل (Georges Orwell) إنه من بين مميزات الذاكرة التاريخية أنها مرتبطة بالذاكرة التي تم التلاعب بها. ويؤكد هذا الكاتب أنه «من يسيطر على الماضي يسيطر على الحاضر. ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على المستقبل». وفي هذا الإطار يشدد لوغوف (Le Goff)<sup>2</sup> في كتابه «نظام الذاكرة» على أهمية السيطرة على الذاكرة من قبل الطبقات الحاكمة. وفي هذا السياق يمكننا أن نتساءل عن كيف يمكن أن نتطرق إلى المشاكل التي يطرحها هذا التلاعب، ومن هم الذين يكتبون التاريخ، ولماذا يريدون التلاعب، وحتى عما يجب القيام به إزاء هذا الوضع .

وثمة اتجاهان في علم التاريخ في تاريخ الصحراء الغربية أنتجا صورتين مختلفتين تماما، استعملا للغاية كوسيلة دائمة وداعم منهجي لإعادة بناء الخطاب التاريخي.

ويستند الخطاب الرسمي للدولة المغربية فيما يتعلق بالصحراء الغربية على الشعور بالانتماء إلى نفس السيرورة التاريخية<sup>3</sup>. وقد تمكن حزب الاستقلال من الترويج بفعالية لفكرته عن الأمة التي صادق عليها الملك ونفذت من خلال سياسته الخارجية القائمة على النضال من أجل الوحدة الترابية. وقد تحملت الملكية في عهد الاستقلال والأحزاب السياسية الأخرى ووسائل الإعلام مسؤولية هذه المطالب، مؤكدة أن الشعب المغربي سيكون على استعداد للتضحية اللازمة من أجل استعادة الأقاليم السليبية<sup>4</sup>. وقد تكونت لدى المغاربة صورة مفادها أن هذه الأقاليم هي ملك لهم وهي جزء من الأقاليم التي فرقها الاستعمار. وتشكل هذه الصورة نقطة تلاقي الخطاب الرسمي والشعبي. وكان تدبير الرأي العام غاية في الإتقان، وتم مباشرة من طرف الملك وقد سمح فيه للأحزاب السياسية ووسائل الإعلام بحرية التعبير عن أفكارهم والتعليق على حالة المفاوضات المتعلقة بالمطالب الترابية التي رفعت منذ بدء الاستقلال إلى الأمم المتحدة. ودعت مجلة «لام ألف» (Lamalif)، غير الموالية للمخزن، إلى الحس الجماعي والواقعية السياسية عند رسم معالم سياسة خارجية خالية من أحلام العظمة. وليس فقط مجلة «لام ألف» ولكن أيضا وسائل الإعلام الأخرى والأحزاب السياسية التي لم تكف عن الإشارة منذ الاستقلال حتى سنة 1976، إلى أن المهام الرئيسية للحكومة كانت، بالدرجة الأولى، استرجاع الأقاليم التي هي جغرافيا وتاريخيا وإنسانيا مغربية، وكذا الديمقراطية والتصنيع والتظاهر ضد بلقنة الأقاليم المغربية والتي من شأنها أن تؤدي إلى الاستقلال وتقرير المصير. وفي الذاكرة التاريخية المغربية، تشكل الصحراء جزءا لا يتجزأ من أقاليمها منذ عهد المرابطين ومنذ أن أسهم تكوين وتوطيد السلالات الملكية في تفريق المغرب الأقصى عن الإمبراطورية العثمانية من جهة، والإمبراطوريات الإفريقية من جهة أخرى. وظلت السيطرة على الصحراء حاضرة في سياسة سلاطين الإمبراطورية، وحيث إنها واقعة في ضواحي هذه الأخيرة، بقيت السيطرة على القوافل ومداخل التجارة الصحراوية موردا اقتصاديا لا يمكن الاستغناء عنه من أجل دعم السلطة الملكية.



وكانت السلالتان السعدية والعلوية المرجع الأساس في تشكيل الدولة الحديثة بإضفاء الشرعية على سلطتها الترابية بالمشاركة والدفاع عن هذه الدولة بالنضال ضد الغزاة المسيحيين، الإسبان والبرتغال، وهي الفترة التي يمكن أن نحصرها بين القرن السادس عشر والتاسع عشر. ومع حلول القرن التاسع عشر بدأت في المغرب العربي مرحلة تاريخية أخرى. ففي 1830 وبعد الاستيلاء على العاصمة الجزائر، استقر الشعور بالعجز والضعف وعدم القدرة على حماية الذات في أوساط الساكنة. فإنشاء إدارة استعمارية جديدة فرنسية-إسبانية اقتسمت الأقاليم أحس به الشعب المغربي وعاشه كبت وبدأ بسماع عبارات من قبيل صحراءنا والصحراء المغربية أو الصحراء المغربية المغتصبة. وهذا الإسم الرسمي الجديد يتناقض مع التسمية والشعور التقليدي. إذ إنه في مغرب ما قبل الاستعمار كان السكان يسمون وفقاً لانتمائهم العرقي وفي بعض الأحيان الإقليمي. وما كان سائداً هو فكرة رعايا السلطان الذين يحسون بفضل البيعة أنهم ينتمون إلى نفس المجموعة السياسية.

ومن جهة أخرى ولّد علم التاريخ الاستعماري صورة لم تكن تعكس الأمة المغربية، وهو ما أدى إلى تأمل تاريخي وإلى خطاب رسمي بغية دعم إدراج الصحراء الغربية كجزء من أقاليمها الوطنية. فعلى سبيل المثال، من بين مرجعيات علم التاريخ الوطني المغربي نجد فشل المقاومة المناهضة للاستعمار، المحتمية في الصحراء، مرجعية استخدمت للتعبير عن وجود وعي تاريخي مشترك يحارب ضد الغزاة. وهو خطاب تاريخي تم بناؤه بهدف إعطاء الدولة الفتية ذاكرة تاريخية مشتركة وهوية وطنية.

وثمة خطاب تاريخي آخر، وهو وريث الصورة التي شكلها الاستعمار الإسباني، والذي يعتبر الأقاليم الصحراوية منطقة جغرافية طبيعية لها تاريخ وحضارة مختلفة عن التاريخ والحضارة المغربيين. ويرجع أصل هذا النوع من الخطاب إلى الفكر الإسباني الأفريقي للقرن التاسع عشر، والذي استوحى منه الجنود الاستعماريون الإسبان، وأيضاً إلى تقارير المستكشفين الذين أكدوا بعد هذه الأقاليم واستقلال هذه المناطق عن السلطان، وتمكنوا من توقيع المعاهدات مع زعماء قبائل تلك المناطق، التي كان يسمح فيها بالاستيطان والنشاط التجاري. وفي النقاشات البرلمانية حول مدى تعايش الاستعمار في وادي الذهب أم لا، وفي التقارير التي قدمتها الشركات الجغرافية وغرف التجارة الإسبانية، فضلاً عن الأعمال التي نشرت في إسبانيا أواخر القرن التاسع عشر، تم التمسك بفكرة استقلال هذا الإقليم، على الرغم من عدم القيام بأعمال ملموسة ومباشرة دون علم السلطان، وهو ما قد يؤدي إلى عدة تأويلات متباينة. بحيث إنه يمكن اعتبار إمكانية قبول الساسة والحكومات الإسبانية سيادة السلطان في هذه الأقاليم البعيدة جغرافياً عن المخزن من جهة، أو، من جهة أخرى، لم يكن من المهم معارضة ولا حتى إزعاج حكومة جلالته الشريفة بهذه المسائل التافهة في وقت كان تحديد موقع سانتا كروت دي مار بيكينا (Santa Cruz de Mar Pequeña)، هو الرهان. وعلى أية حال، وطيلة القرن العشرين كانت تتبلور فكرة أن وادي الذهب كان إقليمياً مستقلاً تماماً عن السلطان، وهو ما يتوافق مع المصالح التجارية والبحرية لرجال الأعمال الإسبان. وفي عام 1885، صدر مرسوم ملكي يقر بأن الإقليم المسمى وادي الذهب، والذي يوجد بين رأس بوجدور والرأس الأبيض، أصبح تحت الحماية الإسبانية. وكان وضع هذه الحدود ممكناً لأنه تم الاعتراف بالمعاهدات الموقعة مع القبائل المجاورة. وستكون نتيجة المعاهدات اللاحقة مع فرنسا والتقسيم الإقليمي بين الدولتين هي رسم حدود جديدة، وبالتالي، ستكون الأقاليم الجديدة هي قاعدة إنشاء الإقليم القومي الصحراوي.





الصورة أعلاه : عناصر من الجيش الإسباني  
في نقط تفتيش لمواطنين (العيون 1975)

على اليمين : استعمال خرطوم المياه ضد  
متظاهرين بالعيون من طرف الإسبان (1975)



وبهذه العناصر وبالحمج العرقية مثل الفولكلور، والحرف اليدوية، والأدب والملابس، وغيرها، أو الحمج الجغرافية التي تشكل فيها الصحراء العنصر الأساس الذي يحدد الصحراء الغربية باعتبارها وحدة جغرافية طبيعية ومختلفة، حاولوا إثبات وجود شعب مستقل ذي تاريخ خاص يروي كموضوع معارض، لجيرانهم، تاريخ معزول عن محيطه الذي ألغى منه كل نوع من الروابط التاريخية، عن طريق تقديم شخصيات تاريخية، مثل سيدي أحمد الركيبي، أو شخصيات حديثة، مثل الشيخ ماء العينين، باعتبارها شخصيات مؤسسة للأمة الجديدة<sup>5</sup>. إنه خطاب تاريخي تم من خلاله اختيار وعزل مؤسسات وأحداث ومراحل خاصة بالكرونولوجيا الأوروبية بهدف إضفاء الشرعية على مشروع سياسي مغاير للمشروع الوطني المغربي، يخدم الدفاع عن الحق في إعلان الدولة. وكانت النتيجة هي خلق هوية جديدة<sup>6</sup>، هوية صحراوية حولت هوية البيضان الثقافية القديمة التي كانت تتغذى عليها، وبما أنها كانت موضع تلاعب الخطاب الاستعماري، فقد تم استغلالها أولاً من قبل الاستعمار، وفيما بعد استغلتها أطراف أخرى<sup>7</sup>.

يسارا : الجيش الاسباني ينسحب من العيون  
(نهاية 1975)

الصورة أسفله : معتقل فويرتي فنتورا fuerteventura  
بجزر الكناري حيث سجنّت السلطات الاسبانية مقاومة  
جيش التحرير (1958)







اجتماع أعضاء «الجماعة» بالعيون  
(فبراير 1976) لتأكيد عودة الصحراء  
للوطن الأم ونهاية الاستعمار الإسباني

وبهذه الطريقة، تم بناء ذاكرتين تاريخيتين، واحدة دولتية، موحدة ومدمجة، وأخرى قومية واستقلالية وشعبوية. وكلاهما تستعملان الأساطير والموارد اللازمة لتحويل الماضي إلى واقع ثابت وعدم قبول إمكانية التغيير. وعلى الرغم من كونهما خطابين تاريخيين متضادين، فإنهما يمتلكان خصائص مشتركة:

التاريخ المستعمل كقوة تعبوية. فمن المهم للغاية التأكيد على أهمية الجانب العاطفي، باعتباره يدعم علامات الهوية المنبثقة عن هذه الخطابات التي تسمح بمشاركة العنصر الشعبي في التاريخ الذي يتحول، بهذا الشكل، إلى عامل تعبوي<sup>8</sup>.

التاريخ المستعمل كعنصر مطلبى؛ فيتم الإعلان عن التاريخ كشيء خاص بنا، وليس للآخرين. مشاركة المؤرخ أو غيره من الخبراء في إعداد هذه الخطابات التي تعيد إنتاج بنيت الحكم.

### حالة البحث

لقد أحدث هذان الخطبان التاريخيان، سواء في إسبانيا أو في المغرب، اتجاهين تاريخيين متعلقين أكثر بالدفاع عن هدف سياسي بدل البحث عن فحص وتدقيق المعطيات أو مقارنتها. كلاهما أنشأ عددا كبيرا من النصوص<sup>9</sup>. وفيما يتعلق بعلم التاريخ الإسباني، فإن نشأته ارتبطت بخدمة المصالح الاستعمارية، إذ لعب القنصلية دورا مهما لفائدة الدولة الإسبانية باعتبارهم مخبرين عن الأوضاع التي تشهدها البلاد، وعملاء ناشطين في المهام الموكلة لهم وكذا ناقلين للعادات والتقاليد وأنماط الحياة، في كثير من الأحيان انطلاقا من الجهل وبعد المرور من مصفاة المفاهيم والحجج الخاصة بالليبرالية السياسية الغربية التي استعملت لتبرير الاستعمار والحق في البقاء المستمر، وكذلك، لخلق مرجع الخطاب التاريخي الاستعماري. ففي الأربعينيات والخمسينيات، مع احتلال واستعمار إقليم الصحراء، ساعدت النصوص المنشورة التي كانت ثمرة البعثات العلمية على معرفة عوامل جغرافية وجيولوجية وديموغرافية. بحيث إن الإنتاج التاريخي للحقبة الموالية، فور إعلان المنطقة محافظة إسبانية، مختلف تماما عن المنشورات السابقة من حيث محتوى النصوص، والتي كانت من نوع إداري ومعيارى تشرح طريقة عمل المحافظة الإسبانية الجديدة. وحتى عام 1976، كان معظم هذه المنشورات من إعداد جنود وموظفين، على الرغم من تدخل مثقفين طلبت الدولة مساعدتهم. وفيما بعد، وبغية تبيان وجود أمة مستقلة وكذا تبيان مطالبات المغرب غير العادلة نُشرت عدة نصوص تم الإلحاح فيها على تقديم هذا المجتمع كما لو كان مستقلا عن المغرب، بتاريخ وثقافة مشتركة، تسييره مؤسسات خاصة ومحلية، «أنشأتها القبائل المحاربة»، ولا علاقة لها بالمحيط، مع التأكيد على عدم وجود روابط تاريخية مع جيرانهم في المناطق الشمالية. لكن أخطر ما في الأمر هو أنها كانت مرجعا للنصوص اللاحقة التي لم تشكك في صحة الحجج ولا حتى دقت ومحصت المعلومات المقدمة.

وقد ظهر في العالم الأكاديمي، حاليا، اتجاه تاريخي جديد، أنتمي إليه أنا شخصيا، والذي يتجاوز حجة التأكد من الوقائع بالصرامة القائمة على مقارنة تحليل المصادر الوثائقية في الأرشيفات والأعمال الميدانية، في حالة الأنثروبولوجيا والجغرافيا. ويمثل هذا الاتجاه كتاب من قبيل ألبيرتو لوبيث برغادوس و خوسيه انطونيو رودريغيث استيبان وخيسوس ماريامارتنيث ميلان (Alberto Lopez Bargados, Jose Antonio Rodriguez, Esteban, Jesus Maria Martinez Millan)، وآخرون.



## مجالات جديدة للبحث

بعد تحليل هذين الخطابين التاريخيين، لا بد من القيام بمراجعة تاريخية؛ وهو عمل، بعيد عن البراءة، يستلزم تحليلاً نقدياً قادراً على التخلص من وزن الذاكرة ودور مُكوّن الوعي الوطني. إنه عمل تأريخي يبحث في إنتاجه وفي الإجراءات التي استعملها ليتشكل كذاكرة تاريخية. وفي هذا الصدد سأقترح مجالات للبحث، والتي من وجهة نظري يحتاجها المجتمع الصحراوي، وباعتباري مؤرخة أرى أنه لا بد من:

- مقارنة هذين الاتجاهين التاريخيين المتضادين والتحقق من الروايات التاريخية، وبالتالي تفكيك الخطابات التاريخية المتجاوزة وبهذه الطريقة استعادة دراسة التاريخ.
- إنقاذ التاريخ الشفهي القبلي وذلك بتحديد هوية الأساطير والقصص الأصلية.
- إعادة النظر في المناهج المستخدمة مع التخلي عن الأسلوب الغائي والاتفاق على منهجيات ومجالات بحث للعمل بشكل مشترك.
- التحقيق بشأن الذاكرة الحديثة من خلال قصص الحياة. وعند هذه النقطة الأخيرة يلتقي التاريخ والذاكرة، وعلى الرغم من كونها علاقة صعبة، فالذاكرة كما قلت سابقاً، هي ذكريات وتجارب، والتاريخ هو إعادة البناء انطلاقاً من بيانات تم التحقق من صحتها، يمكن أن تكون إضافة عند دراسة أو بحث تاريخ الزمن الحاضر.
- 38 سنة قد مرت، وهو وقت كاف للاشتغال بالذاكرة الجماعية الحاضرة، إذ إنه في قطاعات المجتمع الصحراوي لم يتم تجاوز القطيعة مع النظام الاستعماري السابق وتناججه. وعلى الرغم من أن هيئة الإنصاف والمصالحة قامت بمجهودات كبيرة في إقليم الصحراء، فإن الصراع مع الدولة والسلطة المركزية ظل حاضراً لدى فئة من السكان، على الرغم من المحاولات المبذولة للحفاظ على النظام، أو المصالحة، أو الإدماج. وثمة تفسيرات متباينة من المهم مقارنتها وكذا النتائج الحقيقية لوضعية السكان الصحراويين في الجانبين كليهما. إذ ليس النسيان الجماعي، في رأيي مفيداً. ويلعب الصمت والنسيان دوراً هاماً بكونهما يبقيان على تجارب تخلق وتعيد إنتاج خطاب تاريخي يكون مرآة الذاكرة المشتركة لجماعة ما؛ فالمجموعات تنظم ذاكرتها التي ليس من الضروري أن تكون وافية ومخلصة للتاريخ. إن الذاكرة الجماعية هي ليست إسهاماً تاريخياً، بل تأكيداً حقيقياً للمجموعة في مقابل الآخرين وهي مرتبطة ارتباطاً فعلياً بمصالح المجموعة، وهي بالتالي ذاكرة ذاتية. وهي على عكس التاريخ الذي يواجه الذكريات أو الأحداث من الخارج ويعاملها باعتبارها موضوع التحليل وليس باعتبارها تجارب مُعاشة. ويمكننا نحن المؤرخين، في هذه العملية، على الرغم من أنه ينبغي أن يكون عمل الجميع، أن نلعب دوراً مهماً في إعادة بناء التاريخ مسترجعين الشهادات، وفضلاً عن كون هذا العمل مورداً هاماً، فإنه يتيح لنا أن نأخذ مسافة ونأمل الوقائع. وفي هذه الحالة، فإن منهجية الاشتغال على الذاكرة يجب أن تكون خاضعة للشروط نفسها التي يخضع لها أي مصدر تاريخي آخر ألا وهي تحديد الهوية والمقارنة وتحديد السياق والتدقيق والموضوعية. يجب إعادة صياغة الذاكرة واختبارها، وبذلك يمكن أن تصبح بناء تاريخياً حقيقياً لا يمكن تعريفه أبداً بأنه «مثالي أو مطلق»، ولكنه يمكن أن يصحح الذاكرة ويفسر الماضي<sup>10</sup>.



صورة جوية للعيون 1971

## هوامش

- 1 - Hernandez Moreno, A., *Dos imágenes del Sáhara Occidental: particularismo regional o nación independiente*, En Actas del congreso Patrimonios Partilhados. Estudios sobre Africa e Ásia, Editados en DVD por la Universidad Fernando Pessoa. Oporto, 2003.
- 2 - Le Goff, J., *El orden de la memoria*, Paidós, Barcelona, 1991, Págs 240.
- 3 - Hernandez Moreno, A., *Guerra de Banderas*, Entimema, Madrid, 2006, Págs. 191.
- 4 - LAROUÏ, A. *Marruecos : Islam y nacionalismo*, Ed. Mapfre, Madrid, 1994, Págs. 232.
- 5 - Hernández Moreno, A., « La representación de lo saharauí en la bibliografía española (1975-2000) ». *Hesperis*, 2012.
- 6 - Hernández Moreno, A., *De Beidani a saharauí : Cambios de identidad en la población del Sáhara occidental*. En Actas del III Coloquio Internacional de estudios sobre África y Asia, Ed. Algazara, Málaga, 2001, Págs. 81-97.
- 7 - Hernández Moreno, A., *Guerra de Banderas*, Entimema, Madrid, 2006, Págs. 191.
- 8 - Hernández Moreno, A., *La construcción histórica del pasado nacional en La gestión de la memoria*, Crítica, Barcelona, 2000, 276 pags.
- 9 - Hernández Moreno, A., « El Sáhara, España y Marruecos. Una perspectiva bibliográfica de 30 años ». *En Historia y memoria de las relaciones hispanomarroquíes*, Ed. del oriente y del mediterráneo, Madrid, 2007, Págs. 308-329.
- 10 - Aróstegui, J. *La historia vivida*, Madrid, Alianza editorial, 2004, 445 pags.



## المصادر

Aróstegui, J., *La historia vivida*, Alianza editorial, Madrid, 2004, 445 págs.

Hernández Moreno, A., *De Beidani a saharauí: Cambios de identidad en la población del Sáhara occidental*. En Actas del III Coloquio Internacional de estudios sobre África y Asia. Ed. Algazara, Málaga, 2001, Págs. 81-97.

Hernández Moreno, A., *Dos imágenes del Sáhara Occidental: particularismo regional o nación independiente*, En Actas del congreso Patrimonios Partilhados, Estudios sobre Africa e Asia, Editados en DVD por la Universidad Fernando Pessoa, Oporto, 2003.

Hernández Moreno, A., *Guerra de Banderas*, Entimema, Madrid, 2006, Págs. 191.

Hernández Moreno, A., « El Sáhara, España y Marruecos. Una perspectiva bibliográfica de

30 años ». En *Historia y memoria de las relaciones hispanomarroquíes.*, Ed. del oriente y del mediterráneo, Madrid, 2007, Págs. 308-329.

Hernández Moreno, A., « La representación de lo saharauí en la bibliografía española (1975-2000) ». En *Hesperis* (en prensa), 2011.

Laroui, A., *Marruecos : Islam y nacionalismo*, Ed. Mapfre, Madrid, 1994, Págs. 232.

Le Goff, J., *El orden de la memoria*, Paidós, Barcelona, 1991, Págs. 240.

Manzano Moreno, E., *La construcción histórica del pasado nacional en La gestión de la memoria*, Crítica, Barcelona, 2000, 276 págs.

Nora, P., *Entre mémoire et Histoire*, Les lieux de mémoire, T. I, La république, Ed Gallimard, Paris, 1984.





# جريدة ABC واسترجاع الصحراء

يوسف أكدير

## نبذة عن المسار الإعلامي لصحيفة ABC

تأسست ABC في الأول من يناير من سنة 1903 من طرف الإعلاميين توركواتو لوكا دي تينا وألباريث أوسوريو (Torcuato Luca De Tena و Alvarez Óssorio)، وهي صحيفة يمينية محافظة هدفها الأساس كان ولا يزال هو الدفاع عن الملكية من خلال خطاب سياسي بسيط وعمامي موجه إلى قراء من مختلف الشرائح الاجتماعية<sup>1</sup>.

انطلقت ABC في مسيرتها الإعلامية على شكل صحيفة أسبوعية ؛ وفي يونيو 1905، تحولت إلى جريدة يومية قصد سد الفراغ الإعلامي بجنوب إسبانيا. وقد عملت إدارة ABC على تأسيس فرع أندلوثيا الذي سيسهر على إيداع ونشر ABC أندلوثيا وذلك سنة 1929 بمدينة إشبيلية<sup>2</sup>.

عند اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية ستنتشق ABC أندلوثيا عن إدارة مدريد، وستتبنى كلا الصحيفتين خطابين سياسيين وإيديولوجيين مغايرين، بحيث دعمت نشرة مدريد الجمهوريين، بينما نجد نشرة إشبيلية تدعم الفرنكاويين.

بعد انتهاء الحرب واستيلاء فرانكو على الحكم، تحولت ABC إلى صحيفة رسمية دافعت عن النظام الفرنكاوي، لكنها تميزت خلال هذه المرحلة بالجمود وفقر المادة الإعلامية<sup>3</sup>. وفي أواخر الستينات من القرن الماضي ستعرف ABC طفرة موضوعاتية نوعية، كحصيلة للانفراج السياسي الذي أضحت تعيشه إسبانيا، خصوصا عندما دخل تطبيق قانون الصحافة ورفع الرقابة من طرف وزير الإعلام الجديد مانويل فراثا (Manuel Fraga) حيز التنفيذ<sup>4</sup>، وهو ما نتج عنه تحسن ملحوظ على مستوى المحتوى انعكس حتما على ارتفاع نسبة المبيعات. وهكذا أصبحت ABC تتناول مواضيع مختلفة ذات صبغة سياسية واجتماعية تخص إسبانيا ومختلف أنحاء المعمور، وهنا بعض عناوين المواضيع التي تناولتها عبر استفادتها من المناخ السياسي والاجتماعي الجديد الذي أصبحت تعيشه إسبانيا.

المسيرة الخضراء بالصحراء  
(نوفمبر 1975)



- معارضة النظام الفرنكواوي في الخارج.<sup>5</sup>
- انعكاس أصداء المسألة الباسكية في فرنسا.<sup>6</sup>
- الوضعية العامة بالعالم العربي.<sup>7</sup>
- تحركات الحزب الاشتراكي العمالي الإسباني بفرنسا.<sup>8</sup>

خلال هذه المرحلة ارتفعت مبيعات ABC بشكل ملحوظ، حيث احتلت بين 1966 و1971 المرتبة الثانية على الصعيد الوطني بعد صحيفة لابانكوارديا (Lavanguardia)، حتى أنه قيل كل ما لم ينشر في ABC ليس بخبر.<sup>9</sup> خلال سنة 2005 وتحت إشراف مدير ذي توجه سياسي محافظ ومثير للجدل، استطاعت الصحيفة أن تحتل المرتبة الثانية من حيث المبيعات على الصعيد الوطني، وهو ما يعكس وجود رأي عام محافظ و ملكي بإسبانيا.

### ABC وتغطيتها لتاريخ مغرب بداية القرن العشرين

غطت ABC أحداث حرب الريف لسنة 1909 أو ما سمي بمعارك خندق الذئب بضواحي مليلية، حيث كان لديها مراسلون إخباريون من قلب المعركة، وقد كانت لها الريادة في التقاط الصور الجوية، بحيث اعتبرت بمثابة أول صحيفة عالمية التقطت من طائرة صوراً فوتوغرافية للمعارك الحربية.<sup>10</sup>

في سنة 1911، ومن قلب مدينة فاس، غطى مراسلها ثورة المدينة والضغوطات التي مارستها فرنسا على السلطان. وفي سنة 1925 غطت ABC أحداث التحالف الفرنسي الإسباني ضد زعيم المقاومة الريفية سيدي محمد بن عبد الكريم، حيث كان مراسلها يخبر من شاطئ الحسيمة بعمليات الزحف العسكري الإسباني الفرنسي وردود فعل المقاومة الريفية.<sup>11</sup> هذه إذن هي نبذة موجزة عن مسار ABC الإعلامي، فماذا عن تغطيتها للمسيرة الخضراء واسترجاع أقاليمنا الصحراوية؟

### المسيرة الخضراء من خلال ABC

مكنتنا المادة الإعلامية والتاريخية التي تحتوي عليها الصحيفة من تناول حدث المسيرة الخضراء وذلك عبر ثلاثة محاور رئيسية:

- مطالبة المغرب باسترجاع أقاليمه الصحراوية، صدور حكم محكمة لاهاي الدولية والإعلان عن مسيرة سلمية للصحراء.
- المفاوضات الإسبانية المغربية الموريتانية.
- الانسحاب الإسباني واسترجاع الأقاليم الصحراوية.



رفع العلم المغربي بالعيون (فبراير 1976)

عملية انسحاب الجيش الإسباني  
من الصحراء (نهاية 1975)

لقد نشرت جل المقالات التي اطلعنا عليها ما بين مايو 1975 و فبراير 1976، وهي الفترة التي ستعرف فيها قضية الصحراء المغربية تطورات سياسية ساهمت في وضع حد للحضور الإسباني بالأراضي المسترجعة.

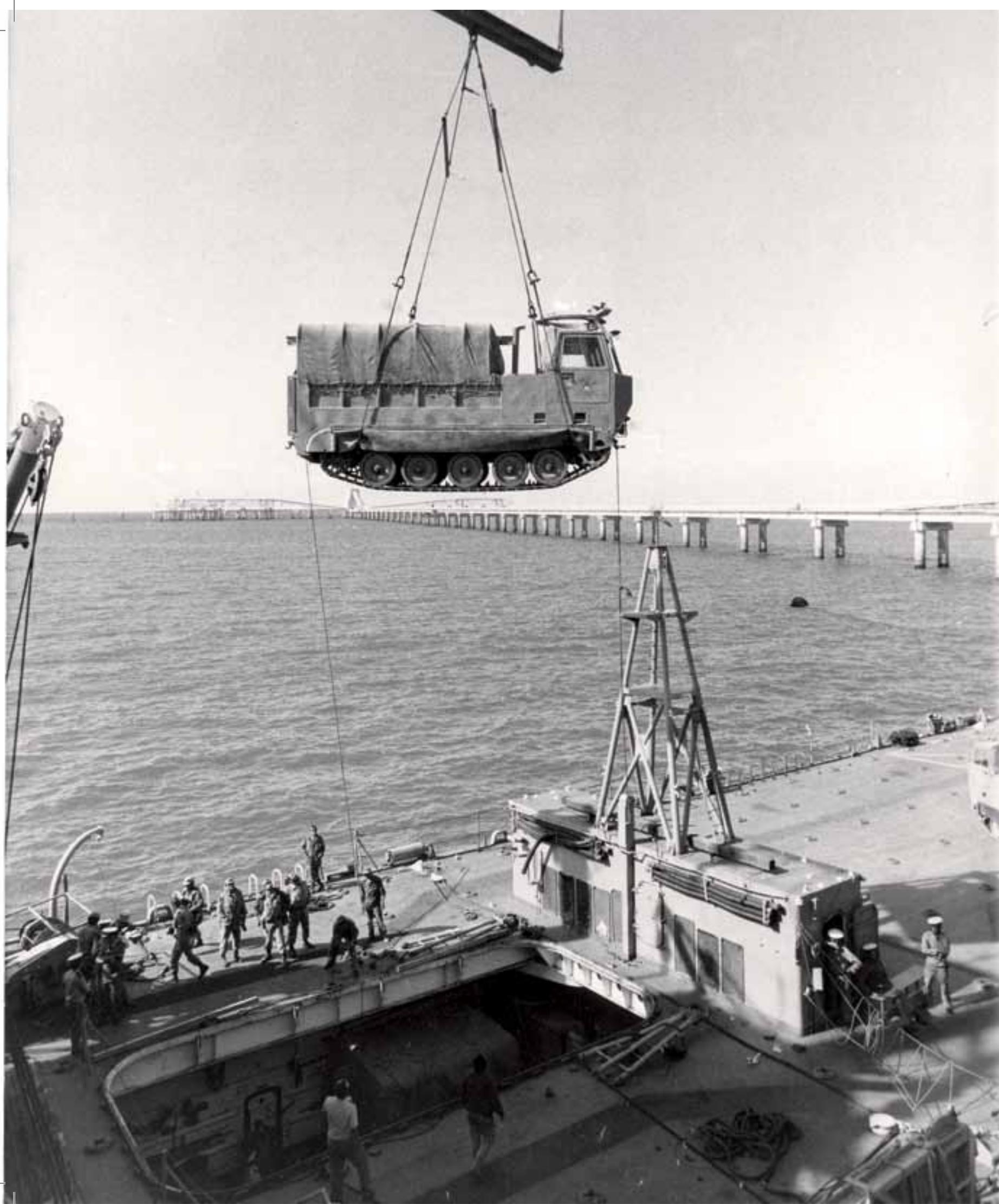
ورغم الصبغة المحافظة للصحيفة نجد أنها تنتقي خطابا معتدلا وأقل شوفينية إذا ما قارناها مع صحف إسبانية أخرى كصحفتي «YA» و «ARRIBA ESPAÑA»، ففي عمود نشرته ABC بعدد 13 مايو 1975، 12 نجد صاحبه يقترح انسحاب إسبانيا من الصحراء ويذكر الرأي العام الإسباني بالكوارث التي نتجت عن المغامرات التوسعية الإسبانية بإفريقيا وما نجم عن ذلك من حروب ك«خندق الذئب» و«أنوال»، وأن إسبانيا بإمكانها توفير الأشمئزاز الذي من شأنه أن يصيبها كنتاج لمواجهة إسبانية مغربية قد تثيرها استمراريتها بالصحراء. فحسب صاحب المقال «جاءت تصريحات الحكومة حول الصحراء في الوقت المناسب لتثير مسألة الانسحاب من الصحراء في أقرب أجل ممكن». في السياق نفسه يُذكر كاتب المقال بالهزائم التي تكبدها الجيش الإسباني بالمغرب في العقود الأولى من القرن العشرين وذلك من خلال آراء الفيلسوف أنخيل كانيفت (Ángel Ganivet) الذي قال: «إفريقيا سممت جزء هاماً من معنويات الوطن وأنزفت جسمه واستنزفت موارده وأذبلت أمانيه وإيمانه في المستقبل وعممت الظلم والعبث التاريخي». وينتهي المقال بالنص التالي:

«لنخرج من الصحراء في أسرع وقت ممكن ولننذكر تلك الحقيقة المشهورة التي تقول كل طلقة نار أطلقت في إفريقيا إلا وسمع صداها في إسبانيا»<sup>13</sup>.

### مطالبة المغرب باسترجاع أقاليمه الصحراوية:

#### صدر حكم محكمة لاهاي الدولية والإعلان عن مسيرة سلمية للصحراء

في عدد 17 أكتوبر 1975 خصصت ABC صفحة بكاملها لخطاب المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني حول ضرورة تحرير الأقاليم الصحراوية، وفي نفس العدد نشرت مقالا إخباريا تشير فيه إلى أن وزير الخارجية السيد أحمد العراقي أعلن أنه في الأيام المقبلة ستتجه نحو الصحراء مسيرة مدنية تتكون من 350 ألف مواطن ومواطنة لتحرير هذه الأراضي وذلك على ضوء الحكم الصادر عن محكمة لاهاي الدولية. في نفس المقال أشارت ABC أن السيد أحمد العراقي أكد في التصريحات التي ألقاها في ندوة صحفية بمقر هيئة الأمم المتحدة، أن الأمر يتعلق بمسيرة مدنية وأنه إذا ما اعترضت إسبانيا على ذلك فعليها أن تستعد لمواجهة العواقب<sup>14</sup>. ABC أشارت أيضا إلى تصريحات سفير المغرب في الأمم المتحدة، السيد علي الصقلي، التي أكد فيها على أهمية هذا الحدث التاريخي وعن اعتراف محكمة لاهاي بالوزن القانوني والحضور التاريخي لسيادة المغرب بالأراضي الصحراوية، كما أكد السفير أيضا على أن مطالب المغرب تم الاعتراف بها من طرف الهيئة الاستشارية للأمم المتحدة، وبالتالي هو اعتراف واضح يستثني أي لبس أو سوء فهم<sup>15</sup>.



## المفاوضات الإسبانية المغربية الموريتانية

ستخصص *ABC* مجموعة من المقالات للمفاوضات المغربية الإسبانية التي ستتوج باتفاقية مدريد. وفي هذا الإطار سننشر أخباراً متعددة حول الوضعية التي توجد فيها العلاقات بين مدريد والرباط، وسيكون للصحيفة دور فعال في خلق استعداد قبلي داخل أوساط الرأي العام لإقناعه باحتمال انسحاب إسبانيا من الصحراء. فنجدها تخبر في عدد 22 أكتوبر 1975 عن مبادرة اختيار الحكومة الإسبانية للحلول السلمية فيما يخص مسألة الصحراء وذلك عبر القنوات الدبلوماسية<sup>16</sup>. فهي تخبرنا بالزيارة التي قام بها الأمين العام للحكومة السيد خوسي سوليس للمغرب وكيف تم استقباله من طرف الملك الحسن الثاني. المقال نفسه يحيل عن الوقع الايجابي الذي خلفته زيارة خوسي سوليس إلى المغرب سواء في الرباط أو في مدريد، بحيث اعتبرها بمثابة الحجر الأساس لمرحلة جديدة من تاريخ العلاقات المغربية الإسبانية قد يميزها التفاهم والتعاون<sup>17</sup>.

في عدد 26 أكتوبر نشرت *ABC* مقالا أخبرت فيه بالزيارة التي قام بها وزير الخارجية المغربي أحمد العراقي إلى مدريد والمحادثات التي أجراها مع أرياس نافارو والتي توقفت حسب الصحيفة نظرا لتدهور الحالة الصحية لفرانكو<sup>18</sup>.

حول نفس الموضوع نشرت *ABC* في عدد 12 نوفمبر 1975<sup>19</sup> مقالا تفيد فيه أنه «على الساعة الخامسة والنصف من مساء أمس وصل إلى مطار باراخاس وفد مغربي رفيع المستوى يتشكل من الوزير الأول السيد أحمد عصمان ووزير الخارجية السيد أحمد العراقي ووزير الشغل والشؤون الاجتماعية السيد الخطابي وكاتب الدولة في شؤون الصحراء السيد زيند والسيد كريم العمراني. وقد تم استقبالهم من طرف السيد رئيس الحكومة أرياس نافارو ووزير الخارجية السيد بيدرو كورتينا موري وسفير المغرب وإسبانيا السيد الفيلاي و السيد مارتين كاميرو، وقد انطلقت جلسة المحادثات اليوم في مقر رئاسة الحكومة<sup>20</sup>».

في السياق نفسه نشرت *ABC* في عددها ليوم 12 نوفمبر 1975 مقالا آخر أكدت فيه حسب مصادر موثوقة «أن المفاوضات بين المغرب وإسبانيا وموريتانيا والتي يرأسها السيد أحمد عصمان والسيد موكناس والسيد أرياس نافارو ستخلص اليوم، وهي المفاوضات التي ستتوج بتوقيع اتفاقية مدريد<sup>21</sup>».

في نفس العدد نشرت *ABC* مقالا تخبر فيه بالارتياح الذي استقبلت به الحكومة الإسبانية خطاب جلالة الملك الحسن الثاني حين أمر بعودة المسيرة وعن تأكيده عن الصداقة و حسن الجوار اللذان يجمعان المغرب وإسبانيا. المقال نفسه يشير أن جلالة الملك استقبل في الأيام الأخيرة وزير رئاسة الحكومة السيد كارو بأثاير ووزير الخارجية السيد سوليس بمراكش، كما توجه إلى مدريد وفد رفيع المستوى لإجراء محادثات مع السلطات الإسبانية بما في ذلك الأمير خوان كارلوس<sup>22</sup>.

## الانسحاب الإسباني واسترجاع الأقاليم الصحراوية

موازة مع حدث المسيرة الخضراء والمفاوضات الدبلوماسية، كانت هناك أحداث أخرى ترتبت عن خصوصيات السياق التاريخي الذي نحن بصدد دراسته والتي حاولت *ABC* تغطيتها من مختلف الجوانب. إخلاء ساكنة الصحراء الإسبانية و انسحاب السلطات الإسبانية هي إحدى المواضيع التي تناولتها الصحيفة

وأخبرت بمختلف مراحلها. ففي عددها ليوم 23 أكتوبر 1975، أفادت أن نسبة الطلب على تذاكر الخط الجوي الرابط بين الأقاليم الصحراوية وشبه الجزيرة الأيبيرية وجزر الكناري ارتفعت بشكل ملحوظ، وأنه سيتم تنظيم رحلات إضافية<sup>23</sup>. هذا الارتفاع في طلب التذاكر هو ناتج عن عملية الإخلاء وعودة المعمر الإسباني إلى وطنه. في المقال نفسه نجد ABC تخبر بأن هناك طائرات عسكرية تحلق فوق سماء مدينة العيون قصد نقل بضائع وأمتعة المعمر الإسباني. مصادر مطلعة أفادت حسب الصحيفة أن «طائرات مخصصة لحمل البضائع تصل طاقة حمولتها إلى 150000 كلف، حلفت منذ بداية الأسبوع من العيون نحو إسبانيا وهي محملة عن آخرها<sup>24</sup>».

في نفس السياق يندرج المقال الذي نشرته الصحيفة بعدد 6 نوفمبر 1975 والذي أفادت فيه بإبحار سفينة Plusultra وعلى متنها 117 مسافرا إسبانيا ومعدات وبضائع وسيارات، وإن الإخلاء المكثف الذي تعيشه الساكنة الإسبانية للصحراء أسفر عن انخفاض كبير في عددها حيث أصبح لا يفوق 1100 نسمة، وقد قامت السلطات بفتح مكاتب مخصصة لمنح المعمرين مبالغ مالية لاقتناء التذاكر وتسهيل عملية الإخلاء، وتوصيلا ذا قيمة نقدية حددت في مبلغ 25000 بسيطة<sup>25</sup>.

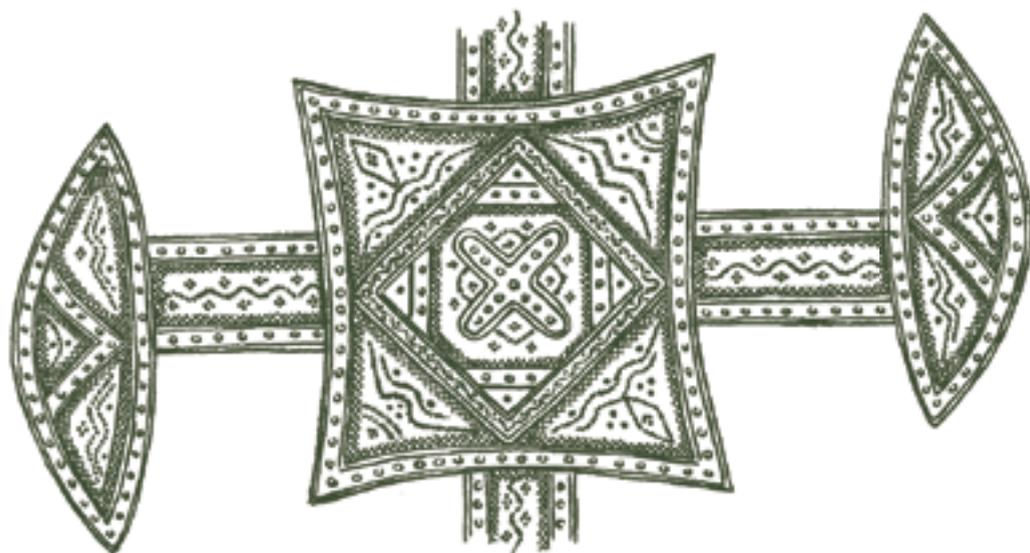
غطت ABC خبرا آخر يتعلق بانسحاب الجيش الإسباني من الصحراء والظروف التي تم فيها، مشيرة أن هذه العملية اللوجستية تتم في سرية تامة دون تحديد التواريخ والنسب، وإن الإخلاء العسكري، حسب تصريحات الجنرال كوميث ذي سلاثار (Gómez de Salazar) هو في منتصفه وأن ميناء فيلا سيسنيروس أو الداخلة هو الذي يتم عبره نقل المعدات والأدوات العسكرية ذات الوزن الثقيل<sup>26</sup>.

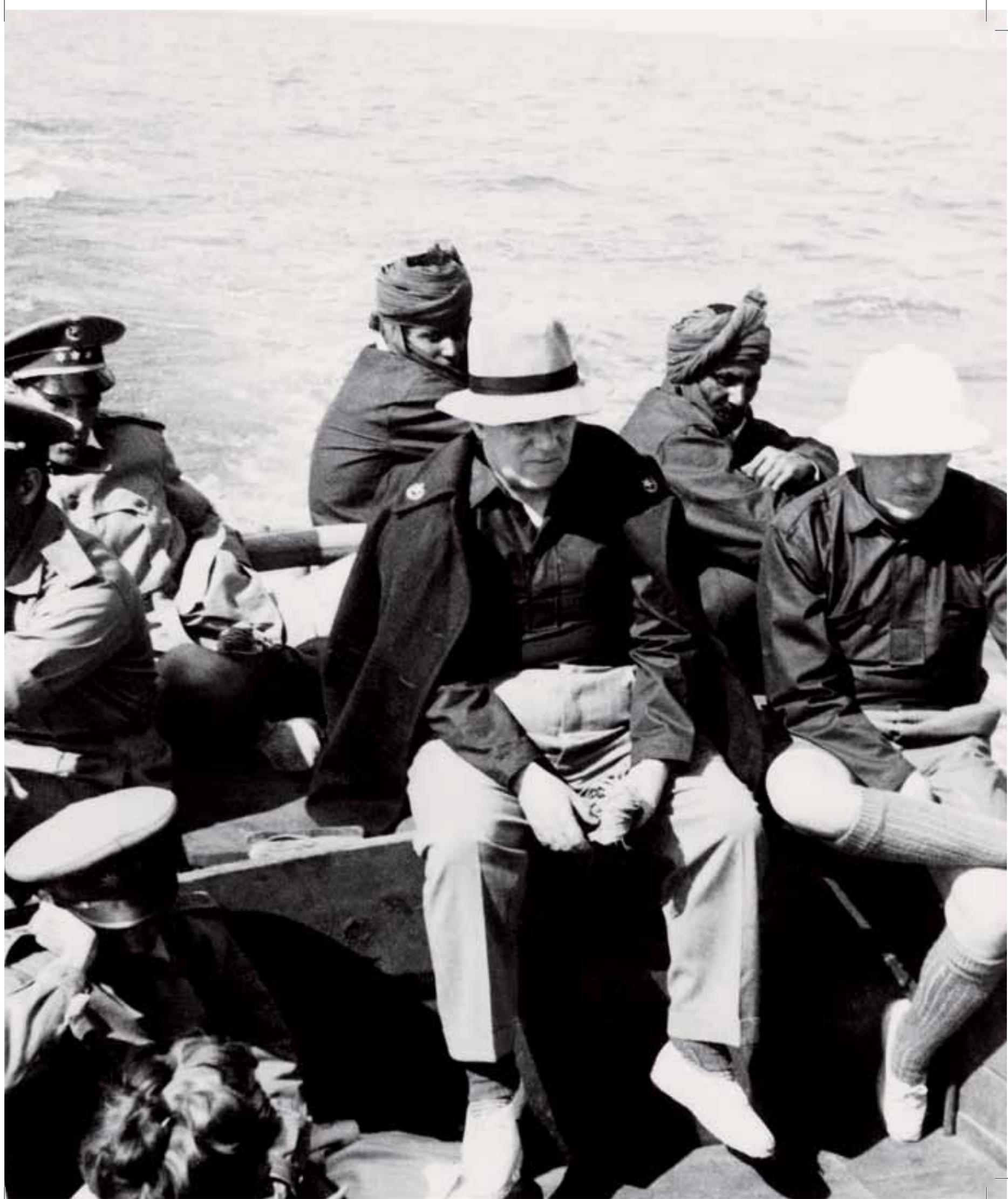
المقال الأخير الذي سنحيل عليه في هذا النص نشرته ABC في عدد 29 فبراير 1976، وتفيد فيه أنه «تم الإعلان بشكل رسمي عن طي آخر علم إسباني بالصحراء في صباح هذا اليوم وذلك بعد إخبار مجلس الجماعة بالصحراء والأمانة العامة لهيئة الأمم المتحدة بالانسحاب النهائي للسلطات الإسبانية من الصحراء<sup>27</sup>».

هذه إذن بعض القضايا التي حاولنا الكشف عنها من خلال المقالات التي نشرتها ABC سنة 1975 والتي تمكنا من أخذ فكرة عامة عن الدور الإعلامي الذي قامت به الصحافة المكتوبة في إسبانيا.

## هوامش

- 1 - Olmos, V., *Historia del ABC. 100 años clave en la Historia de España.*, Plaza y Janés, Barcelona, 2002, pages. 719.
- 2 - Olmos, V., op.cit.
- 3 - Torreño D., javier, F., « Los periódicos españoles en el tardo franquismo. Consecuencias de la nueva ley de prensa » *Revista de comunicación y Hombre*, nº 1, Año 2005, pages 131-147.
- 4 - Ruiz Romero, M., « Censura y consignas en la prensa franquista. Algunos ejemplos de dirigismo informativo » *Ámbitos. Revista Internacional de Comunicación*, Nº 9-10 2º Semestre 2002, Universidad de Sevilla, Año 2003, págs. 507-529.
- 5 - *ABC*, 12 de Noviembre de 1975, « Granada: Detenidas treinta y siete personas acusadas de actividades subversivas. »
- 6 - *ABC*, 4 de Noviembre de 1975, « Rotundo fracaso de la marcha internacional: Los escasos manifestantes, ateridos, calados por la lluvia, ni siquiera pudieron hablar con representantes vasco-franceses ».
- 7 - *ABC*, 15 de Agosto de 1979, « Enfrentamiento en Beirut entre Tropas Sirias y Milicianos Derechistas ».
- 8 - *ABC*, 31 de Mayo de 1975, « Felipe Gonzalez: Cambiar las estructuras económicas ».
- 9 - Olmos, V., op.cit.
- 10 - Villana, I., « *ABC*, Más de un siglo informando desde Marruecos », *ABC*, 26 de Enero de 2011.
- 11 - *ABC*, 26 de Enero de 2011, op.cit.
- 12 - *ABC*, 13 de Mayo de 1975. « Sahara ».
- 13 - *ABC*. 13 de Mayo de 1975, op.cit.
- 14 - *ABC*, 17 de Octubre de 1975, « Hassan Segundo ante la televisión marroquí; El Rey Hassan Segundo convoca al pueblo marroquí a una espectacular marcha sobre la frontera del Sáhara Occidental. Se calcula que más de 350000 personas secundaran el llamamiento del Monarca ».
- 15 - *ABC*, 17 de Octubre de 1975, op.cit.
- 16 - Idem.
- 17 - *ABC*, 22 de Octubre de 1975.
- 18 - Idem.
- 19 - *ABC*, 12 de Noviembre de 1975, « Ahmed Osman, Primer ministro marroquí en Madrid ».
- 20 - *ABC*, 12 de Noviembre de 1975, op.cit.
- 21 - Idem.
- 22 - *ABC*, 14 de Noviembre de 1975, « Las conversaciones entre España, Marruecos y Mauritania, prácticamente concluidas ».
- 23 - *ABC*, 23 de Octubre de 1975, « Demanda de billetes de avión ».
- 24 - Idem.
- 25 - *ABC*, 6 de Noviembre de 1975, « Continúa la evacuación ».
- 26 - *ABC*, 6 de Noviembre de 1975, op.cit.
- 27 - *ABC*, 29 de Febrero de 1976.





# أرض ضائعة

## نواذيبو في ذاكرة صيادي لانثاروت<sup>1</sup>

### ألبيرتو لوبيث بارغادوس

تعتبر نواذيبو، مدينة بور إتيين (Port Etienne) الاستعمارية القديمة، منطقة سكنية أوجدتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية من العدم في أوائل القرن العشرين. وهي مدينة بلا ماض إلا إذ استثنينا ما تبقى من قرية الصيادين القديمة التي تخيلها تيودور مونو (Théodore Monod) سنة 1924، بفضل الصناعة الحجرية المنتشرة التي اكتشفها في خليج كانصادو<sup>2</sup> (Cansado). وسرعان ما تحول المكان، على الرغم من تاريخه المتواضع، إلى منطقة من المناطق الفريدة التي ظهرت مع الحركة الاستعمارية على الساحل الصحراوي (الكؤيرة، والداخلة، وطرفاية، ونواكشوط). والفضل في ذلك يرجع بالأساس إلى كونها ميناء صيد دولي، ومركزا لتصدير الحديد الخام لمناجم الزويرات، وأيضا إلى كونها مدينة حدودية. إن هذه الخصائص جعلت منها لفترة طويلة المدينة الساحلية الوحيدة ذات قطاع صناعي مهم قادر على جذب اليد العاملة من مختلف الأجناس والدول. وانطلاقا من كون نواذيبو لا تزال حتى اليوم تشكل قطبا للعالمية في محيط هامشي خارج تيارات العولمة الرئيسية الكبرى، فإن هذه المقالة تستهدف فحص هذه الميزة الخاصة للمدينة فحفا وجيزا من خلال مسار وتجربة إحدى المجموعات المميزة، التي عمرت الحامية العسكرية القديمة لبور إتيين، من العمال والصيادين القادمين من جزر الكناري، وخاصة الصيادين القادمين من جزيرة لانثاروتي (Lanzarote). ولكونهم مجموعة مرتبطة منذ قرون باستغلال الثروة السمكية الصحراوية، فإن الكناريين استقروا في بور إتيين، وبذلك أصبحوا عنصرا أساسيا من عناصر هذا النوع من المجتمع الصحراوي المختلط.

وقد شكل الصيادون والعمال الكناريون جزءاً من المشهد الإنساني للمدينة تقريبا منذ بداياتها، إذ أن وجودهم في منطقة الرأس الأبيض سبق بناء الحامية العسكرية سنة 1906. ومع وصولهم إلى منطقة الحوض والذي تزامن مع موسم الصيد، تعاقد بعض الساحليين - وهو الإسم الذي يطلق في الأرخيبيل الكناري على الصيادين الذين يصطادون في الساحل الصحراوي - مع الإدارة الاستعمارية لبور إيتين أو مع بعض الشركات التي استقرت هناك، خصوصا في الحقبة ما بين 1950 و 1960. وقد أدى تأثير الحرب في الصحراء، وفقدان الكناريين والفرنسيين نفوذهم تدريجيا في قطاع الصيد الذي بدأ من عقد السبعينيات إلى فرض تدريجي لرأس المال الموريتاني، وهو ما أدى إلى اضمحلال هذه الجالية، التي ضعفت حتى أنها، في أوائل عقد التسعينيات، لم تكن تضم إلا عددا قليلا من الأفراد، الغارقين في الحنين إلى ماضى لن يعود. إن إعادة النظر في مسار هذه المجموعة، والعلاقات التي كانت لأفرادها مع السكان الأصليين، ومع الإدارة الاستعمارية، ومنذ سنة 1960 مع موريتانيا المستقلة، من خلال الوثائق الموجودة وكذلك القصص المروية التي يقدمها من عرفوا المدينة في ذلك الوقت من منظورهم الفردي الخاص بصفتهم عمالا أجنب، كل ذلك يمكن أن يشكل فرصة لا تقدر بثمن لتقييم حدود هذه العالمية التي تجعل من نواذيو مدينة فريدة في إطار الدولة الموريتانية الحديثة، وبالتالي، في منطقة الصحراء الأطلنتية.

من المعروف جدا أن وجود الأسطول الكناري في منطقة الصيد بحوض أرغين (Banc d'Arguin) كان منذ فترة طويلة. حتى إن التقارير الأولى الصادرة عن المقيمين في باهيا ديل كالكو (Bahia del Galgo) والمنتبين إلى فرقة الجنود الحديثة النشأة، سنة 1906 أو 1907<sup>3</sup>، اقتصرت على تأكيد وجود علاقات بين الكناريين والسكان الأصليين قبل الحركة الاستعمارية. وكما هو متوقع، فالعلاقات التاريخية التي كانت بين صيادي الأرخيبيل والسكان الصحراويين بقيت على حالها طيلة قرون مع بعض التغييرات الطفيفة. وبالتالي فإن التقارير الإدارية عن العقدين الأولين من القرن العشرين، قبل ازدهار أولى مبادرات التنمية الصناعية في المدينة، تعطينا فكرة عن الآليات التي اعتمدها. ونظرا لحاجة الأسطول الكناري للتزود بالمياه واللحم وللحصول على الدعم البري لمواجهة حالات الطوارئ المتعلقة بنشاط الصيد البحري (تسرب المياه إلى السفن، وفقدان أو كسر أو تمزق عتاد الصيد، غرق السفن، الخ.)، توصل أرباب السفن الكناريين إلى اتفاقات مع شيوخ القبائل الكبرى في الداخل، الذين كانوا يرضون من جهة أخرى الضرائب على مجموعات صيادي الساحل، الذين يدعون إمراتن (Imraguen). وعادة ما تكون مثل هذه الاتفاقات منطلقا من نقاط غير متكافئة، لأن أصحاب المراكب الشراعية لم تكن لهم القدرة على فرض شروطهم على الشيوخ المحليين، حتى إنهم كانوا يضطرون إلى تقديم مختلف الهدايا (سلع و مواد غذائية من الأرخيبيل، ولا سيما دقيق الذرة المحمر المعروف بـ *gofio*) مقابل حمايتهم وحماية ممتلكاتهم<sup>4</sup>. وتشير الوثائق الإدارية المحررة في العقدين الأولين من القرن العشرين إشارة واضحة إلى أن هذه الاتفاقات، المبنية على علاقات الثقة بين أصحاب السفن وشيوخ القبائل، تشكل مصادر دخل هامة لبعض القادة المحليين، مثل بلة ولد أحمد زين (أولاد باعمار)، وسيدي محمد ولد هيداله (قبيلة العروسيين)، وعلى وجه الخصوص محمد ولد مكناس (أهل الغزال)، الذين قوا هيبتهم وعززوا قيادتهم، بفضل المعاملة التفضيلية التي يحظون بها من الصيادين الكناريين، أولا، والإدارة الاستعمارية الفرنسية فيما بعد.

وخلف هذه العلاقة بين كبار شيوخ القبائل الداخلية (الكرع، أولاد دليم، وقبيلة العروسيين، الخ.) تتوارى، كما تمكن من معرفة ذلك بيير بونت (Pierre Bonte) من خلال تحليل طقوس الحماية المعروفة باسم التعرّجية أو الذبيحة، الآلية شبه التعاقدية للهبه أحادية الجانب للسلع المتنوعة، المألوفة بين صيادي إمراتن بالساحل والقبائل





صورة جوية لمدينة نواذيبو  
في عهد الاستعمار، (ب.ت.)

الداخلية، والتي تجعل المانحين، المؤدين للضرائب، في حالة من الدونية مقارنة مع الممنوحين، والتي كان سار على نهجها صيادو جزر الكناري. وإذا، تخلى دافع الضريبة جزئياً عن واجب حمايته وفوّضه إلى آخر بمقتضى دفع الضرائب، فيتعهد بهذا الواجب مقابل هبة مرحلية وفي التطبيق الإلزامي، تستبدل الهدية التي لم يتم إرجاعها بهدية أخرى اعترافاً بالدونية «الموضوعية»<sup>5</sup>.

يجب علينا أن نتذكر هنا أن مجموعات إمران في حوض أرگن، المرتبطة بالنشاط اليدوي الذي تحتقره الجماعات المنتمية إلى السلالات النبيلة، كانت خاضعة تقليدياً لهذه الأشكال من الضرائب<sup>6</sup>. وبما أن صيادي جزر الكناري كانوا ملتزمين باتفاقات الحماية المحددة التي تربطهم بشركائهم البيضان، وبما أن نشاط الصيد، ذا الطابع اليدوي، كان له أيضاً دور مركزي، فليس من الغرابة في شيء أن تكون قصص البيضان عن الوجود الكناري في بور إيتين تتحدث عن حلقة من الهبات والهدايا التي كانت تُعقد على شيوخ البيضان. وقد فسرت هذه الحلقة بمثابة ضريبة تجعل، ضمناً على الأقل، الصيادين الكناريين في وضعية دافعي الضريبة على خلاف الوضع الممنوح لاحقاً للمحتلين الفرنسيين<sup>7</sup>.

ومن الواضح جدا، على ضوء القصص التي أتاحت لي الفرصة لجمعها في جزيرة لانثاروطي في خريف 2009، أن الصيادين الذين كانوا يترددون على ميناء بور إيتين لم يكونوا على بينة من الفكرة التي كونها السكان الأصليون عنهم<sup>8</sup>. وفي حالة إدراكهم، فإنهم حاولوا من دون جدوى إيجاد حل لهذه الفكرة، لأن الإدارة الفرنسية، وعيا منها بلعبة التوازن الدقيقة التي تنطوي عليها ممارسة السلام الاستعماري، كانت تميل إلى الحفاظ على الوضع القائم الذي كان قد قاد منذ أواخر عام 1930 إلى تعزيز المشروع الاستعماري للمنطقة. وبالنسبة لقيادة دائرة خليج كالكو، فإن وجود الصيادين والعمال الكناريين كان قضية شائكة تتطلب الحكمة والحس التكتيكي.

وعلى غرار قبائل الرحل التي هاجمت الموقع العسكري في ميناء بور إيتين سنة 1924 و1927<sup>9</sup>، وتركت في الحامية العسكرية، المعزولة الواقعة في ضواحي المستعمرة الموريتانية، انطباع تهديد دائم صورته سانت إكزوبيري (Saint-Exupéry) نفسه<sup>10</sup>، صار الصيادون الكناريون الذين يصطادون في مياه حوض أرگن، نوعا من الرحل، وعلى غرار حملات الغزو التي كانت تعبر الحدود لتضييق الخناق على الحاميات الفرنسية إلى أن وضعت الحرب الأهلية الإسبانية (1936 - 1939) حدا لاستخدام المستعمرة الجارة كمنطقة أمنية، كان الصيادون الكناريون يحتمون بوجود الحدود لتنفيذ أنشطتهم. وبموجب اتفاقية باريس الموقعة بين إسبانيا وفرنسا في 27 يونيو 1900، وجد الصيادون أنفسهم أمام وضع إداري يلفه الغموض، بحيث إن إسبانيا وافقت على تقسيم شبه جزيرة الرأس الأبيض إلى نصفين مقابل ضمان حقوق صيد الأسطول الكناري في مصايد الأسماك الواقعة تحت السيادة الفرنسية، إضافة إلى القدرة على إقامة تلك المنشآت المؤقتة اللازمة لأنشطتها على الأرض. وبقي البحارة الكناريون، بمقتضى الامتيازات المنصوص عليها في المعاهدة، في وضع قانوني متميز، جزئيا خارج نطاق تطبيق القانون الاستعماري الفرنسي، يستفيدون من وضعية «الأصدقاء الأجانب» المبهمة، والتي تخولهم نوعا من الإفلات من العقاب. وقد اتسع نطاق هذا الوضع الاستثنائي حين قررت الحكومة الإسبانية الاستقرار أخيرا في الجزء الغربي من شبه الجزيرة، بالقرب من فالصو كابو (Falso Cabo)، في الكؤيرة، سنة 1920. ومنذ ذلك الحين، بالنسبة للأسطول الكناري، لم يعد وجود السلطة الإسبانية وجودا إسميا بحتا وعلى بعد 350 كيلومترا شمالا، في فيلا سيسنيروس (Villa Cisneros الداخلة حاليا). ففي بداية موسم الصيد في القسم الجنوبي من الحوض، وعادة ما يكون في شهر شتنبر، تتخذ الزوارق والمراكب الكنارية اتجاهها نحو الرأس الأبيض (Cabo Blanco)، وعند وصولها إلى فالصو كابو، ترسل القبطان للتسجيل في الحامية الإسبانية<sup>11</sup>. ثم تدخل إلى خليج كالكو، ومن هناك كانوا ينظمون الأنشطة المرتبطة بصيد الأنواع مثل النعاب، وكلب البحر أو سمك المرجان، لفائدة شركات جزر الكناري، أو لفائدة الشركات الفرنسية، ولا سيما الشركة الصناعية للصيد الكبير (المعروفة اختصارا بـ SIGP).

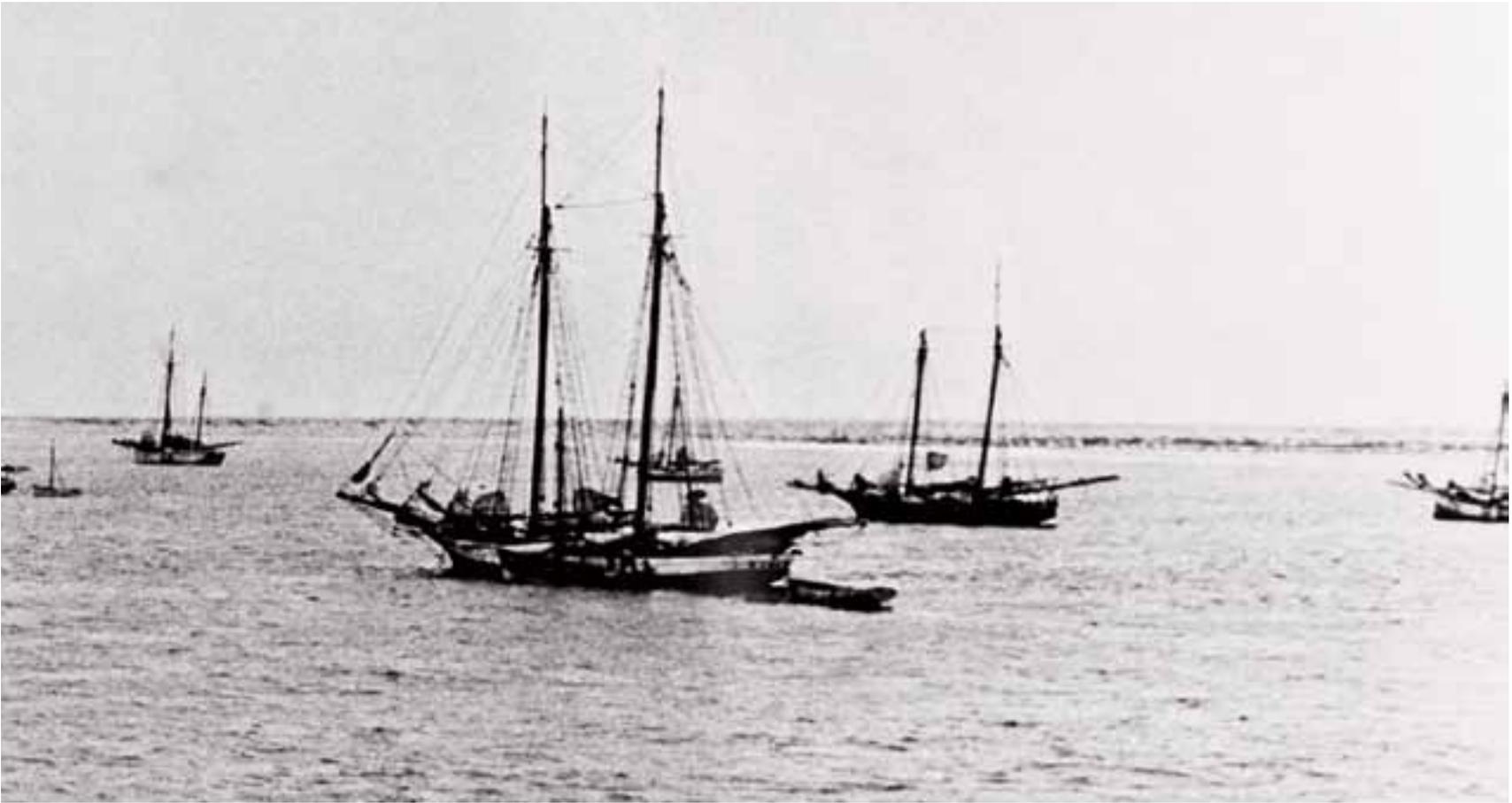
تأسست الشركة الصناعية للصيد الكبير سنة 1919 بهدف تشجيع الصناعة السمكية الفرنسية ولا سيما في منطقة بروطاني، في مياه كان استغلالها حتى ذلك الحين حكرا على أصحاب السفن الكناريين. ومع ذلك، وبما أن معظم تلك المحاولات باءت بالفشل - مع تحقيق نجاح نسبي فقط في صيد جراد البحر - فقد رأى السيد باريس (Mr Barris) المسير المنتدب نفسه مجبرا على استئجار القوارب والأطقم الكنارية لتغطية حاجيات المصنع ابتداء من سنة 1921<sup>12</sup>، الأمر الذي أدى إلى احتدام المنافسة مع الشركات المتواجدة في الأرخبيل، مثل بلاندي (Blandy)، وإلدر (Elder) وديمبستر (Dempster)، أو ماريرو (Marrero)، أو كابيرا (Cabreria). ولعقود من الزمان، كان الطلب على القوارب المستعدة للصيد في الحوض الصحراوي أكبر من العرض،

بحيث تمكن أصحاب السفن في جزر الخالدات من الاستفادة من هذا الوضع ، والزيادة في أسعار العقود<sup>13</sup>. وعلاوة على ذلك، مكنتهم الحصانة النسبية التي يتمتعون بها في ميناء بور إيتيين من التحايل على شروط متفق عليها مع الشركة الصناعية للصيد الكبير SIGP (معدات القوارب وإصلاحها مقابل سعر ثابت على الصيد في نهاية الحملة) وبيع السمك بطريقة غير مشروعة، لمن يدفع أعلى سعر<sup>14</sup>. ولم تقتصر التوترات بين الصيادين الكناريين والإدارة الفرنسية، في الواقع، على الخيل المستخدمة للتلاعب بجزء من الصيد الموجه للشركة الصناعية للصيد الكبير. في سياق الأحياء الشعبية والمتعددة الثقافات التي ميزت حي لا تشاركا (La Charca)، كان البحارة الكناريون الذين يحميهم الأسطول الذي يرسو في الجون يتاجرون في الخضار وغيرها من المنتجات المستوردة من الأرخبيل بشكل غير مشروع، ومواد أخرى تدر الريح السريع، مثل المشروبات الكحولية وربما حتى الأسلحة<sup>15</sup>. وقد كان شبح تعاون الكناريين مع أنشطة توصف بأنها «مناوئة»، في الواقع، حاضرا في الإجراءات التي اتخذتها الإدارة الفرنسية لميناء بور إيتيين على مدى العقود التالية.

أصبحت استقلالية الصيادين الكناريين، الغرباء الحقيقيون في عالم لا تشاركا الصغير، هدف تدابير الرقابة الرئيسة بعد الاضطرابات التي سببتها الحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية. وابتداء من سنة 1939، ضاعفت سلطات فرانكو المراقبة على أسطول كان يعرف بالتعاطف مع القضية الجمهورية، وفي الوقت نفسه كانت هناك محاولات لعرقلة عمليات التعاقد التي تقوم بها الشركة الصناعية للصيد الكبير من خلال منع البحارة ذوي الجنسية الإسبانية من الإبحار تحت أعلام أجنبية<sup>16</sup>. وقد مكنت التدابير التي اتخذتها السلطات الإسبانية من استعادة السيطرة على صيادي الساحل، الذين كانوا يحتمون أساسا بوجود التشريع القضائي الفرنسي هربا من الفاقة والمذبحة الحقيقية الموجهة ضد جمهوريي الأرخبيل. وتزامنا مع ذلك، شجعت سلطات فرانكو، سنة 1939، صناعة تمليح الأسماك في جزيرة لاناروطي، بقيادة رودولفو ألونسو لامبيري (Rodolfo Alonso Lamberti)<sup>17</sup>. وقد نقل إنشاء مصنع لامبيري مركز عمليات مصايد الأسماك الكنارية إلى الجزيرة المتقدم ذكرها، بحيث سيصبح صيادو لاناروطي وسفنها يشكلون منذئذ أغلبية في مياه خليج ثالكو، وخاصة ابتداء من «اكتشاف» سنة 1950 أو سنة 1951، لمكان تواجد أسراب سمك النعاب والذي أطلق عليه عمدا اسم «كوريا»<sup>18</sup> (Corea).

في مقابل عداء سلطات فرانكو للازدهار الذي عرفه ميناء بور إيتيين، وهوسها بتصنيفية الحسابات مع القطاعات اليسارية في الأرخبيل، كان احتراس السلطات الفرنسية من مناورات السفن القليلة القادمة في تلك الفترة من الجزر. وقد حاول الصيادون الكناريون، المعرضون لضغوطات القوتين الاستعماريين، التأقلم مع الوضع الجديد الذي بدأ يحد من الحصانة الإدارية التي كانوا يتمتعون بها حتى ذلك الحين. ومع ذلك، فالقضية التي ما لبثت أن عقدت العلاقات بين المستعمرتين هي وجود «اللاجئين السياسيين»، ومعظمهم من جزر الكناري، الذين استقروا في ميناء بور إيتيين بين 1936 وحوالي سنة 1950.

كانت الإدارة الفرنسية تطلق تسمية «لاجئين سياسيين» المبهمة على الأشخاص من جزر الكناري وشبه الجزيرة الإيبيرية، الذين كانوا يفرون خلال الحرب الأهلية من الأراضي التي يسيطر عليها جيش المتمردين هربا من القمع أو للانضمام إلى الجبهة فور الوصول إلى المنطقة الجمهورية. ومع ذلك، وابتداء من سنة 1939، سُمي العديد من الكناريين بهذه التسمية على الرغم من أن الأسباب التي شجعتهم على مغادرة الأرخبيل كانت في المقام الأول ذات طابع اقتصادي. وبخضوعهم لوضع قانوني يكشف غرابة وجودهم في ميناء بور إيتيين ولا يسمح لهم، إلا استثناء، بالحصول على الجنسية الفرنسية، فإن وجودهم المتزايد في خليج ثالكو شكل بؤرة دائمة للمشاكل



بين الإدارتين كليهما، على الرغم من أن اندماجهم في النسيج الاقتصادي للمدينة، باعتبارهم بدا عاملة ماهرة، كان جيدا بشكل عام<sup>19</sup>. وعلى الرغم من أن بعض اللاجئين السياسيين كانوا في البداية مترددين في الاختلاط بالسكان المحليين، سواء المستعمرين أو المستعمرين، فقد أصبحوا يشكلون جزءا من التركيبة السكانية لبور إيتيين وأسهموا في زيادة عدد ساكني الجالية الكنارية التي كانت تعيش في المدينة، والتي وصل تعداد سكانها في لائحة الإحصاء الإداري لسنة 1949 إلى 141 مقيما دائما، مقابل 103 فرنسيين فقط<sup>20</sup>.

وهذا تقريبا هو الوقت الذي بدأت فيه القصص التي تناقلها صيادو المناطق الساحلية المستقرون بأريسييفي، عاصمة جزيرة لانثاروطي. وقد شكلت سنة 1950 حقا عصرا ذهبيا للمجتمع الكناري بميناء بور إيتيين، وفي الوقت ذاته نموذجا محليا للعالمية المستمدة من فكرة الانفتاح على الموارد الاقتصادية التي جلبها معه الاستعمار إلى القارة السمراء. وهذا ما يكشف عنه تقرير سنة 1951 عندما يشير إلى مرآب هيأة الشركة التجارية شوفيل (Chauvel) من أجل الخط الجديد للشاحنات الذي سيربط بور إيتيين مع أطار، حيث يصف «عش نمل خلاب أهل بالسكان وحيث تتحدث فيه الإسبانية والفرنسية والحسانية... وحتى البروتونية عندما تظهر قوارب صيد جراد البحر في الخليج»<sup>21</sup>. الإشارة إلى مدرسة سانت إكزوبيري (Saint-Exupéry) الجديدة المزدهرة لها نبرة مماثلة، وهو ما يوحي، على الأقل في الأوساط الفرنسية، إلى أن البيئة متعددة اللغات والمنفتحة التي تميزت بها المدينة تعد قيمة مضافة:



أسطول بحري بالسواحل  
الصحراوية، (ب.ت.)

«إن مدرسة سانت إكزوبيري، بوتقة التأثير الفرنسي التي ينبغي إبراز أهميتها، تقدم مشهدا فريدا وإيحائيا لمجتمع بور إيتين: أطفال فرنسيون، وأطفال عرب من طبقة المحاربين، وأطفال إسبان، وأطفال سود، يختلطون كما لو كانوا إخوة، بدون نفاق، في رطانة مرتجلة يقتصر استخدامها لحسن الحظ على وقت الراحة»<sup>22</sup>.

وفي بعض المناسبات يُعرض هذا الجانب العالمي للمدينة بفخر واعتزاز. فمباريات كرة القدم التي تجرى في الملعب القريب من المطار، حيث تعرف المواجهات بين البحارة الفرنسيين والعمال الكناريين بالشركة الصناعية للصيد الكبير، وشباب البيضان الذين يريدون تعلم ممارسة هذه الرياضة<sup>23</sup>؛ وبطولات المصارعة الكنارية في لا تُشارُكا (La Charka)، حسب بعض الشهادات في كاسا فيفو (Casa Fefo)، أكبر الشركات التجارية الكنارية في المدينة، التي يشارك فيها الصيادون القادمون من الأرخيبيل، والذين يدرّبون بدورهم الشباب المحليين الذين يودون لو يجربون حظهم<sup>24</sup>... لا تُشارُكا، على وجه الخصوص، كانت تملأ الدنيا صخبا بالنشاط، بخليط من أكواخ كان يمتزج فيه الصيادون المحليون - بقيادة إحدى العائلات المهمة في المدينة، يعني، أهل الغزال - والصيادون والتجار الكناريون، الذين كانوا يفتحون محلاتهم للنجارة أو إصلاح السفن في لا تُشارُكا نفسها، أو يتخذون المراكب الشراعية والسفن الراسية في الخليج مساكن مؤقتة وفي الوقت نفسه مراكز لتهريب المواد الغذائية، والخمور، والسجائر. وقد بدأت الشركات التجارية الكبرى لبور إيتين، مثل إنترا (Intra) أو شوفيل (Chauvel)، في الاستقرار في لا تُشارُكا، وبناء الحظائر والمستودعات التي ستكون مقدمة للتحويل المعماري الذي سيعاني منه في السنوات اللاحقة أقدم حي في المدينة.

نتوفر على مصدر ثمين لمراقبة التطور الذي عرفته نواذيبو في السنوات الموالية؛ ويتعلق الأمر بالبحث الذي أجراه بيير بونت (Pierre Bonte) في بداية عقد السبعينيات، حول مختلف مسارات التعمير والتنمية الاقتصادية التي شملت المدن الكبرى في موريتانيا. في الكتيبات المخصصة لنواذيبو، والتي نشرت سنة 1972، يقدم بونت صورة عن تجمعات سكنية بدأت تظهر عليها ملامح الحياة الحضرية، مع عملية الاندماج والتخصص المتزايد على الرغم من نمو لا علاقة له بأي تخطيط، بقطاع عمل ديناميكي ومتعدد الأعراق (32.2% من سكان المدينة ينتمون إلى إثنيات من جنوب الصحراء، وإثنيات موريتانية، ومن دول أخرى)، وأخيرا بقطاع صيد مصنع تشارك فيه أساطيل إسبانية أو فرنسية أو يونانية، أو إيطالية، أو يابانية أو هولندية<sup>25</sup>. وكان الأثر المشترك لإنشاء شركة حديد موريتانيا، المعروفة اختصارا بميفرما (MIFERMA)، وللصيد واسع النطاق هو تغيير ملامح المدينة، التي لم تعد مجرد ميناء صيد نشط تراقبه حامية عسكرية بل أصبح القطب الرئيس للتنمية الاقتصادية على الساحل الصحراوي، وربما من أكادير إلى سان لويي (Saint-Louis)<sup>26</sup>.

ومع ذلك، كانت هناك حدود للجو العالمي الذي أوجده التصنيع، وخاصة في قطاع الصيد البحري، على الأقل استنادا إلى المرويات التي تم جمعها من صيادي الساحل. نستشف من تلك المرويات جهلا عاما للخطوط الرئيسية للقوة التي يتم فصل حولها مجتمع بور إيتين، وفي الوقت نفسه عدم الرغبة في الاندماج في ذلك العالم الصغير الذي بدا لهم غريبا. من الواضح أن خبرة الصيادين بالمدينة كانت، في معظم الأحيان، خبرة سطحية. بوصولهم إلى الميناء لتفريغ صيدهم في البواخر الراسية في الخليج، على أرصفة الشركة الصناعية للصيد الكبير، أو لإصلاح التروس قبل استئناف صيد الأسماك، يظل معظمهم في زوارق أو مراكب صغيرة، لا ينزلون منها إلا لشراء حاجياتهم تقريبا ودائما من شركات تجارية، مثل فيفو وبينيطو روصا (Fefo, Benito Rosa)، التي أقامها صيادون قدامى في لا تشاركا. وفور نزول الصيادين الكناريين من المراكب، نادرا ما كانوا يغامرون خارج أسوار لا تشاركا، حيث كان بإمكانهم أن يجدوا اللوازم لإصلاح السفن، والمخبزة الخاصة بهم، والمطاعم التي تحضر الطعام الكناري، وحتى الحلاق من أصل كناري. في ظل هذه الظروف، ليس من المدهش ألا تكون لديهم أدنى فكرة عن بقية المجتمع الكناري التي كانت تسكن المدينة، من عمال الشركة الصناعية للصيد الكبير، والمصلحة العامة للأشغال العمومية، ولاحقا شركات مثل صوراما (SOTRAMA)، المرتبطة بالبنية التحتية للميفرما، وكثير منهم من «اللاجئين السياسيين» الذين استقروا في نهاية المطاف بالمدينة.

ومن وجهة نظر صيادي الساحل، فإن محيط «الرأس الأبيض»، المعروف بمجموعة غنية وقديمة من الأسماء الكنارية للمواقع الجغرافية والتي لم يحتفظ منها إلا ببعض الشذرات في لائحة الأسماء الحالية («لا تشاركا»، La Charka) «لبونتيا»، (La Puntilla) «ميناء كانصادو» (Puerto Cansado)، إلخ. مازال يشكل في الأساس قطاعا ساحليا ضيقا ومصدر تهديد، شهد في الماضي إبرام معاهدات حماية مع الشيوخ المحليين، ولكن هذه المرة ستعرف الاتفاقات نقطة انطلاق أخرى وهي لا تشاركا، حيث تم منح ألقاب كنارية لبعض الأشخاص، الأمر الذي يستحيل معه تحديد مصدرها نحو وبييتو دي أورو (بويضة الذهب Huevito de Oro)، ثباتيا (Zapatilla، نعال)، بيريكو المورو (Perico el Moro)، أو، في أحسن الأحوال، موكيفر (Mocaifer). الأساطير التي يروونها البحارة مرارا وتكرارا، مثل «شجرة العذراء» (Mata de la Virgen)، وهو موقع على الساحل حيث ألقى «الموروس» (العرب) القبض على صيادين كناريين ودفنوا أجسامهم كليا في الرمال إلى أن تراءت لهم العذراء مريم وبمعجزتها حررتهم، تلك الأساطير تبرز الطابع الأداتي والبروتوكولي للعلاقات التي كانت تربط الصيادين مع سكان الساحل، في استمرارية واضحة مع الماضي. وصفهم للسكان المحليين المليء بالصور

النمطية الموروثة عن آباءهم وأجدادهم، الصيادين مثلهم، يعلن عن اقتصاد أخلاقي مرتبط باحترام العهد وتمجيد الجهد الشخصي كوسيلة لتحقيق الازدهار ينبع من الأخلاقية الكلاسيكية الكلفينية للرأسمالية المبكرة، ولكنه يتجاهل مع ذلك الإطار غير المتكافئ وعدم الثقة المتبادلة اللذين غالبا ما تنبني عليهما هذه العلاقات التجارية. وعلاوة على ذلك، فالشعور بأن نشاط الصيد يشكل «التراث الطبيعي» للأسطول الكناري، ويرتبط منذ زمن سحيق بمنطقة الصحراء، يجعلنا نفهم أن وضع تشريعات وقائية من قبل الدولة الموريتانية المستقلة، وسيادة رأس المال الموريتاني في قطاع الصيد البحري ابتداء من سنة 1970، يتم تفسيره على أنه خيانة للأصحاب الشرعيين لحقوق الصيد التي حولتها لهم الإدارة الفرنسية.

العديد من الصيادين القدامى يتذكرون بتحسر أنهم كانوا قد مكثوا في بور إيتين، نواذيبو حاليا، «إلى أن طردهم «الموروس» (العرب)، كما يلاحظون أن التدابير التي نهجتها موريتانيا المستقلة من أجل تنمية قطاع الصيد البحري تنطوي على الكثير من الوضوح - القاتم، الأمر الذي يؤكد حكمهم على نواذيبو بأنها مدينة «أصابها الضياع» بعد زوال النظام الاستعماري الذي كانوا هم المستفيدين منه، وإن بشكل غير مباشر. «غياب جدية» الشركاء الموريتانيين، أو روحهم «الثورية والكسولة» أو «ازدراؤهم للعمل في الصيد البحري» هي تصريحات ينبغي سياقها في إطار النظرة إلى الوراء والحنين إلى الماضي لبعض المعمرين الذين يتحسرون على امتيازات ارتبطت بوضعيتهم في وقت فصح فيه المنطق الاجتماعي المتعلق بأخلاقيات العمل الرأسمالية المجال أمام نموذج جديد من الاستغلال المالي لموارد الصيد. الأحكام المانوية التي تميز «العرب الجادين» عن «العرب غير الجادين»، والتي نجد لها أصداء في غيرها من التجارب الاستعمارية<sup>27</sup> وتجارب مرحلة ما بعد الاستعمار<sup>28</sup>، تؤدي في النهاية إلى إعادة إنتاج الأجواء الهادئة ظاهريا للسلام الاستعماري، وتدعونا إلى إعادة النظر في التجربة العالمية للمدينة وذلك في ضوء فضاء المناورة الضيق المحدد من طرف السلطات الفرنسية والإسبانية.

ومن الواضح أن وجهة النظر التي تبناها عموما صيادو المناطق الساحلية تعنيهم هم فقط. وهي مخالفة، على سبيل المثال، لتلك التي يقدمها العمال الكناريون التابعون للشركة الصناعية للصيد الكبير أو لعمال بناء خط السكة الحديدية التي كان من شأنها أن توحد نواذيبو مع زويرات. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن وجهة نظر العمال الفرنسيين التابعين للإدارة الاستعمارية أو الشركات الموجودة في تلك المدينة. وفي مثل تلك الحالات، كان هناك العديد من الفرص لإقامة علاقات دائمة وأكثر تعقيدا مع السكان المحليين، ولكن قليل ما يمكن أن يقال عنها في هذا الوقت. إن ما أحاول الإشارة إليه هو أن حالة الصيادين الكناريين، الفريدة من نوعها سواء بالنسبة لطول فترة تواصلهم مع سكان المناطق الساحلية أو فيما يتعلق بسطحيتها، تحصر بأطرافها حدود نوع من العالمية التي أوجدتها الرأسمالية الصناعية في السياق الاستعماري الصحراوي. وعندما غادرت المجموعة الكنارية نواذيبو نهائيا في أواخر سنة 1970 ومطلع سنة 1980، نتيجة تلاقي عدة عوامل من بينها إقرار العملة الموريتانية، الأوقية، والإرادة السياسية لخلق قطاع صيد بحري موريتاني والآثار الجانبية للحرب في الصحراء الغربية، فإن الأثر الذي بقي عن الوجود المستمر والطويل للمجموعة الكنارية كان متواضعا، بما يتفق مع تاريخها الخاص. وبصرف النظر عن بعض أصحاب السفن العاملين لفائدة الشركات الموريتانية، وبعض الحانات الفارغة ونزل كناري مليء بالذكريات وفارغ من الزبائن، شد الصيادون الكناريون الرحال إلى الأرخبيل، تاركين وراءهم مكانا سوف تحتله مجموعات أخرى من الصيادين - السينغاليين، والكوريين واليابانيين والصينيين والروس، الخ. - سيدخلون بدورهم مجتمعا مختلطا تطبع الاحتياجات الرأسمالية الليبرالية والمالية فيه حدود تعايش حقيقي.

## هوامش

.[CARAN, Serie 2G, cartón 24, camisa 41 16 - *Rapport politique de la colonie de Mauritanie pour l'année 1940* [SHAT, Serie 3H, cartón 2111].

17 - *Bulletin spécial de renseignements sur la zone espagnole du 1 janvier au 30 avril 1939* [SHAT, Serie 3H, cartón 2112]

18 - Francisco Toledo, Arrecife, 30 de septiembre de 2009.

19 - على سبيل المثال، التقرير السياسي 1938. دائرة دخلة ليفريي تقدر ب 200 شخص عدد الكناريين الذين يوجدون كلاجئين في التشاركا [ANM, Serie E2, cartón 93].

20 - *Bulletin de renseignements intérieurs du 22 avril au 22 juillet 1949* [ANM, Serie E2, cartón 118].

21 - *Rapport annuel sur l'état du Cercle de la Baie du Lévrier, 1951* [SHAT, Serie 5H, cartón 165].

22 - *Rapport annuel sur l'état du Cercle de la Baie du Lévrier, 1951* [SHAT, Serie 5H, cartón 165].

23 - *Rapport annuel sur l'état du Cercle de la Baie du Lévrier, 1951* [SHAT, Serie 5H, cartón 165].

24 - Dewa uld Zain ad-Din, Nouadhibou, 23 de noviembre de 1997.

25 - Bonte, P., *L'industrialisation et les populations nomades du nord de la Mauritanie. Nouadhibou*. 8 fascículos. Dactilografiado, 1972.

26 - عن ميغراما، التي أصبحت فيما بعد سنيم، أنظر بونت (2001). Bonte, P., *La montagne de fer*, Karthala, Paris, 2001.

27 - Mateo Dieste, J. L., *La hermandad hispano-marroquí. Política y religión bajo el protectorado español en Marruecos* (1912-1956), Bellaterra, Barcelona, 2003.

28 - Mamdani, M., *Good muslim, bad muslim. America, the Cold War, and the roots of terror*, Pantheon, Nueva York, 2004.

Revol, «Étude sur les fractions d'Imraghen de la côte mauritanienne», in *Bulletin du Comité d'Études Historiques et Scientifiques de l'A.O.F.*, XX, 1937.

7 - (1999) من أجل تحليل هذه القصص، أنظر ألكوك Acloque, B., «Nouadhibou c'est déjà ailleurs! Sur l'élaboration et la représentation sociale de l'espace urbain en milieu nomade», in *Annuaire de l'Afrique du Nord*, 1999, t. XXXVIII.

8 - فيليكس أورميغا (1992) قام بتمرين أدبي بالغ الأهمية حول الشهادات التي جمعها بين سكان لانثاروطني.

9 - وقعت الهجمات ليلة 26 مارس 1924 و 12 يونيو 1927. وقد تزعمها الأخوان، محمد تقي الله ولد علي الشيخ (المعروف أيضا باسم «وجاهة») ومحمد المأمون ولد علي الشيخ اللذان تربطهما قرابة بالشيخ ماء العينين عن طريق المصاهرة. وقد تصدت الحامية العسكرية لتلك الهجمتين [أنظر لوبيث بارغادوس (2003: 496-501)].

López Bargados, A., *Arenas coloniales. Los Awlad Dalim ante la colonización franco-española del Sahara*, Bellaterra, Barcelona, 2003, pp. 496-501.

10 - Saint-Exupéry, A. *Terre des hommes*, Gallimard, Paris, 1939, pp. 104-103.

11 - أورميغا، الرسييفي، بتاريخ 29 شتنبر 2009. Martín Hormiga, F., *El rabo del ciclón*. Arrecife: Cofradía de Pescadores San Ginés, 1992.

12 - سنة 1923، على سبيل المثال، استأجرت الشركة الصناعية للصيد الكبير قرابة أربعين زورقا من جزر الكناري Caran, Serie 2G, cartón 23, Camisa 41.

13 - CARAN, Serie 2G, cartón 26, Camisa 37.

14 - كما ضمن في التقرير عن الصيد في موريتانيا، الموقع في بور إيتيين بتاريخ 19 يوليو 1926. Caran, Serie 2G, cartón 24, Camisa 41.

15 - سنة 1933، حاكم موريتانيا، دوسومي، فرض من جديد المصالح الجمركية في ميناء بور إيتيين، بهدف السيطرة على صفقة كبيرة من بنادق الماوزر، التي تم تحديدها في لاس بالماس، كانت موجهة إلى زوارق الساحليين Vid.

1 - يندرج هذا المقال في إطار مشروع البحث المعروف بالبحث العلمي والتطوير والابتكار التكنولوجي بتمويل من وزارة العلوم والتكنولوجيا، تحت عنوان «الصحراء الغربية (1884-1976). ذاكرة الاستعمار: نظرة ما بعد الاستعمار» تحت إشراف خوان كارلوس خيمينو مارتين. وأتقدم بالشكر الجزيل للزملاء جميعهم الذين كانوا جزءا من هذا المشروع على المساعدة التي قدموها لي، وأخص بالذكر فرانسيسكو كوريال وخيسوس مارتينث ميلان. وفي لانثاروطني، أتقدم بالشكر أيضا للأخوين فيليكس وإينريكي مارتين أورميغا.

2 - Monod, T., «Port-Étienne», en *La revue maritime*, n° 52, 1924, pp. 442-471.

3 - Rapport n° 1. Poste de Cansado. ANM, Serie E1, carton, 31.

4 - دون استفاضة، بعض المراجع الخاصة تصف بالتفصيل طبيعة هذه المراجع. أنظر، على سبيل المثال.

Berthelot, S., *De la pêche sur la côte occidentale d'Afrique et des établissements les plus utiles aux progrès de cette industrie*. Béthune, Paris, 1840 ; Robin, J., «Moors and Canary islanders on the coast of the Western Sahara», in *The Geographical Journal*, vol. CXXI, part 2, 1955 ; Martín Corrales, E., *La pesca española en el litoral norte africano en el siglo XVIII: orígenes de un conflicto*, Barcelona, 1986.

5 - Bonte, P. «Symboliques et rituels de la protection. Le sacrifice *t'cargiba* dans la société maure», in Bonte, P. ; Brisebarre, A.-M y Gokalp, A., (dir.), *Sacrifices en Islam. Espaces et temps d'un rituel*. CNRS, Paris, 1999, p. 255.

6 - Ould Cheikh, A. W., «Les pêcheurs imraguen du Banc d'Arguin (Mauritanie), «l'invention» d'une identité «écologique»», in Lopez Bargados A. et Martinez Milan, J., ed., *Culturas del litoral. Dinámicas fronterizas en la costa mauritano-sahariana*, Bellaterra, Barcelona, 2010

من جهته، أصدر ريبول تقريرا مستفيضا عن مختلف أشكال الضرائب التي كانت تفرض على مختلف مجموعات إمرأكن في الساحل الموريتاني.

## المراجع المذكورة

Acloque, B., « Nouadhibou c'est déjà ailleurs! Sur l'élaboration et la représentation sociale de l'espace urbain en milieu nomade », in *Annuaire de l'Afrique du Nord*, 1999, t. XXXVIII ; 307-319.

Berthelot, S., *De la pêche sur la côte occidentale d'Afrique et des établissements les plus utiles aux progrès de cette industrie*. béthune, Paris, 1840.

Bonte, P., *L'industrialisation et les populations nomades du nord de la Mauritanie. Nouadhibou*. 8 fascículos. Dactilografiado, 1972.

Bonte, P. *Symboliques et rituels de la protection. Le sacrifice t'cargéba dans la société maure*, in Bonte, P. ; Brisebarre, A.-M y Gokalp, A., (dir), *Sacrifices en Islam. Espaces et temps d'un rituel*. CNRS, Paris, 1999, pp. 239-261.

Bonte, P., *La montagne de fer*, Karthala, Paris, 2001.

López Bargados, A., *Arenas coloniales. Los Awlad Dalim ante la colonización franco-española del Sahara*, Bellaterra, Barcelona, 2003.

López Bargados, A. et Martínez Milán, J., *Culturas del litoral. Dinámicas fronterizas en la costa mauritano-sahariana*, Bellaterra, Barcelona, 2010.

Mamdani, M., *Good muslim, bad muslim. America, the Cold War, and the roots of terror*, Pantheon, Nueva York, 2004.

Martín Corrales, E., *La pesca española en el litoral norte africano en el siglo XVIII: orígenes de un conflicto*, Barcelona, 1986.

Martín Hormiga, F., *El rabo del ciclón*. Arrecife: Cofradía de Pescadores San Ginés, 1992.

Mateo Dieste, J. L., *La hermandad hispano-marroquí. Política y religión bajo el protectorado español en Marruecos (1912-1956)*, Bellaterra, Barcelona, 2003.

Monod, T *Port-Étienne*, en *La revue maritime*, n° 52, 1924, pp. 442-471.

Ould Cheikh, A. W., *Les pêcheurs imraguen du Banc d'Arguin (Mauritanie) : «d'invention» d'une identité «écologique»*, en Lopez Bargados A. et Martínez Milan, J., ed., *Culturas del litoral. Dinámicas fronterizas en la costa mauritano-sahariana*, Bellaterra, Barcelona, 2010, pp. 153-178.

Revol, *Étude sur les fractions d'Imraguen de la côte mauritanienne*, en *Bulletin du Comité d'Études Historiques et Scientifiques de l'A.O.F.*, XX, 1937, pp. 179-224.

Robin, J., *Moors and Canary islanders on the coast of the Western Sahara*, en *The Geographical Journal*, vol. CXXI, part 2, 1955, pp. 158-163.

Robin, J., *Une vie coloniale. Récit d'un survivant de l'ère coloniale à ses petits enfants*, Impresión restringida, 1998.

Saint-Exupéry, A. *Terre des hommes*, Gallimard, Paris, 1939.

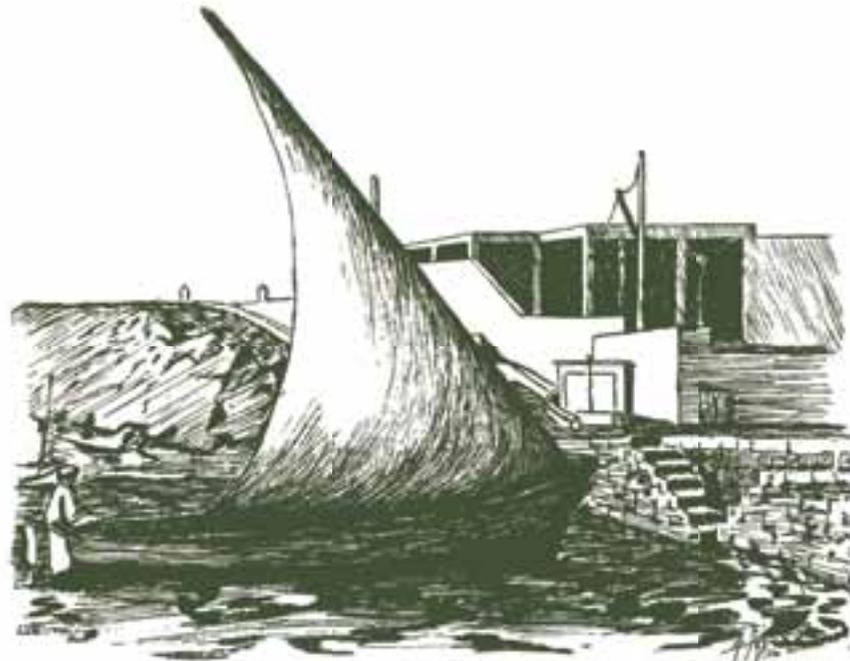
### Abreviaturas

AGA : Archivo General de la Administración (Alcalá de Henares)

ANS : Archives Nationales du Sénégal (Dakar)

ANM : Archives Nationales de la Mauritanie (Nouakchott)

CARAN : Centre d'Accueil et de Recherche des Archives Nationales (París)





# الصيد البحري إسبانيا والصحراء (1945 - 1982)

خيسوس مارتينيث ميلان

## مقدمة

يهدف هذا المقال<sup>1</sup>، من وجهة نظر التاريخ الاقتصادي، إلى تحليل الاستثمارات التي أنجزتها إسبانيا أولاً في مستعمرة الصحراء الغربية القديمة، ثم بعد ذلك في الجمهورية الإسلامية الموريتانية الحديثة المنشأة.

وبالمقارنة مع التأثير الكبير الذي كان للتاريخ السياسي والعسكري والثقافي، وغيره من العلوم الأخرى مثل الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسي، في الدراسات حول الاستعمار الإسباني لهذا الجزء من إفريقيا، نادراً ما كان للتاريخ الاقتصادي حضور في علم التاريخ حول المستعمرة الإسبانية سابقاً، ما عدا إذا استثنينا من ذلك الدراسة القديمة التي أجراها خابيير مورياس (Javier Morillas)، تحت عنوان: «الصحراء الغربية. التنمية والتخلف»، والتي نشرت في مدريد سنة 1988. وتشكل تلك الدراسة حتى الآن المحاولة الوحيدة لإجراء تحليل شامل للاقتصاد الصحراوي منذ القرن السادس عشر حتى سنة 1975. وبالإضافة إلى هذا الكتاب، نجد مقالا آخر حول تدخل نظام فرانكو في الصناعة الغذائية الإسبانية أعده الأستاذة بارسيللا (Barciela)، ولوبيث (López)، وميلغارينجو (Melgarejo)، وقد خصصوا فيه بضع صفحات للشركة الإفريقية للصناعات السمكية «إيباسا» ش.م. (IPASA)<sup>2</sup> وهذا هو السبب الذي دفعني في هذه المداخلة - على ضوء الأبحاث التي قمنا بها حول أرشيف الشركة الإسبانية للإسهامات الصناعية<sup>3</sup> - إلى محاولة دراسة النشاط الاقتصادي الذي عمل نظام فرانكو وكذا الحكومات الديمقراطية الأولى على ترسيخه في قطاع الصيد البحري من خلال الشركات التابعة بالكامل للمعهد الوطني للصناعة إيني، (INI) أو عن طريق الشركات المختلطة.

صيادان من امراغن،  
ممتهنوا الصيد في المجتمع  
الصحراوي التقليدي،  
(ب.ت.)

## الشركة الإفريقية للصناعات السمكية، ش.م. (إيباسا): شركة بقدمين من صلال (1947-1965)

في سنة 1946، وبناء على طلب الإدارة العامة لسلطات الحماية الإسبانية في المغرب والمستعمرات وعلى طلب المعهد الاجتماعي للبحرية، شرع المعهد الوطني للصناعة المعروف اختصاراً بـ «إيني»، من خلال «لجنة تسيير شؤون الصيد البحري» التي شكلتها شركة إلكانو (Elcano)، في دراسة إمكانية «ترشيد استغلال» صيد أسراب السمك بالساحل الصحراوي. وسنة بعد ذلك (1947)، أحالت اللجنة المسيرة على رئيس المعهد الوطني للصناعة تقريراً بعنوان «الدراسات العضوية للشركة التي سيتم تشكيلها لحسن استغلال الصيد البحري والقشريات والرخويات والطحالب في شواطئ الصحراء الغربية».

ويجمع آراء الدراسات السابقة، عمل التقرير على تحديد الأهداف الثلاثة الواجب على الشركة تحقيقها. وأول هذه الأهداف، وهو ذو طابع سياسي، الحيلولة دون تمكن الدول الأخرى من الاستقرار في تلك الأراضي، ومنع اليد العاملة الإسبانية من العمل في تلك المياه لمصلحة الخارج. وثاني هذه الأهداف، وهو ذو طابع اجتماعي، لا يروم فقط تحسين مستويات عيش السكان الأصليين لإفريقيا الغربية الإسبانية، بل أيضاً الإسهام في تخفيض تكاليف المعيشة في شبه الجزيرة الإيبيرية بواسطة المنتجات السمكية ومشتقاتها، وتنويع النظام الغذائي لبعض المناطق حيث ينعدم استهلاك الأسماك أو لا يكفي. وأخيراً، الهدف الاقتصادي الذي يتجلى في إعادة الاعتبار للصحراء الغربية، باستخدام التكنولوجيا المتقدمة في عملية الإنتاج السمكي ومشتقاته، وفي الوقت نفسه البحث عن أسواق جديدة في بلدان ومناطق أخرى من القارة الإفريقية، التي من شأنها تحسين أداء الميزان التجاري للاقتصاد الإسباني.

وسيتم تطوير الشركة الجديدة المزمع إنشاؤها على مرحلتين، إذ إنه في المرحلة الأولى سيتم شراء سفينة شراعية ذات محرك لنقل المنتجات الثانوية والبضائع، وسفينة نقل مبردة تبلغ حمولتها الصافية المسجلة 500 طن وسفينة بخارية قد تتحول إلى سفينة مصنع، إسمها الأرتيكو (El Artico). وفي الوقت نفسه، كانت هناك مساعي للاستفادة من التنازل عن مصنع ماركوتيجي (Marcotegui) في الكؤيرة، إلى جانب شراء ثلاث شاحنات مبردة ومخازن في مدريد وإشبيلية. والمرحلة الثانية تنتهي بشراء سفينة نقل أخرى مبردة بالإضافة إلى بناء مصنع جديد في فيلا سيسنيروس (الداخلية حالياً) للتلميح والتجفيف، وحفظ الأسماك وتجميدها. إضافة إلى كل هذا سيتم شراء ثلاث شاحنات مبردة في بلنسية، ومحلين تجاريين (واحد في بلنسية والآخر في لاس بالماس)، وبناء قري في الداخلية والكؤيرة لإيواء العمال<sup>4</sup>. وفي أواخر أبريل 1947، تم شراء المبنى المسمى بيسكاديريا «متجر الأسماك» مع فناء وأرض ملحقين من الشركة الإفريقية المستعمرة، ش.م.

وفي الخامس من أكتوبر سنة 1947 نشر في الجريدة الرسمية المرسوم الصادر عن رئاسة الحكومة بتاريخ 30 شتنبر، سلم بموجبه بطاقة الطبيعة للشركة الإفريقية للصناعات السمكية إيباسا، وهي شركة مختلطة لاستغلال صيد أسراب السمك في الساحل الصحراوي. وقد أصبح المعهد الوطني للصناعة يملك 60% من الأسهم، برأس مال يقدر بثلاثين مليون بسيطة، في حين ستكون ملكية 40% من الأسهم المتبقية من نصيب المساهمين الخواص المنحدرين من غاليسيا (Galicia)، وبرشلونة (Barcelona)، ومدريد (Madrid)، وويلبا (Huelva)<sup>5</sup>. وحسب رأي خافيير مورياس (Javier Morillas)، فإنه قد صاحب إنشاء الشركة نقص واضح في الكفاءة المهنية. إذ إن غالبية أعضاء مجلس الإدارة هم أشخاص قدموا من الشركة الوطنية إلكانو (Elcano) و«ذوو معرفة قليلة

بالمجال»، وتسببوا في نفقات «جد قليلة الإنتاجية»<sup>6</sup>. وبالفعل، فمن بين الأحد عشر عضوا الذين كان يتكون منهم مجلس الإدارة، نجد الرئيس، والكاتب العام، والعضو المنتدب، وخمسة أعضاء آخرين كانوا يمثلون شركة إلكانو. وهذه المناصب الستة كانت تسيطر على 53% من الأسهم التي تملكها تلك الشركة. ومع ذلك، فمن بين الأعضاء الذين يمثلون رأس المال الخاص نجد الإخوة ماصو (Masso) والباسكيين خوستو أوخيدا بيريث (Justo Ojeda Peres) وخابيير صالدانيا مارتين (Javier Saldaña Martín). وعلاوة على ذلك، ففي 28 من فبراير 1948، تمكن إيستيبيان بيريث غونثاليث (Esteban Pérez González) (عضو منتدب) من جعل إيستانيسلاو غرابييا (Estanislao Garavilla)، صاحب مصنع التعليب، من الباسك) يشرع في العمل لفائدة إيباسا. وكما ذكر مؤخرا رافائيل أوريارتي أيو (Rafael Uriarte Ayo)، فإنهم كانوا يبحثون عن «شخص من ذوي الخبرة في مجال الصناعة التعليبية». لقد عمل غرابييا (Garavilla) في جميع القطاعات في إيباسا، إضافة إلى كونه منتدبا لدى الشركة في الداخلة بين نونبر 1949 ويوليو 1950<sup>7</sup>. إن وجود أعضاء بارزين من بعض مصانع التعليب من شمال إسبانيا في الشركة يعادل، في رأينا، «قلة الخبرة» التي يعزيها خافيير مورياس لأعضاء إلكانو.

لقد كان رد فعل المقاولين أصحاب مصانع التعليب وأصحاب السفن الكناريين ردا فوريا وسريعا. ففي الثالث من يناير سنة 1948، في رسالة موجهة إلى رئاسة الحكومة، طالبوا بحل الشركة الإفريقية للصناعات السمكية، ش.م.م، أو بإصلاحات جذرية داخلها، لأنها، في رأيهم، تضر بمصالحهم. وكما يؤكدون، فمن الناحية القانونية والاقتصادية هذه الشركة خالفت القانون الذي أسس المعهد الوطني للصناعة نفسه، والذي هو عبارة عن «شركة الشركات التي (...) تخلق أو تتبنى المشاريع التي إن لم تكن مربحة، فإنها تعود بالنفع على الاقتصاد الوطني، بهدف محمود ألا وهو (...) بتسليمها للخوارج من أجل إدارتها وتسييرها». ومع ذلك، فإن الشركة الإفريقية للصناعات السمكية، ش.م.م، قررت تكريس اهتمامها ب«المشاريع الناجحة المقامة والتي ستبوء لا محالة بالفشل...». كل هذا قد يؤدي إلى «التراجع عن الصناعات السمكية في جزر الكناري لفائدة المستعمرات» و«الهجرة القسرية إلى إفريقيا»<sup>8</sup>. وفي مذكرة رد، تؤكد الشركة الإفريقية للصناعات السمكية أنها كانت شركة مختلطة «تسعى لتحقيق اكتفائها الاقتصادي الذاتي»، واعترفت صراحة بأن هذه الشركة جاءت لتعوض المبادرة الخاصة لأنه «لم يشرع أحد حتى الآن في الاستغلال الرشيد بالوسائل المناسبة، واستثمار رأس المال اللازم من أجل الاستغلال المكثف لصيد الأسماك، ومعالجة النفايات من أجل الحصول على المنتجات الثانوية»<sup>9</sup>.

وفي جوهر هذه المسألة يكمن خوف المقاولين أصحاب تعليب وتمليح الأسماك وأصحاب السفن الكناريين (وهؤلاء منقسمون<sup>10</sup>)، من ظهور شركة تقريبا احتكارية (لا ينقصها سوى أسطول صيد خاص) منافسة لهم في ظروف ملائمة فيما يخص إنتاج وتسويق وتمليح وحفظ الأسماك الطازجة، في السوق الإفريقية كما في سوق شبه الجزيرة، والاستفادة من اقتصاديات السعة التي قد توفرها مصانعهم في فيلا سيسنيروس والكؤيرة.

وفي عام 1949، شرعت الشركة في ممارسة أنشطتها، وقامت ببعض المحاولات في المجال التجاري، وبدأت ببناء وشراء العقارات والسفن الضرورية. وأما بخصوص المصانع - بينما شرع في أشغال المصنع الجديد بفيللا سيسنيروس - فقد تم تحويل مصنع الداخلة القديم إلى مصنع تجريبي من أجل إنتاج دقيق وزيت الأسماك، وكذلك التمليح والتعليب. وعلى نفس المنوال، اشترت الشركة الإفريقية للصناعات السمكية ش.م.م، سنة 1949، مَصْنَعِي الثلج اللذين كانا يوجدان في لاس بالماس بكناريا الكبرى «لاتروبيكال» (La Tropical) و«لا أفريكانا» (La Africana)، متحكمة بذلك في إنتاج الثلج برتمته في تلك الجزيرة وفي الجزء الأكبر من أسطول الصيد البحري في الصحراء. في أواخر ذلك العام، كانت السفينة المصنع «أرتيكو» على استعداد للإبحار، في

حين أن مراكب النقل المبردة كانت في حوض بازان لبناء السفن في انتظار تحويلها. تضاف إلى ذلك مراكب صغيرة من نوع العبّارات أو زوارق مجاذيف لنقل معدات صيد جراد البحر وجراد البحر الحي في طائرات «أبياثيون إي كومرسيو» («الطيران والتجارة») إلى أسواق مدريد، وبلباو، وبرشلونة، وإنشاء 10 أحواض لتربية الأسماك بسعة ستة أطنان.

في الثاني عشر من دجنبر 1949، قررت الجمعية العمومية الاستثنائية للمساهمين توسيع رأس مال الشركة من 30 حتى 50 مليون بسيطة، دون أن يحدث ذلك أي تغيير في نسب المشاركة في الإسهام في الشركة<sup>11</sup>.

وفي سنة 1950، واصلت الشركة إنجاز الأعمال التي شرعت فيها، في الوقت الذي حصلت فيه على المزيد من العقارات. وبينما الوضع في الداخلة على ما هو عليه، فقد اقتنت الشركة في تينيريفي في جزر الكناري مصنعا ثالثا للثلج أمام زيادة الطلب على المنتج في الأرخيل، متحكمة بذلك في العرض كله في المنطقة. من جهتها شرعت السفينة المصنع الأرتيكو في الاشتغال في يناير؛ وفي ذلك العام تم إنشاء «كونسورتيوم الصناعات السمكية في جزر الكناري» المعروف اختصارا بكوبييسكا (Coipesca)، والذي كان يجمع المصنعين الموجودين في الجزر كلهم والذين يتعاونون إنتاج وتصدير السمك المجفف والملح، بما في ذلك شركة إيباسا. وكانت الفكرة هي احتكار بيع هذه المستحضرات في مستعمرة غينيا الاستوائية وأجزاء أخرى من جنوب الصحراء الكبرى، للقضاء على المنافسة التي كانت بينهم من حيث السعر والجودة. وفي أواخر العام، زار الجنرال فرانكو منشآتها في فيلا سيسنيروس، تزامنا مع الزيارة التي قام بها إلى إفريقيا الغربية الإسبانية. وفي خطاب ألقاه الجنرال فرانكو هنا «رئيس شركة إيباسا وموظفيها (...) على الطريقة التي تمكنوا بها من تحقيق هذه المهمة العظيمة والتي تكمن في تأسيس قاعدة صناعية في شبه جزيرة وادي الذهب»<sup>12</sup>. بيد أنه ليس كل براق بذهب.

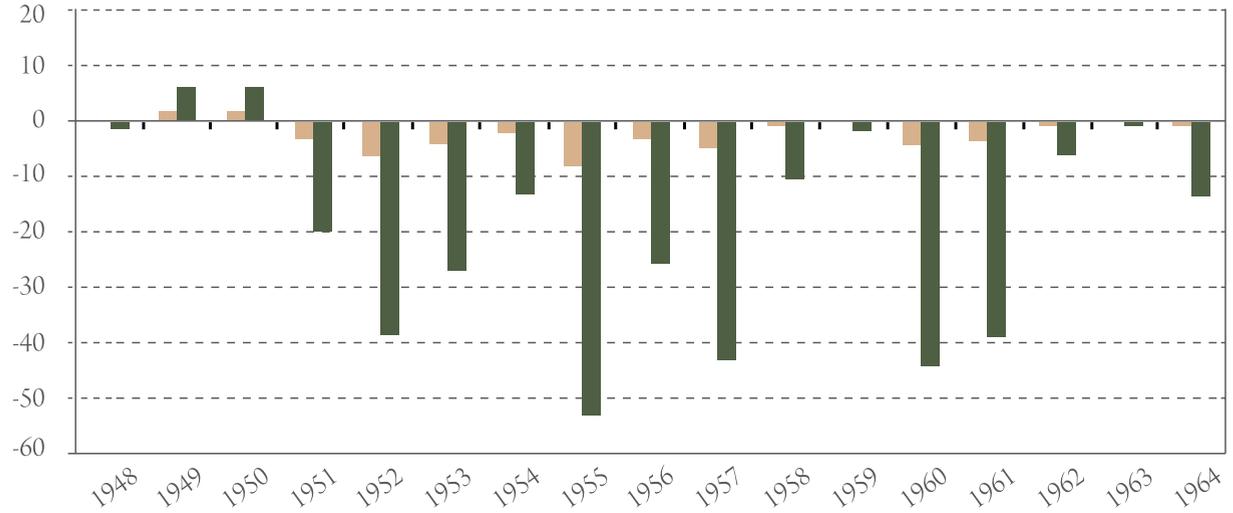
فقد أغلق بيان حساب الأرباح والخسائر الخاص بالشركة في السنة الأولى بخسارة تقدر بـ 256784 بسيطة، بينما في السنتين الموالتين (1949 و 1950)، بلغت الأرباح الإجمالية المتراكمة أكثر من ثلاثة ملايين بسيطة من حيث القيمة الإسمية (انظر الشكل 1).

وابتداء من سنة 1951، ساءت أحوال الشركة التي تكبدت خسائر مالية فادحة. فأعمال بناء المصنع الجديد في فيلا سيسنيروس كانت تتقدم ببطء لأنها تعتمد على بناء وتشغيل الميناء. وفي شهر نونبر اشترت الشركة مصنعا في منطقة باييسيكو (تينيريفي) لكي تقوم سفينة الأرتيكو بتفريغ الأسماك الطرية قصد تمليحها، بحيث إنه فيما مضى كانت تضطر إلى القيام بذلك في مصانع أخرى في جزر الكناري عن طريق دفع الرسوم. وبعد مدة قصيرة، وأمام قلة كميات الأسماك التي تصل إلى السفينة-المصنع، أصبحت هذه الأخيرة مجبرة على الرسو في ميناء بلباو لأنها تتكبد خسائر أكثر مما تجنيه من الأرباح. وأدى ذلك إلى تحول في مسار أنشطة سفيتي الكؤيرة وفيلا بينس (Villa Bens) اللتين، بالإضافة إلى كونهما معدتين للنقل المبرد وصهاريج تربية الأسماك، كان لا بد من تأجيرهما طبقا لعقد مشاركة الإيجار لفائدة الشركة التجارية الإسبانية الإفريقية، ش.م.م.، من أجل القيام بالرحلات بصفتها سفيتي بضائع إلى إفريقيا وغينيا الاستوائية، مما كان يعسر استعمالهما لكونهما غير مناسبين لمثل هذه المهام. وبالنظر إلى السعر المدفوع عن تلك السفن الثلاث (حوالي أربعة وخمسين مليون بسيطة جارية)، ومصاريف الاستغلال المتولدة عنها، فإن الأضرار الاقتصادية والمالية للشركة كانت كبيرة للغاية. ومما زاد الطين بلة، أن الطلب على الأسماك الطرية والمجمدة من شبه الجزيرة كاد أن يكون منعما بسبب قلة عادة الاستهلاك، بينما ظلت مصانع الثلج هي الوحيدة التي لا تزال تجني الأرباح<sup>13</sup>. وبلغت الخسائر المتراكمة خلال

البيسطة سنة 1994 ■ البيسطة الجارية ■

الشكل 1 :  
حساب الأرباح والخسائر  
الخاص بإيباسا، 1948 - 1964  
(ملايين البيسطات الجارية  
والثابتة لسنة 1994)

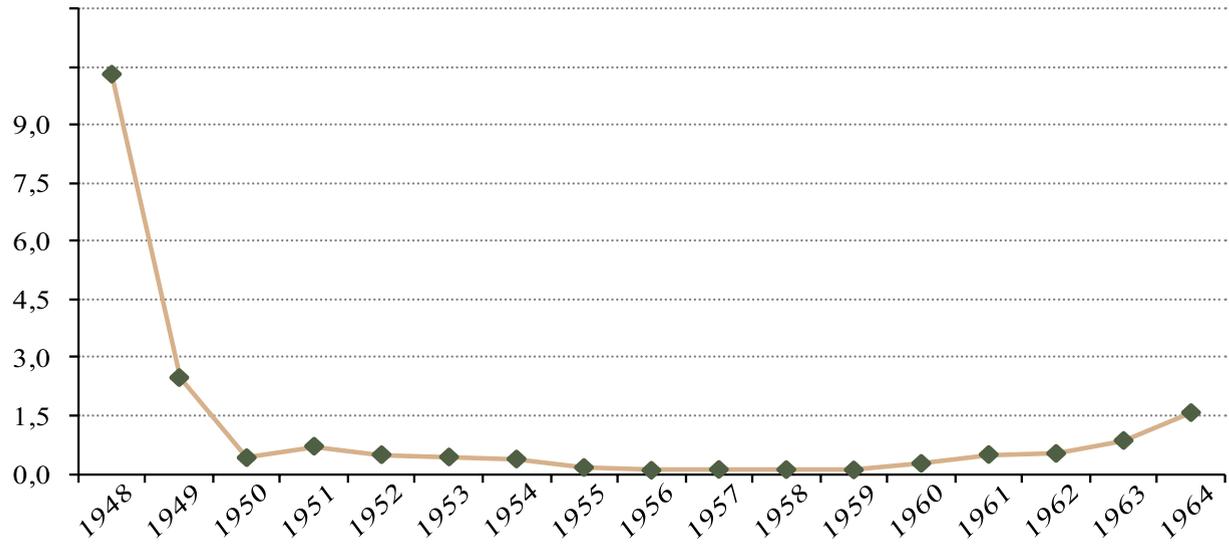
الصدر أسبيني : ASEPI إيباسا  
IPASA، تقارير وميزانيات حساب  
الخسائر والأرباح لسنوات 1948 - 1964



سنتي 1951 و 1952 ما يربو قليلا على العشرة ملايين في ظل الظروف الحالية، ونحو الستين مليون من حيث القيمة الحقيقية. واستمرت الخسائر في السنوات الموالية دون إيجاد أي حل.

وفي رسالة وجهها رئيس إيباسا في صيف 1953، السيد خيسوس ألفارو فورنيير (Jesús Alfaro Fournier) (ممثل إيلكانو)، إلى رئيس المعهد الوطني للصناعة، يوضح له فيها السببين اللذين في رأيه اضطررا الشركة إلى «تغيير التوجه الأولي»، ألا وهما عدم وجود ميناء في فيلا سيسنيروس، مما حال دون بناء المصنع، وغياب الطلب على الأسماك الطرية والمجمدة في شبه الجزيرة، لأنه تم حرمان سفن النقل والسفينة-المصنع من مزاولة أنشطتها الأساسية، على الرغم من أنهم حاولوا جعل سفينة الأرتيكو تقوم بتجفيف السمك باستعمال الملح، ولكن أصحاب الشركات الكناريين اعتبروا ذلك منافسة لهم، فلم يزودهم بالأسماك. ويضيف ألفارو، إلى ما سبق، عدم وجود أسطول صيد خاص، وارتفاع أسعار الكهرباء، وزيادة في سعر الشحن الجوي، ومشكل المياه، وأخيرا أن دقيق الأسماك المصنع في فيلا سيسنيروس تدفع عنه الرسوم الجمركية في شبه الجزيرة، بينما الدقيق المصنع في جزر الخالدات لا تؤدي عنه تلك الرسوم. ومع ذلك، ورغم وعيه أن الوضع المالي للشركة لا يمكن تحمله، لم يؤيد رئيس إيباسا فكرة اللجوء إلى تصفية الشركة. بل في ممارسة لا مسؤولة، كان يعتقد أنه مع «المساعدة والجهود، فإن هذه الصناعة يمكن وينبغي أن تنبعث من جديد»<sup>14</sup>.

وكان رأي إدارة المصالح الاقتصادية التابعة للمعهد الوطني للصناعة رأيا مخالفا تماما. وبالنظر إلى أن الشركة كانت تعاني عجزا كبيرا في الميزانية، وذلك بسبب الاستثمار المفرط في الأصول الثابتة في علاقتها بالأموال الخاصة المتوفرة وبالقروض طويلة الأمد، وبناء على أسباب اقتصادية بحثية، فإن قسم التفتيش والاستشارة المحاسبية اعتبرت أنه من الأفضل «تصفية الشركة»<sup>15</sup>.

الشكل 2 :  
معامل السيولة لشركة إيباساالمصدر: مجموعة من التقارير  
السنية وبيان الميزانية الخاصة  
بإيباسا، 1948 - 1964

ملحوظة: معامل السيولة (المعروف أيضا باسم «الملاءة الفنية» «معامل اليسار التقني») يقيس قدرة الشركة على مواجهة جميع ديونها القصيرة الأمد. والمستوى الأمثل هو عادة بين 1.5 و 2. فإذا كان المؤشر أقل من 1.5 يشير إلى أن الشركة لديها مشاكل في السيولة النقدية بسبب وجود فائض في الأصول الثابتة مقارنة بالأموال الخاصة والقروض طويلة الأجل.

وكما هو مبين في الشكل 2، فإن الشركة كانت تعاني من مشاكل السيولة على المدى القصير. بحيث إن المؤشر المالي انخفض بين سنتي 1951 و 1956، من 0.71 إلى 0.09 واستقر عند 0.11 بين سنتي 1957 و 1959، لينتقل من 0.27 إلى 1.58 بين سنتي 1960 و 1964. وبذلك أصبحت الشركة فنيا في حالة تقصير عن الدفع.

سنة 1954، وافقت الإدارة، أمام وضع مالي لا يمكن تحمله، على تجميد جميع عمليات الاستغلال غير المربحة، مع التركيز بشكل خاص على تشغيل سفن النقل، والتي ستقع مسؤوليتها على شركة إيلكانو، وعلى مصانع الثلج في لاس بالماس. وعلى الرغم من التعديلات، لم تتوصل إيباسا إلى أي حل، إذ إن انخفاض الطلب على الثلج ابتداء من الفترة الممتدة بين سنتي 1952 - 1953، والذي يعزى إلى كون الكثير من أزواج سفن الصيد في أعماق البحر بواسطة شبك الجر لم تعد لديها قاعدتها في لاس بالماس، وإلى تراجع صادرات الأسماك المجففة والمملحة إلى المستعمرات الإفريقية، حمل الشركة على البدء في إقفال مصانع الثلج تدريجيا في الجزر. واتضح هذا الواقع أكثر عندما تشارك بعض أصحاب السفن من سكان الجزر، وفتحوا مصنعا آخر سنة 1955 في لاس بالماس بكناريا الكبرى، في ما يعرف اختصارا بـ «فيدهاري» (Fedharpe).

بعد ذلك بستين (1957)، بيعت سفينة الكؤيرة (La Güera)، ومركب المايونيسا (la Mayonesa)، ومعدات صيد جراد البحر والسفينة الشراعية أينتورا (Aventura). بالإضافة إلى تخفيض رأس مال الشركة إلى مائة وخمسين مليون بسيطة. وقد تضمن تقرير تلك السنة عن الميزانية معلومات عن الخدمات المالية الخاصة بالمعهد الوطني للصناعة والذي يوضح، إذا كان ذلك ممكنا، كيف كان الوضع المالي للشركة. «...» في حين أن مبيعات الأصول الثابتة سنة 1957 مكنت من وجود تحسن مقارنة مع سنة 1956. ولكون شركات هذا المعهد والبنك الإسباني للقروض، في معظمها، هي الدائنة إذ تبقي على الائتمان دون المطالبة بإرجاعه فإن الشركة في

حل من الالتزام»<sup>16</sup>. وبعبارة أخرى، لم تتم تصفية إيباسا في منتصف الخمسينات لأن دائيتها الرئيسيين من الشركات التابعة لمجموعة المعهد الوطني للصناعة (إيلكانو، وبازان، وإيبيريا، وغيرها).

بين سنتي 1958 و 1963 تم التعجيل بعملية تصفية الشركة في أفضل الأحوال الممكنة، في الوقت نفسه الذي تمت فيه تصفية الديون والالتزامات المستحقة. وفي سنة 1959 بيعت مصانع الثلج في لاس بالماس للأخوين أوخيدا بيريث و بارادور (فندق) فيلا سيسنيروس لوزارة الجيش. وعلاوة على ذلك، بذلت جهود لكي يشتري الجيش الإسباني منشآت إيباسا جميعها في الداخلة. وفي الأخير، اشترى الجيش سفينة فيلا بنس ومنازل العمال. وفي سنة 1961 نقلت ملكية المصنع القديم إلى شركة تراسا (شركة الصحراء للنقل، ش.م.، في الوقت نفسه تم تخفيض رأس المال مرة أخرى إلى عشرة ملايين بسيطة<sup>17</sup>.

وخلاصة القول، نشأت إيباسا مع فكرة بناء مصنع في فيلا سيسنيروس يتألف من أقسام عدة، يزود سوق شبه الجزيرة وكذا سوق المستعمرات الإفريقية. ولتحقيق هذه الفكرة لم تتردد في شراء مصانع الثلج في جزر الكناري. ومع ذلك، فإن عدم وجود ميناء في فيلا سيسنيروس وفشلها في سوق شبه الجزيرة، إضافة إلى الفكرة السخيفة التي تنبني على الاستمرار في انتظار حلول وقت أفضل، جعلت الشركة تواجه مشكل ميزانية غير قابل للحل، ولد لديها خسائر إجمالية قدرها ثلاثة وأربعون مليون بسيطة من حيث القيمة الاسمية.

### الشركة الموريتانية للصناعات السمكية ش.م. المعروفة اختصاراً بـ «إيمابيك»: شركة ذات طابع سياسي، (1964-1979)

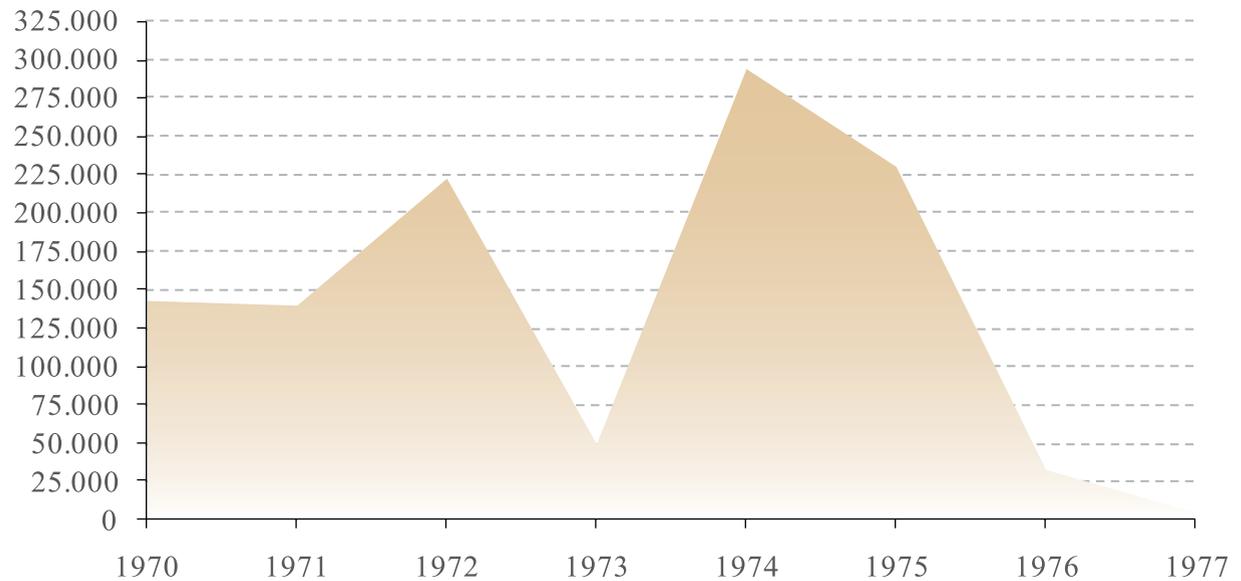
شكلت ولادة إيمابيك (IMAPEC) المحاولة الثانية والأخيرة للحكومة الإسبانية من أجل الاستثمار في القطاع الفرعي للصيد في منطقة الساحل الصحراوي-الموريتاني. وفي هذه الحالة، وبالتزامن مع تصفية إيباسا، فقد جاء تدخل الدولة الإسبانية مسبقاً بمحاولة فاشلة قامت بها سنة 1961 مجموعة من أصحاب السفن وصناعيي جزر الكناري ينتمون إلى كوبييسكا، والذين من أجل الحفاظ على امتيازاتهم في مياه صيد السمك الموريتانية عرضوا على الجمهورية الإسلامية الموريتانية الجديدة بناء مجمع صناعي في نواذيبو تتوفر فيه واحدة من أولويات حكومة مختار ولد داداه للاستفادة من الثروات السمكية لمياهها الإقليمية. وقد أدى فشل هذا الكونسورسيوم في تنفيذ ذلك بالمعهد الوطني للصناعة إلى أن يتعهد ببناء مجمع صناعي لأسباب سياسية (حماية مصالح أسطول الصيد التقليدي الكناري في تلك المياه، وفي الوقت نفسه «ضمان» صداقة بلد لم يخف مزاعمه حول الصحراء الغربية أبداً) أكثر منه لأسباب اقتصادية<sup>18</sup>.

بعد سلسلة من التقلبات في النصف الأول من الستينات، تأسست في نواكشوط في 19 أبريل 1966 الشركة الموريتانية للصناعات السمكية «ش.م. (إيمابيك)، الكائن مقرها في نواذيبو، لمدة 99 سنة. وكانت الغاية من ذلك إنشاء مجمع صناعي، متخصص في تصنيع الأسماك المملحة والمجففة والمعلبة، ودقيق وتجميد الأسماك. وحدد رأس مالها في 500 ألف فرنك إفريقي (115 مليون بسيطة)، مع اكتساب المعهد الوطني للصناعة الأسهم جميعها، على الرغم من أن الحكومة الموريتانية كما المقاولين الخواص يمكن أن يصبحوا جزءاً من المساهمين. وبخلاف إيباسا، فإن هذه الشركة شركة عمومية بالكامل. كما أن الحكومة الإسبانية سمحت لها بمبلغ آخر مماثل على شكل قروض، وبذلك وصل مجموع الميزانية إلى 230 مليون بسيطة. وبعد إنشاء الشركة، نقل المعهد الوطني للصناعة جميع أسهم إيمابيك إلى «شركة الاستثمارات المنقولة في الخارج ش.م.» المعروفة اختصاراً بـ «سيميكس»، والتي تنتمي أيضاً إلى هولدينغ المعهد الوطني للصناعة.

سنة 1967 بدأ بناء المجمع الصناعي الذي دشن سنة 1970، دون إتمام مرافقه بالكامل ودون إخضاعه للفترة اللازمة للتجريب والضبط. وفي 12 من يونيو، تم تدشين المجمع بحضور وزير الشؤون الخارجية والصناعة الإسبانيين، والحكومة الموريتانية يتقدمها الرئيس. وقد أشاد وزير الصناعة الإسباني، لوبيث روضو López Rodó، في خطابه بمميزات الشركة الجديدة في إطار العلاقات الإسبانية الموريتانية، دون الإشارة، بالطبع، إلى العراقيل التي يتعين تجاوزها، والتي كانت (وستكون) سبب الشكاوى المستمرة للمسؤول الديبلوماسي الإسباني في نواكشوط.

ومنذ أن بدأت إيمابيك أنشطتها، كانت الخسائر المتتالية هي ما يطبع بيانات الدخل على مدى الفترة الميمنة في الشكل 3. كما يمكن ملاحظة ذلك، ففي فترة الخمس سنوات الممتدة بين 1970 - 1974 نتج 75 في المئة من مجموع الخسائر (ثمانمائة مليون بسيطة من حيث القيمة الإسمية)، في حين أن 25 في المئة المتبقية (مائتان وثمانية وستين مليون بسيطة) استهلكت في السنوات الثلاث الأخيرة. وإذا اعتبرنا سنة 1970 هي الأساس، فإن الخسائر بلغت 156 بالمائة سنة 1972 ثم انخفضت، بعد سنة واحدة، إلى 35 في المائة نتيجة تراجع تكلفة الإنتاج، وزيادة المبيعات وتخفيض الخسائر الاستثنائية. وقد أجبر ارتفاع الخسائر سنة 1974، والتي تضاعفت مقارنة مع سنة 1970. أجبر الشركة على الشروع سنة 1975 في تعديل اقتصادي في مختلف الأقسام من أجل الحد من هذه الخسائر. كما اتخذت القرارات الأكثر نجاعة لحسن سير الشركة. وكانت النتيجة النهائية هي الانخفاض التدريجي في الخسائر بين 1974 و 1975، والذي تسارع ابتداء من هذه السنة الأخيرة حيث وصل عجز شركة إيمابيك، سنة 1977، أربع مائة مليون وسبع مائة ألف بسيطة. وكان ذلك ممكنا بفضل إغلاق قسم التمليح سنة 1976، والتوقيف شبه الكلي لأقسام التعليب والدقيق، نظرا للخسائر التي منيت بها، في الوقت الذي رفع فيه قسم الأغذية المجمدة إنتاجه إلى أكثر من 80 في المئة في السنتين الأخيرتين.

الشكل 3 مصدر: أسيسي، إيمابيك. تقارير وميزانيات سنوات 1971 - 1977. إعداد شخصي



وإذا ما قمنا بإجراء دراسة مفصلة عن الأسباب التي جعلت إيمبيك تصبح شركة غير قادرة على الاستمرار من الناحية الاقتصادية، نجد الأسباب التالية:

- إمدادات متقطعة من المواد الخام. ونظرا لعدم وجود أسطول خاص بالشركة، فإن المواد الخام كانت تعتمد، في البداية، على الأسطول الكناري، وعلى وجه الخصوص أسطول **لانثارووبي**. وحيث إن هذا الأسطول اعتاد على اصطياد سمك النعاب والأنواع الأخرى في مياه رأس نواذيبو لفائدة صناعات التملح في جزر الكناري؛ كانت هناك في الفترة الممتدة بين 1970 و 1972 محاولة لكي يصل هذا الأسطول، المؤلف من مراكب ذات حمولة صغيرة وذات هيكل خشبي، إلى مستوى كاف لتزويد الأقسام الأربعة من حيث الكمية والتنوع والانتظام والجودة. ولكونه لم يستطع بلوغ ذلك، فإنه ابتداء من سنة 1973 اضطرت الشركة إلى التعاقد مع مراكب بيرميو (Bermeo) وأليكانتي (Alicante)، وكذلك مع شركات أجنبية، مثل شركة الصيد الكورية دايريم فيشري كومباني (Daerim Fishery Company)، التي وفرت 11 سفينة (مبردتين وتسع مجمدات)، والشركة السوفياتية سوفريفلوت (Sovrybflot) بمجمداتها الثلاثين، وشركة الصيد الموريتانية Mauritanian Fishery Company (مافكو، Mafco)، التي كانت تتشكل من شركات يابانية كبرى والتي استقرت في نواذيبو بأسطولها الخاص (وادفكو Wadfco)، واثنى عشر سفينة تابعة لشركة الصيد الهولندية إنتربيش ليميتد (L'Interpeche Limited)، وأخيرا، زوارق السينغال.
- الحاجة إلى تغطية مناصب الإدارة والتسيير الوسطى المتخصصة بمستخدمين إسبان مؤهلين. ونظرا للظروف المعيشية للبلد، التي انضافت إليها ابتداء من سنة 1973 تدابير السياسة الاقتصادية والمالية التي اتخذتها حكومة الجمهورية الإسلامية الموريتانية، والوضع الناجم عن الأحداث في الصحراء الغربية، كانت التكاليف مرتفعة جدا بسبب إضافة مصاريف المساكن ورحلات العطل إلى الأجور.
- تدني مستوى الإنتاجية لليد العاملة المحلية على الرغم من كون رواتبها أعلى من تلك المطبقة في إسبانيا.
- ارتفاع تكاليف توفير المواد الإضافية. ونظرا لموقعها، كان من الضروري استيراد جميع المنتجات الوسيطة من إسبانيا وكانت مثقلة بأجرة الشحن، والنقل، والأضرار الناجمة عن الشحن والنقل، بالإضافة إلى عدم انتظام وصول الإمدادات. ولا يمكن التغلب على ذلك إلا من خلال المحافظة على مخزون كبير من هذه المواد، وهذا يستدعي أيضا تكلفة إضافية.
- صيانة المرافق الانتاجية والملحقة. نظرا لعوامل التآكل والكشط المحيطة بها نتيجة رطوبة الهواء والملح، وعلق الرمال، كان تسديد ديونها مكلفا وصعبا للغاية، لافتقار الشركة إلى خدمة خاصة أو خارجية، تقوم بأعمال الصيانة المناسبة.
- التسويق. بالنظر إلى أن السوق الوحيدة هي الخارج (أوروبا، وإلى حد ما، إفريقيا جنوب الصحراء)، و«عدم وجود خدمات منتظمة، ورسو السفن للتحميل، وأداء مصالح الموانئ والجمارك تشكل صعوبة للمبيعات وتسليمها». وكان يجب نقل المنتجات غير المجمدة المشحونة إلى ميناء لا لوث ولاس بالماس مع زيادة في النفقات. وفيما يخص المنتجات المجمدة كان يجب أن تفوق الإرساليات مائتي ألف طن، لأنه في حال ما إذا كانت أقل لا يمكن للسفينة أن تبخر، ما عدا إذا تعهدت شركة إيمبيك بأجرة الشحن ونفقات الرسو<sup>19</sup>.



عملية تجفيف السمك  
في قرى للصيادين على  
الساحل الموريتاني، (ب.ت.)

وكما كان متوقعا فبدل أن يتحسن الوضع لم يزد إلا سوءا. ونظرا للأهمية التي أولتها للشركة الحكومة الموريتانية الجديدة المنبثقة عن انقلاب صيف عام 1978، وقعت مملكة إسبانيا مع الجمهورية الإسلامية الموريتانية في 29 دجنبر من السنة نفسها على اتفاقية الصيد البحري، التي تنص في فقرتها الأولى على تحويل إيمابيك إلى شركة اقتصادية مختلطة تسمى «إيمابيك-سيم». وفي رأس مال هذه الشركة الجديدة ستسهم موريتانيا بنسبة 51٪ وإسبانيا بـ 49٪، مع التخصيص على أجل ثلاثة أشهر من أجل تنفيذها. ومن وجهة نظر سيميكتس فإنه نظرا للمشاكل التي تطرحها مراجعة حسابات (Audit) إيمابيك، قد يكون من الأفضل حل شركة إيمابيك وإنشاء- إذا قبل الطرف الموريتاني ذلك- شركة جديدة تجلب إليها سيميكتس الأصول الصناعية للشركة الحالية بناء على تقييم الخبير<sup>20</sup>.

### الاستنتاجات

لقد كانت «شركة الصناعات السمكية» الإفريقية (إيباسا) شركة مختلطة، وكان الهدف الواضح من وراء إنشائها يتمثل في تغيير مشهد الصناعة التعليبية تغييرا كاملا في منطقة الكناري والصحراء، في إطار طموح النظام إلى الاكتفاء، ولكن العديد من العوامل، مثل غياب بناء ميناء في فيلا سيسنيروس، وفشل عرضها في السوق الإسبانية، ولم لا، سوء تدبير الشركة منذ سنة 1952 التي أصبحت في حالة التوقف عن الدفع بسبب الشراء المفرط للعقارات التي تشكل ممتلكاتها من دون هدف اقتصادي واضح، كل ذلك قادها إلى الفشل الذريع. ومن جهتها فإن «شركة الصناعات السمكية الموريتانية، ش.م.»، كانت شركة أنشأتها إسبانيا بهدف سياسي واضح وبفكرة حماية مصالح صيادي جزر الخالدات في المياه الموريتانية، والتي لم تكن لها أية علاقة بمعايير الترشيد الاقتصادي، إذ شرعت الدولة سنة 1973 بدعم الخسائر التي تكبدتها إيمابيك منذ بدء عملها، والتي وصل مجموعها سنة 1979 بليوناً ومائة وثمانية ملايين بسيطة.



## هوامش

14 - Ibídem, caja 1273, doc. 25. *El Presidente de IPASA a Presidente del INI*. Madrid, 14 de julio de 1953.

15 - Ibídem. Dirección de los Servicios Económicos. Departamento de Inspección y Asesoría Contable. *Situación actual y futuro de IPASA*. Madrid, 29 de septiembre de 1953, 5 páginas.

16 - Ibídem, caja 1279, doc. 31. *Informe de Gerencia sobre la Memoria y Balance del ejercicio de 1957 de IPASA*. Madrid, 10 de junio de 1958, p. 8.

17 - Ibídem, cajas 1280, 1281 y 1282. Memorias y Balances de IPASA de los años 1958 a 1963.

18 - يمكن الاطلاع على تحليل مفصل حول إنشاء وتطوير هذه الشركة في:

Martínez Milán, J., « IMAPEC: Une société de pêche espagnole en Mauritanie. Raisons et contradictions, 1964-1979 », comunicación inédita presentada al Congrès Mondial des Études sur le Moyen Orient et l'Afrique du Nord (WOCMES). Barcelona, 19-24 de julio de 2010.

19 - Archivo Ministerio de Asuntos Exteriores y de Cooperación (en adelante AMAEC), legajo R-12579. *Informe sobre situación actual y perspectivas de IMAPEC S.A. Madrid*, julio de 1975, p. 22.

20 - ASEPI, IMAPEC, caja 6309, documento 18. *El presidente de SIMEX (Carlos Espinosa de los Monteros) al Presidente del INI (José Miguel de la Rica)*. Madrid, 8 de marzo de 1979.

Diputación Provincial de Pontevedra - Anfaco - Cccopesca, 2011, pp. 205-206.

8 - Asepi, Ipasa, caja 1271, doc. 10. *Luis Carrero Blanco a Presidente del INI*. Madrid, 7 de febrero de 1948, pp. 17-18.

9 - Ibídem, doc. 15. *Escrito elevado a conocimiento de la Presidencia del Gobierno por la Unión Canaria de Fabricantes de Conservas y Salazones y Armadores Pesqueros S.A. y réplica al mismo*. Madrid, 27 de febrero de 1948, pp. 8-9

10 - حول هذه المسألة، أنظر:

Martínez Milán, J., *Los pescadores canarios en aguas saharo-mauritanas desde la ocupación del Sahara occidental hasta la retirada española (1885-1975)*, in López Bargados, A., y Martínez Milán, J. (eds.): *Culturas del litoral. Dinámicas fronterizas entre Canarias y la costa sahariano-mauritana*. Barcelona, Ed. Bellaterra, 2010, pp. 91-103

11 - Asepi, Ipasa, caja 1266, doc. 105. *El presidente del INI al Excmo. Sr. Presidente de la Empresa Nacional Elcano*. Madrid, 10 de diciembre de 1949.

12 - Ibídem, caja 1267, doc. 29. *Memoria del ejercicio de 1950, presentada por el Consejo de Administración de IPASA y aprobada en la Junta General de Accionistas*. Madrid, 12 de abril de 1951.

13 - Ibídem, caja 1268, doc. 33. *Memoria y Balance del ejercicio 1951*. Madrid 19 de junio de 1952. Y, doc.

1 - أنجز هذا العمل في إطار مشروع بحث حول «الصحراء الغربية (1884 - 1976)». الذاكرة الاستعمارية: رؤى ما بعد الاستعمار، بتمويل من وزارة التربية والعلوم والتكنولوجيا (CSO 2008-03596/SOCI).

2 - Morillas, J., Sahara Occidental. *Desarrollo y Subdesarrollo*. Madrid, Prensa y Ediciones Iberoamericanas, 1988, 1ª ed., 319 pp. Y, Barciela López, C., López Ortiz, Mª I., y Melgarejo Moreno, J., « La intervención del estado en la industria alimentaria durante el franquismo (1939-1975) », en *Revista de Historia Industrial*, nº 25, Universidad de Barcelona, pp. 136-139.

3 - نود أن نوجه كل الشكر والامتنان لرئيسة الأرشيف الخاص بالشركة الإسبانية للإسهامات الصناعية، السيدة إلينا لارويلو، على المساعدة القيمة التي لم تبخل بها علينا، لما قرعنا لأول مرة باب ذلك الأرشيف. وقد جعل إشرافها وتوجيهها واستعدادها الدائم مكوناتنا هناك أكثر نفعاً وإفادة.

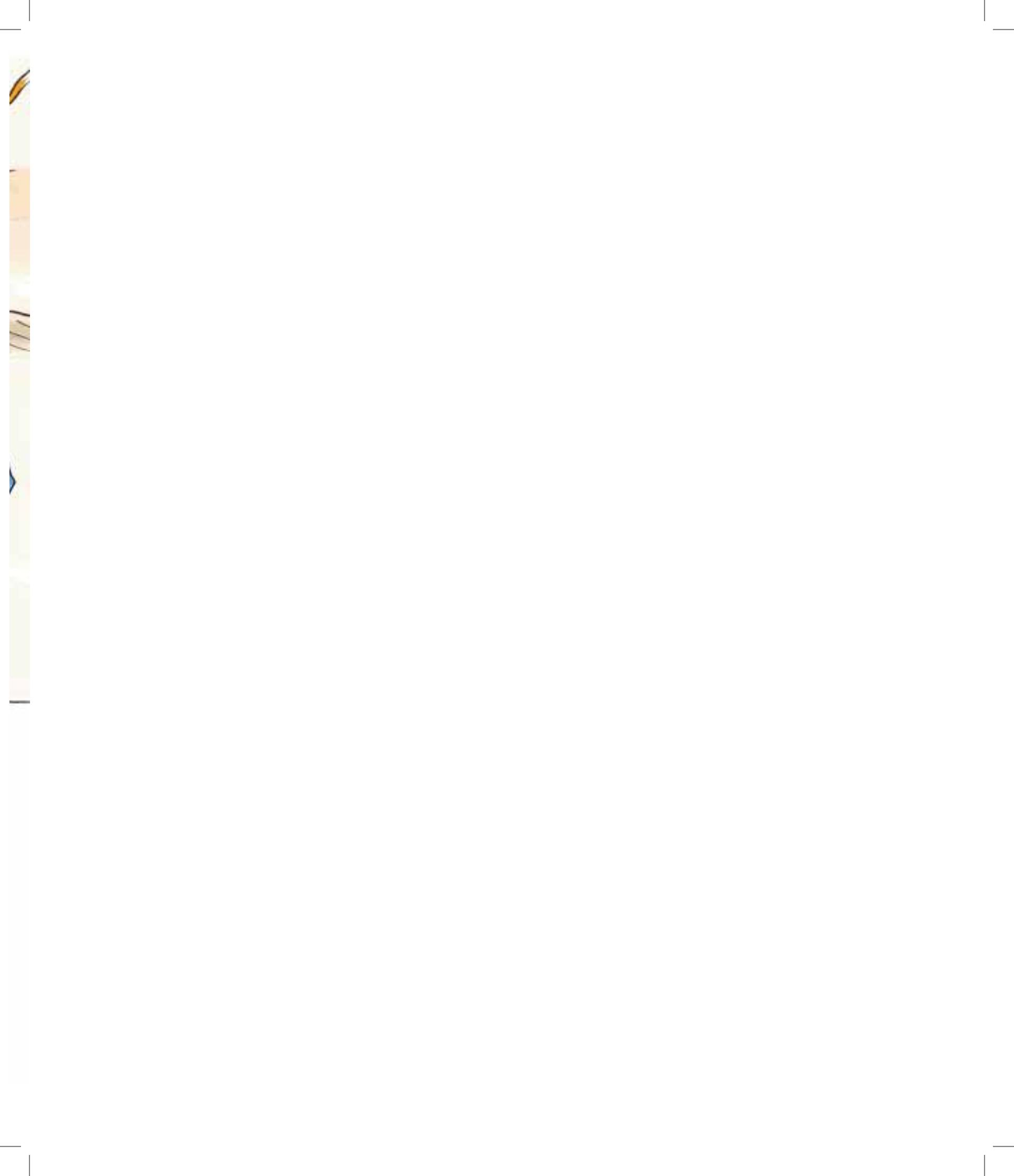
4 - Archivo Sociedad Española de Participaciones Industriales (en adelante ASEPI), IPASA, caja 1270, doc. 4, Comisión Gestora para asuntos de pesca. *Estudio orgánico de la empresa que se forme para el debido aprovechamiento de la pesca, crustáceos, moluscos y algas en las costas del Sahara español*. Madrid, 18 de enero de 1947.

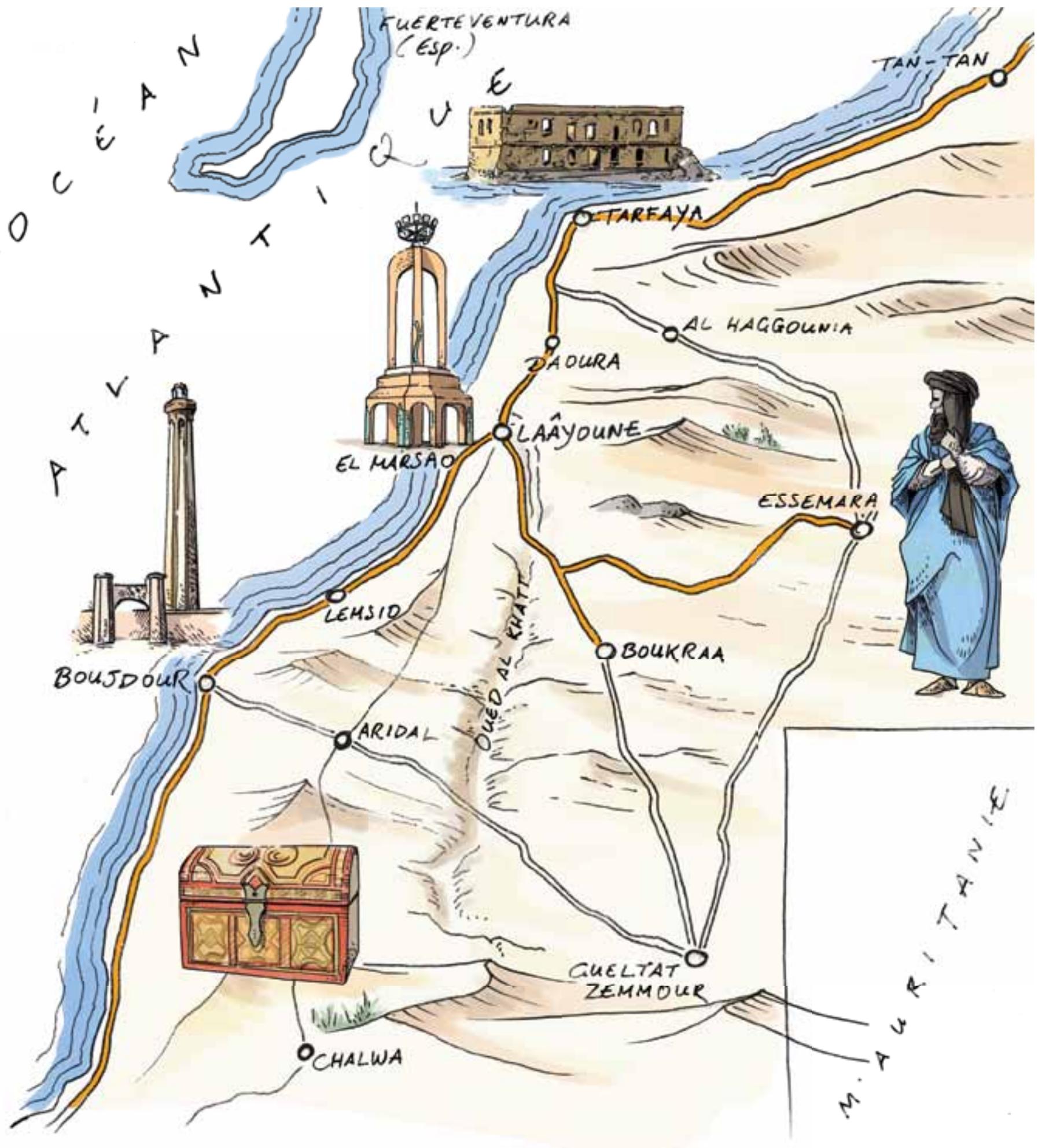
5 - Boe, nº 278, 5 de octubre de 1947, p. 5.474

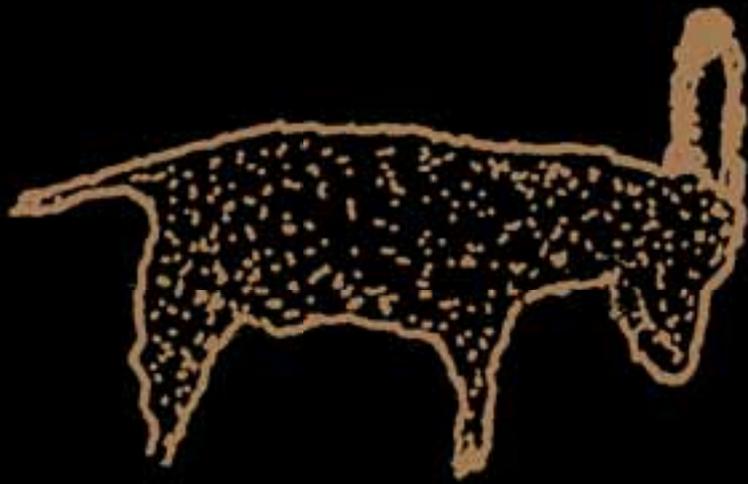
6 - Morillas, *op. cit.*, p. 190.

7 - Vid. Uriarte Ayo, R.: *Los Garavilla. Una larga historia industrial (1887-2005)*, en Xoàn Carmona Badia (coord.): *Las familias de la conserva. El sector de las conservas de pescado a través de sus sagas familiares*. Pontevedra,









نقوش صخرية من واد العصلي قرب السمارة



# التراث وهصرف الصيانة



# أفاق الاعتراف الدولي بالتراث الصحراوي

أحمد سكونتي

## مقدمة

تشكل صحراء الشمال الأطلسي من كثبان وسواحل ممتدة تلفت النظر من زاوية تنوعها الجيولوجي والجيومورفولوجي والبيولوجي. كما تشمل شهادات مادية تنطوي على قيمة أركيولوجية وتاريخية كبيرة. وتحفظ ساكنتها، علاوة على ما سبق، بمعارف ومهارات راكمتها خلال آلاف السنين. هذا التراث الطبيعي والثقافي، المادي وغير المادي منه على حد سواء، يتطلب منا اليوم الكشف عن معالمه وجرده وصيانتته. وفي الوقت الذي تعرف فيه هذه المنطقة، على غرار المغرب في مجموعه ومنطقة شمال إفريقيا، تحولات سوسيو-اقتصادية وثقافية عميقة، حريٌّ بنا الكشف عن كل الأخطار التي تتهدد هذا التراث الذي لا يُقدر بثمن. ويمكن لجهود الصيانة في هذا المجال أن تعتمد، على سبيل المثال لا الحصر، على الوسائل النموذجية الدولية التي وضعت أسسها منظمة اليونسكو، لاسيما فيما يتصل باتفاقية التراث العالمي لعام 1972 واتفاقية التراث الثقافي غير المادي لعام 2003 اللتين صادق المغرب عليهما.

## تراث الصحراء

لقد أتيت لي فرصتان للاحتكاك بالتراث الصحراوي في بُعديه المادي وغير المادي وذلك في مناسبتين:

- أثناء مساهمتي في تحضير القائمة التمهيدية للمغرب للتراث العالمي لليونسكو: ففي أعوام 1996 - 1999 عملتُ مكلفا بالبحث في مديرية التراث الثقافي. ومن بين الملفات التي كُلفت بها من قبل مدير المؤسسة، حينها، أن أتبع اتفاقيات التراث الثقافي الصادرة عن اليونسكو. وكان قد مضى أربع سنوات على الاستراتيجية الشاملة التي وضعتها لجنة التراث العالمي المشكلة من عدد من الحكومات، وهي هيئة منبثقة عن الاتفاقية، بهدف إعداد قائمة للتراث العالمي نموذجية ومتوازنة وذات مصداقية. وكان الأمر يتعلق بجعل هذه القائمة أكثر توازنا سواء من الناحية الجغرافية والثقافية أو من الناحية الموضوعاتية. وكان أحد الأهداف طبعاً يتمثل في تحفيز الدول الأعضاء على تقديم المزيد من المقترحات لتسجيل المزيد من المواقع الطبيعية. وقد قررنا بناء على السالف ذكره مراجعة القائمة التمهيدية المتعلقة بالمغرب. وللتذكير، يمكن لكل دولة عضو إعداد قائمة من هذا القبيل وإيداعها لدى اليونسكو وتتضمن المواقع التي تعتمز إيداع مقترحات تسجيلها في غضون السنوات الموالية. وكانت قائمة المغرب آنذاك تتضمن فقط مواقع ثقافية: مدينة الصويرة التاريخية، والحلي البرتغالي في الجديدة، والموقع الأركيولوجي ليكسوس، وموقع ما قبل التاريخ لتافوغالت، ومعلمة الكور الأثرية، ومدينة تازة ومسجدها الكبير، ومسجد تنمل، ومولاي إدريس زرهون. وكان يتحتم علينا استدراك هذا الاختلال بإضافة مواقع طبيعية أخرى إلى هذه القائمة. ومن حسن الحظ أن مصلحة المياه والغابات قد حددت عددا من المواقع التي شكلت موضوع دراسات خرائطية ووصفية متطورة، بعضها تم الاعتراف به كمتنزهات وطنية، فأدرجت أربعة منها ضمن آخر نسخة مُحَيَّنة من القائمة التمهيدية للمغرب الموضوعة لدى اليونسكو عام 1998 وقد اشتملت على موقعين صحراويين: المنتزه الوطني للدخلة وبحيرة أخنيفيس. هذان الموقعان سنعود إليهما فيما بعد لكن لنشر منذ الآن إلى غياب المواقع الثقافية المنتمية إلى الصحراء في هذه القائمة. ولربما كان المفهوم العتيق الذي هيمن مدة طويلة في مجال التراث العالمي السبب في هذه النقص، ذلك لأن الصحراء باعتبارها مجالاً للترحال الرعوي مثلاً لا يقدم بقايا آثار أو معالم تاريخية متصلة بذلك التصور المهيمن في تلك الفترة.

- الإعداد لترشيح موسم طانطان ضمن برنامج روائع التراث الثقافي الشفاهي وغير المادي. في سنة 2004 كنتُ منسقاً لتهيئ ترشيح موسم إملشيل لبرنامج روائع التراث الشفاهي وغير المادي للإنسانية، وهو برنامج سبق اتفاقية حماية التراث الثقافي التي تبناها المؤتمر العام لليونسكو عام 2003 وكانت ساحة جامع الفنا قد أدرجت ضمنه سنة 2001. وقد تم حينها التقدم بطلب مساعدة من اليونسكو، وتكلف أحد الزملاء بإعداد ملف الترشيح مصحوباً بفيلم مدته 10 دقائق فضلاً عن الصور والتوثيق المرفق بالملف ككل. وجاءت التعليمات من وزارة الثقافة بداية سبتمبر عام 2004 لتعليق ترشيح الملف والبدء فوراً بإعداد ملف ترشيح موسم طانطان الذي كان يجب إيداعه في شهر يناير من عام 2005 (سكونتني 2008). وقد أشرفت عمالة طانطان إدارياً على إعداد الملف المذكور. وأدليت باقتراحتي بخصوص هذا المشروع الذي بدا لي أن القرار بشأنه وتنفيذه قد تم الحسم فيه من قبل سلطات البلاد حسب المنهجية المعروفة باسم فوق تحت (up down). وفضلاً عن ذلك كنت حينها أجهل مداخل ومخارج مشروع كهذا في المحيط الذي كنت أوجد فيه بصفتي خبيراً. وقد تناهى إلى علمي بعد ذلك أنه إذا كانت التعليمات قد جاءت من فوق فإن الفكرة التي كانت وراء ترشيح موسم طانطان تعود إلى كتين مينوز (Kitín Muñoz) المغامر الشهير وسفير النوايا الحسنة لمنظمة اليونسكو الذي نسج علاقات متينة مع القصر الملكي.





رقصة تقليدية قبل 1975

عدت، بعد ذلك، لزيارة طانطان في مناسبتين في الربع الأخير من سنة 2004. الزيارة الأولى خصصتها لنسج علاقات مع الفاعلين المحليين والأعيان وأطر جمعوية وإدارية.. الخ. فيما فسحت الزيارة الثانية المجال لبروز فكرة مبتكرة كان موضوعها إعادة بناء تاريخ التجمعات الرعوية التي كانت وراء موسم طانطان. ويُفترض من هذه المقاربة أن تسمح، في الوقت نفسه، بإشراك الفاعلين المحليين في إعداد وتهيئة ملف الترشيح وملء الثغرات التي يمكن أن يعاني منها الجانب التوثيقي الفقير والنادر في آن واحد. وهي فرصة سمحت لي بأن أدرك جيدا مدى الثراء الذي يتصف به التراث الثقافي غير المادي للصحراء، بل وبالأخص ذلك العجز الصارخ في معرفة هذا التراث وتثمينه. كما تمكنت من استخلاص ملاحظة مفادها أنه إذا كانت منهجية فوق تحت up down قد تم استخدامها فقد انتهت إلى أن تجد لها صدى حقيقيا في أوساط الفاعلين المحليين بهدف كشف وصيانة تراث مجتمع ما فتى يعرف تحولات منذ أجيال. كما لمحت على وجوه أبناء وأحفاد البدو كل ملامح الحنين وتذكر



خيمة «الصانع» التقليدي،  
(ب.ت.)

مظاهر الحياة والأشياء والكلمات والابتهاج السائدة فيما مضى: الخيمة في بنائها وتعهدتها وصيانتها، إدارة القطعان وتديرها، خاصة منها الجمال، والأمراض التي كانت تفتك بالمواشي، والمواعين ومواد الحياة اليومية، والنشاطات المرتبطة باللعب والمرح، ناهيك عن المهن والمهارات، والألبسة وتوابعها، والطبخ اليومي والمناسبات الخاصة، والطب التقليدي والتداوي بالأعشاب.. الخ.

## الآليات القانونية في مجال الاعتراف الدولي بالتراث

### • اتفاقية التراث العالمي

تم اعتماد اتفاقية التراث العالمي عقب المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو في عام 1972. وهي بمثابة المنارة الهادية في سياسة المنظمة الأممية في مجال التراث. واليوم هناك 188 دولة عضو صادقت على هذه الاتفاقية. وتتضمن لائحة التراث العالمي 936 من الممتلكات منها 725 من الممتلكات الثقافية و 183 من الممتلكات الطبيعية و 28 من الممتلكات الخليطة ثقافية وطبيعية. وتحدد الاتفاقية التراث الثقافي كآتي:

أ. تعريف التراث الثقافي (المادة 1 من الاتفاقية)

- الآثار: الأعمال المعمارية، وأعمال النحت والتصوير على المباني، والعناصر أو التكوينات ذات الصفة الأثرية، والنقوش، والكهوف، ومجموعات المعالم التي لها جميعا قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ أو الفن أو العلم.
- المجموعات: مجموعات المباني المنعزلة أو المتصلة، التي لها بسبب عمارتها، أو تناسقها، أو اندماجها في منظر طبيعي، قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ، أو الفن، أو العلم.
- المواقع: أعمال الإنسان، أو الأعمال المشتركة بين الإنسان والطبيعة، وكذلك المناطق بما فيها المواقع الأثرية، التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة النظر التاريخية أو الجمالية أو الإثنولوجية أو الأثروبولوجية.



صانع تقليدي وأسرته، (ب.ت).



### ب. تعريف التراث الثقافي (المادة 3 من الاتفاقية)

- المعالم الطبيعية المتألفة من التشكلات الفيزيائية، أو البيولوجية، أو من مجموعات هذه التشكلات، التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة النظر الجمالية أو العلمية.
- التشكلات الجيولوجية أو الفيزيوغرافية، والمناطق المحددة بدقة مؤلفة موطن الأجناس الحيوانية أو النباتية المهددة، التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر العلم، أو المحافظة على الثروات.
- المواقع الطبيعية أو المناطق الطبيعية المحددة بدقة، التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر العلم، أو المحافظة على الثروات أو الجمال الطبيعي.

### ج. هيئات الاتفاقية

- أولها الجمع العام للدول الأعضاء بصفته أعلى هيئة في الاتفاقية ويعقد اجتماعا عاما عاديا مرة كل عامين خلال المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو.
- ثانيها لجنة التراث العالمي وتتكون من 21 دولة منتخبة خلال الجمع العام لولاية تمتد لـ 4 سنوات وتتولى اللجنة الإشراف على تنفيذ بنود الاتفاقية، ومن مهامها:

- إدراج مواقع جديدة في قائمة للتراث العالمي.
- إدراج مواقع في قائمة التراث العالمي المهدد.
- فحص حالة صيانة المواقع الأثرية المدرجة في قائمة التراث العالمي وفي قائمة التراث العالمي المهدد.
- توفير العون الدولي بفضل صندوق التراث العالمي.
- إنجاز تقارير عن أنشطتها ترفع للجمع العام للدول الأعضاء.
- ثالثها مركز التراث العالمي: وهو الكتابة الخاصة بالاتفاقية أنشئ عام 1992 ومن وظائفه:

- إعداد الاجتماعات الأساسية للجمع العام وللجنة.
- تنفيذ قرارات اللجنة.
- تنسيق عمل تنفيذ قرارات الاتفاقية.
- العمل مع الدول الأعضاء والهيئات الاستشارية.
- إعداد تقارير عمل اللجنة وجمع أرشيفات الاتفاقية.
- رابعها المنظمات الاستشارية وهي:

المجلس الدولي للمعالم والمواقع ICOMOS (باريس): ومهمته النظر في اقتراحات التسجيل وحالة الصيانة وكل القضايا المتصلة بالمواقع الأثرية.



الاتحاد الدولي لحماية الطبيعة IUCN (سويسرا): ومهمته النظر في اقتراحات التسجيل وحالة الصيانة وكل القضايا المتصلة بالمواقع الطبيعية.

المركز الدولي لدراسات صون الممتلكات الثقافية وترميمها ICCROM (روما): مهمته كل القضايا المتصلة بالتكوين في التراث.

### • اتفاقية التراث الثقافي غير المادي

تم اعتماد اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي من قبل المؤتمر العام لليونسكو المنعقد سنة 2003. ويبلغ عدد الدول الأعضاء المنضوية تحتها 137 عضواً في دجنبر 2011 (وهو تقدم سريع بالنظر إلى عمر هذه الاتفاقية الفتية) وتحتوي القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي 232 عنصراً، وقائمة صيانة التراث الثقافي الذي يحتاج إلى صون عاجل لـ 27 عنصراً، وسجل أفضل ممارسات الصون 8 مشاريع، وبرامج أو أنشطة تستجيب لأهداف الاتفاقية.

#### أ - تعريف التراث الثقافي غير المادي

« يقصد بعبار «التراث الثقافي غير المادي» الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات - وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية - والتي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحياناً الأفراد، جزءاً من تراثهم الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلاً عن جيل، تبذعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من ثم احترام التنوع الثقافي والإبداع البشري. ولا يؤخذ في الحسبان لأغراض هذه الاتفاقية سوى التراث الثقافي غير المادي الذي يتفق مع الصكوك الدولية القائمة المتعلقة بحقوق الإنسان، ومع مقتضيات الاحترام المتبادل بين الجماعات والمجموعات والأفراد والتنمية المستدامة » (اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي. المادة 2).

#### ب - مجالات التراث الثقافي غير المادي

هناك خمسة مجالات أساسية وغير شمولية حددتها الاتفاقية (المادة 2):

- التقاليد وأشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة بوصفها وسيلة لنقل التراث الثقافي غير المادي ؛
- الفنون وتقاليد أداء العروض ؛
- الممارسات الاجتماعية، والطقوس والمظاهر الاحتفالية ؛
- المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون ؛
- المهارات المتصلة بالحرف التقليدية.

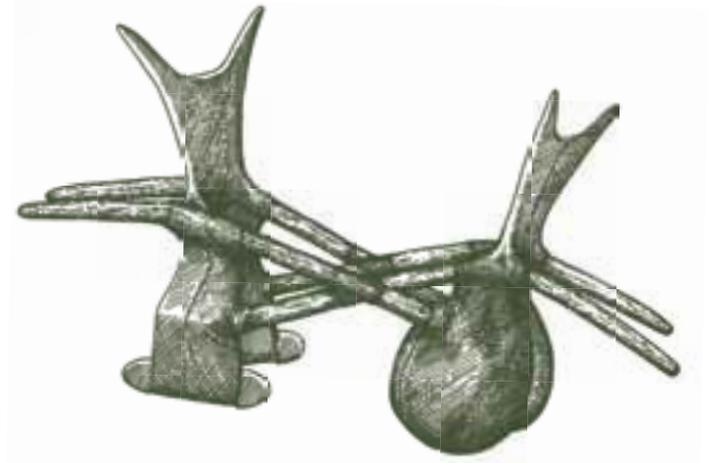
#### ج. هيئات الاتفاقية

- جمعية عامة للدول الأعضاء .
- لجنة التراث الثقافي غير المادي المكونة من 24 دولة منتخبة من ضمن الدول الأعضاء .
- الهيئة الفرعية المنبثقة عن اللجنة والمكلفة بدراسة ملفات الترشيح للتسجيل ضمن القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي.

- الهيئة الاستشارية المستقلة المكونة من ست جمعيات وستة خبراء معتمدين من طرف اللجنة والمكلفة بدراسة ملفات الترشيح للتسجيل ضمن قائمة التراث الثقافي غير المادي الذي يحتاج إلى صون عاجل وملفات أحسن



نماذج من الصناعة التقليدية  
بالأقاليم الجنوبية



الممارسات وملفات طلب المساعدة الدولية التي تفوق 25 000 دولار أمريكي .  
- سكرتارية الاتفاقية وهي قسم التراث الثقافي غير المادي .  
- صندوق التراث الثقافي غير المادي .  
وممكن الاختلاف الأساسي مع اتفاقية 1972 يوجد على مستوى المنظمات  
الاستشارية : فبدل أن يتوافر عدد محدود من «المنظمات غير الحكومية»  
(ONG) «المعتمدة» فإن اتفاقية سنة 2003 ارتأت إشراك أكبر عدد ممكن من  
مصادر الخبرة (منظمات غير حكومية، مراكز البحث، خبراء، ممارسين...) <sup>1</sup>.

#### تنفيذ هذه الأدوات على المستوى الجهوي

التعجيل بجرد شمولي للتراث الصحراوي، الطبيعي والثقافي، المادي  
وغير المادي. إن هذا الجرد الشمولي للتراث الصحراوي أول إجراء ينبغي  
القيام به في أفضل الأجل وليس من الممكن تنفيذه على الفور جملة واحدة،  
فذلك يتطلب عدة أعوام. ويمكن أن يتم تنفيذه بطريقتين على نحو متتال أو  
متزامن:

- تتمثل الطريقة الأولى في القيام بمسح شامل باستعمال جذاذة بسيطة  
ذات مداخل محددة: تحديد الموقع أو العنصر، مجال التراث المعني، النوع،  
الفرع (إن وجد)، موجز تاريخي، وصف مختصر، حالة الصيانة أو الحالة  
العامة، تصاوير (رسوم، مخططات، صور)، تاريخ جمع المعطيات ومنجزها،  
ملاحظات (إن وجدت).

- الطريقة الثانية يمكن أن تمتد عدة سنوات، بل قد تمتد إلى عقد أو  
أكثر وهي تتطلب مزيدا من الإمكانيات المادية والموارد البشرية حتى يشمل  
الحد الأقصى من المعطيات مجموع تراث الجهة، سواء كان هذا التراث  
تراثا طبيعيا أو ثقافيا، ماديا أو لا ماديا، منقولاً أو ثابتاً. ويمكن أن يتم الجرد  
الشمولي المذكور باستعمال استمارات متعددة المداخل تتيح جمع أكبر قدر  
من المعطيات الشمولية. ويمكنها فضلا عن ذلك أن تحدد لكل مدخل حدا  
أقصى من الكلمات لا يجب تجاوزها.





إن مزية المزج بين هاتين الطريقتين تكمن في امتلاك رؤية شاملة وضمن آجال محددة عن الثروات التراثية للجهة (الجرد باستعمال الجذاذة المختصرة)، وفي مقام ثان في وسع عمل تشاوري أن ينتقي بعض العشرات من المواقع الطبيعية والمواقع الأركيولوجية والآثار التاريخية وعناصر التراث غير المادي، والتحف المنقولة التي في وسعها أن تُشكل موضوع بحث وتقصى عميقين. وعندما تنم المواقع أو التحف أو العناصر عن أهمية خاصة للجماعة البشرية أو للعلم فيمكن إذك التذليل عليها لكي تكون موضوع أبحاث معمقة يعهد بها إلى طلبة جامعيين في إطار التحضير للماستر أو الدكتوراه.

وفي كل الأحوال فإن عمل الجرد يفسح المجال لتدخل حمائي قانوني على الصعيد الوطني: تصنيف المواد وجمعها، المواقع الطبيعية والثقافية من جهة وتدوين عناصر التراث غير المادي من جهة ثانية.

#### رصد لحالة صيانة التراث وحمايته

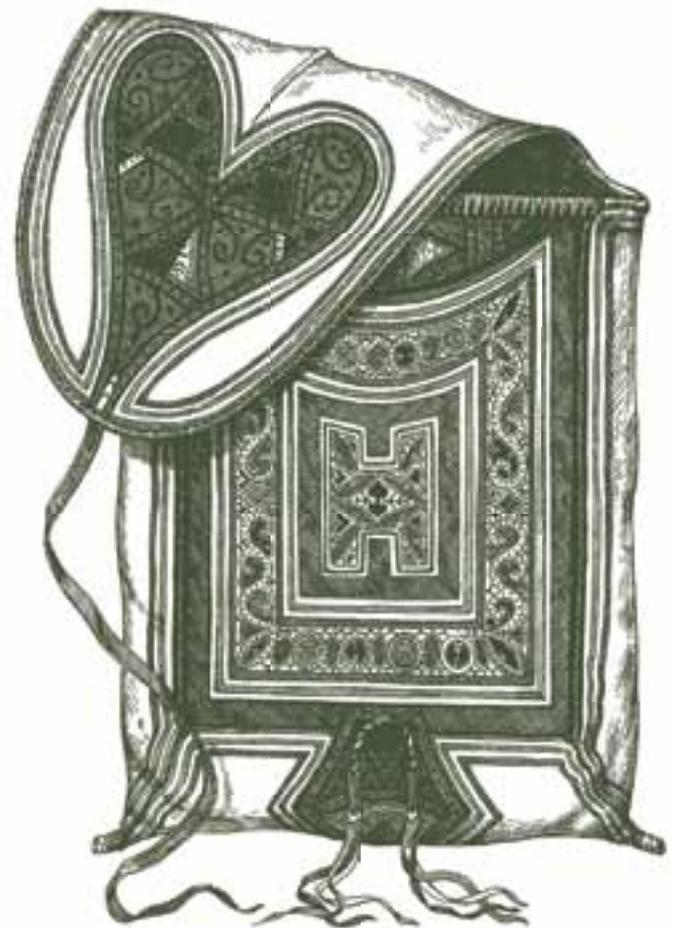
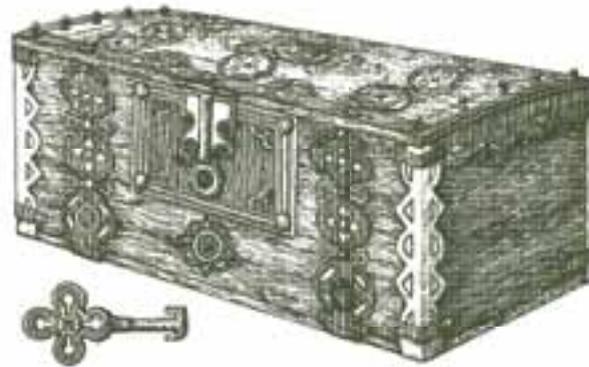
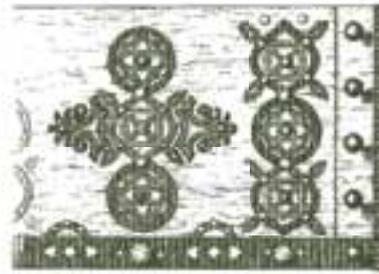
إذا كان عمل الجرد المفصل يقوم برصد أولي لحالة الصيانة للتراث المادي، الطبيعي والثقافي، ولحالة قابلية التراث غير المادي للصمود، فإن الجرد المعمق يرسم حالة حقيقية لأماكن المواقع والعناصر قيد الدرس. وهذا العمل مفيد لكل سياسة حمائية لأنه يتيح بناء خريطة للصيانة ومدة قابليته للصمود. وتساعد هذه الخريطة على تحديد الأولويات على أساس معايير موضوعية: تدهور متقدم للتراث ومخاطر اندثاره. كما يمكن للخريطة المعدّة أن تشمل عددا محدودا من المحددات الأساسية التي تختلف تبعا لطبيعة التراث موضوع الاهتمام.

- التراث الطبيعي: تكامل التكوينات الفيزيائية والتنوع البيولوجي وأنواع الوحش والنبات والتهديدات الناتجة عن الإنسان.
- التراث المعماري والأركيولوجي والأثري: حالة الصيانة، تآكل البنيات، التقادم، الهشاشة، الأخطار الطبيعية، تهديدات مصدرها الإنسان، الخ.
- التراث المنقول: الندرة، انقطاع الإنتاج، تهريب الممتلكات الثقافية.
- التراث غير المادي: عدد الممارسين، عدد المتعلمين، ظروف الممارسة، وضعية الصيانة، حالة التلقين. الخ.

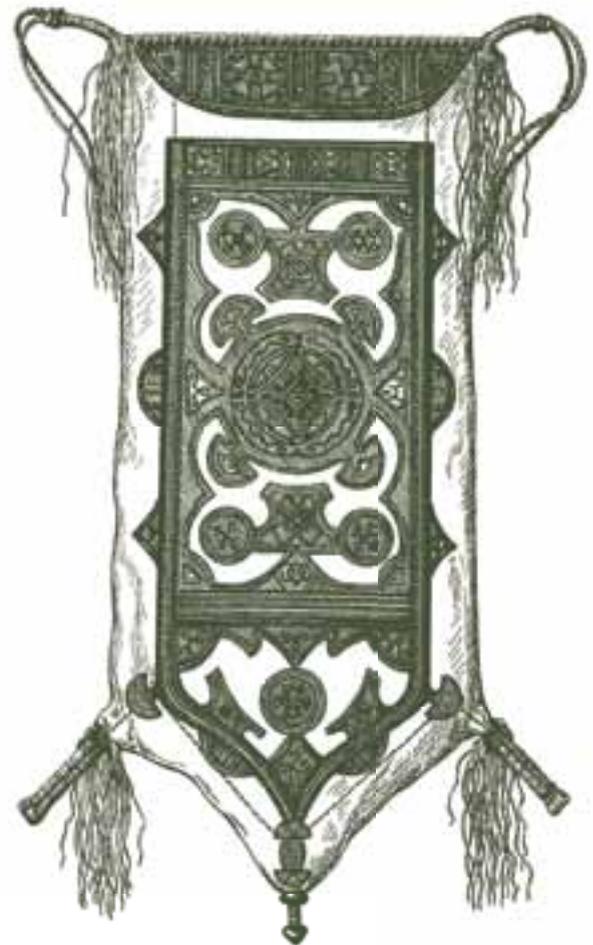
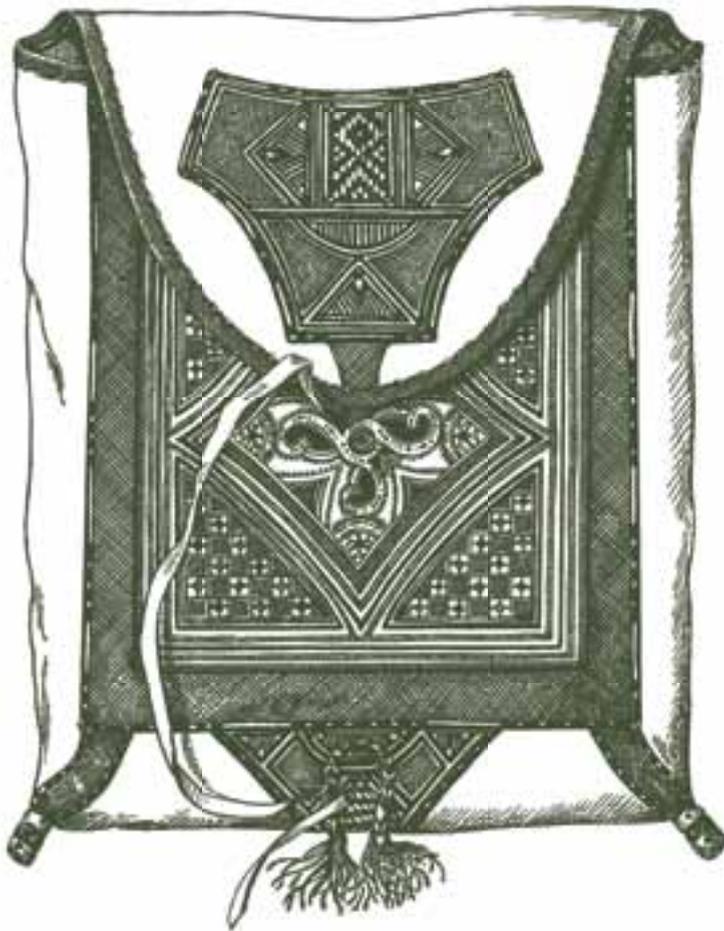
#### انتقاء المواقع والعناصر الموجهة للاعتراف الدولي

ارتكازا على الجرد يمكن لمواقع طبيعية و/ أو ثقافية وعناصر التراث غير المادي وتحف منقولة أن تُنتقى لكي تشكل جزءا لا يتجزأ من برنامج للتدخل السريع. فالمواقع والتحف المهتدة بالاندثار ينبغي أن تشكل موضوع اهتمام خاص بهدف إعادة ترميمها وصيانتها على وجه السرعة. وأما عناصر التراث غير المادي التي يتعرض مستقبلها للتهديد فيجب أن تشكل موضوع مشاريع للصيانة والتلقين.

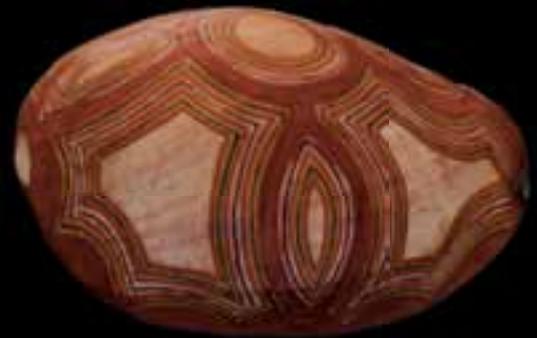




مصنوعات جلدية من رسم  
اوديت دوبيكودو







منتجات تقليدية محلية

في مرحلة ثانية يتم اختيار عدد محدود من بين المواقع الطبيعية و / أو الثقافية لإدماجها في القائمة التمهيدية للمغرب لدى اليونسكو كي يتم تحضير ملفات ترشيحها للتسجيل ضمن قائمة التراث العالمي في غضون السنوات المقبلة. وعلى تلك المواقع أن تستجيب إلى ثلاثة معايير أساسية:

- أن تستجيب لأحد معايير التسجيل العشرة ضمن قائمة التراث العالمي.
- أن تتوفر على حماية قانونية على المستوى الوطني وعلى خطة تدبير (Plan de gestion).
- أن تكون موضوع فحص مطابقة لشروط الأصالة (authenticité) و / أو الكمالية (intégrité). بعد ذلك في وسع فرقة أو عدد من الفرق الانكباب على إعداد مقترحات التسجيل تبعا لجدول زمني محدد سلفا. ويمكن أن يوجه طلب مساعدة تحضيرية من قبل السلطات الوطنية إلى منظمة اليونسكو للحصول على غلاف مالي ييسر إعداد ملف اقتراح التسجيل.

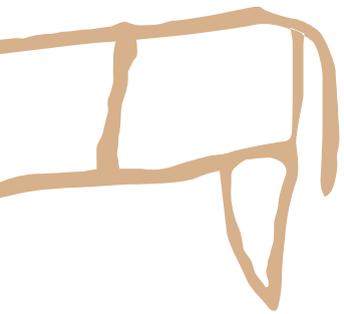
توازيا مع ذلك يمكن لعناصر من التراث الثقافي غير المادي أن تكون موضوع ترشيح للتسجيل ضمن قائمة التراث الثقافي غير المادي التي تتطلب صونا عاجلا. والشرط الأساسي الذي يمكن أن يعتمد في انتقاء هذه العناصر هو أن تكون قابلة صمودها مهددة بسبب ممارسة متقطعة أو غير منتظمة ونقص في التلقين. وحينئذ يمكن تقديم طلب مساعدة تمهيدية لدى اليونسكو بهدف إعداد ملف الترشيح.

#### إعداد مقترحات التسجيل والترشيح

يمكن أن تكون المواقع الطبيعية و الثقافية أو هما معا وكذا عناصر التراث غير المادي موضوع مقترحات للتسجيل على قائمة التراث العالمي أو موضوع ترشيح للتسجيل في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية.

#### بخصوص قائمة التراث العالمي

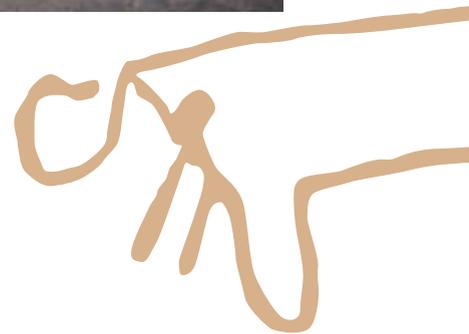
كما أشرنا إلى ذلك أعلاه فإن القائمة التمهيدية التي وضعتها وزارة الثقافة والمودعة من قبل المغرب لدى اليونسكو تتضمن موقعين طبيعيين من المنتظر أن يشكلوا موضوع مقترح تسجيل ضمن قائمة التراث العالمي. يتعلق الأمر ببحيرة أخنيفيس وبخليج الداخلة. والحال أن طلب توضيح تقدمت به لدى المفوضية السامية للمياه والغابات ومحاربة التصحر قد أبان عن عدم وجود منتزه وطني في الداخلة وأن بحيرة أخنيفيس تشكل جزء لا يتجزأ من المنتزه الوطني تحت نفس الإسم. من الواضح إذن أن هناك حاجة ماسة لقيام عملية تنسيق دقيق بين وزارة الثقافة والمفوضية يمكن أن تستهل تحضير اقتراح تسجيل أحد هذين الموقعين. وقد يكون ذلك بالبداية بموقع أخنيفيس الذي يتوفر على إطار قانوني يحميه على الصعيد الوطني والذي يشكل شاطئه جزء من شبكة (RAMSAR) للمناطق الرطبة. وما دام الأمر متصلا بالتراث الطبيعي، فينبغي اكتشاف مواقع طبيعية أخرى سواء على السواحل أو في المناطق القارية. فالمناطق التي تشهد كثافة في شجر الطلح (Acacias) جديرة بالحماية بسبب الأخطار التي تتهدد هذه الشجرة التي تنتمي إلى عائلة الفاباسي Fabacées. كما يمكن أن ندرس إمكانية أن نضيف إليها مواقع ذات كثافة عالية في الكثبان الرملية من نوع البرخان غير المثلة في قائمة التراث العالمي. كما يمكن للمنخفضات ذات العمق المنبسط غير الجارية من قبيل سبحة الطاح بطولها الذي يصل إلى 30 كلم وعرضها الذي يصل إلى 11 كلم ومستواها الأكثر انخفاضا في المغرب كله (ناقص 55) (البلغيتي 2009) أن تظهر على القائمة التمهيدية.

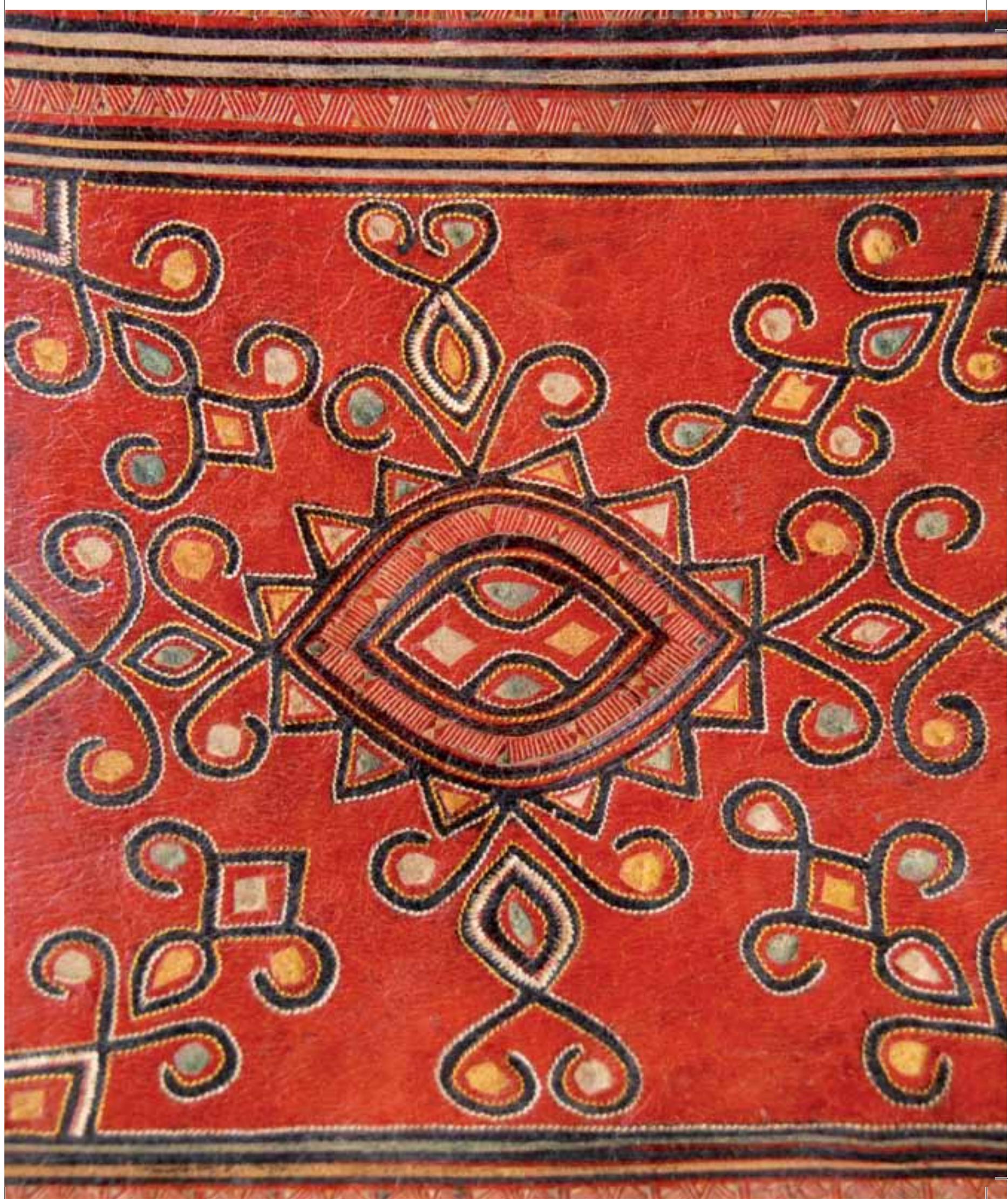




رسوم صخرية قرب لمسيد ( إقليم طانطان )

أما فيما يتصل بالتراث الثقافي فإن مواقع ما قبل التاريخ لا سيما تلك التي تحتوي على نقوش ورسوم صخرية فيمكنها أن تكون موضوع فحص لاختيار أكثرها تمثيلية ومنها مواقع في السمارة وطانطان وأوسرد يمكن إلحاقها بالقائمة التمهيدية؛ كما تُقدم واحات واد نون نموذجا مثاليا للمناظر الواحاتية الجدير بأن تقترح للتسجيل في لائحة التراث العالمي. لكن ينبغي في المقام الأول وضع مخطط تديبيري لهذا الفضاء من أجل تقنين امتداده الحضري وضبط معماريته والتحكم في نموه. كما يمكن أن ندرج المسارات الترحالية في قلب الصحراء ما بين واد نون والساقية الحمراء مثلا. وفي وسع مثال نموذجي لهذه المسارات مزودة بمنارات مع علامات إرشادية أن يساهم في تمثيلية القائمة الوطنية إذا ما قدمت مستقبلا صيغة معينة منها لليونسكو.





بالنسبة للقائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي

إن الجانب غير المادي للتراث الصحراوي غني ومتنوع. وبخصوص إعداد ملف ترشيح موسم طانطان الذي تحدثنا عنه سالفا فقد تم القيام بمجرد أولي في وسعه أن يشكل دون تأخير قاعدة لانتقاء بعض العناصر تكون موضوع ترشيح للتسجيل في القائمة التمثيلية لمنظمة اليونسكو. ويمكن منذ الآن أن نشير إلى بعض تلك العناصر:

- الخيمة البدوية: مهارات صنعها ورمزيتها واستعمالاتها.
- سباقات الجمل، بما في ذلك المهارات المتصلة بالجمل: نشأته ورعايته وصيانته والاعتناء به وترويضه وتدريبه على السباق وإسراجه وما يتصل به وتنظيم السباقات ونقل هذا التراث إلى جيل الشباب.. إلخ.
- المهارات والمعارف المتصلة بالحرف: المعادن، الخشب، الجلد.
- الشاي وإعداده والاحتفالات به وممارساته وتمثلاته الرمزية.

ومن بين إجراءات حماية التراث الثقافي غير المادي التي يمكن اتخاذها منذ الآن هناك نسق الكنوز الإنسانية الحية (THV). وفي إطار البرنامج المشترك للتعاون «التراث الثقافي والصناعات الخلاقية كقاعدة للتنمية المستدامة بالمغرب» (2008 - 2012) الذي سهرت عليه الحكومة وهيئات الأمم المتحدة بتمويل إسباني، أشرفت على تنسيق نشاطين متصلين بإنشاء نظام للكنوز الإنسانية الحية (THV). وقد كان النشاط الأول عبارة عن وضع دراسة للجوانب القانونية والإدارية والمالية للنظام. وقد أنجزت هذه الدراسة وصودق عليها في مارس من عام 2010. أما النشاط الثاني فقد خصص لتقديم نتائج هذه الدراسة في المناطق الأربعة التي شملها البرنامج المشترك للتعاون وضمنها جهة كلميم-السمارة. وناقش المشاركون في ورشة كلميم التي انعقدت بتاريخ 6 أكتوبر من سنة 2011 الجوانب الثلاثة القانونية والإدارية والمالية لدراسة 2010 وساهموا في تحسين تصور تأسيسها. ثم إنهم دُعوا إلى تقديم ثلاثة أنواع من التراث الثقافي غير المادي في المجالات الخمس التي حددتها اتفاقية اليونسكو لسنة 2003 واقترح شخصية مرجعية لكل نوع على حدة، تحيط بجانب الممارسة على أعلى مستوى، حتى يمكن أن تُقترح في المستقبل ككنز إنساني حي. وقد كشف هذا العمل ارتباط المشاركين بالتراث الثقافي غير المادي لمنطقتهم ومعرفتهم بهذا الإرث ورغبتهم في رؤيته محميا ومصوناً. لقد كان أغلب المشاركين ينحدرون من الجمعيات. وبهذا أمكن لجهود السلطات العمومية إزاء تراث المنطقة أن تعتمد على أكثر الفاعلين النشطين في الجمعيات في كل استراتيجية مستقبلية لحماية التراث الثقافي غير المادي.

### خلاصة

إن التراث الصحراوي تراث غني ومتنوع. وفي الوقت الذي تعرف فيه المنطقة تحولات غير مسبوقه في تاريخها، لاسيما تلك التي تغالي في استثمار الموارد الطبيعية وتغير من ملامحها وتعيد تشكيل البنيات الاجتماعية، فإن حماية هذا المورد يغدو مطلباً ملحا أكثر من أي وقت مضى من أجل مواكبة المرور من مجتمع رعي حديث العهد بالاستقرار إلى مجتمع حضري مفتخر بماضيه دون التساهل في مستقبل أبنائه. إن حماية التراث الثقافي المادي وغير المادي للصحراء يمكن أن يتم بناؤه على مستويات ثلاثة: مستوى جهوي عن طريق تعبئة الموارد البشرية والمالية الخاصة، ثم مستوى وطني من خلال تفعيل الحماية القانونية والعمل المؤسساتي للجرد والحماية والتثمين، ثم أخيراً مستوى دولي عبر اكتشاف المواقع والعناصر القابلة لأن تكون مقترحة من أجل تسجيلها على قوائم التراث العالمي والتراث الثقافي غير المادي لليونسكو.





## هوامش:

1 - للاطلاع على أوجه أخرى من المقارنة بين الاتفاقيتين، أنظر البيبليوغرافيا: Skounti 2011.

## مراجع:

- Boubrik, R. et Tazi, S., *Al Khayma. La tente noire du Sahara*, Marsam, Rabat, 2007.
- Elbelrhiti, H., *Écotourisme et géotourisme aux provinces de Tan-Tan et Laayoune*, in Omar Najih et al., *Recherches et études sur le Sahara*, Rabat, Top Press, 2009, pp. 4-15.
- Mdg-Unesco, *Mise en place d'un système de Trésors humains vivants*, Programme Conjoint Culture et développement au Maroc, étude réalisée par Skounti, A., Saigh Boust, R. Tebbaa, O. Outaleb, A. et LAKHDAR, B., mars 2010.
- Skounti, A., *Le « local » redéfini par la patrimonialisation. Exemples du Maroc*, in Jamous, R. et Bourquia, R., *Altérité et reconstruction de la société locale. Cultures en miroir*, Aux Lieux d'être, Centre Jacques Berque, Montreuil, Rabat, 2008.
- Skounti, A., 2011, *The Lost Ring. The Unesco World Heritage and Intangible Cultural Heritage*, Milli Folklor (Turkey), pp. 23, 89 : 28-40.
- Unesco, *Convention concernant la protection du patrimoine mondial culturel et naturel*, 1972.
- Unesco, *Convention pour la sauvegarde du patrimoine culturel immatériel*, 2003.
- Unesco, *Orientations devant guider la mise en œuvre de la Convention du patrimoine mondial*, 2008.
- Unesco, *Directives Opérationnelles de la Convention du patrimoine culturel immatériel*, 2010.





# جرد التراث غير المادي

رحمة ميري

تعتبر مديرية التراث الثقافي بالمغرب أهم مؤسسة مسؤولة عن جرد التراث الثقافي غير المادي. وهي جزء من الإدارة المركزية لوزارة الثقافة. وتمثل مهامها في حماية التراث المعماري والأركيولوجي والإثنوغرافي والمحافظة عليه وصيانه وتثمينه والتعريف به ، وكذا حماية كل الثروات الوطنية التي تمثل أهمية تاريخية وفنية.

ولم يستفد التراث الإثنوغرافي من رعاية وزارة الثقافة إلا مؤخرا، وذلك بعد تعزيز بنية مديرية التراث الثقافي عام 1994 من خلال إنشاء مصلحة لجرد التقاليد والعادات والأعراف، ضمن قسم الجرد العام للتراث ، غير أن الموارد البشرية والمالية المرصودة لهذه المصلحة كانت محدودة جدا.

إن الإسهام المغربي<sup>1</sup> في إعداد اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي لليونسكو عام 2003 وإعلان ساحة جامع الفنا من روائع التراث الشفهي وغير المادي للإنسانية عام 2001 ومصادقة المغرب<sup>2</sup> على الاتفاقية عام 2006، قد أتاح انطلاقة جديدة للجانب غير المادي من تراثنا الثقافي . وهكذا ومع إعادة هيكلة مديرية التراث الثقافي عام 2006 تحولت المصلحة المذكورة إلى مصلحة جرد التراث الثقافي غير المادي. ومهمتها الكشف عن مكونات التراث الثقافي غير المادي، والتعريف به وجعل عملية جرده أداة لتدبيره والتخطيط له مع حمايته وتثمينه في الوقت نفسه.

وانطلاقا من الواقع المعقد للتراث غير المادي في المغرب بالاستناد إلى مفهوم الجرد مثلما تم تحديده في اتفاقية 2003<sup>3</sup>، وضعت المصلحة مقاربة منهجية للجرد تركز على تصنيف لمكونات التراث الثقافي غير المادي، فضلا عن مسعى يهدف إلى توثيق وجرد العناصر المختلفة لهذا التراث بطريقة منتظمة.

## لوائح جرد التراث الثقافي غير المادي بالمغرب

من الأهمية بمكان، قبل التطرق إلى مجالات التراث الثقافي غير المادي المغربي، التذكير بتعريف هذا التراث. والتعريف الذي يبدو أنه الأنسب والمنسجم من منظورنا هو ذلك الذي تقدّم به الباحث أحمد سكونتي (في إطار دراسة حول الآليات القانونية والمؤسسية والمالية لمنظومة الكنوز الإنسانية الحية): «مجموع الإبداعات المبنية على التقليد والمعبرة عن الهوية الثقافية والاجتماعية المغربية والتي تشمل المعايير والقيم المنقولة شفهيًا أو عن طريق التقليد أو بطرق أخرى.

يعد جزء من هذا التراث كل من اللغة والأدب والموسيقى والغناء والرقص والاحتفالات، والألعاب، والأساطير والطقوس والعادات والممارسات والمعرفة والمهارة القديمة للحرف التقليدية والعمارة وفنون الطبخ وإنتاج المنتجات وتخزينها، والطب والأدوية التقليدية والفنون الأخرى، وكذا الفضاءات الثقافية، وأماكن تأكيد واستمرار الهوية الوطنية، والشاهدة على تجذر ثقافتنا والمساهمة في عالميتها»<sup>4</sup>.

من جهة أخرى وضعت مصلحة جرد التراث غير المادي تصنيفًا يتكون من 9 مجالات:

- فنون الفرجة (الموسيقى والغناء والرقص وألعاب الفروسية والمسرح الشعبي...)
- المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون (الصيدلة والطب التقليدي والطقوس الزراعية والمعتقدات الشعبية والشعوذة والكهانة والسحر...)
- أشكال التعبير الشفهي واللغات (اللهجة والحكاية الشعبية والأمثال السائرة والحكم والألغاز وسير الصلحاء والأساطير والشعر والنثر...)
- المهن التقليدية والمهارات المرتبطة بالصناعة اليدوية (المهن التقليدية والمهارات اليدوية المتعلقة بالصناعة التقليدية المهذبة بالانقراض...)
- سبل العيش والإنتاج والتبادل (مجالات الاستغلال والمباني التي يتم بها وطرق التسويق ونوع ونمط الإنتاج والاستثمار وطريقة التخزين وتقنيات المعالجة الزراعية...)
- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات: (الاحتفالات والأعياد الدينية وطقوس المرور والمهرجانات والمواسم وفن الطهي والألعاب التقليدية...)
- التنظيم الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية (البنات القبلية ونظام القرابة والقانون العرفي...)



لعبة وتقاليد من التراث



- السكن والحياة المنزلية ( الخيام والمعمار التقليدي والحياة اليومية... )؛
  - الفضاءات الثقافية التقليدية (الأضرحة والزوايا والفضاءات الثقافية والفضاءات التاريخية...).
- إن هذا التصنيف مستوحى، في جزء منه، من تعريف التراث الثقافي غير المادي الذي وضعته اتفاقية 2003؛ فهو يحدد المجالات الرئيسية التي ينبغي جردها، ويتضمن أصنافا ثانوية مفصلة تشمل مختلف مكونات التراث الثقافي غير المادي. وفي وسع هذه الأصناف الثانوية أن تغنى وتستكمل بطريقة متواصلة من خلال العمل التجريبي<sup>5</sup>.
- ضمن هذا المنظور أنشأت مديرية التراث الثقافي، من خلال قسم جرد وتوثيق التراث، موقعا إلكترونيا ([www.idpc.ma](http://www.idpc.ma)) مخصصا للعناصر التي تم جردها من التراث الثقافي في شقيه المادي وغير المادي. وقد نشر جزء من هذه المعطيات في البوابة الإلكترونية للمغرب ([www.patrimoinedumaroc.com](http://www.patrimoinedumaroc.com)) المخصصة لتقديم التراث المغربي الغني المتنوع.



نماذج من تساريح وظيفائر شعر







عملية الطحن التقليدية

## منهجية جمع المعلومات حول عناصر التراث الثقافي غير المادي بهدف الجرد

يرتكز جرد عناصر تلك المجالات التسعة على الأبحاث الإثنوغرافية. ويتعلق الأمر بجمع كل المعطيات الأساسية المكونة لهذا التراث، بهدف جردها، من الجماعات المعنية بها بطريقة منتظمة مع ضرورة احترام بعض المبادئ العامة المرتبطة بعمل البحث الإثنوغرافي.

وتشمل المنهجية التي تبينها ثلاث مراحل:

### الإطلاع على المعطيات الموجودة

لقد شكلت العديد من مجالات التراث الثقافي غير المادي موضوع دراسات وإصدارات وإحصاءات وعروض وأفلام وثائقية... إلخ. من هنا تنبثق أهمية كشف كل أنواع مصادر المعلومات التي من شأنها تسليط الضوء على موضوع بحثنا.

ويتوفر الباحثون العاملون في مجالات التراث الثقافي غير المادي وكذا المتاحف الإثنوغرافية والمكتبات والجامعات ومراكز البحث والتوثيق والمراكز الثقافية ومواقع الأرشيفات المحلية والصحافة والشبكة المعلوماتية والهيئات المتخصصة... يتوفرون على وثائق مكتوبة (تقارير، كتب، مجلات، أرشيفات، إلخ) مصورة (مجموعات الصور، صحف ومجلات، إلخ). أو مسجلة في أفلام (أفلام وثائقية، واستجابات مع مختصين، إلخ). وهذا التوثيق برمته يشكل مصدرا مهما من مصادر المعلومات إذ يساعد على إغناء لوائح جرد التراث الثقافي غير المادي التي تعد مراجعتها مسألة على غاية كبيرة من الأهمية؛ كما أن المعلومات المستخلصة منها تشكل معالم استدلال أثناء البحث الميداني. هذا فضلا عن أنها مفيدة جدا عند معالجة المعطيات المجمعّة وصياغتها.

### البحث الإثنوغرافي الميداني

قبل النزول إلى الميدان تتواصل المجموعة المكلفة بالجرد مع المديرية الجهوية للثقافة التي يقع مجال البحث الميداني على ترابها وأيضا مع السلطات المحلية والإقليمية، فضلا عن الهيئات غير الحكومية التي لها علاقة بالعنصر التراثي الثقافي غير المادي المراد جرده.

والغاية من البحث الإثنوغرافي، من منظور جرد التراث الثقافي غير المادي، هو جمع المعلومات لدى ممارسي هذا التراث وحامله، خاصة ما يتصل بالمجالات الموضوعاتية المحددة. وهكذا ينبغي على الباحث المستقصي أن يعرف، من جهة أولى، نظام المنهج المتبع عموما في جمع المعطيات على الميدان، ونعني بذلك الرصد الميداني وطريقة الاستجواب، ومن جهة أخرى عليه تحديد الجماعات المعنية بهذا التراث المراد جرده، والتأكد من كون هذه الجماعات تعترف بكونه جزء لا يتجزأ من تراثها الثقافي، كما ينبغي أخذ موافقتهم الحرة والمسبقة فيما يتصل بعملية الجرد واحترام عاداتهم وتقاليدهم.

ومن أجل تيسير البحث الإثنوغرافي الميداني أعدت المصلحة المكلفة بالجرد دليلا للمقابلة خاصا بكل موضوعات التراث الثقافي غير المادي المحددة، حيث يقوم الباحث مباشرة بتسجيل المعلومات ذات الصلة بالموضوع. ويمكن استكمال هذه العملية بتصوير كل ما من شأنه أن يلقي الضوء على موضوع البحث.

ويمكن للباحث، موازاة مع الصور الفوتوغرافية، أن يثري عمله التوثيقي بإيجاز أشرطة قصيرة نسبيا تتراوح مدتها بين ثلاث وعشر دقائق على أن يأخذ بعين الاعتبار سياق مختلف المقاطع المصورة.



### معطيات البحث الميداني واستثمارها

إن البيانات التي يتم جمعها قبل المسح الميداني وأثناءه تأتي بصفة عامة على الأشكال التالية : نصوص مكتوبة، صور فوتوغرافية، أفلام، مراجع، قصاصات صحفية، لوائح بأسماء حاملي هذا العنصر من التراث الثقافي غير المادي وبأسماء ممارسيه، لوائح بأسماء الباحثين والخبراء في مجال التراث الثقافي غير المادي والهيئات والمنظمات غير الحكومية... وينبغي فرز جميع هذه العناصر وتصنيفها بشكل مرن بحيث يسهل الرجوع إليها وكذا إثراؤها ببيانات الجديدة.

تصنف المعلومات التي يتم جمعها من خلال البحث الميداني بطريقة تجعلها قابلة للاستغلال في إغناء بنك المعطيات، ثم تدرج في جذاذات للجرد تشمل مجموعة من الخانات (تحديد العنصر، خصائص العنصر، الأشخاص والمؤسسات ذات الصلة بالعنصر، حالة العنصر الراهنة: قابليته للاستمرارية، جمع المعلومات والجرد، مراجع : بيبليوغرافيا، مصنفات صوتية، مواد سمعية بصرية، أرشيف، مواقع إلكترونية). وقد تم نشر جزء من هذه المعلومات في الموقع الإلكتروني المشار إليه أعلاه المخصص للجرد.

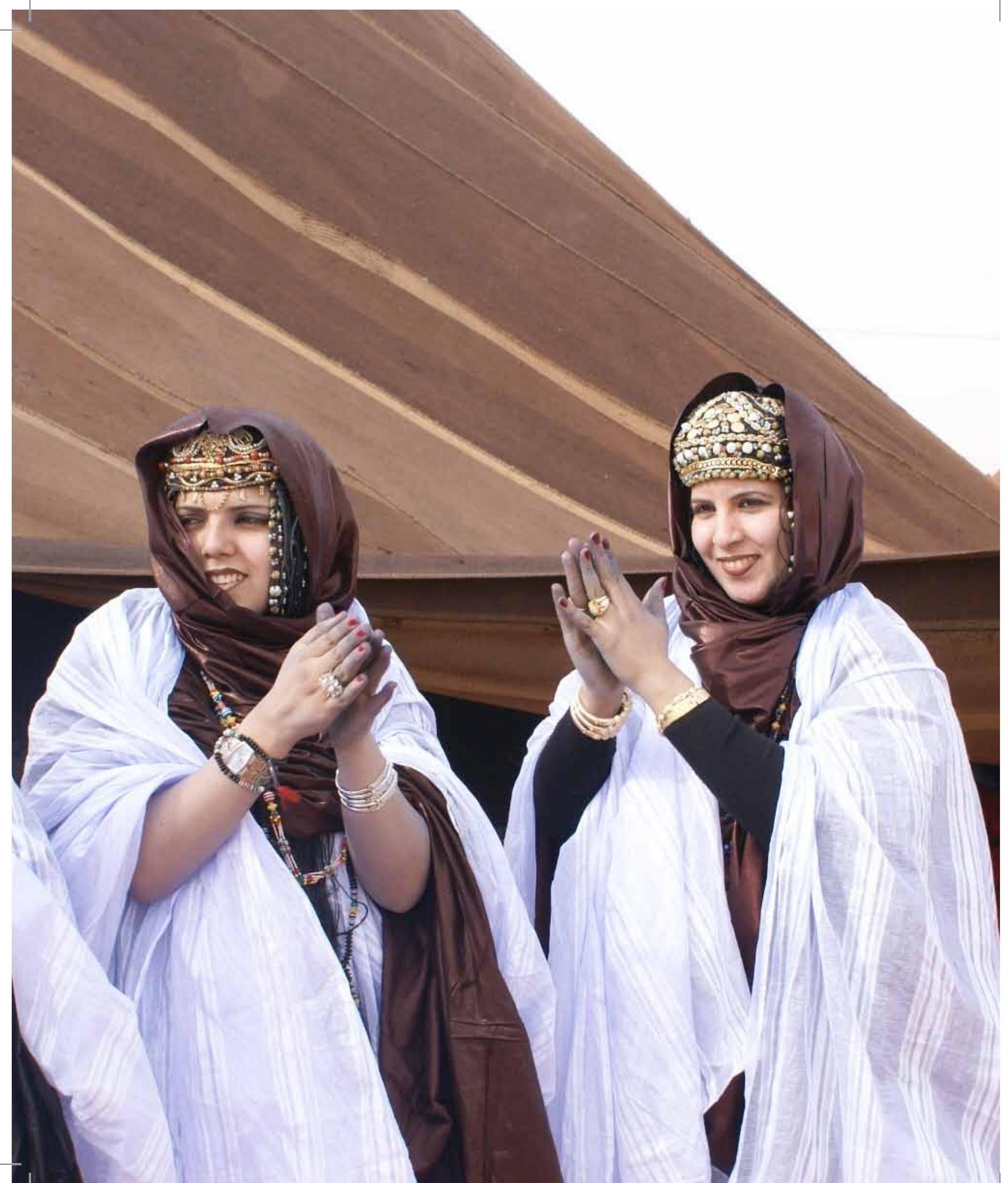
تنبغي الإشارة إلى أنه خلال عملية الجرد الميداني تقع على الباحثين مسؤولية توعية حاملي التراث الثقافي وممارسيه بأهمية تراثهم وتحفيزهم على تبيين قيمته وحثهم على نقله إلى الأجيال اللاحقة. وعليه فالباحثون مدعوون أيضا إلى دعم السلطات المحلية من أجل تصور وتنفيذ عمليات الصيانة وإدماج عناصر التراث الثقافي غير المادي المتاحة في مجالها ضمن برامج التنمية المحلية.

### خاتمة

إن الجرد المنتظم لمكونات التراث الثقافي غير المادي يمكن أن يكون أداة أساسية من أجل إعداد استراتيجيات ثقافية وإرساء مشاريع التنمية المحلية والجهوية أو الوطنية التي تسمح بالتالي بالحفاظ على عناصر هويتنا الثقافية وذاكرتنا الجماعية وصيانتها.

إن جرد التراث المذكور مثلما تصوره مديريته التراث الثقافي يهدف إلى تنمية الخصوصيات الثقافية للجهة المعنية بالجرد. كما يهدف إلى وضع نتائج الجرد بين يدي الجمهور من خلال استخدام تكنولوجيات حديثة في الإعلام من قبيل المواقع الإلكترونية والملصقات الإشهارية والإعلانات المطويات والكتيبات باللغة المحلية أو في اللغات الأخرى المتكلم بها في البلد، وكذا إنجاز أفلام وثائقية وأقراص مدمجة... إلخ، وكل ذلك بهدف ضمان نشر أوسع لتلك المعلومات. ولهذا يمكن اعتبار هذه الأدوات وسيلة من شأنها أن تحل محل النقل الشفاهي للتقاليد.

ومن الواضح أن تحمّل مسؤولية الحفاظ على هذا التراث وصيانتته ليس بالأمر الهين. ومع ذلك نعتقد أن التعاون الفعال بين الجامعات والسلطات المحلية والجمعيات والهيئات التي تعمل في مجال التراث غير المادي على اختلافها سوف يسهم، بالتأكيد، في تحقيق الأهداف المنشودة من عملية الجرد.



## هوامش

- 1 - ساهم المغرب من خلال الخبير المغربي لدى اليونسكو، السيد أحمد سكونتي، في تحرير اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي عامي 2002 - 2003 وكذا في عملية إعداد التوجهات العملية لتنفيذ بنود الاتفاقية.
- 2 - تنص المادة 12.1 من اتفاقية عام 2003 على أن الجرد ينبغي أن يوضع «من أجل ضمان تحديد التراث الثقافي غير المادي بقصد صونه». وتلتزم اليونسكو من الدول الأعضاء التي من بينها المغرب، القيام بجرد وطني، إذ يشكل أحد معايير ترشيح عناصر التراث غير المادي الوطنية بهدف تسجيلها ضمن القائمة التمثيلية لتراث الإنسانية الثقافي غير المادي لليونسكو.
- 3 - أنظر في هذا الصدد: ميري، ر.، مبادئ جرد التراث الثقافي غير المادي من منظور اتفاقية اليونسكو 2003 في مجلة «التراث المعنوي» هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، يوليو، 2010، ع. 2.
- 4 - تدرج دراسة وضع منظومة الكنوز الإنسانية الحية في إطار برنامج مشترك للتعاون (PCC)، التراث الثقافي والصناعات الخلافة قاطرة للتنمية بالمغرب 2008 - 2011 الذي قامت بإطلاقه وكالات الأمم المتحدة والحكومة المغربية.
- 5 - خلال البحث الإثنوغرافي الميداني من الممكن على سبيل المثال الوقوف على نوع فني من الفرجة ونمط للاستغلال الفلاحي النوعي في منطقة معينة وتقنية من تقنيات الجسد... إلخ. يمكن إضافتها إلى التصنيف وتكون موضوع جرد منتظم.



رقصة الكُدرة

## مراجع:

Unesco, *Convention pour la souvegarde du patrimoine culturel immateriel - Textes fondamentaux*, Belgique : Albe de Coker, 2010.

Skounti, A., *Étude pour la mise en place du système des trésors humains vivants*, Dar Al Manahil, Rabat, 2010.

Union Européenne (Programme Euromed Héritage) - Projet développement des systèmes culturels territoriaux (DELTA) : *Guide méthodologique pour le développement des systèmes culturels territoriaux*, Institut méditerranéen de Rome : Edigraf.

ميري، ر.، مبادئ جرد التراث الثقافي غير المادي في منظور اتفاقية اليونسكو 2003، مجلة التراث المعنوي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، يوليو 2010، ع. 2.





# تاريخ والمدان وموروثها الثقافي

## فرانسييسكو فريير

هناك وجهان من أوجه التشابه وآخر من أوجه الاختلاف الرئيسة التي يمكن الإشارة إليها في معرض الحديث عن المواقع الأثرية العالمية في مدينة وادان<sup>1</sup> (في ولاية آدرار الموريتانية) ومدينة مازاغان البرتغالية (التي تحمل اسم مدينة الجديدة حاليا، وهي إحدى المدن المكونة لجهة دكالة - عبدة في المنطقة الغربية من المغرب على ساحل المحيط الأطلسي). وتتقاسم المدينتان اللتان توجدان ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو (1996 و2004 على التوالي) نفس التاريخ المشترك من حيث علاقاتهما مع البلدان الأوروبية خلال فترة ما قبل الاستعمار، وهي الروابط التاريخية التي تشكل المحور الذي تركز إليه الجهود الرامية إلى تعزيز قدرات هذه المواقع من الناحية السياحية. وبخلاف مدينة الجديدة، وغيرها من المدن المغربية التي ارتبط تاريخها لسنوات طويلة بالاستعمار الأوروبي، لا يوجد في مدينة وادان قرائن ملموسة تشير إلى العلاقة نفسها. ولئن كان الدافع الرئيس لإدراج مدينة وادان ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي هو الحفاظ على طابعها المعماري الفريد (وهو المعيار الذي جعل اليونسكو تضم إلى لائحتها مدنا موريتانية أخرى، وهي شنقيط وتيشيت وولاتة)، إلى جانب إعادة إحياء دورها كمركز إشعاع للثقافة الإسلامية على المستوى الإقليمي<sup>2</sup>، فإن تخصيص الدعم المالي للمشروع الأول الذي يروم الحفاظ على موروث المدينة الحضاري، خصوصا بعد إعلانها إرثا حضاريا عالميا من لدن اليونسكو، منشؤه الصلات التي تربط مدينة وادان تاريخيا بشبه الجزيرة الأيبيرية وبالبرتغال على وجه التحديد. وبرغم عدم توفر دلائل ملموسة تؤكد التاريخ المشترك بين أوروبا والصحراء في منطقة آدرار، فإن ذلك لم يحل دون أن تهتم مؤسسات محلية ودولية بالأبعاد التاريخية المهمة التي تنطوي عليها هذه العلاقة. وفي الواقع، فإن الاهتمام المفاجئ للجهات الرسمية في البرتغال بهذا المكان القصي من الصحراء، من خلال تخصيص قسط من مواردها المالية المحدودة لمدينة وادان الموريتانية، أمر لا يُستبعد أن يكون بدوافع إيديولوجية ترتبط بطموح البرتغال في إعادة إحياء ماضيها «المجيد» وتخليد دورها الريادي في الرحلات الاستكشافية الأوروبية في أفريقيا خلال القرن السادس عشر. ومهما يكن، لا يبدو أن وجود دلائل مادية لهذه العلاقة من عدمه يشكل أمرا حاسما في ما يطلق من جهود لصون الموروث الحضاري لهذه المدينة، لا سيما الذاكرة الشفهية الصحراوية.

مسجد تيشيت العتيق  
(موريتانيا)

ويتضح من خلال محاور هذا الفصل أنه سواء توفرت المعطيات الملموسة أم لم تتوفر، فإن هذا لا يكفي لتتبع المراحل التاريخية التي يمكن أن يستند إليها في بلورة البرامج الحالية للحفاظ على الموروث الحضاري في المنطقة. وتتميز المقاربات الحديثة لعمليات إعادة بناء الماضي بالمرونة والابتكار، إلى جانب الآفاق الواسعة التي يتيحها حدث معين (كما هو الحال بالنسبة للعلاقة بين شعوب منطقة غرب الصحراء والإنسان الأوروبي خلال فترة ما قبل الاستعمار) في مجال صياغة استراتيجيات تنموية ناجحة<sup>3</sup>. وبناءً عليه، قد يذهب البعض إلى أن الدعم المالي الذي قدمه برنامج التعاون البرتغالي ساهم بشكل كبير في التعريف بدور وادان كمركز إشعاع تاريخي للثقافة الإسلامية وفي تعزيز موقعها كمنطقة جذب للسياح الأجانب وغيرهم. ومن بين الفوائد التي جنتها المنطقة من المشروع أنه ساعد على تحسين شبكات الطرق لتيسير ولوج الزوار لمدينة وادان، وأتاح للسلطات البرتغالية إعادة تأكيد دور بلادها التاريخي في افتتاح الصحراء على الطرق التجارية عبر المحيط الأطلسي. ولعل في هذا «التحول» في طبيعة العلاقة بين البلدين - أحدهما جمهورية إسلامية والآخر جمهورية أوروبية لائكية - توجُّهاً نفعياً ليس نحو التحقق من بعض الوقائع التاريخية فحسب بل من أجل تعزيز المواقع التي تجسد التاريخ المشترك في المنطقة.

### التعاون الصحراوي - البرتغالي

أبرمت أول اتفاقية تعاون ثقافي بين موريتانيا والبرتغال في أثناء الزيارة التي قام بها وزير خارجية البرتغال للعاصمة نواكشوط في ديسمبر عام 1998، وقد استغرقت يومين. ونصت الاتفاقية على أن تُوزع خمس منح دراسية سنوية على الطلاب الموريتانيين<sup>4</sup>. وعامين بعد ذلك التاريخ، في أكتوبر 2000، وقّع بروتوكول إضافي خصّص في إطاره مبلغ 350 ألف دولار لتمويل إنجاز مشروع يتعلق بالمحافظة على «الحي القديم» لمدينة وادان<sup>5</sup>، وهو ما شكل اعترافاً رسمياً بخمسة قرون من التلاقح بين البرتغال والصحراء<sup>6</sup>.

وركّز هذا المشروع، الذي بلوره الجانب الموريتاني وأشرف على تنفيذه، على إعادة بناء السور الخارجي لما يسمى بـ «الحي القديم» لمدينة وادان، حيث مكن من هيكلة فضاء المدينة على نحو أفضل وتحويل الأحجار المتناثرة إلى «أطلال» تجذب عشاق المواقع الأثرية إليها<sup>7</sup>. وفي هذا المكان غير المأهول من البلدة، سلّطت الجهات المشرفة على المشروع الضوء على بعض البنايات التاريخية، كما فتحت بعض الشوارع في وجه العموم بعد أن أزيل عنها الحطام المتراكم، وذلك بغرض خلق مسار يسلكه السياح في تجوالهم عبر دروب المدينة القديمة. وصُمم هذا المسار على نحو يفضي إلى «حانة صغيرة» في مكان يطل على الرابية، حيث بإمكان السياح الأجانب اقتناء هدايا تذكارية لمنطقة آدرار يعرضها الحرفيون الذين تزايدت أعدادهم بعد أن وجدوا في هذا المشروع فرصة لتحسين مدخولهم والترويج لبضائعهم<sup>8</sup>. استمرت أشغال إعادة البناء من غشت 2001 إلى نهاية عام 2002، وكان يشرف عن بعد على إنجاز المشروع المهندس المعماري براس ميموسو (Bras Mimoso) من المعهد البرتغالي للتراث المعماري، حيث زار البلدة ثلاث مرات خلال أشغال الترميم. ومن خلال ما انتهى إلى علمي من وقائع، جرّت الأشغال دون التشاور مع اليونسكو، وهو ما يؤكد حقيقة أن قائمة التراث العالمي تبقى حبيسة الأدراج في مقر المنظمة في باريس وأن إدارة أشغال ترميم المواقع الأثرية، بعد تصنيفها ضمن قائمة التراث العالمي، تُنجز محلياً من دون التدخل المباشر لهذه الهيئة المتخصصة التابعة للأمم المتحدة<sup>9</sup>.

ولئن كان هذا المشروع صغيراً بالمقارنة مع غيره من المشاريع التي عادة ما يتفق بشأنها في إطار سياسات التعاون، فإنه لم يكن دون أثر إيجابي على مدينة وادان. فهو من جهة، قد مكن المدينة من الاندماج في القنوات



أطلال مدينة وادان  
(موريتانيا)

الرئيسة للسياحة، واستقطب عددا كبيرا من السياح الذين يسافر معظمهم إلى آتار، عاصمة الجهة، على متن طائرات مستأجرة في رحلات أسبوعية من باريس ومرسيليا<sup>10</sup>. إلى جانب ذلك، ساهم المشروع في إقامة البنية التحتية اللازمة لأي نشاط سياحي، وساهم في خلق عدد من الوظائف الجديدة التي جعلت العديد من الأهالي يستقرون في بلدتهم عوض التفكير في الهجرة. وكمثال على أهمية المشروع، وصل عدد الأماكن المخصصة لاستضافة السياح الأجانب والزوار المحليين في مدينة وادان، التي يقل عدد سكانها عن 3000 نسمة، إلى 10 عام 2005، تعتمد كلها على الزوار الأجانب الذين يفدون إلى المنطقة. وقبل ذلك التاريخ، ما بين عامي 2003 و2004 (لما زرت المنطقة وعقدت لقاءات تشاورية مع السلطات المحلية)، كانت السلطات تنظر بعين الرضا إلى نتائج برنامج التعاون إلى درجة أن المسؤولين تمنوا لو أن المشروع كان نفذ على نطاق أوسع حتى يشمل مختلف مناحي الحياة اليومية في البلدة.

جاء مشروع اتفاقية التعاون لإعادة تأهيل الأحياء القديمة لمدينة وادان، والذي بلورته كتابة الدولة لدى وزارة التعاون والمفاوضات الخارجية، في إطار استراتيجية الحكومة البرتغالية لعام 1998 حول التدخل في أماكن معينة في أفريقيا توجد فيها مواقع أثرية ترتبط، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، بالتواجد البرتغالي في المنطقة عبر التاريخ. وتجدد الإشارة إلى كون هذه المبادرات لم تندرج في إطار علاقات التعاون المستمر، بقدر ما كانت ترمي إلى تسليط الضوء على الروابط التاريخية التي تجمع البرتغال بهذه المواقع (من قبيل غوري (Goré) وبورتو نوفو Porto Novo وغيرها). ولم تشر الإجراءات التحضيرية التي اتخذت في إطار ما يصطلح عليه بـ«الدبلوماسية الثقافية» صراحة إلى وجود دوافع أو مطامح ترمي إليها الحكومة البرتغالية من وراء هذا المشروع، باستثناء ما ذكر من رغبة المسؤولين البرتغاليين في تخليد ماضي بلادهم «التليد» ودور البرتغال التاريخي في الاستكشاف في ربوع القارة الأفريقية. وقد يكون من باب سلامة الطوية القول إن هذا المشروع لا يعدو كونه عملا تطوعيا من لدن بلد أوروبي يرنو إلى تطوير إحدى بلدان غرب أفريقيا المعزولة والخروج بها من تحت الأنقاض. وأياً كان الأمر، فلا أحد يجادل في جدوى هذا المشروع، حيث ساهم بشكل ناجح في إعادة تأهيل المدينة القديمة وتخليد ما كان للبرتغال من أمجاد ودور عظيم في هذه المنطقة من القارة الأفريقية. ولا أدل على ذلك من أن المشروع لم يكن يندرج في سياق التعاون المستمر، من أن البرتغال وموريتانيا لم يوقعا أية برامج للتعاون منذ 2002.



وما من شك أن المشروع الأولي حول تاريخ العلاقات البرتغالية-الموريتانية أثبت نجاعته، على محدودية الموازنة التي رصدت له، وقد بث روحا جديدة في مدينة وادان خلال مراحل تنفيذه. وقد تلا هذا المشروع مشروع آخر بالغ الأهمية أنجز خلال الفترة ما بين مارس 2006 وغشت 2008، بتمويل كامل من وزارة الخارجية الإسبانية (705 ألف أورو) تحت الإشراف الفني للمهندس المعماري الإسباني خوسي ليغارا (Jose Legarra) (لا أملاك ما يكفي من المعلومات لتقييم نتائج المشروع، علما أن «المخطط الرئيس» الذي أعدته اليونسكو بغرض إعادة تأهيل المدينة برمتها ظل حبرا على ورق). ولعل ما يؤسف له أن وادان تواجه خطر العزلة من جديد نتيجة للقلقل التي اجتاحت المنطقة في الآونة الأخيرة، ما قد يؤثر سلبا على مصادر دخل سكان المدينة ويضطرهم للجوء إلى الأنشطة الرعوية والزراعية. ففي ظل الأحداث الأخيرة التي شهدتها المنطقة وأبرزها ما تعرضت له وحدات عسكرية موريتانية من هجمات على أيدي عناصر من تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي «أكمي» (AQMI)، ناهيك عن الوضعية السياسية غير المستقرة في البلاد وتعالى الأصوات الدولية المحذرة من الإرهاب في منطقة الساحل الأفريقي، بات يُنظر إلى وادان على أنها إحدى بؤر التوتر في العالم التي لا يُنصح بها مطلقا للسياحة. وبرغم مساعي الفاعلين في القطاع السياحي للترويج لمنطقة آدرار الموريتانية، مع مطلع القرن الحادي والعشرين، على أنها بديل آمن عن الجنوب الجزائري لمحبي السياحة الصحراوية، فإن المنطقة أصبحت تفقد الكثير من بريقها السياحي.

### التراث البرتغالي-الصحراوي

كما سبقت الإشارة، فإن أكثر ما يثير في مشروع التعاون بين البرتغال وموريتانيا هو غياب ما يدل على حضور البرتغال في تاريخ وادان. فباستثناء ما تشير إليه السجلات التاريخية الرسمية من أن البرتغال حاولت إقامة مركز تجاري في منطقة آدرار (مدينة وادان تحديدا)، لا توجد معلومات واضحة بخصوص ما آلت إليه هذه المحاولة، لا سيما في غياب معطيات دقيقة بشأن التاريخ الذي تواجد فيه البرتغاليون في تلك المنطقة أو المدة الزمنية التي قضوها هناك أو ما إذا كانوا بالفعل أقاموا شيئا ما في وادان. ورغم شح المعطيات التاريخية، فإن هذه المرحلة من تاريخ العلاقات الصحراوية-الأوروبية من الأهمية بحيث تكفي لتبرير اهتمام البرتغال بمدينة وادان، بعد مضي أكثر من خمسة قرون منذ أن سجلت البلدة اسمها في سجلات التاريخ الأوروبي. ومهما يكن من عدم توفر دلائل ملموسة تزيل اللبس بخصوص التواجد البرتغالي في وادان، فإن ما لاشك فيه أن البلدة كانت إحدى أشهر الأماكن التي امتد إليها التوسع البرتغالي. وتشير المصادر التاريخية إلى أن البرتغاليين حاولوا إقامة مركز تجاري هو فيتوريا (Feitoria) في قلب الصحراء بغرض تحويل مسار قوافل تجارة الذهب المتجهة شمالا عبر الصحراء:

«في عمق الصحراء، غير بعيد عن وادان، كان يوجد مركز تجاري نشط خلال حكم الملك خوان الثاني (29 غشت 1481 - 15 أكتوبر 1495)»؛ «والمقصود بعبارة فيتوريا (feitoria) المركز التجاري باعتباره مؤسسة وليس بناية فحسب»؛ «بعد أن بسط البرتغاليون سيطرتهم على حركة الملاحة التجارية، تمكنوا بفضل المراكز التجارية (فيتوريا) التي أقاموها في مدن أركين ووادان (في قلب الصحراء) أن يحولوا اتجاه تجارة الذهب نحو بلادهم»<sup>11</sup>.

«[كان الملك دوم خوان الثاني] أرسل بدوره [بعثة] إلى مدينة وادان، إلى الغرب من موريتانيا، مرورا عبر قصر آرغوين (...)، [في محاولة منه] لإقامة قطب تجاري مع الموريسكيين [وهو مصطلح برتغالي يطلق عموما



أطلال مدينة وادان  
(موريتانيا)

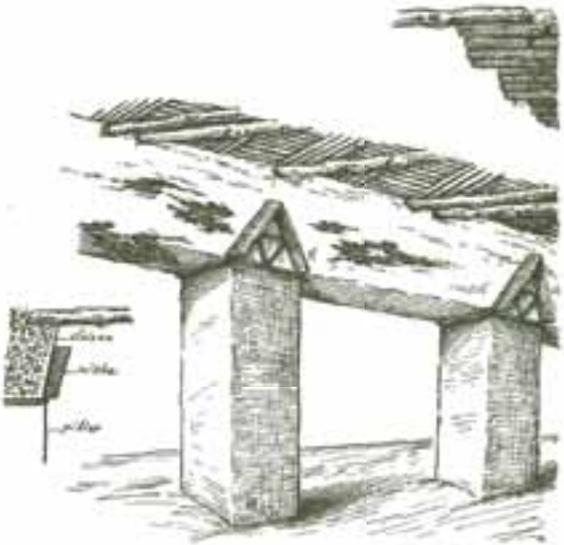
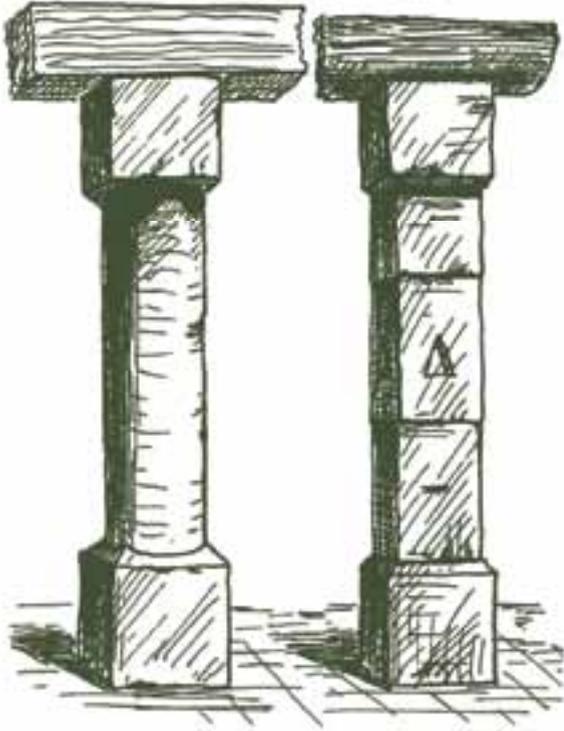
على السكان المسلمين، ولا يراد به الأهالي من أصول موريسكية ممن يستوطنون جنوب غربي الصحراء، حيث ما لبثت أن نشطت تجارة الذهب فيها (...)، غير أن المقام لم يطل بالبرتغاليين بسبب قساوة سبل العيش في تلك المنطقة النائية من جهة، ولأن العرب وحدهم كانوا يأتون إلى تلك المنطقة ويفدون إلى قصر أرغوين بخلاف زناثة أو الأودية أو البرابر فكانوا لا يأتون»<sup>12</sup>.

تشكل هذه المعطيات التاريخية -على ضآلتها- الخلفية التي ينبغي أن تُعتمد في دراسة المراحل الأولى للتواجد الأوروبي في منطقة آدرار الموريتانية، والأرضية التي يتعين الارتكاز عليها في بحث سبل إحياء هذه العلاقة بين أوروبا والصحراء. وفي مدينة وادان، يتجسد اهتمام الباحثين بهذه العلاقة في مستويات عدة، لعل أهمها ما يتصل تحديدا بإيجاد مقاربة ملموسة لإعادة تفعيل هذه الروابط. وفي هذا السياق، لا بد وأن ينظر إلى معطيات من قبيل حطام المنشآت العسكرية (حصن أغويدير إلى الشرق من وادان)، وقبور الأهالي من غير المسلمين (التي تتميز عن غيرها باتجاهها إلى غير القبلة)، أو ما يصطلح عليه بالملاح (الحي الذي يقطنه اليهود) في وادان، على أنها أدلة واضحة على أن الأوروبيين كانوا يعيشون في منطقة آدرار خلال القرن 16 للميلاد، كما يشار إلى ذلك في بعض الأدلة السياحية المتداولة محليا. وعلى الرغم من أن الوثائق التاريخية تخلو تماما من أية إشارة إلى مثل هذه الأمور التي يمكن أن يستدل بها على التواجد الأوروبي في الصحراء، غير أن الدلائل التاريخية من قبيل الآثار القديمة تعزز ما يؤكده البعض من أن هناك علاقة تاريخية بين الأوروبيين (أو النصراري) وأهالي آدرار.

وإذا لم يكن هناك ما يشير بشكل ملموس إلى أن الأوروبيين استوطنوا مدينة وادان خلال فترة ما قبل الاستعمار<sup>13</sup>، بخلاف ما تضمنته الوثائق الرسمية التي وقعت عليها البلدان (أنظر الملاحظة رقم 4)، فإن السكان المحليين يحتفظون في أذهانهم بأحداث تؤرخ لهذه الروابط وتساهم بالتالي في إعادة صياغة التاريخ المشترك بين الأوروبيين والصحراويين (ويتوارث الأهالي ذكرياتهم عن التواجد الأوروبي في المنطقة عادة عن أحد الأجداد المشتركين). وهذا ما يفسر كون العديد من الأسر الأدرارية تُرجع أصولها إما إلى قبائل البافور أو إلى شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا وبرتغال) أو حتى إلى اليهود. وإذا كانت السجلات التاريخية الرسمية عن السنوات الأولى لتواجد الأوروبيين في منطقة أدرار الموريتانية لا تشير إلى أن ما يدور الآن من نقاش حول هذه المسألة ليس وليد اليوم بل هو متجذر في تاريخ البلدين، فإن هناك من الشواهد على هذه العلاقة ما لا يمكن للذاكرة المحلية أن تمحوها<sup>14</sup>.

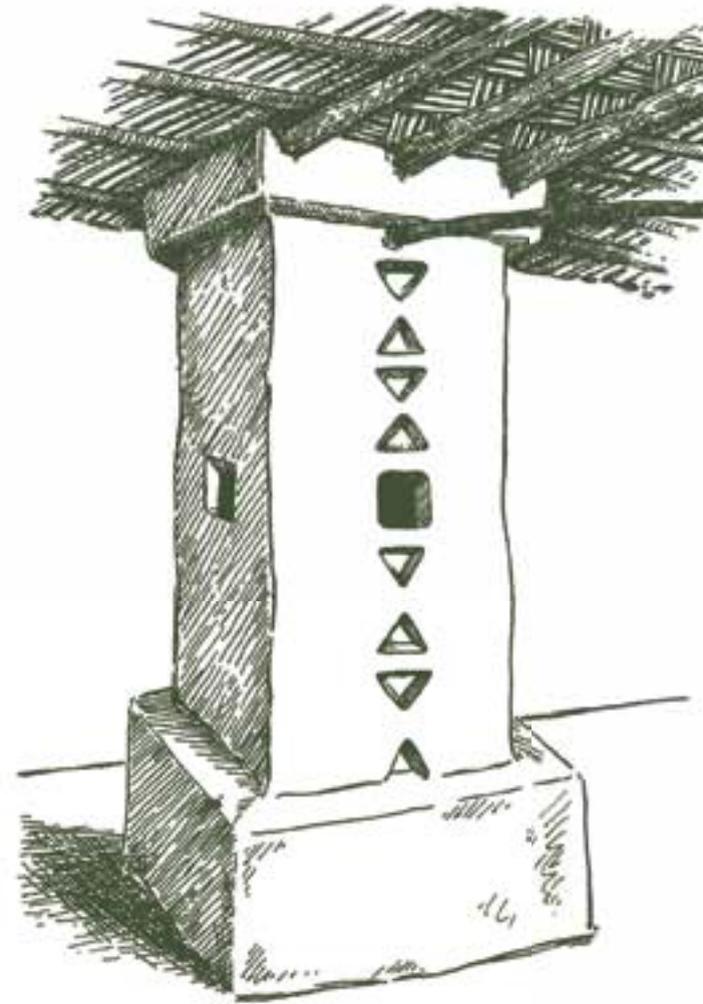
ومن خلال هذه المعطيات التاريخية غير الملموسة أو «غير المحققة»<sup>15</sup>، أود أن أستعرض بإيجاز بعض القضايا المرتبطة بطبيعة العلاقات التي تجمع بين أفراد قبيلة البافور (Bafur) في منطقة أدرار،<sup>16</sup> لا سيما خلال سنوات ما قبل الاستعمار الأولى، إلى جانب مسألة الهوية. ولعل أبرز مثال يجسد هذه الروابط في منطقة أدرار هو عشيرة البوتو (تتألف عشيرة البوتو (Al-Buto) حاليا من ثمان خيمات) التي تشكل القسم الأساس من قبيلة تايزيغا (Tayzigga) على الرغم من أن البوس (Al-Buss) هم من يتولون حاليا زعامة القبيلة. وعلى الرغم من أن جذور البوتو تعود إلى إطار عاصمة ولاية أدرار، إلا أنهم يشكلون أغلبية سكان العاصمة نواكشوط، حيث يستقرون بشكل خاص في الأطراف الجنوبية للمدينة في حي كاناوال (Kanawal). ومثل كثير من القبائل الموريتانية التي لا تملك أن تثبت نسبها إلى أهل البيت في الجزيرة العربية، يذهب البوتو على الرغم من ذلك إلى أن نسبهم يمتد إلى أصول غير عربية، ومن ذلك قولهم إن جدهم الأكبر هو من البافور (وبالتالي يصبحون «تركة البافور» كما يصفون أنفسهم)، والذي يرجح أنه من أصول إسبانية أو برتغالية أو ربما يهودية<sup>17,18</sup>.

«الجميع في القبيلة (تايزيغا) يقول إننا، نحن عشيرة البوتو، من أصول إسبانية أو برتغالية، في ما نظن أنه راجع إلى كوننا من البافور. وكمثال على ذلك فإن هناك واحة جنوب أطار في مكان يُدعى بافوريات. وفي الواقع، لا نعلم شيئا عن أصولنا إلا ما يقال من أننا ننتسب إلى البوتو. وهناك عشائر أخرى تُنهي أصولها إلى أولاد إبني، الإيديكزيلي، أولاد أحمد، أولاد ناصر، أو غيرهم. أما عن أصل عشيرتنا فيعود إلى قبيلة البافور، حتى أننا نستخدم عبارة أولاد بافور»<sup>19</sup>.

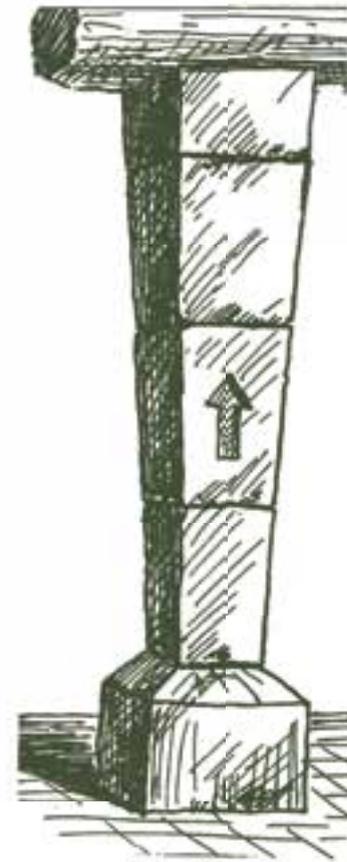
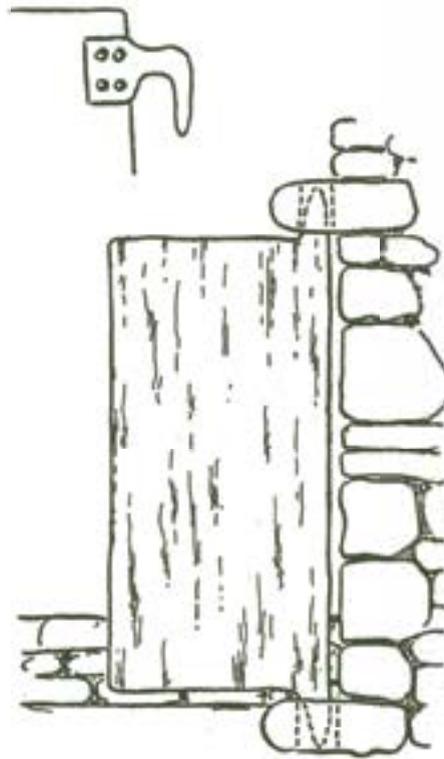
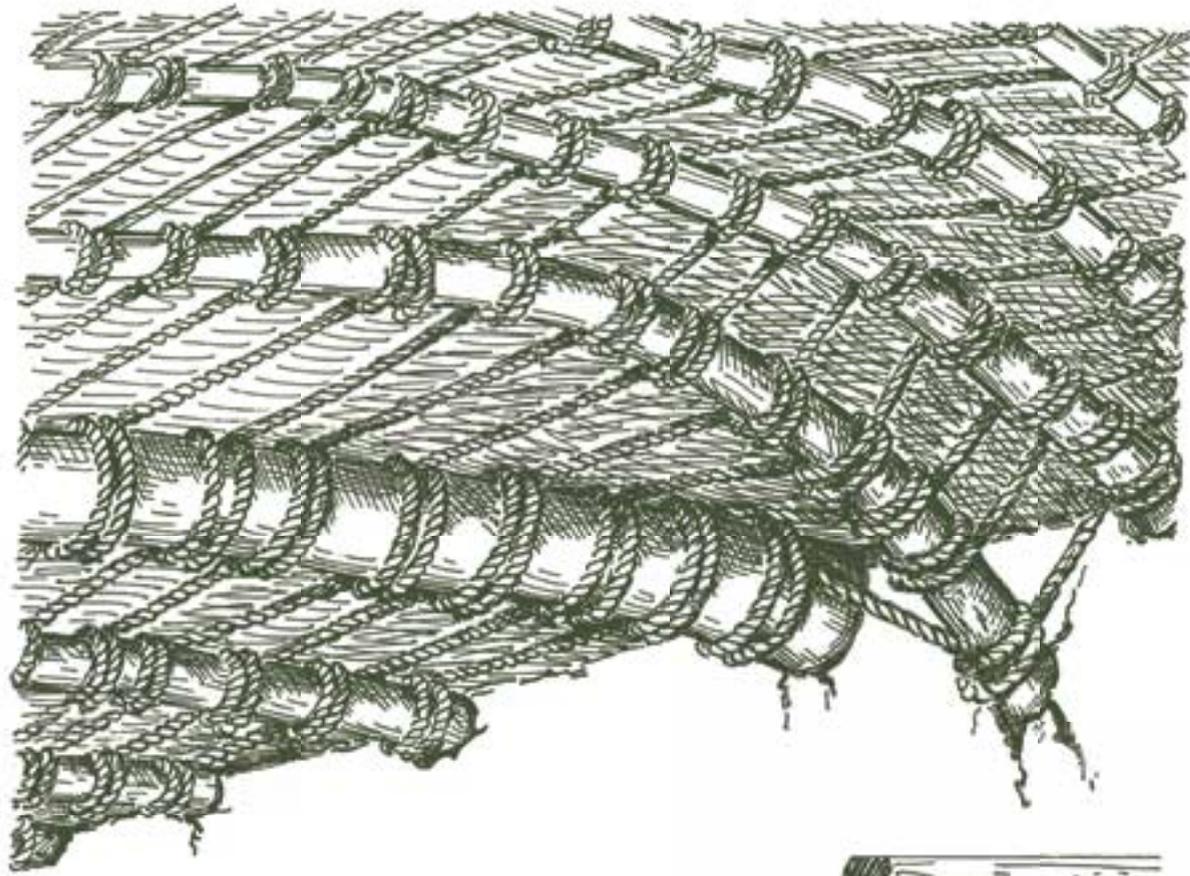


إن مثل هذا الخطاب المتداول بين البوتو يضرب عرض الحائط بنموذج الهوية السائد في المنطقة - بل في معظم البلاد -، والذي ينسب فيه الأهالي أصولهم إلى شبه الجزيرة العربية. بيد أن المثير في الأمر هو ما نلمسه من إصرار، في إطار هذا الخطاب، على التأكيد على العلاقة التاريخية بين قبائل آدرار وأوروبا، إلى حد يُعتقد معه أن الأدراريين من أصول أوروبية. وخلافا لما هو سائد بين القبائل، يدعم البوتو بشكل صريح هذا النمط من تحديد النسب (ويبدو أنهم ليسوا وحدهم من يَنحُون هذا المنحى، غير أنهم أكثر من يؤيد إدماج هذه الأعمدة غير واضحة النسب). وأود التأكيد على أن أكثر ما يدفع هذا الفريق نحو هذا الطرح هو رغبتهم في تجاوز الغموض الذي يلف ثقافة البافور وأنسابهم، وهو الأمر الذي يتضح في هذه الحالة في الأصول الأوروبية للجد الأكبر لهذه القبيلة.

وعند هذه النقطة، سأجازف بربط أسرة البوتو ونسبها غير الواضح وغير المتناسق أحيانا بالمسارات التي اتخذتها العلاقة بين الصحراويين والأوروبيين في وادان خلال القرن الحادي والعشرين، وذلك في إطار برنامج خاص بالنهوض بالتراث. وفي كلتا الحالتين، يتبين أن هناك تأكيدا على العلاقة مع أوروبا والأعلام الأوروبيين. وقد يجد القارئ في هذا البحث معطيات تشير على نحو إيجابي إلى هذه العلاقة سواء على مستوى الأنساب أو الهندسة المعمارية أو على المستوى المالي. وإذا ما نظرنا إلى الاستفادة التي تحققت من خلال توظيف التراث الحضاري، المادي أو غير المادي، لمنطقة آدرار في القطاع السياحي، يتضح لنا كيف أنه يمكن استثمار الموروث الشفهي المرتبط بفترة ما قبل الاستعمار لتعزيز قدرات المنطقة على استقطاب السياح الأوروبيين. وقد يساهم الإقرار بهذه العلاقة التي يعود تاريخها إلى خمسة قرون في تحويل منطقة آدرار الموريتانية وسكانتها إلى وجهات «مألوفة»، وبالتالي تحويل هذا الجزء من الجنوب الغربي للصحراء إلى منطقة «صديقة للسياحة». وعليه، فإن من شأن التعريف الذي يعطى لهذا التاريخ المشترك أن يفيد المنطقة من نواح عدة، ليس فقط كمنارة تاريخية للمعرفة الإسلامية ولكن أيضا كملتقى للتلاقح الحضاري بين أوروبا والصحراء<sup>20</sup>. تلك هي النقطة التي أردت التأكيد عليها، بالنظر إلى طبيعة الخطابات التي تتداول في المنطقة بخصوص النهوض بالتراث. واستنادا إلى الأهداف المنصوص عليها في ميثاق منظمة اليونسكو، بشأن الحفاظ على المواقع الأثرية في العالم، يُفترض أن جهودا بُذلت من أجل «الحسم» في هذا الجانب من تاريخ المنطقة، والاستفادة من الشخصيات الثقافية «البناءة» في التعريف بالدور الذي لعبته طرق قوافل التجارة الموريتانية على مرّ التاريخ.



أشكال معمارية تقليدية بالمدن العتيقة بموريتانيا

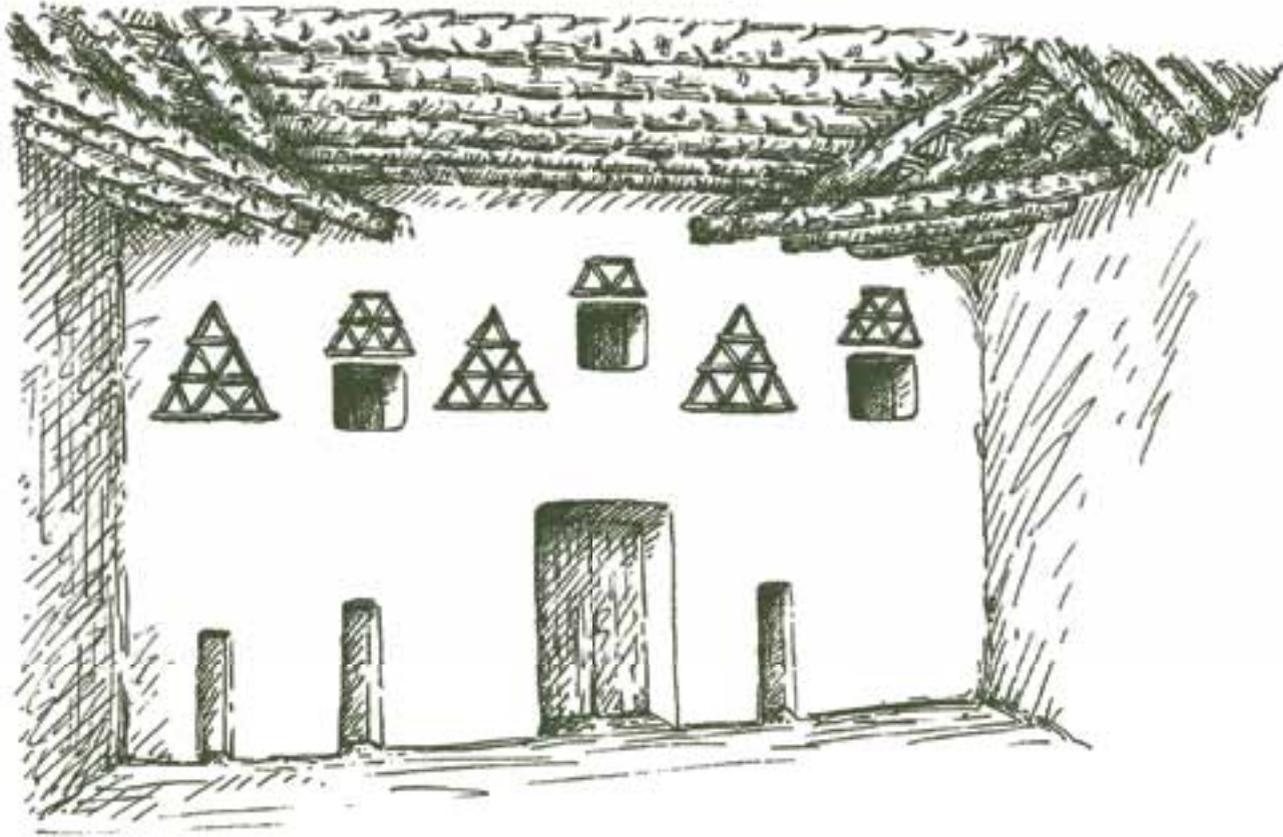


أشكال معمارية تقليدية بالمدن  
الصحراوية العتيقة بموريتانيا

وعليه، يمكن إدراج العلاقة بين أوروبا ومدينة وادان في هذه العملية، باعتبار نتائجها الإيجابية والملموسة، في إطار استراتيجية سياسية مُحكّمة. وخلال السنوات الماضية الأخيرة، ركزت موريتانيا في علاقاتها الخارجية على الدول الأوروبية والغربية. وعلى المستوى الوطني، يشير التطور الذي تحقّق في قطاع السياحة في وادان إلى طبيعة التوجه الذي تريد الجمهورية الإسلامية الموريتانية أن تنخرط فيه، لا سيما في ما يتصل بتعزيز التراث العربي-الإسلامي وتقويته، بالموازاة مع تطوير الروابط المثمرة مع أوروبا والغرب.

وفي علاقة بمسألة الهوية، تركز حكومة الجمهورية الإسلامية الموريتانية في خطابها الرسمي على جمالية المناظر الطبيعية الصحراوية وتاريخ البلاد العربي والإسلامي المشترك، وهو ما يفسر تسمية هذا الجزء من منطقة آدراب «بلاد شنقيط»، تأكيداً على غنى الموروث الإسلامي فيها، بل وحتى إطلاق التسمية ذاتها على ربوع البلاد (على ما يطرحه ذلك من تناقض بالنظر إلى تمركز معظم سكان البلاد في الأقاليم الجنوبية حيث تعيش عرقيات مختلفة، بعيداً عن شنقيط والاقتصاديات القائمة على تجارة الإبل). وبحسب هيرزفيلد<sup>21</sup>، قد يسهل تأويل هذه المقاربة على أنها «تبسيط استراتيجي» لمفاهيم «التقاليد» و«التراث»، يستهدف إحداث «تراث مُعْجَز»<sup>22</sup> يساهم في مأسسة أهداف واضح. وفي الواقع، لم تركز جهود تنمية قطاع السياحة على الأراضي الخصبة جنوب البلاد، سواء على طول السواحل مترامية الأطراف أو في الجزء الداخلي من البلاد بعيداً عن الساحل، بل تمحورت حول مدن ولاتة وتيشيت وشنقيط ووادان، حيث الأرض قاحلة وغير مأهولة. وقد يكون لهذا التوجه الجديد والمبني على خلفيات إيديولوجية في تحديد الحدود الجغرافية للتراث الثقافي للبلاد دور بالغ الأهمية في وضع مفهوم جديد للسيادة القومية يُمكن بلدات صحراء موريتانيا وقراها، والتي اشتهرت تاريخياً بكونها ملتقيات للطرق بين التجارة الصحراوية والأوروبية والعالم الإسلامي وغيره، من أن تكون لها مساحة في الذاكرة الرسمية للبلاد.





ومهما يكن من مصير علاقة ما قبل الاستعمار بين أوروبا والصحراء، سواء طواها النسيان أو حوفظ عليها أو بعثت من جديد، فمما لا جدال فيه أن هذه العلاقات تنطوي على الكثير من الأهمية، ذلك أنها لا تزال في صلب النقاش. وسواء على المستوى المحلي أو السياسة الدولية، أو على مستوى السياسات الثقافية والعلاقات الإسلامية-النصرانية، أو من خلال النظر في أعمدة الأنساب، فإن التأويلات بخصوص هذه العلاقات تفتح المجال للوقوف على الكثير من التساؤلات. وقد كانت وادان بحكم موقعها على طرق قوافل التجارة الصحراوية شاهدة على العديد من الحروب والغزوات، كما أنها شكلت على مر التاريخ منطقة عبور للعديد من الجنسيات. أما في الوقت الحاضر، فلا يزال الإرث التاريخي الذي خلفه ثلاثة وكلاء أوروبيين (يعتقد المؤرخ خواو دي باروس (Joao de Barros) أنهم كانوا إما برتغاليين أو يهودا أو من أصول يهودية) كانوا عبروا وادان خلال الفترة ما بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر، ينطوي على الكثير من الأهمية بالنسبة للبرتغال وموريتانيا في جهودهما لإعادة تفعيل هذه العلاقة.

### التاريخ والروايات المرتجلة: الصحراء في تجدد مستمر

«إن إبراز الذاكرة هو في حد ذاته ممارسة للسلطة من جانب مجموعة معينة، وهو إلى ذلك تأكيد للمنطلقات ولتسلسل الأحداث وللآفاق المستقبلية»<sup>23</sup>.

أحاول من خلال بحثي<sup>24</sup> إبراز كيف أن بنيات الذاكرة الصحراوية لا تزال تحتفظ على نطاق واسع (لا سيما لدى قبائل البيضان) بالأحداث الأولى للقاء بين الأوروبيين والصحراويين، وهو ما يتقاسمه الصحراويون على اختلاف شرائحهم في الجزء الغربي من موريتانيا. ومن الواضح أن القرون الخمسة التي تفصل بين اللقاء

الأول بين الأوروبيين والصحراويين واستراتيجيات التعاون التي أبرمت في الوقت الحاضر بشأن التراث الذي خلفته هذه العلاقات، جعلت الروايات تتعدد بشأن تاريخ المنطقة وبالتالي ساهمت في بروز أشكال مختلفة من الخطاب بشأن الأنساب (تعبير اصطلاحى جوهري بالنسبة لقبائل البيضان الموريتانيين وإحدى أهم العناصر المكونة للهوية). ولا يزال الاهتمام بمسألة النسب حاضرا، ولو بطريقة مختلفة كما في مدينة وادان.

ويسود رأي في المنطقة بأن البرتغاليين كانوا أول من وصلوا إلى وادان من شعوب أوروبا، وأول من حملوا على عاتقهم مسؤولية النهوض بالنشاط التجاري بين الأوروبيين والصحراويين. وأريد أن أشير في هذا الصدد إلى مشروع البرتغال-موريتانيا الذي أعاد هيكله الحي القديم في وادان، مع التأكيد على إسهامه في تعزيز الخبرات التجارية المتوارثة وتعزيز علاقات التبادل المثمر التي ظلت قائمة في هذا السياق بين الشمال والجنوب، بين أوروبا والصحراء. ولما كان مشروع النهوض بتراث وادان يقوم على هذه الفكرة، فإنه بذلك يسلط الضوء على البلدة (ومن خلالها المنطقة بأسرها) ليس باعتبارها واحة صحراوية تزين بطائق البريد، بل بكونها ملتقى تاريخيا للتبادل التجاري والثقافي بين الصحراء وأوروبا. ويبدو أن دولة ما بعد خروج الاستعمار في موريتانيا لا تجد ضيرا في إدماج هذه العناصر في تاريخها المعاصر، مع تجاوز الجوانب المادية المرتبطة بهذه العلاقة<sup>25</sup> وبدوري أرجع نفس الأهمية إلى الدوافع لدى كلتا الدولتين وراء الاهتمام بهذه الصفحات من التاريخ المشترك بينهما: جهود البرتغال في التأريخ لأحد الرموز الصغيرة لحضورها في الصحراء، ورغبة موريتانيا في إدماج هذا الجانب من تاريخ البلاد في رواياتها حول مسألة الهوية. ويمكن بصراحة تأويل هذا الشكل الجديد الذي اتخذته هذه العلاقة على أنه طريقة جديدة لما بعد الاستعمار في إعادة تدوين الماضي، حيث بات الصحراويون يتعاملون مع الحضور الأوروبي بين ظهرانيهم بالتسامح (بل وحتى الإشادة)، في تطلع إلى الآفاق المستقبلية للتاريخ المشترك بين البلدين. ومن الواضح أن الجوانب البناء المرتبطة بمشروع التعاون الثقافي البرتغالي-الموريتاني تتجاوز الفكرة (الاستعمارية) المرتبطة بغزو النصارى لإحدى الأراضي الإسلامية أو محاولة فتح إحدى ثغور دار الإسلام.

يتخذ تعزيز نماذج الهوية في ارتباطها الوثيق بعمليات تحديد تعريف للتاريخ مظاهر متعددة، بناءً على معايير لا ترتبط بشكل كبير بالتأويل السلبي لمفهوم التراث. ونحن نعلم أن لا وجود لتعريف خطي للتاريخ، وأنه في الكثير من الحالات يبدو أن حصيلة العمليات طويلة الأمد تأتي إما من وقائع هامشية أو أساليب مرتجلة أو من اختيارات قد تكون اعتباطية (تجدر الإشارة إلى أن الانخراط في اتفاقيات التعاون المثمرة والعمل على وضع الأسس لتحديد هوية عشيرة من العشائر، باعتبار ذلك إحدى المحطات البارزة في الجهود المبذولة خلال القرن الحادي عشر للنهوض بتراث وادان، لا يكفي في الواقع لطرق كل الجوانب المرتبطة بتاريخ العلاقات الأوروبية-الصحراوية خلال القرن السادس عشر). زيادة على ذلك، ندرك أنه يجب علينا أن نزاوج بين المصادر المكتوبة من جهة وبين المعطيات الأثرية والتراث الشفهي من جهة ثانية، بغرض الوصول إلى تحليل أكثر تفصيلا. وبالنسبة لمدينة وادان الموريتانية، نحن في حاجة كذلك إلى التركيز على السياسات المرتبطة بالتراث، وإن كنت أرى أن ما تبقى من المعالم الأثرية التي جرى ترميمها مؤخرا لا يعبر بشكل جلي عن تفاصيل تاريخ الحياة الاجتماعية للمدينة، بخلاف التقاليد التي تعطي أكثر من غيرها معنى لهذه العناصر الملموسة. وهذا ما حاولت أن أستعرضه في هذا الفصل، مع التركيز على سياسات الدولة (سواء على المستوى الوطني أو الدولي)، والموروث الشفهي والروايات المتصلة بالأنساب والتي تساهم في الكشف عن جوانب مختلفة من التاريخ المشترك لفترة ما قبل الاستعمار بين أوروبا والصحراء في منطقة آدرار الموريتانية.

## هوامش

LONG, C. ed., *Heritage and Globalisation*, Routledge, New York, 2010, pp. 19-44.

10 - خلال الفترة ما بين نهاية 2004 وبداية 2005، سافر ما يناهز 10000 سائح إلى أطار (كارديرا دا سيلفا 2006: ص. 361).

11 - Godinho, V.M., *Os Descobrimentos e a Economia Mundial*, 2nd ed., 4 vols., vol. I., Editorial Presença,

12 - Barros, J.D., *Ásia de João de Barros. Dos feitos que os portugueses fizeram no descobrimento e conquista dos mares e terras do oriente, Primeira década*, Imprensa Nacional-Casa da Moeda, Lisboa, 1988, pp. 117-118.

13 - في الواقع، تشير الوثيقة المذكورة في الملاحظة رقم (4) إلى عبارة «معالم»، وقد يستفاد منها على أن الأمر يتعلق إما بمعالم أثرية مادية أو غير مادية. لشبونة، 1984 ص. 67، 148، 174.

14 - Freire, F., « Narrativas *naçrâni*-s entre os *bidân* do sudoeste da Mauritània: A viagem europeia e suas reconfigurações tribais. » Tese de Doutoramento, FCSH-Universidade Nova de Lisboa, Lisboa 2009.

Freire, F., « Histoire du Sahara atlantique et mémoire tribale. Réinterprétations contemporaines des contacts euro-sahariens précoloniaux », in Boulay S., et Lecoquierre, B. éd., *Le littoral mauritanien à l'aube du XXI<sup>ème</sup> siècle: Peuplement, gouvernance de la nature, dynamiques sociales et culturelles*, Karthala, Paris, 2011, pp. 107-123.

15 - Labadi, S. & Long, C., ed. *Heritage and Globalisation*, Routledge, New York, 2010, pp. 75-76.

16 - « تشير العديد من المصادر في أدرار إلى أن البافور كانوا إما من ذوي البشرة السوداء أو يهودا أو من أصول برتغالية أو كانوا عمالقة ممن استوطنوا في أدرار قبل مجيء جيش أبي بكر ابن عمر، القائد المرابطي. ومن المرجح كذلك أن أصولهم ترجع إلى إحدى قبائل زناغة القديمة التي كان لها شأن عظيم قبل أن تندحر على أيدي قبائل أخرى وترغم على الانصهار فيها. » (ويتكومب 1975: 120).

السادس عشر (البروتوكول الإضافي للاتفاقية الإطار للتعاون مع موريتانيا من أجل تمويل مشروع ترميم مركز وادان التاريخي من الناحية الأثرية، سجلات الجمهورية، رقم 25، الفقرة رقم 2، السنة 2002). قمت بترجمة بعض الفقرات المشار إليها في هذا المقال من البرتغالية، باستثناء ما لم أوردته مترجما.

6 - بالإمكان النظر إلى جزيرة أرغوين، حيث كان ينتصب قصر من قصور البرتغال على مدى ما يقارب قرنين (مونود 1983)، باعتبارها محورا من محاور التعاون بين البلدين. ومن الواضح أن الموقع الجغرافي المهمش للجزيرة، فضلا عن أن القصر قد دُمّر بالكامل، قد يجعل ترميم هذه المعلمة عملية مكلفة جدا، زيادة على أنها قد لا تنفيد في تحقيق ما يصبو إليه الجانب البرتغالي من تسليط الضوء على وجوده التاريخي في المنطقة. غير أنه من ناحية العلاقات ما قبل الاستعمارية لغرب الصحراء مع أوروبا، يتعين تسليط الضوء على دور جزيرة أرغوين في هذا المجال. وإذا كانت أرغوين مركزا تجاريا صغيرا (Feitoria) بالمقارنة مع ساو خورخي دامينيا (المينيا)، فإنها في حاجة إلى تسليط الضوء على دورها في تحريك عجلة الاقتصاد المحلي، بالنظر إلى ما كان ينجز فوقها من أنشطة في الماضي. لذلك، فإن النشاط الاقتصادي المتواصل في أرغوين على مساحة جغرافية واسعة، إلى جانب تأثيرها على المستوى المحلي، ينبغي أن يشد انتباه الباحثين إلى الدور الهام لهذه المنطقة.

7 - Cardera De Silva, «Old Maps, New Traffics: Political Itineraries Around Scattered Heritage of Portuguese Origin», in Bourdeau, L. & Chassé, S. éd., *Actes du colloque « World Heritage and Tourism : Managing for the Global and the Local »*: Presses de l'Université Laval, Québec, 2011, pp.312-313, image 1.

8 - Boulay, S., «Culture nomade versus culture savante: Naissance et vicissitudes d'un tourisme de désert en Adrar mauritanien», *Cahiers d'études africaines*, 2009, pp. 193-194 ; 95-121 ; Cardeira Da Silva, M., «Hospedaria Vasque: cultura, raça, género e expediente», *Etnográfica*, 10 (2), 2006, pp. 355-381.

9 - Askew, M., « The Magic List of Global Status : Unesco, World Heritage and the Agendas of States », in Labadi, S. &

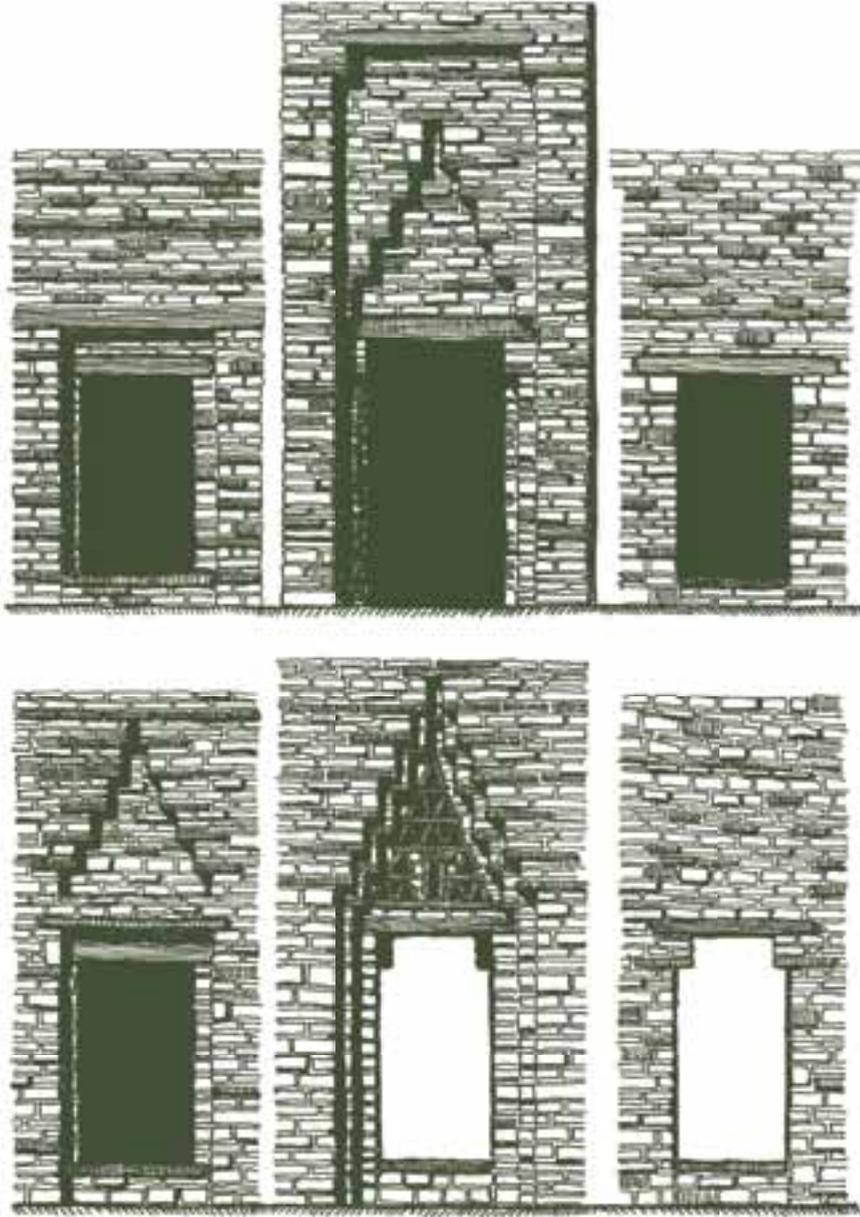
1 - اعتمدت في مناقشة مواد هذا الفصل على نتائج البحوث الأنثروبولوجية الميدانية التي أجريها في موريتانيا (بدعم سخي من مؤسسة العلوم والتكنولوجيا الإسبانية)، ومن مشاركتي في مشروع البحث «كاستيوس أبوموردو» (POCTI/ANT/48629/2002) و«كاستيوس أبوموردو II» (PTDC/QNT/67235/2008). ويمكن مطالعة المشروع على الرابط التالي على الإنترنت: <http://castelos-a-bombordo-ii.referata.com>

2 - يرجع تاريخ المدينة إلى أزيد من سبعة قرون مضت، طرأت خلالها تحولات عميقة ارتبطت بحجم العلاقات التجارية المهمة التي كانت قائمة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب عبر الصحراء، كما يستدل على ذلك من بقايا الموجودات الأثرية التي عثر عليها في المدينة. وفي الماضي، اضطلعت المدن الأربع بدور هام كمراكز تجارية انبثقت منها أنوار الثقافة والدين الإسلاميين وامتد إشعاعها إلى العالم. (<http://whc.unesco.org/en/list/750>).

3 - Cardera De Silva, «Old Maps, New Traffics: Political Itineraries Around Scattered Heritage of Portuguese Origin», in Bourdeau, L. & Chassé, S. éd., *Actes du colloque « World Heritage and Tourism : Managing for the Global and the Local »*: Presses de l'Université Laval, Québec, 2011, pp. 308-317; Harvey, D. C., « «National» Identities and the Politics of Ancient Heritage: Continuity and Change at Ancient Monuments in Britain and Ireland, c.1675-1850», *Transactions of the Institute of British Geographers*, 2003, 28 (4), pp. 473-487; Smith, L., *Uses of Heritage*, Routledge, New York, 2006.

4 - اتفاقية الإطار للتعاون بين البرتغال وموريتانيا والبروتوكول الملحق بها (مرسوم رقم 33/99، سجلات الجمهورية، رقم 198، الفقرة 1، الصفحات 5721 - 5724).

5 - بالنظر إلى الرغبة المتبادلة لحكومتَي البرتغال وجمهورية موريتانيا الإسلامية في التعاون في ميادين مختلفة (...)، خصوصا في مجال إعادة تأهيل التراث كوسيلة لتعميق الروابط الثقافية والتاريخية بين البلدين، ولما كانت بلدة وادان شاهدة على التاريخ الثقافي المشترك بين البلدين، فهي تتميز بكونها كيانا متكاملًا من الناحية الأثرية تتخلله معالم شاهدة على الحضور البرتغالي، وهو ما يتضح من خلال مركز التبادل التجاري الذي أقامه البرتغاليون في القرن



17 - Freire, F., *op. cit.*, Bonte, P., «L'Émirat de l'Adrar. Histoire et anthropologie d'une société tribale du Sahara Occidental», Thèse de Doctorat, École des Hautes Études en Sciences Sociales, Paris, 1998, pp. 99-100.

18 - يشير البروفيسور بيير بونت في أبحاثه المهمة التي أجراها على منطقة أدرار إلى أن «الغافوزي» هو الجد الأكبر لآل بوتو (بونت 1998: 100). وفي أبحاثي على قبيلة آل بوتو، لم أعثر على ما يشير إلى هذا الشخص الذي أطلق اسمه على القبيلة، ولا حتى على اسم شخص آخر غيره.

19 - Freire, F., *op. cit.*.

20 - من جانب آخر، بالإمكان الإشارة إلى مشاريع صيانة المواقع الأثرية في المغرب. وفي المغرب، استمر التواجد الأوروبي فترة أطول بكثير، ما يبرر ما كان من مواجهات عسكرية (بينيسون 2001). وتجدر الإشارة إلى أن المواقع الأثرية الشاهدة على التاريخ المغربي-البرتغالي على طول السواحل المغربية (أسفي والجديدة وأصيلة وأزمور) هي في الغالب معالم عسكرية. ففي الجديدة، حيث توجد البرتغال لفترة ما بين 1502 و1769، تواصلت المواجهات العسكرية إلى غاية منتصف القرن 18 للميلاد. وللمزيد من المعلومات بخصوص هذا الموضوع، يرجى مطالعة كتابي:

Silva, J.M.A e. *Mazagão, uma cidade lusomarroquina deportada para a Amazônia*. Viséu: Palimage, 2007. Dias Farinha, A., *Os portugueses em Marrocos*, Instituto Camões, Lisboa, 1999.

21 - Herzfeld, M., «Mere Symbols», *Anthropologica*, 50 (1), 2008, 141-155.

22 - SMITH, L., *Uses of Heritage*, Routledge, New York, 2006.

23 - Triaud, J.-L., «Lieux de mémoire et passés composés», in Chrétien, J.-P. & Triaud, J.-L., éd., *Histoire d'Afrique: Les enjeux de mémoire*, Karthala, Paris, 1999, pp. 9-12.

24 - Freire, F., *op. cit.*.

25 - في تعاطي مع غيرهم من سكان موريتانيا ممن ارتبط تاريخهم بشكل مباشر مع الساحل الأطلسي، أركز على هذه الملامح التي لا يمكن إغفالها (راجع سيلفا هوتا وفيريير 2012).

## المراجع

Askew, M., «The Magic List of Global Status: UNESCO, World Heritage and the Agendas of States», in LABADI, S. & LONG, C. ed., *Heritage and Globalisation*, Routledge, New York, 2010, pp. 19-44.

Barros, J.D., *Ásia de João de Barros. Dos feitos que os portugueses fizeram no descobrimento e conquista dos mares e terras do oriente, Primeira década*, Imprensa Nacional-Casa da Moeda, Lisboa 1988, pp. 117-118.

Bennison, A.K., «Liminal States: Morocco and the Iberian Frontier Between the Twelfth and the Nineteenth Centuries», in J. Clancy-SMITH (ed.), *North Africa, Islam and the Mediterranean World: From the Almoravids to the Algerian War*, Frank Cass, London/Portland, 2001, pp. 11-28.

Barillet, C., Joffroy, T. & Longuet, I. (eds.), *Cultural Heritage & Local Development: A Guide for African Local Governments*, Craterre-ENSAG/Convention France-UNESCO, Paris 2006.

Bonte, P., «Les commerçants, «marocains» et autres, dans l'Adrar Mauritanien. La vocation commerciale des Maures», in Marfaing, L. & Wippel S. (eds.), *Les relations trans sahariennes à l'époque contemporaine: Un espace en constante mutation*, Karthala, Paris, 2004, pp. 231-250

Bonte, P. «L'Émirat de l'Adrar. Histoire et anthropologie d'une société tribale du Sahara Occidental», Thèse de Doctorat, École des Hautes Études en Sciences Sociales, Paris, 1998.

Boulay, S., «Culture nomade versus culture savante: Naissance et vicissitudes d'un tourisme de désert en Adrar mauritanien» *Cahiers d'études africaines*, 2009, pp. 193-194: 95-121.

Cardeira Da Silva, M. «Hospedaria Vasque: cultura, raça, género e expediente», *Etnográfica*, 2006, 10 (2), pp. 355-381.

Cardeira Da Silva, «Old Maps, New Traffics: Political Itineraries Around Scattered Heritage of Portuguese Origin», in BOURDEAU, L. & CHASSÉ, S. éd., *Actes du colloque «World Heritage and Tourism: Managing for the Global and the Local»*: Presses de l'Université Laval, Québec, 2011, pp.312-313, image1.

Cernea, M. M. *Cultural Heritage and Development: A Framework for Action in the Middle East and North Africa*. Washington: The International Bank for Reconstruction and Development/the World Bank, 2001.

Coquery-Vidrovitch, C., «Lieux de mémoire et occidentalisation», in Chretien, J.-P. & Triaud, J.-L. (eds.), *Histoire d'Afrique: Les enjeux de mémoire*, Karthala, Paris, 1999. pp. 377-388

Dias Farinha, A., *Os portugueses em Marrocos*, Instituto Camões, Lisboa, 1999.

Farias, P.F. de M., *Histoire contre mémoire : Épigraphe, chroniques, tradition orale et lieux d'oubli dans le Sahel malien*, Université Mohammed V/ Institut des Études Africaines, Rabat, 1993.

Freire, F., «Narrativas *naçrâni*-s entre os *bidân* do sudoeste da Mauritània: A viagem europeia e suas reconfigurações tribais.» Tese de Doutorado, FCSH-Universidade Nova de Lisboa, Lisboa 2009.

Freire, F., «Narrativas *naçrâni*-s entre os *bidân* do sudoeste da Mauritània: A viagem europeia e suas reconfigurações tribais.» Tese de Doutorado, FCSH-Universidade Nova de Lisboa, Lisboa 2009.

Freire, F., «Histoire du Sahara atlantique et mémoire tribale. Réinterprétations contemporaines des contacts euro-sahariens précoloniaux», in Boulay S., et Lecoquierre, B. éd., *Le littoral mauritanien à l'aube du XXIème siècle: Peuplement, gouvernance de la nature, dynamiques sociales et culturelles*, Karthala, Paris, 2011, pp. 107-123.

Godinho, V.M., *O «Mediterraneo» saariano e as caravanas do ouro: geografia económica e social do Sáara Ocidental e Central do XI ao XVI século*», *Revista de História*, São Paulo, 1956.

Godinho, V.M., *Os Descobrimentos e a Economia Mundial*, 2nd ed., Editorial Presença, Lisboa, 1984, 4 vols., vol. I.

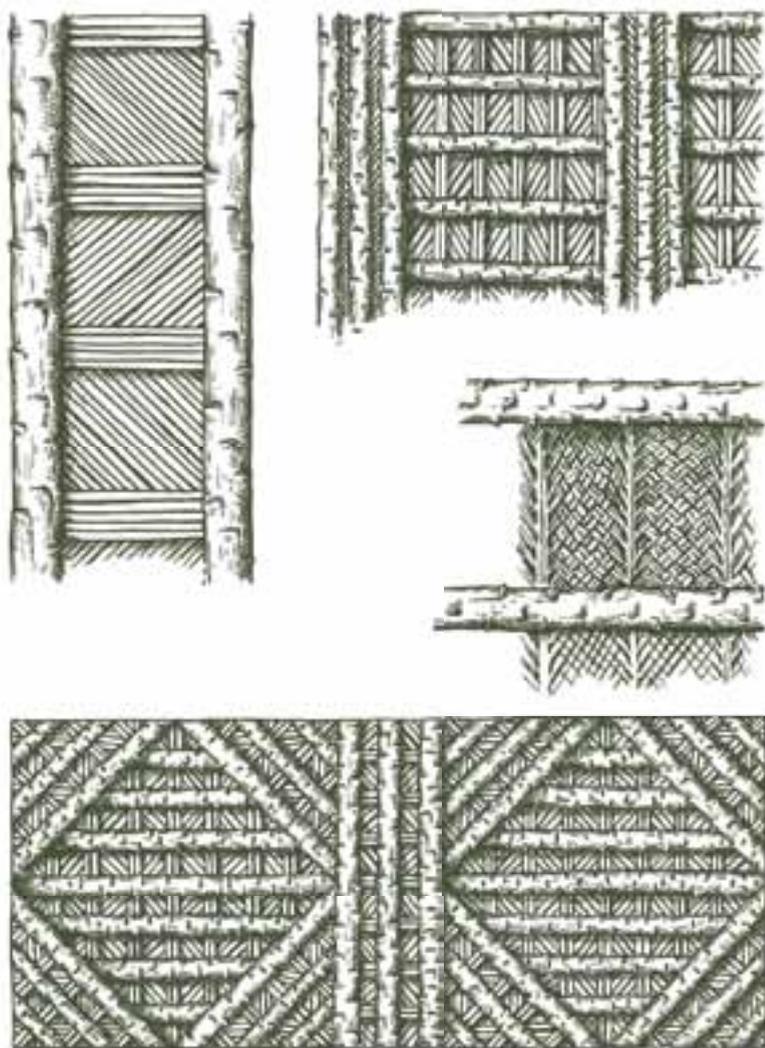
Hamès, C., «L'évolution des émirats maures sous l'effet du capitalisme marchand européen» in Équipe écologie et anthropologie des sociétés pastorales (eds.), *Pastoral Production and Society*. Maison des Sciences de l'Homme, Paris, 1979, pp. 375-398.

Harvey, D. C., ««National» Identities and the Politics of Ancient Heritage: Continuity and Change at Ancient Monuments in Britain and Ireland, c.1675-1850», *Transactions of the Institute of British Geographers*, 2003, 28 (4) pp. 473-487.

Herzfeld, M. «Mere Symbols», *Anthropologica*, 50 (1), 2008, pp. 141-155.

Kirshenblatt-Gimblett, B., «Intangible Heritage as Metacultural Production», *Museum International*, 56 (1-2), 2004, 52-65.

Labadi, S. & Long, C. (eds.): *Heritage and Globalisation*, Routledge, New York, 2010.



Labadi, S., « World Heritage, Authenticity and Post-Authenticity : International and National Perspectives », in Labadi, S.& Long, C. (eds.), *Heritage and Globalisation*, Routledge, New York, 2010. pp. 66-84

Monod, T., *L'île d'Arguin (Mauritanie): Essai historique*, Centro de Estudos de Cartografia Antiga do Instituto de Investigação Científica e Tropical, Lisboa, 1983.

Ricard, R. « Les Portugais et le Sahara atlantique au XV<sup>e</sup> siècle », *Hespéris*, 1930, 11, pp. 97-110.

Ricard, R., « Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'empire Portugais aux XV<sup>e</sup> et XVI<sup>e</sup> siècles », *Annales de l'Institut d'Études Orientales d'Alger*, 1936, 2, pp. 266-290.

Silva, J.M.A e. *Mazagão, uma cidade lusomarroquina deportada para a Amazônia*. Viseu: Palimage, 2007.

Silva Horta, J. da & Freire, F., « Os primeiros contactos luso-saarianos : narrativas europeias quatrocentistas e tradições orais bidan (Mauritânia) », *As lições de Jill Dias*, CRIA: Lisboa (in press), 2012.

SMITH, L., *Uses of Heritage*, Routledge, New York, 2006.

Triaud, J.-L., « Lieux de mémoire et passés composés », in Chretien, J.-P. & TRIAUD, J.-L. (eds.), *Histoire d'Afrique: Les enjeux de mémoire*. Karthala, Paris, 1999, pp. 9-12.

Whitcomb, T., « New Evidence on the Origins of the Kunta-I », *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 1975, 38, p. 103-123.



# الافتصاد الرعوي تراث افتصادي وثقافة

آن ماري بريزبار

تنطوي مهنة الكساب أو الراعي التي تتمثل في إدارة المواشي على تعقيد يقوم على العديد من المعارف والمهارات المتوارثة جيلا عن جيل منذ عصور، إن لم نقل منذ آلاف السنين. ذلك أن القدرة على الانتقاء، أعني تحويل تلك الحيوانات حسب اختيار منتجها من أجل تكييفها مع مجال وإنتاج معين، ليس إلا جانبا من جوانب تلك المعارف. وأحيانا ما ينظر الخبراء الوراثيون إلى هذا الانتقاء بعين ملؤها الإزدراء والأمبريقية - وفي فرنسا يتم الحديث عن «الانتقاء الفلاحي» تشديدا على تمثيلية عتيقة، نوعا ما، لأنظمة الرعوية الموسعة - بينما نجد في المغرب أن كلمة «البلدي» هي الكلمة الأكثر استعمالا.

وتبع لبوشعيب بولنوار الذي استقبلني بالرباط في ماي من عام 2007، وهو المسؤول عن القسم العلمي في المركز الوطني للبحث الزراعي (INRA) المغربي والمتخصص في تربية الماشية، فإن في وسع كلمة «بلدي» أن تحمل ثلاث دلالات:

الدلالة الأولى جغرافية تشير إلى الانتماء إلى «بلاد» وإلى «مجال» بمعنى المنطقة الإيكولوجية وتدل على أصل حيوان داجن، أو نبتة مزروعة أو منتج منحدر من الأنشطة الزراعية الرعوية المحلية.

الدلالة الثانية دلالة تدجينية (Zootechnique) تشير إلى ماشية «غير مهجنة» (non croisé) قياسا إلى الماشية المنحدرة من عملية إنتاج مكررة تنتمي إلى فصيلتين أو فئات حيوانية متميزة.

وأخيرا الدلالة الزراعية وتشير إلى منتج «مزرعي» أو «فلاحي» تثمنه بالقياس إلى المنتوجات الصناعية الزراعية الغذائية (agro-alimentaire).: يقال مثلا «بيض بلدي» و«الدواجن البلدية» أي منتجة في المزارع وأحيانا كثيرة يقوم المزارع ببيعها بشكل مباشر.

هناك تفسير آخر قدمه لي منسق مشروع «الإنتاج والتنوع البيولوجي» والذي التقيته في شهر ماي من عام 2007 على هامش المؤتمر الدولي حول الأثدال بمراكش. ففي الأطلس الكبير تُنسب كلمة «بلدي» إلى أغنام دمان (D'man) و«أغنام الواحات» المعروفة بتوالدها العجيب، إذ يمكن أن تنجب عند بلوغها سنا معينة سبعة حملان في الولادة الواحدة<sup>1</sup>، وتتولى النساء أحيانا كثيرة تربيتها بأعداد صغيرة في المنازل مما يدل على الطابع التدجيني الشديد والتقارب الكبير بين العائلة وقطعانها قياسا إلى نعاج «ترحالين» والأغنام المنتجة التي ترعى في شكل قطعان بنظام متسع.

### الفصائل الحيوانية، تراث حي

إن الأسماء التي تطلق على هذه التجمعات أو الفصائل الحيوانية المدججة غالبا ما تحيلنا إلى المنطقة أو المجال الذي يمثل الأصل الذي تنتمي إليه، أي ما يسميه تقنيو التدجين «مهود الفصائل» (berceaux de races). وقد تم رسميا تحديد خمسة من بين أهم التجمعات [الحيوانية] بالمغرب على إثر قرار<sup>2</sup> صادر عن وزير الفلاحة والإصلاح الزراعي عام 1984. وهكذا فإن الفصيلة الحيوانية «تمحضيت» وهي فصيلة انتجاعية مثلت عام 2006 ما يقارب 9% من ماشية المغرب أي أكثر من 1.500.000 رأس<sup>3</sup> وتحمل اسم موضع يقع في الأطلس المتوسط. هذه الفصيلة ترعى في الأطلس المتوسط كله وتتكيف جيدا مع المرتفعات الجبلية وتتأقلم مع مناطق أخرى من المغرب كمعدلة ومحسنة لتجمعات أخرى بهدف إنتاج اللحوم.

وهناك بعض الفصائل الأخرى تحمل اسم المجموعة الاجتماعية. وتلك حالة جَمَل الرُكْبِي الذي ترعاه قبائل الرُكْبِيَات في شمال موريتانيا والصحراء الغربية<sup>4</sup>. والشيء نفسه بالنسبة لبني كُيْل (Beni Guil) قطعان البدو في المشرق ومنطقة بولمان - ميسور المشهورة بقوتها، وتعتبر أحد أفضل فصائل اللحوم بالمغرب. ونكهة لحومها مردها بالخصوص إلى التنوع النباتي الذي تقتات عليه القطعان في مجال ممتد من أراضي السهوب: وتستمد اسمها من قبيلة بني كُيْل التي تمارس الترحال بين فكُيْك وآيت بني مطهر<sup>5</sup>.

وفي موريتانيا هناك قبيلتان كبيرتان من القبائل الرحل في الجنوب أطلقت اسمها على قطع الماشية التي تقوم على تربيتها. والأمري يتعلق بقبيلة لادم (Ladem) التي تعيش على الحوض الغربي وعلى التوابير الغنمية [نسبة لرعي الغنم] الذين يمارسون الترحال بين براكنة والكرقول في شمال كايدي (Kaédi). ولأن لهاتين الفصيلتين قيمة لدى العائلات السنغالية بوصفها أغناما لعيد الأضحى فإنهما تشكلان قسما كبيرا من الرعي الحضري المميز لمدينة داكار تبعا للدراسة التي قمنا بها ما بين عامي 2000 و 2004<sup>6</sup> (Brisebarre et kuczynski, 2009). وقد وصلت أكباش لادم (Ladem)، التي يطلق عليها (Ladoum) بالسينغال، والتوابير (Touabir) وتعني حرفيا الحرفان التي يقوم المرَبون الحضريون الهواة بشغف بتسمينها بأيديهم، وصلت في مثل هذه الظروف الخاصة بالرعي نسبا ومعدلات مثيرة للإعجاب.

لا تستقر الفصائل الحيوانية إذن على حال نهائية. إنها تستمر في التطور في ضوء ممارسات الانتقاء والتغذية المستعملة من قبل المرَبين في استجابة للتحويلات في الاقتصاد الرعوي، بل وأيضا لتغيرات الطلب السوسيو-اقتصادي المحلي والجهوي والوطني. كما أنها تشكل تراثا حيا يمكن أن نعتة بالتراث الزراعي-الثقافي ومنافسا لما نطلق عليه «زراعة التنوع الأحيائي»<sup>7</sup>، أعني بذلك تنوعا بيولوجيا يكون ثمرة للنشاط الإنساني.



هذه الفصائل الحيوانية المحلية هي إذن إلى حد ما مرآة للمجتمعات الرعوية عند من قاموا بانتقائها. فهي تسهم إسهاما في تكوين هويتهم المهنية، بل والثقافية. ولأنها في نفس الوقت أداة ونتاج نظام خاص في تربية الماشية، نظام شديد الارتباط بنمط حياة مجموعة بشرية، فإنها قد تكون فصائل رحلية أو انتجاعية أو مستقرة. وبعضها متخصص ينتج الحليب أو اللحم أو الصوف أو الوبر أو قوة العمل أو يوفر الروث... وبعضها الآخر قابل لأن يوفر هذه المنتجات كلها في آن واحد، لكن بكمية أقل: وهي بذلك تستجيب لحاجات غذائية وزراعية وتكنولوجية، حيوية لدى الأسر. وفي الأخير يتم التعبير من خلالها عن الذوق والحس الجمالي لدى المربين لأن للانتقاء غاية إنتاج «حيوان جميل» تبعا للمقاييس التدرجية التقنية والاقتصادية ناهيك عن المقاييس الجمالية التي تختارها وتتقاسمها مجموعة مهنية داخل جماعة محلية.

وينصح الأنثروبولوجي إيفانز-بريتشارد (Evans-Pritchard)، الذي طالما درس خلال النصف الأول من القرن 20 العلاقات القائمة بين المجتمعات البشرية في أفريقيا الشرقية وبين حيواناتها المدجنة، بالبحث في التفاصيل بالنسبة لأولئك الذين يرغبون في «فهم سلوكيات النوير (Nuer)» وهم سلالة مشهورة بـ«هوسها بالرعي»<sup>8</sup> أي علاقاتها الاجتماعية والرمزية الوثيقة جدا مع الأبقار التي يربونها، فهو يقول: «إن أغلب الأنشطة الاجتماعية [لدى النوير] تؤول إلى الماشية»<sup>9</sup>. من ثم فإن العناية بالفصائل الحيوانية هو أيضا إلقاء للضوء على العلاقات القائمة بين الناس فضلا عن علاقاتهم بهويتهم الثقافية.

### معارف ومهارات المربين، تراث لا مادي عريق

تقوم الأنظمة الرعوية في المناطق الصحراوية في الغالب، حيث يواجه المربون ظروفًا مناخية قاسية، على ترحال وتنقل الحيوانات والناس مندرجة في شكل من أشكال التكيف مع المحيط وتديير الموارد المتاحة. ولهذا فإن اختيار نوع من الحيوانات المدجنة، داخل هذا الفضاء، وكذا نوع من الحيوانات، وثيق الصلة بقدرته على الصمود أمام المخاطر البيئية وبـ«قوته»؛ فالمللوب من الحيوان الجلد الذي يعيش في الأرياف لا أن يكون قادرا على البقاء والعيش في وسط مناخي قاس فحسب، بل وأيضا أن يكون قادرا على التوالد والإنتاج<sup>10</sup>.



لقد استرعت معارف الرعاة الصحراويين وممارساتهم وتمثيلاتهم منذ زمن طويل اهتمام الباحثين، بل وكذا اهتمام الجنود الذين كانوا في احتكاك بالبدو الرحل، خاصة منهم راكبي الجمال، خلال الفترة الكولونيالية. وسواء كان هؤلاء باحثين محترفين أم هواة، فإن بعضاً منهم قام بجمع معطيات دقيقة تتصل بمجموع المصطلحات الخاصة المتصلة بالتقنيات الرعوية.

وقد قام مركز الدراسات الصحراوية بجمع هذه المصطلحات لإعادة نشرها تحت عنوان «الناس والجمال» وهي عبارة عن ثلاثة معاجم عن الجمال قام بجمعها في موريتانيا جنود فرنسيون - أ. طرانكار (A. Tranquart) وأ. ليريش (A. Leriche) و س. لوبورن (C. Le Borgne) - ونشرت ما بين عامي 1941 و 1953 بداركار ضمن نشرة IFAN<sup>11</sup>. ويشير رحال بوبريك الذي قدم للطبعة الثانية إلى «الأهمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية» في هذا السياق الغربي الصحراوي للجمال، ذلك الحيوان الشهير ذي الوظائف المتعددة الذي يشكل بالنسبة للبدوي دعامة للتمثيل الاجتماعي والرمزي والكوني والانفعال الشعري<sup>12</sup>.

إن هذه المعاجم الحسانية الموضوعية عن الجمال، وكذا «دراسة حول جمال الصحراء الغربية» لفانسان مونتاي (Vincent Monteil) المنشورة من قبل L'IFAN عام 1952 والتي أعيد أيضاً نشرها من قبل مركز الدراسات الصحراوية، لتشهد عن المعارف التشريحية والفيزيولوجية وعلم السلوك الحيواني والطب الحيواني لدى المربين، فضلاً عن مهارات حيوانية تقنية قاموا بمراكمتها بفضل علاقاتهم الحميمة بالجمال بمفردها أو ضمن قطع على مر الفصول، بل وأيضاً معارف امتلكوها حول الأنواع النباتية المحلية وخصائصها الغذائية أو العلاجية. كما أنهم يصفون التقنيات المرتبطة باستعمال الجمال عند إسراجه<sup>13</sup> وتسنمه والعناية به، ناهيك عن المنتج الممكن الحصول عليه من تربيته والتحويلات التي يمكن أن تطرأ عليه.

تبين المصطلحات والكلمات المستجعة ثراء تسميات الجمال وغناها المرتبطة بنوعه وعمره، والمتعلقة بالناقة وعدد مرات حملها، والفصول التي يتم فيها الوضع، وعمر صغيرها، وحالة وجوده حليها، إلخ. إن لهذه المصطلحات في الوقت نفسه وظيفة تقنية ورمزية. وهكذا مثلاً فإن الدقة في وصف كساء الجمال وكذا الخصوصيات الفيزيائية والسلوكية لكل جملة على حدة يمكن أن تسعف المربي في الكشف عن معرفته الدقيقة لكل حيوان من حيواناته وكفاءته كمربي مواش والمطالبة لدى الرعاة الآخرين بإرجاع الجمال الشارد أو المسروق ولا يسع العلامة المبصومة عليه إلا أن تؤكد خصوصية الجمال. إنها معرفة الجمال، تلك المعرفة التي تم اختبارها على المحك.

تنتمي هذه المصطلحية إلى التراث الثقافي الصحراوي. ويمكن أن نتوجس خيفة من كونها معرضة اليوم للتهديد والتهميش، بل النسيان والتلاشي. ولذلك من الضروري القيام بالبحث لمعرفة ماذا تبقى اليوم من هذا المعجم المتخصص والممارسات المتصلة به.



نقوش صخرية قرب السمارة



قطيع من الإبل بجانب بئر

## نموذج عن المهارة الرعوية: تقنيات التبني والعناية

استنادا إلى أبحاثي الخاصة التي أجريتها حول الممارسات التقليدية لمجموعات المربين في جنوب فرنسا والمغرب الكبير وفي إفريقيا الغربية<sup>14</sup> اخترت أن أشير هنا إلى مهارة رعوية غير معروفة عند غير المتخصصين، بيد أنها، مع ذلك، موجودة لدى غالبية المجتمعات الرعوية وتم اختبارها منذ آلاف السنين. والواقع أن وضع الناقة حملها واللحظات الأولى من حياة وليدها هي من أهم اللحظات في نشاط المربين. ذلك أن نجاح تربيتها وقدرتها على الإنتاج رهن بالسياق الجيد الذي تتم فيه ولادة الصغير وعيشه ونموه المتسق. ولهذا يقدم الرعاة عناية خاصة جدا للإناث القطيع خلال فترة الحمل والولادة وكذا للمواليد الجدد.

وقد وجدت أجيال من الرعاة حلولاً لمعالجة الحوادث الطارئة أثناء الوضع. وبفضل الملاحظة الثاقبة لسلوك الإناث من الحيوانات، فقد اعتمدوا جملة من التقنيات العملية بهدف «تبني» الأم بنفسها مولودها الجديد (حوارا كان - ولد الناقة قبل أن يفصل عنها -، أو عجلا أو حملا) إذا ما رفضت الاعتراف به - وبالتالي إرضاعه - وتعرض لموت محقق أو إرضاعه من قبل انثى مات رضيعها<sup>15</sup>. وبعض هذه التقنيات المعدة إعدادا جيدا تستخدم أيضا لتيسير حلب النوق التي تمتلك القدرة على «الحفاظ» على حليبها من أجل صغارها<sup>16</sup> وهي لا تقبل حلبها إلا بحضور صغارها بل يتعين أحيانا أن يقوم صغيرها نفسه ب«مباشرة عملية الحلب» عبر مص ثدي أمه. وحتى عندما يموت صغيرها أو يتم بيعه فينبغي أن يُستبدل عن طريق التمويه بعجل أو حوار آخر على شكل دمية ترش بحليب الناقة حتى تتعرف على رائحتها الخاصة.

وفي إطار تربية الجمل تعمل ممارسات كهذه في التبني والحلب على توليد مجموعة مصطلحات غاية في الدقة تمت الإشارة إليها في معجمين من المعاجم<sup>17</sup> وكذلك في دراسة فانسان مونتاي<sup>18</sup> الذي يصف بالخصوص تقنيات التبني (chevillage) والحلب بحضور دمية حوار محشوة بالقش. بيد أن مثل هذه الممارسات قد تم تجريبها وبدل على هذا تلك الرسومات الصخرية في الصحراء الوسطى التي يرقى تاريخها إلى 4500 سنة<sup>19</sup>.

ومن جهة أخرى وصف العديد من الكتاب والإثنولوجيين والبيطرة ممارسات التبني والحلب هذه لدى عدد من الرعاة الأفارقة بخصوص الأبقار أو الناقات أو الشياه<sup>20</sup>.



وفي كل الأحوال يتعلق الأمر بإحضار أنثى تقبل بـ «إعطاء حليبها» لمولودها الجديد أو مولود آخر أو أن تسمح بحلبها لصالح مربيتها وعائلته بينما لم يعد صغيرها حاضرا لمباشرة الحلب. وخلال عمليات التبنّي يتم إيهام الأنثى عبر استعمال كل أنواع المناورة التي تثير لديها إحساسات ومشاعر صاحبت عملية الوضع [الإنجاب]. وأحيانا أخرى يتم تخويفها لاستثارة رد فعل لحماية الصغير المراد تبنّيه. بل يمكن للمربي أن يتقمص دور اليتيم بأن يلبس جلد الصغير الميت بهدف خداع الأم. وهكذا تنشأ الحميمة بين الأم والصغير المتبنّي بفعل استجابتها نوعا ما لحليب الأم الأصلي.

لقد درست هذه الممارسات الرعوية منذ ثلاثين سنة من قبل البيولوجيين المنتمين للمعهد الوطني للبحث الزراعي (INRA) والمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)؛ فقد أمطوا اللثام عن الآليات وبيّنوا دور هورمون الأوسيتوسين (Oxytocine) الذي يشار إليه بوصفه «هرمون التعلق». ويلعب هذا الهرمون، عند جميع إناث الثدييات، دورا استراتيجيا في عملية الوضع بل وكذلك في لحظات الإرضاع وفي حالات التوتر. ودون معرفة بوجود هذا الهرمون فقد كان من أهداف عمليات التبنّي المستعملة من قبل الأجيال الرعوية إثارة الشرارة الأولى التي تسمح بربط أواصر القرابة بين أمهات الحيوانات وصغارها، وهنا مكمن نجاعتها.

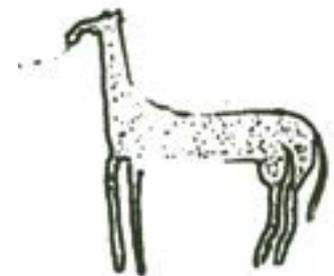
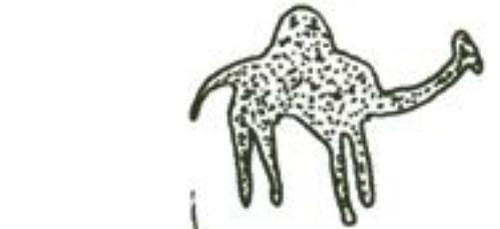
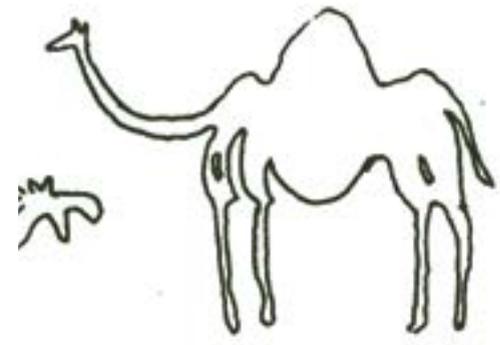
إن العديد من الممارسات الرعوية وبالخصوص في حقل الطب البيطري والمسمى الطب الشعبي أو «البلدي» ناهيك عن الانتقاء التجريبي أو الزراعي قد وجدت قبل أن يكتشفها العلم الرسمي مما يبرر استمراريتها وبعدها التراثي.

### الفصائل المحلية : «ثروة مشتركة» ذات أهمية وراثية لا بديل عنها لدى المربين ولدى الباحثين أيضا

إن الدراسات التي أجريت على أنظمة الرعي والفصائل الرعوية تقدم معطيات عن الأهمية القصوى التي يوليها الرعاة في تصوراتهم عن الماشية التي يربونها وعن المقاييس الجمالية إلى جانب المقاييس التقنية الحيوانية والاقتصادية. إن هذه المقاييس المظهرية (physionomique) (لون الكساء، الشكل، شكل القرون عند الأبقار والأغنام...) التي توليها الأسر عناية خاصة عندما تريد شراء حيوان لأداء شعيرة من الشعائر المقدسة (عيد من الأعياد الإسلامية أو العائلية أو الجماعية أو عند الضيافة والحفاوة...) لتسهم إسهاما كبيرا في بناء الهوية المحلية.

وتنضاف هذه الأهمية الثقافية للحفاظ على الفصائل الحيوانية في بلدان الجنوب وكذا الممارسات الرعوية المرتبطة بها إلى الأهمية الوراثية التي أشار إليها تقرير منظمة الزراعة العالمية (FAO) المخصص لحالة الموارد الوراثية للعالم الحيواني والمقدم بداية سبتمبر من عام 2007 خلال المؤتمر الدولي التقني الأول للموارد الحيوانية التقنية الذي جرت وقائعه بآنتيرلكان (Interlaken) بسويسرا؛ ويأمل التقرير أن الحفاظ على التنوع الأحيائي للرعي يمر عبر البلدان السائرة في طريق النمو التي تأوي 70% من فصائل الماشية التي أحصيت في العالم بينما تنحدر 90% من الماشية في البلدان الصناعية من ستة فصائل حيوانية ليس إلا.

وفي هذا الصدد ظهر مقال في صحيفة لوموند الفرنسية مؤرخا بـ 7 سبتمبر من عام 2007 تحت عنوان : «حيوانات الرعي في بلدان الجنوب مهددة من قبل الفصائل الغربية» لأنه «على مدى الأربعة أو الخمسة عقود الأخيرة ارتفعت وتيرة الدفق الوراثي - من خلال الحيوانات الحية ونطفها وأجنحتها - بين بلدان الشمال بل أيضا من بلدان الشمال نحو الجنوب بدفع من العولة وتسويق الفصائل الحيوانية<sup>21</sup> في الوقت ذاته. وقد اقترح مدير المؤسسة الدولية للبحث في تربية المواشي (ILRI) والمشارك في تحرير تقرير المنظمة العالمية للزراعة جملة من التدابير من أجل الحفاظ على التنوع الأحيائي من قبيل بناء بنك من المعطيات الجينية. كما أنه دافع عن سياسة تفضيلية للحفاظ على القطعان المنتمية إلى الفصائل الأصلية [الأهلية] (autochtones) وعن تبادل الفصائل بين الدول ما دام أن «وجود فصيلة في مجموعة من الدول أمر يقلص من حدود مخاطر انقراضها».



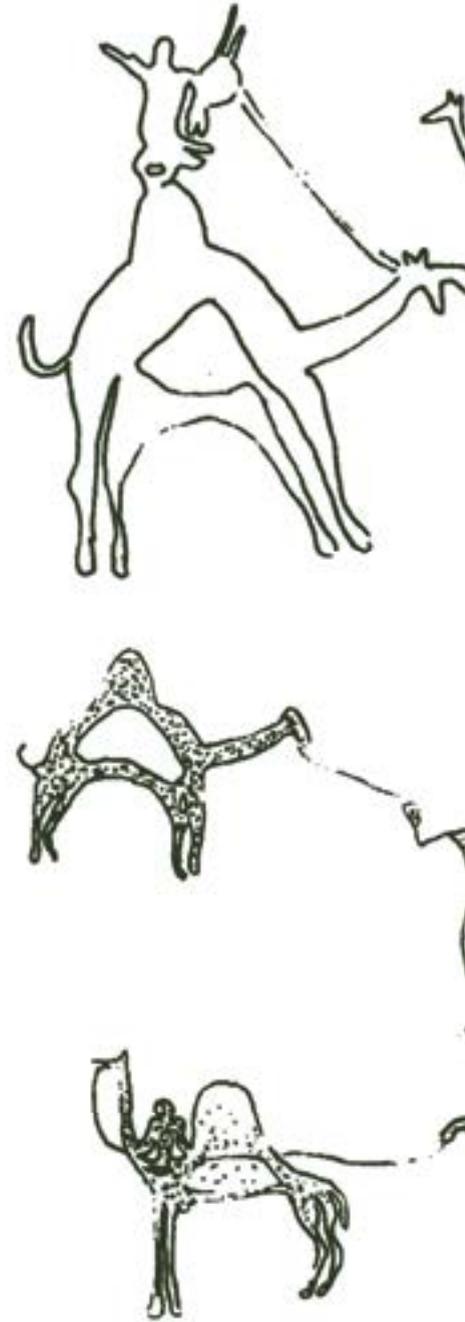


رسوم لنقوش صخرية  
حيث تدجين الحيوان  
حاضر منذ القدم

وحدثا ضمن إصدار من صدارات INRA-SAD تؤكد جولي لابو (Julie Labaut) «ضرورة الحفاظ لدى الفصائل المحلية في تراثها الجيني على تغييرية في الطبائع من أجل مواجهة تنوع في ظروف تربية المواشي ولانتظارات المجتمع الجديدة» (2011). ومن أجل هذا الغرض أوصت بالأخذ بعين الاعتبار معارف مربّي الماشية و تعرفهم على الحيوانات الريفية مشددة على العلاقة القائمة بين الجماعة الرعوية والفصيلة المحلية وبين المجال الضامن للديمومة السوسيو - اقتصادية والوراثية لتربية الماشية.

وينظر بعض المتخصصين إلى الفصائل الحيوانية باعتبارها «بناءات اجتماعية» قائمة حول مجموعة من الإكراهات في تربية الماشية ومجموعة من الأهداف في استعمال الحيوانات وتوظيفها: «فلم يكن أسلاف المرين الأفارقة الحاليين يمتلكون ما يكفيهم من المناهج من أجل القيام بانتقاء معين مثلما نفهم الانتقاء اليوم. لكن من العيب عدم الإعراف لهم بقدرتهم على الاختيار الصائب لمقياس في الانتقاء يتلاءم مع أهدافهم [...] ولا شيء يحول بيننا وبين التفكير في قدرات استغلال بعض المراعي والصمود في وجه بعض الأمراض وتقييم بعض الأماكن والاكتمال وإعداد مهر أو الإحتفال بالطقوس الاجتماعية والدينية. وينبغي الإعراف بأن أدواتنا اليوم غير مهيأة تماما للإجابة عن تساؤل كهذا أو حتى عن بعد واحد من هذه المقاييس. وقد تم تبادي هذه المظاهر في الغالب لغياب المرجعية لكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أنها لم تكن وراء ظهور بعض الفصائل» (5: Planchenault et Boutonnet, 1997).

وفي وسع المحافظة على التراث الوراثي لهذه الفصائل أن يسمح أيضا بخلق فصائل جديدة تحمل أجوبة تتناسب مع الحاجات الغذائية للمجتمع. وفي هذا الإتجاه ومن أجل مكافأة أعمال البحث المفضية إلى إحداث وبناء فصيلة غنمية جديدة تدعى «DS» [اختصار يجمع بين الدمان والصردي] فاز الباحث الوراثي المغربي من معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة عام 2005 بـ «جائزة الحسن الثاني الكبرى من أجل الإختراع والبحث في الميدان الفلاحي» وكانت هذه الفصيلة نتاج تهجين فنتين كبيرتين من الفصائل المغربية هما الدمان وهي خراف الواحات من أصل المناطق الجنوبية وفصائل متنقلة مثل «تمحضيت» و«الصردي». والإسم الذي تحمله (DS) مكون من حرفين تاجيين لكلمتي «الدمان» و«الصردي». وفي الأصل هما نتاج عملية تهجين بين فصيلتين لكن الأمر اليوم متعلق بالأساس بفصيلة غنمية جديدة! «كما أوضح إسماعيل بوجنان. ويضيف قائلا: «إن لفصيلة (DS) قدرة هائلة على التكاثر والتوالد خلافا لبعض الفصائل الأخرى. وللصردي قدرة مقنعة على النمو بينما للدمان قدرة على التناسل ونمو أقل. من ثمة فإن المرين أحوج ما يكونون إلى فصيلة جديدة قادرة على التناسل مرات عديدة خلال السنة مع تكاثر جيد»<sup>22</sup>. ألا يمكن إذن أن نعتبر «الدمان - الصردي» (DS) نتيجة - مع الفارق الزمني طبعاً - للانتقاء التجريبي الذي قامت به أجيال من المرين ونتيجة للبحث العلمي الوراثي الدقيق؟





منقطة تيرس (جهة وادي الذهب لكويرة)



## هوامش

Rabat, 2011, p. 71-72.

19 - Le Quellec, J.-L., « Provoking lactation by the insufflation technique as documented by the rock images of the Sahara », *Anthropozoologica*, n°46 (1), 2011b, pp. 65-125 ; Faye, B., *Peuples du lait*, Quae, Versailles, 2010.

20 - Evans-Pritchard, E.E., - *Les Nuer. Description des modes de vie et des institutions d'un peuple nilote*, Gallimard, Paris, 1968 [1937] ; Dupire, M., *Peuples nomades. Étude descriptive des Woodabe du Sahel nigérien*, Karthala, Paris, 1996 [1962] ; Barouin, C., « Techniques d'adoption en milieu animal (Daza du Niger) », in *L'Homme et l'Animal, 1<sup>er</sup> colloque d'ethnozoologie*, Museum national d'histoire naturelle Paris, 1975, pp. 493-495 ; Bernus, E., « Vocabulaire relatif aux techniques d'adoption par les animaux en milieu Touareg (Niger) », *Journal des Africanistes*, 1980, vol.50, n°2 ; Bernus E., *Touaregs nigériens. Unité culturelle et diversité régionale d'un peuple pasteur*, éditions de l'Orstom, Paris, 1981 ; BA, A.S., *L'art vétérinaire des pasteurs sahéliens, Environnement africain*, Série études et recherches, Dakar, 1982, n°73-82 ; FAYE, B., *Peuples du lait*, Quae Versailles, 2010.

21 - عن وثيقة صادرة عن المؤسسة الدولية للبحث الزراعي (ILRI) وهي منظمة غير حكومية يوجد مقرها بكينيا. ورد ذكرها في مقال «لوموند» المذكور.

22 - مقال مؤرخ ب 21 أكتوبر عام 2005 وتمت زيارة الموقع في 29 نوفمبر من عام 2011 أنظر موقع: <http://www.infosdumaroc.com/modules/news/articles-1085-ds-la-nouvelle-race-ovine-marocaine.html>. Voir aussi le bulletin de liaison du programme national de transfert de Technologie en agriculture n 45(sd), <http://vulgarisation.net/bul45.htm>, consulté le 30 novembre 2011.

française de pastoralisme, Agropolis International, Cardère éditeur, Montpellier, 2011.

11 - Le Borgne, C., « Vocabulaire technique du chameau en Mauritanie (dialecte hassanya) », *Bulletin de L'IFAN, Dakar*, 1953, XV, n° 1, 292-380x.

12 - Hubert, B., (dir.), *Larusticité. L'animal, la race, le système d'élevage, Pastum Hors Série*, Association française de pastoralisme, Agropolis International, Cardère éditeur, Montpellier, 2011.

13 - هناك مؤلف يجمع بين دفتيه نصوصا (مزينة برسوم) لأوديت دو بيغودو (Odette Du Puigauveau) و تيودور مونود (Théodore Monod) عن «إسراج الجمال» وقد أعيد طبعه هو الآخر عام 2011 من قبل مركز الدراسات الصحراوية.

14 - Brisebarre, A.-M., « Comment leurrer les femelles pour qu'elles «donnent leur lait» ? Techniques de traite et d'adoption », in Deshayes, P., De Panafieu J.-B. et Deligeorges, S., *Le Leur ou les avatars de la ruse*, Paris, Éditions Xavier Barral. (à paraître).

15 - نجد شهادات عن تقنية التبن في فرنسا بالنسبة للغنم في كتب الرعي في القرنين 18 و 19 (1766. Hastfer, Carlier, 1770. Daubenton, 1802. La maison rustique du XIX siècle). ولا يزال الرعاة الرحل من منطقة اللانگدوك الفرنسية يستعملون إلى اليوم هذه التقنيات؛ (أنظر بريزبار، أ.م.، كتاب قيد الظهور).

16 - تلك بالخصوص حالة حليب الضرع - الموجود في الأضرع - الذي يمثل 80 % من الكم اليومي عند البقرة والناقة بينما تصل نسبة الحليب المخزن إلى 20 % من الدر بالنظر لسهولة تحصيله.

17 - Le Borgne, C., « Vocabulaire technique du chameau en Mauritanie (dialecte hassanya) », *Bulletin de L'IFAN, Dakar*, 1953, XV, n° 1, 292-380x.

18 - Monteil, V., *Essai sur le chameau au Sahara occidental*, Centre des Études Sahariennes,

1 - Boujenane, I., - *Les ressources génétiques ovines au Maroc*, Actes Éditions, Rabat, 1999.

2 - Arrêté du Ministre de l'agriculture et de la réforme agraire n° 1064 - 84 du 9 novembre 1984, publié au bulletin officiel n° 3767 du 16 janvier 1985.

3 - El Amiri, B., « Conduite actuelle des troupeaux ovins et voies d'amélioration : cas du Moyen Atlas central », in Boulanouar, B. et Paquay, R., éd. *L'élevage du mouton et ses systèmes de production au Maroc*, INRA, Rabat, 2006, pp. 141-157.

4 - site web du Cirad : [camelidés.fr/frac-tualité/archives/dossier\\_mois13\\_1.html](http://camelidés.fr/frac-tualité/archives/dossier_mois13_1.html)

5 - Boujenane, I., - *Les ressources génétiques ovines au Maroc*, Actes Éditions, Rabat, 1999.

6 - Brisebarre, A.-M., « Races ovines, systèmes d'élevage et représentations des éleveurs », in Bonte, P., Elloumi, M., Guillaume, H. et Mahdi, M. (dir.), *Développement rural, Environnement et Enjeux territoriaux. Regards croisés Oriental marocain et Sud-Est tunisien*, Cérès éditions, Tunis, 2009, pp. 63-78.

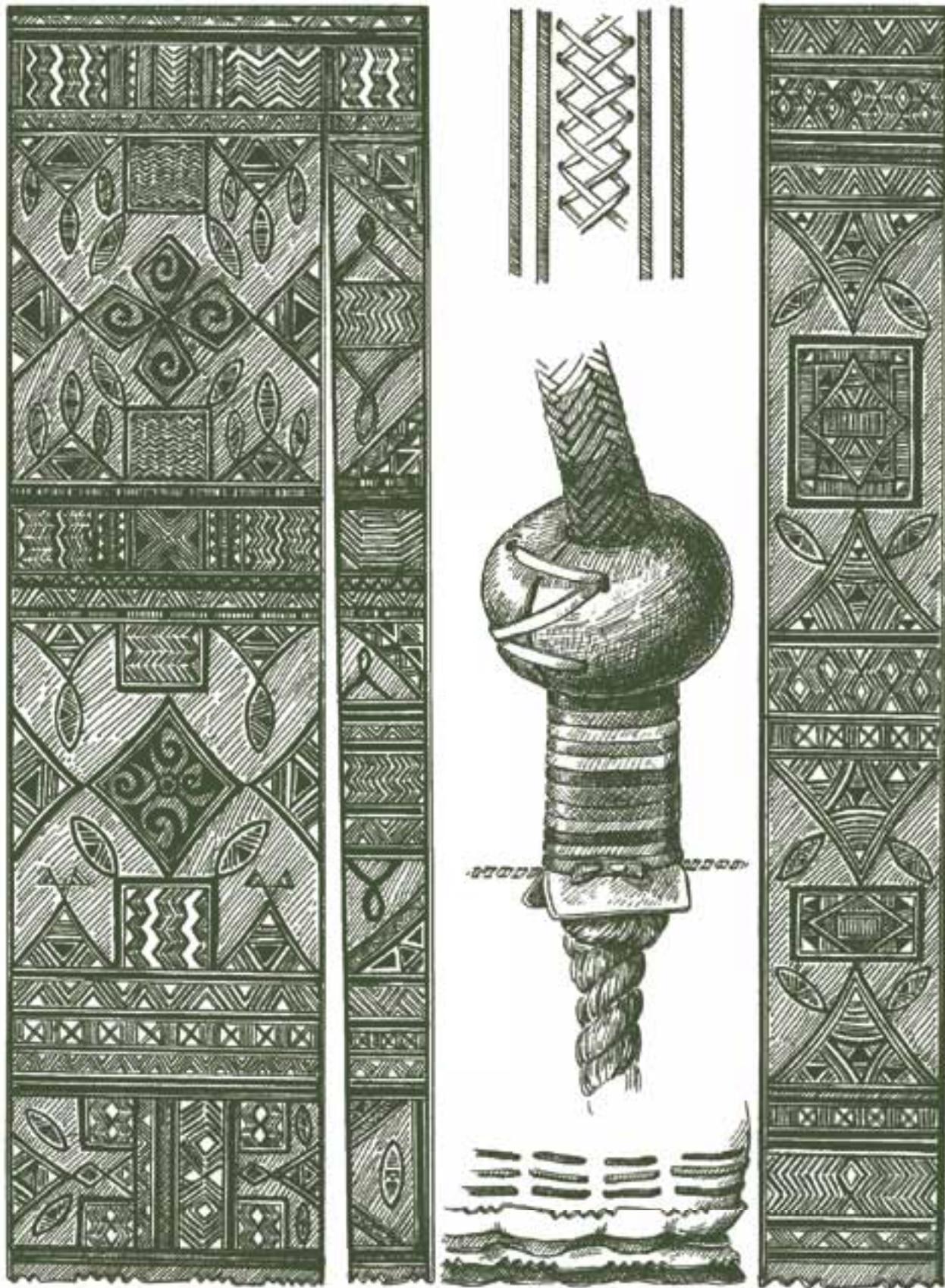
7 - Audiot, A. et Rosset O., « À propos de la conservation des races animales domestiques », in Bérard L. et al., *Biodiversité et savoirs naturalistes locaux en France*, Cirad-ID-DRI/IFB-INRA. 2005, pp. 107-115.

8 - يتحدث كذلك عن «boomanie» وعن «boolatrie» للتعبير عن البعد غير المادي وغير الإنتاجي للرعي لدى التوير (Nuer) والماساي (Bonte, 2009).

9 - Evans-Pritchard, E.E., - *Les Nuer. Description des modes de vie et des institutions d'un peuple nilote*, Gallimard, Paris, 1968 [1937].

10 - Hubert, B. (dir.), *La rusticité. L'animal, la race, le système d'élevage, Pastum Hors Série*, Association

- Audiot, A. et Rosset O., « À propos de la conservation des races animales domestiques », in Bérard L. et al., *Biodiversité et savoirs naturalistes locaux en France*, CIRAD-IDDRI/IFB-INRA. 2005, pp. 107-115.
- BA, A.S., « L'art vétérinaire des pasteurs sahéliens », *Environnement africain*, Dakar, 1982. Série études et recherches, n°73-82.
- Bailly, B. et Malpeyre, – *La Maison rustique du XIX<sup>e</sup> siècle*, Librairie agricole de la Maison rustique, Paris, s.d., Tome II : « Cultures industrielles et animaux domestiques ».
- Barouin C., « Techniques d'adoption en milieu animal (Daza du Niger) », in *L'Homme et l'Animal, 1<sup>er</sup> colloque d'ethnozoologie*, Museum national d'histoire naturelle, Paris, 1975, pp.493-495.
- Bernus, E., « Vocabulaire relatif aux techniques d'adoption par les animaux en milieu Touareg (Niger) », *Journal des Africanistes*, 1980, vol.50, n°2 ;
- Bernus E., *Touaregs nigériens. Unité culturelle et diversité régionale d'un peuple pasteur*, éditions de l'ORSTOM, Paris, 1981.
- Planchenault D. et Boutonnet J.-P., « Conservation de la diversité des ressources génétiques animales dans les pays d'Afrique francophone sub-saharienne », *Agri 1997*, n°21 : 1-22.
- Bonte, P., « De la boomanie au fétichisme du bétail. Une approche du pastoralisme en Afrique de l'Est », *Journal des Africanistes*, 78 (1-2) : 197-217, N° spécial « Le lien au bétail », 2009.
- Boujenane, I., – *Les ressources génétiques ovines au Maroc*, Actes Éditions, Rabat, 1999.
- Boujenane, I, AÏT BIHI, N. et Boukallouche, A, « Amélioration génétique des ovins au Maroc », *Options méditerranéennes*, Ciheam, 1995, www.iav.ac.ma/agro/dpa/bouj\_anparg.pdf.
- Boulanouar, B., – *L'élevage du mouton et ses systèmes de production au Maroc*, www.inra.org.ma/publications%5Couvrages%5Celevage mouton.pdf, 2006.
- Brisebarre, A.-M., « Races ovines, systèmes d'élevage et représentations des éleveurs », in Bonte, P., Elloumi, M., Guillaume, H. et Mahdi, M. (dir.), *Développement rural, Environnement et Enjeux territoriaux. Regards croisés Oriental marocain et Sud-Est tunisien*, Cérès éditions, Tunis, 2009, pp. 63-78.
- Brisebarre, A.-M., « Comment leurrer les femelles pour qu'elles "donnent leur lait" ? Techniques de traite et d'adoption », in Deshayes, P., De Panafieu, J.-B. et Deligeorges, S., *Le Leurre ou les avatars de la ruse*, Éditions Xavier Barral, Paris, (à paraître).
- Carlier, A., *Traité des bêtes à laine ou méthode d'élever et de gouverner les troupeaux aux champs et à la bergerie*, Imprimerie Louis Bertrand, Compiègne, 1770, Tome I.
- Daubenton, *Instruction pour les bergers et pour les propriétaires de troupeaux*, Imprimerie de la République. Paris, An X (1802).
- Dischert, C., « La brebis, l'agneau, l'instinct... et l'élevage », *Sciences et Avenir*, 1981, pp. 85-88.
- Dupire, M., *Peuples nomades. Étude descriptive des Woodabe du Sahel nigérien*, Karthala, Paris, 1996 [1962].
- El Amiri, B., « Conduite actuelle des troupeaux ovins et voies d'amélioration : cas du Moyen Atlas central », in Boulanouar, B. et Paquay, R. éd., *L'élevage du mouton et ses systèmes de production au Maroc*, INRA, Rabat, 2006, pp. 141-157.
- Evans-Pritchard, E.E., – *Les Nuer. Description des modes de vie et des institutions d'un peuple nilote*, Gallimard, Paris, 1968 [1937].
- Faye, B., *Peuples du lait*, Quæ, Versailles, 2010.
- Hastfer, F.W., *Instruction sur la manière d'élever et de perfectionner les bestes à laine*, F. Desventes, Paris, Guillyn et Dijon, 1766.
- Homme et dromadaire. Vocabulaire de l'élevage camelin*. Rabat, Centre des études sahariennes, 2011.
- Hubert, B. (dir.), *La rusticité. L'animal, la race, le système d'élevage ?*, *Pastum Hors Série*, Association française de pastoralisme, Agropolis International, Montpellier, Cardère éditeur, 2011.
- Labatut, J., « Gérer les races animales locales en biens communs. Dispositifs, crises et leviers de la coopération », *façSade, Résultats de recherche du Département INRA-SAD*, 2011, n° 2011/35.
- Launois, M., Laveissiere, G., Faye, B. et Kriska, M.A., – *Le dromadaire pédagogique*, Cirad, Col. Les savoirs partagés, Montpellier, 2002.
- Le Quellec, J.-L., « La boisson invisible : le lait sur les images rupestres du Sahara », *Cahiers de l'Ocha*, 2011a, n° 15, vol.1.
- Le Quellec, J.-L., « Provoking lactation by the insufflation technique as documented by the rock images of the Sahara », *Anthropozoologica*, n° 46 (1) : 2011b, pp. 65-125.
- Monteil, V., – *Essai sur le chameau au Sahara occidental*, Centre des études sahariennes, Rabat, 2011.



# المجموعات الصحراوية بمتحف كيب برانلي

## كورين فورتيني

تتكون هذه المجموعة الحالية لمتحف كيب برانلي المتعلقة بالصحراء من المجموعات التي حصل عليها متحف الإنسان لتروكاديرو (le Musée de l'Homme du Trocadéro) والمتحف الوطني لفنون إفريقيا وأقيانوسيا (le Musée National des Arts d'Afrique et d'Océanie)، الواقع سابقا ببورت دوريه (Porte Dorée) بباريس. وقد كان بإمكانني أن أدرس بعناية سنة 2000 المجموعات الصحراوية لهذين المتحفين قبل أن تنقل إلى كيب برانلي سنة 2006<sup>1</sup>. ومن ناحية أخرى، عامين بعد ذلك أي في سنة 2002، أنجزت عملا تكميليا حول مجمعي هذه التحف<sup>2</sup>. وعلى إثر هذه الأبحاث سأحاول أن أتحدث عن المجموعات الصحراوية التي ورثها متحف كيب برانلي ثم سأقوم بتحليل المجموعة الصحراوية التي تشكلت بسويسرا بمتحف نوشاتيل الإثنوغرافي على يد جان غابو (Jean Gabus) وسأقف على روح هذه المجموعة والتصور المتحفي الذي حكمها.

### الصيانة تعويضا عن الاستعمار

نظرا لماضي فرنسا الكولونيالي، نجد في المجموعات الفرنسية نسبة هامة من الأدوات الإثنوغرافية المجلوبة من المستعمرات. ويعزى ذلك من جهة إلى أن معظم هذه الآثار قد جلبت في عهد الاستعمار الفرنسي؛ ويصدق ذلك صدقا خاصا على المتحف الوطني لفنون إفريقيا وأقيانوسيا لأن تاريخ المجموعات التي يحتويها يرتبط بشكل مباشر بالتاريخ الاستعماري الفرنسي في إفريقيا الشمالية أكثر مما يرتبط به متحف الإنسان. ويعود جل هذه المجموعات بالفعل إلى المعرض الاستعماري الأول لسنة 1931 وتخص البلدان المغاربية، ولاسيما المغرب. أضف إلى ذلك أن المعهد العالي الفرنسي للدراسات المغربية (IHEMF) كان يوجد آنذاك بالمغرب، مع العلم أنه ساهم مساهمة كبيرة في إغناء مجموعات المتحف الوطني لفنون إفريقيا وأقيانوسيا و متحف الإنسان. وعليه فإن المغرب هو أكثر البلدان المغاربية تمثيلا في مجموعات هذين المتحفين إذ يضم 3233 أثرا على الأقل.

ومن جهة أخرى فإن إنشاء متحف الإنسان (Musée de l'Homme)، أي المتحف الإثنوغرافي لقصر تروكاديرو (Palais du Trocadéro) الذي أسس سنة 1878، كان هدفة في البدء هو الحفاظ على الأشياء الإثنولوجية عامة، وتلك التي تجلب من المستعمرات الفرنسية على وجه الخصوص، وكذلك عرضها؛ وهو بذلك إنما كان يقوم بدور «واجهة» للقوة الكولونيلية. وأدعم قولي هذا بـ «التعليمات الموجزة لمجمعي الآثار الإثنوغرافية» التي نشرها معهد الإثنوغرافيا سنة 1931 وقد حررها مارسيل جريول (Marcel Griaule) وميشيل ليريس (Michel Leiris) بمناسبة المعرض العلمي لذكار بين سنتي 1931 و1933، ومن بين ما ورد فيها نقراً ما يلي: «من المستعجل إنشاء مجموعة للآثار لأنها في طور الاندثار بفعل الملامسات والاستعمار... تكاد كل ظواهر الحياة الجماعية تقدر أن تعبر عنها هذه الآثار بسبب حاجة البشر الدائمة إلى أن يتركوا بصمتهم على المادة. وتشكل مجموعة من الأشياء المنتقاة بعناية ومنهجية حصيلة غنية من «وثائق الإثبات» التي يمثل تجميعها أرشيفا أبين وأصدق من الوثائق المكتوبة، لأن الأمر يتعلق هنا بأشياء أصيلة وتلقائية لم تصنع لحاجات ضرورية، وهي بالتالي تمثل أكثر من غيرها أنماط الحضارات».

والنتيجة أن الفرنسيين الموجودين بمواقعهم الرسمية أو العابرين بالمستعمرات، هم الذين تقع على كاهلهم مسؤولية المساهمة في هذه القضية الباعثة على التحضر المتمثلة في جمع الآثار وصيانتها، كما لو أن الأمر يتعلق بإصلاح ما أفسده الاستعمار وما سببه من تقهقر ثقافي: «لكي نعيد لمتحفنا الإثنوغرافي المكانة التي تليق به بين المتاحف الكبرى في العالم، يكفي أن يساعدنا الذين يعيشون بعيدا عن الوطن الأم من موظفين وسياح أو معمرين في تشكيل هذه المجموعات. وبما أن هؤلاء يخالطون كل يوم سكان المناطق التي يرون أو يعيشون بها فإنهم في موقع يؤهلهم لأن يجمعوا يوميا الأشياء الفنية والتفاصيل المرتبطة بها فيحصلوا بذلك، عن طريق معلومات شفوية أو كتابية، بالرسم أو الصورة، على كنز من الوثائق ستضاعف القيمة الفنية لتلك الآثار المجمعة. إن الهدف من هذه التعليمات هو توجيه الباحثين والمجمعين وتمكينهم من منهج عمل، وإعطاؤهم الإرشادات المعقولة حسب تخصصات مختبرة.»

إن معظم مواد متحف الإنسان قد جمعها بالصحراء مسافرون وعسكريون وإداريون وكذا عدد كبير من ضباط الجيش الكولونيلي. ولقد جمعت في هذه الحقبة الاستعمارية أسلحة من قبيل الرماح والسكاكين والدروع البيضانية؛ وقد نالت إعجاب بعض الضباط في صفوف الجيش الكولونيلي كما نالت إعجابهم مجتمعات الرحل الفرسان تلك، ويرجع ذلك بلا ريب إلى أنه خلف الاختلافات القائمة، يوجد تقاسم لقيم أرسطراطية وحرية مشتركة. وتوجد أيضا شهادات لضباط مثل بيير ميسمر (Pierre Mesmer) الذي كان يحكم دائرة أدرار بجنوب غرب موريتانيا ليصبح بعدها حاكما على هذا البلد بين 1952 و 1954 أو للجنرال كلود لوبورني





الذي كان عنصرا من فريق الرحل على الجمال. وقد وصل الأمر بكل هؤلاء إلى الحديث عن «بيضنتهم» وهو مصطلح يحيل في الواقع على أنهم أصبحوا بشكل أو بآخر بيضانا يتعلمون لغة السكان وهي الحسانية كما يعرفون أنسابهم وملاحمهم القبلية وأحداث حروبهم ووقائعها والطريقة التي يمتطون بها إبلهم ويكتسبون معرفة عميقة بالصحراء.

### طبيعة المجموعة الصحراوية وأسماء المجمعين

تتكون مجموعة متحف الإنسان (Musée de l'Homme) من 444 تحفة بيضانية؛ ففي سنة 1931 وهبت حكومة إفريقيا الغربية الفرنسية مائة أثر، مكونة أساسا من أسلحة وأدوات من خشب وستجدد هبتها سنة 1934 بـ 46 تحفة كانت بحوزة معسكر بمنطقة ترارزة (Trarza). وفي عام 1933 سيمنح ضابط مقيم بموريتانيا واسمه ديبغو بروسي (Diego Brosset) 33 مادة. وقد أبان هذا الضابط عن اهتمام شديد بالثقافة البيضانية لأنه كتب حول مجتمع صيادين صحراويين، هم النماديون (les Némadi)، محكيا بين الخيال والإثنولوجيا بعنوان «رجل بنأى عن الغرب» (Un homme sans l'occident).

وفي سنة 1938، جلب تيودور مونو (Théodore Monot) الذي رحل عدة مرات إلى موريتانيا 16 أثرا من الطين من تاكانت (Tagant) وهي منطقة تقع بشمال موريتانيا. وسيشارك المعهد الفرنسي للدراسات الإفريقية الموجود بالسينغال والذي سينشر دورية علمية يشرف عليها تيودور مونو - Le Bulletin de l'IFAN - في تجميع المواد الصحراوية. وهكذا سيهب المعهد الفرنسي لإفريقيا الشمالية 57 عملا من ترارزة (NAFI) وهي منطقة تقع بجنوب غرب موريتانيا و19 أثرا من تاكانت. كما سيقطنني 70 تحفة صحراوية سنة 1938 لتهييء المعرض الدولي في 1937 - 1938 حول الصحراء، ولم يكن يضم المتحف البيضانية وحدها، بل كذلك تحفا للطوارق وأخرى من الصحراء الجزائرية والصحراء المغربية.

وفي عام 1938 ستجلب أوديت دو بيكودو (Odette du Pigaudeau) 80 تحفة. وستكون أوديت، الرسامة والكاتبة، بصحبة صديقتها ماريون سينونس (Marion Sénones) وهي رسامة أيضا، من أولى النساء اللاتي استكشفن موريتانيا على ظهر الجمال، وستستقي من ذلك محكيات كثيرة لها قيمتها الإثنوغرافية الأكيدة<sup>3</sup> وأشهرها: «حفاة عبر موريتانيا»؛ كما ستلتقط صورا عديدة وتنجز رسوما كثيرة حول حياة البيضان. وستعمل أيضا على نشر مقالات في مجلة هسبيريس تمودا (Hespéris Tamuda) حول الأدوات التقليدية أو الأشكال الرائقة التي تشد بها النساء البيضانيات ضفائرهن، وذلك حسب السن والوضعية العائلية، وهذا موضوع عملنا فيه كثيرا<sup>4</sup>.

وقد كانت الصحراء كذلك موضوعا لمعرض كبير سنة 1960 بمتحف الإنسان، وقد عمل على تقديم أعراف مختلف المجتمعات الصحراوية وأنماط عيشها المادية عبر منتجاتها الفنية. وهكذا أتى جورج دي شومان (Georges Duchemin) وهو الإداري والباحث بـ 20 مادة من شرق موريتانيا أي الحوض (le Hawdh). وقبل عقدين من الزمن فقط، أي سنة 1992، أقيم معرض خصص لموريتانيا نظمه متحف أكييتين (le Musée d'Aquitaine) وشهد أيضا معهد العالم العربي بباريس عرضا لمتحف متحف الإنسان المتعلقة بموريتانيا لاسيما خيمة.

بمتحف كي برانلي (musée du Quai branly) سيكون عرض الأدوات البيضانية محدودا جدا لأنه سيقصر على موضوع واحد هو وسادة مزخرفة بفخامة من بوتيليميت (تراارزة Boutilimit) انتقلت قبل 1934، ومصدرها من متحف الإنسان كذلك. غير أن منصة للوسائط المتعددة أنشئت في معزل عن الأشياء المعروضة وقد كان المجتمع البيضاني ممثلا فيها بواسطة زخرف صغير أنجزته حول الإغراء في هذا المجتمع<sup>5</sup>. وقد اختيرت هذه التيمة المتميزة لأن البيضان يمارسون التغزل ممارسة ظريفة نابعة من التراث الشفوي لهذا المجتمع الميال إلى الغزل والقصيدة الغزلية، وهو موضوع عملت فيه بانتقاء أشعار عديدة في هذا المضمار باللغة الحسانية، كما حللتها من وجهة نظر العلاقات بين الجنسين<sup>6</sup>، علما بأن الشعر من صميم التراث «غير المادي» الغني لهذا المجتمع - مثله في ذلك مثل الأمثال والأحاجي والحكايات والأساطير والموسيقى والرقص، وهو تراث ينبغي صيانتها كما يسان التراث المادي لهذا المجتمع.

### متحف نوشاتيل الإثنوغرافي ومجموعة التحف الصحراوية التي جمعها رجل واحد : جان غابو (jean Gabus)

يتوفر متحف نوشاتيل الإثنوغرافي الذي زرته سنة 2009 على مجموعة هامة من الأشياء الموريتانية انتقي أغلبها على يد جان غابو الإثنولوجي وعالم المتاحف الذي ولد عام 1908 وتوفي سنة 1992. وما يزال الإهداء الذي كتبه جان غابو في أحد كتبه<sup>7</sup> واضحا رنانا يعلن حبه المتوهج للمتحف الإثنوغرافي كما للصحراويين : «إلى المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل الذي أحببته بشغف كبير خلال سبع وثلاثين سنة وإلى كل الصحراويين الذين أحببتهم أكثر، حتى أكون موضوعيا». لقد أصبح جان غابو بالفعل مديرا لمتحف نوشاتيل الإثنوغرافي من 1945 إلى 1978 ومديرا المعهد الإثنولوجيا بجامعة نوشاتيل من 1949 إلى 1974. وتعود مجموعات هذا المتحف إلى آخر القرن الثامن عشر لأن المجموعة الأولى أنشئت بفضل قاعة للتحف الفنية النادرة تسمى «قاعة التاريخ الطبيعي» أهداها الجنرال دي مورون (le général de Meuron) سنة 1792 إلى مدينة نوشاتيل<sup>8</sup>. وبعد ذلك في سنة 1834 نقلت هذه «النوادير الإثنوغرافية» التي تضم أكثر من 250 تحفة إلى متحف التاريخ والآثار.

وفي سنة 1904 رأى المتحف الإثنوغرافي النور في فيلا سانت نيكولا (villa de St-Nicolas) الجميلة التي أهداها إلى مدينة نوشاتيل جيمس فيردناند دي بوري (James Ferdinand de Pury) وهو تاجر تبغ جمع ثروة بالبرازيل وتزوج امرأة برازيلية. وقد كان «شرطه الوحيد أن تصبح هذه الفيلا مقرا لمتحف إثنوغرافي إذ لم يكن مقره الحالي ليتسع لعرض ذخائره»، علما بأن وفاة ابنة هذا التاجر مبكرا، أي في ربيعها الرابع عشر، حرمتها من «متعة ترك هذا السكن إرثا لذرية من صلبه»<sup>9</sup>. لقد كان هذا الرجل ذو الحس الفني المرهف والإنساني «يريد أن يكون منظر هذه الفيلا الجميل والرؤية التي تمنحها ويتمتع بها في تناول كل الذين قد يفدون لزيارة المتحف الإثنوغرافي» (المصدر نفسه: 50). وذلك وعد لم يخلف لأن المتحف ما زال يمنح للزائرين مشهدا رائعا يطل على بحيرة نوشاتيل.

كتب محافظ المتحف الإثنوغرافي، شارل كئاب (Charles Knapp)، سنة 1905 «نداء لفائدة متحف نوشاتيل الإثنوغرافي» يحث فيه المواطنين على التبرع بأشياء قد يكونون جمعوها بالخارج، وهو نص يضع مسبقا ما ورد في «التعليمات الموجزة لمجمعي التحف الإثنوغرافية» نظرا للطريقة التي شرح بها دور متحف إثنوغرافي وللاهتمام الذي أولاه للمعلومات التي ينبغي أن تصاحب التحفة مثل اسمها المتعارف عليه، ومصدرها الجغرافي والإثني، وكذا تاريخ صنعها : «بفضل الهبة الكريمة التي منحها السيد جيمس دي بيري سيمكن لمتحف نوشاتيل الإثنوغرافي، الذي لا يسعه موقعه الحالي بالطابق الأرضي لمتحف الفنون الجميلة، أن ينتقل قريبا إلى الفيلا التي





كانت بحوزة مالكها بسان نيكولا . وستكون هناك ثمان قاعات مخصصة لأوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وأقيانوسيا والمناطق القطبية مفتوحة للعموم . وستمكن المجموعات المصنفة وفق تصميم منهجي من إبراز مستويات حضارات شعوب المعمور المختلفة . ونأمل أن يصبح متحف سان نيكولا، الفريد من نوعه بسويسرا، مركزا مرموقا للدراسات لا يدرك قيمته أهل الاختصاص وتلامذة مؤسسات تعليمنا العمومي فقط، بل كل أولئك الذين يرغبون في معرفة وضعية الجماعات البشرية التي لم يذكرها التاريخ قطعا. لكن ليكون الأمر كذلك ينبغي ألا تتسم المجموعات الأثرية الإثنوغرافية بكثير من الثغرات. ولاجتنب التنقيلات القريبة الأجل فقد رغب التوفر على أكبر عدد ممكن من التحف قبل مباشرة وضعها بصفة نهائية في الأماكن المخصصة لها. ولهذا نجز لأنفسنا أن نوجه إلى كل مواطنينا نداء حارا لفائدة المتحف الإثنوغرافي، ونحن واثقون من أن صوتنا سيجد لديهم صداه. كثيرون هم أولئك الذين جلبوا معهم من إقامتهم ببلد أجنبي مجموعات لتحف صنعها الأهالي. ولا شك أن أصحاب هذه التحف متعلقون بها نظرا لما تمثله عندهم من ذكريات، لكننا نأمل أنهم سيضحون بها لفائدة مجموعات عمومية مفيدة للجميع، علاوة على أنه مع مرور السنين قد تضيق كثير من هذه القطع أو يصيبها التلف. إن تحفة معزولة، تبدو من غير دلالة في حد ذاتها، يمكنها أن تكتسب أهمية حقيقية إن هي كملت مجموعة تكملة لائحة؛ أما الأشخاص الذين لا يمكنهم، لسبب أو لآخر، أن يتخلوا مجانا عن المجموعات التي بحوزتهم فهم مطالبون ألا يمنحها لمتحفنا الذي سيرى، في حدود الإمكانيات المتوفرة لديه، إن كان يستطيع اقتناءها... ويرجى من الواهبين أن يبينوا بكل دقة البلد الأصلي للتحف، واسم القبيلة، ثم الاسم المحلي، والاسم الفرنسي لهذه الآثار وتاريخ صنعها أو اقتنائها...»<sup>10</sup>.

عندما صار جان غابو مديرا لمتحف نوشاتيل الإثنوغرافي سنة 1945 كان مخصصا بنسبة 80 بالمائة لـ «إفريقيا السوداء» نظرا، من جهة، لهبات قاعات التحف النادرة التي شكلها أفراد البعثات التبشيرية أو التجار السويسريون الذين كانوا يملكون وكالات تجارية للنسيج أو القطن في هذه المنطقة، وخصوصا بالكونغو أو أنغولا، ونظرا من جهة أخرى لما قام به أسلاف جان غابو من تجميع للآثار في هذه البلدان، ولا سيما أنغولا إثر بعثة تيودور دولاشو<sup>11</sup> (Théodore Delachaux) في 1932، وهو محافظ المتحف في خضم البعثات الميدانية الأولى فيما بين الحربين.

هكذا سيقدر جان غابو تكملة مجموعات هذا المتحف بالآثار الآتية من إفريقيا الشمالية وخاصة الصحراء من عند البيضان والطوارق، ليغير المسار بذلك تغييرا جذريا لأنه كان قد أنجز أبحاثه ما بين 1938 و1939 حول الإنويت<sup>12</sup> (les Inuit) الذين كان يسميهم آنذاك بالإسكيمو الكاريبو (Esquimaux-Caribou) بعد أن فتنته أعمال كنود راسموسن (Knud Rasmussen)<sup>13</sup>، وهي أبحاث ستسفر عن مؤلف عنوانه إغلوس (Iglus) (1940) وعن أطروحة في الإثنولوجيا بجامعة فريبورغ (Fribourg) (1943).

لكن جان غابو سيسجل في حوار<sup>14</sup> أجري معه «علاقات التقارب» بين مجتمعات الإنويت والمجتمعات الصحراوية بالنظر إلى أن لهم نمط عيش ترحالي وإلى كون «عقليات» متشابهة قد نمت لدى أفرادها بسبب تكيفهم مع محيط قاس سواء تعلق الأمر بصحراء الصقيع أو صحراء الرمال. وإن قرأنا مؤلفات جان غابو حول الإنويت والموريتانيين أمكننا فعلا أن نستشف اهتمامه البالغ بسكن الرحل في هذين المجتمعين وبالصيد فيهما، لأنه قد درس بموريتانيا جماعات النمادي الذين يصطادون بالكلاب مثلهم في ذلك مثل الإنويت، ويمتلكون معرفة عميقة بفك رموز الآثار التي تخلفها الحيوانات في الرمال أو الثلوج، وهو أمر أثار إثارة خاصة اهتمام هذا العالم الإثنولوجي.

لقد قام جان غابو بعدة بعثات علمية إلى الصحراء ما بين 1947 و 1955 جلب منها ما مجموعه 2691 تحفة فنية، 150 ضمنها من الجواهر والحلي. وقد ركز في الحوار السابق ذكره على أهمية موقف الإثنولوجي المراعي لاحترام المجتمع الذي يستضيفه؛ وهكذا حكى أنه عندما كان يأتي إلى مخيم ما فإنه كان يوقف جملة وينتظر بأناة قدوم أحد أفراد المخيم حتى يمكنهم بذلك من الوقت الكافي لاستقباله بالحفاوة المعهودة للسكان وبالكرامة التي تليق بالطرفين؛ فتدب الحركة في المخيم، وغالبا ما كان رئيس القوم هو الذي يأتي ليحييه ويسأله عما رأى في طريقه ويدعوه ضيفا بين قومه.

وإضافة إلى ما سبق، لاحظ جان غابو أنه إن كان على الإثنولوجي أن «يكون جزءا من الأثاث» كما يوصي بذلك العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss)، فإن هذا الأمر من قبيل الوهم أيضا، لأن الإثنولوجي بالرغم من تقمصه الوجداني وتكيفه مع المجتمع المدروس فإنه يظل مختلفا عن أفراده بسبب لون بشرته وحركاته وتصرفاته. وقد سجل أيضا أن الوقت لازم لكسب ثقة الناس والحصول على معلومات ذات قيمة، ولاحظ في ذلك عن صواب أن الإثنولوجي لا يحصل على بعض المعطيات التي يبحث عنها إلا لأنه لا يتحدث عنها أبدا من بعد؛ وهذا درس اختبرت صحته بصفتي إثنولوجيا في المجتمع البيضاني، وهو درس يصدق كذلك على الحياة بشكل عام.

إضافة إلى ما سبق يسجل جان غابو في كتاباته الفارق الموجود في الميدان بين الصرامة التي ينبغي أن يتحلى بها الباحث الذي يجمع التحف وبين كونه يحظى باستقبال حار وبكرم الضيافة من قبل الأهالي حتى إنه قد ينسى من جراء ذلك أهدافه الأساسية: «نعرف طبعا أنه في المخيمات أو قرى البادية، أي في جو يستقبل فيه الإنسان مثله بحرارة، تبدو جميع العبارات من قبيل «استمارة» أو «نظام» أو «منهج» سخيفة ومهينة ومقيدة. لكنه ينبغي للباحث وهو في الميدان يجمع التحف، أن يجعل نصب عينيه المعرض وسياقه وكذا مستلزمات كل تحفة ستحتاج إلى عناصر عديدة لتقديمها: الوسط (المادة الخام) والشرح التقني (أداة، طريقة، حركة تقنية) والشرح الوظيفي (اقتصاد، حياة اجتماعية، طقوس) ثم الشرح التاريخي إن أمكن ذلك. لا شيء اعتباطي»<sup>15</sup>.

لقد جمع جان غابو هذه التحف في موريتانيا على وجه الخصوص، لدى صناع مذرذرة (Mederdra) وبوتلميت (Boutilimit) بالترارزة وكذلك لدى الصناع التقليديين بولاتة (Walata) وهي منطقة أقام بها مدة طويلة قصد إنجاز أبحاثه حول النمايين، وهم جماعة من الصيادين الصحراويين الذين كانوا يصطادون الغزلان بكلابهم لم يعد لها وجود اليوم<sup>16</sup>، وقد كتب عنهم كتابا هو «ولاتة وغيمار النمايين»<sup>17</sup> (Walata et gueimaré des Nemadi) وشارك في إنتاج شريط سنة 1976 بدعم من المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي، وعنوانه آخر «قنص للنمايين»، هذا المجتمع من الصيادين الذي كان وقتها في طور الانقراض، والذي قال عنه: «ما زال النمايون يمتلكون معرفة فريدة بالمجال - وذلك شرط من شروط عيشهم - وقد كان من اللازم العمل على تسجيل ذلك عن طريق الصورة اعترافا بشجاعتهم في الحياة. إن الصحراء هي بطاقة هويتهم وهي عند أجيالهم الشابة لقب شرف ونبل ينبغي صيانته وعدم نسيانه إذ لا ألقاب أخرى لها»<sup>18</sup>. وقد أنجز جان غابو شريطين حول ولاتة أحدهما بعنوان «الزمن المعلق» (Le temps suspendu) والآخر بعنوان شريعة القرآن La loi du Coran ويدور موضوعه حول التعليم القرآني<sup>19</sup>.

لقد اهتم جان غابو، بصفته مجمعا للتحف الفنية، بسكن الرحل وأثاثهم وأدواتهم وحليهم (الصورة 1) وبلعبهم (الصورتان 23 و 24) وبأدوات حياتهم اليومية مثل الغلايين (الصورة 2) والأقداح الملونة (الصورة 3) أو الأشياء المصنوعة من الجلد (الصورة 23). كما تستأثر باهتمامه بعض الأشياء التي تبدو غير ذات دلالة تذكر،



الصورة 24: سرج مصغر (لعبة). المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل، 2009.



الصورة 1: حلية. المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009



الصورة 23: تاسوفرا مصغرة،  
لعبة). المتحف الإثنوغرافي  
لنوشاتيل. 2009.

لكنها تعبر عن المجتمع ويسمىها «الأدوات الشاهدة» وهي عبارة تذكر بمقولة «وثائق الإثبات» التي يستعملها مارسيل غريول (Marcel Griaule) وميشيل ليريس (Michel Leiris) في «التعليمات الموجزة لمجمعي الآثار الإثنوغرافية». وسيدكر غابو بذلك طالبته يولاند تشودي (Yolande Tschudi) سنة 1974 عندما أرسلها لتجميع بعض التحف في التراب الطوارقي التي يسميها بحنو كرام كرام (Cram-Cram) نسبة إلى الكويرات المشوكة الصغيرة لشجيرة<sup>20</sup> تعلق بالثياب : «إن ما نبحث عنه في مجموعة إثنوغرافية هو مرآة صادقة للحياة اليومية كما هي، غنية كانت أو فقيرة، ذات جمالية أو بدونها؛ ولا دخل لذوقنا في ذلك. أرفقي مع كل ما تبعثين به جردا مفصلا ولتحمل كل تحفة رقما أو إشارة معينة حتى أتمكن من إظهارها رغم عدم حضورك»<sup>21</sup>.

وقد كان غابو يولي اهتماما كبيرا للطرق التقنية التي يستعملها الصناع التقليديون (أو لمعلمين) وللمواد الأولية ولصنع الألوان. وفي هذا الصدد فإن تقنيات إصلاح الأدوات في المجتمع البيضاني تكتسي أهمية خاصة ومؤثرة بالنظر إلى طابعها العتيق والناجع معا، ذلك أن الحداد يستطيع أن يرقع قدحا مشقوقا بصفيحة من النحاس الأصفر (الصورة 4) كما أن الصانعة يمكنها أن تستعمل تقنية تمت بصللة إلى الخياطة للم أجزاء قدح مكسر (الصورة 5) بالطريقة ذاتها التي تجمع بها أشرطة فلجان الخيمة (الصورة 6) أو ترقع بها مخطوطا معرضا للتلف (الصورة 7). هكذا يمنح الصناع التقليديون لـ «الأداة الجريحة» - على حد التعبير الجميل الذي استعمله غايتانو سبيرانزا (Gaetano Speranza) لتسمية المعرض الذي نظمته بالكوي برانلي من 19 يونيو إلى 26 شتنبر 2007 حول الترميم بإفريقيا - حياة جديدة بإحداثهم ندوبا بيئة غير مموهة تصبح عنصرا وجزءا لا يتجزأ من الشيء المرمر، كما تبين للناظر الأثر الصانع المرمر لهؤلاء الصناع.



الصورة 2: غلايين من عظم ونحاس. المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009.

الصورة 5 قرع مرمم. المتحف  
الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009



الصورة 6 جزء مخيط  
من شرائط الخيمة،  
الداخلية 2011

انطلاقاً من هذه الأدوات نظم جان غابو سنة 1950 معرضاً كبيراً عنوانه «التقنيات الحرفية الصحراوية» أو «الصناع التقليديون أثناء العمل بوسطهم»<sup>22</sup> حيث سيعرض تقنيات الصناع (لمعلمين) الصحراويين مبرزاً في ذلك التحف بصور ومجسمات؛ وقد كتب في هذا المعرض يقول: «إن معرضنا المؤقت هذا اتسم بطموح يتمثل في عدم الاكتفاء بعرض أشياء جامدة، بل سعى إلى تجسيد الفكرة التالية: احترام الفرد»<sup>23</sup>. ووصف بتفصيل غاياته المتحفية في دليل متحف نوشاتيل الإثنوغرافي<sup>24</sup> (1967:38) فيقول: «كنا نود أن نستطيع القاعة كلها حكاية تاريخ شعب صغير صحراوي بمساعدة أدواته المعروضة في واجهات زجاجية واطئة أو مدمجة في الجدار: نول مركب أفقياً أو حصير في طور الصنع مع مادتها الأولية - حزمة من النجيليات، أم ركبة<sup>25</sup> كما يسميها البيضان - أو جلود مدبوغة مقطوعة على شكل أشرطة من أجل خياطة حصير أو زخرفته بمخز غير حاذق أو مسوط قديم ثم بأدوات الصانع»<sup>26</sup>: إزميله الذي يستعمله لنقش صليب، ستائره ومنقشه ومظفاره في الخراطة وأختامه وأخيراً تلك الألوان التي تستعملها الإسكافات للجمع بين الأصداف (الصورة 8) ومساحيق الزجاج الملون التي يستخدمها صناع الدرر «ضرس الخادم» ثم «النرار» وهو اللون المماثل لخضرة مرارة الحيوانات و«الحمام» ذلك اللون الوردي الضارب إلى البنفسجي الذي يشبه لون عنق اليمام؛ ثم إن للألوان نصيباً من السماء «الأخضر الفيروزي» والأزرق الذي تستحيل محاكاته».

وفي سنة 1957 كان جان غابو المشرف الأول على معرض بعنوان «الصحراء 57» تمحور حول البيضان والطوارق؛ كما نظم عام 1971 معرضاً حول الطوارق في مخيم أعيد تشكيله حيث سيعطي أولوية - بالإضافة إلى موضوع السكن الذي شغله منذ أبحاثه حول الإنويت (Inuit) والموريتانيين - لتقديم تقنيات الصناع الطوارق و«أساليبهم»؛ وقد أرفق كل ذلك بنصوص وأشعار وصور فوتوغرافية.

### تحافة تجمع بين المعنى والدلالات

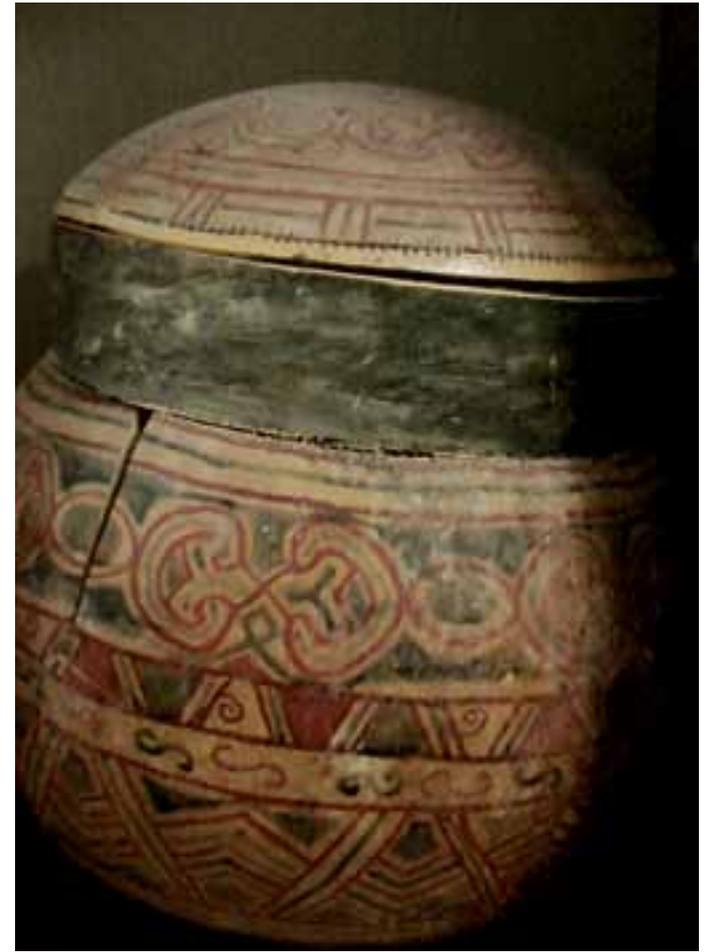
إن جان غابو، كما يدل على ذلك المقطع المذكور آنفاً<sup>27</sup>، يتصور المعرض شهادة علمية على المجتمع وفي الوقت نفسه نشوة جمالية للحواس من قبيل «الفرجة»، وهو بذلك لا يعبر عن البعد الثقافي والاجتماعي للمجتمع المعنى فحسب، بل أيضاً عن بعده المحسوس والعاطفي: «إن كل معرض هو مقالة إنسانية وفرجة، بل ينبغي أن يكون كذلك؛ وهو باختصار - على المستوى التقني - تأليف تسمى عناصره شكلاً ومادة للشيء وألواناً وتأثيرات ضوئية. وتعتبر اللوحات والواجهات الزجاجية والنصوص دعائم وخلفية ووقاية، لكن أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الديكور، لها إنارة جيدة مستقلة وزجاج فاخر وتناسق معماري وتوزيع متكافئ حجماً ومظهراً بقدر يجعل كل ذلك خلافاً بفعل البقع الضوئية لمجموعات الواجهات الزجاجية؛ بالإضافة إلى ما سبق يقتضي الأمر مسامير زخرفة - تكاد تكون فظة لكنها شهوانية بعض الشيء أيضاً - تتناغم مع التحف وتزيد لها حرارة وحياة. وإلى هذا المظهر المادي يضاف بطبيعة الحال الطابع الثقافي للموضوعات، ذلك الفكر الديدانكي والمقصود به بنية معينة وتسلسل زمني للأحداث وبحث عن أصداء شاعرية قادرة - مثل أية تحفة فنية أصيلة - على نقل انفعالات الحياة عبر أشياء جامدة».

الصورة 3: قرع ملون (آنية شرب).  
المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009.

هكذا فإن جمال الصناعة التقليدية الصحراوية نال مكانة مشرفة في معرض «الصحراء 57»: «لا نفكر بتاتا في إعطاء أي درس ولا أي تفسير لكننا نود فقط أن نسبب اللقاء بفن يجهله الكثيرون وبعناصر زخرفية جميلة لكن لا أحد ينتبه إليها»<sup>28</sup>. ولتحقيق ذلك أنجزت صور ورسوم مكبرة لتفاصيل عناصر زخرفية أبدعها الصانع البيضان (الصورة 9) تمكن من إبراز فنه وأسلوبهم الخاص وكذا المتخيل الثاوي خلف إبداع هذه الأشكال والعناصر. ويشرح ذلك جان غابو عندما يقول<sup>29</sup>: «في معرض «الصحراء 57» تم تكبير عنصر مميز لزخرفة حقيبة جلدية (تاسوفرا tassoufra) بيضانية من بوتليميت بترارزة وأخرى من (تاكانت، Tagant) عشر مرات أو عشرين مرة على يد رسام. وبالمقاييس ذاتها كبرت صورة نقش فقل للطوارق وجوهرة. أما المنقوشات غير المقروءة جيدا لقدح نظرا لتداخلها بها وبشكلها فقد كبرها رسام كذلك. ولهذه الطريقة أهداف ثلاثة:

التعبير كذلك عن رؤية الصانع: فعند الصانع البيضاني (المعلم، mallem) أو الطوارقي (إينهاضن، enhaden) لا علاقة للأداة المصنوعة بالمميزات المربعة القليلة للمساحة الحقيقية؛ إنه يندرج ضمن عالم فنه وفي الحقل السري لخياله وأحلامه. إنه يسقط على المعدن أمورا أخرى غير ما يقوم به إزميله. وأحيانا إنما يكون الانتقال الذكي عبر هذه المساحة الصغيرة جدا من الصناعة التقليدية إلى الفن «هذا الذي تصبح الأشكال بواسطته أسلوبا»، على حد قول مالرو (Malraux)، عندما يتعلم الصانع كيف يتحرر من آلية الديكور التقليدي كي يميز عنصرا زخرفيا. إنه يتعامل معه بحق مثل إبداع. إن الأمر يتعلق بعمل فني، من إبداعه الشخصي، استطاع أن يعبر بواسطته ويكون هو نفسه، كما أنه ينص على ذلك بنقش حروف عربية (أو بتيفناغ فيما يخص الطوارق): «هذا من صنعي أنا أحمدو». بتكبير الصور حاولنا أن نستحضر ونقرب من الإدراك الصورة الداخلية التي تكون لدى الصانع حول ما أبدعه. تدقيق تحليل الأساليب: وفق هذه الطريقة أيضا، أو بالأحرى معالمها، وهذا الأمر سيمكن إنسانا موريتانيا أن يتعرف على التحفة ضمن تحف أخرى عديدة ويقول: هذا من صنع ترارزة أو الحوض أو أدرار، هذا إن لم يصف قائلا: «إن هذا العمل لمحمد سيدي صانع - معلم - من أطار».

إظهار الطرق التقنية المستعملة: فجودة العمل بالإزميل أو رداءته لا تفلت من الصورة المكبرة - هذا الناقد الذي لا يتسامح - لأن ذلك يسمح برؤية ماذا يعرف الصانع من صنعه وهل هو ناقل لا غير، فرضته طبقته<sup>30</sup> أم فنان ماهر».



الصورة 9: جزء من الآنية (القرع) بأشكال ملوثة.  
المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009.



الصورة 8: أصداف تحمل الألوان المستعملة من قبل النساء «الصانعات». المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009.

وعلاوة على ذلك فقد نشر جان غابو كتابين بديعين في المتحف الصحراوية، الأول سنة 1958 بعنوان «في الصحراء: فنون ورموز» (Au Sahara: Arts et symboles) والثاني سنة 1982 تحت عنوان حلي وتقنيات Bijoux et techniques. ويضم هذا الكتاب الثاني رسوما لهانس إرني (Hans Erni) لا تمثل الحلي فحسب بل كذلك سياق استعمالها وتحديد الطريقة التي تتزين بها النساء البيضايات. وسيزين هانس إرني كتابا آخر لجان غابو عنوانه أبجديات في التعرف على الصحراء (Initiation au désert) برسوم تمثل المخيم والصناع والصناعات التقليدية أثناء العمل وكذلك أهل الدين والزوايا وحلي النساء والحطائيات منهن (الإماء سابقا) وهن يطحنن الذرة البيضاء ويجلبن الماء من الآبار.

وقد رافق هانس إرني جان غابو في بعثتين إلى موريتانيا سنة 1950 و 1951 حيث رسم رسما حيا الأشياء والرجال والنساء الذين يستعملونها؛ كما أنتج من هاتين الرحلتين 290 رسما ولوحة ب «الغواش» (La gouache) قال عنها غابو<sup>31</sup>: «إنها عظيمة وحية ودقيقة ورائعة الأناقة حتى أنها لا تضاهيها في ذلك أية وسيلة من وسائلنا التقنية سواء كانت صورة فوتوغرافية أو شريطا أو تسجيلا». ولم يكن ذلك ليمنع جان غابو من أن يحمل معه من موريتانيا مئات الصور الفوتوغرافية وأربعة أشربة وتسجيلات صوتية كثيرة لموسيقيي ترارزة ولأغاني نمادية<sup>32</sup> و«إيقاعات عمل» و«أصواتا متنوعة»<sup>33</sup>.

### جدارية هانس إرني الموريتانية لمتحف نوشاتيل «رسم حي للتقنيات والحياة الصحراوية»

أنتج هانس إرني، تحت إشراف جان غابو<sup>34</sup> وانطلاقا من رسوم أنجزها إلى جانب البيضان، جدارية تستقبل الزوار بمتحف نوشاتيل الإثنوغرافي وقد كانت في الأصل تزخرف سنة 1954 قاعة «موريتانيا». ويتعلق الأمر في هذه الجدارية التي موضوعها «الحياة التقنية للبيضان» بتمثيل الأدوات وكذلك الوضعية الجسدية للصانع في مختلف أنشطتهم باعتبار أن الجسد لديهم يفكر فيه بحد ذاته باعتباره أداة، كما تقدم هذه الجدارية مقاطع من حركاتهم أثناء العمل باعتبارها «رسما متحركا للتقنيات». ويشرح جان غابو<sup>35</sup> مهمة هانس إرني قائلا: «كنا نطلب منه أن يسجل جملة حركات وتعابير مرتبطة بحرفة ما وأن يبدع ما يشبه رسما متحركا للتقنيات. ولم يكن عليه ليذكر سلسلة يشرح بها العمل الذي ينجزه الصانع التقليديون بل كذلك كل ما يتطلبه مشغل صغير بالبادية من مهارة ومن وضعيات تقنية محسوبة بدقة ودراية، وكان عليه أيضا أن يسجل مثلا وضعية تصبح فيها أصابع الرجل ملقطة، والبطن والفخذان لوحة للعمل، وانحناء الظهر رافعة؛ باختصار كل ما يجعل الحديث عن القيمة الأدواتية للحركة ممكنا. ولن تهمل هذه الدراسات الوسط الاجتماعي ولا إطار الحياة اليومية التي تعطي في غالب الأحيان تفسيراً وعظمة لأنشطة متواضعة... إننا لم نكن نود مخاطبة حس التلقي المتقد لدى الفنان ولا حسه الإنساني. إن ما يمكن الحصول عليه سيكون ذا أهمية مماثلة - في مجال مغاير - لا تقل عما هو مطلوب من العالم الأنثروبولوجي والعالم الاجتماعي واللساني أو من عالم الموسيقى».

يأمل جان غابو<sup>36</sup> أن يعيد الرسام تشكيل ما قد نسميه اليوم البعد التجسدي (embodiment) المرتبط بعمل الصانع وأدواته وتقنيته التي أصبحت امتدادا لجسده فتعطي للنشاط اليدوي (techné) للصانع مرتبة الفن (ars) بكل ما في الكلمة من معنى: «إن مهمة الفنان تتمثل في صيانة حياة الأداة على الجدار وإرجاع إطارها وقيمتها الإنسانية إليها؛ فعندما كان أحد الصانع يقدم لنا إحدى مطارقه يرزنها بطريقة فنية ويثير انتباهنا إلى حبتها ولمعان وصقيل قبضتها التي تكاد تكون أشبه بالحرير الناعم. لقد كان يعتقد أن كفيه وأصابعه يكفيان لوزنها



الصورة 13 الدبليج.  
مجموعة خاصة في ملك  
السيدة كورين فورتبي

الصورة 10: «صانع» منهمك  
في عمله. جدارية لهانس  
إرني. المتحف الإثنوغرافي  
لنوشاتيل. 2009



الصورة 12: الأقلام المستعملة من  
قبل الحدادات لغرض التلوين. المتحف  
الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009.



وأن هذه الأداة ما هي إلا امتداد ليديه بكل أمان الحياة وحرارتها. وكان يضيف قائلا: «لا أعرف جيدا أين تبتدئ الأداة وأين تنتهي أصابعي؛ لقد صار الخشب وجلدي شيئا واحدا منذ عدة سنين». هذا إذا موضوع من مواضيع الجدارية: لعب اليدين بالمطرقة وإيقاع عمل ومعايرة مضبوطة لضربة المطرقة. لكأن الأمر يتعلق بيدين مائلتين على أوتار قيثار تبحثان عن التناغم نفسه. وفي هذه المرحلة غالبا ما يصبح العمل فنا. ولولا إحياء الرسام لما انتبه أحد إلى هذه الجودة التي تتوفر عليها الصناعة التقليدية ولا إلى هذه الكرامة».

وتقدم هذه الجدارية التي تدور حول «الحياة الاجتماعية بموريتانيا» مشاهد من الحياة اليومية الصحراوية وخاصة الأنشطة المتنوعة لمختلف الفئات الاجتماعية لاسيما فئة الصناع (لمعلمين)، وكما سنبين ذلك، مع تمثيل لأصناف هذه الأنشطة واهتمام بالتفاصيل الخاصة بالأدوات والمشاهد الممثلة. إن تقسيم العمل حسب الجنسين لدى الصناع في المجتمع البيضاني مرتبط بالمواد المحولة على يد كل جنس، فبينما الرجل مختص في الخشب والمعدن فإن المرأة تهتم بالجلد، ذلك أن الأشغال النسوية تتطلب جهدا جسديا أقل حيث تقتصر على دباغة الجلد وتقطيعه وتنميته.

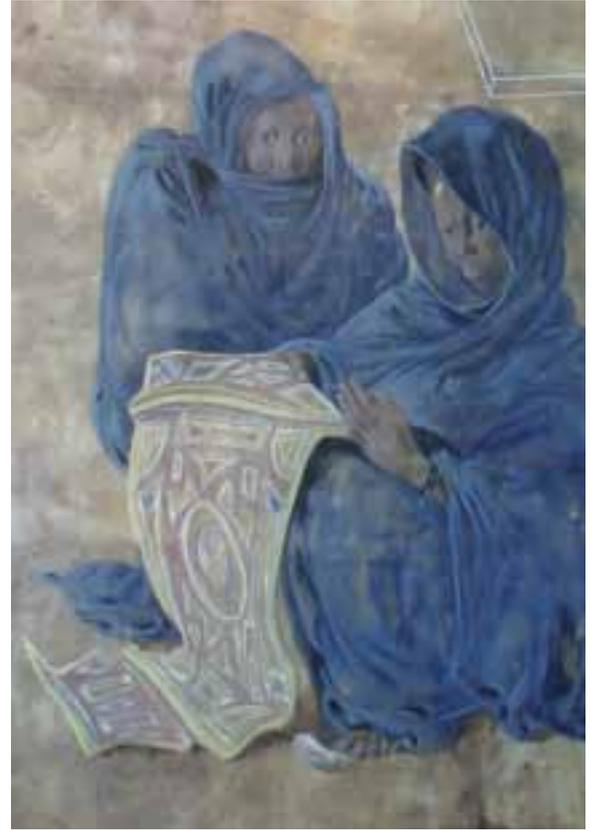
وتبين الجدارية صناعا وفي عنقه طلسم متميز من الجلد (كتاب) وينقش صفيحة من نحاس (الصورة 10) بينما تنهمك صانعة في تزيين قطعة من الجلد (الصورة 11). ويمكن للملاحظ أن يرى عند قدمي الصانع صدفة تحتوي على مداد يستعمل في صباغة الجلد (الصورة 5) وفي يده قلم هو فرشاته (الصورة 12). بالفعل، فبعد أن تكون الصانعة قد دبغت الجلد تحولته إلى أداة للاستعمال (وسادة أو قربة) وتزخرفه بواسطة ألوان أربعة من المداد (الأزرق النيلي والأصفر والأحمر والأخضر) كانت تصنع من مواد طبيعية. ويمكن أن نلاحظ أن الصانعة تزين بحلية تضعها حول جبهتها تتكون من حلقة صدف تسمى أمجون (amjun) وبدملج هو «الدبليج» مادته من خشب شبيه بالآبنوس وتزينه أربع مجموعات من سبع كرات فضية ملتحمة أو مثبتة بالبرشام على معينات مسطحة متساوية الأضلاع مغطاة بحبيبات مضمومة بخيوط نحاسية مجدولة، ويفتح بواسطة سلسلة صغيرة أو مسمار ملولب (الصورة 13).

الصورة 11: «صانعة» منهمة في عمل على الجلد. جدارية هانس إرني. المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009

وتبرز الجدارية كذلك فئات المجتمع البيضاني الأخرى ماعدا الموسيقيين (إثاؤون)، فهذا زاوي بسبحته (الصورة 14) وذاك محارب حساني ببندقية (الصورة 15) وذلك راع يبدو أنه حرطاني يافع (عبد أعتقت رقبته) بإناء لجمع الحليب (الصورة 15). وبالإمكان أيضا أن نرى على الجدارية امرأتين تجلس كل واحدة منهما إلى طرف النول (الصورتان 17 و 18) وهما تنسجان للخيمة فليجا من صوف ووبر. والتسدية (غزل السداة) من الأشغال القليلة التي لا تحط من شرف النساء النبيلات غير أنهن في المرحلة الأخيرة من صنع الخيمة يلتجئن إلى الصناعات كي يضموا الفلجان بعضها إلى بعض بواسطة مخيط كبير الحجم<sup>37</sup>.

وتبين هذه الجدارية أيضا حرطانيتين (أمتين سابقتين) وهما تطحنان الذرة البيضاء (الصورة 19) وتزينان بحلي تقليدية خاصة بالحرطانيات، مثل «الشرويطة» (sharwîta) التي يضعنها على رؤوسهن أو القلادة (aglâda) التي تشكل كل ثروتهن (الصورتان 20 و 21) لكونها «معادلا لحساب توفير أو حساب بنكي» كما يقول جان غابو بصدد حلي الحرطانيات، على هامش رسم لهانس إرني<sup>38</sup>. وبما أنني قد حللت بدقة حلي النساء البيضانيات ودلالاتها في أطروحتي<sup>39</sup> فسأعطي بعض التوضيحات حول هذا العقد (بكسر اللام) الذي رسمه بواقعية كبيرة هانس إرني (Hans Erni). إن هذا العقد يتكون من صف طويل من الجواهر الكريمة (حب الحر<sup>40</sup> habb al-harr) المنتظمة في فتيل قطن أو خيط من جلد. وهذه الفئة من الجواهر المسماة بـ «الكريمة» تضم أشكالاً متنوعة مثل العنبر الأصفر (ميال، mayyâl) التي تنحت خصيصاً لهذه العقود لأنها مسطحة وسداسية الشكل ومثقوبة سمكا وطولا. وتتكون القلادة (aglâda) من جواهر مائلة إلى الزرقة تسمى نيلة (nila) ومن العقيق ('aguig) أو من كرات حجر اليمان (agate) المصقول (ميالة) أو جواهر سود من السمج، وهو مادة قيرية صلبة سوداء لماعة تلتهب كالنفخ الحجري، أو الشريعة (chaira) وهي جواهر من المرجان (corail)، وتنسق هذه الجواهر بتمائل على طرفي قطعة مركزية تتوسط العقد وهي مثلث من العقيق<sup>41</sup> ذو دلالة عانية واضحة. ويمكن إضافة مثلثات مسطحة أخرى من حجر اليمان بجهتي العقد وتسمى مالحة (malha) لأن شفافيتها تذكر بالملح.

الصورة 17: امرأة تنسج. جدارية هانس إرني. المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009





الصورة 15: «مرابط» ومحارب.  
جدارية هانس إرنست. المتحف  
الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009.



الصورة 18: امرأة تشتغل بالنسيج.  
جدارية هانس إرنست. المتحف  
الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009.



الصورة 20 حرطانية ب «شرويطة»  
و«كلادة» من الجانب. جدارية هانس إرني.  
المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009



الصورة 20: حرطانية ب «شرويطة»  
و«كلادة». جدارية هانس إرني. المتحف  
الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009



الصورة 19: حرطانية تدق ال «مبل»  
(نوع من الحبوب). جدارية هانس إرني.  
المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009

وفي هذه الجدارية تبدو النساء الحارطانيات مزينات بخلاخل (الصورة 22)؛ والخلاخل إسم عربي الأصل تتزين به النساء في باقي الصحراء وبلاد المغرب . والخلاخل الذي ليس حكرا على النساء اللواتي كن إماء في سابق عهدهن، يصدر عنه رنين له جاذبية إيرويقية، كما أنه كان يساعد على مراقبة تحركات المرأة التي تحمله<sup>42</sup>. وسأتوقف مرة أخرى كي أصف بتفصيل هاته الجواهر التي قدمها هانس إرنى بدقة متناهية في جداريته. إنها تتكون في وسطها من صفيحة منقوشة بمهارة وتسمى دار القبة (dâr al-kabba) تقع في مقدم الرجل ومن صفيحتين صغيرتين منقوشتين كذلك وتسميان ترعات (tar'at) توجدان خلف الكعب. وهذه الصفائح التي تزينا نقوش دقيقة من أشكال هندسية تشبه الطلاسم (جداول جمع جدول jadwal)؛ وحسب جان غابو<sup>43</sup> تسمى الصفيحة الكبرى «طلسم الوسط» (لكتاب الوسطاني (laktâb al-ouestâni) والصغريات «طلسم الكرات» (كتاب القرطيم أو لكتاب الكبير، ktâb al-kartîm ou ktâb laktâb). وتصون هذه الخلاخل كل امرأة تلبسها من كل كائن ضار يسكن الأرض من ثعابين وعقارب وخنزير. وتسمى حلقة الكعب الدبوس ويعني عادة عصا الجمال. وتسمى الكويرات الطرفية رصاصا (rsâsa) وتذكر برصاصات البندقية التي كان الصناع (المعلمين) يصنعونها صنعا تقليديا. وتحيل أسماء هذه الأجزاء المختلفة من الخلاخل على معجم الجمال؛ فتسمى الأجزاء الجانبية باسم يدل على عصا الجمال (الدبوس dabbûs) كما سلف الذكر، بينما يطلق على الجزء المركزي، حسب جان غابو، إسم يحيل على قيد الجمل (gayd).

كانت مهمة هانس إرنى في هذه الجدارية تتمثل في إعادة تشكيل السياق الاجتماعي والإنساني والحسي والعاطفي الذي يحيط بهذه الأشياء، ويقول في ذلك جان غابو<sup>44</sup>: «أطلب منك أيها الرسام أن تتوقف أكثر على ذلك الترويح المعتاد عن النفس الذي يصاحب تناول الشاي في خيمة الصناع، وألا تنسى صرامة تلك المرأة المسنة التي تراقب ابنتها عندما تذهب لصبغة بضع تاسوفرات<sup>45</sup> أو تلك الفرائج المتطاولة واليمام السمين الذي يتجول بين الأدوات... لأنك تعرف جيدا أنني سأطلبك عند عودتك بأن تنقل رسما هذه المشاهد بمتحفنا على جدار قاعة «موريتانيا» وتخلق أجواء حية صادقة لا يمكن لأية وثيقة مفصلة عن عالمها المنعم بالأصوات والعمور والضوء أن تعبر عنها... في هذه القاعة سنعمل على تأطير الأداة أو الشيء بجدارية يكون موضوعها «الحياة التقنية» - أي كل تلك الحركات التي تسجلها يوميا - وبجدارية أخرى مخصصة «للحياة الاجتماعية» مع الرعاية والعلماء والمحاربين... أنت أيها الرسام من سيعيد الاتصال الإنساني بهذه الأدوات والتعاطف معها بل احترامها: هودجا كان الشيء أو راحلة<sup>46</sup>، تاسوفرا أو حصائر، حليا أو جواهر، أدوات أو مادة خاما. وينبغي أن تذكر جميعها بلحظة من الحضارة الصحراوية حتى إن كانت تكاد لا تترك لدى الرائي سوى انطباع بفضول تجاه ما هو غريب أو تسلية بشكل معين أو لون بعينه».

إن جان غابو، وهو المجمع للتحف والإثنولوجي والعالم بتنظيم المتاحف، يعطي مثلا حقيقيا لأولئك الذين قد يريدون اليوم أن يفصلوا، في اختيارهم التحافي، بين الحس الجمالي الذي توفره الأداة أو الشيء للنظر وبين استعمالها الاجتماعي والثقافي الذي تدعمه العدة التوضيحية والتأويلية أن أحدهما يثري الآخر في ارتباط وثيق بين المعنى والدلالات، حتى لا يترك «المشهد» الذي يقدمه عرض الأشياء / الأدوات، «انطبعا بفضول تجاه ما هو غريب»، بل يولجنا في البيئة الاجتماعية والثقافية والعاطفية الغنية التي توجه إبداع هذه الأشياء، وبذلك يعيد «الاتصال الإنساني» مع أعضاء مجتمعا الأصل بغض النظر عن مسافة الزمان والمكان.

الصورة 22: خلاخل. جزء من جدارية هانس إرنى. المتحف الإثنوغرافي لنوشاتيل. 2009



## هوامش

دي أرييا (Manuel Laranjeira Rodrigues de Areia) دي أرييا (2005) المسبوق بـ «ما لم يسبق نشره لتيودور دولاشو» (المصدر نفسه : 153-156).

12 - يتعلق الأمر بإنويت شرم هودسون (Inuit de la Baie d'Hudson) المسمى حاليا نونافوت (Nunavut) بكتندا.

13 - Csonka, Y., « Jean Gabus chez les Inuit du Caribou. Du reporter à l'ethnologue ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, p. 167.

14 - أجرى هذا الحوار مع جان غابو في الثامن عشر من مايو 1970 خلال برنامج «مباشر» للتلفزيون السويسري كل من غاستون نيكول (Gaston Nicole) ورولان باهي (Roland Bahy)؛ ويمكن الاطلاع على هذا الحوار الطويل الذي دام أكثر من ستين دقيقة عبر شبكة الإنترنت ضمن أرشيفات التلفزة السويسرية على الموقع التالي : <http://rts.ch/archives/en-direct-avec/3446115-jean-gabus.html>

15 - Gabus, J., « Principes esthétiques et préparation des expositions didactiques ». *Museum*, 1965, vol. XVIII, n°1, p. 42.

16 - Fortier, C., « Au miroir de l'autre. Chasseurs (Nemadi) et pêcheurs (Imraguen) dans un monde de pasteurs nomades (Mauritanie) ». *Ethnologies comparées, Figures sahariennes* n°7, printemps 2004, revue en ligne (<http://alor.univ-montp3.fr/cerce/r7/c.f.htm>).

17 - Gabus, J., *Walata et gueïmaré des Nemadi. Rapport brut des missions ethnographiques en R. I. de Mauritanie du 19 décembre 1975 au 29 mai 1976*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 1977.

18 - Ibid., p. 94.

19 - حول موضوع التعليم القرآني بموريتانيا أنظر كورين فورتيي.

*mission de l'identité et des savoirs en islam malékite*, op. cit.

Fortier, C., « Épreuves d'amour en Mauritanie ». *L'Autre. Cliniques, cultures et sociétés* 4(2), 2003, pp. 239-252.

Fortier, C., « Ô langoureuses douleurs de l'amour ». Poétique du désir en Mauritanie ». In Michel Demeuldre (éd.), *Sentiments doux-amers dans les musiques du monde*, L'Harmattan, Paris, 2004 (Logiques sociales, musique et champ social) : 15-25.

Fortier, C., « Séduction, jalousie et défi entre hommes. Chorégraphie des affects et des corps dans la société maure ». In Françoise Héritier et Margarita Xanthakou, éd., *Corps et affects*, Odile Jacob, Paris, 2004, : 237-254.

7 - Gabus, J., *Bijoux et techniques*, La Baconnière, Neuchâtel, 1982, p. 1.

8 - Gonseth, M-O., Heinard, J. et Kaehr, R., « Ouverture ». In Gonseth, M-O., Heinard, j. et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, pp. 11-20.

9 - Maillard, N., « Un château et un parc en héritage : la propriété James de Pury à Saint Nicolas ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, pp. 47-62.

10 - Sierro, V., « Les rêves fous du premier conservateur ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, p. 111.

11 - أنظر في هذا الموضوع مقال مانويل لرنخيرا رودريغيس

1 - Fortier, C., « Base de données relative aux objets concernant l'Afrique du Nord, la zone saharo-sahélienne, l'Asie centrale, et le Proche et Moyen-Orient, se trouvant au Musée de l'Homme et au Musée National des Arts d'Afrique et d'Océanie ». Rapport établi en octobre en deux volumes : 1. Inventaire des collections. 2. Évaluation et propositions, 2000.

لقد شرعت في هذا العمل سنة 2000 في إطار الوحدة العلمية للمركز الوطني للبحث العلمي التي كان يديرها موريس غودولييه (Maurice Godelier) بهدف إعداد متحف الكي برانلي. وفي هذا الإطار كونت قاعدة للمعطيات حول مجموعات متحف الإنسان والمتحف الوطني لفنون إفريقيا وأقيانوسيا فيما يخص إفريقيا الشمالية ومنطقة الصحراء والساحل وآسيا الوسطى والشرق الأدنى والشرق الأوسط.

2 - وقد تم إنجاز هذا العمل الثاني بين 2002 و2004 في إطار المشروع الأوروبي إيكو (Echo) حول المكونات غير الأوروبية للتراث الأوروبي، وهو مشروع أشرف عليه موريس غودولييه.

3 - Fortier, C., *Corps, genre et infortune : transmission de l'identité et des savoirs en islam malékite et dans la société maure de Mauritanie*, Doctorat en anthropologie sociale et ethnologie à l'École des Hautes Études en Sciences Sociales (EHESS) à Paris sous la direction de Pierre Bonte, 2000, 2 tomes, 1160 ps.

4 - Fortier, C., *Corps, genre et infortune : transmission de l'identité et des savoirs en islam malékite*, pp. 718-721.

Fortier, C., « La barbe et la tresse. Marqueurs de la différence sexuée (société maure de Mauritanie) ». In *Les Cahiers du Laboratoire d'Anthropologie Sociale* 6, Dimitri Karadimas éd. *Poils et sang*, L'Herne, Paris, 2010, pp. 99-100

5 - Fortier, C. Vignette pour la plateforme multimédia du Musée du Quai Branly sur la séduction dans la société maure de Mauritanie, 2004.

6 - Fortier, C., *Corps, genre et infortune : trans-*

38 - Gabus, J., *Initiation au désert*. Illustré par Hans Erni. Lausanne, L'âge d'Homme, 1993, p. 193.

39 - Fortier, C., *Corps, genre et infortune : transmission de l'identité et des savoirs en islam malékite et dans la société maure de Mauritanie*, pp.727-739.

40 - وكما تلاحظ أوديت دي بيكودو Odette du Pigaudeau (1970 :32): «هذه الجواهر التي تعد ذات قيمة عالية» من صنف حب الحر هي من حجر الأمازونيت (amazonite) المنحوتة بطريقة تكاد لا تكون منتظمة دائما. وكان الفينيقيون يجلبونها من الشرق ومصر ليتاجروا بها في الضفة المتوسطة وبييعوها لتجار القوافل من الصحراء والسودان. وقد عثر الرحل على بعض منها في تيمولي (timuli) في رمال المواقع الخاصة بالعصر الحجري (النيوليتي) مثل تيشيت (Tichit) وأخريجيت (Akhrejjit) وودان (Wadan) وتورين (Turin) مختلطة بأدوات تلك الحقبة التي امتدت إلى زمن متأخر بإفريقيا بل قاربت أيامنا. وقد نبشت منها الحفريات العلمية عددا كبيرا في قبور ملوك غاو (Gao) وغانا وفي تمولي بالسينغال. ولهذه الجواهر مكانة فضلى لدى نساء تاوت وتابلبالا وتنديف (الركييات وشمبا ودويمينية وحراطين) اللواتي يجعلن منها عقودا كاملة ذات أثر فتان فوق البشرة البنية والثوب الأزرق الداكن».

41 - يسمى هذا المثلث من العقيق «كتفة» (kutfa) لأن شكله يذكر بشكل لوح الكتف أو «دركة» (darka) وهي كلمة صيغت من نفس جذر درك التي تعني «ربط».

42 - Fortier, C., *Corps, genre et infortune : transmission de l'identité et des savoirs en islam malékite et dans la société maure de Mauritanie*, p.727

43 - Gabus, J., *Bijoux et techniques*, p. 245.

44 - Ibid., p. 28.

45 - يتعلق الأمر بمزود من الجلد يصنعه الصناع التقليديون (الصورة 23).

46 - الأمر يتعلق هنا بسرج الجميل وهو من صنع الصناع البيضان (الصورة 24).

27 - Gabus, J., «Principes esthétiques et préparation des expositions didactiques». *Museum*, 1965, vol. XVIII, n°, 34.

28 - Sierro, V., «Perspectives de mise en exposition (1921-1955)». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, p. 349.

29 - Gabus, J., «Principes esthétiques et préparation des expositions didactiques». *Museum*, 1965, vol. XVIII, n°1, p. 45.

30 - يشكل الصناعات بالفعل إلى جانب السحرة والشعراء والموسيقيين طبقة مغلقة في المجتمع البيضاني.

31 - Gabus, J., *Guide du musée ethnographique de Neuchâtel*. Neuchâtel, p.35.

32 - Borel, F., «Jean Gabus au Sahara. De l'ethnologue au muséographe». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, p. 189.

33 - Sierro, V., «Le musée dynamique de Jean Gabus (1955-1978)». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, p. 349.

34 - حول هانس إنري وتكوين هذا المشروع مع جان غابو أنظر أنولد نيهير (A. NEIHER) 2005.

35 - Gabus, J., *Guide du musée ethnographique de Neuchâtel*. Neuchâtel, pp. 35-36.

36 - Ibid., p. 43.

37 - Fortier, C., «Corps, genre et infortune: transmission de l'identité et des savoirs en islam malékite et dans la société maure de Mauritanie», pp. 508-509.

Fortier, C., «Le corps comme mémoire : du giron maternel à la fêrle du maître coranique». *Journal des Africanistes* 68 (1-2) : 199-223. ([http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/jafr\\_03990346\\_1998\\_num\\_68\\_1\\_1169](http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/jafr_03990346_1998_num_68_1_1169)), 1998.

Fortier, C., ««Une pédagogie coranique». Modes de transmission des savoirs islamiques (Mauritanie)». *Cahiers d'Études Africaines*, XLIII (1-2), 169-170 : 235-260. ([http://www.cairn.info/article.php?ID\\_ARTICLE=CEA\\_169\\_0235](http://www.cairn.info/article.php?ID_ARTICLE=CEA_169_0235)), 2003.

20 - أعرف جيدا التضايق الذي تسببه الكويرات المشوكة لهذه الشجيرة المعروفة بموريتانيا لكونها تعلق بأسفل الملحفة أو تخز من يجلس عليها، وهو ما يوفر فرصة للرجل اللبق كي ينزعها الواحدة تلو الأخرى من لثام المرأة. هذا إن لم تقم صديقة لها بهذا الفعل الودي. وهذه الشجيرة المسماة إنييتي (iníti) لدى البيضان ووزاغ (wezzeg) عند الطوارق تحمل الإسم العلمي *Cenchrus biflorus* ou *Cenchrus barbatus Schumacher*.

21 - Borel, F., «Jean Gabus au Sahara. De l'ethnologue au muséographe». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel 2005, p. 183.

22 - Gabus, J., *Guide du musée ethnographique de Neuchâtel*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 1967, p. 29.

23 - Sierra, V., «Perspectives de mise en exposition (1921-1955)». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr éd., *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, pp. 311-325.

24 - Gabus, J., *Guide du musée ethnographique de Neuchâtel*, p. 38.

25 - الإسم العلمي لأم ركية هو *Panicum turgidum*.

26 - حول موضوع الصناعات البيضان وأدواتهم وأشياءهم ووضعهم ومعرفتهم في مجال السحر أنظر كورين فورتيي (2002).

## المراجع

- Borel, F., « Jean Gabus au Sahara. De l'ethnologue au muséographe », in Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint Nicolas 1904-2004*, Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, pp. 175-198.
- Csonka, Y., « Jean Gabus chez les Inuit du Caribou. Du reporter à l'ethnologue », in Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel, 2005, pp. 167-174.
- Du Puigaudeau, O., « Arts et coutumes des Maures », Chapitre II : L'habillement (suite), *Hespéris-Tamuda* 11, 1970, pp. 5-82.
- Fortier, C., « Le corps comme mémoire : du giron maternel à la fêrule du maître coranique », *Journal des Africanistes* 68 (1-2), 1998, pp. 199-223. ([http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/jafr\\_03990346\\_1998\\_num\\_68\\_1\\_1169](http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/jafr_03990346_1998_num_68_1_1169)).
- 2000a, Base de données relative aux objets concernant l'Afrique du Nord, la zone saharo-sahélienne, l'Asie centrale, et le Proche et Moyen Orient, se trouvant au Musée de l'Homme et au Musée National des Arts d'Afrique et d'Océanie. Rapport établi en octobre en deux volumes : 1. Inventaire des collections. 2. Évaluation et propositions.
- 2000b, Doctorat en anthropologie sociale et ethnologie à l'École des Hautes Études en Sciences Sociales (EHESS) à Paris sous la direction de Pierre Bonte, *Corps, genre et infortune : transmission de l'identité et des savoirs en islam malékite et dans la société maure de Mauritanie*, 2 tomes, 1160 p.
- 2002 « De la forge à l'écriture. De l'indépendance à l'aliénation. Le statut ambivalent du forgeron dans la société maure », in *La forge et le forgeron. I. Pratiques et croyances*. Paris, L'Harmattan (Eurasie) : 125-153.
- 2003a, « Épreuves d'amour en Mauritanie », *L'Autre. Cliniques, cultures et sociétés* 4(2) : 239-252.
- 2003b, « Une pédagogie coranique », Modes de transmission des savoirs islamiques (Mauritanie), *Cahiers d'Études Africaines*, XLIII(1-2), 169-170 : 235-260. ([http://www.cairn.info/article.php?ID\\_ARTICLE=CEA\\_169\\_0235](http://www.cairn.info/article.php?ID_ARTICLE=CEA_169_0235)).
- 2004a, Vignette pour la plateforme multimédia du Musée du Quai Branly sur la séduction dans la société maure de Mauritanie.
- 2004b, « Ô langoureuses douleurs de l'amour ». Poétique du désir en Mauritanie, in Michel Demeuldre éd., *Sentiments doux-amers dans les musiques du monde*, L'Harmattan, Paris (Logiques sociales, musique et champ social) : 15-25.
- 2004c, « Séduction, jalousie et défi entre hommes. Chorégraphie des affects et des corps dans la société maure », in Françoise Héritier et Margarita Xanthakou (éds.), *Corps et affects*, Odile Jacob, Paris, pp. 237-254.
- 2004d, « Au miroir de l'autre. Chasseurs (Némadi) et pêcheurs (Imraguen) dans un monde de pasteurs nomades (Mauritanie) », *Ethnologues comparées, Figures – Participation au colloque sahariennes* 7, printemps, revue en ligne (<http://alor.univ-montp3.fr/cerce/r7/c.f.htm>).
- 2006, « Intelligence pratique du berger et art magique du forgeron dans la société maure de Mauritanie », in *Les Cahiers du Laboratoire d'Anthropologie Sociale*, Salvatore d'Onofrio éd. *Dire le savoir faire*, L'Herne, Paris, pp. 55-65.
- 2010, « La barbe et la tresse. Marqueurs de la différence sexuée (société maure de Mauritanie) », in *Les Cahiers du Laboratoire d'Anthropologie Sociale* 6, Dimitri Karadimas éd., *Poils et sang*, L'Herne, Paris, pp. 94-104.
- Gabus, J., *Iglous. Vie des esquimaux-caribou (Mission ethnographique suisse à la baie d'Hudson, 1938-1939)*, Victor Attinger, Neuchâtel, 1940.
- 1958, *Au Sahara : Arts et symboles*, La Baconnière, Neuchâtel.
- 1965, « Principes esthétiques et préparation des expositions didactiques », *Museum*, vol. XVIII, n°1 : 3-75.
- 1967, *Guide du musée ethnographique de Neuchâtel*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel.
- 1977, *Walata et gueïmaré des Nemadi. Rapport brut des missions ethnographiques en R. I. de Mauritanie du 19 décembre 1975 au 29 mai 1976*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel.
- 1982 *Bijoux et techniques*. Neuchâtel, La Baconnière.
- 1993 *Initiation au désert. Illustré par Hans Erni*. Lausanne, L'âge d'Homme.
- Glauser, Julien, 2005 « Le musée colonial d'une Suisse sans empire ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 123-137.
- Gonseth, Marc-Olivier, Heinard, Jacques et Kaehr, Roland
- 2005 « Ouverture ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 11-20.



Maillard, Nadja, « Un château et un parc en héritage : la propriété James de Pury à Saint Nicolas ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 2005, 47-62.

Nieher, Arnold, « L'apport du peintre Hans Erni. Une réalisation engagée en pleine guerre froide ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 2005, 63-68.

Rodrigues de Areia, Manuel Larenjeira, « Sur le terrain » : Relecture de pays et peuples d'Angola ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 2005, 157-160.

Sierro, Valérie, « Les rêves fous du premier conservateur ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 2005, 111-137.

Sierro, Valérie « Perspectives de mise en exposition (1921-1955) ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 2005, 311-325.

Sierro, Valérie « Le musée dynamique de Jean Gabus (1955-1978) ». In Marc-Olivier Gonseth, Jacques Heinard, et Roland Kaehr (éds.), *Cent ans d'ethnographie sur la colline de Saint-Nicolas 1904-2004*. Neuchâtel, Musée d'ethnographie de Neuchâtel : 2005, 343-366.



# حماية الثقافة الشعبية الحسانية

محمد دحمان

ظل الكثير من الساسة والباحثين يعتقدون أن مفتاح التنمية هو استيراد التكنولوجيا للرفع من مستوى الرخاء المادي للسكان، متغافلين عن التعدد الثقافي والسلوكي الذي يعتبر إلى حد كبير المبدأ المحرك للنشاط البشري المستديم.

وحقيقة الأمر، هي أن الإنسان هو أداة التنمية وغايتها. وإذا كان هذا هكذا، فاليوم تطرح مسألة التنمية المستدامة في تلازم مع الموارد البشرية، وثقافة تلك الموارد التي يوجد في طبيعتها «الموروث الشعبي» أو التقاليد المروية (Les traditions orales) التي تتبوأ مكانة متميزة في هذا الطرح الجدي لدورها الحاسم في صياغة سلوك الفرد والمجتمع وترجمتها إلى فعل اجتماعي تنموي. ولعل ذلك ما حدا بالأمم المتحدة إلى الإعلان عن عقد عالمي للتنمية الثقافية وربط ذلك بالتنمية الشاملة والمستدامة للبلدان.

والمغرب باعتباره من البلدان المسماة سائرة في طريق النمو، تطرح فيه من جديد مسألة التنمية المستدامة في علاقة بالموروث الشعبي سواء عند المخططين والتقنيين أو عند الأكاديميين، وذلك لثراء وتنوع الثقافة الشعبية المغربية من جهة، ثم نظرا لتسارع وتيرة التغيير الاقتصادي والاجتماعي وخاصة في الأقاليم الصحراوية، والذي لم تصاحبه تحولات في إنتاج ولا في توظيف الثقافة الشعبية، وبالتالي بقيت في أحيان كثيرة عرى تشد المجتمع إلى الوراء، أو مستنسخات نشازا تستنفر وتثير أكثر مما تدفع إلى فعل إيجابي.

هذا، ناهيك عن الاتجاه العام الذي أصبحت تتخذه «الثقافة» في عصرنا الحالي، حيث لم تعد هي تفاعل الحياة مع الفكر - كما ذهب إلى ذلك الباحث حسن أوريد - وإنما الثقافة جنحت لشيء آخر، هي تنشيط وملهاة، كتب ممتعة، روايات مسلية، مهرجانات تملأ الربح<sup>1</sup>.

وإذا أخذنا نموذجا لهذا الموروث الشفهي مثل الشعر الشعبي الحساني «لغن»، نلاحظ مدى الارتباط ما بين الإنسان والكلام، فهو كما يقول هامباتي با (Hampaté Ba) : «أي الإنسان كلامه، وكلامه شاهد على من هو»<sup>2</sup>، وفي هذا الإطار خرج هذا الباحث الإفريقي الشهير إلى أن من أراد النفاذ إلى تاريخ ونفسية الشعوب

جلسة شعر وطرب

الإفريقية لا بد له من الاعتماد على المعارف المنقولة شفهيًا من جيل إلى آخر عبر الزمن. وهو يسمي سدنة هذا التراث الشفهي بـ «الذاكرة الحية لإفريقيا»<sup>3</sup>. والثقافة الحسانية لا تشذ عن هذه القاعدة، فنحن بصدد شعر شعبي من إبداع مختلف الفئات الاجتماعية في مجتمع يولي مكانة خاصة للكلمة وبالتالي للسان. إن المثل الحساني يقول: «كثراً كلامك اتعود ولي»<sup>4</sup> أو «لكلام الزين إخلص الدين» (يضرب لرد الغرماء بأحسن القول كالاغتنار وتهذيب العبارة). لذلك كان قول «لغن» وحكايته من خصال الفتوة والحضور في الملأ.

وفيما يخص منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب، فقد عرفت نهضة أدبية في مجال «لغن» خلال القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين، تعود إلى الحراك الاجتماعي والاقتصادي الذي عرفته المنطقة وإلى تفاعلها مع بقية القبائل البيضانية في موريتانيا، وتطور الممارسة الحربية لدى القبائل إلى درجة جعلت الباحث الأنثروبولوجي الإسباني خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja) يربط ما بين تطور «لغن» بالصحراء وبين القبيلة والحرب وكذا حركة مقاومة الاحتلال الفرنسي والإسباني بداية القرن العشرين<sup>5</sup>.

هذا «لغن» هو كذلك تراث سجالي يمثل أهم حفزية للانفعالات الناظمة لسلوك الجماعة في حالة إحساسها بالتحدي؛ فآلية السجال هنا تعد ضامن وجود وتميز. إنه تراث يعكس طبيعة ذهنية معينة وفي نفس الوقت محرك أساس لكثير من الانفعالات المتولدة اجتماعياً، ومن حيث هو متضمن لمجموعة من القيم المنبوذة في المجتمع، وأسباب وقواعد الحمية ودواعي العصبية.

فهذا الشعر الشعبي «لغن» نحار فيه بسبب التنوع الكبير في ضروب الأوزان، من أين جاءت؟ إلا أننا عندما نعود إلى التسميات التي تطلقها المرويات الشعبية المصاحبة لهذا الشعر، على بحوره (لبتوتة)، فسنحل إشكالات كبيرة لذاكرتنا الجمعية، أو على الأصح نحل مشاكلنا نحن حول الوعي بمعطيات هذه الذاكرة الجمعية من خلال الرواية الشعبية.

وهكذا، تظهر أهمية هذا الموروث الشفهي الشعبي كجزء من الذاكرة المحلية، بل يعد أهم المرويات الشفهية بالمنطقة لكثرتة ولشيوعة عند جميع القبائل ولحضوره في الحياة اليومية للناس، فهو سجل ذكريات، يعكس طبيعة العلاقات الاجتماعية وأنماط العلاقة بالمكان. فالمغني (الشاعر الشعبي) يصف لنا رحلته في المجال الصحراوي وتفضيله لموقع جغرافي دون آخر لأسباب مختلفة، يقول السيد ولد بوسيف<sup>6</sup>:

وعظم ورك ومكفح نكجير  
وأزمول الطيحة وينيان  
خاطر عن وكر أنزران  
فصك وتنكر مش وشكران



الطارف وزايك والبيـر  
واكرار أتفشوكت ولكوير  
هاذ كامل وكر يغير  
أزفال وعن نختيـر

أو قول محمد عبد القادر بن أيمن<sup>7</sup>:

بين ميحك واتويزرفات  
واجوير أكلب لفغفون  
لكفح وأكلاب الكمور  
واطوارف من بين الكور  
كاعدالك كيف المديان



يا لبال أراعي ريطات  
وامخيول والفرفارات  
واطوارف كرزت شيات  
شوف تلك كور المجبور  
شوف تلك كارت منصور

أو قول محمد ولد أحمد مرحبا: <sup>8</sup>

والخنكة واكدت سلام  
تيلمزون أحنك اشمار  
شكدل وأكليببات أجياط

يلال مبعد رك أحرام  
كلب ارار وروس أخشام  
من كلب أدكمار وكلب ام

يقول أيضا: <sup>9</sup>

والنكعة وأطركة لخرات  
كرن والسبط وكوف  
كانم واتو يززميت وتوف  
واكلاب الكطارة والشوف  
لرفاد وكديت تنكفوف



يلال مبعد كرككات  
كديت جلوى وألمعيزات  
تيشت أمكونة وانخيالات  
من كلعب العبد اللبيرات  
فللكلك والدوكج وامات

هذه النصوص من «الغن» الحساني تبين ثراء الشحنة الدلالية لهذا المنتج الأدبي، كما تجعل منه وثيقة حية عن العلاقة بالمكان، وتظهر تلك الرحلة البدوية التي يطالع بها «راكب الإبل» في ما بين درعة السفلى (رڤأحرام) وتكانت وأزفال (بموريتانيا اليوم)، وهنا تعلق الباحثة اللسانية الفرنسية كاترين تين-الشيخ قائلة «يمكننا القول إن الشاعر يتماهى مع ذلك المسافر (Ce Voyageur)، فعبأبياته نشاهد المجالات التي يعبرها فيصفها ويسميها ويعدها كما لو أنه يدعونا إلى إعادة الرحلة معه بل إعادة عيش لقاءاته»<sup>10</sup>.

فالشاعر يرتبط بالمنطقة فضاء للعيش وللرحلة، ولذلك فهو عندما يبتعد عن هذا المجال ينتابه الحنين والشوق إليه ويتذكره في إبداعه، بل يأمل العودة من حيث أتى، قائما بعقد مقارنة ما بين مجاله الأصلي والمجال الجديد الذي دفعته الظروف إليه.

غير أن حضور المجال في «الغن» لا يعني فقط جانب الإقامة أو الطعن في وسط جغرافي، بل قد يعني المجال علاقة بالآخر مثل المحبوبة مثلا. والملاحظ هنا أن التعلق بمحبوبة واحدة كان أمرا غير طبيعي، فالشاعر الحساني مثله مثل البحار (Le marin) الذي عادة ما تكون له أكثر من خلية واحدة حسب المراسي. ولذلك سنلاحظ تماهي المرأة المحبوبة مع المكان في «الغن»، وهكذا فالمغني عندما يذكر مكانا ما، نلاحظ أن الأحاسيس المعبر عنها موجهة على الأقل إلى الشخص المحبوب الذي لا يذكر باسمه ولكن تذكر الأماكن التي أقام بها أو مر منها. يقول إبراهيم ولد أحنان<sup>11</sup>:

شوف إنال أفيلد مزال  
كيف الما تعرف كلب انال  
ما تحتاج اتكول با لبال  
لكلام أثر كامل ينكال؟

من مارت يالعلك انك سفيه  
عت ألا ماش وامجو ليه  
كلب إنال أل تعرف فيه  
وأنت كول كاع أشلك بيه

أو قول سيداتي ولد شيخ أحمد الهيبة<sup>12</sup>:

من برواك لملاك  
تظهر ل من برواك  
البولوتاد تروح صساد  
أتروح البل أملاك  
العبد لكرب الناكسه  
ملكاة ما يوتك



بي يا لزيغ كوم روح  
لعادت فيك اليوم روح  
من لملاك لعدت كساد  
أمعدل مشيك فيه جاد  
لمحاصر منزل بين واد  
يكان نلك ذي العساد



خيمة الشعر، صورة تجمع  
بعض أبرز شعراء الأقاليم  
الجنوبية حاليا



هكذا يتم إسقاط مختلف الأحاسيس والعواطف على المكان بدل التوجه المباشر إلى الغواني، وهذا نوع من الخطاب غير المباشر الذي يميز الثقافة الحسانية، مما يجعلها موروثا يختص بكثير من الإيحاءات والإيماءات الرمزية وذلك مصدر غنى هذه الذاكرة ومدعاة للمزيد من البحث والتحقيق العلمي الذي لن يعوزه الغنى والطرافة.

في منطقة الصحراء هناك أماكن للذاكرة، تحضر بشكل قوي في الإنتاج الأدبي والفني وفي التاريخ الاجتماعي والثقافي والمخيال الاجتماعي. ونورد هنا مثلا: منطقة تيرس التي نعتبرها مجالا للذاكرة (Lieu de mémoire)، وبهذا الصدد منح الشعراء الحسانيون أهمية قصوى للماضي موطن ذاكرتهم الاجتماعية وملهم خيالهم أمام سرعة تحولات الحاضر على مستوى المجال والسلوكات والقيم والثروة الرعوية.

يقول السيد ولد بوسيف في هذا الإطار<sup>13</sup>:

حاشيت والناس السوات  
خالك بعد اليزد ف لخالك  
واكليب العن ولاك  
كلب النص ولعجاجيات  
ثاني يزد ف فلوالات  
لشواف وكديت لرويات



يعكل كان الدهر امشات  
فيه، ولا فيه أخلاق اتلات  
شوف ازايك وأتويزرفات  
تنيولك والزعايعيات  
وألا من تيرس جمع أتفاك  
شيروك وبوناك وزراك

إنه نوع من الحسرة والبكاء على الماضي زمن الظعن ومضارب البدو والروابط الاجتماعية المتينة. لذلك فهذه النصوص تقدم لمحة عن طبيعة العلاقة بالمجال وبالأخر الفرد والأخر الجماعة، كما تحمل معجما لغويا ثريا يبين تضاريس المجال وأسماء الأماكن التي تعكس تلاقحا حضاريا بين الصنهاجية والعربية الفصحى والحسانية. زد على ذلك المقارنات التي يعقدها الشاعر الشعبي الحساني ما بين فضاءات متباعدة مختلفة من حيث التضاريس وخصوبة المراعي والمشاهد الطبيعية. مثال ذلك قول محمد ولد أحمد مرجبا<sup>14</sup>.

واكصر عابدين ودحمان  
راض الطارف والنطفية  
وأكجكال المعيطية  
واذريع منبت بوشامية  
ويفندان ولحميدية  
والكعدة والحكونية  
إزيك أزيك الحيثية  
بولوتاد أمن لكسيدي  
مدن الحوات البثينية  
عكلت سيدي وأم الوية



يلال مبعد تيسكنان  
إيسك والخنك والوديان  
والركن ومغادر سلطان  
عظم الإيل واذراع الغزلان  
وادريع منبت تيلمسان  
أخنيفيس وكرب الشيلان  
الدورة واحويس عثمان  
من لصك أكلب ادرمان  
واكلاب إينيان  
أفديرك واكلاب إيشكران

هنا يصف الشاعر مناطق تمتد من واد نون (تيسكنان، قصر عابدين ودحمان) إلى درعة السفلى (إيفندان، لحميدية) في اتجاه الساقية الحمراء (الحكونية، الدورة، إزيك)، مارا بتيرس (لصك، أدرمان، بولوتاد، إينيان) إلى أن يصل شمال ولاية أدرار التمر بموريتانيا.

إنها خريطة لأهم مناطق التجمعات البشرية، أو مناطق عبور القوافل والرحل، وأهم مجالات الرعي والانتجاع، وبالتالي أهم أماكن الذاكرة بشمال «اتراب البيضان».





وفي تقديرنا إن «لغن» الحساني يمكن أن يعد وثيقة تاريخية لمعرفة جوانب من التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي بالمنطقة، فإذا أخذنا مثلاً حركة مقاومة الاستعمار بداية القرن العشرين، نلاحظ أن هناك نصوصاً شعرية حسانية تقدم معطيات دقيقة حول أحداث تلك المرحلة، إلى درجة أنها تذكر أسماء بعض الشهداء أو الجرحى مثل ما حدث في معركة أم التونسي صيف سنة 1932، يقول الشاعر الشعبي لمغيفري ولد الكوري<sup>15</sup>:

الغزّي جايب لكلّية  
ولد أحمين ولد أشيعة  
مارد ذ الهند الكادي  
وأصل الرحمة يا أسويليمة  
أمهاجر من تل أبعيد  
وأبراهيم ارفص لحديد  
غمس ذيك الغمس زين  
واكتن فالكفار اغزين...



أصلان حامد مول المن  
الرحمة يا أعلي ولد البن  
الرحمة بعد الحمادي  
وارحم يدي وجادي  
وأرحم سعيـد  
والشيخ أكريب ما بعيد  
وأل غمس بعـد أولاد  
والأذ هو مورادي

هذه المعلومات التي يوردها هذا النص الشعري وجدناها دقيقة وواقعية عند مقابلتها بما ورد في تقارير الضباط الفرنسيين الذين كتبوا عن معركة أم التونسي<sup>16</sup>، كما توافق ما يرويه من عاصروا هذا الحدث أو من سمعوا من شارك في هذه المعركة الشهيرة التي كان منطلق الرجال الذين قادوها من الساقية الحمراء وتيرس<sup>17</sup>، وهكذا فمن خلال النماذج المذكورة تواء، يعد «لغن» من أشهر أنواع الأدب المروي، كما يعتبر الذاكرة الشعبية للبيضان (Les maures) التي سجلت تفاصيل الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية وساهمت كل طبقات المجتمع في بلورتها. فقلما نقف على نص شعري من التراث البيضاني خلو من ذكر طبقات المجتمع في بلورتها. وقلما نقف على نص شعري من التراث البيضاني خلو من ذكر مكان أو أماكن تحيل على وقائع تاريخية أو قصص أدبية أو معلومات بيئية أو اقتصادية أو ذكريات متميزة. بالإضافة إلى أن هذا النوع من الإنتاج الثقافي، ظل دائما هو الأقرب إلى وجدان الناس إن لم يشكل جزءا من حياتهم. ناهيك عن قيمة «الكلمة» و«الكلام» في هذا المجتمع، ذلك أن الكلمات تخلق الأشياء، وتعبر عن أوضاع: إنها فعل.

ونظرا لأهمية الشعر الحساني ومكانته في نفوس المتلقين فقد وظفه الفقهاء والعلماء في شرح المتون الفقهية وتفسير الأحكام الشرعية مثل ما فعل الشيخ محمد المامي بن البخاري (ت 1865م) عندما استعمل «لغن» في توضيح بعض القواعد النحوية والفقهية لعموم الناس<sup>18</sup>. كما عكس الشعر الحساني طبيعة السلطة التقليدية في المجتمع المحلي متمثلة في مكانة المشايخ، يقول محمد عبد الله ولد الفيلاي<sup>19</sup>:

مشوش محصر منظفر		ماه تحت أطبل ينتكر
شيخ حرما يندفر		وأعلي خلق أل صايط
غوث أمدهج للي أخطر		بين أمخاوف تشاوط

نستنتج من كل ما سبق أننا بصدد تراث شفهي حساني غني يستدعي العناية به تدوينا وصيانة وحماية وتثميناً، لا سيما الشعر الشعبي الأكثر انتشاراً وثراءً وتداولاً واستمرارية.

وذلك أصبح أمراً مستعجلاً نظراً لرحيل العديد من كبار السن الذين كانوا يحفظون الأشعار الحسانية ويحرصون على روايتها واستحضارها في العديد من المناسبات. ومن جهة أخرى أصبح الموروث الشفهي مهدداً بصفة عامة بفعل ثقافة الصورة وهيمنة وسائل الإعلام الحديثة على الناس، ناهيك عن تراجع الجلسات الجماعية أو «اجماع» التي كانت من التقاليد التي تمكن من التواصل ما بين الأجيال وتناقل المعارف شفهيًا، فحل محلها التلفزيون وشبكة الإنترنت والكتابات العديدة والسريعة. فكما قال عالم الاجتماع الفرنسي جورج بالانديي (Georges Balandier) «إن الأفراد أصبحوا يهتمون اليوم، بما هو قريب منهم وبمصالحهم الخاصة، ولا يتجاوز اهتمامهم إطار حياتهم الفردية»<sup>20</sup>، وهذا ينعكس على الإبداع الشعبي اليوم وعلى تقلص مجال تداوله؛ فنحن نتنقل من الجماعي (Le collectif) إلى الفردي. هذا التحول المتسارع الذي شهده المجتمع الصحراوي خلال العقود الأخيرة، ساهم في خلق قطيعة في التواصل ما بين الأجيال وأدى إلى فلتات الذاكرة الجماعية.

والظاهر أنه لا بد من وضع خطة عمل لجمع هذا المروي وذلك بنوع من الوعي التاريخي والتنظيم المنهجي، فكل قضية لها استراتيجية معينة في جمع التقاليد المروية.

ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يقودنا في البحث ما وجدناه، بل علينا أن نتبنى منهجا معيناً، وذلك بنوع من التركيز والكياسة في الجمع، فمثلاً «الغن» الحساني يتميز بأنه مروي منظوم يخضع لقواعد معينة (عروض، أوزان، موسيقى) ولذلك فهذه النصوص المنظمة لها قيمة كبيرة لأنه من السهل نقلها بدقة من جيل إلى آخر<sup>21</sup>.

ومعنى هذا التصور، أن العمل الميداني هو الأساس في مشروع جمع وتدوين التقاليد المروية، وهو ما يستدعي الإلمام الجيد بطبيعة المجتمع المحلي اجتماعياً وتاريخياً وثقافياً ولسانياً.

ومن صعوبات هذا العمل أن التاريخ لا يزال حياً عند الفاعلين المحليين، يستثمر في التدافع الاجتماعي وفي الصراع حول السلطة والغنيمة، وفي الرهانات المختلفة ما بين النخب وما بين المجموعات الاجتماعية كما أن تدوين التاريخ والكتابة هي كذلك رهان محلي ووطني كما ذهب إلى ذلك الباحثة صوفي كاراتيني (Sophie Caratini)<sup>22</sup>.

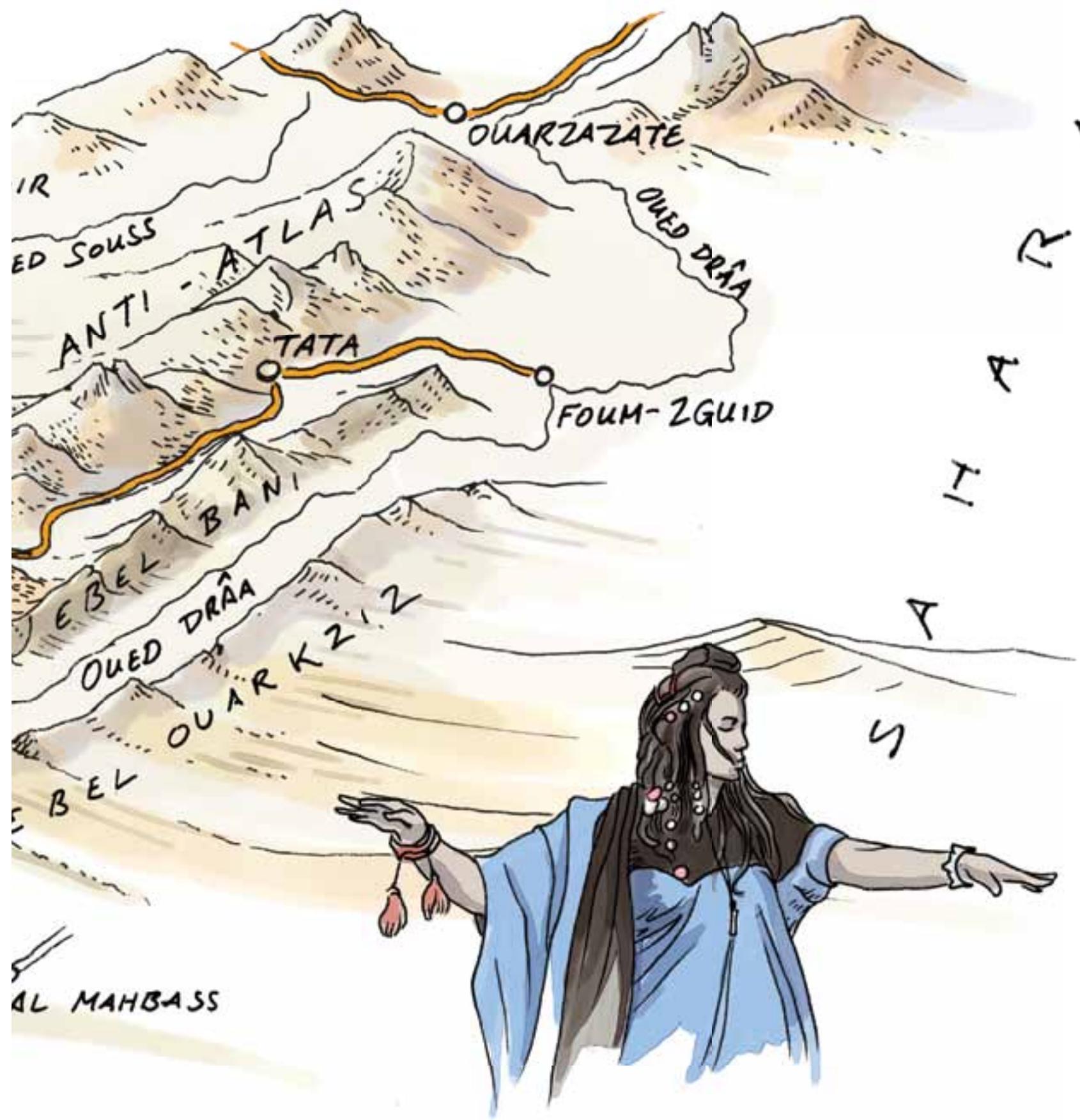
وتأتي بعد مهمة التدوين، عملية النشر التي تعد ضرورية لتطلع الهيئات العلمية والتنموية على العمل مع تصنيف تلك المصادر (Les sources) وتقديمها مع الفهرسة لتكون أمام قاعدة بيانات مفتوحة على الجميع. هذا النشر قد يتطلب تضامراً جهود متخصصين عدة من مؤرخين ولسانيين وعلماء اجتماع، وهناك نموذج لهذا العمل يتجلى فيما أنجزه المتخصصون في الأدب الإفريقي الشفهي.

هذا الموروث الشفهي يحتاجه اليوم مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة ليوظف في البرامج الدراسية وفي إنشاء متاحف جهوية، وفي إبداع مسرحيات حسانية ومسابقات أدبية وفنية وإنجاز برامج إذاعية وتلفزيونية وإقامة مواقع إلكترونية تساهم في إدماج الشباب وفي التواصل ما بينه وبين الأجيال السابقة، فالساقية الحمراء ووادي الذهب في نظرنا ليست هي «الصحراء والبحر والرمال والأخطبوط»، ولكنها الخيمة والرعي والصيد البحري التقليدي والحرف التقليدية وفنون الحكيم، والانفتاح على الآخر والمساجلات الشعرية وأساليب تهذيب وتعليم النشء والفروسية، وأجيال جديدة من الشباب، علينا أن نطلعها على موروثها المحلي ودرجة مساهمته في الموروث الوطني والإنساني، ذلك أنه لا يمكن فهم الشخصية التاريخية للمغرب دون العودة إلى الصحراء، والعودة إلى هذه الأخيرة تفيد العودة إلى المكون الثقافي الذي تعد المرويّات الشفهية ركيزة خيمته الكبيرة.





- 1 - أوريد، ح. «مرآة الغرب المنكسرة»، أبي رقرق، الرباط، 2010.
- 2 - Hampâté Bâ, A. « La tradition vivante », in : Histoire générale de l'Afrique, Unesco, Vol I, Méthodologie et préhistoire africaine, ed. J.Ki - Zérbo 1980, p.192
- 3 - نفس المرجع السابق (ص 191).
- 4 - مثل حساني معناه : « من أكثر الكلام يمكن أن يصبح وليا صالحا»، وذلك لمكانة الكلام في هذه الثقافة.
- 5 - Baroja, J.C., « La Historia entre los nomadas Saharianos », in : *Archivo del instituto de Estudios Africanos*, N° 35, Diciembre, Madrid, 1955, p.64
- 6 - شاعر حساني، من أعيان قبيلة أولاد دليم، في هذا النص يصف أماكن بمنطقة تيرس ويقارنها بأخرى جنوبها باعتبارها مناطق مفضلة للترحال والانتجاع.
- 7 - فقيه وشاعر يصف في هذا النص مناطق صحراوية صالحة للانتجاع والنزهة، انطلاقا من إقليم وادي الذهب في اتجاه منطقة تيرس زمور، حيث يذكر الجبال والأودية والهضاب والسهوب بنوع من الشوق والحنين.
- 8 - هو محمد بن أحمد مرحبا، من قبيلة أولاد اللب، في هذا النص يصف مناطق تمتد من ناحية الطنطان (رك احرام) إلى جنوب تيرس حيث تجول هناك وعرف خصائص كل تلك الأماكن ودرجة جاذبيتها.
- 9 - نفس الشاعر الشعبي السابق، ويقارن في هذا النص ما بين جنوب شرق موريتانيا وبين منطقة تيرس مبرزا تباعد تلك المناطق واختلاف بعضها عن بعض.
- 10 - Taine-Cheikh, C., « Poésie dialectale et noms de lieux », Librairie Littéraire, p.217
- 11 - أحد الشعراء الشعبيين من أولاد دليم، يتشوق في هذا النص إلى منطقة إنال حيث كانت تقيم المحبوبة التي لا يذكرها باسمها ولكن يذكر الديار التي نزلتها فيما مضى من أيام.
- 12 - من حفدة الشيخ ماء العينين، يصف في هذا النص ناقته (الزيغ) ويريد منها أن تنقله إلى حيث مضارب خليلته في بوادي تيرس الشهيرة.
- 13 - يتحسر الشاعر هنا على ما مضى في زمن البداوة من تعايش جماعي وانصهار ثقافي في عكس التبدلات التي حصلت في العقود الأخيرة بالمدن وتنامي الفردانية.
- 14 - هنا يقارن الشاعر ما بين مناطق واد نون والساقية الحمراء ووادي الذهب من حيث المظاهر الطبيعية.
- 15 - شاعر شعبي من قبيلة أولاد دليم عاصر معركة أم التونسي، حيث يصف هذه الحادثة ويذكر بعض الذين استشهدوا فيها أو جرحوا دفاعا عن الوطن.
- 16 - مثل :
- La Fuente, D., « Algo sobre Río de Oro », Madrid, 1946.
- Loyewski, O., « Rezzous sur l'Adrar », T.G.G, Paris, 1942.
- 17 - دحمان.م.، «المجاهد إبراهيم السالم ولد ميشال»، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007
- 18 - أنظر « ديوان الشعر الشعبي » للشيخ محمد المامي. نسخة الأستاذ محمد البرناوي. انواكشوط.
- 19 - أحد أعلام الثقافة بمنطقة تيرس. أورد هذا النص :
- البرناوي، م.أ.، الخلاف والاختلاف والاستخلاف : دراسة في العرف والشرع والسلطة السياسية في الجنوب الغربي للغرب الإسلامي بداية القرن 19. المطبعة السريعة، انواكشوط 2010 (ص.363).
- 20 - Balandier, G. « Essai d'identification du quotidien » in : *Cahiers Internationaux de Sociologie*, Vol. LXXIV, Paris, 1983, p.8.
- 21 - مثل حساني معناه أن الشعر الحساني يمكن أن يلحقه تحريف من طرف من يرويه.
- 22 - Caratini, S. « Les enfants des nuages », Seuil, Paris, 1993.



OUARZAZATE

ANTI-ATLAS

OUED DRAA

TATA

FOUM-ZGUID

BANI

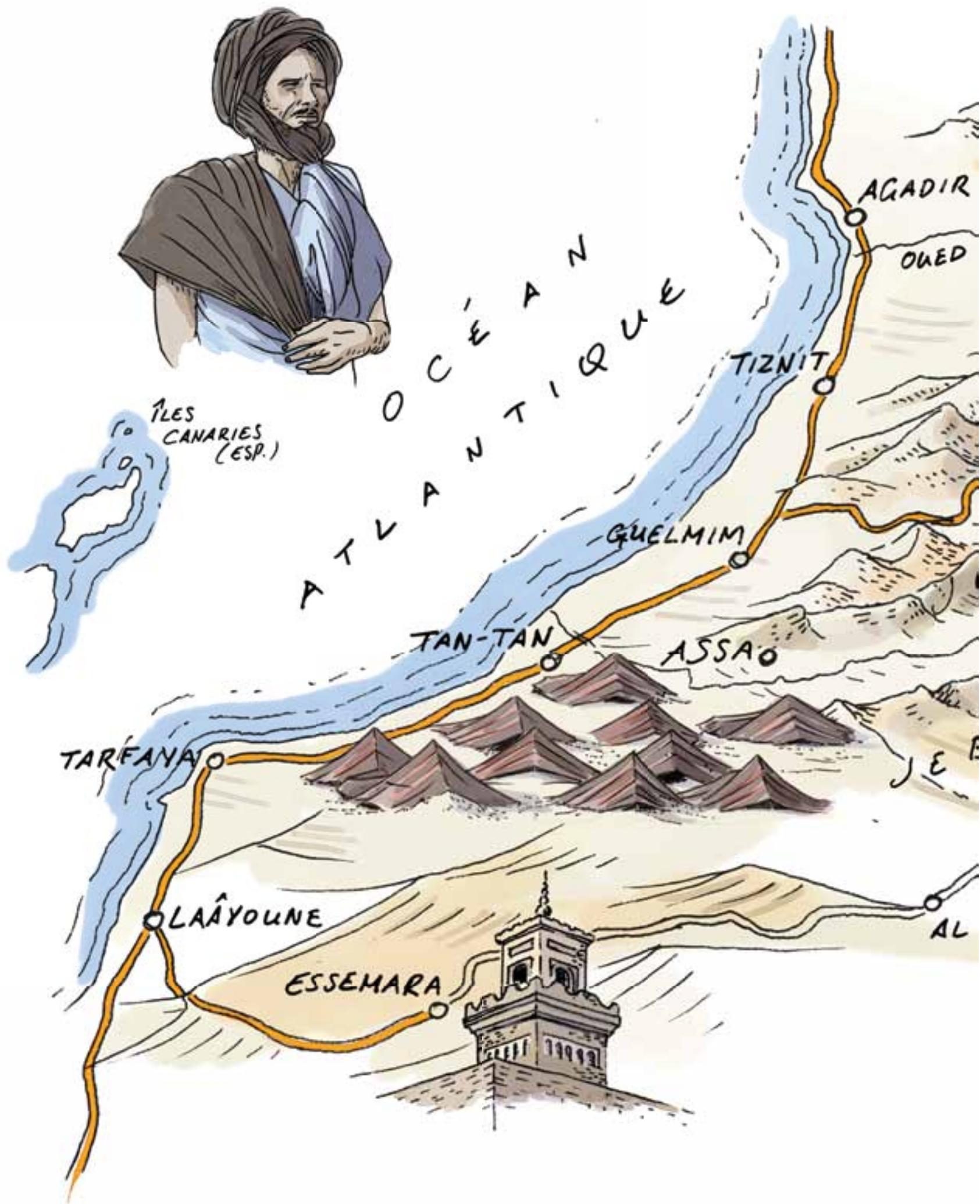
OUED DRAA

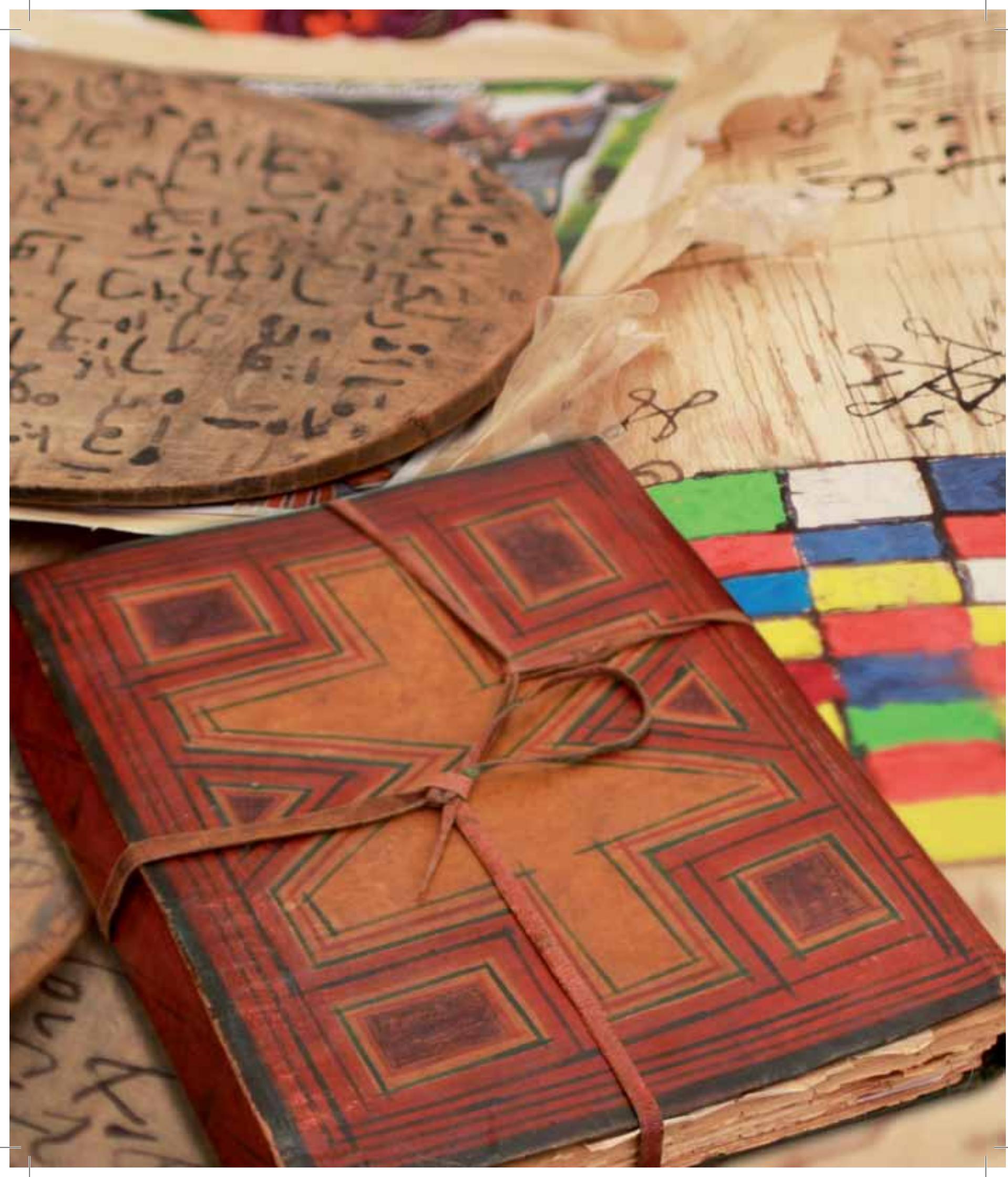
OUAR KZIZ

ED SOUSS

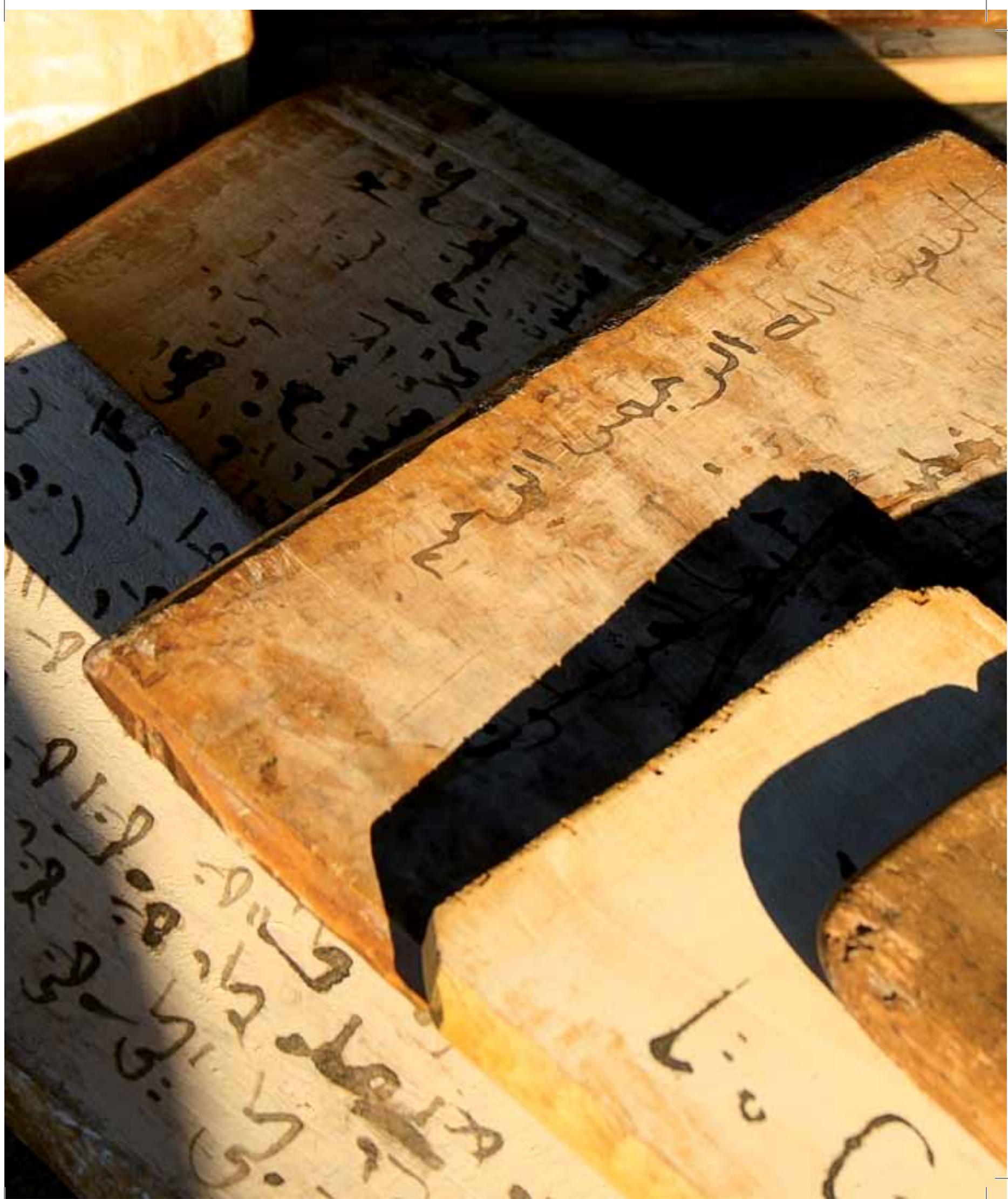
AL MAHBASS

S  
A  
I  
R  
A





# المصادر والأرشيف



# الفضاء الحساني والتراكم المعرف

سيدي احمد ولد احمد سالم

## التأليف في الفضاء الحساني: التعريف والنشأة والمكان

نعني بالفضاء الحساني مجالا ترايبا متسعا من ميزاته الأساسية تداول ساكنته اللهجة الحسانية فضلا عن تقاربهم في ظواهر أخرى اجتماعية وتاريخية ودينية. ويجمع هذا الفضاء، فضلا عن موريتانيا، أقاليم المغرب الجنوبية بالإضافة إلى منطقة تيندوف في الغرب الجزائري وإقليم أزواد في شمال مالي. وقد أطلق بعض المؤلفين قديما على هذا الفضاء «بلاد شنقيط»، يقول صاحب الوسيط معرفا ببلاد شنقيط: «ويحد هذا القطر شمالا الساقية الحمراء وهي تابعة له، وجنوبا قاع ابن هيبه، وهو تابع له أيضا، وغربا بلاد السينغال المعروفة عند أهل شنقيط بأندر، وهي خارجة عنه»<sup>1</sup>.

## التأليف بالفضاء الحساني

عرفت القرون الثلاثة الماضية إنتاجا ثقافيا متميزا فيما نطلق عليه الفضاء الحسانيّ ذا الطابع البدوي. ولا يمكننا تجاوز هذه الملاحظة دون التنويه بأن هذا الإنتاج الثقافي يترك الانطباع أن نظرة المؤرخ الجليل ابن خلدون حول توحش البدو وبعدهم عن التأليف ليست على إطلاقها، خصوصا عند حديثه عن العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه، وتقريره أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة<sup>2</sup>. فهذا الفضاء الصحراوي كان مهدا لفقهاء كبار وعلماء أجلاء ومدارس أو ما بات يعرف بالمحاضر، وهي مدارس تقليدية جامعة، نشطت نشاطا لا شبيه له وتخرج منها الكثير من الفقهاء واللغويين والشعراء، وأسست مكاتب كبيرة من المخطوطات النادرة وأنتجت مؤلفات عديدة<sup>3</sup>.



نموذج من المخطوطات  
الناذرة في الصحراء

من مميزات هذا التراث الحساني أنه تراث بدوي يرتبط إنتاجه بالنسق الاجتماعي السائد حيث إن فئة الزوايا من بين فئات المجتمع البيضاني هي التي كانت تحتكر التعلم والتعليم والتأليف، وهي في ذلك إنما تشكل امتدادا لحركة المرابطين التي كرس انتشار الإسلام ورسخت تدريس المعارف العربية الإسلامية بهذه المنطقة، وجمع المكتبات المخطوطة، في حين كان للفئات الأخرى أدوار لا تقل أهمية في تعاطيها مع وظائف أخرى حددها لها هذا المجتمع البدوي.

ومن مميزات هذا التراث، خاصة في جانبه التألفي، وهو الذي يعنينا هنا أكثر من غيره، أن أغلبه يوجد في مدن صحراوية شكلت خلال القرون الماضية محطات ومواقف للتجارة عبر الصحراء ونعني: ولاتة وشنقيط وودان وتيشيت والتي ظهرت ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين.

وفي حين لا يزال تراث ولاتة وتيشيت من مؤلفات ومخطوطات بحاجة إلى عناية أكثر فقد حظيت مكتبتا شنقيط وودان ومخطوطاتهما بحظ لا بأس به من التعريف، وإن كانت وضعية مكتبات ودان المخطوطة أصعب من مثيلاتها في شنقيط لما تعرضت له ودان من هجرات سكانية وبما عانتها من تصحر أفقدها مع الزمن الكثير من حيويتها فتركها من تركها متجها نحو تيشيت، ولذلك انتقل الكثير من ملاك المخطوطات من ودان إلى تيشيت ونقلت تأليف ودانية نحو هذه المدينة. ففي منتصف القرن التاسع عشر وقع تنافس حاد بين بعض السكان حول

إمامة مسجد المدينة، ومن ذلك كتاب موهوب الجليل على مختصر خليل، للفقير سيدي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الوداني الحاجي كان حيا سنة 933هـ / 7-1526، المترجم له في كتاب فتح الشكور<sup>4</sup>، وهو أقدم مؤلف موريتاني وتوجد منه نسخة في مكتبة أهل داده بن يده بتيشيت أو مكتبة الأوقاف وأخرى في مكتبة أهل بوي الشريف بتيشيت. ومن أمثلة المكتبات الودانية التي هاجرت نحو تيشيت مكتبة أهل الناجم وهي أسرة من إدو الحاج، وتمتاز هذه المكتبة بكثرة وثائقها. كما توجد مكتبة الرحالة العالم المؤلف الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني (توفي في رمضان 1265هـ / يوليو 1849م) في مدينة شنقيط. وقد اشتهرت المدينة بمؤلفيها المتميزين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كابن طوير الجنة وشيخه أحمد سالم (توفي 1239هـ / 1823م) والسالك (1245هـ / 1829م) ابني الإمام الحاجيين، ومحمد الأمين بن حمه ختار وأخوه بانمو والشيخ الأمين بن الطالب بن اخطور...

أما مدينة شنقيط فمن أعرق المدن الموريتانية وبها من المؤلفين والتأليف الكثير فقد أنجبت من بين من أنجبت الطالب محمد بن المختار بن بلعمش العلوي (توفي 1103هـ / 1691م)، وأحمد بن البشير الغلاوي (توفي 1276هـ / 1859م) وسيدي محمد بن حبت الغلاوي (1288هـ / 1871م) والشيخ بن حامي الغلاوي (1318هـ / 1900م). وتعتبر مكتبة أهل حبت بشنقيط من أبرز وأهم مكتبات المخطوطات والتأليف في موريتانيا من حيث التنوع والأهمية وكثرة الوثائق، فهي تضم 631 عنوانا مع أن الرواية الشفهية تذكر أن عدد ما فيها بلغ في عهد مؤسسها سيدي محمد 1400 مخطوط وأصبح العدد في عهد ابنه الشيخ (1299هـ / 1882م) 1300 مخطوط.

وأقدم محاولة علمية لجرد وفهرسة وتعريف مخطوطات شنقيط كانت سنة 1950 حين نشر المختار بن حامدن وألبير كريس موقالا بالفرنسية في نشرة المعهد الوطني لإفريقيا السوداء عن مكتبات شنقيط وفي هذا المقال معلومات موجزة ومفيدة حول أنماط المخطوطات. كما أن فيه ملحقا أعده ابن حامدن وهو عبارة عن جرد ببليوغرافي للمخطوطات الشنقيطية يركز على الجهة المالكة للمخطوط وعدد المخطوطات التي بحوزة هذه الجهة أو تلك وملاحظات عامة<sup>5</sup>.

ولا يمكن أن نتحدث عن المكتبات الخاصة التي تزخر بالمؤلفات الموريتانية دون الالتفات إلى مكتبة أهل الشيخ سيديا في مدينة بتلميت، فهي وإن كانت غير موجودة في المدن الموريتانية القديمة فإنها توجد في منطقة الترابزة وقد أسسها الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة الأبييري (توفي 1286هـ / 1868م)<sup>6</sup>.

وفي سنة 1966، وبعد إنشاء المكتبة الوطنية بنواكشوط، قام المؤرخ ابن حامدن أيضا ومعه خبير من اليونسكو يدعى آدم هيموفسكي، وكان معارا من طرف المكتبة الملكية باستوكهولم، بوضع جرد سميها: «الفهرس المؤقت للمخطوطات المحفوظة في موريتانيا». وقد راجعه هيموفسكي سنة 1968. وقد استطاع المؤلفان حصر 2054 تأليفا مخطوطا لحوالي 394 مؤلفا موريتانيا<sup>7</sup>. وأقدم موريتاني مذكور بهذا الفهرس هو اند عبد الله بن سيدي أحمد بن محمد الغيث المحجوبي الولاتي المتوفى سنة 973هـ / 1530م وآخر المؤلفين الموريتانيين المذكورين به هو محمد يحيى بن سليمة اليونسسي النعمايوي ليلة الإثنين 22 ذي الحجة سنة 1354هـ، الموافق 6 مارس 1936م. وهذا العمل يمكن أن نسميه دليل المؤلفات الموريتانية المخطوطة.





ولابن حامد محاولة أخرى وهي قائمة المخطوطات الفقهية الموريتانية حيث حدد في هذه القائمة أربعة عناصر هي اسم الكتاب واسم مؤلفه وتاريخ وفاته (إن كان قد توفي) ثم يذكر مظنة وجود المخطوط. وقد أعد ابن حامد هذه القائمة في الستينات إلا أنها لم تر النور حتى سنة 1981 حين نشرها الدكتور محمد المختار ولد اباه في كتابه «دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا».<sup>8</sup>

وعلى المستوى الرسمي يعود الاهتمام بالتأليف والمخطوطات الموريتانية إلى عهد قريب، فأول جهد علمي لجمعها وصيانتها وفهرستها لاحقاً كان محاولات المعهد الموريتاني للبحث العلمي المتأسس سنة 1975 في نواكشوط.

يمكن أن نقول إن أغلب هذه التأليف الموريتانية موجودة بيد أسر مؤلفيها في مكاتب خاصة وفي بعض الأحيان توجد في مؤسسات رسمية كالمعهد الموريتاني للبحث العلمي ومعهد الدراسات الإسلامية أو بعض المؤسسات الوقفية.<sup>9</sup> وفي سنتي 1988 - 1989 قام سيدي أحمد بن أحمد سالم وشارل استيوارت وأحمد بن محمد يحيى بإعداد فهرس عام لمخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي. ولم ينشر بعد هذا الفهرس إلا أنه توجد منه نسخة إلكترونية ضمن مشروع المخطوطات العربية في غرب إفريقيا الذي أعدته جامعة إلينوا الأمريكية<sup>10</sup> وتبلغ محتويات الفهرس 3143 عنواناً جمعت من 72 مكتبة خاصة أغلبها من منطقة الترابزة.

ويعد هذا العمل امتداداً لمجهود قام به استيوارت قبل ذلك في سنتي 1987 و1988 حين أنجز فهرسة مكتبة أهل الشيخ سيدي الموجودة ببوتلميت (والتي سبق أن اهتم بها الأستاذ لويس ماسينيون في بداية القرن العشرين). وقد زاد هذا الفهرس قليلاً عن 2000 مخطوط. وعنوان هذا الفهرس العربي الإنجليزي الذي أعده الأستاذ شارل استيوارت هو (فهرس مكتبة هارون ولد الشيخ سيدي ببوتلميت). ولم ينشر هذا الفهرس.



مكتبة خاصة لخطوط قديمة  
بشنقيط (موريتانيا)



مخطوط في حاجة للصيانة

وقد أعد الباحث محمد بن الداه بن ايدة فهرسا لمخطوطات مدينة ولاتة ولم يظهر بعد حسب علمي. كما قام أحمد بن محمد يحيى بإعداد فهرس آخر للمخطوطات الموجودة بمكتبات تيشيت في صيف سنة 1997. وقد تم بالفعل هذا الفهرس وكان بتمويل من اليونسكو إلا أنه لم ينشر كذلك حسب علمي. وقد قام مركز جمعة الماجد بدبي بالإمارات العربية المتحدة، ضمن برنامجها الخاص بترميم وتصوير المخطوطات العربية، بإنشاء مبنى بتيشيت لحفظ المخطوطات وترميمها وتصويرها. وقد أحصى هذا المركز أكثر من 4 آلاف مخطوط بهذه المدينة. بدأت سنة 1981 مع مشروع للميكروفيلم أي تصوير المخطوطات على شكل أفلام؛ حيث قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي بالتعاون مع جامعة توبنغن بألمانيا بتحضير مكتبة للميكروفيلم وإعداد فهرس لبعض المخطوطات الموريتانية التي تم تصويرها وتحميمها. وقد أشرف الباحث الألماني ألريخ رُوبشتوك (Ulrich Rebstock) بالتعاون مع الأستاذ أحمد بن عبد القادر والأستاذ راينر أوسوالد بإنجاز فهرس من 2603 مخطوطا مأخوذا ومصورا من 100 مكتبة موريتانية من مختلف مناطق البلد. وقد استمر هذا المشروع الموريتاني الألماني أربع سنوات حيث انتهى سنة 1984. وقد تمت طباعة جزء أول من هذا الفهرس بالعربية تحت عنوان «فهرس المخطوطات العربية بموريتانيا» وصدر ببيروت سنة 1988 وفيه ذكر مائة مخطوط مع ذكر مختلف العناصر المتعلقة بكل مخطوط.



رَمَدٌ يَمْشِي عَلَى الْغُرُفِ وَالْمَلِيحَةُ  
يَمْشِي بِهَا مِنْ يَشْرِبُهَا وَيَقْرَأُ بِهَا  
عَلَى الْغُرُفِ مَعْرُوفَةٌ الْغُرُفِ وَالْمَلِيحَةُ  
لَمْ يَمْشِ بِهَا إِلَّا كَسْبَهُ كَسْبُ  
الْمَلِيحَةِ وَمَا دَعَا الْحَبِيرُ بِرَأْسِ  
وَأَنَّ الْأَرْضَ كَمَا فِي كَرَاهِيهَا  
سَمَوَاتٍ وَالْأَرْضُ فَلَئِنْ لَمْ  
لَا نَفْسٌ مِنْهُمْ تَبْعُ وَلَا خُرُفٌ  
وَالْمَلِيحَةُ وَالْمَلِيحَةُ

وقد أصدر الأستاذ أريخ رُوبشتوكُ الفهرس كله سنة 1989 باللغة الألمانية وهو تحت عنوان: «جرد المخطوطات العربية بموريتانيا»<sup>11</sup>، وكان من نتائج المشروع الموريتاني الألماني أن تم تزويد المعهد الموريتاني للبحث العلمي وجامعة توبنغن بألمانيا بمكتبة على الميكرو فيلم لجميع المخطوطات المذكورة في هذا الفهرس.

وتم سنة 2002 في إطار مشروع صيانة و ترميم التراث الثقافي الموريتاني الذي يموله البنك الدولي بجرد ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وستة وسبعين مخطوطا موزعة على ست مائة وخمس وسبعين مكتبة منتشرة في 289 موقعا في 91 بلدية موريتانية من ضمن 48 مقاطعة.

ويأتي كتاب الباحث الألماني أريخ روبشتوك: «تاريخ الآداب البيضانية» بأجزائه الثلاثة كمحاولة هامة للتعريف بمؤلفات هذا الفضاء الحساني، ونرجو أن يترجم هذا النص المميز من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية حتى تتسع دائرة الاستفادة منه<sup>12</sup>.

### معجم التأليف والمؤلفين في الفضاء الحساني

يأتي هذا المعجم ليكون خامسا لأربعة معاجم أو مجلدات أعدها الباحث والمستشرق هانويك بالتعاون مع بعض الباحثين والأساتذة بالمناطق التي شملتها المعاجم، وقد نشرتها دار «بريل» العريقة التي تتخذ من مدينة لايدن بهولندا مقرا لها، والمجلدات الأربعة هي:

المجلد الأول يغطي شرق إفريقيا مركزا أساسا على السودان ومنتبعا التأليف والمؤلفين في هذا البلد من نشأتها حتى 1900. ويضم اثني عشر فصلا<sup>13</sup>.

يتعامل المجلد الثاني مع الثقافة العربية في أفريقيا الوسطى أي المنطقة الواقعة بين السودان ومالي. ويخصص الجزء الأكبر من العمل لنيجيريا التي أنتجت ثقافة عربية إسلامية ضخمة ومتنوعة. كما يتعرض لهذه الثقافة في تشاد والكاميرون والنيجر.<sup>14</sup>

أما المجلد الثالث فيتناول الثقافة الإسلامية تأليف ومؤلفين في شمال شرق أفريقيا وما أنتج فيها بالعربية وباللغات المحلية العديدة التي منها الأمهرية والصومالية والتيجرية... ويغطي المجلد إريتريا وجيبوتي وإثيوبيا والصومال<sup>15</sup>.

المجلد الرابع ويتناول الإنتاج العلمي والأدبي للمؤلفين ومؤلفاتهم في غينيا كوناكري ومالي، والسينغال والنيجر، وغانا<sup>16</sup>.

أما هذا المجلد الخامس فيقوم بإعداده كل من الباحث شارل استوارت ومعد هذه الورقة بالتعاون مع بعض الباحثين من المغرب والسينغال وموريتانيا وأخص أساسا الباحث الدكتور محمد النوحى وأبو بكر امينغ وغيرهما...

يهدف المشروع إلى إنجاز معجم عام للمؤلفين وتأليفهم في الفضاء الحساني وهو موضوع متسع. ومع أن هناك إشارة مفيدة ذكرها الباحث الفرنسي المسلم فينسان مونتني (Vincent Monteil) في مقال له بعنوان «المخطوطات التاريخية العربية الإفريقية» منشور بمجلة المعهد الأساس لإفريقيا السوداء (IFAN) إلى أنه التقى بابن حامد وهامبوفسكي بنواكشوط سنة 1965 وذكر له أنهما يقدران ما ألفه الموريتانيون من تأليف ما زالت مخطوطة بثلاثة آلاف (دون عد الدواوين الشعرية)<sup>17</sup> وقد تبين لنا أن هنالك عددا أكثر من ثلاثة آلاف مؤلف.

لا نعرف بداية التأليف في هذا الفضاء وإن كنا نعلم أن حركة التأليف متأخرة بالنسبة لغيرها من حركات التأليف في المنطقة المغاربية، لكن الباحثين متفقون على أن هذا الفضاء عرف مع حركة المرابطين وداعيتها الشهير عبد الله بن ياسين (توفي 451هـ / 1056م) أول اهتمام بالتعلم والتعليم وهو ما سيطلق عليه لاحقا في هذه المنطقة «المحظرة». ولن نصل إلى القرن الحادي عشر الهجري حتى نجد ذكرا لتطور معرفي وثقافي في شنقيط حيث يذكر مؤرخو الثقافة الشنقيطية مجيء شخصية معرفية جلييلة تدعى «الشاب الشاطر» لمدينة شنقيط، ويبدو أنه قدم لهذه الحاضرة حاملا الكثير من الكتب الأندلسية والمغاربية لم تكن معروفة في الفضاء الحساني. ومنذ ذلك التاريخ تأسست التقاليد المعرفية تعليما وتعلما وتأليفا. ينبغي أن لا ننسى أن من بين محتويات مكتبة أهل حبت بشنقيط نسخة قديمة من كتاب «تصحیح الوجوه والنظائر من كتاب الله العزيز» المنسوب للحسين بن عبد الله العسكري (395هـ / 1005-6م) وهو خال أبي هلال العسكري (توفي 400هـ / 1009م)، وقد نسخ سنة 480هـ / 1087م بغرناطة. كما توجد بنفس المكتبة نسخة رائعة من مقدمة ابن رشد (520هـ / 1126م) منسوخة بغرناطة سنة 736هـ / 1335م.

تدور تأليف هذا الفضاء حول مختلف المعارف العربية الإسلامية التقليدية. ويلخص المستشرق المختص في الثقافة في هذه المنطقة جون هانويك اهتمامات مؤلفيها بقوله: «بالمعنى العام يمكن أن نصنف الكتابات العربية في غرب أفريقيا تحت أربعة عناوين: التاريخي؛ والتربوي؛ والتعبدي؛ والسجالي»<sup>18</sup>.

وهناك تصنيف غير بعيد عن الصواب وهو أن أكثر هذه التأليف منصب على الفقه والنحو والتصوف بشكل خاص، فهي الميادين المعرفية التي يمكن أن نسميها: أمهات المعارف بالفضاء الحساني. كما أن ثلاث شخصيات شنقيطية كان لها الدور المحوري من حيث نوعية التأليف في هذه المجالات الثلاثة ومن حيث التأثير في المؤلفين اللاحقين وهي: المختار بن بونا الجكني (1220هـ / 1805) في النحو، والشيخ سيدي المختار الكنتي (1226هـ / 1811م) في التصوف وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (1817 / 1233). وقد ظلت حركة التأليف تتوسع وتنتشر أفقيا منذ القرن الثامن عشر لتزداد في التاسع عشر وفي القرن الماضي باطراد.

واعتمادا على مراجعنا المذكورة في نهاية هذه الورقة فقد جردنا لائحة مطبوعة على برنامج «أكسيل» (Excel) تضم ما يناهز الألف وخمسمائة مؤلف، وهذه اللائحة هي مدونتنا الأساسية التي نعمل عليها لإعداد المعجم.

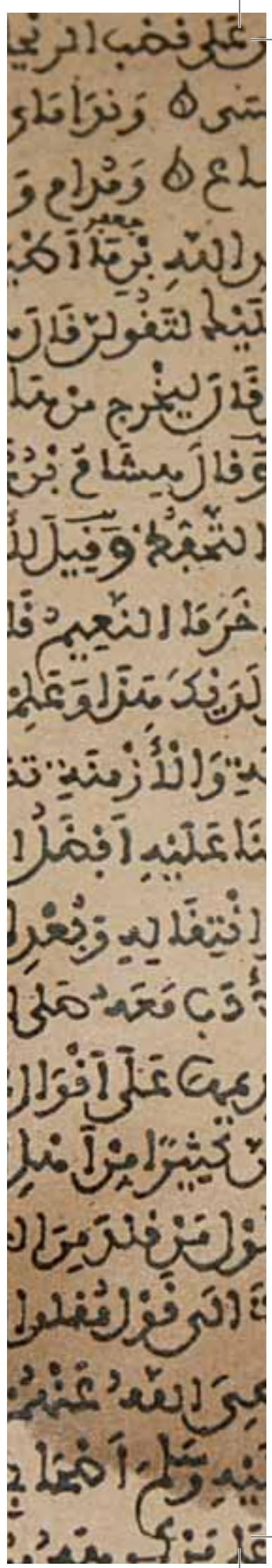
قمنا بتهيئة موقع إلكتروني خاص وطورنا له برنامجا بمساعدة المهندس محمد ولد البو، وتقوم فكرة الموقع على تنظيم قاعدة المعلومات التي بين أيدينا وهذا هو عنوان الموقع <http://westafricanmanuscripts.org/book/index.php>.

ويخصص البرنامج لكل مؤلف صفحة توجد بها أربعة عشر مدخلا في الواجهة العربية ونفس المعطيات في الواجهة الإنجليزية وهي:

الإسم، أسماء بديلة، اللقب، النسبة، المنطقة، الشيوخ، التلاميذ، السيرة الذاتية، المصدر، التوثيق، تاريخ الميلاد، تاريخ الوفاة، تواريخ وفاة بديلة، فترة نشاط المؤلف.

وفي صفحة كل مؤلف خانة تحيل على صفحة داخلية خاصة بمؤلفاته وعند فتحها نجد تنظيما لقاعدة المعلومات المتعلقة بالتأليف مكونة من ستة مداخل في الواجهة العربية ونفس المعطيات في الواجهة الإنجليزية وهي:

العنوان، عناوين بديلة، الموضوع، مكان وجود المخطوط، وصف، مؤلفات أخرى.



## كيفية إعداد المعلومات الخاصة بكل مدخل من مدخلات قاعدة المعلومات:

نقوم بجمع العناصر المذكورة أعلاه عن كل مؤلف ويكون ذلك في حدود 250 إلى 400 كلمة بحسب ما هو متاح من معلومات.

عند ذكر تأليف أي مؤلف ينوه ببعض أبرز إنتاجاته مما له شيوخ في المحاضر الشنقيطية.

تتم الاستعانة غالباً بمجموعة من المصادر مثل فهارس المخطوطات الموريتانية التي أشرنا إليها، مثل عمل الأستاذ الألماني ألريخ روبشتوك والموقع الإلكتروني لفهارس الأستاذ الأمريكي شارل استيوارت فبفضلها يمكن أن نضع اليد على أهم المؤلفين ومؤلفاتهم.

الاستفادة من جميع ما هو متاح كموسوعة المؤرخ المختار بن حامد والدراسات الجامعية التي أعدها بعض الباحثين الجامعيين في المدرسة العليا للتعليم بنواكشوط، جامعة نواكشوط أو المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية أو بعض الجامعات المغربية والعربية... أو ما تم تأليفه خارج هذه الأطر والمؤسسات على شكل مبادرات شخصية مما قد يفيد هذا العمل ويكمل ما فيه من ثغرات.

جمعنا حتى الآن 426 نموذجا من خطوط هؤلاء المؤلفين ومازلنا في طور جمع هذه النماذج وسنقوم بإضافتها لاحقا عندما يتم تقديم النص للنشر الورقي.

## التأليف في الفضاء الحساني والتفاعل الثقافي في المنطقة

تعكس حركة التأليف في المجال الحساني، لو نظرنا إليها في سياقها العام، تفاعلا حيويا مع مجالها المغربي شمالا والإفريقي جنوبا. وسأقف على بعض النماذج التي توضح الدور المغربي بشكل خاص في التواصل والتأثير في الفضاء الثقافي الحساني وأعني بالدور المغربي عناية السلاطين والملوك العلويين بالجوانب الثقافية والعلاقات التي كانت تربطهم بهؤلاء المؤلفين وتلك المحاضر، فضلا عن علاقات العلماء بالمغرب بنظرائهم في هذا الفضاء الحساني.

فالزاوية الكتبية المخترية بأزواد كانت على اتصال مستمر بالبلاط العلوي الذي كان من مصادر تزويد هذه الزاوية بالكتب. وكنت قد أشرت آنفا إلى دور الشيخ سيدي المختار الكنتي (1226هـ / 1811م) في الحركة التأليفية في الفضاء الحساني، ولدي رسالة وجهها هذا الشيخ الكنتي للمولى السلطان محمد بن المولى عبد الله (توفي سنة 1204هـ / 1790م). وكان الشيخ سيدي المختار يستقبل سنويا القوافل المحملة بالكتب من حواضر المغرب<sup>19</sup>. كما نجد ابنه وخليفته في الزاوية الكتبية الشيخ سيدي محمد (1241هـ / 1825م) يرأس السلطان سليمان بن محمد (ت سنة 1238هـ / 1792م). وعندني رسالة وجهها الشيخ سيدي المختار الصغير بن الشيخ سيدي محمد (1263هـ / 1846م) للمولى السلطان عبد الرحمن بن هشام (توفي 1859م)، وقد قمت بتحقيق هذا النص ولم ينشر بعد. وفي هذه الرسالة ذكر للكتب والتأليف الشنقيطية التي كان المولى عبد الرحمن مهتما بها. ولا تنتهي علاقة الزاوية الكتبية عند هذا الحد بل نجد الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد (توفي في رمضان 1282هـ / فبراير 1866م) يرأس المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن (توفي 1873). فهناك أربعة أجيال من مؤسسي الزاوية الكتبية عاصروا أربعة سلاطين علويين وراسلوهم وكان لتلك المراسلات تأثير هام حيث كان السلاطين يبعثون مكاتبات لهؤلاء الأعلام الشناقطة.





وفي أيام المولى عبد الرحمن حل الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة الأبييري (توفي آخر يوم من سنة 1284 هـ / الموافق 23 أبريل 1868 م) بمراكش، والشيخ سيديا من كبار الشخصيات العلمية والصوفية في بلاد شنقيط. وقد نال حظوة عظيمة عند السلطان<sup>(20)</sup>. وقد جاء من المغرب بمكتبة تعتبر من أكبر المكتبات في المنطقة وقد تحدث عنها الشعراء، يقول بابه بن أحمد بيبه العلوي:

أضاءت بلاد الغرب لما أتيتها  
وأصبح يشكو بعد ترحالك الغرب  
وجئت بكتب يُعجز العيس حملها  
وعندك علم لا تحيط به الكتب

وقد حل العالم الجليل سيدي عبد الله بن الحاج بن إبراهيم العلوي (توفي ليلة الجمعة 28 ربيع الثاني 1233 هـ الموافق 6 مارس 1818 م) أثناء رحلته الحجبية التي استغرقت سبع سنوات، منها ما قضاه في الحجاز ومنها ما كان بمصر ومنها ثلاثة أعوام بالمغرب. وقد توثقت صلته يومها بالسلطان المغربي المولى سيدي محمد بن عبد الله العلوي. وقد ذكر سيدي عبد الله في كتابه «نور الأقياح في شرح فيض الفتاح» جانباً من علاقته بالسلطان المغربي قائلاً: «وكان أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله بن أمير المؤمنين إسماعيل لا يتطير إذا سمع ما فيه الطيرة حتى إنني كنت ليلة معه في المحاضرة في علم العروض حتى ذكرت له الخزم بالزاي، فذكره ذلك بعض حذاق أهل فاس بذلك الفن؛ فبعث إليه فسأله عن الخزم فصار يستشهد للسلطان بقوله:

اشدّد حيازيمك للموت  
فإن الموت لا يقيك

فجعلت أرشده إلى شاهد غير ذلك ولم يطاوعني ولم يتفطن لما داخله من رعب الملك. ففطن لي السلطان فقال لي: خل عنه، ولم يتغير عن ذلك لقوة يقينه بالله تعالى». <sup>21</sup>

ويذكر سيدي أحمد بن أسمهو الديباني (توفي 1971) في كتابه «ذات ألواح ودرس» (مخطوط) أن المولى إسماعيل أهدي قبيلة أولاد ديمان خزانة من الكتب، ويضيف ابن اسمه: «وقد حدثني الأستاذ محمد سالم بن الما (ت. 1383هـ / 1964م) أنه رأى بعض تلك الكتب بعينه وعليها طابع سلطان المغرب». <sup>22</sup>

وفي نفس السياق يذكر ابن اسمهو الديباني علاقة ثانية بين هذه القبيلة وبين سلاطين المغرب حيث يقول: «وكذلك أهدي لهم حفيده محمد بن عبد الرحمن بخزنة». <sup>23</sup>

وينوه الرحالة الفقيه الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني (توفي في يوليو 1265هـ / رمضان 1849م) في رحلته: «رحلة المنى والمنة» بلقائه بالسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام وكيف أمر بتزويده بما يريد من الكتب. <sup>24</sup>

وكان لفقهاء المغرب وأشياخه دور مشهود وتفاعل مع الحركة الثقافية في هذا الفضاء. فتذكر كتب التاريخ أن العالم الشنقيطي محمد سعيد بن تكدي اليدالي درس في «تافيلالت بجنوب المغرب خلال القرن العاشر الهجري، وعاد إلى منطقة القبلة (الجنوب الغربي الموريتاني) فنشر النحو هناك حتى لقب بالنحوي». <sup>25</sup>

وقد رحل سيدي عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي (توفي 1145هـ / 1732م) إلى الشيخ سيدي أحمد الحبيب السجلماسي فأخذ عنه القراءات العشر وعند عودته كثر الأخذون عنه وصار إمام المقرأ ببلاد شنقيط. وقد عاد الشيخ التنواجيوي بخزانة نفيسة كما يقول البرتلي في فتح الشكور. <sup>26</sup>

وتشكل المؤلفات المغربية في مختلف الفنون ركناً أساسياً في المحاضر في الفضاء الحساني: فكانت إلى جانب تدريسها تشرح وتختصر وكانت إذن باختصار محرراً هاما للتأليف. من ذلك «النجوم الطوالع» لابن بري الرباطي والدرر السواطع للشوشاوي وهما كتابان في المقرأ.

ويعتبر «نظم المنشد المعين في الضروري من علوم الدين» المعروف باختصاراً بابن عاشر طليعة المقررات المدروسة في المحاضرة. ويعتد في شرحه على ميارة الكبير والصغير وعلى حاشيتي الوزاني وابن حاج حمدون على ميارة.

واعتمد فقهاء الفضاء الحساني على شروح المغاربة لمختصر خليل مثل: شرح التاودي وابن غازي والرهوني والبناني وكنون... والأمر نفسه ينطبق على الدراسات اللغوية والمنطقية...

كما كان مشرب التصوف في هذا الفضاء صادراً عن شيوخ وزوايا في المغرب خصوصاً ما يتعلق بالشاذلية ومصدرها الزاوية الناصرية بتامكروت أو القادرية أو التجانية التي مصدرها الشيخ سيدي أحمد التجاني دفين فاس.

يتضح من كل هذا أن مصدر اقتناء الكتب والروابط الصوفية وحركة التأليف بالفضاء الحساني كان على علاقة وثيقة بالمغرب سلاطين وفقهاء وأشياخا.

رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اجاز في اخر الفريضة واجتهد الصدقة **ونما** اجتهد في الصدقة  
الآن قد قال ما عرفت من تصدق في عتبات قال ما ليد قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
العلماء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما عرفت من تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عرفت من تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
وقال تصدق في عتبات قال ما عرفت من تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات

باب الصدقة

عنه صلى الله عليه وسلم  
وتصدقوا في الصدقة

**باب صدقة الامر على ولدها الايتام**  
**نما** انما تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات

**باب النفقة على الاهل صدقة**  
وقال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات

**باب صلة الامر المسكين**  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات

باب صلة الامر المسكين  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات

**باب الصدقة عن امر الهيتنة**  
**ونما** انما تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات  
قال تصدق في عتبات قال لا لا تخشع في الصدقة بل عرفت من عتبات

الصدقة

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا  
 وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَاهِبِينَ وَلَا تَحْتَسِبُ  
 جُنُودَ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ  
 وَمَا أَنْزَلْنَا لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ قَدَمَيْهِمْ وَمِنْ  
 تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِمَّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ  
 مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ  
 مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ  
 رِسَالَتِي وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا  
 يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ فَلْيَأْمُرْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ  
 عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا  
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلِيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا  
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ  
 عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ  
 هَادُوا وَالصَّبُورَ وَالنَّصْرَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

والصبر

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا  
 هُمْ يَحْزَنُونَ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
 أَنْ يَتَّبِعُوا رَسُولَنَا إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَفْ  
 أَنْفُسُهُمْ قَرِيبًا كَذَّبُوا وَقَرِيبًا يَقْتُلُوا وَوَحْش  
 الْأَتَّكُورِينَ فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ نَبَّ الْأ  
 ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ  
 يَعْمَلُونَ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ  
 ابْنَ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ آف  
 اللَّهُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَرَّ بِشُرْكَ بِاللَّهِ  
 حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا بَوَّأَهُ النَّارَ وَمَا  
 لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْجَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا  
 إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ آلَهِ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ  
 يَنْتَقِبُوا عَمَّا يَفْعُلُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ  
 عَذَابِ آيْمُرٍ آقِلًا يُتَوَبُّونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ

## هوامش

- 1 - الشنقيطي، أ.: «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي ومكتبة منير، 1409 هـ/1989، ص 422.
- 2 - ابن خلدون، ع.، «المقدمة»، ط. الكشاف (بلا تاريخ، مصورة بالأوفست في منشورات مكتبة المثني، بغداد، دون تاريخ، ص 429 - 430.
- 3 - يقول أحد أشهر مؤلفي بلاد شنقيط وهو المختار بن بونا الجكني (توفي 1220 هـ/1804 - 5) الشهير بمهارته في اللغة والمنطق:  
ونحن ركب من الأشراف منتظم / أجل ذا العصر قدرا دون أدنا  
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة / بها نبين دين الله تبياننا
- 4 - البرتلي، «فتح الشكور»، الترجمة 44، وبن حامدن م.، جزء إدوالحاج (موسوعة «حياة موريتانيا»، نسخة المعهد الموريتاني للبحث العلمي)، ورويشوك في «تاريخ الآداب البيضانية» تحت رقم: 70، وابن البراء، ي.، الأعلام، الترجمة رقم: 555.
- 5 - Ould Hamidoun, M. et Leriche, A. : *Curiosités et Bibliothèques de Chinguetti*, in: Notes Africaines, n°48, Institut Français d'Afrique Noire (IFAN), Dakar, 1950. Ce texte est reproduit par ce site: <http://www.mr.refer.org/numweb/spip.php?article213>.
- 6 - ولد أحمد سالم، س. أ.: «نفائس من المخطوطات والوثائق في مكتبة أهل الشيخ سيديا»، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد، العدد 31، رجب 1421 - أكتوبر 2000، دبي، ص 67 - 80.
- 7 - ابن حامدن وهيموفسكي: «جرد التأليف والمؤلفين» (طبعة سيرغرافية قديمة) وقد نقل الجرد الخليل النحوي في كتابه
- «بلاد شنقيط» من ص 535 إلى 624.
- 8 - Ould Bah, M. : *La littérature juridique et évolution du malikisme en Mauritanie*, Faculté des lettres et sciences humaines, Université de Tunis, 1981., Sixième série., Philosophie-littérature, V. 19.
- 9 - بعض المؤلفات الموريتانية المخطوطة توجد بمكتبات في المغرب وفي مالي والنيجر وفرنسا والسعودية.
- 10 - أنظر الرابط التالي:  
<http://westafricanmanuscripts.org/arindex.html>.
- 11 - Sammlung arabischer Handschriften aus Mauretanien.
- 12 - Rebstock, U., *Maurische Literaturgeschichte*, 2001. 3 Bände. 1788 S. Festeinband, Leinen, ISBN:978-3-935556-73-6.
- 13 - <http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-1-writings-eastern-sudanic-africa-c-1900>.
- 14 - <http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-2-writings-central-sudanic-africa>.
- 15 - <http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-3-writings-muslim-peoples-northeastern-africa>.
- 16 - <http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-4-writings-western-sudanic-africa>.
- 17 - Monteil, V., « Les manuscrits historiques arabo-africains, *Bulletins de l'IFAN*», Tome XXVII B, n° 3-4 1965.
- 18 - « In a very broad sense, Arabic writings of western Sudanic Africa may be classified under four headings: historical; pedagogical; devotional and polemical ».
- Hunwick, J., «The Arabic Literature of Africa project», in Sh. Jeppie & S. B. Diagne (eds.), *The Meanings of Timbuktu*, Cape Town, HSRC Press, 2008, p 314.
- 19 - بن الشيخ، س.، تحقيق جزء الأخلاق من كتاب «الطرائف والتلائد» للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، ص 5.
- 20 - انظر: الشنقيطي، «الوسيط»، مرجع سبق ذكره، ص 241.
- 21 - العلوي، ع.: «نور الأفاق» ص 357 (طبعة فاس الحجرية).
- 22 - الديماني ع.: «ذات ألواح ودرس»، ص 38، (مخطوط عندي منه نسخة).
- 23 - نفس الإحالة السابقة، ص 39.
- 24 - ابن طوير الجنة، «رحلة المنى والمنة»، (مخطوط) 208 - 290.
- 25 - بن البراء، ي.، «ألفية ابن مالك وأثرها في الثقافة الموريتانية» (رسالة تخرج لنيل دبلوم الإجازة بالمدرسة العليا للتعليم) ص 25.
- 26 - الطالب، م.، «فتح الشكور» ص 208.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
قَالَ كَلِمَاتٍ  
فَكَانَ عِزًّا  
وَقَدْرًا  
وَأَعْلَى  
الْعَرْشِ  
قَالَ كَلِمَاتٍ  
فَكَانَ عِزًّا  
وَقَدْرًا  
وَأَعْلَى  
الْعَرْشِ

قَالَ كَلِمَاتٍ  
فَكَانَ عِزًّا  
وَقَدْرًا  
وَأَعْلَى  
الْعَرْشِ  
قَالَ كَلِمَاتٍ  
فَكَانَ عِزًّا  
وَقَدْرًا  
وَأَعْلَى  
الْعَرْشِ

# المصادر المنصوصة بالصحراء

سيني موموني

عرفت إفريقيا في القرون الأخيرة تقليدا مرموقا يتمثل في المخطوطات. ومازالت الحواضر التاريخية التي ساعدت على هذا الإنتاج للمعرفة والخزانات التي تحفظ تلك المخطوطات موجودة بقلب الصحراء. لقد كانت المعرفة الصحراوية معرفة متحركة تنتقل من الصحراء الأطلنتية إلى ضفتي نهر النيجر. ويرى الباحثون أن 40 بالمائة من القارة الإفريقية تغطيها المخطوطات؛ وهنا وجب تمييز عدة مجموعات: مجموعة غربية تضم ضفتي الصحراء (إفريقيا الشمالية وإفريقيا الغربية) ومجموعة أكثر ارتباطا بالشرق وانفتاحا على المحيط الهندي (وتفضي إلى الثقافة السواحلية sawahili حول زنجبار) ثم مجموعة إفريقيا الوسطى (بورنو Bornou، وداي Wadaï، باغرمي Baguirmi، الخ.). وإن نحن رجعنا إلى زمن بعيد فسنلاحظ أن هذه المجموعات تنتظم حول حاضرة فاس العريقة وتوات وشنقيط وولاتة وتنبكت وأكادز. وفي الأزمنة القديمة ضمت هذه المجموعات، وفي مجال واحد، مخطوطات الجنوب المغربي ومخطوطات الواحات الموريتانية الحالية (ودان، شنقيط، وولاتة، الخ.) المنفتحة على الإسلام منذ عهد المرابطين (القرن الحادي عشر...) ومخطوطات تنبكت وأكادز والمدن التجارية والعالمة لشمال نيجيريا الحالية (كانو Kano على سبيل المثال). يقول لويس ماسينيون (Louis Massignon) إثر جرده محتويات خزانة الشيخ سيديا: «في قلب الصحراء، تحتوي خزانة الشيخ، السلفي إن كان كذلك، مطبوعات أكثر عددا من المخطوطات...<sup>1</sup>». ويعود الفضل في ترسيخ التبخر في المعرفة إلى أجيال من العلماء ينحدرون من مجموعات مختلفة. لنسجل ضمن هؤلاء البرابرة صنهاجة وإنسلمان زوايا (Ineslmen Zawaya) ووانغارة (Wangara) وفولبي (Les Fulbé) وصونغاي (Songhay).

وقد قامت قبائل صنهاجة البرابرة بدور طليعي في اعتناق إفريقيا الدين الإسلامي (بضفتي الصحراء). وقد قوى صنهاجة، وهم من أتباع المذهب المالكي، الحضور السياسي والثقافي من خلال الإصلاح المرابطي الذي قاده واحد منهم ونقصد به عبد الله بن ياسين (توفي سنة 1059). كما ساهم صنهاجة كذلك في الحفاظ على الإسلام القروسطي ونشر تقليد المخطوطات في المناطق الصحراوية. أضف إلى ما سبق أن تأثير صنهاجة الثقافي في الحواضر الصحراوية مثل ولاتة (Walatta) وتكيدا (Tiguidda) وتنبكت (Tombouctou) تأثير واضح. أما فيما يخص إنسلمان زوايا (Ineslman Zawaya) فإن إسهامهم يتمثل في تدبير المقدس ونقل المعرفة. وقد ساهمت الزوايا بتعليمها في ترسيخ الصوفية بإفريقيا عبر الطريقتين القادرية والتيجانية. وتحتل الشخصيات النابعة من الزوايا مكانة هامة في سلسلة نقل الطرق الصوفية الرئيسة بإفريقيا، لاسيما تلك التي تنتمي للقادرية وتمت بصلتها إلى سيدي المختار الكنتي (1729 - 1811) والتيجانية التي تذكر اسم الشيخ محمد الحافظ (1760 - 1830) ويعود أصلها إلى الشيخ أحمد التيجاني (1737 - 1815). وإنما لنجد في المكتبات الصحراوية عددا مهما من المؤلفات التي كتبها أهل الزوايا. وقد واكبت هذه الدينامية مجموعات أخرى بمأسستها للتعليم في المدن التاريخية وبتطويرها للإنتاج والنشر؛ ونجد ضمنها جهابذة في النحو العربي وتفسير القرآن تؤكد تأثيرهم ابتداء من القرن الثامن عشر.

### على طريق القوافل : طريق المداد

كانت التجارة عبر الصحراء ومناطقها (توات Adrar وشنقيط Chinguetti) تساعد على عبور سلع إفريقيا الشمالية نحو إفريقيا السوداء والعكس صحيح؛ فقد ضمنت طريق القوافل لمدة طويلة ازدهار المدن التاريخية إذ كان يحج إليها، باعتبارها مراكز لتجمعات الحجيج القاصدين مكة، عدد من العلماء والطلاب ليؤموا مدارسها وخزاناتها ومساجدها، فأضحت بذلك ذات أهمية بالنسبة إلى المسلمين. وقد أذن اختفاء هذه التجارة بأفول المدن العتيقة.

لقد لعب دخول الورق دورا بالغ الأهمية في إنتاج المعرفة عبر العالم وفي إفريقيا على وجه الخصوص. وهكذا أصبح المخطوط مع مرور الأيام أداة لنقل المعرفة يلجأ إليه العلماء؛ وسيساعد تراكم المعرفة هذا على تداول المخطوطات والممارسات الثقافية بين ضفتي الصحراء، كما أن أجيالا متعاقبة من الكتاب الأفارقة اضطلعت بالحفاظ على المعرفة الإسلامية. نعم لقد كانت الكتب في ذلك الزمن عملة نادرة، وقليل هم الأشخاص الذين كان يمكنهم أن يتوفروا على كتاب في مساكنهم، أما النصوص التي كانوا يعرفونها فهي إما يكونون قد حفظوها في الكتائب القرآنية أو عند قراءتها أثناء الصلاة، فكثير من الكتب آنذاك قد كتبت لتقرأ على السامعين. وكانت الكتب التي تتناول العلوم الدينية تقرأ قبل الصلوات الخمس أو بعدها كما كانت صلاة الجمعة والعيدين مناسبة لقراءتها أمام العموم. ويقال إن الكتاب يعد منشورا ما إن يقرأ على مسامع جمهور كان يجهل نصوصه. وهذه الكتب مؤلفة لكي تقرأ على مقاطع حتى لا يملها السامع؛ وهي لا تظهر أبدا كاملة، لكن كل «باب» وكل «فصل» كان يشكل موضوع محاضرة خاصة، وذلك ما يفسر تنوع الأساليب وكثرة التكرار في النصوص.



المخطوطات بالصحراء، تراث مهدد بالاندثار

### تقديم المخطوطات

توجد ثلاثة أنواع من المخطوطات هي: المخطوطات باللغة والكتابة الإفريقيتين (بحروف تيفناغ وحروف فاي (Vai))؛ فالمخطوطات باللغة والكتابة العربيتين ثم المخطوطات باللغة الأعجمية (المكتوبة باللغة الإفريقية عن طريق استعمال الحروف العربية). وهذا التقليد المسمى بالأعجمي ينجم بناء على كتابة اللغات المحلية باللغة العربية. وقد ساعد هذا الصنف من الكتابة على تثبيت اللغات التي كانت حتى وقتئذ شفوية: البربرية والهوسية (Haoussa) والفولفولدي (Fulfuldé) والبامبارا (Bambara) والسونغاي (Songhai) والولوف (Wolof) والسواحلية (Swahili)، الخ. والمخطوطات الصحراوية مصنونة في الخزانات الخاصة والعمومية والمساجد والزوايا. إنها الشاهد على الماضي الثقافي في المجال الصحراوي. وقد نجم عن تشكل الزوايا الدينية وتطورها نشأة صنف من الخزانات سمي خزانة الزاوية؛ ويستمد مصطلح الزاوية مصدره من الزوايا الدينية التي يعود تشكلها وتطورها إلى القرن الثاني عشر.

## مراكز حفظ المخطوطات

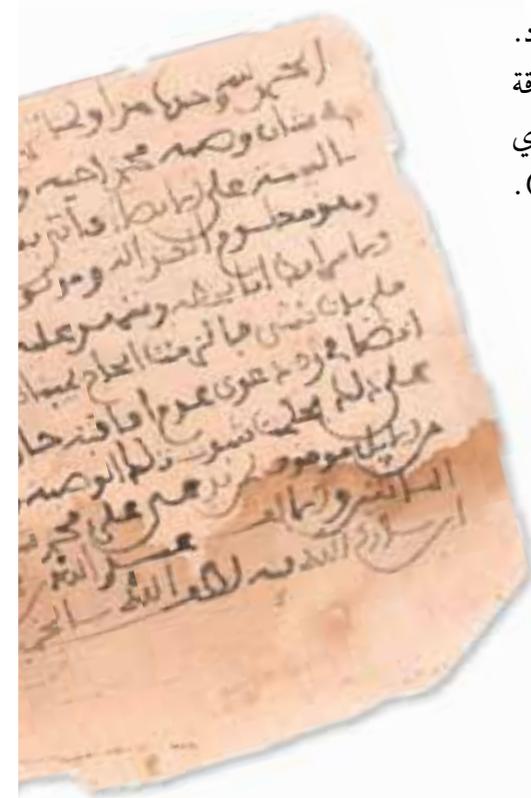
توجد عدة خزانات عمومية وخصوصية تحفظ فيها المخطوطات. وما زال عدد هام من ذخائرها قيد الجرد. وقد أدى الوضع التدريجي لمراكز التجميع، ابتداء من ستينيات القرن العشرين، بكثير من الباحثين الأفارقة والأجانب إلى المساهمة في تدبير ودائع المخطوطات بينما شجع آخرون ترجمة الأخبار التاريخية في الوقت الذي خاض البعض الآخر حملة لاقتناء المخطوطات القيمة واستنساخها وتصويرها في أشرطة صغيرة (ميكروفيلم). ويوفر تجميع المخطوطات واستثمارها للباحثين أدوات لبحث تاريخي جديد. وأهم المجموعات هي :

- مجموعة المخطوطات المتوفرة بالمكتبة الوطنية في الرباط
- مجموعة المخطوطات المتوفرة بالخزانة الملكية في الرباط
- مجموعة المخطوطات المتوفرة بالمكتبة الوطنية في الجزائر
- مجموعة المخطوطات المتوفرة بمركز أحمد بابا في تنبكت بمالي
- مجموعة المخطوطات المتوفرة بشعبة المخطوطات في معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بنيامي (النيجر)
- ذخيرة مكتبة المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء (دكار)
- ذخيرة معهد الدراسات الإفريقية بجامعة غانا (IAS)
- مجموعة أرسين رو (Arsène Roux) بالمكتبة متعددة الوسائط للبيت المتوسطي لعلوم الإنسان إيكس أون بروفانس (Aix en Provence)
- مجموعة المخطوطات المتوفرة بالمكتبة الوطنية في باريس
- مجموعة المخطوطات المتوفرة بمكتبة أفريكانا بالجامعة الشمالية الغربية في شيكاغو (La Bibliothèque Africana de Northwestern University à Chicago)
- مجموعة المخطوطات المتوفرة بمكتبة ليد (Leyde).

وتوجد إلى جانب هذه المجموعات مكتبات خاصة بأصحابها؛ وما زالت المكتبات الخاصة تقوم بدور هام في تامين المخطوطات القديمة وحفظها والنهوض بها؛ ففيها تكدر وتصلح إما في صناديق أو خزانات محمية. والمهمات الرئيسة للمكتبات هي:

إحصاء المخطوطات وتجميعها وصيانتها؛ تنظيم ورشات وندوات حول المخطوطات لتشجيع الطلاب والباحثين على استعمالها في أعمال بحثهم؛ مساعدة مسؤولي المكتبات الخصوصية والعمومية في مجهوداتهم الرامية إلى الحصول على المخطوطات وصيانتها؛ الحث على إنجاز دراسات وأبحاث (من نشر وترجمة...); تحسيس الحائزين على مخطوطات بحقوقهم في الملكية الفكرية؛ تكوين الطاقم العامل في هذا المجال في تقنيات ترميم المخطوطات (رقمنة وتصوير في أشرطة صغيرة - ميكروفيلم - ونسخ تقليدية...).

تحفظ المخطوطات أساسا في المراكز الدينية الكبرى أو «البيوت الثقافية»، وهي في حوزة أفراد من العائلات الدينية الكبرى ينحدرون من شخصيات تاريخية كبيرة. لكننا نكاد نجد، على مستوى أكثر بساطة، في كل قرية ذات أهمية معينة نصبا مكتوبا يعرض تاريخ تأسيس القرية وبداية الإسلام بها مع شجرة نسب الفاعلين في نموها. ويبين الاستكشاف السريع لأغلب هذه المراكز كما تظهر التحقيقات المطولة في البعض منها غنى الأدب المكتوب في عين المكان، ولو أن ما يصل إليه الملاحظ ليس، بكل تأكيد، إلا جزءا ضئيلا مما هو موجود.





## فهارس التراث المكتوب الصحراوي

يمكن الفهرس من تحديد مواقع المخطوطات ويسر بذلك وصول الباحثين إليها. إن مجموعة غير مفهرسة هي مجموعة لا وجود لها، كما يكون من الصعب تقييمها. ومعلوم أن جزءا غير يسير من المخطوطات الصحراوية مفهرس وتتوفر الخزانات ومراكز الحفظ والصيانة على فهارس وقوائم للمخطوطات؛ ففي المغرب تتوفر على فهرس للمخطوطات بالمكتبة الوطنية في الرباط وفهرس بالخزانة الملكية المغربية ثم فهرس آخر للمخطوطات بجامعة القرويين في فاس (أربعة مجلدات من إنجاز محمد العابد الفاسي سنة 1979). ثم هناك فهرس الخزانة الملكية في الرباط وفهرس المخطوطات العربية والبربرية لذخيرة رو (Roux) في إيكس أون بروفانس (نشره سنة 1995 نيكو فان دين بوغرت Nico van den Boogert)، إلى غير ذلك.

وفي الجزائر يخبرنا الفهرس العام للمخطوطات بالمكتبة الوطنية، والذي نشره إدمون فانيان (Edmond Fagnan) عام 1893، إخبارا موجزا عن طبيعة المخطوطات ونطاقها. ويأتي فهرس حسن نوماريزيو (Hassan Nomarizio) ليكمل المجموعة.

وستساهم الذخائر الجهوية في إغناء المجموعات وهناك العديد من مكتبات الزوايا والعلماء (في الدار البيضاء ووجدة ومراكش ومسكرة وداهلة وبجاية وتلمسان...) وبمسكرة هناك مكتبة مدرسة محمد باي (Mohammed Bey) التي يرجح أن ابن زرافة قد استعان بها لكتابة مؤلفه «الرحلة المقامرية». وتحفظ مكتبات الزوايا العديدة بمجموعات مخطوطات قيمة.

يحتوي مركز أحمد بابا بتنبكت في إفريقيا الغربية على ما يقارب 20000 مخطوط نشر نصف عددها على يد منشورات مؤسسة الفرقان في لندن. وتشتمل مجموعة شعبة المخطوطات لمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بنيامي (النيجر) على قرابة أربعة آلاف مخطوط مفهرسة في ثمانية مجلدات بمنشورات الفرقان في لندن كذلك. وقد تمت فهرسة مجموعة (500 مخطوط) تعود إلى شعبة المخطوطات العربية لمعهد الدراسات الإفريقية التابع لجامعة لوجون (Legon) (غانا) في مجلد واحد بمنشورات الفرقان في لندن أيضا. وقد قام جون هونويك (John Hunwick) بجمع مختلف المجموعات الإفريقية الغربية ونشرها تحت عنوان «The writings of central sudanic Africa»<sup>2</sup>.





تصميم للسمارة حسب  
كارو باروخا (1955)

ويوجد في فرنسا فهرس المخطوطات الشرقية بالمكتبة الوطنية لباريس وفهرس ذخيرة أرشيناير (Fonds Archinard) لمكتبة المتحف الوطني لفنون إفريقيا وأفانوسيا (باريس) ثم فهرس مخطوطات الأمير عبد القادر في مجموعة متحف كوندي (Condé) بشانتيلي (Chantilly). أما في الولايات المتحدة بشيكاغو فيشتمل فهرس (ISITA) الحديث العهد على ذخائر مكتبة أفريكانا للجامعة الشمالية الغربية (Northwestern University)، وتتكون من:

- مجموعة ميلفيل ج. هيرسكوفيتس (Melville J. Herskovits)
- مجموعة جون نابربادن (John Naber Paden)
- مجموعة عمر فالكه ('Umar Falke')
- مجموعة ميرفين هسكت (Mervyn Hiskett)
- مجموعة جون أ. هونويك (John O. Hunwick)

## منهج استثمار المخطوطات العلمي

### علم الترميز :

تساعد الدراسة الترميزية codicologique العلمية للمخطوطات انطلاقاً من عناصر معينة على تحليل الشكل المادي للكتابة والورق وتبرز بذلك قيمة المخطوط. وقد تبين أن تطبيق هذا المنهج على مخطوطات الغرب في العهد الوسيط، ثم على مخطوطات العالم العربي منذ سنوات، قد ساعد على غزارة الإنتاج في هذا المضمار. ويعتمد التحليل الترميزي على النقاط التالية:

- تحديد الموقع (الأماكن والفهارس والمراجع، الخ).
- مستهل الكتاب
- متن النص (الفواصل وعلامات الوقف والألوان والتوشية، الخ).
- التجليد
- التسطير
- التذكير بالسابق أو اللاحق
- أسلوب الكتابة (صحراوي، مغربي، هوساوي، كوفي، نسخي، ثلثي، الخ).
- الصمغ (تأريخ، اسم الناسخ، الخ).

### المنشورات المحققة

ينبغي لتحقيق مخطوط تحقيقاً جيداً التوفر مبدئياً على نسخ منه (أقلهما اثنتان)؛ فالمجموعات تتقاطع في أغلب الأحيان، ومن السهل نسبياً التوفر على نسختين محفوظتين مفهرستين في المكتبات المختلفة.

- فإما ينطلق المحقق من نسخة واحدة ويسجل كل ما يختلف عنها في النسخة الأخرى (أو النسخ الأخرى). والقرائن التي ينبغي اعتمادها في اختيار المخطوط الأساسي هي القدم والمقروئية، الخ. وحسنة هذه الطريقة أن ما سينشر يطابق فعلاً واقعاً لا يرتفع هو المخطوط الأساسي.

- وإما يأخذ النسخ جميعها على قدم المساواة ثم ينتقي ما يبدو له صحيحاً على أن يذكر في الهامش متغيرات كل نسخة. وحسنة هذه الطريقة تتمثل في اتساق النص وإمكانية إعادة تشكيل كل رواية للمخطوط.

### القواعد المتعارف عليها

يستشهد بالنص المقدس (قرآناً أو حديثاً) ويحتفظ به كما ورد، مع الإشارة في الهامش إلى الرواية الحالية. وباستثناء الاستشهاد الصريح لا شيء يبين لنا على أي الروايات كان يشتغل المؤلف.

وسعيًا لتسهيل المهمة فإن نظام الهوامش يقتصر على استعمال رمزين أو ثلاثة:

⊃ : وتنتقي مقطعاً (مملوءاً أو فارغاً) يخص إدراج ملاحظة في الهامش.

• : وتنتقي مقطعاً (مملوءاً أو فارغاً) في المقطع الذي سبق انتقاؤه.

أنظر في الفقرة التالية تحقيقات النظام :

الرمز الثالث (□) ينتقي مقطعاً (مملوءاً أو فارغاً) في المقطع المنتقى مرتين (وهذا أمر من الأمور النادرة لكن يمكن لنظامنا التكهن به).

لماذا الحديث عن مقطع مملوء أو فارغ؟ لأن المقطع يمكنه أن يتحقق في كل المخطوطات وفي هذه الحالة فهو مقطع مملوء (X•) / (X⊃) : كما يمكن ألا يوجد في كلتا النسختين، وفي هذه الحالة فهو مقطع فارغ : (⊃) / (•).

#### تصميم تحقيق

- الموضوع الذي يورده المخطوط المحقق؛

- نبذة عن المؤلف؛

- النسخ المتبناة؛ أصلها؛ كتابتها؛ حالتها؛

- مواضع النشر؛

- فيما يتعلق بالنسخ الورقية ينبغي للنشر أن يتضمن الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة من كل مخطوط. أما بالنسبة إلى النشر الإلكتروني فالمخطوطات التي لا تتجاوز ثلاثين صحيفة تمسح صورتها بالسكانير وتضبط مكوناتها لتنسخ كما هي عليه.

- التحقيق؛

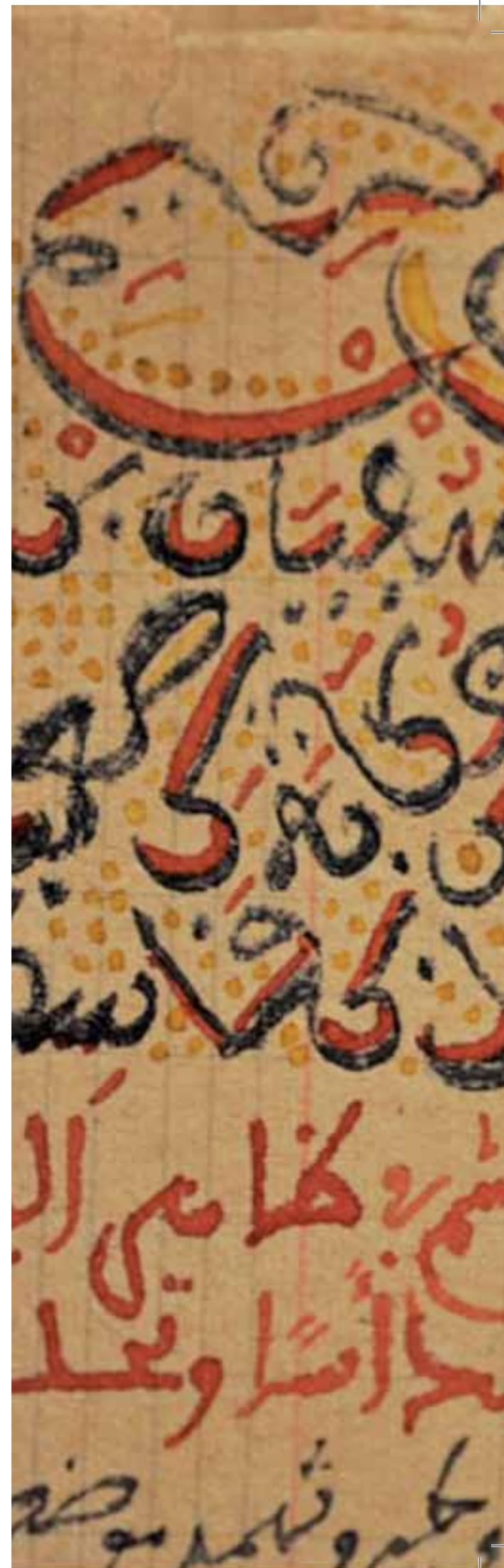
- المصادر والمراجع (البيبليوغرافيا)؛

- مسرد المصطلحات الرمزية؛

- الفهرس.

#### تداول المعرفة : المضمون

لا تصلح الكتابة لتثبيت نبذ الأولياء والصالحين أو المعاملات التجارية أو العقود القانونية فحسب، بل إنها أداة نقل المعرفة بكل أشكالها. وفي هذا الصدد يحظى مفهوم النص بالأولوية في مجموع العلوم الإنسانية. وتقتضي التخصصات بشتى أنواعها ومضامينها عقلية وفكراً معينين. وقد اعتمد العلماء على ضربين من الكتابة لتثبيت المعرفة ونقلها هما : الكتابة باللغة العربية ثم الكتابة «الأعجمية» باللغات المحلية عن طريق استعمال الأبجدية العربية. والمواضيع التي تناولها العلماء متنوعة ضمنها فقه اللغة والأدب والكيمياء والصيدلة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والعلوم الدينية والتاريخ وعلم الفلك، الخ.



الحمد لله وحده

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله



غداة من لا ينادى ولا يتكلم من قبيلة دابة بوعشرون وراحت من قبيلة  
 بيك من دابة بوعشرون وما انضام البيعة من اهل البكير: وقبيلة دابة يغزوا كامة  
 اهل النعم المسير بكرة وبكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ولينا عليكم خيرا  
 انفا بكم من اهل ابيهم بوعشرون اذ وانضرونا اليه المنكر في اموركم بنا مكرم اتمتعوا  
 وتكلموا عما اولينا من الامور والنهي من امور خروا لنا النعم بكرة اسعركم الله به واسعركم  
 بكم ووفى الله ما بكم رضاء والسلم في رمضان عام 1308 هـ

الحمد لله وحده

و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه



خرعنا الارض القلندر و حملنا برورد التكنة و تفقد الله و عطلع عليك و رحمتا الله بعد  
 بتصلاد عتبة نللا نلاية عنكم و غمسونه عنكم يا بر عنكم المنشيتة ما قيا عنكم  
 تشيت و مرتكنة ما ية عنكم و مر و دود بلال فمسونه عنكم حبا اياه ممدوم  
 و اصحابهم و اوصالهم بلا فاهمة حجة بدل اول الله للعسكر النيقلام الز منلاك  
 بالكلية فبشامرك ان قسمه على مفتض ما به هذا القابمة و تطلع علينا انشيت  
 بالورا بقة لورا الخالفة و تقوم العسكر الز منلاك لحسن بنا انشيتة يقيم  
 ما بلا يلوسم مر بعدك و اه لا مترك احد منهم منلاك فصوصا الزير تا هلو انمة  
 و تحمل هذا عليه و يجوز الثوثة التي كان يجوز من قبلهم و اسلم به اسوان

صلح الله



وتقسيم المعارف الدينية والفكرية تقسيم معروف جيدا تطغى فيه المواد القانونية متبوعة بالحديث والعلوم القرآنية ثم المواد الدنيوية وفيها الأدب . تأتي بعد ذلك الخيمياء والشعر ودراسة اللغة يتلوها في آخر المطاف كل من التاريخ والتنجيم . ومن بين المواد التي تستدعي إعمال العقل لا الاعتماد على النقل وحده نجد المواد الشرعية وأصول الفقه وعلم الكلام وتفسير القرآن، التي تحظى بحيز أكبر من العلوم الدنيوية من قبيل الأدب (الأدب والفنون) والصيدلة، بينما يحتل التصوف والفلسفة آخر الترتيب . على المستوى العملي، نجد الزهد ممثلا بما في ذلك شعر المواعظ ؛ وتبين دراسة التلازم بين المواد التي يدرسها كل عالم أنه بالإضافة إلى الدراسة الضرورية للسيرة ينقسم العلماء من حيث اختصاصهم إلى دراسة الشرع وعلوم القرآن . فالأولون يكادون ينفردون بالتأثير السوسيوثقافي بينما يعرض الآخرون بمحض إرادتهم عن الرغبة في أي تأثير ويتعاطون لأنشطة فكرية صرفة مثل الأدب ودراسة اللغة وهما المجالان اللذان يتسرب منهما اللاهوت تدريجيا . ولا يظهر التصوف في آخر المطاف إلا من خارج هذه المواد التقليدية . أما علم الكلام والتصوف فيقتسمان بالتساوي مجال التأمل النظري أي «الحكمة» التي تظل بلا علاقة حقيقية بالمواد الدينية .

كان التاريخ والشعر والأحكام القضائية والقرارات السياسية والاقتصادية تتلى كذلك على الملأ . وكان الجمع يتكون من متعلمين وأمينين ومن مسلمين وغير مسلمين، إلا أن غير المسلمين كانوا يجدون لأفق انتظارهم نصوصا أعجمية أغلبها من الشعر والأمداح والعبارات الشعبية . وقد كان التجار والعلماء المشاركة يترددون بانتظام على أسواق المنطقة؛ وكانت المصادر الأساسية لاكتساب المعرفة هي الرواية الشفوية والنقل سواء في مجال المعرفة الدينية أو المجال السياسي اللغوي .

### خاتمة

ارتبط تقليد المخطوطات الصحراوية ارتباطا وثيقا بانتشار الإسلام وتجارة القوافل التي كانت محركه الرئيس . وقد حدثت الاحتكاكات الأولى بالإسلام حوالي القرن التاسع؛ كما مكن انتشار الإسلام وتطور التعليم العربي من إقامة تقليد للمخطوطات بصفة تدريجية وكذا تشكل أجيال من المثقفين والأدباء المسلمين . لقد ظل العلماء ومؤلفاتهم مقصيين بإفريقيا من النقاشات الفكرية حول بناء المعارف بينما سادت المصادر والإنتاجات الفكرية باللغات الأوروبية . وتشهد هذه النصوص على حضور الكتابة وأهميتها في المجتمعات الإفريقية في ما قبل الحقبة الاستعمارية . إن هذا الإرث الصحراوي المشترك يهدده الإنسان والحشرات والنار والأمطار وظروف الصيانة والحفظ السيئة، بل يتآكل عددها من المخطوطات بسبب ذلك . والأدهى أن بعضها مهمل ويباع بالتقسيط أحيانا وبشمن بخس .

## الهوامش

1 - Massignon, M., « Une Bibliothèque saharienne », in notes et documents, *la revue du monde musulman* vol.VIII, pages 409 - 418, Paris, 1909.

2 - Hunwick, J.,O. ed, *Arabic Literature of Africa*, vol 2, The Writings of Central Sudanic Africa Leyde E.J Brill, 1995.



## ببليوغرافيا

- Battestini, S., *Écriture et texte, contribution africaine*, Éditions Presses de l'université Laval-Présence africaine, 1997, p. 474.
- Binebine, A.C., *Le manuscrit arabe et la codicologie*, publications de la Faculté des lettres et sciences humaines, Rabat, 1994, (Actes du colloque tenu du 27 au 29 février 1992).
- El Hamel, Ch., *La vie intellectuelle islamique dans le Sahel Ouest-Africain (XVIe-XIXe siècles)*, éd. L'Harmattan, 2002, 490 P.
- Hunwick, J., *Timbuktu and the Songhay Empire: al-sa'di's Ta'rik al-sūdān down to 1613 and other*, Leiden: Brill, 1999.
- Haidara, I. *Jawdar Pasha et la conquête Saadienne du Songhay (1591 – 1599)*, Institut des études africaines – Université Mohammed V – Souissi, Rabat, P175.
- Arab, A., *Manuscripts et Bibliothèques Musulmanes en Algérie*, KitabTabulae, CCL, 2006.
- Gacek, A., *Arabic manuscripts in the libraries of McGill university*, Montréal, librairies, 291 P. 1991.
- Moumouni, S., *Scribes et Manuscrits à Tombouctou : La chaîne du Manuscrit*, in, Asian and African Studies, Volume 16, n°1, pp. 55-67, Bratislava, 2007.
- Ghali, M. et Brenner, *Inventaire de la bibliothèque umarienne de ségou*, éd. CNRS, 1985.
- L'africain, J.L., *Description de l'Afrique*, Paris, Epaulard, 1956, II.
- Hopkins, J.P.F. & Levtzion, N., *Corpus of Early Arabic Sources For West Africa*, Cambridge University Press, Cambridge, 1981.
- Hunwick, J., *Collection Handbuch Der Orientalistik. Arabic literature of Africa.*  
\*Vol. 1 *the writings of Eastern Sudanic Africa to c. 1900*, compiled by R.S.O'Fahey, 1994, 434 p; vol. 2, *the writings of central Sudanic Africa*, compiled by John Hunwick, 1995, 732 p. Vol. 3, the writings of Eastern Africa ; vol. 4 *The Writings of Western Sudanic Africa*. Leiden, New York, Köln, E.J. Brill.
- Kensdale, *Field Notes on the Arabic Litterature of the Western Sudan*, London, university press, 1955.
- Vajda, G., *Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique occidentale*, Journal de la Société Africaniste, Paris, 1950, tome XX, fasc2.



# أرشيغات التاريخ الشعبي بإفريقيا الغربية

بابكر ندياي

يستوقفنا موضوع مداخلتنا أعلاه على عدة مستويات:

- أولا، بصفتي إفريقيا يرى في الأرشيغات الشفهية مصدرا مهما لكتابة تاريخنا.
- ثانيا، بصفتي مؤرخا، إذ تُشكل الأرشيغات الشفهية أحد المفاتيح الأساسية لمعرفة ماضي إفريقيا.
- وأخيرا بصفتي باحثا أرشيفيا ومسؤولا، بالتالي، على سلامة هذه المصادر الشفهية وحمايتها، وعلى صيانتها وتأمينها، حتى تتمكن من أن تتبوأ مكانتها اللائقة بها في الأرشيافية المعاصرة .

يتشكل تاريخ إفريقيا الغربية، فيما يتصل بموضوعنا، من مجموع وقائع ماضي ما قبل التاريخ حتى اليوم. ويتحدد ما قبل التاريخ، عموما، بالحقبة الممتدة بين ظهور الإنسان وظهور أولى الوثائق المكتوبة.

وتفصلُ الصحراءُ القارةَ الإفريقيةَ من شمالها إلى جنوبها؛ وهي صحراءٌ تُغطي امتدادات شاسعة من المناطق. ويُطلق على القسم الشمالي إفريقيا الشمالية، بينما يطلق على القسم الجنوبي إفريقيا جنوب الصحراء (subsaaharienne). وأما هذه الأخيرة فتتنقسم إلى أربع مناطق هي إفريقيا الشرقية، وإفريقيا الوسطى، وإفريقيا الغربية، وإفريقيا الجنوبية .

ولقد عرف جنوب الصحراء نشوء إمبراطوريات وممالك شهدت تطورات متباينة فيما بينها. غير أن إفريقيا عرفت، مع وصول العرب منذ القرن السابع، أولى حكاياتها المدونة. ويرى البعض أن الساكنة التي كانت في احتكاك مع العرب، وخاصة مع الأمازيغ المسلمين (المرابطون) قد عملت على تعديل الحروف الهجائية العربية من أجل تكييفها مع النظام الصوتي للسانهم، وبالتالي ابتداع نظام لساني يسمى بـ «العجمي». ثم شكلت الصحراء، بعد ذلك، موضوع اهتمام المستعمر الذي حمل مشعله الأوروبيون. وهكذا تمّ في غضون القرن التاسع عشر تأسيس إدارة تابعة لكل بلد مستعمر في كل منطقة من المناطق المستعمرة.



الصورتان على اليمين وفي  
الصفحة المقابلة : مدينة ولاتنه  
(الجنوب الشرقي لموريتانيا)

وكما تجلّى الاستعمار من خلال الهيمنة السياسية والاقتصادية فقد تجلّى أيضا على مستوى الهيمنة الثقافية للبلد المستعمر على البلد المستعمر.

وفيما يتصل بفرنسا، وبعد أن أرسّت قواعد إدارة حديثة في مستعمراتها الإفريقية الغربية، اتخذت قرارا يقضي بتجميع تلك المستعمرات في كيان واحد أطلق عليه إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF) والذي كان يضم كلاً من ساحل العاج والداهومي (بنين حالياً) وغينيا وفولتا العليا (بوركينا فاسو حالياً)، وموريتانيا، والنيجر، والسينغال والسودان (مالي حالياً) والطوغو.

كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية الوحيدة في هذه المستعمرات التي عملت فيها الإدارة الاستعمارية على إدخال «الممارسة الكتابية في مجتمع تطبّعه الشفاهية بالأساس». لقد كان الكلام الشفهي الأداة التي تناقلت بها إفريقيا إرثها التاريخي والثقافي.

والواقع للأسف، مثلما يؤكد ذلك كامارا لاي<sup>1</sup> (Camara Laye)، أنه لا توجد معلومات مدونة حول طبيعة نظام الحكم في ممالك إفريقيا الغربية على اختلافها، إذ لم تُخلّف لنا أي مملكة من الممالك أرشيفات مكتوبة؛ «فكل القرارات الرسمية كانت تصدر شفهيًا». وحتى قرارات الملك والتصريحات كانت تُتناقل شفهيًا تبعاً لعادة عريقة في القدم. وكان الشعراء الموسيقيون الأفارقة (griots) بمثابة ديوان حامل الأختام بامتياز.

كان الشاعر الموسيقي، «مالك زمام الكلام»، هو المتحكم في تدبير الأرشيفات الشفوية؛ فهو الذي يكفل ويضمن مسألة جمعها ومعالجتها، ونشرها وإذاعتها في الناس. كما كان المسؤول عن حياتها وسلامتها وعن أصالتها. والواقع أن الشعراء الموسيقيين كانوا يمثلون حقاً روح إفريقيا العتيقة، ولولاهم لكانت القيم التقليدية الإفريقية في حكم الموت منذ زمن بعيد. لقد كان هؤلاء الشعراء الموسيقيون بمثابة مؤرخين حاملين لدراسات قديمة.

وعلى الرغم من وجود كمية كبيرة من النصوص التنظيمية التي أقرها النظام الاستعماري الفرنسي من أجل فرض وإقرار ممارسة الكتابة (مرسوم 2 مايو لعام 1906 الصادر عن الحكومة الاستعمارية والقاضي بإجبار الأهالي على تحرير الاتفاقيات والمعاهدات باللغة الفرنسية؛ وكذا الدوريات الصادرة عن الحاكم العام إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF) في 8 من مايو و 8 من سبتمبر عام 1911 التي توصي باستعمال اللغة الفرنسية حصرا في المراسلات الإدارية وكذلك في الأحكام الصادرة عن المحاكم الأهلية والإسلامية<sup>2</sup>، فإن ذلك لم يكن ليترك أبدا وضع الشفاهية التي ظلت تتطور وتفرض نفسها في الدوائر التقليدية المحلية .

لم يكن هذا الوضع إذن ليربك الشفاهية التي كانت تعرف تطورا وازدهارا لتظل أحد المصادر الأساسية لتاريخ إفريقيا. وفي الثلاثينيات اجتاحت إفريقيا الغربية الفرنسية موجة تطالب بالهوية قادها مثقفون أفريقيون. وهكذا سعت الإدارة الكولونيالية الفرنسية إلى فهم أفضل للمجتمعات التي تسهر على شؤونها. ووعيا منها بهذه الظاهرة انصرف اهتمامها نحو جمع الإرث الشفاهي وتدوينه واتخذت في هذا الإطار جملة من التدابير. وهنا أدركت هذه الإدارة أن «الجوهر التاريخي لشعوب أهالي إفريقيا إنما صبَّ كله في قالب التقاليد الشفوية التي تناقلتها أجيال من الشيوخ المسنين والرواة والشعراء الموسيقيين».



وبما أن هذه الأرشيفات الشفوية مسألة لا غنى عنها لامتلاك معرفة جيدة بإفريقيا الغربية فإنها ما فتئت تستثير اهتمام الباحثين، فرادى وجماعات، في مجال الأرشيف والباحثين والمؤرخين والعلماء في تخصصات متعددة، وذلك بهدف استخلاص منهجية ملائمة للمتن المُجمَع وكذا استثماره بحكمة وعقلانية.

ويجدر بنا القيام هنا بوضع تمييز بين مفاهيم التقليد الشفوي وبين التاريخ الشفوي والأرشيفات الشفوية. فالتقليد الشفوي يُمارس في البلدان التي عرفت الكتابة، غير أنه متداول بصفة خاصة في المناطق حيث لا تمتلك المجتمعات وسيلة أخرى لضمان بقاء ذكرياتها سوى أن تعهد بها إلى الذاكرة الإنسانية. التقليد الشفوي يركز في الحقيقة على ذكريات الماضي وعلى كل أنواع الشهادات التي يتناقلها شعب وتكون نتاج دينامية ثقافة معينة. إنه يختلف عن التاريخ الشفوي الذي ينصبُّ على جمع الشهادات الشفوية، وكما يرتبط بقصص سيرة الحياة وبالوقائع التاريخية، فإنه يرتبط أيضا بالأبحاث المنجزة حول الوقائع الاجتماعية للتاريخ الحديث.

وليس هناك إجماع بين المتخصصين المهتمين بالتقليد الشفوي (من مؤرخين وإثنولوجيين وأثروبولوجيين ولسانيين وأرشيفيين وكتبيين) على المصطلح للتدليل على الوثائق التي تنتجها وتوزعها القناة الشفوية. وتشكل مجاميع التقليد الشفوي والأبحاث التاريخية الشفوية أرشيفات شفوية.

هناك عدة محاولات لتعريف مفهوم «الأرشيفات الشفوية». وفي كل الأحوال يتعلق الأمر بـ«كل سند دُوّن عليه أصوات أو صور أو هما معا بغض النظر عن الطريقة المستعملة». وتتكون الأرشيفات الشفوية من «تسجيلات صوتية و / أو مخطوطات لأحداث وسيرة حياة ومهارات وتقاليد وعادات شفوية في معظمها، وكذا من شهادات شفوية يحث عليها أو عفوية مُستجمعة».

ومهما تكن المصطلحات الموظفة فإن هذه الوثائق تشكل تجميعات خاصة تتطلب في المكتبات ومصالح الأرشيف مناهج وتقنيات خاصة في الجمع والمعالجة والصيانة والنشر.

إن تنوع المفاهيم والتعريفات وكذا مناهج المقاربة والتحليل من أجل توصيف هذه الوثائق وتحديد ما يُفسّر المشكلات التي يصادفها الباحث للتوافق حول مناهج الجمع ومعالجة وصيانة الوثائق التي تستعمل القناة الشفوية كدعامة لنقل المعلومات.

وإن ما يلتزم حوله إجماع المتخصصين هو أن إعداد هذه النصوص وإنتاجها وتناقلها يرتكز على تقليد استخدام الوسيط (médiu) الشفوي كدعامة.

### جمع المعطيات الأرشيفية

تكتسي الأرشيفات الشفوية أهمية كبرى بالنسبة إلى إفريقيا، وذلك لأسباب عدة: فلأنها عنصر من عناصر التراث الإفريقي تشكل هذه الأرشيفات مصدرا ثريا من المعلومات لإعادة بناء التاريخ والبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية والتقنية.

إنها أداة من أدوات تحصيل المعارف ونقلها. إنها أداة في نشر السلام واستتبابه بين الشعوب (ونعني بذلك خلق شعور بالانتماء إلى الجماعة البشرية والهوية التاريخية والتكيف والاستمرارية على مر العصور، إذ في وسع الأرشيفات الشفوية أن تغري بالبحث عن القاعدة التي تركز عليها هوية من الهويات وعن الحيط الرابط لاستمراريتها، كما يمكنها أن تساعد على رصد قطائع وتصدعات أو، ببساطة، سيرورات التحول، مثال ذلك كاسمانس (Casamance) في السينغال، ومشكل الصحراء / المغرب ...



مسجد تنبكت

لقد أدرك المثقفون الأفارقة مبكراً الحاجة الماسة إلى جمع الأساطير والتقاليد الشفوية الأخرى قبل فوات الأوان، لأنها تشكل الأسس نفسها التي يقوم عليها تاريخنا، بل وحضارتنا التقليدية، وبمعنى آخر إنها طريقتنا في العيش والوجود. وينبغي لهذا الجمع أن يتم في المجتمعات التي أبدعتها وفي الجماعات الاجتماعية أو الأفراد الذين يمتلكون المعارف والشهادات والتقاليد. والواقع أن المؤتمنين على هذه الذاكرة الجماعية في إفريقيا (الشيخ والشعراء الموسيقيون وكذلك المرأة) لا يدخرون جهداً في نقل هذا التراث الشفوي بكل دقة مثلما تلقفوه «دون أن يضيفوا إليه أو يزايدوا عليه»، مما أتاح اليوم إعادة بناء جزء من تاريخ إفريقيا القروسطوية. والمثال الساطع هو، بلا شك، «تأسيس إمبراطورية الماندينغ (Empire Mandingue) أو «ميثاق كوروكان فوغا» (Charte de Kurukan Fuga). وقد تمت إثارة مسألة ميثاق كوروكان فوغا (دائرة كانغابا «Kangaba» في جمهورية مالي) عام 1236 بعد أن تحررت الماندينغ من نير سلطة الملك سومانكورو كانتي (Soumangouro kante) أمير سوسو (Sousou) (حوالي ما بين عامي 1203 - 1235) الذي استولى على إمبراطورية غانا. وبعد إعادة بناء ميثاق كوروكان فوغا بفضل التراث الشفوي بدأ «كأحد الأنظمة التأسيسية في العالم وأحد أنواع التنظيمات الراقية التي ما زال امتدادها سارياً حتى أيامنا، صحبة مختلف المواثيق التي تتحكم في حياة أممنا وجماعاتنا الدولية».

ويوضح هذا المثال جيدا الحاجة الماسة لجمع التراث الشفوي .

إن الإشكال موضوع الجدل بين الباحثين يكمن في صفة هذا الذي يقوم بعملية جمع الأرشيفات الشفوية. وكما نبه إلى ذلك ساليو مباي<sup>3</sup> (Saliou Mbaye) فإن بعض الباحثين في مجال الأرشيف والكتبيين (bibliothécaire) أو الباحثين يرون أن الباحث الأرشيفي أو الكتبي لا ينبغي لهما أن ينشغلا بالأرشيفات الشفوية إلا عندما يلجان مستودعا للأرشيفات أو للمكتبة. ويعتقدون أن ليس للباحث في الأرشيف وللكتبي الوقت، ولا المؤهلات للاهتمام بعملية الجمع .

ومن جهة أخرى يرون أن على الباحثين في الأرشيف المساهمة في خلق وإيجاد هذه الأرشيفات وبالتالي فهم مهياون بما فيه الكفاية لمجموع السلسلة التوثيقية، بدءا من الجمع وانتهاء بالتقييم مروراً بالمعالجة والصيانة. ومؤكداً أن هذا هو الذي يفسر كون وحدات خاصة تدمج ضمن برامج تكوين محترفي المعلومة التوثيقية، ناهيك عن الندوات والأورش الدولية المنظمة في بلدان مختلفة لصالحهم حتى يتمكنوا من اكتساب المؤهلات المطلوبة للقيام بعملية جمع الأرشيفات الشفوية ومعالجتها وصيانتها وتأمينها .

إن الأهمية المتزايدة التي تنطوي عليها الأرشيفات الشفوية في كتابة تاريخ بلداننا، وكذا في تدبير الملفات المعقدة من قبيل فض النزاعات المختلفة جعلها تدرج ضمن التشريعات المتصلة بأرشيفات كل البلدان تقريبا. هكذا دخلت الأرشيفات الشفوية إلى خزائن الأرشيف بنفس الطرائق التي دخلت بها الوثائق المكتوبة سواء من خلال تحويلها إلى مجموعات كاملة أو كتكملة لمجموعة، أو عبر الهبة والتخزين والشراء أو الاستعادة. ومع ذلك ينبغي الإشارة إلى الأرشيفات التي يصعب الوصول إليها واتخاذ التدابير اللازمة للوصول إليها.

### معالجة الأرشيفات الشفوية وصيانتها

تكمن الغاية من جمع الأرشيفات الشفوية في وضعها رهن إشارة الباحثين. وفضلا عن ذلك ينبغي تصنيفها وحفظها في خزائن خاصة؛ فعلى الباحث الأرشيفي الذي يتلقى مدونة من الأرشيفات الشفوية أن يقوم بتقييمها وفرزها قبل وصفها طبقا للمعايير المعمول بها في مؤسسته. ومع ذلك يُنصح باستعمال معايير الوصف الدولية الموحدة. فهناك المعايير العامة والدولية للوصف الأرشيفي (ISADG) فيما يتصل بالباحثين الأرشيفيين، والمعايير الدولية للوصف البيبليوغرافي (ISBD / NBM) بالنسبة للكتبيين. وقد يحدث مع ذلك أن تختلف المعالجة من مؤسسة إلى أخرى، وكل مؤسسة تستخدم معاييرها الخاصة في الوصف والصيانة (لائحة منظمة من العناصر أو وصف دولي موحد). وهذا التنوع في مجال معالجة الأرشيفات الشفوية أفضى بالمنظمات الدولية من قبيل المجلس الدولي للأرشيفات (ICA) والفيدرالية الدولية لجمعيات الكتبيين (FIAB) إلى العمل من أجل توحيد وصف هذه الوثائق التي نجدها في الأرشيفات والمكتبات في آن واحد.

ومع ظهور تكنولوجيا المعلومات والتواصل دخلت المناهج الأوتوماتيكية على الخط لتقلب رأسا على عقب المناهج الكلاسيكية في معالجة الأرشيفات الشفوية وصيانتها. وهكذا تم وضع برمجيات (logiciels) في السينغال من قبيل برنامج (AIME) (الأرشفة التفاعلية لوسائل الاتصال المتطورة) المستخدمة في الإذاعة والتلفزة السينغالية (RTS) والتي بدا أنها استجابت لمعظم الانشغالات المتصلة بحماية الأرشيفات السمعية البصرية؛ وهو برنامج يسمح بقدرة هائلة في التخزين تصل إلى 80000 ساعة Mpeg4.

وفيما يتصل بحماية وصيانة سندات المعطيات (supports) المكونة عموما من الأشرطة وحتى من الأقراص المدمجة (DVD و Cd) و مفاتيح التخزين (USB) فمن الضروري تسجيل نسختين من أجل التواصل خاصة

بين الباحثين، بينما يُحتفظ بالأصول معزولة في مواضع خاصة بحرارة لا تتعدى 18 درجة وتحت رطوبة نسبية من 45 درجة.

### تداول الأرشيفات الشفوية وتأمينها

يتم تداول الأرشيفات الشفوية بالطرق نفسها التي تُتداول بها الأرشيفات المكتوبة، مع استحضار خاصيات قواعد الوصول إليها. ويبدأ هذا التداول بالضرورة بمعاينة أدوات البحث المُعدّة والمتاحة. ومع ذلك ينبغي على الباحث أن يتحكم في التقنيات اللازمة من أجل فهم جيد لتسجيل ما والاستعانة عند الحاجة بمختص.

وهناك أدوات للبحث مهيأة ومتطابقة مع المعايير المستخدمة تُتيح الوصول إلى المعلومة المُتضمنة في الأشرطة المغنطة وسندات المعطيات الأخرى. وتختلف أدوات البحث من حيث جودتها وأشكالها؛ فمن الممكن أن يتعلق الأمر بلوائح أرشيفية مذيعة بفهرس ألفبائي لأعلام جغرافية خاصة، وبكلمات-مواد وبنوك وقواعد معطيات معلوماتية، كما يمكن لهذه الأدوات أن تكون في شكل فهارس أو لائحة واصفة.

لقد عمّد الغربيون إلى تحريف تاريخ إفريقيا إما من خلال التنكر لثقافتها، أو التقليل من إسهامها في الحضارة الكونية. وقد قاموا بنشر معلومات مغلوطة ورسموا صورة لا تعكس البتة حقيقة القارة الإفريقية في جوهرها. في هذا الاتجاه نفهم تلك الدعوة التي أطلقها الرئيس السنغالي عبد الله واد إلى المؤرخين بحثهم على إعادة كتابة تاريخ إفريقيا؛ فقد حان الوقت ليزود الإفريقيون عن إفريقيا وكذلك الذين يحبونها ويعرفونها حق المعرفة. لهذا وعلى هامش الدورة 37 من مكتب المؤتمر الدولي للمائدة المستديرة حول الأرشيف (CITRA) المنعقد بكاب طاون (Cape Town) قامت مجموعة مكونة من عشرة وزراء من إفريقيا الشرقية والجنوبية مسؤولين على تراث بلادهم الأرشيفي بنشر «بيان حول الأرشيفات في إفريقيا» في 21 من أكتوبر عام 2003، مُصرّحين «أن التراث الأرشيفي في إفريقيا، سواء تعلق الأمر بالكتاب منه أو الشفوي أو الإلكتروني، يشكل مصدرا ثميناً ينبغي تدبيره بشكل جيد وأن يصاب بعناية فائقة ويكون في متناول الجميع سواء بين يدي الأجيال الحالية أو أجيال الغد».

وعلى إثر نشر هذا البيان الذي من المؤكد أنه سيحظى فيما بعد بأهمية تاريخية، قام المشاركون في توصياتهم أثناء تلك الدورة بدعوة الحكومات الإفريقية إلى تنظيم مؤتمر يجمع كل بلدان إفريقيا حول «تدبير التراث الشفوي وصيانته ضمن منظور متعدد الاختصاصات» بتنسيق مع المجلس الدولي للأرشيفات.



صورة من الحياة اليومية  
بإفريقيا الغربية

شكل معماري من المدن  
العتيقة بموريتانيا

كما أدركت اليونيسكو مبكرا أهمية الشفاهية فأسست، من جهة أولى، عام 1967 مركزا للدراسة اللسانية والتاريخية للتراث الشفوي، في إفريقيا الغربية بنيامي (Niamey)، ومن جهة ثانية مركزا جهويا في إفريقيا الوسطى بياووندي (Yaoundé) للبحث والتوثيق، يُعنى بالتراث الشفوي ويهدف تطوير اللغات الإفريقية (CERDOTOLA). وتشتغل هاتان المؤسساتان بجمع التراث الشفوي وتثمينه وصيانته<sup>4</sup>. وتشكل الشفاهية في السينيغال مصدر انشغال بالنسبة لأصحاب القرار الذين كانوا من بين من وضعوا، منذ التنظيم الأول للمهرجان العالمي لفنون الزنج المنعقد بداكار عام 1966، عددا من المؤسسات المكلفة بجمع التراث الشفوي مثل مركز دراسات الحضارات الذي أنشئ عام 1972، والأرشيفات الثقافية التي أنشئت سنة 1976.

ومن أجل تثمين أفضل للأرشيفات بوجود هذه الإرادة السياسية لدى المسؤولين الأفارقة فإنه ينبغي اتخاذ جملة من التدابير أو تعزيزها بهدف استثمار أمثل للأرشيفات الشفوية، إذ يجب على الباحث أن يزود بالوسائل والإمكانات الضرورية لكي يوظف توظيفا سليما المادة المتاحة بين يديه في وحدات الصيانة والتخزين. ومن المفيد وضع سياسة لتعميم أصول الأرشيفات الشفوية الموجودة وإتاحة أجهزة السماع والاستثمار الراقي من حيث الأداء وكذا فضاءات للفحص والمعاينة تستجيب للمعايير المتعارف عليها (قاعات عازلة للصوت، إضاءة كافية، كراسي، مقاعد وطاولات مناسبة، تهوية صحية)، كما يجب على مجموع أدوات البحث و اللوحات الإعلانية أن تكون متوفرة.

وينبغي على خزائن الأرشيف والمكتبات وذوي الأرشيفات الشفاهية الآخرين الكشف عن أصولها [للعامة] عبر تنظيم عدد من الأنشطة : تنظيم معارض على أساس النصوص المدونة والتحفيز على إبداع أفلام وثائقية لعرضها على القنوات التلفزيونية وبرامج على الراديو والتلفزيون وكذا محاضرات وموائد مستديرة أو ندوات .

### خاتمة

لئن كانت إفريقيا مهد الإنسانية فينبغي الاعتراف أنه ما زال هناك الكثير مما يُنتظر إنجازه من أجل جمع الأرشيفات الشفوية وصيانتها ونشرها وتثمينها.

وبالنظر إلى المجالات التي وُظفت فيها الأرشيفات الشفوية من قبل مختلف مستعمليها والآفاق التي تتيحها للقارة الإفريقية فمن قبيل التوهم الاعتقاد بأن المكتوب وحتى التكنولوجيا الجديدة للمعلومات والتواصل في وسعها أن تحل محل كل الشهادات الشفاهية وهذه الأمثال والعلامات والإشارات وباختصار محل هذه الأدوات التي لا غنى عنها أبدا في إعادة بناء الماضي وفهمه.

وينبغي على الجهود المبذولة أن تستمر كي تُسهّم الأرشيفات الشفوية في «وضع اليد على المواضيع» التي حُزنت فيها المعارف والكشف عن «الأوساط الإنسانية» التي أنتجت تراكمات خاصة من المعارف (وهي أوساط للإخصاب والتجديد والابتكار)، وبناء قنوات للنقل والتوصيل، من شخص إلى آخر ومن مصلحة إلى أخرى، ناهيك عن تحديد وحصر «المواضع» التي تغيب فيها الذاكرة حيث لم يعد نقل المعلومة أمرا قائما أو أنه يتم بشكل ناقص أو أنه ليس معمولا به البتة .



## الهوامش

1 - Camara, L., *Le haut Niger vu à travers la tradition orale*, Thèse d'histoire, Université de Dakar, 1963.

2 - Mbaye, S., *Les archives orales au Sénégal : Un patrimoine en péril*.

3 - Mbaye, S., *Les archives orales : cours donné à l'EBAD, FADIS*.

4 - Mbaye., « Les archives orales : Un patrimoine en mutation ». *in Archivum, vol. XLII, pp. 187-196*



مسجد تنبكت حسب روني كايي، 1828

## بيبلوغرافيا

Camara, L., *Le Haut Niger vu à travers la tradition orale*, Thèse d'histoire, Université de Dakar, 1963, 2 tomes, 507 p .

Kouyate, N., *Conservation des traditions orales Sereer et Guelwar*, revue socialiste de culture négro-africaine 1981.

Mbaye, S., *les archives orales : cours donné à l'Ebad, Fadis* .

Mbaye, S., *Les archives orales au Sénégal : un patrimoine en péril* .in *Archivum*, vol .XLII, pp. 187-196.

Mbaye, S., *Communication sur les archives en Afrique de l'ouest : Un patrimoine en mutation*, École des chartes, Paris, 2004.

Ki-Zerbo, J., *La tradition orale en tant que source de l'histoire africaine*, *Diogenes*, n° 67, juillet/octobre 1969, pp. 127-142.

Vansina, J., *De la tradition orale ...* , in : « *Annales du Musée royal de l'Afrique centrale* », Série Sciences humaines, 36, 1961.





# حكايات من غرب الصحراء

## بيير بونت

يعد التقليد الشفوي أحد المواضيع المتميزة التي حظيت باهتمام بالغ في سياق رصد وتوثيق الموروثات الثقافية (patrimonialisation) في عصرنا بل أحد رهاناته الكبرى، نظرا لطابعه المنفرد وللقطائع التي تطبع رواية هذا الصنف من مكونات التراث عامة. وقد انصب البحث والتوثيق - بغاية حفظه - كذلك على الأدب الشفوي بأشكاله المتنوعة من شعر وحكايات وأمثال إلى غير ذلك؛ غير أنه لم يكن ليطل جوانب أخرى من هذا التراث. ولقد استرعت اهتمامي أثناء اشتغالي حول العالم الصحراوي، وتحديدًا الطوارق والموريتانيين، محكيات خاصة تسرد «قصصا» لكي تقول لنا التاريخ لاسيما حول القبائل و«القصور» والواحات المرتبطة بدول أو تشكيلات سياسية يندرج ضمنها الأهالي الصحراويون ويتماهون معها. وسأتحدث منذ الآن عن «حكايات الأصل» كما سأقدم شرحا مفصلا لهذا المصطلح لاحقا.

سأستهل حديثي، مثلا، بتلك الحكايات عن الأصل التي أثارت تساؤلاتي على وجه الخصوص. وتعتبر حركة المرابطين، بمكوناتها السياسية والدينية، التي عرفت النور في الغرب الصحراوي إحالة متميزة لدى السكان الحاليين لهذه المنطقة ولدى غيرهم من الصحراويين. إنه موضوع معروف بفضل ما رواه عنه الكتاب المغاربة من البكري إلى ابن خلدون. وهذه الحكايات التي تختلف أحيانا بل تذهب إلى حد التعارض أحيانا أخرى، تبرز البعد السلالي الحاكم لحركة المرابطين، وهو طابع سيتجلى بوضوح عبر فتوحاتهم بكل من المغرب الكبير والأندلس كما سيتضح بعدها الديني وتمفصله مع السياسي في المراحل الأولى الصحراوية والمغربية لهذه الحركة، وهو ما نظر له ابن خلدون. وعلى العكس من ذلك لم تكن هذه الحكايات لتولي كبير اهتمام لمصير المرابطين الصحراويين بعد العودة النهائية للأمير أبي بكر إلى الصحراء (1072) ووفاته (1087) ولا لما يرتبط بمصير هذه الحركة بعد موته.

زيارة مقبرة للأجداد  
(ناحية السمار)



قبة زاوية الشيخ  
ماء العينين بالسمارة

إن المحكيات التي جمعتها بعد مؤلفين آخرين (مارتي Marty، لوريش Leriche، نوريس Norris وغيرهم) تختلف اختلافاً بيناً، ويمكن أن تتعايش مع الحكايات المغربية وهي للمؤلفين معروفة أعمالهم بالصحراء. ولئن لم يذكروا الأصل الصحراوي لهذه الحركة فإنهم يربطون بدايتها بقدوم أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، هذا الرجل الذي ستفضي نشاطاته العسكرية إلى نشر الإسلام بالصحراء والسودان كما ستكون عاملاً من عوامل تقسيم مجتمع البيضان إلى ثلاث طبقات هي المحاربون والزوايا والفئات المنتجة الغارمة. وستنظم هذه الحكايات حول وجوه جديدة إلى جانب أبي بكر، ونذكر منها على سبيل الخصوص الإمام حضرمي، تلك الشخصية الأسطورية التي غالباً ما تقتربن بأبي بكر فضلاً عن كونه شخصية تاريخية كذلك حيث سيلتحق بالمرابطين بعد وفاة عبد الله بن ياسين. إنه كذلك فقيه سيصاحب أبا بكر بالصحراء وسينهي حياته قاضياً بأزوكي. وسيواجه كلا من الأمير والإمام في المعارك التي خاضها البافور (Les Bafür<sup>1</sup>) المشهورين الذين استوطنوا أرضاً تطابق إلى حد ما المساحة الممتدة - من أدرار إلى جيلة - إلى مكان استقرار كدالة وهي فرع من فروع صنهاجة كان معارضاً للمرابطين. ويعد هؤلاء البافور «بيضا» أو «سودا»، مسيحيين أو يهوداً أو مجوساً أحياناً، وقد انتظموا حول مدينة تسمى مدينة الكلاب - وهي مدينة الكلاب الشرسة التي تحميهم - كما أنهم عارضوا الغزو المرابطي و«جيش لتونة».

إن التحاليل الأولى التي قمت بها لهذه الحكايات في أطروحتي<sup>1</sup> اعتماداً على المنهج البنوي ترتكز على عنصر الكلاب الغريب هذا، وقد سبق ذكره في الحكايات المغربية مع إبادة كلاب سجلماسة لما احتل المرابطون المدينة من جديد. واقتفاء لأثر كتاب آخرين ربطت هذه الظاهرة بممارسات أمازيغية في أكل الكلاب وهي مأثورة لدى الأمازيغ القدماء، كما ذكرها لوفيكوي (Levicki) وأكدها عدد كبير من الكتاب العرب. ونجد لها صدى كذلك في العصور الوسطى في حوض النيجر في ثانياً أعمال عالم الآثار البلجيكي فيرل لينسيل (Veerle Linseel). أما اليوم فيمكن ملاحظة حضور هذه الممارسة في الأوساط المرتبطة بالإباضية. واستمرار هذه الطقوس، المرتبطة قديماً بخصوبة المرأة وتسمينها، لدى جماعات بشرية تنتسب روحياً إلى الخوارج، أمر يسترعي الانتباه إلى البافور المقاومين للطريقة المرابطية، إذ يحيل مصطلح بافور هذا على جماعات ذات توجه قريب من الخوارج أو يعتبرها كذلك المذهبيون المتشددون من أهل السنة المرابطين. ونعت البافور بالنصارى أو اليهود أمر يميزهم عن المجوس ويسمح بتصنيفهم ضمن «أهل الكتاب».

إن هذه الحكايات تتحدث عن النزاعات الصحراوية التي أدت إلى عودة أبي بكر أكثر مما تتحدث عن غزو الصحراء والسودان وإدخالهما إلى الإسلام. ومشروعية المرابطين هنا ترتكز على استشهاد أبطالها المؤسسين في ظروف تشابه بشكل غريب - أي بسهم رماه أحد الرماة من الأعداء - لا على الفتح الإسلامي كما هو الحال في



باب زاوية الشيخ  
ماء العينين بالسمارة

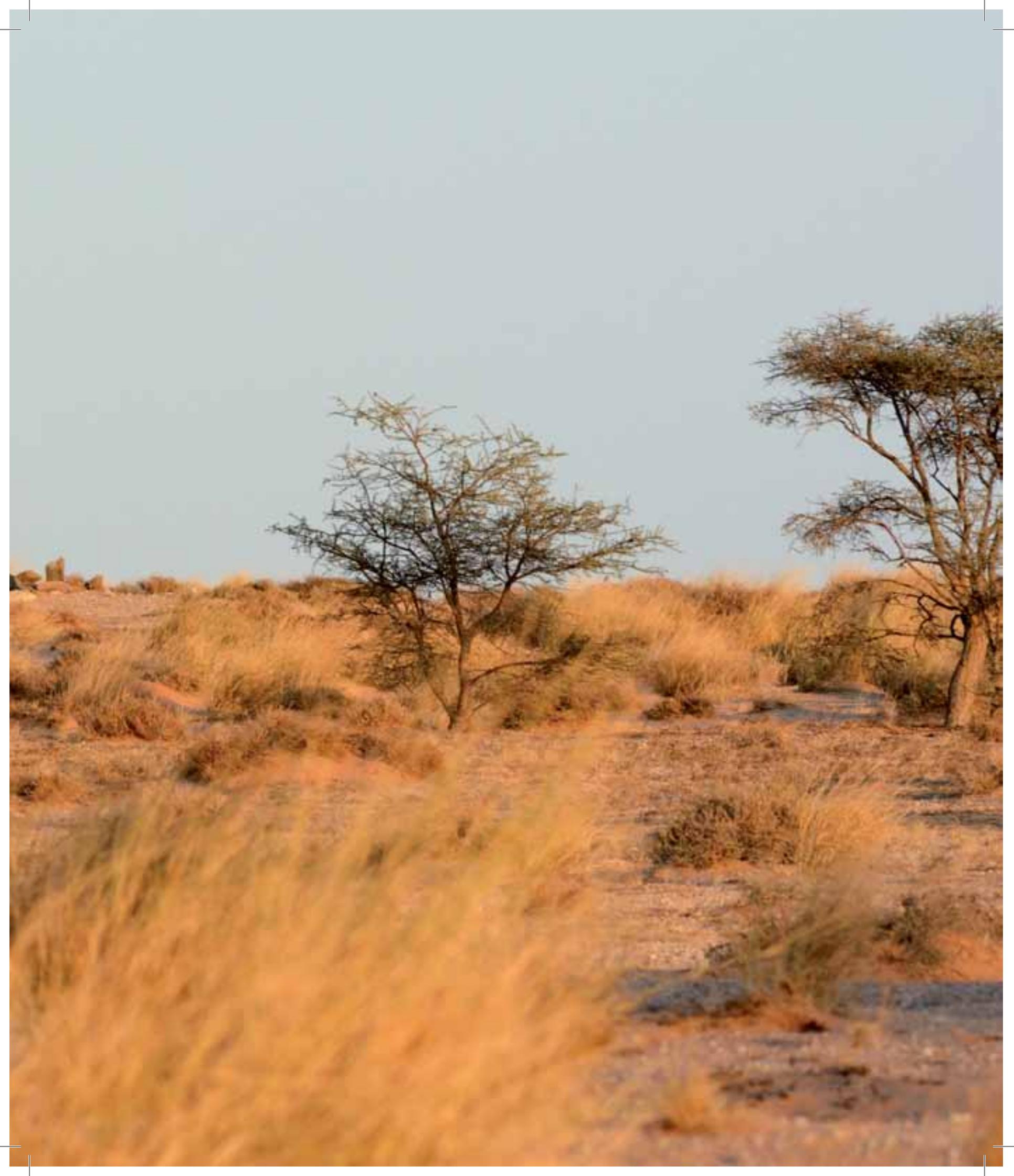
المغرب الكبير والأندلس. ورغم بعض الحكايات القليلة الأخرى التي تذكر استمرارية الحركة، فلا يتعلق الأمر بمشروعية دولة إسلامية عادلة. وبمناى عن تأسيس سلالة صحراوية حاكمة فإن خلف أبي بكر المذكورين في حكايات نادرة سيكون عليهم أن يقبلوا، إلى جنب البرابرة الصحراويين الصنهاجيين ولعدة قرون، هيمنة دول سودانية اعتنقت الإسلام، وذلك أيا كان الدور الذي اضطلع به هؤلاء السكان الصحراويون في تأسيس هذه الدول (أحيل هنا على موراييس فارياس بصدد سونغاي والطوارق (Songhay et Touaregs)).

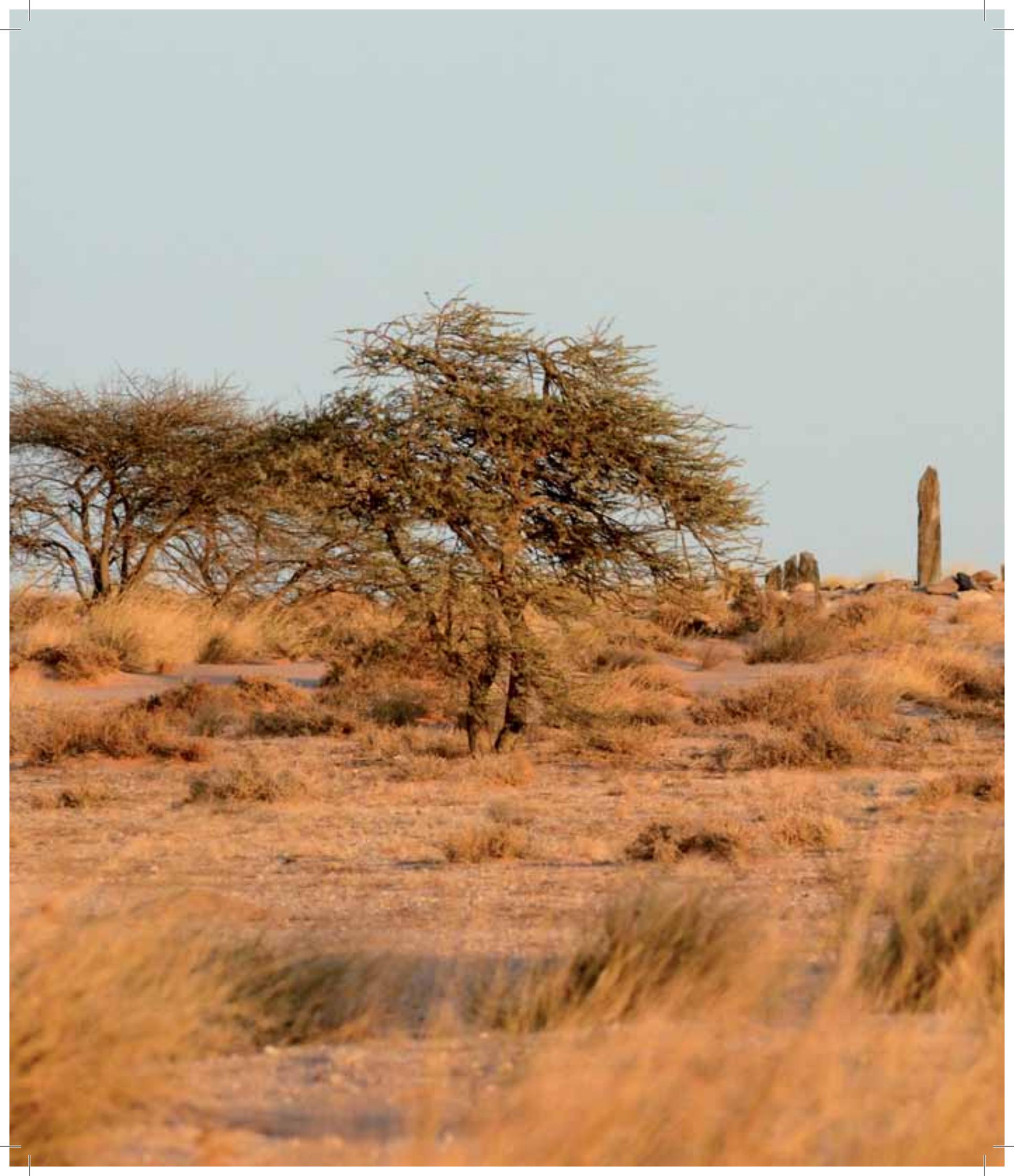
لقد استطعت منذ كتابة أطروحتي أن أعظم التفكير حول حكايات الأصل هذه وأن أوسع بالتدريج المتن الذي كونته انطلاقا مما قمت بتجميعه شخصيا أو اغترفته من الأدبيات التي رجعت إليها. والمؤلف الذي أنا بصدد كتابته حول هذا الموضوع ينبغي أن يحل بادئ ذي بدء مسائل تخص وضع هذه الحكايات والقواعد المنهجية لمقاربتها، وحول ذلك سأقول بعض الأمور الآن. لقد انتهيت إلى نتيجة مفادها أن هذه الحكايات تنتشر في مجتمعات أخرى، غير أنني انتهت كذلك إلى ندرة الدراسات حول هذا الموضوع في العالم الإسلامي ما عدا بعض الاستثناءات القليلة كما هو الحال مثلا بالنسبة إلى عدد من مجلة الدراسات عن العالم العربي والإسلامي (REMM) نشرته دونيز إيجل (Denise Aigle)<sup>2</sup> حول «الوجوه الأسطورية للشرق الإسلامي» أو بعض الأعمال المتفرقة، نذكر منها دراسات نوريس وموراييس فارياس (Moraes Farias) حول المناطق الصحراوية. والواقع أن وجهتي نظر تتعارضان عندما يتعلق الأمر بوضع هذه الحكايات.

الطبيلة، مكان تعبد الشيخ  
أحمد لعروسي (ناحية السمارة)

الصفحة الموالية : مدفن جنازري  
(تيرس)







لقد اعتبر مؤلفون قلائل أنهم يعالجون واقعا تاريخيا تستعرضه لغة ينبغي فك أسرارها. وذلك حال أعمال ديرك لانج (Dirke Lange) حول الصحراء والسودان الأوسط (نموذج دول الشرق الأوسط) أو أعمال جاك حريكي (Jacques Hureiki) حول أصل الطوارق العربي والمسيحي الشرق أوسطي.

لقد أهمل هذه الحكايات معظم الكتاب كما لو أنها لا تنتمي للمتخيل الجماعي، بينما ارتأى بعضهم أن يعزوها إلى أجناس أدبية شفوية انطلقا مما ستفضي إليه تخاليلهم. وهكذا تحدث البعض عن روايات وأساطير وقصص بطولية<sup>3</sup> «Sagas» (نوريس)<sup>4</sup> كما تحدثوا عن ملاحم وخرافات وهلم جرا. ويعكس تعدد المصطلحات ضبابية نجدتها في المناهج المعتمدة في دراسة هذه الحكايات؛ وبالتالي فقد أثرت أن أخذ بالتساؤلات التي طرحها المؤلفون الذين اختاروا السبيل الثاني. فيم تكمن «حكايات الأصل» هذه التي تزرخ بها روايات «أهل الكتاب» في حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا والتي يوليها الأفضلية كل من المؤلفين «الغربيين» من «روائيين» وكتاب القصص البطولية والملاحم في العصور الوسطى والمؤرخين المسلمين؟ وسأبدأ ببعض الملاحظات العامة.

إن «حكايات الأصل» ليست حكايات «أصول» حتى ولو كانت على شكل أخبار مثل تلك التي كتبها غريغوار دي تور (Grégoire de Tours) قرونا بعد الأحداث التي تحكي عنها، أي نشأة مملكة «الإفرنج» ومعمودية كلوفيس؛ فغالبا ما تؤلف الحكايات هذه في وقت لاحق اعتمادا على وقائع ماضية واقعية أو خيالية، بطولية أو وهمية. وهكذا يعاد دوما وضعها في سياقات جديدة كما تبين ذلك دونيز إيجيل التي تسجل إعادة تكييف حكايات بعض الرموز مثل صلاح الدين أو بيبرس «المجاهدين» أو مثل البطل المؤسس في الروايات التي تنشئها الدول الوطنية الجديدة، بل حتى في ما لا يمت إلى الإسلام بصله عندما يتعلق الأمر بالإسكندر الأكبر أو بالأبطال الوارد ذكرهم في التوراة. إن لهذه الرموز والشخصيات حمولة هوياتية قوية يمكن أن تشترك فيها فئات اجتماعية مختلفة، ولعل ذلك ما ينجم عنه التنافر الواضح بين الحكايات. ويبين عبد المجيد هنوم (Abdelmjid Hannoum) في أطروحة دكتوراه ناقشها ببرينستاون حول الكاهنة، مدى اختلاف الإحالات على هذه الشخصية «ملكة الأوراس»، حسب الإيديولوجيات الوطنية المغاربية في السياق الكولونيالي أو منذ الاستقلال لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين، إلخ.

وينبغي أن نسجل أن جنس «حكايات الأصل» هذا يظل منفتحا على الحداثة؛ وتشهد على ذلك حكاية التقطتها من مؤسسة مدينة الزويرات المنجمية، وهي حكاية تعود إلى خمسينيات القرن الماضي؛ فقد رمى عالم جيولوجي أسترالي معروف في حقبة التنقيب تلك بقبعته من طائرة تحلق حول تلك الأماكن، وستبنى المدينة في المكان الذي سقطت فيه القبعة. ويمكننا أن نقارب بين هذه الحكاية وتلك التي تشرح تأسيس القصر القديم بشنقيط، ذلك أن الولي محمد غالي أضاع بسبب الريح ورقة من مصحفه فتبعها حتى سقطت وكان بناء القصر السالف الذكر هو مكان سقوطها. ولعل عرض القبعة / الرمز لمدة في متحف ميفيرما (MIFERMA) الصغير الواقع بفديريك (Fderik) قد ساهم دون شك في إضفاء معنى جديد له دلالاته.

والنتيجة أن تحليلا معمقا لمكانة حكايات الأصل هذه يفضي بنا إلى إثارة أربع مسائل سأخصها الآن على أن أفصلها في مداخلتي النهائية، وهي مرتبطة بالمتن الذي كونه لكنها قد تكون أعم من ذلك:

إنها تهدف إلى شرعنة سياق سياسي ناجم عن نشر الإسلام ويتمحور موضوعه حول الجهاد لدى المرابطين، وهو موضوع سنجدته ثانية عند شار بوبا (Sharr Bubba) ستة قرون بعد ذلك، هذا بالإضافة إلى موضوع الشهيد. هناك كذلك موضوع آخر ينحدر من هذا السياق وهو العلاقة بين «العنصر الدخيل» و«الساكن

الأصلي» ويتم تصريفها عبر أشكال مختلفة: البربر والعرب، الأجنبي والمسلم (شريف أو ولي) أو عربي لا أقل ولا أكثر، بينما جاء قبل الإسلام أو فاتحا ساهم في التوسع الإسلامي.

إنها تثنى الحجة المبنية على النسب في تأسيس القبائل أو الدول ولكن أيضا البعد الذي يضيف طابعا كونيا على النسب، هذا الذي نجد له روايات لدى «أهل الكتاب» عبر الرموز التوراتية والقرآنية ويميز الأصول العربية بعضها عن بعض أو العرب عن البربر.

إنها تضع في المرتبة الفضلى البعد المقدس الذي يندرج ضمن خانة أكثر شساعة هي البعد الغرائبي الخارق الذي سيحتفظ بصورة عن الشهيد كما هو الحال بالنسبة إلى عقبة بن نافع فاتح المغرب أو بصور للقداسة؛ وهذا البعد يفتح على حقل واسع من المرجعيات تختلف مع ذلك شيئا ما عن حقل «طقوس الأولياء» بالمغرب.

إنها ترتبط أساسا بالطابع الشفوي وإن كانت روايتها قد تمر عبر الكتابة، وهذا اتجاه يفرض نفسه مع توثيق التراث وينجم أساسا عن الوعي بمحدودية النقل الشفوي وعدم نجاعته. إن الإيقاع الشعري المنتشر في العالم الصحراوي يفتح الأبواب مشرعة أمام وساطة النظام الشفهي ولا يعرض عن الشكل الكتابي رغم أنه يؤثر الرواية الشفوية في آخر المطاف. ويبدو لي أن التمييز بين الرواية الشفوية والكتابية غير ملائم في هذه الحالة؛ ويمكننا أن نتساءل قائلين: ألا تنتسب حكايات الأصل المغاربية عن المرابطين، التي ميزناها عن التقليد الشفوي الصحراوي، إلى الجنس نفسه الذي تنتمي إليه الحكايات الصحراوية التي نعالجها هنا؟

هناك مؤلفان وجهاني في نهاية الأمر خلال بحثي مجددا عن تعريف للمكانة الإيستمولوجية والمقاربات المنهجية لحكايات الأصل. لقد أثار المسترقون (Africanistes)، على إثر فانسينا (Vansina)، في الستينيات مسائل مشابهة لكنهم ما كانوا ليعيدوا إلى بساط البحث مبادئ النقد التاريخي ووضع الوثائق المنحدرة من أصل شفوي في سياقها. والسؤال المطروح يمكن أن يكون على الشكل التالي: كيف يمكن التوفيق بين الطابع التاريخي الذي تكتسبه هذه النصوص بكل تأكيد، والذي يميزها عن الأساطير مثلا، وبين مكانتها كنصوص تقتسم بكل تأكيد كذلك مجموعة من السمات مع تلك الأساطير ومع أجناس أدبية أخرى أصلها الرواية الشفوية (خرافات، ملاحم، قصص بطولية «Sagas»...)?

لقد بدا لي أن هذا السؤال عولج بشكل مناسب على يد مؤرخ قديم، لأن المؤلف الذي أحيل عليه (الملوك السحرة (Les rois thaumaturges) يعود إلى سنة 1924. ويتعلق الأمر بمبارك بلوك (Marc Bloch). وينطلق هذا المؤرخ من معمودية كلوفيس - وهي تعد فعلا مؤسسا للملكية الفرنسية التي ستقيم علاقات مع المسيحية - ليربط بها مجموعة من الحكايات تتعاقب تاريخيا. وهكذا تحدث عن جان دارك (Jeanne d'Arc) مرورا بالقديس لويس (Saint Louis) اللذان يضيفان على هذه الملكية طابعا قدسيا عبر مجموعة من الإحالات الوقائية: زهرة الزنبق التي حملتها الملائكة، دهن الملوك بـ «الزيوت المقدسة»، الرسالة الإلهية لجان دارك. ويجد هذا الطابع المقدس تعبيرا له في القدرات الخارقة، حد المعجزة، للإقطاعي الذي يشفي المرضى المصابين بنوع من السل كان ينتشر بين الفينة والأخرى. وهذه السمات التي يمكننا أن نقارنها بتلك التي قدمناها في الحكايات الصحراوية، والتي تذكر كثيرا بالمملكات المقدسة الإفريقية التي درسها فانسينا على وجه الخصوص، لا تكون ذات دلالة إلا من منظور أكثر شمولية، منظور مؤسس للهوية الفرنسية يتجاوز قطائع السلالات الملكية والنزاعات الداخلية برعاية المقدس. إن بناء هذا «التاريخ» الذي لا يمت مضمونه بصلة إلى التاريخ الذي يبنيه المؤرخون «العلميون» قد تم إقراره مع ظهور الأمة الفرنسية الجمهورية كما شكل لمدة طويلة لحمة النظرة التاريخية التي تقدمها المدارس الجمهورية.

بعد أن أعدت قراءة كتابات مارك بلوك استنتجت أن حكايات الأصل، دون الطابع التاريخي الذي يعترف لها به، يجب أن تدرس كما تدرس الأساطير. وكان من المنطقي أن أرجع إلى كاتب آخر هو كلود ليفي ستراوس الذي أعاد بناء «التحليل البنيوي» للأساطير في سلسلة من مؤلفاته، الأسطوريات (Mythologiques) التي امتد نشرها من 1946 إلى 1971. ففي دراسته لمتن يتكون من 800 أسطورة من أساطير الهنود عمل على تحليل داخلي لهذه النصوص يحدد عناصرها المكونة أي «الدوال» التي يوليها الخطاب الأسطوري معنى (أذكر هنا بالمثل الذي أوردته في البداية: الكلاب، البافور، الشهيد...). وهذا المعنى لا تمنحه هذه المقولات الأساسية أو الوحدات الأسطورية (mythèmes) كما يسميها ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) لكن تمنحه الروابط المنطقية التي تجمع بينها في النص أو بالأحرى في النصوص، لأن هذه الروابط المنطقية لا تبرز بجلاء إلا إذا تمت ملاحظة متن كامل من النصوص لا نصا واحدا فقط، حينها تتجلى علاقات تكامل وتعارض وإضافة وتعاكس. وهذه هي الطريقة التي اتبعتها في تحليلي لحكايات الأصل والتي سأبينها في تحليل سلسلة الحكايات الخاصة بالشريف بوبزول، ولا يسعني هنا إلا أن أذكر ببعض سماتها.

وتتركز هذه السلسلة حول وجه الشريف متنقل عبر عدة قبائل وحتى قرية من قرى الـولوف (wolof) حيث سيتزوج بامرأة بها مس من الجن، وسيعالج هذه المرأة ويرزق منها بولد سيحاول الهروب معه من ضيوفه وسيجد نفسه مرغما بالضرورة على إرضاعه. والوحدات الأسطورية هي هنا المواضيع المتعلقة بالسكان الأصليين والأجانب والذكورة والأنوثة والجنون والمس والبركة والحليب والنسب إلى الأم والأب، إلخ. وتندرج هذه الحكايات في سياق شرعية تعريب مجتمع زناثة المنحدرة من المرابطين والعمل على المت بصلة النسب إلى أسلاف عرب في الوقت الذي يتم فيه المرور من انتساب «بربري / طوارقي» (من ناحية الأم) إلى انتساب عربي (من ناحية الأب). وتحدد هذه الحكايات تاريخيا بذكر أحداث معاصرة للشريف ووجود قبره قرب نواكشوط العاصمة الحالية لموريتانيا. ولقد أتيت لي أن أفهم الروابط المنطقية العاملة في أساطير البيضان بفضل أساطير مؤسسة لدى الطوارق تعالج هي كذلك السلف الأنثوي الأصلي والسلف العربي الأجنبي بصيغ فيها تكامل وتعارض وإضافة وتعاكس.

وسلسلتنا الحكايات اللتين بدأت بهما التحليل، وأقصد حكايات الإمام الحضرمي والبافور من جهة والشريف بوبزول من جهة أخرى، هما أجزاء أساسية من الكتاب الذي أنا بصدد تأليفه، وسيضم مجموعة حكايات أخرى موازية ستؤدي بي في الوقت نفسه إلى إدماج حكايات سودانية جمعت من السينغال ومالي، وإلى الانكباب ثانية على حكايات الأصل لبرابرة المغرب، تلك التي تكاثرت في العهد البيزنطي والإسلامي بإفريقيا الشمالية والتي تندرج ضمن المتن الذي كونته.

كلمة أخيرة لا بد منها حول صيانة هذه النصوص سعيا وراء تحقيق أهداف هذه الندوة: لقد بينت لي تجربة عشتها حديثا أثناء عودتي إلى تيغوماتين - وهو أحد الأمكنة التي استقيت منها حكايات حول الشريف بوبزول - أن العملية الحالية لتوثيق هذه الحكايات، وهي عملية لا تتجلى فقط في كتابتها وإنما كذلك في إعادة بنائها من خلال التناظر بما في ذلك الندوات المحلية، لم تكن بلا أثر في مضمونها؛ فالكتابة إنما هي إعادة كتابة أيضا. ونظرا للطابع الشفوي الخاص بهذه النصوص التي يعاد بناؤها باستمرار حتى تستجيب للسياقات الجديدة، فإنها ما فتئت تنتج روايات أخرى لا تتوفر على الوضع نفسه أو المكانة نفسها كما تنتج مضمونا يمكن أن تمنحني فيه دلالات الحكايات الأولى. ولعل إنشاء الدولة الوطنية منذ الاستقلال والدور الذي قد يعزى للمرابطين في هذه المنطقة حسب الكتابة التاريخية (الإستوريوغرافيا) الموريتانية الحديثة من الأمور التي تسير في هذا الاتجاه كما بينت ذلك في المقال السالف ذكره والذي كتبه بجمعة محمدمو ولد محمدين تحت عنوان «موريتانيا في الماضي المعاد تركيبه».





ضريح سيدي أحمد أو موسى  
(ناحية السمارة)

1 - Bonte, P., *L'émirat de l'Adrar. Histoire et anthropologie d'une société tribale du Sahara occidental*, Thèse de doctorat d'État, Paris, EHESS, 1998.

2 - Denise, A., (éd.), « Figures mythiques des mondes musulmans », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, (série Histoire, n° 89-90), Aix-en-Provence, 2000.

3 - الساغا نوع من السرد الثري في الآداب الاسكندنافية القديمة تدور حوادثه حول بطل مشهور أو أسرة مشهورة أو حول مآثر الملوك والمحاربين، وكان هذا السرد ينتقل شفاهاً من جيل إلى آخر حتى أواخر القرن الثاني عشر عندما دون أغلبه / المترجم.

4 - Norris H.T., *Saharan Myth and Saga*, Oxford, Clarendon Press.

#### Endnotes

1 - البافور إسم لسكان موريتانيا القدماء.

Cap Djibey



# تاريخ الصحراء الأطلنتية المعاصر : مقاربة أولية لفضايا منقجية

خالد شكر اوي

لن نتعرض لهذا الموضوع من زاوية تاريخية صرفة كما أننا لن نقوم باستعراض مختلف الأحداث التي عرفتھا الصحراء الأطلنتية منذ استعمارھا إلى حين استرجاعھا سنة 1975 بالنسبة للساقية الحمراء، ثم وادي الذهب بعد ذلك (سنة 1979) ؛ إنما الغاية هي طرح مجموعة من التساؤلات التي قد تواجه المؤرخ أو الباحث في هذا الميدان. وهو ميدان صعب بحكم حركيته وبحكم آنيته، خاصة وأننا ما زلنا نعيش تبعات هذه الأحداث إلى يومنا هذا، إضافة إلى قضية أساسية هي مسألة الانتماء وحضور الذات في كتابة هذا التاريخ.

فكيف يمكن للمؤرخ أن يتعد عن ذاتيته عندما يكتب هذا التاريخ؟ كيف يمكنه أن يضع مسافة بينه وبين وطنيته؟ كيف يمكنه أن يحكم على الآخر المناوئ لهاته الوطنية أو يقرأ سلوكه، مع الحفاظ على موضوعيته؟ وما هي الموضوعية في هذا الإطار؟

هذه مجموعة من القضايا الهامة التي تفرض نفسها على الباحث الطامح إلى دراستها بنوع من الموضوعية في إطار المقاربة العلمية ؛ لكن هناك قضايا أخرى تعترض المؤرخ في دراسته لمجال الصحراء الأطلنتية في السنوات الأخيرة، حيث بدأنا، على الأقل في الجامعة المغربية وفي بعض المؤسسات الوطنية الرسمية، بالتوجه نحو منظور جديد للتاريخ للمجال الصحراوي. ونشير في هذا الإطار إلى تجربة أخيرة في وكالة تنمية الأقاليم الجنوبية، إذ قام مجموعة من الباحثين في إطار تعاون بين هذه الوكالة وجامعة ابن زهر بأكادير وفعاليات جامعية وطنية أخرى، بالتحضير لمؤلف جماعي حول الصحراء<sup>1</sup>. وقد طرح هذا المؤلف، بكل موضوعية، مجموعة من القضايا التي لم يكن فعلا في وسعنا أن نطرحها في نهاية السنوات السبعين من القرن الماضي لظروف سياسية عامة، وربما أيضا لظروف دولية كانت تحتم علينا مواقف معينة، علما بأن مسألة وضع مسافة مع الحدث أمر ظل يفرض نفسه وبكل جدية، بما أننا بدأنا نقارب تاريخ الزمن الحاضر أو الراهن، مع ما يطرحه هذا الأخير من حساسيات بحكم نوعية ومجال الموضوع.



طرفاية في ثلاثينات  
القرن الماضي، (ب.ت.)

إن الواقع الجديد الذي بدأت تفرضه قضية الصحراء من خلال طرح المغرب لمشروع للحكم الذاتي كحل لتجاوز المشكل وإيجاد مخرج سلمي لحالة النزاع، بالمقارنة مع مختلف الحلول والتجارب الاستقلالية والانفصالية الجديدة التي طرحت أو بدأت تطرح على الساحة الدولية؛ إن هذا الواقع يدفع المهتم بتاريخ الصحراء إلى تغيير مقارنته والابتعاد عن كل نهج تقليدي متجاوز. وعليه، فقد أضحى من الضروري البحث في قضايا أخرى أساسية تفرض نفسها علينا، ويجب أخذها بعين الاعتبار، لتناول تاريخ الصحراء المغربية، وهو ما يطرح جملة من الإشكاليات الجديدة.

## المسألة الأولى

هي إشكالية الصحراء الأطلنتية في ارتباطها بالمجال المحيط، ونجملها في أربع نقاط:

- 1 - مسألة المجال الصحراوي الذي نتعامل معه، إذ أننا نعالجه بشكل انتقائي ضيق يخص المجال الذي احتلته إسبانيا، في حين أن المجال الصحراوي المغربي أوسع من ذلك بكثير، وأن استعمارهم انطلق منذ نهاية القرن التاسع عشر، وتم في سياق العلاقة بين فرنسا وإسبانيا مع حضور قوتين أساسيتين أخريين كانت لهما أطماع في المجال نفسه هما بريطانيا وألمانيا. وتمكن الإشارة إلى مجموعة من المعاهدات ابتداء من معاهدة برلين، التي وضعت قواعد التقسيم الاستعماري للقارة الإفريقية في 1884 - 1885، إلى كل من اتفاقيات ومعاهدات 1902 - 1904. إن هذا الإطار الدولي هو الذي حدد كيفية استعمار هذا المجال وتقسيمه إلى قطاعات معينة، علما أن المجال الصحراوي المغربي مرتبط بالضرورة بمجالات صحراوية أخرى متعددة في إطار حركية تفاعل دائم، فهناك:
  - الصحراء الشرقية وما طرحته من عدم استقرار في العلاقات المغربية الجزائرية بالنظر إلى بعض المطالب التاريخية والحزبية المغربية.
  - الصحراء الأطلنتية وجزر الخالدات بتشكيلاتها الجغرافية والاجتماعية المتميزة بحضور العنصر الأمازيغي فيها.
  - ما يسمى في بعض الأدبيات ببلاد شنقيط، وهي المجال الجنوبي لواد الذهب المسمى ابتداء من 1905 بموريتانيا، والمرتبطة بشكل مباشر بقضية الصحراء. وي طرح هذا المجال إشكاليات معقدة مرتبطة بأصل تكوين الدولة والعلائق الاجتماعية والثقافية الداخلية والجهوية، ومدى تأثير ذلك على الأسطوريوغرافيا المحلية والجهوية، على أساس أن المعرفة المنتجة محليا تصب كلها في خزانة إثبات حضور الدولة وبناء شعور وطني، هو في حد

ذاته موضع للسؤال عبر التسمية والتشكيلات المكونة لنظم المجتمع واللغة والثقافة والتاريخ. فبالرجوع إلى الإسطوريوغرافيا الموريتانية المعاصرة نجد تسميات أخرى لهذا المجال، بل هناك أسماء إشكالية تلعب أدوارا سياسية آنية، مثلما أصبح يروج كنوع من الموضة عند مؤرخي الجيل الجديد في الجامعة الموريتانية، خاصة في نواكشوط وذلك بتسمية موريتانيا بـ: «تراب البيضان»<sup>2</sup> وهو مصطلح تاريخي في أصله، استخدمه العديد من المؤرخين الشناقطة القدماء، على الأقل ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر، ولكنه، في وضعه الحالي، يحمل في طياته نبرة إيديولوجية عرقية. ولعل استحضر ما وقع من أحداث تجاه الزوج الموريتانيين وانعكاس ذلك على العلاقات بين موريتانيا والسينغال في الآونة الأخيرة: 1989 - 1991، في موريتانيا لكفيل بإبراز صعوبة استعمال هذا المصطلح، خاصة وأن هناك مجموعة أخرى تسمى بـ «المجموعة الزنجية» أو مجموعة ساكني «حوض النهر»، التي لا تنتمي بالضرورة إلى المجتمع البيضاني<sup>3</sup>، على أساس أن ما يسمى بالفرنسية (les Maures)؛ أي المجتمع المركب من العناصر العربية والأمازيغية، لا يمكنه لوحده تملك زمام السلطة في المجال الموريتاني دون الأخذ بعين الاعتبار حضور العناصر الأخرى<sup>4</sup>. وحتى ضمن المجال البيضاني يظل العنصر الأمازيغي مغيبا لا يرد ذكره في الإسطوريوغرافيا الموريتانية والممارسات الاجتماعية العادية الآنية، بحكم أن كل المجالات الموريتانية تسعى إلى نوع من ادعاء النسب الشريف وإثبات العروبة، حيث يدخل ذلك في إطار إثبات الذات سعيا نحو السلطة والشرف والمال<sup>5</sup>. إن هذه العناصر الأخيرة مهمة للغاية، فبحكم العلائق بين المجالات الصحراوية نجدتها ضمن الممارسات الاجتماعية في الجانب المغربي أيضا، إذ يمارسها كمطلب سياسي واجتماعي ولو بصيغة أضعف، وربما بصيغة أقل إجرائية.

2 - المجال الاقتصادي: بحكم العلائق الموجودة مع الشمال هناك أيضا محيط أوسع، هو المجال المالي الاقتصادي الذي يربط المجال الصحراوي جنوب حوضي درعة ونون بالمدن القوافلية الواحية والمراكز التجارية والعلمية بوسط المغرب خاصة فاس ومراكش. ترجع هذه العلاقات الاقتصادية، على الأقل، وعلى مستوى الإسطوريوغرافيا، إلى حدود القرن التاسع للميلاد، وهي علاقات تجارية كانت تربط ما بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء، أي حوض السينغال وحوض النيجر، وراء المجال الصحراوي.

3 - ثم هناك ما نسميه حاليا بالصحراء الشرقية التي ترتبط بشكل طبيعي بالصحراء الغربية / الأطلنتية على أساس تواصل أفقي ظل قائما إلى حدود استقلال الجزائر. يرتكز هذا التواصل على شبكة من الأسواق يتحكم فيها كل من سوقي كلميم وتيندوف، اللذين يتحكمان في هذا المجال الاقتصادي بشمال الصحراء عبر علائق وطيدة ومعقدة بين قبائل المجالين والمدنيتين.

4 - وهناك المجال الواحي جنوب الأطلس الصغير، أي واحات حوض درعة وحوض واد نون، وهو المجال الاقتصادي الأساس المنعش للمجال الصحراوي عامة، خاصة ضمن نطاقه التاريخي. قد يدخلنا هذا المجال الأخير في نوع من المنازعات السياسية، التي تتناقض في شأن إدخال هذا المجال ضمن المنظومة الاجتماعية والسياسية للحل الأممي السابق (المقترح في مخطط بيكر) حول الصحراء. عندما وضع مشروع الاستفتاء الأممي كانت المطالب المغربية دائما تدخل في الاعتبار هذا المجال، مجال واحات حوض درعة وحوض نون، بحكم انتماء المجالين إلى نفس التشكيلة القبلية والبنيات اللغوية والتمثلات التاريخية، بيد أن هذا الربط بين المجالين لا يحظى بتأييد كل الصحراويين والفاعلين السياسيين بالمنطقة، إذ يعتبر البعض أن ساكنة الواحات هي أقرب إلى الشمال منها إلى الجنوب، بالإضافة إلى عدم انتمائها للمجال الاستعماري الإسباني المسترجع بدءا من سنة 1975، وهي بذلك قد كانت ترجح الكفة لصالح المغرب في حال إجراء الاستفتاء. ومما لا شك فيه أن أسس

هذا الطرح واهية وسياسية بالضرورة، خاصة عند البحث عن أصول التشكيلات السلالية في المناطق الشمالية، وذلك حتى حدود غرب جبال الريف، إذ نجد بها قبائل ذات صلة كبرى بالتشكيلات القبلية الموجودة حالياً في الصحراء الأطلسية، وهذا موضوع إضافي يطرح بدوره مجموعة من القضايا: منها قضية الهجرة نحو الشمال وأسبابها وظروفها وشروط التأقلم مع المجال الجديد. لماذا اختيار مجال ما دون مجال آخر؟ لماذا هناك حضور لسكان ذات أصول صحراوية مهمة في المجالات المحيطة بمراكش ومنطقة الرحامنة مثلاً؟ ما مدى علاقة هذه القضايا بمجالات الولاية والصلاح انطلاقاً من تأسنا التاريخية إلى الساقية الحمراء؟ هل هو رجوع إلى الأصل في المنظومة التاريخية؟ أم هو فقط أخذ ورد في ما بين المنطقتين لأسباب تاريخية؟ كل هذا يطرح سؤالاً كبيراً حول ماهية المجال الأصلي الذي تغادره القبيلة أو المجموعة الاجتماعية متوجهة إلى مجال آخر، فكيف نحدد المجال الأصلي؟ علماً بأن هذا السؤال هو سؤال كبير يصعب الجواب عنه.

### المسألة الثانية

التي يجب استحضارها عند عرضنا لتاريخ الصحراء عامة، هي قضية حضور التمثلات التاريخية لمختلف العصور إلى أيامنا هذه، وهو ما يفرض مسألة أخرى تتمثل في كون قراءتنا لتاريخ الصحراء من وجهة نظر تقليدية، مثل قراءتنا لجميع التواريخ، تعتمد على وثائق ومصادر ومراجع. لكن يبدو أنه لا بد من القيام بأبحاث ميدانية للتعامل مع هذا المجال، إذ أن البحث الميداني ضروري لفهم تاريخ هذه المجالات، لأنه يمكن من الوقوف على مجموعة من التصورات والتفسيرات التاريخية المحلية التي مازالت قائمة. فأهل هذا المجال يستحضرون تاريخ وجودهم واستقرارهم وتعاملهم مع هذه القطاعات الترابية والثقافية والاجتماعية والسياسية، عبر تمثلات مختلفة، منطلقة أساساً من الكتابة التاريخية التقليدية.

إن المجال الصحراوي المغربي ليس مجال جهل، بل هو مجال علم، مجال ساكنة على دراية ومعرفة، ولعل ما يؤكد ذلك انتشار المؤسسات التعليمية كـ «المحظرة» وغيرها. كما أن توارث المعرفة سواء عن طريق الكتابة أو عن طريق الرواية الشفوية حاضر بشكل مثير للانتباه. أضف إلى ذلك أن البنيات الاجتماعية الداخلية منتجة في حد ذاتها للرواية التاريخية، سواء عبر منظمة القبيلة مثلاً أو عبر الحضور المستمر للمرأة كمؤطر سياسي وثقافي للمجال، وذلك انطلاقاً من فترات تاريخية ترجع على الأقل إلى العصر المرابطي، علماً بأن مثل هذه الممارسات ولت في مغرب الشمال.

لقد أدى حضور المرأة في المجتمع بهذه الكيفية إلى تواتر الرواية، التاريخية بالخصوص، عبر أشكال أميسية تحدد موقع المجموعة ضمن النظم الاجتماعية والثقافية وضمن المجال الجغرافي. كما أن المرأة تساهم في انتقال هذه الرواية عبر الأجيال وتوزيعها في المجال<sup>6</sup>. علماً بأن مستوى المعرفة بالماضي، ودرجة المعرفة بالذات، جد متطورين في المجتمعات الصحراوية، وعبرهما يصبح تمثل التاريخ حاضراً بقوة انطلاقاً من قراءة ما كتب ومن خلال الوثائق التي مازالت بيد القبائل، ومازالت الأسر تتشبهت بالمحافظة عليها، لدرجة أنه يصعب الوصول إليها في غياب وساطات اجتماعية. إذن هو مجال عارف وعالم بذاته، وهو في نفس الوقت منتج لتمثلات تاريخية أخرى. وبالرغم من ذلك يظل الاحتياط واجباً في هذا النطاق، خاصة في حال تلوث التمثلات، إما بسبب المعرفة العاملة أو بسبب التصحيح أو ما يعتقد كذلك حتى من لدن الباحث. فالزيارة الميدانية والاتصال المباشر قد يلوثان الرواية وذلك عند مختلف التدخلات، خاصة أثناء التدخل لمحاولة مراقبة نسيان أو تناسي حقائق أو أمور ما.

فحضور الباحث في حد ذاته، مثلاً، قد يدفع المتحدث إلى إبراز بعض الخصوصيات غير الحاصلة بالضرورة في التطور التاريخي، وقد تكون هذه الأخيرة نتيجة لضرورة مرحلية، لأسباب سياسية واقتصادية وانتخابية مثلاً، وبالتالي قد يشكل قول هذا المتحدث بعد حين جزءاً من هذه الرواية المتواترة. وهذه من الظواهر العامة في مختلف المجتمعات التي تفرض ضرورة إبراز الشخص لذاته وإبراز الأنا وإبراز الأسرة وحضور الانتماء في ظروف معينة. بمعنى آخر هناك مجموعة من القضايا تفرض علينا حذراً شديداً في التعامل مع هذه المسألة. لا يمكن فهم هذه القضايا إلا بالنظر إلى حضور التاريخ بشكل قوي داخل مجتمع الصحراء، انطلاقاً من الرواية الشفوية التي يمارسها الراوي عبر توظيف أزمنا متباعدة للحديث عن الراهن.

من المعلوم أن هناك عدداً كبيراً ومهماً من الوثائق المتوفرة في المجالات الصحراوية المغربية والموريتانية بالخصوص. يتناول جزء كبير منها التاريخ المرابطي، ويرجع زمن إنتاج هذه الوثائق إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع ذلك فروايتها للتاريخ المرابطي، بعد المقارنة مع المصادر التاريخية السابقة عن المرابطين تقارب الحقيقة، مع بعض الإضافات بالضرورة. كيف استمر هذا التاريخ في الذاكرة؟ وكيف استمر في المكتوب؟ وكيف استمر حضوره في مجال شاسع انطلاقاً من السفح الجنوبي للأطلس الصغير إلى ما يسمى بمجال تراب البيضان؟ وكذلك الأمر بالنسبة لتاريخ المرحلة العلوية على العهد الإسماعيلي الذي مازال حاضراً بقوة في ذاكرة المجالات الصحراوية المغربية وبشكل أكبر ضمن الذاكرة الموريتانية خاصة على المستوى الثقافي الشعبي.

إن حضور هذا التاريخ مسألة مهمة ومؤثرة بشكل كبير في الوضع الحالي، وهو متداول من خلال البحث عن ضرورة الانتماء والارتباط بالقبائل المرابطية في صيغة عربية إسلامية شريفة عوض الصيغة الصنهاجية الأمازيغية الأصل، بحكم أسباب سياسية آنية. يقوم هذا الحضور أيضاً على نوع من التجاوز للمرحلة الموحدية والمرحلة المرينية والربط المباشر بالمرحلة السعدية وحضور أكبر للمرحلة العلوية، في إطار إنتاج ثقافي مهم ومستمر.

المسألة الثالثة تهتم استعمار ثم استقلال المجال بحكم التعددية التي شملت هذه المسارات التاريخية.<sup>7</sup> لقد استعمر هذا المجال عبر مراحل واستقل عبر مراحل. وبالتالي فتناول تاريخه قد يطرح علينا مشكلة الزمن وقضية التعامل معه. أضف إلى ذلك المتغيرات التي عاشها المغرب المستقل جزئياً بعد 1956، عبر أحداث وصراعات بين القوى السياسية الحزبية والقصر وجيش التحرير وقوى اجتماعية واقتصادية متعددة.

يطرح استقلال المجال الصحراوي عامة عدة أسئلة مرتبطة بمكونات المقاومة المحلية الخاصة بالتشكيلات الاجتماعية الصحراوية في علاقاتها بمختلف القوى السياسية الأخرى بالتراب المغربي، خاصة بجيش التحرير من جهة وبالقصر من جهة أخرى، علاوة على مختلف الأسئلة حول المرحلة الاستعمارية ودور مختلف الهيئات المحلية في العلاقة المتذبذبة مع الإسبان. ويبقى السؤال الأخير والمهم هو كيفية نشوء المعارضات المحلية، بناء على تصورات مجالية مخالفة للمنظومة التاريخية المحلية، في ضوء طروحات استقلالية لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى الصراعات السياسية داخل المغرب، خاصة من قبل اليسار واليسار المتطرف المغربي، ودوره في احتضان الإرهاصات الأولى لما أصبح فيما بعد اتجاهها انفصالياً، مقابل النظام، ومقابل تصور خاص لهذا الأخير للمنطقة الجنوبية، علماً بأن أصل الدولة والملكية بالمغرب عامة لا يمكن فصله عن المجال الجنوبي بمختلف صحاريه.

تلك بعض الأسئلة والهواجس الحاضرة بالضرورة عند التفكير في تاريخ الصحراء، وغيرها كثير وحاضر بقوة كلما كثر النباش في الذاكرة والتاريخ وتمثلتهما في عين المكان.



## الهوامش

- 1 - بوبريك، ر.، (منسق)، «الصحراء الأطلنمية المجال والإنسان»، وكالة الجنوب - جامعة ابن زهر، 2007، وهو تأليف جماعي قدم له الأستاذ محمد الناصري، ويضم عددا من المقالات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية حول الصحراء المغربية، كما صدرت نسخة معدلة لهذا التأليف تحت عنوان: «مدخل إلى تاريخ الصحراء الأطلنمية»، تنسيق رحال بوبريك، الرباط، دار أبي رقراق، 2010.
- 2 - ولد حامد، م.، «حياة موريتانيا: الجغرافيا»، منشورات معهد الدراسات الإفريقية - الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص. 8 - 9.
- 3 - بن محمد، م.، «المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر: قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية»، منشورات معهد الدراسات الإفريقية - الرباط، الدار البيضاء، 2001، ص. 17 - 18. 222 - 227.
- 4 - وقع خلال 20 و21 و22 نوفمبر 2007 نقاش في موريتانيا ضمن الأيام التشاورية والتعبوية في موضوع الإجراءات العملية لعودة ودمج المواطنين اللاجئيين الموريتانيين في الخارج وتسوية الإرث السلبي في ملف حقوق الإنسان بصورة نهائية. آخر وفد من اللاجئيين الزنوج رجع إلى موريتانيا يوم 26 مارس 2012.
- 5 - تشكل هذه العناصر الثلاثة المحددات الأساسية للتحكم في المجال بالمناطق الصحراوية والساحلية.
- 6 - وهو ما نجده فاعلا بشكل كبير ضمن مجتمع الطوارق، حيث لم تنجح مختلف المصالحات لتثبيت الوضع في مناطق النزاع بشمال مالي والنيجر، لأسباب متعددة ومنها غياب استحضار العنصر السياسي الأساس داخل المجتمع وهو المرأة.
- Claudot-Hawad, H., « Des États-nations contre un peuple : le cas des Touaregs », *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, 44, n° 2, 1987, p. 48-63.
- 7 - تم استرجاع طرفاية سنة 1958، سيدي إفني سنة 1969، الساقية الحمراء ووادي الذهب 1975، في إطار شراكة عبر تقسيم المجال مع موريتانيا في بداية الأمر، وضم وادي الذهب للتراب المغربي سنة 1978 بعد التراجع الموريتاني.



# مصالح تاريخ الصحراء في أرشيف السينغال

## فاتوماتا ديارا سيسي

كان من المفترض منطقياً أن يتم التمهيد لعنوان مداخلتني «مصادر تاريخ الصحراء المحفوظ بها في أرشيفات السينغال» بتذكير تاريخي حول الصحراء بطريقة موجزة ليس إلا، لإضفاء نوع من الصرامة عليها. والحال أنني تفاديت القيام بذلك معتقدة أن الخبراء الحاضرين الذين يزخر بهم هذا الملتقى أقدر مني على فعل ذلك. وسأكتفي فقط بجوهر الموضوع المتمثل في القيام بمراجعة للمصادر الوثائقية المتصلة بتاريخ الصحراء المتاحة في الأرشيفات الوطنية للسينغال. وفضلاً عن ذلك لا أدعي دراسة هذه المصادر دراسة مباشرة لأن دور الباحث في الأرشيف ليس هو أن يحل محل الباحث، وإنما بالأحرى أن يمد له يد العون ليسر له أبحاثه عن طريق تحديد سريع لمكان المعلومة. ومع ذلك فقد رأينا أنه من المناسب أن نعرض على بعض المقدمات التمهيدية من أجل فهم أفضل لعرضنا هذا، من قبيل تحديد بعض المفاهيم والتعريف بالمؤسسة الأرشيفية المحفوظة بالوثائق المشار إليها، ثم على البنية الداخلية لملفات الأرشيف. وقد عملنا على تقديم المصادر الأرشيفية في القسم الأول من هذا البحث ثم أردفناها بالمراجع البيبليوغرافية.

من الطبيعي أن على كل بحث تاريخي جدي أن يقوم على المصادر، ولا سيما منها المصادر الوثائقية. وفي هذا السياق فإن لفظة «المصادر» تدل على مجموع العناصر التي تسمح بالصعود إلى أصول المعلومة عامة، والمعلومة الوثائقية خاصة. بيد أنه على المعلومة، كيما تكون متاحة ومتداولة، أن تجمع وتدرس وتحفظ. وضمن هذا المنظور فإن «مستودعات المعارف» ممثلة في مصالح الأرشيفات والخزانات أنشئت من أجل الحفاظ على التراث الوثائقي والعناية بالذاكرة الجماعية مثلما حددها المؤرخ بيير نور (Pierre Nora) بوصفها «ذاكرة أو مجموع الذكريات، واعية كانت أو غير واعية، بتجربة معيشة و / أو أضفي عليها طابع أسطوري من قبل جماعة حية يمثل الشعور بالماضي جزءاً لا يتجزأ من هويتها»<sup>1</sup>.

أعيان من الصحراء  
وأيت باعمران، (ب.ت.).

إن قسما مهما من الذاكرة الجماعية مودع في التراث الوثائقي. وهذا، من جهة أخرى، هو الأصل الذي استند إليه إعلان برنامج ذاكرة العالم لليونيسكو المعتمد في مدينة فارسوفيا (Varsovie) الذي من بين ما أكد عليه أن: «التراث الوثائقي في تنوعه الكلي يُشكل جزءا مهما من تراث الإنسانية من حيث هو سجل من المعلومات ومجموعة من المصادر بالنسبة للتاريخ والتعبيرات الفنية [...] ينطوي التراث الوثائقي على أهمية خاصة لأنه يجعل من صيانه ذاكرة الثقافات والجماعات المختلفة أمرا ممكنا ولأنه يظل مصدرا لا ينضب لتاريخ المجتمعات والأمم بالقدر نفسه الذي يشكل شاهدا على التحولات الحضارية».

وكان السيد أمادو مختار مبو (Amadou Makhtar M'Bow) المدير السابق لليونيسكو قد أكد في مداخلة التمهيدية التي تقدم بها في ندوة «المكتبات الوطنية في أفريقيا الفرنكوفونية في القرن 21» التي نظمتها مدرسة الكتبيين والأرشيفيين والوثائقيين (EBAD) التابعة لجامعة الشيخ أنطا ديوب في داكار في شهر ماي 2003، ما نصه: «إن التراث بالمعنى الواسع للكلمة يمكن النظر إليه بوصفه مجموع ميراث الماضي الذي أثراه وغذاه جيل عن جيل ويعمل رجال ونساء عصرنا اليوم على صيانه وتجيده ويؤسسونه به جزءا مهما من هويتهم. هكذا يضيف التراث خصوصيته على شعب من الشعوب، محددًا مجالًا ثقافيًا ونمطًا من أنماط الحضارة. إنه تراث مادي وغير مادي في الوقت ذاته» [...] . ويواصل قائلا «إن التراث الوثائقي المكتوب المدون يقدم بالأساس في صورة أرشيفات أو كتب في خزانات. وفي كلتا الحالتين تطرح مشاكل الكشف عن هذا التراث والتعرف عليه ومشكل جمعه وصيانه وجرده والوصول إليه من قبل مختلف المشتغلين به وعامة الناس عموماً»<sup>2</sup> . تتيح الذاكرة المدونة في التراث الوثائقي - بشكل لا مثيل له - نقل التقاليد والأوعية التاريخية والتي هي مكونات هامة في صيرورة تأكيد الهويات بنفس الطريقة التي تسهم فيه بشكل واسع في الفهم المتبادل والحوار بين مختلف الجماعات الاجتماعية المرتبطة فيما بينها بأواصر أو روابط جماعية .

تختلف طبيعة مصادر الذاكرة وإننا لنجدها أينما حللنا وارتحلنا. ويتم تناقل الذاكرة عبر قنوات من قبيل التراث الشفهي واللغة والمعمار والأدب والتعبيرات الفنية... إلخ. وكل قناة من هذه القنوات تلعب دورها تبعا لخصوصيتها. بيد أنه يوجد مصدر تتم الإحالة عليه كثيرا لمساءلة الماضي أو معرفته أو فحص معلومة أو حتى لتبرير حق من الحقوق، وأحيانا دون الوعي وعيا تاما بذلك. تتمثل هذه المصادر في «الأرشيفات» التي تضيء في الحقيقة ماضي الأمم، أفضل من غيرها، مع إضاءتها للمستقبل وبما أنها مشكلة من «مجموع الوثائق أيًا كان تاريخها وشكلها وسندها المادي، المنتجة أو المتلقاة من طرف شخص مادي أو معنوي في إطار نشاطه العمومي أو الخاص»<sup>3</sup>

وتعتبر الأرشيفات حية بمعنى أن لها القدرة على بعث روح الحياة في كل من افتقدها. ويبقى أيضا من الثابت أن إحدى وظائفها الأولى تتمثل في كونها ذاكرة. ألسنا نقول مثلا: «إن شعبا بدون أرشيفات شعب بدون ذاكرة». والواقع أن الذاكرة تسهم إسهاما كبيرا في تمكين عرى الجماعة الراغبة في الحياة الجماعية. كما تُشكل الأرشيفات مصدرا أساسيا لا غنى عنه في البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية ومختبرا حقيقيا تُهَيَأ فيه الأطاريح والبحوث والكتب والمقالات والعروض [العلمية]. وتبعا للأعراف وحسب الطبيعة، العمومية أو الخاصة، لهذه الأرشيفات فإنها تصان بعناية في مستودعات الأرشيف عامة كانت أم خاصة.

وفي السينغال أنشأ المستعمر مستودعا للأرشيف منذ عام 1913 من أجل تدبير أرشيفات الحكومة العامة لإفريقيا الغربية الفرنسية (AOF). وعند تحقيق الإستقلال ورثت السينغال تركة هذا الأرشيف مما شكل استثناء في التقليد الكولونيالي الفرنسي حيث كان المستعمر دائما ينقل معه الأرشيفات كلها لحظة جلائه تحت ذريعة أن الأمر يتعلق بأرشيفات سيادية. وينطبق الحال أيضا على المستعمرات الفرنسية المنضوية تحت إفريقيا الإستوائية الفرنسية (AEF) وفي كل من الجزائر والهند الصينية ومدغشقر.

إن المصلحة التي أنشئت في مديرية الأرشيفات بالسينغال عام 1977 هي عبارة عن مركب وثائقي يحوي قسما للأرشيفات الوطنية ومكتبة إدارية وتاريخية وقانونية ومركزا للتوثيق الإداري والتاريخي .

يعود غنى الأرشيفات الوطنية إلى أربع ذخائر أرشيفية تقسم نفس الأهمية وهي :

- ذخائر السينغال الكولونيالية (1816 - 1958)؛

- ذخائر الحكومة العامة لأفريقيا الوسطى؛

- ذخائر فيدرالية مالي؛

- ذخائر السينغال المستقلة؛ (1960 حتى يومنا).

والذخيرة التي تهتمنا في مداخلتنا هذه هي إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF) وتغطي الفترة الممتدة ما بين 1895 و1959، ومن خصائصها كونها القاسم المشترك بين البلدان الثمانية المستعمرة سابقا في أفريقيا الغربية الفرنسية وبين كل من فرنسا والطورغو. وفيها نجد أن سلسلة التصنيف لهذه الذخيرة خاصة بتاريخ الصحراء. وعلى إثر هذا التقديم المؤسسي تم القيام بتفسير موجز للبنية الداخلية للملفات الأرشيفية من أجل فهم أفضل لمسئولنا من هذا العرض. ومن أجل خدمة البحث الإداري والتاريخي صُنفت الوثائق الأرشيفية، بمجرد جمعها ومعالجتها، في الذخائر المختلفة على شكل مجموعات (سلسلات) وسلسلات فرعية تبعا لإطار تصنيفي معد سلفا. ويقدم الرقم التسلسلي للملف الأرشيفي الذي يعرفه توليفة من الأعداد والحروف، وعلى سبيل التوضيح فإن ملف (17) 8F 5 مَبْنِيْن على النحو التالي :

F يشير إلى السلسلة المتصلة ب «الشؤون الخارجية» (Affaires étrangères).

8F يمثل السلسلة الفرعية 8 من المتواليات F «إسبانيا والمستعمرات» (Espagne et colonies).

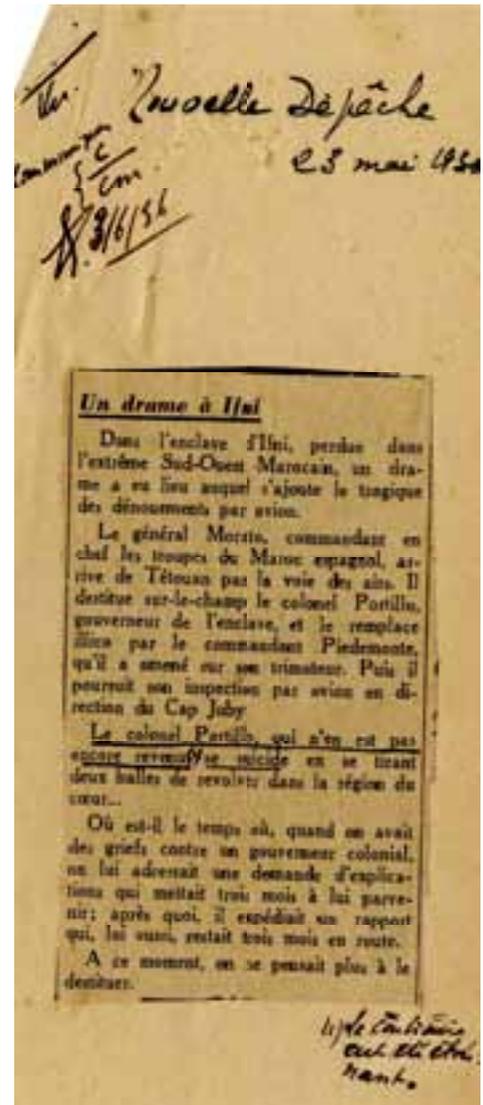
5 يشير إلى عدد الملف في السلسلة الفرعية وهنا يتعلق الأمر بالملف 5.

(17) يشير إلى عدد الإيداع والرقم 17 الموضوع بين هلالين يشير إلى أن الأمر يتعلق بالإيداع رقم 17. والواقع أن الذخائر الأرشيفية بالسينغال موزعة كرونولوجيا إلى قسمين كبيرين : القسم الأول يعود لما قبل 1920 والثاني لما بعد هذه السنة. وبالنسبة لهذه الفترة تتضمن الأرقام التسلسلية بالضرورة رقم الإيداع المسجل بطريقة رقمية وفق نظام وصولها، تفاديا لأي خلط. وبالنسبة لتقديم المصادر قمنا بفحص أدوات البحث الموجودة لوضع اليد على جميع الملفات والكتب المتصلة بالصحراء عامة. من المؤكد أن عددها كبير جدا، بيد أن حصر حدود موضوعنا في فضاء جغرافي محدد بدقة قد أفضى بنا إلى الاقتصار منها على الملفات والكتب المرتبطة بالصحراء الغربية أو الإسبانية.

## المصادر الأرشيفية

في إطار تصنيفنا لمجموعات إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF) تعرفنا على المصادر التالية المتصلة بتاريخ الصحراء الغربية أو الإسبانية بالمعنى الدقيق. ونحرص على أن نوضح بأن هذه المصادر هي تلك التي أنتجتها الإدارة الكولونيالية الفرنسية التي كانت تعد القوة الجارة للإدارة الإسبانية بالمنطقة المستعمرة للصحراء. من البديهي إذن أن الإدارتين قد تمتلكان حول موضوع واحد وثائق أرشيفية ذات مضامين ليست متطابقة تماما.

وثيقة من أرشيف السنغال



سلسلة (مجموعة) «F»: القضايا الخارجية  
 «8F» إسبانيا والمستعمرات  
 8F (17) المستعمرات الإسبانية :  
 إفني : احتلال الإقليم (1927 - 1936)  
 - كراسة بيلتران روزبيد *El territorio de Ifni*  
 Beltran Rozpide، 1927، ص. 16 مطبوع .  
 جزر الكناري : إفادات ومراسلات (1925،  
 26 ؛ 1930 - 45، 53)  
 - ملاحظات حول جزر الكناري (62 ص. مرقون  
 على الآلة الكاتبة. 5 صور. 7 خرائط) 1938 .  
 غينيا الإسبانية : مراسلات (1924 - 1931)  
 - اضطرابات (يونيو 1936)  
 يتكون هذا الملف من مراسلات مختلفة  
 استوفقت إحداها نظرنا خصوصا تلك  
 التي تتضمن مراسلات بين المندوب المقيم  
 للجمهورية الفرنسية بالمغرب وبين وزير  
 الشؤون الخارجية الفرنسي. كما توجد  
 في هذا الملف وفرة من النشرات الإخبارية  
 خاصة تلك الصادرة عن رئيس ملحقة  
 تيزنيت وتمثل لها بالوثائق التي تروي  
 اجتماع سبويا وأيت يوك في سوق الأربعاء  
 لإيمستيتن (Imestiten) في يونيو 1927  
 المرتبط بإنشاء وكالة تجارية في إفني لفائدة  
 التجارة الإسبانية. وفي هذا الاجتماع تمت  
 مناقشة التماس الخليفة مرابي ربو طلب الأمان  
 بينما طالب هذا الأخير أن يقوم بهذا المسعى  
 كل من قبيلة سبويا وأيت باعمران.  
 ونجد وثيقة أخرى من المعلومات مختومة  
 بخاتم سري مؤرخة بـ 17 من أبريل عام 1934  
 وموقعة من لدن مدير الشؤون السياسية  
 والإدارية وتنصب على المعلومات التي تكون  
 قد جمعت من لسان الشيخ الطالب بوياء ولد  
 الشيخ سعد بوه إبان إقامته في مدينة داكار.  
 8F 2 (17) زعماء البيضان اللاجئين بوادي  
 الذهب (1929 - 1938).  
 يتألف هذا الملف من مراسلات متنوعة  
 ونشرات إخبارية دورية مرتبطة ببعض زعماء  
 البيضان المعادين للسياسة الفرنسية الذين

التجأوا واحتموا بوادي الذهب .  
 - مامين ولد سيداتي (1929 - 1932).  
 وتشير إلى معلومات عن شخصية هذا الزعيم  
 الولد الأصغر للشيخ ماء العينين (الزعيم  
 الديني المعروف) المتهم بقتل الرقيب كافالي  
 (Cavali). وكانت الحكومة الإسبانية على  
 استعداد لمنحه الأمان إذا ما أسقطت عنه  
 الحكومة الفرنسية تهمة القتل تلك.  
 - اسماعيل ولد الباردي (1924 - 1934)،  
 أحد أعيان قبيلة الركييات. عرف بكونه أشرس  
 المتمردين الذين سلموا أنفسهم دون قيد أو شرط  
 في 6 من ماي 1930 بأطار (Atar). وتوجد  
 مراسلات عدة من بينها تلك التي تمت بين  
 الحاكم العام للصحراء وبين حاكم إفريقيا الغربية  
 الفرنسية (AOF) التي توسطت لصالح اسماعيل  
 للسماح له باستعادة قطيعه المسروق له بزمور.  
 كما نجد في الملف نشرات إخبارية عديدة ورسالة  
 مكتوبة باللغة العربية ورسم توزيع بيرام كرين  
 (Fort Trinquet).  
 محمد مامون ولد الشيخ محمد فاضل (1932 -  
 1933)  
 أحمد ولد حمادي (1932 - 1933، 1938).  
 8F 3 (17) - قضايا حدودية (وادي الذهب).  
 حدود وادي الذهب وخليج ليفريبي (baie  
 de levrier) (1900 - 1910 - 1913).  
 التنازل المتوقع عن وادي الذهب لفرنسا  
 (1925 - 1927)  
 أحداث حدودية (1931؛ 1934 - 1945).  
 إغلاق الحدود الفرنسية-الإسبانية (1946-1947).  
 ويعالج هذا الملف قضايا الحدود بين  
 المستعمرين الإسباني والفرنسي وهو يتألف من  
 مراسلات عديدة ونشرات إخبارية... إلخ.  
 8F 4 (17) - وادي الذهب مراسلات ووثائق  
 (1906 - 1933)  
 اتفاقية تسليم المجرمين بين إسبانيا وفرنسا  
 الموقعة في 14/12/1887.  
 شبه جزيرة الرأس الأبيض (1906)  
 رحلة حاكم وادي الذهب إلى أطار (دجنبر  
 1910).

تجنيد المتطوعين من أجل إسبانيا (1937 - 1938)؛ اللاجئون الإسبان (1936 - 38)؛ هروب المنفيين السياسيين المقيمين بفيلا سيسنيروس على متن «فييرا إي كلافيثو» مارس 37. (1937 - 1938).

السفن الإسبانية اللاجئة: «إيفاريسطا، إيفيليا، ميندز نونز، نيميسيا». (1938 - 1940).

ترميم الاسلحة والعتاد الإسباني (1938 - 1939)، نجدة أسر عمال البريد الإسباني (1939)، توظيف العمال الإسبان المهاجرين (1939).

يتعلق الأمر هنا بملف متكون من ملفات فرعية عديدة مبسطة جدا متصلة بالعديد من الموضوعات المرتبطة أساسا بالحرب الأهلية.

(17) 8F 7 - إفريقيا الغربية الإسبانية مراسلات ووثائق، نشرات استعلاماتية لمصالح الأمن البريطانية حول النشاطين السياسي والاقتصادي في وادي الذهب (1938 - 1939).

دراسة حول الصحراء الإسبانية (1938). (دراسة جغرافية وتاريخية وسياسية مع بيبليوغرافيا). 6 خرائط وتصاميم، 8 صور، 38 ص.

نبذة عن القبائل (22 ص مرقونة على الآلة الكاتبة). دراسة مفصلة حسب المناطق (18 ص على الآلة الكاتبة. 9 صور).

فهرس ألفبائي للآبار. فهرس ولوائح إجمالية للقبائل. ويسمح فحص هذا الملف بتكوين فكرة عن محتواه؛ فهو يركز على وثائق المنطقة مع دراسات عن الساكنة والقبائل والجغرافيا صحبة مراسلات كثيرة.

(17) 8F 8 - إفريقيا الغربية الإسبانية نشرات استخباراتية لمصالح الأمن الموريتانية حول النشاطين السياسي والاقتصادي في وادي الذهب - إفني (1940 - 1949؛ 53).

(17) 8F 9 - نائب القنصل الإسباني بداكار حادث بويل (1920) (Boyle)

احتجاز سفينة شراعية «فيكتوريا» (1932). معركة موتونسي (موقف الإسبان 1932). صعوبات الإسبان مع الزرثيين (1932-1933) تقارير فرنسية إسبانية، ومعلومات عن وادي الذهب (1933).

منفيون إسبان هاربون من وادي الذهب (1933). وكما يشير إلى ذلك عنوان الملف فإنه يتألف من مراسلات متنوعة ومن مادة توثيقية ونسخة من اتفاقية تبادل المجرمين بين فرنسا وإسبانيا الموقعة عام 1887.

(17) 8F 5 - وادي الذهب مراسلات ووثائق نشرة استخبارات موريتانيا عن وادي الذهب (34 - 37).

أحداث طرفاية، تمرد العسكر. التنافس الفرنسي الإسباني في جنوب تيزنيت (1935).

رحلة الجنرال كاباز (Général Capaz) إلى طرفاية (فبراير 1935).

حملة النقيب ريمي (Capitaine Rémy) على وادي الذهب (مارس 1935). مشروع شق طريق أغوينيت بزوك. تقرير لونوفو (Le Neveu) عن وادي الذهب (43 ص مرقونة على الآلة الكاتبة) (1935).

وثيقة حول تنظيم وحدة الهجان [جنود يركبون المهرا] في الصحراء الإسبانية (21 ص على الآلة الكاتبة).

مشروع المؤتمر الفرنسي الإسباني بوادي الذهب. (1935 - 1936) موقف الصيادين الإسبان في خليج ليفريي (1937) (Baie du Lévrier).

يندرج هذا الرقم التسلسلي في ملف يتألف من سلسلة من الوثائق، فضلا عن نشرات إخبارية من موريتانيا عن وادي الذهب. وهو ملف غني جدا ومتنوع من زاوية محتواه.

(17) 8F 6 - العلاقات الفرنسية الإسبانية: الحرب الأهلية (1936 - 1937). طريقة التصرف إزاء السفن الحربية الإسبانية: مشكل عدم التدخل؛ حادث «المارشال ليوطي» في لاس بالماس (1937).

مشروع إنشاء موقع إسباني بـ Bou Gouffa (1911).

غزوة لبويرات، مقال لصحيفة «الزمن» (Temps) (1913).

موت أحد الصيادين من جزر الكناري في بورت إيتيان (Port Etienne)، (1916). دعاية ألمانية بفيلا سيسنيروس (1916).

إنشاء مركز إسباني قرب بورت إيتيان (Port Etienne) (1922).

إنشاء مركز للمواصلات اللاسلكية (TSF) بالكؤيرة (1924).

القبائل التابعة للمنطقة الإسبانية (1924)، تشكيل الغزوات (rezzous).

اغتيال طياري طائرة لاتيكيوير Latécoère التي سقطت في الصحراء الإسبانية (1926) تنظيم كوم البيضان من طرف الإسبان (1926).

العلاقات مع وادي الذهب، حق المطاردة (1927 - 29).

أحداث فيلا سيسنيروس (دجنبر 1928). استعلامات عسكرية. التعاون الفرنسي الإسباني. تقرير الملازم الأول بروسي (Lieutenant Brosset) عن المراكز الإسبانية (1929). مقتل مناوش سنغالي ببورت إيتيان (Port Etienne) (1930).

تنظيم وشروط استخدام القوات المحلية للشرطة. مثلا في موريتانيا (1930). مشروع تفتيش السيارات في مناطق أم العسل (1930).

وثيقة «إسبانيو الصحراء» 49 ص. مرقونة على الآلة الكاتبة (كاب جوبيي طرفاية) وفيلا سيسنيروس (الداخلة)، غشت 1930.

التعاون الفرنسي الإسباني في التخوم الصحراوية. (1931 - 32). مراقبة الجيش. دورية لمفرزة النقيب لوكوك (Capitaine Lecoq) في زمور (4 - 27 مارس 1932) احتجاز أوروبيين مقيمين من قبل آيت أوسا (1932).

- خاص : حركات قنصلية (1922 - 39) .  
مراسلات وتعيين القناصل (1939 - 52) ؛  
(1920 - 1952) .
- (17) 10F : الشؤون الخارجية - بلدان  
غربية بدون مستعمرات في أفريقيا الغربية /  
اتفاقيات دولية / منظمة الأمم المتحدة .
- (17) 10F 19 - الحكومة العامة لأفريقيا  
الغربية الفرنسية (AOF) .
- تقارير دورية حول الجيوب (les enclaves)  
الخارجية المجاورة (1934 إلى 1937) .
- (17) 10F 20 - الحكومة العامة لأفريقيا  
الغربية الفرنسية . (مصلحة ملحقة للتوثيق  
ومراقبة المعلومات (SADEC)  
تقارير أسبوعية عن الجيوب والبلدان الأجنبية  
المجاورة لأفريقيا الغربية الفرنسية AOF، ع . 1  
إلى 35 (سنتبر 1939 - أبريل 1940) .  
(17) 22 (F) - وزارة المستعمرات .  
نشرات إخبارية للمديرية العامة للدراسات  
والأبحاث (1945 - 1946) حول البلدان  
التالية: مصر، ليبيا، الشرق الأوسط، إفريقيا  
السوداء، المغرب، وادي الذهب .
- السلسلة «G»: السياسة والإدارة العامة**  
السلسلات الفرعية التي تخص الموضوع  
هي كالتالي :  
G 12 : أفريقيا الشمالية والصحراء  
(1899 - 1920) .
- 12G 1 - دراسة حول المسألة الصحراوية / ب .  
هنريس (1899) . P. Henrys .
- 5 12G - ماء العينين : مراسلات مع  
مفوضية فرنسا بالمغرب متصلة بماء العينين  
(1907 - 1911) .
- يركز هذا الملف على سلسلة من المراسلات  
الكتابية بين السلطات الفرنسية والشريفية  
موضوعها ماء العينين وأحد حلفائه مولاي  
إدريس . كما نثر على ملاحظات وأخبار عن  
هذه الشخصية وتحركاتها ونفوذها وعلاقتها  
مع المخزن في فاس وظروف اختفائها . كما  
نجد نسخة من الاتفاقية التي أبرمتها الحكومة  
الفرنسية (وتذبذبتها في وقف نفوذ ماء  
العينين) والتي تعترف فيها بأحمد سالم ولد  
براهيم سالم أميراً على الترابزة الغربية .
- 6 12G - الهيبة - تحركات الهيبة ولد ماء  
العينين واستسلامه المتوقع (1912 - 1918) .  
يتعلق الأمر هنا بمراسلات وملاحظات  
استخباراتية حول شخصية الهيبة، ابن وخليفة  
ماء العينين وحول نشاطاته المناهضة لفرنسا  
خلال الحقبة الممتدة بين عام 1924 إلى 1928 .
- 17G : إفريقيا الغربية الفرنسية، الشؤون  
السياسية، عموميات .  
جميع ملفات هذه السلسلة الفرعية المرتبطة  
بالموضوع مصدرها أرشيفات مودعة مختلفة .
- (104) 17G 223 - وادي الذهب :
- إغلاق الحدود الموريطانية مع وادي الذهب  
(1946) .
- (152) 17G 594 - الصحراء الإسبانية :  
استخبارات مصالح الأمن (أكتوبر 1956 -  
فبراير 1958) .
- 18G إفريقيا الغربية الفرنسية، الشؤون الإدارية .  
(17) 18G 53 - وادي الذهب : ملاحظات  
حول تخوم موريتانيا . (1933) .
- 21G : إفريقيا الغربية الفرنسية، عموميات  
والشرطة والأمن .
- (17) 21G 48 - وادي الذهب : ترحيل  
المجرمين اللاجئين في وادي الذهب  
(1932) .
- (17) 21G 69 - وثيقة حول تهدة  
الصحراء (1933) .
- (17) 21G 76 - الصحراء «عائق أم صلة  
وصل» بقلم تيودور مونود (Théodore  
Monod) (فبراير 1945) .
- (17) 21G 101 الصحراء الإسبانية :  
منح حق المرور للبدو الرحل الموريطانيين  
المنتجعين (1937) .
- وكلها ملفات متصلة بالوضع السياسية في  
الصحراء الإسبانية عام 1937 .
- ( ) 21G 169 - تجارة السلاح (1931 -  
1939) ؛ (1943 - 1944) .

### خلاصة:

تشكل هذه المداخلة إسهاماً متواضعاً من الباحث الأرشيفي في الندوة الدولية «التاريخ، الذاكرة، التراث الصحراوي :  
بحث وصيانة ومتحفة» . إن مصادر تاريخ الصحراء المحفوظة في أرشيفات السينغال وبقينا في مجموع الفضاء الصحراوي  
هي مصادر غنية ومتنوعة ، سواء من زاوية الكم أو المحتوى . وفي هذا الصدد فهي تستحق أن تُعرف وتُسَغل وتُثَمَّن .  
ولهذا تقع على مهمة هذه الندوة الدولية إمطة اللثام عن هذا التراث الوثائقي المهم الذي يشكل تراث شعب بكامله .  
ونأمل أن تسمح المراجع والمصادر التي أحلنا عليها في هذه الوثيقة بإثراء حقل البحث التاريخي الواسع حول الصحراء .  
من المؤكد أنها ليست شاملة ويمكن أن تعمق أكثر بيد أنها تشكل ، مع ذلك ، طريقاً للبحث لا مناص منه في وسع المؤرخين  
والباحثين عموماً استكشافه .

إن مديرية الأرشيفات في السينغال ترحب بكل مطلب في هذا الاتجاه وموظفوها على استعداد لاستقبال الباحثين من  
جميع الأفاق المهتمين بالمسألة ، ومصاحبهم وتوجيههم من أجل الوصول إلى الذخائر الوثائقية التكميلية لسد الثغرات . ونختم  
ورقتنا بالتنويه بالدور المحمّس للباحث الأرشيفي الشغوف بالتاريخ وبحس التفاصيل والتنظيم وتعبئة حقيقية لفائدة البحث .



الشيخ مربيه ربوا بن الشيخ ماء العينين

## هوامش

- 1 - Nora, P., « Mémoire collective », in LE GOFF, J. (dir), *La nouvelle histoire*, Retz, Paris, 1978, p.398.
- 2 - M'bow, A. M., *Le patrimoine documentaire africain, sa signification, ses différentes formes*. In « Bibliothèques nationales en Afrique noire francophone au 21<sup>ème</sup> siècle », colloque organisé par l'École des Bibliothécaires, Archivistes et Documentalistes de l'université Cheikh Anta Diop, Dakar, 6 mai 2003.
- 3 - Art .1 Loi sénégalaise 2006 -19 du 30 juin 2006 relative aux archives et aux documents administratifs.

## البيبلوغرافيا

Nora, P., « Mémoire collective », In LE GOFF J. (dir), *La nouvelle histoire*, Retz, Paris, 1978, p. 398.

M'bow, A. M., - *Le Patrimoine documentaire africain, sa signification, ses différentes formes*. In « Bibliothèques nationales en Afrique noire francophone au 21<sup>ème</sup> siècle », colloque organisé par l'École des Bibliothécaires, Archivistes et Documentalistes de l'Université Cheikh Anta Diop, Dakar, 6 mai 2003. [En ligne] (consulté le 24/11/2011). Disponible à l'adresse : [http://www.ebad.ucad.sn/sites\\_heberges/manifestations/colloque\\_BN\\_2003/AMMbow.htm](http://www.ebad.ucad.sn/sites_heberges/manifestations/colloque_BN_2003/AMMbow.htm)  
Déclaration de Varsovie lors de la Quatrième Conférence internationale du programme Mémoire du monde « Culture – Mémoire - Identités », Varsovie, 18-21 mai 2011, mai 2011.

Loi 2006-19 du 30 juin 2006 relative aux archives et aux documents administratifs. Sénégal, 2006.

« Déclaration Universelle sur les Archives », approuvée par l'UNESCO, lors de sa session plénière, Paris, 10 novembre 2011, novembre 2011.

Mbaye, S., Guide des Archives de l'Afrique occidentale française, Dakar, 1990.

## RECHERCHE EN LIGNE

ICA web site : <http://www.ica.org>

Site web de l'EBAD : [http://www.ebad.ucad.sn/sites\\_heberges/manifestations/colloque\\_BN\\_2003/AMMbow.htm](http://www.ebad.ucad.sn/sites_heberges/manifestations/colloque_BN_2003/AMMbow.htm).

**bi I 8° 2953**

Panet, L., *Première exploration du Sahara occidental : relations d'un voyage au Maroc du (6 janvier-25 mai 1850)*, Le Livre africain, Paris, 1968.

**bi I 8° 5017**

Lhote, H., *Guide du Sahara : Sahara atlantique (Maroc-Mauritanie)*, Hachette, Paris, 1977, 717p., ill. 22cm.

**po II 8°**

Monod, Th., *Les bases d'une division géographique du domaine saharien*, In : Bulletin de l'I.F.A.N. Série B tome XXX, n°1, janvier 1968, p. 269-288.

**bi II 4° 259**

*Le Sahara espagnol*. In : Maghreb, n° 22. juillet-août 1967, p. 35-41.

**bi II 8° 60**

Chatel, F.D., *L'évolution du Sahara, problème économique, politique*, Civilisations, n° 12 oct. - déc. 1962, p. 83-93.

**bi I 8° 664**

*La vérité sur les frontières du Maroc*. - Extrait des Archives secrètes des bureaux d'affaires indigènes français en Algérie avec commentaires de Allal El Fassi. s.l.n.d. (Tanger 1961), 180p. 2 cartes.

**bi II 8° 36**

Galibert, G., *Problèmes humains et économiques de mise en valeur industrielle au Sahara occidental*. In : « Les Cahiers d'Outre-mer » n°42, avril - juin 1958. pp. 142- 172.

**po I 8° 59**

Monteil, V., *Essai sur le chameau au Sahara Occidental*, Centre I.F.A.N, Saint-Louis, 1952, in-8°, 135p.

Monteil, V., *Etudes mauritaniennes* n° 2.

**po I 8° 45**

Monod, Th., *Contributions à l'étude du Sahara occidental*, (ss dir.), Larose, Paris, 1938, in-8°, 2 vol.

Monod, Th., *gravures, peintures et...*, 162p. pl., t.I.

-Jérimine, E., *roches emphives et métamorphiques* t.II. 1.

- Monod, Th., *phanérogammes*, t.II. 2

Monteil, Ch., *la langue AZER*, 344p. 24 pl. cartes, t.II. 3

- Publications du Comité d'études historiques et scientifiques de l'Afrique occidentale française.

**bi II 8° 33**

Augeras, Cap., *La pénétration dans le Sahara occidental*. In : Renseignements coloniaux... publiés par le Comité de l'Afrique française 1923, p. 225 - 259

**bi II 8° 33**

Augeras, Cap., *La traversée du Sahara occidental d'Alger à Dakar*. In : Renseignements coloniaux... publiés par le comité de l'Afrique française 1921, p. 209 - 217

**bi III 8° 571**

Donnet, G., *Une mission au Sahara occidental, du Sénégal au Tiris. Trarza - elib, ouad - bou - séba - oualad - delim - Yahia - ben - Osman /*, Challamel, Paris, 1896, 88p.

**bi II 8° 111**

Trout, F.E., *The return of Ifni to Morocco*. In : Genève - Afrique, vol. IX, 1970. n°1, p. 59 - 66

**bi II 8° 32**

Massonau, A., *En se battant à Ifni, les Espagnols défendent leurs présides*. In : « Union française et parlementaire », n° 88, nov. 1957, p. 25 - 28

**po III 4° 2787**

Monod, Th., *Notes géologiques sur le Sahara occidental (Itinéraires parcourus en 1935 - 38, 1940 - 1942, 1945 - 1946 et 1949 - 1951)* s.l.n.d. [Dakar, post 1951]. 99p. multigraphiées, 9 planches.

- Direction des Mines de l'AOF

**po II 8° 2**

Perinbam, M. A., *Trade and society in the western Sahara and the wester Sudan: an overview*. In : Bulletin de l'IFAN, t. XXXIV, série B, n°4 p.778 - 801, 1972

**bi II 4° 52**

*Les recherches minières au Sahara espagnol*. In : Industries et travaux d'Outre-Mer, n° 91 juin 1961, pp. 467- 468.

**bi II fol. 31**

Hodges, T., *La stratégie américaine et le conflit du Sahara occidental. Pourquoi M. Carter a choisi le Maroc*. In : Le Monde diplomatique n° 311, février 1980, p. 12-13

**bi II 4° 53**

« *La récupération du Sahara occidental* ». In : Marchés tropicaux et méditerranéens, n° 1792, 14 mars 1980, p. 606-607

**bi II 8° 111**

Benani, A., « *Sahara occidental et affrontements nationalistes dans le Maghreb* », Genève - Afrique, 1, XVII, 1979, p. 89- 111

**bi II 4° 250**

Dessens, A., *Le problème du Sahara occidental trois ans après le départ des Espagnols*. In : Maghreb-Machrek-Monde arabe, n° 83, janv. Févr. Mars 1979, p. 73-86

**bi II 4° 53**

« *Les développements du conflit Sahraoui* ». In : Marchés tropicaux et méditerranéens, n° 1779, 14 décembre 1979, p. 3438-3439

**bi II 4° 259**

*L'ONU et le Sahara occidental. Résolutions adoptées par l'Assemblée générale*. In : Maghreb-Machrek-Monde arabe, n° 83, janv. Févr. Mars, p. 89-94

**bi II 8° 115**

Colin, J.P., *Réflexions sur l'avenir du Sahara occidental*. In : Revue française d'études politiques africaines, n° 152-153, août -septembre 1978, p. 80-92

**bi 8° 5073**

Matarosso, L., *Sahara occidental : un peuple et ses droits*. Colloque de Massy, 1<sup>er</sup> et 2 avril 1978 / Ligue française pour les droits et la libération des peuples, Harmattan, Paris, 1978, 199p. : ill., couv. ill, 1 carte ; 22 cm, ISBN : 2- 85802-062-0

**bi II 8° 26**

Spillman, G., *La situation au Sahara occidental : le Polisario*. In : Mondes et cultures, comptes rendus trimestriels des séances de l'Académie des sciences d'Outre Mer, XXX VIII, 2, 17 février 1978, pp. 251-262

**bi III 4° 3453**

*Le dossier du Sahara occidental*. Paris, s.d. [vers 1977]. 29 cm, 32- 16- 8- 6 p., photos

**bi du II 4° 53**

Gaudio, A., *Le développement économique du Sahara occidental*. In : Marchés tropicaux et méditerranéens, n° 1599, 2 juillet 1976, p. 1747- 1749

**bi I 8° 5060**

Moulahid, J., *Les Sahraouis et le pétrole*. In : Esprit, n°4, Avril 1976, p. 779-803

**bi III 8° 2122**

*Troisième congrès du front Polisario (26 au 30 août 1976)*, Condé-sur-Noireau, Imprimerie Ch.-Corlet, s.d. [1976]. 24 cm, 78 p. multigraphiées.

**bi II 8° 115**

De Foucault, F.B., *La question du Sahara espagnol*. In : Revue française d'études politiques africaines, n° 119, 10 année, nov. 1975, p. 74-106 ; n°120, déc. 1975

**bi II 8° 75**

Flory, M., *L'avis de la Cour internationale de Justice sur la Sahara occidental*, (16 oct. 1975). In : Annuaire français de droit international, 1975, p. 253-277

**bi I 4° 1700**

*Sahara occidental*. Exposé écrit du gouvernement espagnol s.l. 1975. 33 cm, VII-354 p. multigraphiées.

- Cour internationale de Justice

**bi I 4° 1701**

*Sahara occidental*. Exposé écrit du gouvernement marocain. S.l.n.d. [vers 1975]. 33 cm, 50-51 p. multigraphiées, 1 carte, 1 planche.

- Cour internationale de Justice.

**bi I 8° 4450**

Lazrar, R., *Le contentieux territorial entre le Maroc et l'Espagne*. Préface de REUTER, P., Dar el Kitab, Casablanca., 1974. 23,5 cm, 480 p. 4 cartes



# وثائق الصحراء بمركز أرشيف ما وراء البحار في إيكس أون بروفانس

## الجيلالي العدناني

### مقدمة

إن مجموع الأرشيفات المقدمة هنا محفوظة بمركز أرشيف ما وراء البحار؛ وقد جلبت هذه الوثائق لكي تجرد وتصنف بمركز أرشيف ما وراء البحار في إيكس أون بروفانس (Aix-en-Provence) ابتداء من 1967، وهو تاريخ افتتاحه.

ويحفظ أرشيف ما وراء البحار عدة ذخائر أقدمها الرصيد العثماني الذي يشتمل على وثائق ومخطوطات باللغة العربية واللغة التركية العثمانية. وتعود هذه الذخيرة إلى القرن السادس عشر لكنها تحتوي على وثائق يرجع تاريخها إلى 1830 وما بعدها؛ كما أن بعض الوثائق المتعلقة بالمغرب والجزائر تعود إلى القرن الثاني عشر كما هو الأمر بالنسبة إلى «الخلل الموشية». أما الوثائق الأكثر أهمية فهي محفوظة في ذخيرة أرشيف حكومة الجزائر العامة. ويوجد التباس شائع بين الباحثين وغير المختصين مفاده أن وثائق مركز أرشيف ما وراء البحار يتعلق بالجزائر بينما تخصص وثائق مركز نانت (Nantes) بلاد المغرب. والحال أنه منذ احتلال الجزائر ما فتئت السلطات العسكرية وحكومة الجزائر العامة تجمع كل وثيقة ومعلومة ودراسة تتعلق بالبلد المجاور أي المغرب. وقد بتر احتلال الصحراء جزءا هاما من التراب المغربي ألحق بالجزائر بعد عام 1900؛ وهذه الأراضي التي أصبحت تسمى مناطق الجنوب جلبت لذخائر الأرشيف وثائق كثيرة، ذلك أنها تشكل حدودا مع المغرب ومحاور تدخل في استراتيجية ضم الجزائر ومستعمرات الشمال بمستعمرات إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF). وقد أثار مدينة طنجة، باعتبارها منطقة دولية، وكذا منطقة الريف اهتمام فرنسا، التي راقبت، عن كثب، كل ما يجري في هذه المناطق رغم أن حكومة الجزائر العامة كانت تتابع ما يحدث وراء الحدود بل حتى داخل المدن والقصور. وهذا ما يفسر أهمية صناديق الأرشيف المتعلقة بالمغرب؛ ومما يثير دهشة الباحث غنى تلك الأرشيفات الموجودة في ذخائر مركز أرشيف ما وراء البحار والرؤية والمواقف التي تعبر عنها وكذلك لأن أغلبها لم يسبق نشره من قبل. والخلط بين الأرشيف الخاص بالجزائر وذلك الذي يهتم المناطق المغربية، التي ضمها الاستعمار، كان من أسباب الخلاف الذي أدى إلى أن قسما كبيرا من هذا الأرشيف لم يستكشفه سوى عدد محدود من الباحثين المغاربة والجانب.

تحقيق مع أسرى قرب  
السمارة إبان عملية أكوفيون  
(فبراير 1958)

خاتم ابن الحاج عمر التجاني  
بأرشيف إيكس أون بروفانس

إن هذا الأرشيف مختلف ومتنوع؛ ويمكن الحديث عن وجود ذخيرة من الوثائق لم يسبق نشر جلها وعن تقارير للسلطات المدنية والعسكرية ومراسلات بين السلاطين المغاربة ورعاياهم أو مع السلطات الفرنسية أو شخصيات جزائرية. وهذه المراسلات بين المصالح القنصلية (طنجة وموگادور وفاس والقسطنطينية) حول المغرب تساعد الباحث على تتبع مسار بعض الشخصيات المعروفة أو غير المشهورة لكن لعبت دورا هاما في الأحداث السياسية والثقافية؛ كما تساعد ذخائر أرشيف إيكس-أون-بروفانس الباحث بالخصوص على قراءة روايات أخرى لهذه الوثائق وتدقيق النظر في مجريات التاريخ بل في صحة بعض الوثائق. ويتكون هذا الأرشيف من خرائط طبوغرافية قديمة أو حديثة ومن صور جوية ومن أشخاص؛ وبفضله أصبح بالإمكان معرفة وجوه شخصيات مؤثرة في الساحة السياسية والدينية، وتكمن أهمية هذه الذخيرة من الأرشيف في غناها من حيث الأحداث السياسية والدينية، وهي فريدة من نوعها فيما يتعلق بالصحراء الشرقية والأقاليم الصحراوية لجنوب المملكة. أما الصمت الذي خيم بعد نهاية المقاومة إلى حدود 1950 فقد بددت الأرشيفات التي أودعت بمركز أرشيف ما وراء البحار وبالأرشيفات الوطنية لداكار التي صورت منها نسخة (ميكروفيلم) لتودع بإيكس-أون-بروفانس. وتضم هذه النسخة معطيات قيمة حول الروابط التاريخية بين قبائل الصحراء والسلاطين وحول نمط العيش والتاريخ العسكري والعلاقات البرية والجوية والتجارية بين الشمال والجنوب. ويغطي أرشيف حكومة الجزائر العامة، لاسيما السلسلة (المجموعة) H، قسما هاما من الوثائق المتعلقة مباشرة بالمغرب. ويمكن ذكر السلسلة 16H والسلسلات 30 و 31 و H32. إنها تزيد على مائة محفوظة ورقية يضم كل واحد منه أكثر من ألف صفحة من الأرشيف. ودره هذه الذخيرة هي تلك الموجودة في الأرشيف الخاص لما وراء البحار (APOM) وهو لمركز الدراسات العليا للشؤون الإسلامية وذخائر أخرى خاصة؛ أما مرجعه فهو APOM 10 CAOM من 1 إلى 1290. ويحتوي على نصوص محاضرات أقيمت لمتدربي المركز المذكور أعلاه. والبحوث المنجزة للولوج إلى مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية محفوظة في رصيد حكومة الجزائر العامة (المجموعة الفرعية 20 X). وتبقى ذخيرة أرنو (Arnaud) هي النفيسة والأكثر أهمية إذ تضم ملفات هامة حول الارتباطات والتداخلات المغربية في الصحراء؛ ورقمها المرجعي هو APOM 75 من 1 إلى 8؛ وتشمل ثمانية صناديق ورقية وما يربو على العشرين سجلا، كما تضم ذخائر خاصة أخرى ذات أهمية. وتولي هذه القائمة أهمية خاصة للأرشيف المتعلق بالقبائل والأقاليم الصحراوية، كما أن عدد وثائق هذه الذخيرة وطابعها يجعل منها كنزا لقياس التوترات وفهم الرهانات التي ارتبطت بتر جزء من تراب السيادة المغربية في الحقبة الكولونيالية. وقد أن الأوان لاعتماد هذه الذخيرة قصد نشر الوثائق التي تشهد على مغربية الصحراء كما عبر عن ذلك الأعيان الصحراويون وكما تم تسجيل ذلك في تقارير مسؤولي الاستعمار السامين. إن أهمية الأرشيف الموجود في صناديق ذخيرة حاكم الجزائر العام أو ذلك المتعلق بالصحراء وموريتانيا والسينغال ينبغي أن يحثنا على نشر هذه القائمة واستثمار وثائقها - التي لم يسبق نشرها - في الدراسات وذلك بتنظيم ندوات علمية وبرامج للبحث. ويمكن لقراءة هذه الأرشيفات أن تتخذ بعدا دوليا لإظهار أن محتوياتها وتأويلها قد يشكلان مجالاً للتحري والبحث والتمحيص بالنسبة إلى المغاربة والأجانب.

الجنوبية ووثائق ملحقة، 8 سبتمبر 1939 - 15 أكتوبر 1941.  
 32H84 النشرات الأسبوعية لعين الصفرة، 1939 - 1940.  
 32H85 التقارير السنوية لأقاليم عين الصفرة، عبادلة، 1906، 1914 - 1931، 1934 - 1951.  
 32H86 أقاليم عين الصفرة، بني عباس، 1906 - 1912، 1914 - 1929، 1933، 1934، 1936، 1939، 1940، 1945، 1949، 1951.  
 23H87 أقاليم عين الصفرة، برغنت، بونديب، غير العليا (Haut Guir)، دائرة الغرب الصحراوي، كولومب بشار، 1906 - 1951 (شغرات).  
 H 24 القضايا الإدارية والاقتصادية  
 21H زعماء من الأهالي وقضايا عسكرية التواريخ 1862/1960.  
 الرقم المرجعي، رقم التواصل 21HH المراسلات التواريخ 1908/1956  
 الرقم المرجعي 21 HH GGA CAOM FR من 1 إلى 104  
 تتكون هذه الذخيرة من سجلات الضم ومن سجلات المراقبة الإسمية للموظفين.  
 22H26 رسالة من قنصل موغادور إلى وزير الشؤون الخارجية حول تصرفات د. ماكنزي (D. Mackenzie) في راس جوبي (Cap Juby) (1876)، عدة وثائق حول التجارة بين المغرب والسودان.  
 22H29 صلات بين السلطان مولاي الحسن وعابدين الكونتي، رسالة موجهة من حاكم الجزائر العام إلى وزير الحرب، 24 يناير 1895.  
 22H32 رسالتان من السلطان مولاي الحسن إلى سكان توات وتيميمون وخنافسة مؤرختان بـ 17 شوال 1303 للهجرة.  
 22H52 زاوية كرزاز، ست صفحات.  
 22H52 دور الأقبصي في تشكيل القوافل للسودان، أربع صفحات.



21H44 زعماء من الأهالي، عين الصفرة، 1951 - 1958.  
 21H45 زعماء من الأهالي، عبادلة، بني أونيف، تيندوف 1934 - 1959.  
 21H46 زعماء من الأهالي، كولومب بشار 1927 - 1959.  
 21H48 زعماء من الأهالي، توات، غورارة، 1927 - 1960.  
 21H53 زعماء من الأهالي، تيديكلت، عين صالح، 1927 - 1958.  
 21HH المراسلات  
 21H100 المطايا، الجمال والخيل، الضياع والسراقات، 1927 - 1958.  
 21H109 المخازن الصحراوية القديمة، مخزن كولومب بشار، 1919 - 1944.  
 21H111 كتيبة صحراوية، مخزن، كُوم، كتيبة صحراوية، دواوير صحراوية، 1941 - 1946.  
 22H التوغلات الصحراوية والتوغل الاستعماري  
 22HH المخازنية الصحراوية  
 23H التقارير السياسية الدورية  
 23H81 التقارير الشهرية للمخزن الصحراوي، يونيو 1948 - 1955.  
 23H82 العرض الأسبوعي حول الوضع السياسي، 26 يونيو 1903 - 18 غشت 1910.  
 23H 82 النشرة الأسبوعية ثم الشهرية حول الوضع السياسي والاقتصادي للأقاليم

السلسلة H — الشؤون الأهلية التواريخ 1830/1960  
 2H46 المغرب، الحملات العسكرية (1892 - 1896).  
 3H الشؤون العسكرية  
 المحفوظات 3H152 و 3H692 تتضمن معلومات هامة حول الرماة السينغاليين العاملين بالمغرب ابتداء من 1908.  
 4H الاستكشافات والأسفار زعماء من الأهالي التنظيم  
 9H المراقبة السياسية  
 10H دراسات وتراجم حول الجزائر والإسلام  
 10H84 مؤلف الرائد كوفيه (Le Cdt Cauvet) حول الجمل، 1928.  
 11H التقارير السياسية الدورية  
 12H إصلاحات لفائدة الأهالي  
 13H الانتخابات والاجتماعات  
 14H القضايا الاجتماعية المتعلقة بالأهالي  
 15H الصحافة الأهلية والبعث الإذاعي  
 16H القضايا الدينية  
 17H العدالة الإسلامية  
 18H ضباط وموظفو الشؤون الأهلية  
 19H إدارة الأهالي المحلية وموظفو الجماعات المختلطة  
 20H قضايا متنوعة الأقاليم الجنوبية تونس  
 27H الإسلام. التوثيق الدوري العام  
 28H القضايا المتعلقة بإفريقيا السوداء  
 29H بلدان إسلامية مختلفة المغرب  
 30H المراسلات السياسية ومختلفات  
 31H الدراسات والتراجم  
 32H تقارير دورية وصحافة أقاليم الجنوب الأقاليم الجنوبية  
 21H زعماء من الأهالي وقضايا عسكرية  
 21H41 زعماء من الأهالي، عين الصفرة، 1933 - 1937.

- 22H56 تقارير حول تافيلالت، ل. ميرسي  
1902 - 1903 (L. Mercier)
- 22H 36 رسالة من أحمد ولد الحاج عمر التل  
إلى السلطان مولاي الحسن، 31 ماي 1893.  
رسالة من بشير بن طالب التلمودي إلى  
مولاي الحسن.
- 22H 36 الاستيلاء على تنبكت. استشارة  
مولاي الحسن لعلماء فاس. ردود العلماء في  
المحافظة نفسها.
- 22H 36 رسالة من وزير الشؤون الخارجية  
إلى حاكم الجزائر العام وتعلق بالاستيلاء  
على تنبكت، 5 مارس 1894.  
تأثير تصرفات المغرب والشرق، أنظر تقرير  
فريش، أبريل 1894، بعض الملاحظات حول  
السياسة الصحراوية لتنبكت.
- 22H 77 غزو عابدين وعاشورات،  
1909 - 1910.
- 22H88 الحركة الصحراوية، 1953 - 1955.  
**28H** قضايا متعلقة بإفريقيا السوداء  
التواريخ.  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 28 H  
من 1 إلى 4.  
نجد في هذه السلسلة الفرعية بعض الملفات  
المتعلقة بإفريقيا السوداء في علاقاتها بالعالم  
الإسلامي.
- 28H2 الصحراء. علاقات مع إفريقيا السوداء  
الغربية الفرنسية، الحرب، 1914 - 1918.  
السلسلة الفرعية **30DH**  
المغرب: المراسلات السياسية
- 30H 1 المغرب، الحدود. مطالب، اعتراض،  
تعويضات، غزو، واحات توات، حميان.  
1894 - 1897.
- 30H 2 قافلة غورارة، حميان. اضطرابات في  
عمالة وجدة. نهب قافلة بني مطهر وأولاد عبد  
الله. حالة المطالب قيد النظر. 1896 - 1898.
- 30H 3 غزو. اغتيال النقيب غراتيان (Cap  
Gratien) ودي كريسان (Cap de Cressin)  
1902.
- نهب قافلة على يد آيت عطا (1893).  
نبذة عن أولاد جرير، ادوي منيع، بني غيل،  
البرابر وآيت خباش.  
1901 - 1906.
- 30H 15 المغرب، الحدود مع الجزائر  
وإفريقيا الغربية.  
بروتوكولات واتفاقيات.
- 30H 70 مراسلات الجزائر-المغرب  
(1918 - 22). وثائق حول وضع فجيح  
والقصور (معاهدات 1845، 1903...)  
تقارير حول المشاكل التي تطرحها الحدود  
الجزائرية المغربية (1903 - 1913).  
وضعية الحدود وتقارير تقسيم عين الصفرة  
(1903 - 1919).  
توات وغورارة - وضعية واحتلال  
(1891 - 1905).  
1845 - 1922.
- 30H 71 قضايا مالية وعسكرية ناجمة عن  
وضعية الحدود الجزائرية المغربية.  
**31H** دراسات ونبد  
التواريخ  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 31 H  
من 1 إلى 25.  
يتعلق الأمر أساسا بمونوغرافيات حول  
المناطق والقبائل.
- 31H9 النقيب شاربونتيني (Capt  
Charpentier)، قبيلة آيت خباش 1930.  
31H10 الملازم الأول دولا شاييل (Lt De La  
Chapelle)، ملاحظات حول تكنة والمنطقة  
الواقعة بين وادنون والساقية الحمراء 1930.  
31H11 النقيب دونيس (Capt Denis)،  
نبذة حول الأطلس الصغير الأوسط وملحقة  
تارودانت.
- 31H12 دراسة حول قبيلة اعريب (وتتعلق  
كذلك بآيت خباش، ركيبات الشمال،  
تابلبالته...)
- 31H13 الضابط الترجمان دونون  
(Officier-interprète Denoun)، نبذة
- حول قبيلة اعريب الصحراوية العربية 1924  
31H14 نبذة حول آيت حمامة  
31H16 الملازم الأول سبيلمان  
(Lt Spillman) ج. دراج (G. Drague)  
قبائل درعة العليا (الجزء الرابع، وثائق  
مرفقة)، قبائل يهودية. 1930  
31H19 نبذة حول جزر الكناري (1916 -  
1926)  
**32H** التقارير الدورية والصحافة  
التواريخ 1913 / 1961  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 32 H  
من 1 إلى 19  
تضم هذه السلسلة الفرعية التقارير الدولية  
وأقوال الصحف الصادرة عن الإقامة  
الفرنسية بالمغرب.  
32H1 التقارير الشهرية الإجمالية 1913 -  
1916  
32H2 تقارير الحماية المغربية الشهرية الإجمالية  
1917، 1919، 1920، 1923 (ثغرات)  
32H2 (مكرر) تقارير الحماية المغربية  
الشهرية الإجمالية، 1925، 1932  
32H4 نشرات المقيم العام الدورية، بريقيات  
المقيم العام الدورية، مايو 1918 يونيو  
1921، يونيو 1921 دجنبر 1922.  
32H5 الأوضاع السياسية والعسكرية  
الأسبوعية (ثغرات)، نونبر 1924 - يونيو  
1933.  
32H6 نشرة إخبارية وتوثيقية (مرة كل  
شهرين) ثم نشرة من سلسلة جديدة، دجنبر  
1937 شتنبر 1940، 1941.  
الوضع السياسي والاقتصادي بالمغرب (مرة كل  
شهرين ثم شهرية) مايو 1934 شتنبر 1939.  
نشرة الاستعلامات السياسية والاقتصادية  
(أسبوعية)، أكتوبر 1939 - شتنبر 1941.  
32H7 نشرة الاستعلامات السياسية  
والاقتصادية (شهرية)، 1944 - 1945.  
نشرة الاستعلامات مرة كل أسبوعين  
(ثغرات). مختلفات. 1947 - 1955.

مرقونة، الخ.)؛ الجزائر (إدارة الأقاليم الجنوبية، لجنة الجزائر، لجنة اتحاد نساء فرنسا)؛ العلاقات بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا الغربية (جمعية أصدقاء الصحراء وأوروبا- إفريقيا، منظمة سباق السيارات).

أوراق مونتاي (Monteil)

التواريخ 1879 / 1932

الرقم المرجعي 1 APC 10 FR CAOM

التحق مونتاي بالسينغال في 1877. وبسان

لويس سيرتبط بعري الصداقة مع جالييني

(Galliéni) ليصبح نائبه في إدارة الشؤون

السياسية. وفي 1879 - 1880 اضطلع

بمهمة التعرف على الولوج (Djolo) و

الفيرلو (Ferlo) بشمال شرق السينغال.

وفي سنة 1880 عاد إلى فرنسا. ثم رافق

الربان دورلودوت دي إيسار (Dorlodot)

(des Essarts) الذي عين حاكما للمؤسسات

الفرنسية بأقيانوسيا؛ حيث مكث سنتين.

وعاد من جديد إلى إفريقيا عام 1884 قائدا

للبعثة الطبوغرافية بالسينغال الأعلى حيث

سيضع تخطيطا للسكة الحديدية بين السينغال

والنيجر. وفي سنة 1886 شد الرحال إلى

الهند الصينية ومكث بها ثمانية عشر شهرا.

وفي 1890 بدأ سفره الكبير لاستكشاف

إفريقيا قصد التعرف على النيجر وتشاد

وهما خط التماس بين المناطق الخاضعة للنفوذ

الفرنسي والنفوذ الإنجليزي. غادر مونتاي

مدينة سان لويس السينغالية في العاشر من

شنتبر 1890 وحل بطرابلس في العاشر من

دجنبر 1892 بعد أن قطع 7800 كيلومتر. وقد

عرف هذا السفر توقيع عدة اتفاقيات لصالح

فرنسا. وفي السنة الموالية عين حاكما وقائدا

عاما لأوبنغي الأعلى (Haut Oubangui).

لكنه عندما رسا توجه إلى ساحل العاج وفي

شنتبر 1894 وفي مواجهة ساموري، تولى

قيادة طابور كونغ (Kong) التي كان يطالب

بها كل من مرشان (Marchand) وحاكم

بنجر (Binger). وأثناء ذلك جرح جرحا

حصل أينما حل على ود الأهالي وتعاطفهم.

وتشكل كتاباته ومراسلاته مصدرا هاما في

معرفة إفريقيا بداية القرن العشرين وفي معرفة

الحياة اليومية للضباط كذلك.

ونجد في هذه الذخيرة الملف الشخصي

لهنري غادن (الحالة المدنية والأوسمة والوثائق

العسكرية والإدارة العسكرية أيضا، الخ.)؛

وملاحظات حول البغرمي (le baguirmi)

وحول مسلمي زندر (Zender) وموريتانيا

ودراسات لسانية وبيانات طبوغرافية وخرائط

بخط اليد (غينيا، ساحل العاج، تشاد،

موريتانيا) بالإضافة إلى يوميات المسيرة

من طوطي (Toté) إلى كونغ (Kong)

ومراسلات متنوعة.

أوراق غالييني (Galliéni)

التواريخ 1887 / 1895

الرقم المرجعي 1 APC 20 FR CAOM

يتعلق الأمر بوثائق وتوقيعات خاصة وجهها

غالييني إلى م. جيبلان (M. Gebelin)

مدير تحرير نشرة جمعية الجغرافيا بمدينة بوردو

حول حملة السودان.

أوراق أوكتاف مينيني (Octave Meynier)

التواريخ 1912 / 1959

الرقم المرجعي 23 APC FR CAOM

بعد سان سير (Saint-Cyr) عمل مينيني

بالسودان وتشاد ورافق العقيد كلوب

(le colonel Klobb) في مهمته المتمثلة

في ملاحقة فولتي (Voulet) وشنوان

(Chanoine) سنة 1899. وقد كان نائبا للقائد

العسكري بالنيجر سنة 1902 ثم نائبا للمدير

بمكتب حاكم الجزائر العام فقائدا عسكريا

للصحراء. وفي سنة 1926 عين مديرا لأقاليم

الجنوب، وهو المنصب الذي ظل يشغله حتى

1924. وافته المنية بالجزائر عام 1961.

يوجد في ذخيرة مينيني وثائق تتعلق بحياته

وكتاباته (مذكرة يومياته، كتب زاخرة

بملاحظاته، مسودات مؤلفات، مسودات

لمراسلاته أو نسخ منها، مقالات وكتب

32H8 تقارير دورية حول الحدود الجزائرية-

المغربية 1930 - 1933، 1934 - 1936.

32H9 تقارير دورية حول الحدود الجزائرية-

المغربية 1937 - 1941.

32H10 تقارير دورية: أغادير، الحدود.

32H2 الدور السياسي لتاجكانت وسيطرتهم

بتندوف في الحقة الكولونيلية، تقرير الحماية

الشهري الإجمالي، شنتبر 1919، تقرير

الحماية الشهري، أبريل ويوليوز 1922،

مركز أريشيف ما وراء البحار.

32H8 التقرير الدوري للأقاليم المستقلة

من تخوم درعة، الأشهر الثلاثة الأولى من

1935، محاولة لتجميع القبائل المتفرقة بسبب

المقاومة: حالة تاجكانت وكونتا.

32H8 غزو آيت خباش لتابلالة، التقرير

الشهري لأبريل 1931، إقليم عين الصفرة.

وتوجد عدة تقارير حول الوضعية الاقتصادية

خصوصا في 1934 و 1935.

الأرشيفات الخاصة للمستعمرات

أوراق ميشيل فيوشانج (Michel Vieuchange)

التواريخ 1930 / 1932

الرقم المرجعي 1 APC 10 FR CAOM

يتعلق الأمر بوثائق ترتبط باستكشاف الساقية

الحمرء بين السينغال وموريتانيا وقد أنجزها

ميشيل فيوشانج وجمعها أخوه.

أوراق لويس لاكاسكاد (Louis Lacascade)

التواريخ 1897 / 1927

الرقم المرجعي 1 APC 16 FR CAOM

أوراق هنري غادن (Henri Gaden)

التواريخ 1886 / 1906

الرقم المرجعي 2 APC 15 FR CAOM

في سنة 1892 ذهب هنري غادن إلى إفريقيا

بصفته ملازما أولا. وقد اشتغل في السودان

ثم غينيا حيث سيحظى بمجد تليد لمشاركته

في إلقاء القبض على ساموري (Samory).

وفي عام 1911 استقال من الجيش لكي يلتحق

بمصالح وزارة المستعمرات بصفته إداريا محليا.

وسينهي مساره حاكما عاما لموريتانيا. وقد

بليغا غير انه انتصر وانتهى الأمر بالطبور إلى الانحلال. وأحيل مونتاي على المعاش في سن الحادية والأربعين عام 1896 لينصرف بعد ذلك إلى أنشطة سياسية متنوعة، وقد قام بنشاط كبير خلال حرب البور (les Boers) بصفته رئيس اللجنة الفرنسية للجمهوريات الجنوب إفريقية. وعندما دنا موعد الحرب العالمية الأولى أدمج من جديد في سلك الجيش العامل. وهو مؤلف لكتب عديدة حول بعثاته.

وتصف هذه الأوراق مختلف إقامات العقيد مونتاي بإفريقيا من 1879 إلى 1895: بعثة طبوغرافية بالسينغال الأعلى، بعثة من داكار إلى طرابلس عبر تشاد، بعثة أوبانغي الأعلى؛ بعض الوثائق المتعلقة بإقامة مونتاي بأقيانوسيا (1880 - 1883) وبالهند الصينية (1886 - 1887). كما أن الملفات تضم مراسلات خاصة ذات أهمية.

أوراق ماسبيرو (Maspéro)

التواريخ 1940 / 1944

الرقم المرجعي FR CAOM 56 APC 1

يتعلق الأمر بمجموعة من الدروس ألقاها

هنري ماسبيرو (Henri Maspéro)

بالمدرسة الكولونيبالية.

أوراق الجنرال لويس أرشينارد (le Général

Louis Archinard

التواريخ 1911 / 1880

الرقم المرجعي FR CAOM 10 APC 1

تتكون الذخيرة من مراسلات تلقاها (من

غاليني ومرشان وليوطي) ومن كتابات

وصور فوتوغرافية تتعلق بإفريقيا السوداء.

أوراق الجنرال جان باتيست دي مرشان

(le Général Jean-Baptiste)

Marchand

التواريخ 1934 / 1899

الرقم المرجعي FR CAOM 64 APC 1

ينتمي مرشان إلى أصول متواضعة وبذلك

يكون ضابطا متخرجا من غير أن يدرس

بالمدرسة الحربية. كانت وجهة مساره هي

السودان؛ ففي عام 1888 شارك في حملة موجهة ضد التوكولور (les Toucouleurs) أثار خلالها اهتمام أرشينارد. وفي سنتي 1889 و 1990 استولى على سيغو (Ségou) ونيورو (Niuro) ثم التحق بعد ذلك بساحل العاج.

وسرعان ما شغلت باله فكرة الذهاب أبعد من الإنجليز ومنعهم من مراقبة إفريقيا. ومن أجل ذلك رأى أنه يجب على الفرنسيين أن يكونوا السباقين إلى الاستقرار بأعالي النيل انطلاقا من الكونغو وأوبانغي. وقد تلقى دعم أرشينارد

(Archinard) وغابرييل هانوتو (Gabriel

Hanotaux). وذلك ما سيفضي إلى حملة

الكونغو-النيل الشهيرة من 1896 إلى 1899.

وفي عام 1900 رحل إلى الصين وشارك

في حرب البوكسرز (les Boxers) بصفته

ماجورا للثكنة بكين. قدم استقالته من الجيش

في 1904 غير أنه طلب إدماجه من جديد في

صفوفه سنة 1914، وقد اشتهر في مراحل عدة

من الحرب العالمية الأولى؛ وتوفي سنة 1934.

تضم الذخيرة مراسلات خاصة بحملة

الكونغو-النيل (مصحوبة بكونولوجيا

لفاشودا (Fachoda).)

أوراق فلانتر (Flatters)

التواريخ 1881

الرقم المرجعي FR CAOM 65 APC 1

التحق فلانتر بسان سير سنة 1851 وتخرج

منها في 1853 ملازما للكتيبة الزوايين الثالثة

(3<sup>e</sup> zouaves). وسرعان ما استقر بالجزائر

وتعلم اللغتين العربية والبربرية. ثم التحق

بإدارة المكاتب العربية بقسنطينة ليعود إلى

فرنسا عام 1864 ويغادرها ليشترك في حرب

1870 ويعتقل في سيدان (Sedan). عاد

فلانتر إلى الجزائر في 1872 وقد كان حينئذ

رائدا ساميا بعين بيضة ثم بجاية. وفي 1876

أنيطت به القيادة العليا لدائرة لغوات وطلبت

منه تقارير حول إمكانية ربط علاقات تجارية مع

السودان. لقد كانت الأولوية بالنسبة إليه هي

استتباب السلم بالمنطقة ومواجهة السنوسيين

إقامة علاقات مع الطوارق. وعند دخوله إلى

فرنسا ترأس لجنة الفطار العابر للصحراء. تسلم مهمة استكشافية كانت وجهتها بلاد الطوارق، وانطلق إليها في يناير 1880. ربط فلانتر علاقات مع الأزجر (les Azdgers) غير أنه عاد إلى فرنسا في يونيو لقلّة المال المتوفر ثم غادرها في أكتوبر عازما على شد الرحال إلى الهكّار (Hoggar)، لكن هذه البعثة أيدت عن آخرها على يد حوالي مائة من الطوارق خلال استعراض في 16 فبراير 1881.

تتضمن الذخيرة قصاصات جرائد حول فلانتر ومحضر وفاته وصورة فوتوغرافية لتمثال نصب له جنوب ورغلة.

أوراق مادلين لبي دي بيلو (Madeleine

Lyée de Belleau

التواريخ 1906 / 1946

الرقم المرجعي FR CAOM 67 APC 1 et 2

لا نعرف إلا القليل عن مادلين لبي دي بيلو:

إنها رياضية وكاتبة ومحقة ونحاتة؛ إنها

تكتب حول كل ما تراه.

إذا استثنينا أوراقا شخصية لمادلين فإننا نجد

في هذه الذخيرة محاضرات ومقالات حول

الجزائر والمغرب وإفريقيا وعدة مذكرات

للسفر (المغرب وجهة طرابلس وتونس

والجزائر) ومخطوطات مؤلفات حول إفريقيا

الشمالية والشرقية «فافا العرجاء» (Faffa

la Boîteuse)، «الألب الصحراوية»

(l'Alpe saharienne)، «وحيدة عبر بلاد

فارس» (Seule à travers la Perse)، «من

الكامرون إلى الهكّار» (Du Cameroun

au Hoggar) وصورا فوتوغرافية عديدة.

أوراق دارمون (Darmon)

التواريخ 1921

الرقم المرجعي FR CAOM 76 APC 1

تحوي الذخيرة دفترا يتضمن صورا وغلافا

برسم مائي (أكوارييل) حرره دارمون بعنوان

«يهود دبدو».

وهي وثائق وتوقعات خاصة تتعلق ببعثات

كولونيبالية متنوعة (مارشان، فلانتر، جونتي

Gentil، إلخ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

هَذَا كِتَابُ الْكِنَاشِ فِي عِلْمِ  
الْحَقِيقَاتِ وَالْمَشْرِيقِ  
الْفُكَيْبِ الْمَكْتُومِ سَيِّدِي أَحْمَدِ  
التَّجَانِي قَسْقَانَا اللَّهُ مِنْ جُودِهِ، آمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
به واصفياً به من النور والحمد انواراً واصفياً به  
من مكنون سره وجوه علمه ودره معارفه واسراره  
وعلاهم بجليلة سنائه وعلاهم جلاله وبها به واكفهم  
في سماء التوحيد انواراً بما استضاءت بانوارهم الخليفة  
وسلكوا بهم من الذين كرى فقهه وفتوه وامنه موكلنا  
وفراراً، فسبحان من خصهم بالحكمة والنور وشرح بهم  
القلوب والصدور، وجعلهم للذين احوافاً وانصاراً واشهد  
ان لا اله الا الله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا  
محمد النبي من بينه يجرى يغتنى بوجهه ومن روى مواهبه  
يفتخر بوجهه انواراً وازهاراً ومن نور يستنطقون منه يرون

- وزارة الصحراء  
مصالح الوزارة  
التواريخ حوالي 1956 / 1961  
الوصف المادي 101 م. ل.  
شروط الدخول ذخيرة غير مرتبة  
المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية (OCRS)  
التواريخ حوالي 1957 / 1961  
بمقتضى القانون رقم 57-27 الصادر في 10  
يناير 1957 أنشئت «المنظمة المشتركة للمناطق  
الصحراوية» (OCRS) التي تهدف إلى استثمار  
المناطق الصحراوية التابعة للجمهورية الفرنسية  
وإلى توسعها الاقتصادي والنهوض بها.  
وتتكلف وزارة الصحراء في الحكومة بتطبيق  
هذا القانون.  
ويوضح المرسوم رقم 57-713 الصادر في  
21 يناير 1957 أن الوزارة «لها اختصاص  
النظر في مجموع الشؤون التي تهم المناطق  
الصحراوية» وتكلف وزير الصحراء بمهمات  
الوكيل العام للمنظمة المذكورة (OCRS).  
عمالة كولومب بشار  
التواريخ 1957 / 1962  
أحدثت محافظة الساور (la Saoura)  
بمرسوم 7 غشت 1957.  
لم يتم التمييز بين الذخيرة التي تعود إلى  
المحافظة الجديدة وذخائر الأقاليم السابقة  
للجنوب. وفي انتظار تصنيف هذه الذخيرة  
فإنه من باب المحال إسناد هذه الأرشيفات إلى  
أية من الإدارتين.  
عمليات في الأدرار  
التواريخ 1908 / 1914  
الرقم المرجعي 1705 COL 1 à 4  
هجمات البيضان، حملة غورو (Gouraud)،  
عمليات في الحوض (le Hodh).  
تدخل المغرب بشأن أدرار، تهريب السلاح  
التواريخ 1908 / 1909  
التواريخ 1923  
الرقم المرجعي 1706 COL 1 et 2  
مركز الدراسات العليا حول إفريقيا وآسيا  
الحديثة (CHEAM)
- التواريخ 1937 / 1975  
الرقم المرجعي FR CAOM 10 APOM من  
1 إلى 1290  
أنشئ المركز في 1936 وحمل اسم (CHEAM)  
أي مركز الدراسات العليا حول الإدارة  
الإسلامية، وكانت مهمته هي استقبال إداريين  
مدنيين وعسكريين وأساتذة وقضاة عاملين  
في بلدان إفريقيا الشمالية والمشرق قصد  
التدريب. وبعد الحرب أضيفت فروع جديدة  
هي فرع الإسلام وإفريقيا السوداء ثم فرع  
دراسات آسيا. وفي 1973، أصبح اسم هذه  
المؤسسة هو مركز الدراسات العليا حول  
إفريقيا وآسيا الحديثة وأضحيت مهمته هي  
المساهمة في التكوين والبحث في كل المسائل  
المتعلقة بالحضارات الإسلامية والإفريقية  
والآسيوية الحديثة. وقد وضع المركز تحت  
سلطة الوزير الأول وأسند التسيير للمؤسسة  
الوطنية للعلوم السياسية. ويقوم المركز بنشر  
مجلة إفريقيا وآسيا.  
تقديم المحتوى: تتضمن الذخيرة نصوص  
المحاضرات التي أقيمت على متدربي مركز  
الدراسات العليا حول إفريقيا وآسيا الحديثة  
(CHEAM).  
البحوث المنجزة للالتحاق بمركز الدراسات  
العليا حول الإدارة الإسلامية (CHEAM)  
محفوظة في ذخيرة حاكم الجزائر العام  
(السلسلة الفرعية 20X).  
75APOM روبر أرنو (Robert Arnaud)  
المحافظ راندو (1873-1950) (Randau)  
الجزء الثالث، الحج إلى مكة 1902 - 1919  
الجزء الرابع، ولد عايدة، أمير الأدرار ووثائق  
الشيخ سعد بوه، 1906 - 1911.  
الجزء الخامس، غزوات مغربية بالأدرار، 1912.  
102APOM بنايات منارات الإمبراطورية العثمانية  
وإدارتها، القرن التاسع عشر والقرن العشرون، قام  
بنشره ف. بورسليه (F. Pourcelet)  
145APOM  
ذخيرة الجنرال ميريك (Général Méric)  
تقرير عن الندوة الوطنية لحل المشكل الفرنسي
- المغربي 1955، الأحداث اليومية 1956.  
ذخيرة بوسون دي جانسنس، 1953  
(Busson de Janssens)؛ أحباس المغرب  
وبلدان أخرى 1930 - 1950، 1930 -  
1952.  
دراسات:  
- الملازم الأول كوطار (Lt Coutard)،  
دراسة حول الري، أرفود، 1951.  
- الملازم الأول دورانج (Lt Dorange)،  
الجماعات البربرية، 1945 - 1946.  
- الملازم الأول دوبروي (Lt Dubreuil)، الطرق  
والزوايا الملحقة بتغير، 1945 - 1946.  
- الملازم الأول ديكلو (Lt Duclos)، اختلاط  
الأعراق في دائرة زاكورة، يناير 1954.  
- الملازم الأول ميو (Lt Miot)، سياسة  
القواد الكبار في أزغار تيزنيت والأطلس  
الصغير الغربي، المغرب، 1948 - 1949.  
- الرائد دي هوتفيل (Cdt d'Hauteville)،  
ملاحظات ضباط الأهالي الرئيسيين، قيادة  
أكادير والنواحي.  
- النقيب رويز (Capitaine Ruiz)، تدغة،  
الحياة الاقتصادية، 1948،  
أوراق سوريو (Christiane Souriau)  
التواريخ 1964 / 1984،  
الرقم المرجعي FR CAOM 35 APOM من  
1 إلى 84،  
تتضمن الذخيرة توثيقا خاصا بوضعية النساء  
والعالم العربي. والوثائق عبارة عن مقالات  
مصدرها الصحافة وبرامج البحث التي تذكر  
بنشاط كريستيان سوريو داخل المركز الوطني  
للبحث العلمي (...). وأوراق ناجمة عن  
دورها في مجموعات البحث المتنوعة المتعلقة  
بالنساء في إعداد الندوات. وتنقسم الذخيرة  
إلى موضوعين اثنين: النساء والعالم العربي.  
استمارت بروهوزا (Prohusa)  
التواريخ: النصف الثاني من القرن العشرين  
الرقم المرجعي FR CAOM 36 APOM من  
1 إلى 47  
شرع مركز الدراسات والمعلومات حول المشاكل

سالبة ونسخ مطبوعة) محفوظة بالمكتبة الخاصة بالصور في السلسلة الفرعية 28Fi.  
أوراق صولايي (Soleillet)  
التواريخ 1842 / 1886  
الرقم المرجعي FR CAOM 85 APOM  
من 1 إلى 24  
جانب بول صولايي (Paul Soleillet)  
الجزائر وتونس من 1867 إلى 1870 وتعلم اللغة العربية وعادات المسلمين؛ وفي 1872 تعرف الطريق من الجزائر العاصمة إلى عين صالح. واستلم مهمة رسمية لمشروعه الاستكشافي من لغوات إلى واحة عين صالح. كما قدم مقترحات أخرى خاصة مقترح إنشاء السكة الحديدية بين الجزائر العاصمة والسينغال، غير أن هذه المقترحات لم تكلل بالنجاح. وسينتهي به الأمر في 1882 إلى إنشاء وكالة تجارية فرنسية بأبوك (Obock) بمساندة ملك الحبشة (إثيوبيا).

الرقم المرجعي FR CAOM GGA 14X  
من 1 إلى 8  
ملاحظة: رسائل الجنرال لابرين (Général Laperrine) والنقيب بين (Capitaine Pein).  
أوراق ألفريد ديبى (Alfred dyé)  
التواريخ 1896 / 1919  
الرقم المرجعي FR CAOM 68 APOM  
من 1 إلى 10  
بعد أن تم قبول ألفريد هنري ديبى بالمدرسة البحرية سنة 1890 التحق ببعثة مرشان من 1896 إلى 1899. وفي سنة 1907 شارك في بعثة هيدرولوجرافية (علم وصف المياه) في سواحل المغرب وفي 1908 شارك في بعثة مازران (Mazeran) بالسينغال. وفي 1925 كان حاضرا ببلبنان.  
تحوي الذخيرة مراسلات هامة ووثائق حول بعثة مرشان ومفكرات بها ملاحظات.  
الوثائق المنفصلة: الصور الفوتوغرافية (صفائح

الإنسانية في المناطق القاحلة (Prohusa) في أنشطته سنة 1959. وينظم بعثات علمية للدراسات البيولوجية والفيزيولوجية والأنثروبولوجية والسيكولوجية تتعلق بساكنة الصحراء. وتدور استمارة 1961 أساسا حول العمل في الدوائر الصحراوية. أما المواضيع المختلفة المعنية فهي إحصاءات السكان وعلم التغذية ومستوى العيش والاقتصاد القروي والصناعي والحرفي والتجاري والشغل ثم استمارة في أوساط النساء. وقد عمل على ذلك فريقان من مايو إلى أكتوبر 1961 بلغوات ودائرتهما بالأدرار في الساورة.  
أما الوثائق المحفوظة فهي أوراق أولية للاستمارة يملؤها المحققون بناء على أجوبة المستجوبين الشفوية. أما الدراسة الديمغرافية فتتكون من أوراق إجمالية عن كل أسرة. كما نجد مسودات لتقارير عن الاستثمارات ومقترحات مبدئية حول تنمية الصحراء.

أوراق أوجيرياس (Augérias)

التواريخ 1914 / 1945

الرقم المرجعي FR CAOM 1706 COL 1 et 2  
كان أوجيرياس ضابطا للشؤون الأهلية وعنصرنا سابقا في السرية الصحراوية لتوات غورار (Touat Gourar) وقائدا لكتيبة المدفعية في الساورة (la Saoura).  
توجد في الذخيرة عدة تقارير حول مهماته في الصحراء وفي إفريقيا الغربية الفرنسية (بعثة الجزائر - دكار 1920 - 1921، بعثة أوجيرياس - درابر (Augérias - Draper) من الجزائر إلى السينغال 1927 - 1928)؛ يوميات المسيرات مشيا؛ خرائط رسمت في الصحراء (1914 - 1924)؛ ملف مهمة دراسية حول القنص في إفريقيا الغربية الفرنسية وإفريقيا الاستوائية الفرنسية (1944 - 1945)؛ مخطوط دراسة أوجيرياس حول الاستكشافات في القطب الشمالي.

14X ذخيرة كوفي (Fonds Cauvet)

التواريخ حوالي 1880 / 1920



الرقم المرجعي 1 APOM 131 CAOM FR  
نبذة سيرية كان الجنرال بروسي كاتباً وضابطاً هجاناً .  
يتعلق الأمر بخرائط تخص المغرب والسودان .  
الكتب التي رافقت هذه الهبة محفوظة  
بمعهد الأبحاث والدراسات عن العالم العربي  
والإسلامي (IREMAM) .

أوراق منفصلة

التواريخ 1732 / 1848

الرقم المرجعي 1 APOM 133 CAOM FR  
- سان دومانك (Saint-Domingue):

عقدة بيع مسكن، 1788

- وثائق منفصلة تتعلق بجزيرة فرنسا (جزيرة

موريس) وجزيرة بوربون

1785 - 1787، (Réunion)

- رحلة أبي المغداد مستشار قاضي سان

لويس (الجزائر) 1860

- محاضر اللجنة الجزائرية، 1847 - 1848

- يوميات المعاملات التجارية لمدينة

بونديشيري (Pondichéry) الهندية، 1732 .

أوراق كوني (Cuny)

التواريخ الخمسينيات

الرقم المرجعي 1 APOM 138 CAOM FR

من 1 إلى 3

شروط الدخول : ذخيرة غير مصنفة

تقديم المحتوى : يتعلق الأمر بوثائق تخص

الاقتصاد والاستثمار الفلاحي لإفريقيا الغربية

الفرنسية وإفريقيا الشمالية .

السلسلة X : هبات وحيازات

التواريخ : 1758 / 1956

الوصف المادي : 52 م .ل

1X أوراق إسماعيل أوربان

2X مجموعة فودوار (Vaudouard)

3X أوراق لويس رين (Louis Rinn)

4X أوراق بونفال (Bonneval)

5X ذخيرة بولوني (Boulogne)

6X نسخ ووثائق مختلفة

7X مخطوطات ومستنسخات ومختلفات

8X دراسات ووثائق متنوعة

كانت جمعية الصداقات الإفريقية جمعية  
لمساعدة قدماء الجنود من شمال إفريقيا .

وكان هدفها الدفاع عن المصالح المادية

والمعنوية لعسكريي وحدات جيش فرنسا

ذوي الأصول الشمال إفريقية .

نجد في هذه الذخائر مداوولات المجلس

الإداري ووثائق تتعلق بالملك العقاري

وسجلات دفع الرواتب ومراسلات .

أوراق بروسي (Brosset)

التواريخ القرن العشرون

لنذكر أن أصل صولايي من منطقة الكَار  
(le Gard) الفرنسية .

تشمل الذخيرة مراسلاته (23 رسالة) مع

المركيز دي فالفون (le Marquis de

Valfons) نائب منطقته (الكَار) الذي غالباً

ما لجأ إلى خدماته .

جمعية الصداقات الإفريقية Association

Amitiés africaines

التواريخ 1935 / 1982

الرقم المرجعي 119 APOM CAOM FR

من 1 إلى 18 .



**9X** قصاصات الصحافة ودوريات  
التواريخ 1882 / 1958  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 9 X من  
1 إلى 341  
تخص الذخيرة أساسا الجزائر والعالم  
الإسلامي لاسيما من 1930 إلى 1958.  
9X91 المغرب، توثيق، 1947 - 1953  
9X104 المغرب، توثيق، 1918 - 1956  
9X177 مراکش، أعداد من «الأطلس»،  
1925 - 1927  
9X178 المغرب، الصحراء، موريتانيا،  
الحوليات الكولونiale، 1911 - 1938.  
9X190 المغرب، 1939 - 1957.  
9X214 الصحراء، «المنظمة المشتركة  
للمناطق الصحراوية» (OGRS)، البترول،  
1956 - 1957.  
9X230 الحدود الصحراوية للمغرب  
وتونس، 1952.  
9X236 الصحراء، 1930 - 1955.  
9X275 الصحراء، 1930 - 1955  
9X337 استثمار الصحراء  
9X309 الصحراء  
مجموعة فيرو (Féraud): كتابات شخصية  
ووثائق عربية  
التواريخ: القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 10X  
من 1 إلى 3  
شارل فيرو ترجمان رئيسي لجيش إفريقيا ثم  
قنصل ووزير مفوض وقد جمع هذه القطع خلال  
مساره المهني (بعض هذه الوثائق مترجم).  
جل هذه الوثائق يخص السنوات الأولى من  
الاحتلال.  
**10X2** أولاد بوسباع  
**13X** رسائل المارشال ليوطي إلى فكتور  
باروكاند (Victor Barrucand)  
التواريخ 1904 / 1933  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 13 X  
من 1 إلى 224  
كان فكتور باروكاند (1864 - 1934) صحفيا

من 1 إلى 3  
التاريخ الإداري: كان رين ضابطا للمكاتب  
العربية ثم رئيسا للمصلحة المركزية في  
الشؤون الأهلية (1838 - 1905).  
تقديم المحتوى: تحتوي الذخيرة على قصاصات  
صحفية تتعلق بنشاطه  
**5X** ذخيرة بولوني (Boulogne)  
التواريخ 1891 / 1932  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 5 X  
من 1 إلى 12  
كان بولوني مستشارا للحكومة فمديرا  
للأشغال العمومية ثم مديرا لأقاليم الجنوب  
من 1901 إلى 1925.  
تهم الذخيرة أساسا المسائل الاقتصادية.  
**6 X** نسخ ووثائق مختلفة  
التواريخ القرن السادس عشر / القرن التاسع عشر  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 6 X  
من 1 إلى 20  
وثائق تعود إلى ما قبل 1830 وتخص الحكام  
العامين الأوائل.  
**7X** مخطوطات ومستنسخات ومختلفات  
التواريخ 1788 / 1951  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 7 X  
من 1 إلى 27  
ذخيرة متنوعة جدا (مخطوطات عربية،  
مراسلات لاللي طولندال (Lally Tollendal)،  
بحث موليفر (Molièvre) حول منقلي إفريقيا  
لسنة 1852، الخ).  
7X1 كتابات حول الخيل  
7X20 مخطوطات عربية عثر عليها في بئر  
تيشيت وقد جلبها م. واترلو (M. Waterlot).  
الذي توفي عام 1935 وقد كان مكلفا بمهمة.  
وهذه المخطوطات سلمها لويس ماسينيون  
(Louis Massignon) لمتحف التاريخ الطبيعي  
بباريس سنة 1950. يتعلق الأمر بمصحف  
القرآن ونصوص خاصة بسير الأولياء كما أنها  
تضم كتابات في التصوف والفقهاء.  
7X24-27 مخطوطات عربية  
7X24 مصحف قرآن يعود تاريخه إلى 1870.

**9X** قصاصات الصحافة ودوريات  
**10X** مجموعة فيرو (Féraud): وثائق  
وتوقيعات خاصة عربية  
**11X** أوراق موتيلينسكي (Motylinski)  
(أ. دو كالاسانتي (A. de Calassanti)  
**12X** مجموعات هوري وفايول (Huré et)  
(fayolle)  
**13X** رسائل من المارشال ليوطي إلى فكتور  
باروكاند (Victor Barrucand)  
**14X** ذخيرة كوفي (Cauvet)  
**15X** ذخيرة بوتان (Boutin) وذخيرة غوتيه  
(Gautier)  
**18X** مجموعة ميرل (Merle)  
**19X** ملفات سو كارت (Socart)  
**20X** مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية  
**21X** مجموعة طوما (Thomas)  
**22X** معهد الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية  
للجزائر العاصمة  
**23X** ذخيرة إيزابيل إيبرهاردت (Isabelle  
Eberhardt)  
**26X** ذخيرة بيتروس بوريل (Pétrus Borel)  
**29X** تداريب تلاميذ المدرسة الوطنية للإدارة  
**30X** اللجنة المكلفة بوضع برنامج الإصلاحات  
السياسية والاجتماعية والاقتصادية لصالح  
مسلمي الجزائر الفرنسيين  
**31X** مخطوطات إميل درمنغام (Emile  
Dermenghem)  
**32X** أشعار ألبير لانتان (Albert Lentin)  
**IX** أوراق إسماعيل أوربان (Ismaël Urbain)  
التواريخ 1838 / 1879  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 1 X  
من 1 إلى 24  
كان إسماعيل أوربان ترجمانا عسكريا وملهم  
السياسة العربية لنابليون الثالث.  
تشتمل الذخيرة على مراسلات مع أعيان  
ذلك العصر.  
**3X** أوراق لويس رين (Louis Rinn)  
التواريخ 1855 / 1904  
الرقم المرجعي FR CAOM GGA 3 X

الإسباني والموقف الإسباني بصدد طنجة،  
1942-1931.

81F1009 مذكرة حول القضية المغربية  
أنجزتها لجنة تحرير المغرب العربي، 1954.

### وثائق تتعلق بالصحراء المغربية

وثائق إفريقييا الغربية الفرنسية في داكار  
(نسخة مصورة على شكل ميكروفيلم بإيكس  
أون بروفانس)

9G17 أولاد بوسباع

9G18 أولاد دليم، أولاد با عمر، وادي

الذهب، 1921

9G22 قبيلة لوديكا، تكنة، واد نون 1929  
- 1942

9G26 ماء العينين، أهل طالب خيار، 1930  
- 1942

9G35 التخوم الجزائرية المغربية، 1928-1943  
9G42 رثييات الساحل 1942

9G43 أهل ماء العينين، 1942، أهل طالب  
خيار، 1930 - 1942

9G44 قبيلة لبيدات

9G50 الرثييات 1927 - 1937

9G63 المغرب، نزوحات، 1925 - 1932

9G67 المغرب، تهريب السلاح، 1939،

أغادير، تلغراف، 1921، أهل ماء العينين،

1925، التخوم المغربية، 1929، فخذات

قبائل إيدا أو بوسات، أهل طالب خيار،

1930 - 1942

9G69 المغرب، تهريب السلاح، 1939،

رثييات الساحل 1928 - 1929، الصحراء

الغربية، 1935، التخوم الجزائرية المغربية

1928 - 1934، أهل طالب خيار، 1930 -

1942

9G71 المغرب، تهريب السلاح، 1939،

أهل ماء العينين، 1931 - 1932، منطقة

إيفني، 1942، أهل طالب خيار، 1930 -

1942، الصحراء الإسبانية، الحدود، 1947،

أولاد بوسباع.

9G78 مراکش، المكتب الجهوي، 1922،

بعثة طنجة، 2 يوليوز 1845، رسائل  
مختلفة، 1845 - 1864.

21X31 وثائق خاصة بمعاهدة تفنة .

23X12 أناشيد الصحراء، جمعها إ. I.E .

31X مخطوطات إيميل ديرمينغم (Emile)

(Dermenghem)

التواريخ 1909 / 1956

الرقم المرجعي FR CAOM GGA 31 X

من 1 إلى 20

هي مخطوطات وملاحظات لإيميل ديرمينغم

تتعلق بأعراف الجزائر الدينية وكذا الأدب

الشعبي القبائلي.

31X4 كُدرة كُوليمين، الجنوب المغربي.

أوراق كربوسيا (Carbuccia)

التواريخ القرن العشرون

الرقم المرجعي FR CAOM 34 EVEOM 1

مخطوط لمؤلف الجنرال ج.ل. كربوسيا

بعنوان «في الجمل بصفته من الدواب»

ذخيرة فيرال (Féral)

التواريخ 1935 / 1937

الرقم المرجعي FR CAOM 48 EVEOM 1

يتعلق الأمر بتقريرين عن مهمة جوية غرضها

التعرف على الحوض (السودان)

وزير الدولة المكلف بالشؤون الجزائرية 81F،

مركز أرشيف ما وراء البحار CAOM،

إيكس أون بروفانس.

81F158 حوادث بالحدود، 1960-1962

81F647 أحداث المغرب الإسباني، 1937

81F953 اتفاقيات عسكرية 1955-1957

81F967 التخوم الجزائرية المغربية،

1893 - 1904

81F968 كولومب بشار وتافيلالت

1907 - 1939

81F969 تعيين الحدود 1901-1902، قضية

مارشيك 1906-1911، الوضع السياسي

بالمغرب، 1901-1914

81F1000 العلاقات الفرنسية الإسبانية،

أخبار ومعلومات حول الوضعية في المغرب

بمدينة الجزائر من 1900 إلى حين وفاته.

وتخص هذه الرسائل إيزابيل إيبهراردت

(Isabelle Eberhardt) بالأساس.

14X ذخيرة كوفي (Cauvet)

التواريخ حوالي 1880 / 1920

الرقم المرجعي FR CAOM GGA 14 X

من 1 إلى 8

كان كوفي ضابطا للشؤون الأهلية وقد كانت

الصحراء مجال نجاحه في مهنته من 1881

إلى 1920.

ملاحظة : رسائل الجنرال لابرين (Général

Laperrine) والنقيب بين (Capitaine Pein).

20X مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية

التواريخ 1955 / 1957

الرقم المرجعي FR CAOM GGA 20 X

من 1 إلى 12

يتعلق الأمر ببحوث استكمال التكوين

بمركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية

(CHEAM). وتهتم في الواقع كل

الإمبراطورية الكولونالية الفرنسية.

ونصوص المحاضرات التي قدمت لمتدربي مركز

الدراسات العليا للإدارة الإسلامية محفوظة في

السلسلة الفرعية 10 للأرشيفات الخاصة المحفوظة

بدورها في مركز أرشيف ما وراء البحار.

20X11 ج. ريشارت (J. Richarte)، حفلات

وأعياد وأعراف موسمية لدى المهاودة، 1949.

21X مجموعة طوماس

التواريخ القرن السابع عشر / 1870

الرقم المرجعي FR CAOM GGA 21 X

من 1 إلى 34

وثائق متنوعة تتعلق بنشاط شخصيات

مختلفة ترتبط بتاريخ الجزائر (دوكين

(Duquesne)، الفدائيون، عبد القادر،

الدوق دومال (Duc D'Aumale)،

بلانكي (Blanqui)، بي جو (Bugeaud)،

إلخ.)

21X23 جال لاروي (Gal La Rue)،

نسخة، رسالة إلى الجنرال دوما (Dumas)،



السمارة إبان هجوم موري 1913، ويظهر المدفع الذي أرسله السلطان للشيخ ماء العينين

غزو البرابش المنشقين، تقرير مهمة بونامي 1917، (Bonamy)، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية، 1420، الملف 3. النتائج القبلية لمعركة القطارة، تقرير م. فوش (M. Fauche)، تنبكت، 10 فبراير 1923، مهمة كاير (Kair)، العدد 100، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية، المحفوظة 3054. د. دانفرويل دو لاسال (Dr d'Anfreville de la Salle)، «المغاربة بإفريقيا الغربية» الاستعلامات الكولونيالية 1905، BCAF، RC. متاجرة المغاربة وخاصة التيجانيين مع زملائهم السينغاليين، الأرشيفات الوطنية السينغالية Q28، ANS، مركز أرشيف ما وراء البحار، 14mi 1546، أنظر أيضا

رسالة حول موغادور في الخامس من فبراير 1885، مركز أرشيف ما وراء البحار، السينغال 6، الملف 17. تقارير فنيصل فرنسا بموغادور حول الطرق التجارية موغادور، تيندوف، تنبكت، MAE، CCC، موغادور، 1881 - 1888 الجزء السابع. ر. بوتتي (R. Butet)، «حول طريق النيجر، القصة الغربية لتاجاكنت»، لافيغي ماروكين، 7 مايو 1934 و 10 مايو 1934. أ. لوجيل (A. Laugel)، «تاجاكنت قواد قوافل الصحراء»، نشرة اتصال صحراوية، T.X، عدد 36، دجنبر 1959. الملازم الأول لباريير (Lt Labarrière)، «تندوف وتاجاكنت»، العدد P'AFR.C، السابع، 1926، ص ص. 320 - 323.

موريتانيا حركة معادية للأجانب، 1933، مختار ولد خطري 1923 9G89 المغرب، العلاقات مع موريتانيا، 1918 - 1935، ماء العينين، الخضوع للمغرب، 1925، قبيلة إزرقين، 1934 - 1935، وفد تكنة إلى سان لويس، 1929، نهاب وادي الذهب، 1933، أولاد بوسباع. الملازم الأول كارون (Lt Caron) «الوضع السياسي لمنطقة الشمال» (تنبكت، 1896، ANS، 15G213، CAOM، 14 MIOM (1055). (أرشيفات السينغال الوطنية: ANS) الزاوية الناصرية لعروان، ورد في تقرير حول الطرق الإسلامية، على يد قائد الفيلق دانجو (Dangeaud) وقد أرسله إلى حاكم كايس (Kayes)، تنبكت بتاريخ 1896-12-30، أرشيفات مالي الوطنية، FA 4E76



وثائق حول المقاومة بالصحراء  
بأرشيف إيكس أون بروفانس

BCAF، 1894، N°  
تعلق سكان تنبكت بالسلطان المغربي،  
رسالة وزير المستعمرات إلى وزير الشؤون  
الخارجية، باريس، 21 شتبر 1896، مركز  
أرشيف ما وراء البحار، السلسلة الجغرافية،  
إفريقيا، الملف 30. (مقتطف: «أن يوجد  
المرء معزولا عن أقاليم إفريقيا الشمالية من  
قبل قبائل مستقلة إلى هذا الحد أو ذلك لكن  
تعترف مع ذلك من جنوب المغرب وحتى  
تنبكت بالسلطة الإسمية لسلطان المغرب».)  
بعثة المولى إدريس في الأدرار، تقرير  
سياسي عن أعالي السنغال النيجر، كاييس  
(Kays) في 14 دجنبر 1906، الأرشيفات  
الوطنية السنغالية، 14mi 1639  
تأثير الزوايا المغربية، تقرير سياسي تنبكت،  
أبريل 1897، الأرشيفات الوطنية السنغالية،  
15G 213، CAOM، 14mi 1055  
اغتيال كوبولاني وماء العينين، مركز أرشيف  
ما وراء البحار، ذخيرة أرنو، 75APOM8،

حول الشبكات الصحراوية، 1957، بطاقة  
تاجاكت، مركز أرشيف ما وراء البحار،  
الشؤون السياسية، C.2261، الملف 7.  
«كبرياء الكتي»، لأفيجي ماروكين، 13 مايو 1934.  
Times of Morocco ذكره شارل فيرو  
(Ch. Féraud)، رسالة من فيرو وزير فرنسا  
بطنجة إلى وزير الشؤون الخارجية م. فريسيني  
(M. Freycinet)، طنجة في 8 مارس  
1886، مركز أرشيف ما وراء البحار، السلسلة  
الجغرافية، السنغال وملحقات IV، الملف 85c  
من الجدير بالذكر أن غزوات القبائل الصحراوية  
وصفت بالغزوات المغربية في الأرشيفات  
الوطنية لمالي، ANM، F.A، 1D23،  
اضطرابات بين الرغيبات وتاجاكت وتدخل  
المخزن، الأرشيفات الوطنية لمالي، 15G221  
ANS، 1058، 14 mi، 1055، 14mi  
15G213  
«بعثة لسكان من تنبكت إلى المغرب»،  
BCAF، N°4، avril 1894 و«وفد تنبكت»

مركز أرشيف ما وراء البحار، السلسلة  
الجغرافية، السنغال VI، الملف 17.  
تجار مغاربة في السنغال، مركز أرشيف ما  
وراء البحار، السلسلة الجغرافية، السنغال  
والملاحق XIII، الملف 5، غرفة التجارة بسان  
لويس، 11 مارس 1884 و 20 يناير 1886.  
تجنيسات المغاربة، مركز أرشيف ما وراء  
البحار، الشؤون السياسية، C.542، الملف 1.  
اليد العاملة المغربية لأجل مهمة بورنييس  
ديبور (Borgnis-Debord)،  
1880 - 1880.8 يونيو 1880، الأرشيفات  
الوطنية السنغالية، السلسلة D، السلسلة الفرعية  
1D، 1D57، مركز أرشيف ما وراء البحار،  
14mi246، 1D63، 14mi249 أنظر أيضا  
تشغيل المغاربة في السكة الحديدية، سان  
لويس، فاتح فبراير 1883، الأرشيفات  
الوطنية السنغالية، السلسلة O، O57،  
مركز أرشيف ما وراء البحار، 14mi 1319.  
مهمة قائد الفيلق كاردير (Cardaire)

الغزوات المغربية، 1913، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية، المحفظة 159 والأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 2G16 / 7، CAOM، 14mi 1681 مراقبة أهل طالب مختار من قبيلة ماء العينين، أنظر التقرير السنوي للدورة الأولى من سنة 1913، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية. المحفظة 159. معركة تاوديني، 1919، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 2G19 / 4، CAOM، 14mi 1690، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية، المحفظتان 159 و 542، الملف 2. غزو ركييات لكؤاسم والساحل في 1922، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 2G22، 14mi 1697، Caom، مقاومة الرحل والسياسة الفرنسية، تقرير أعالي السنغال النيجر، الدورة الثالثة من سنة 1917، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 2G17 / 8، CAOM، 14mi 1684 كذلك، ANS 2G18 / 3، CAOM، 14mi 1687 الغزوات المغربية لأدرار إيفوراس كما حكاها غزاة سنة 1937، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 2G28 / 9، CAOM، 14mi 1718 الإبل والأمراض: تقرير م. دمبو، مهمة كي، رقم 104، 1922 - 1923، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية. المحفظة 3045. أضرار الجفاف الفادحة (لاسيما بالنسبة إلى الإبل)، تقرير أعالي السنغال النيجر للدورة الرابعة من سنة 1913، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية، المحفظة 159. علاقات إفريقيا الغربية الفرنسية مع البلدان المجاورة، نشرة بلا تاريخ، جدول واردات وصادرات إفريقيا الغربية الفرنسية مع بلدان إفريقيا الشمالية سنة 1933، مركز أرشيف ما وراء البحار، وكالة فرنسا ما وراء البحار FOM وإفريقيا الغربية الفرنسية، الملف 12، المحفظة 125.

أنظر كذلك مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية، المحفظة 542، الملف 2. غزو الركييات بعروان سنة 1904، التقرير السياسي لدائرة تنبكت، مارس 1904، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 2G4 / 14، CAOM، 14mi 1634 س. شارلي (C. Charlet)، معلومات حول الغزوات المغربية في الأدرار وأزواد من مارس إلى نونبر 1912، مركز أرشيف ما وراء البحار، أوراق أرنو، 2، 75APOM، السجل 5. الملازم الأول لامول (Lt Lamolle)، ملاحظة حول الغزوات المغربية، أصلها وطرقها، نيامي في 10 يناير 1907، الأرشيفات الوطنية لمالي، ذخيرة قديمة، ID23، تاجاكت والركييات، التقرير السياسي أعالي السنغال النيجر HSN الدورة الأولى من سنة 1908، الأرشيفات الوطنية السنغالية، ANS، 2G8، CAOM، 14mi 1645 العلاقات الاقتصادية بين المغرب وإفريقيا السوداء، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 15G221، CAOM، 14mi 1058، 14mi 1055، 15G 214، 14mi 1056، 15G 213، أنظر أيضا ذخيرة أرنو، 6، 75APOM، السجل 13. مغاربة في إفريقيا السوداء، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 20G 20، CAOM، 14mi 1108 إحصاء تقريبي للسكان الفرنسيين والأجانب في إفريقيا الغربية الفرنسية، 1910، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 22G23، CAOM، 14mi 1109 من تندوف إلى تنبكت، تاجاكت، مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية، C. 2261، الملف 7. وسطاء من تكتة بتنبكت، الأرشيفات الوطنية السنغالية، ANS، 15G 220، CAOM، 14mi 1058

السجل 17 و 6، 75APOM، السجل 13. 75APOM 6، تقرير للنقيب كاربو (Cap Carbou) حول الغزو المضاد في دائرة ولاتة ضد الركييات وأولاد دليم، 1917 - 1918. علي محمود زعيم المشاديف. 75APOM 6 الرائد بيتريكس (Cdt Bétrix)، احتلال الأدرار. احتلال بلاد كوننة وتنظيمها. 75APOM 7 لجنة المغرب، وثائق سلمت لأرنو حول مسار رقااص من موغادور إلى واد السمارة ومن واد السمارة إلى الأدرار. قضايا مغربية وموريتانية. النشاط المغربي فيما وراء أقصى الجنوب المغربي، 1907. 75APOM 8 الجزء الحادي عشر مقدمة لدراسة سياسة البيضان بالساحل، من إنجاز المحافظ آدم (Adam) عام 1900. دراسة النقيب مانجو (Cpt Mangeaud) الرامية إلى تنظيم الحوض، 1912. 75APOM 9 ملاحظات حول ماء العينين، 1897 - 1910. مهمة أرنو في المغرب، مراسلات، ملاحظات، مقتطفات من الصحافة، 1907. ديوان شعر للبيضان، 1905. 75APOM 44 ملاحظات حول ج. هاردي (G. Hardy). تعتمد القبائل الصحراوية والسودانية على السلطان المولى عبد الحفيظ لطرطد الفرنسيين. أنظر التقرير السياسي حول أعالي السنغال النيجر في الدورة الأولى من سنة 1908، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 2G8 / 1، CAOM، 14mi 1645 صلات بين امحمد ولد امحمد الأزواد والسلطان، انشقاق البرابش وكوننة، استقرار امحمد ولد امحمد بالجنوب المغربي، التقرير السياسي للرائد غولدسكوين (Cdt Goldscoen) 10 أكتوبر 1897، الأرشيفات الوطنية السنغالية ANS، 15G213، CAOM، 14mi 1055، 14mi 1655، 2G10 / 16، 2G10 / 17، 14mi 1655، 14mi 1655

خضوع السكان الصحراويين والسودانيين  
لسلطان المغرب، الوضع الإسلامي  
بالسينغال، تقرير الحاكم العام لإفريقيا  
الغربية الفرنسية إلى وزير المستعمرات، 5  
مايو 1915، مركز أرشيف ما وراء البحار،  
الشؤون السياسية، المحفظة 1433.

من ليوطي إلى الحاكم العام لإفريقيا الغربية  
الفرنسية فيما يتعلق بمحمد الدويري، الرباط  
بتاريخ 14 نونبر 1925، الأرشيفات الوطنية  
السينغالية، CAOM، 17G58، ANS،  
14mi 2295

مولاي أحمد التبر، رسالة من النقيب دو  
تيس Cdt de Thiès إلى الحاكم العام  
بسان لويس، تيس، 6 نونبر 1931،  
الأرشيفات الوطنية للمالي 4E59، ANM،  
مجلة شهرية باللغة العربية: السلام، تطوان  
ومراقبة الوطنيين المغاربة، التقرير السنوي  
للإدارة العامة للحاكم العام لإفريقيا الغربية  
الفرنسية، 1935، مركز أرشيف ما وراء  
البحار، لجنة جرنوت (Gernut)، المحفظة  
59B33

السلسلة D ، السلسلة الفرعية ID :

عمليات عسكرية (1823 - 1920).  
1D57 / 14mi 248 رسالة من بوليف  
(Boilève) إلى حاكم السينغال حول انتقاء  
عمال مغاربة لأجل حملات 1881 - 1882،  
8 يونيو 1880.

السلسلة G : السياسة والإدارة العامة،  
1782 - 1920.

1G66، 14mi655 : معلومات حول  
النيجر حسب الحاخام مردوشي. ملاحظات  
للدكتور لينز، 1880.

1G66 14mi662 : مشروع رحلة م.

هوستان من السينغال إلى المغرب، ثلاث  
وثائق، 1890.

1G273، 14mi 680 : مهمة كورت

(Court) بجزر الكناري وإفريقيا الغربية  
الفرنسية، وهي خاصة بالعلاقات الاقتصادية  
مع المغرب، 1915.



بطاقة معلومات حول  
أحد أعيان الصحراء

الأرشيفات الوطنية السينغالية 152 / 2G33  
ANS، 14mi 2654 CAOM، ،  
تجنيس المغاربة، مركز أرشيف ما وراء  
البحار، الشؤون السياسية، المحفظات،  
1534، 1535، 1537، 1935 (يتعلق الأمر  
ببنجلون وعبد القادر بركة وإسحاق سرفاتي  
وآخرين).

رسائل متبادلة بين الجنرال ليوطي والحاكم  
العام لإفريقيا الغربية الفرنسية حول العلاقات  
بين التيجانيين السينغاليين والمغاربة،  
الأرشيفات الوطنية السينغالية 19G2  
ANS، 14mi 1084 CAOM،

رسائل مقدمي زوايا فاس ويطلبون فيها  
مساعدة مالية من الحاج مالك سي من  
تفوان لتوسيع زاوية فاس، فاس، دجنبر  
1913، الأرشيفات الوطنية السينغالية ANS  
14mi 1084، CAOM، 19G2،

السكان المغربية في داكار، مركز أرشيف ما وراء  
البحار، وكالة فرنسا ما وراء البحار، المحفظة  
395، خاصة إحصاء 1928 ويوليو 1931.  
مولاي محمد بن عثمان العلمي، الأرشيفات  
الوطنية السينغالية 17G70، ANS،  
14mi 2298 CAOM،

شروط إنزال المغاربة بداكار، من الحاكم  
العام لإفريقيا الغربية الفرنسية إلى وزير  
المستعمرات، داكار، بتاريخ 29 نونبر 1926،  
مركز أرشيف ما وراء البحار، الشؤون  
السياسية. المحفظة 527.

ثروة المغاربة، تقرير سنوي 1937، مركز  
أرشيف ما وراء البحار، الشؤون السياسية.  
المحفظة 159، الملف 6.

اعريب وتكنة وتاجاكتن يعتبرون مغاربة،  
النشرة الشهرية لاستعلام الدوائر التي لها  
علاقة بالمنطقة الصحراوية، أبريل 1933،

السلسلة الفرعية 15G : الشؤون السياسية والإدارية والإسلامية، السودان، 1820 - 1921.

الملح، 1921 - 1942. 15G4/14 mi 2269، تاوديني، أزلاي

المنشقون البرابيش، 15G7/14 mi 2269، من تنبكت، 1920 - 1924، دراسة حول القبائل العربية للملحقة تيزنيت (بلا تاريخ)، تكتة، آيت لحسن بسان لويس، 1924.

15G20/14 mi 2274، أسرى تاماكست المغاربة (1928) أثناء اعتقالهم بساساندره، ساحل العاج. لوائح، إرجاع إلى الوطن. 1935 - 1936. سي مولاي محمد الوزاني، ولي صالح مغربي، 1938 - 1939.

السلسلة الفرعية 17G : شخصيات مشتبه فيها، 1925 - 1937. 17G58/14 mi 2259، العربي الدويري (1925 - 1926).

17G70/14 mi 2298-2298، مشتبه فيهم: - الشريف مولاي محمد بن عثمان العلمي، 1935 - 1936.

- مولاي أحمد طاب 1932 - 1932. محمد بن نبية، 1930 - 1932.

السلسلة الفرعية 21G : الشرطة والأمن. المناوشين السنغاليين المغريبات إلى إفريقيا الغربية الفرنسية (1914 - 1946).

21G32/200 mi 3029، أشخاص مشتبه فيهم، عبد الكريم بن محمد بن إيسافو (الصافي) بن جلون، 1930.

21G38/200 mi 3032، الشريف مولاي محمد بن عثمان العلمي، 1935.

21G105/200 mi 3051، مختار الديوري، مندوب الحملة في سان لويس، 1937 - 1938.

21G133/200 mi 3064، مروجو دعايات مشتبه فيهم (1922 - 1923) عبد القادر الصغير، مغربي).

871 mi 12G16/14، الصحراء، سكارنة، أولاد دليم، شرطة الصحراء، غزوات، 1905 - 1914.

اعتقال أحمد البكاي المشتبه في أنه أخ عابدين الكونتي، 1911، غزوات قادها أبناء الكنتي، 1910 - 1912.

12G15/14 mi 2221، أسرة زعيم كونتة عابدين ولد الشيخ. طلب أبناء عابدين الأمان، 1914 - 1930.

12G21/14 mi 2225، حجز 24 فردا من الرحل أسروا في أكتوبر 1928 في معركة تامكاست (السودان الفرنسي). مشروع إعادتهم إلى وطنهم، وهو من تخطيط قائد التخوم الجزائرية المغربية، 1927 - 1931، 1933 - 1937.

12G30/14 mi 2230، المغرب، إقرار السلام في الأطلس الصغير (مايو 1929)، مارس 1930، دجنبر 1933، ابريل 1934).

12G31/14 mi 2230، طلب معلومات حول تركة الشريف محمد المنحدر من المغرب والمتوفي في مدينة الكولاك (1904).

12G36/14 mi 2236، «تقرير عن مهمة إلى جزر الكناري وإفريقيا الغربية الفرنسية قصد ضمان مشاركة هذه المستعمرة في

المعرض الفرنسي المغربي» وقد حرره المحافظ كورت، رئيس بلدية الدار البيضاء في 25 غشت 1915. ملاحظة كورت بصدد

مهمته في المغرب (يوليو 1924): مهمة تشغيل عمال مغاربة مؤهلين؛ علاقة المغرب الاقتصادية مع الغرب الإفريقي. الوضع العام في المغرب سنة 1924.

12G43/14 mi 2239، إطلاق سراح ستة من أهالي قبيلة دوي مينيا (1917 - 1925).

12G 57، السياسة المتبعة تجاه أولاد دليم والرؤيات وماء العينين، قضايا تخصص المغرب، 1913 - 1924.

12G59، المنظمات المشتركة للمناطق الصحراوية.

السلسلة الفرعية 12G : إفريقيا الشمالية والصحراء (1899 - 1920)

دراسات حول القضية الصحراوية وضمونها «النشاط الفرنسي فيما وراء أقصى الجنوب المغربي»، 1907، خرائط.

دسائس ماء العينين وبيروك، 1905. تحركات مغربية في موريتانيا، 1905 - 1909. ملف حول الصحافة المغربية.

شحن الأسود للمغرب. 12G4/14 mi 866 : العلاقات بين إفريقيا الغربية الفرنسية والمغرب، مواقف قبائل أقصى الجنوب المغربي، 1911.

إرسال وحوش إلى السلطان، 1917. تحركات مغربية في موريتانيا، 1916 - 1917. عمليات بالمغرب، 1916 - 1918.

12G7:14mi 867، بابا ولد عابدين الكونتي، استسلامه للسلطات الفرنسية، 1912 - 1914.

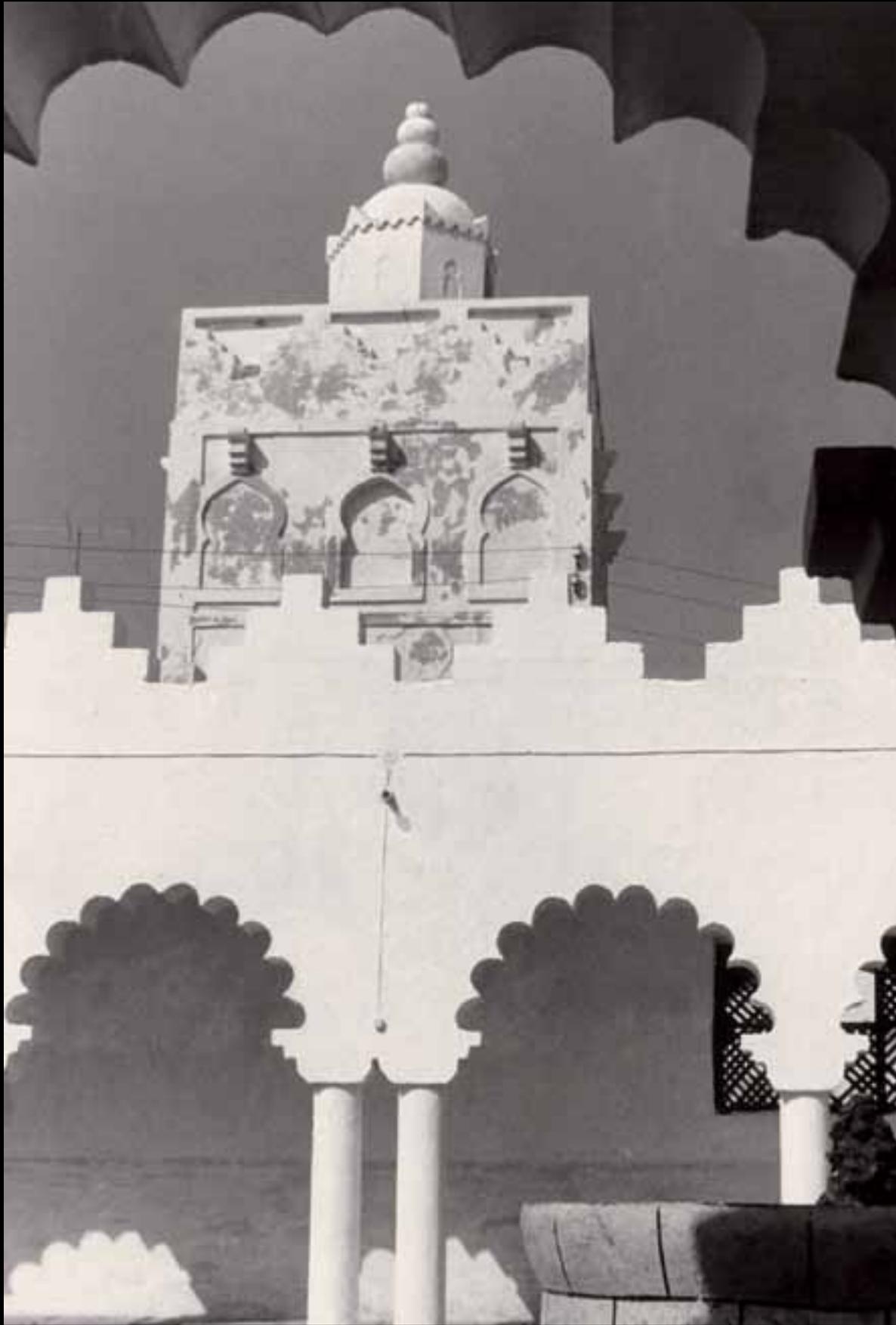


وإفريقيا الغربية الفرنسية. بعثات صحراوية، اتصالات بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا الغربية الفرنسية، 1926. المحفظة 544، الملفات 2 و 3 و 12، اتصالات بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا الغربية الفرنسية، 1923 - 1931. المحفظة 625، الملف 2، اغتيال النقيب أياس (Ct Ayasse) بتبنتك على يد المدعو إدير المتهم بالتجسس للمغرب، 1919، المحفظة 905 مكرر، الملفان 2 و 5، مهمة بونامي (Bonamy)، اتصال بين المغرب وإفريقيا الغربية الفرنسية، 1917 - 1923. المحفظة 1404، الصحراء، الشرطة الصحراوية، الشؤون العسكرية، اتصالات عبر الصحراء، 1913 - 1933. المحفظة 2261، الملف 7، مهمة الرائد كاردير (Cardaire) حول الشبكات الصحراوية، بطاقة معلومات حول الشبكات التجارية الصحراوية، حسان، تكنة، أهل ماء العينين، تاجاكنت، كونتة، الرئيبيات، 1957.

عامة لمستعمرات إفريقيا الغربية الفرنسية مخصصة لتهمي الوضعية العامة بإفريقيا الغربية الفرنسية، 1911. 29G29 / 14 mi 1110، إحصائيات عامة للمكتب الكولونيالي والوضعية الإجمالية لإفريقيا الغربية الفرنسية. ساكنة السينغال. موريتانيا، أعالي السينغال - النيجر، الساكنة والتعليم والعدالة الأهلية، التنظيم السياسي، 1914. الحالة المدنية (1797-1920) تجنيس المغاربة، الأرشيفات الوطنية السنغالية، 23G32 et 23G33، Q49 CAOM، 14 mi 1119 et 14 mi 1120، 14 mi 1554، ملف ميمون زنو وملف حفيظ بوغال، موسى كوهن، عباس زويتن، عبد القادر بنجلون، ابن أكنان. أرشيفات وزير المستعمرات السابق (ذخيرة ANSOM). السلسلة الجغرافية، إفريقيا IV، التوسع الترابي والسياسة الأهلية. إفريقيا IV، الملف 30: المغرب 1886 - 1897. - تحركات المولى إسماعيل (1891 - 1893). - العلاقات مع السودان، (1894 - 1896). - مراسلات مختلفة (1886 - 1897). إفريقيا IV، الملف 31: المنطقة الساحلية لجنوب المغرب (1892 - 1898). - استعلامات عامة. - تحركات الأنجليز في رأس جوبي (Cap Juby). إفريقيا V، الملف 1، حملات عسكرية، 1909 - 1919. غزوات واضطرابات في التخوم الصحراوية، 1912 - 1919. إرساء السلم في المغرب والملاحق IV، الملف 85، الحملة، رحلة الحاج عبد القادر إلى فرنسا. السينغال والملاحق IV، الملف 85، C - رحلة الحاج عبد القادر إلى سان لويس. السينغال والملاحق XIV، الملف 25، b - الهجرة المغربية، 1894. سلسلة الشؤون السياسية، المحفظة 518، الملفات 22 و 23. اتصالات بين المغرب

السلسلة الفرعية 23G : الحالة المدنية 23G28 / 200 mi 3227، الحالة المدنية للمغاربة المقيمين في إفريقيا الغربية الفرنسية، 1936 - 1942. 15G215 / 14 mi 1057، وثائق تخص الولي الصالح العابدين، 1894 - 1896. مختلفات. 15G217، 14 mi 1057، حركة البرابيش، 1907 - 1913. السلسلة الفرعية 19G : الشؤون الإسلامية، إفريقيا الغربية الفرنسية. 19G1 / 14 mi 1084، مراقبة تحركات المغاربة والبيضان في إفريقيا الغربية الفرنسية، 1913. تقارير حول الطرق الدينية في إفريقيا الغربية الفرنسية، 1915. 19G2 / 14 mi 1084، مراسلات بين تيجاني فاس وإفريقيا الغربية الفرنسية، 1913 - 1914. 19G4 / 14 mi 1084، مراقبة المشتركين في إصدارات عربية، لوائح، 1908. مراسلة في موضوع أمر كتابي للحاج مالك سي دي تيفاوان ليدرج ضمن جريدة «السعادة» المغربية. نص الأمر الكتابي، 1913. التوصل برسائل مصورة مبعوثة من المغرب، 1915. جرائد. 19G5 / 14 mi 1085، تقرير مفتش التعليم الإسلامي إلى الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية حول عبد الكريم مراد، داكار، 9 يناير 1909. مراسلات مختلفة حول عبد الكريم مراد، 1911. 21G36 / 14 mi 1100، مراقبة الأجانب. الهجرة، 1904 - 1914. مراقبة الأجانب، إبعادات، 1905 - 1925. 21G38 / 14 mi 1100، لائحة الأجانب المقيمين بإفريقيا الغربية الفرنسية، 1918 - 1920. 22G 22G24 / 14 mi 1109، إحصائيات





مسجد الداخلة القديم





# المشاركون

- برنابي لوبيث غارسيا، أستاذ بجامعة مدريد المستقلة، إسبانيا.
- فاتوماتا ديارا سيسي، محافظة الأرشيف بمؤسسة أرشيف السينغال، السينغال.
- الجيلالي العدناني أستاذ باحث بجامعة محمد الخامس أكادال الرباط، المغرب.
- خيسوس مارتينيث ميلان، أستاذ بجامعة لاس بالماس، إسبانيا.
- يوسف أكدير، أستاذ باحث بجامعة ابن زهر في أكادير، المغرب.
- بابكر ندياي، مدير أرشيف السينغال، داكار، السينغال.
- أنجيلا هرنانديث مورينو، أستاذة بجامعة مورسيا، إسبانيا.
- ألبرتو لوبيث بركادوس، أستاذ بجامعة برشلونة، إسبانيا.
- عبد الرحمن نكايدي، أستاذ مساعد بجامعة الشيخ أنتا ديوب في داكار، السينغال.
- بيير بونت، مدير أبحاث بالمركز الوطني للبحث العلمي، فرنسا.
- سيني موموني، رئيس قسم المخطوطات في جامعة نيامي، النيجر.
- سيدي أحمد ولد أحمد سالم، مركز الجزيرة للدراسات، قطر.
- رحال بوبريك، أستاذ باحث، جامعة محمد الخامس، أكادال، الرباط.
- خوسي أنطونيو رودريغيث إستيبان، أستاذ بجامعة مدريد المستقلة، إسبانيا.
- عبد الكريم مدون، أستاذ باحث بجامعة ابن زهر في أكادير، المغرب.
- أحمد جوماني، مدير قسم الثقافة والاتصال بوكالة الإنعاش والتنمية الاقتصادية والاجتماعية لأقاليم جنوب المملكة، المغرب.
- أحمد سكوتتي، أستاذ باحث بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث في الرباط، المغرب.
- رحمة ميري، رئيسة مصلحة التراث الثقافي غير المادي بوزارة الثقافة، المغرب.
- فرانسيسكو فريير، باحث مشارك بجامعة نونا بلشبونة، البرتغال.
- آن ماري بريسبار، مديرة أبحاث شرفية بمختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية، المركز الوطني للبحث العلمي، فرنسا.
- كورين فورتيه، مكلفة بالبحث بمختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية، المركز الوطني للبحث العلمي، فرنسا.
- محمد دحمان، أستاذ باحث بجامعة ابن طفيل في القنيطرة، المغرب.
- خالد الشكراوي، أستاذ باحث بمعهد الدراسات الإفريقية في الرباط، المغرب.



Achever d'imprimer



